هَاني الراهب

الوباء

رواية

دار الآداب

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الثانية ١٩٨٨

القسم الأول

الشمس تغرب

كان المكان جميلاً. ربما أجمل ما في الذاكرة، وبالتأكيد أجمل مكان في القرية. ومنذ عهد غاب عن الذاكرة، خصصه الأهالي مثوى لموتاهم. لذلك انتشرت حول الصومعة الأزهار البرية النضيرة، والقبور: بعضها أضرحة حجرية مزينة بشواهد، وتحمل أسماء من سبقوه، بعضها بالكاد علا عن الأرض، وكثيرها أمّسح واندثرت علاماته فنبتت منه الزهور. وكانت الأنسام تهب على المكان وتسرح بين مساكنه، ثم تمضي باتجاه القرية حاملة للأحياء رهبة وتذكاراً. الصومعة: شمالاً، تحدها سنديانة ضخمة وقوس من الأرض يتدلى حتى الغابة القريبة. إلى الشرق يمتد الدرب الأعرج باتجاه وادي الرميم والغابات الجبلية البعيدة. جنوباً، تهبط الأرض وتتداغل حتى النهر الكبير. وإلى الغرب كروم التين والطريق، والحارة الشرقية.

الشمس تغرب. وراء فسحة مربعة بين كتلتين من الجبال تنزل وكأنها لا تنزل. تزداد حمرة في انحدارها الوئيد. تتوهج مثل قرص من الدم يغلي ويتلاشى فوق قدر البحر دون أن يبخر. تصل إلى الخط الفاصل بين شفة البحر وشفة السماء فتبدو في حجمها الأضخم، المثير للروع، السابق للموت. منها تنث شعاعات أخيرة، تمسح وجه الماء، تخترق السهل إلى الجبل وتكبو عند سفوح التلال. والتلال تعلو فتنشىء قمماً، تختفي فتصير ودياناً، ثم تتعامد مع سطح البحر كأن الطبيعة قد شهقت ذات يوم وظل فمها فاغراً.

قبل عشرة أعوام أشار إلى أنه آثر صحبة الموتى. ومضى إلى الصومعة ـ هناك على سطح موجة ترابية نهدت من رأس القمة المستوي. قال الأهالي لقد اكتمل السر والبرهان، فها هو ذا يزداد قرباً من الله وبعداً عنهم. وازدادوا اتضاعاً في حياتهم الدنيا، إذ لبسهم إحساس متجدد بالخجل من قدرته على تجاوز الحياة ومصاحبة الموتى، ومن عجزهم عن ترك متاع الغرور. قالوا ان قصعة لا بد وأن تنزل إليه من السماء، تعين روحه على جسده وجسده على روحه. وقالوا انها نزلت.

لذلك لم ينفعل حين سمع أن حرباً من نوع لم تعرفه البشرية قد قامت. كانت الأخبار قليلة، تصل إلى الشير متعبة وبطريق الخطأ. لكنه عرف أنها حرب كونية، انها قد تلتهم الأخضر واليابس، وتحصد ملايين البشر، بل وتصل إلى صومعته ذات يوم. الا أن مواعيده اليومية لم تضطرب. استمر يتابع الشمس ويحدد تحركاته بتحركاتها: ينهض عندما تنهض، يدور في الفلوات عندما تدور في السماء، ويغرّب باتجاه القرية إذ تغرب، ويثوي في الصومعة الصامتة بين القبور إذ تثوي.

ذلك اليوم، والشمس ما تزال عالقة بذيل السماء، خرج كالعادة من مقامه ومضى نحو القرية. كان أبيض كله، شعره ولباسه وخفّاه ومسبحته. وكانت عيناه سوداوين.

عندما شارف الحارة الشرقية تراكض الأطفال في الأزقة، وسرى النبأ كالنار في الهشيم: الشيخ جاء. تدفق الرجال إلى الطريق الرئيسية، ووقفت النساء على عتبات البيوت. لكن الأطفال ظلوا حائرين: خلال ثوان انسدت بوجوههم الطريق الرئيسية. لذلك انسلوا هنا وهناك وكانوا الخفقة الوحيدة في السكون المهيب.

أول الرجال، أسعدهم، تقدم من الشيخ وقبّل يده. وتراجع بسرعة السنجاب. هنيهات وإذا المشهد يعتكر

بالحركة. ما عاد أحد ينتظر الدور. تجمهروا. تدافروا. بعضهم وقع أرضاً. وبعضهم فاتته الفرصة. وغادرت النساء مواقعهن. وقرر الشيخ أن الوقت قد حان ليتوقف، فالحركة أمست لا تطاق.

توقف. توقفوا. انفضوا عنه. تحلقوا حوله. وهيمن على الحارة سكون شبيه بسكون الصومعة والقبور، ما لبث أن انبث في الحارة التالية، والتالية. عندها انفكت أصابعه عن المسبحة. ارتفع ذراعاه ببطء حتى استويا. تدلت منهما اليدان. مشى.

هكذا خفتت الحركة. اقتربوا منه بلا صوت ليقبلوا يده. كأنهم يقدمون للمعبد طقوس الولاء، نوعاً من التكفير عن أنهم ما زالوا على قيد الحياة. سوى أن الشيخ بدا على وشك أن يطير، مخلفاً وراءه الصمت والسكون.

في أوائل القرن الثامن عشر، كانت أملاك آل السنديان على مد الرؤية - من سطح جبل الشير وحتى البحر. وكان شيخهم يرتدي عمامة بيضاء وقنبازاً أبيض، ويمشي على الدروب أمام عشرة أبناء أشداء ولدتهم زوجتان فقط. وطيلة ساعات اليقظة كان العشرة متمنطقين بخناجرهم المرهفة المفزعة. كان ثمة ملاك آخرون، لكنهم جميعاً استظلوا بظلة شيخ السنديان، ليس فقط لسعة أرضه وعائلته، وإنما أيضاً لمكانة دينية ورثها كابرا عن كابر كحافظ للشريعة وقيّم على أخلاق الناس.

في ذلك الزمن السلحفاتي، قدمت إلى الشير جماعة غريبة لا يعرف أصلها من فصلها. قيل ان المكان الذي هاجرت منه بعيد بعيد، يستغرق الوصول إليه أربعة أيام بسرعة الحمار. لم يذق أحد من مجيئهم نكهة غير مألوفة، فمثل تلك السياحات كان جزءاً من طبيعة العيش. هؤلاء أيضاً كانوا رجالاً أشداء. وبعد أن اشتروا شيئاً من الأرض، صار القرويون يخافون بأسهم. لكن شيئاً واحداً جعل القرويين ينظرون إليهم نظرة خاصة. لقد رافقتهم عنزة بنية اللون، وسكنت معهم في البيت الذي اشتروه. قيل انهم شربوا حليبها، وأكلوا جبنها، وجدلوا شعرها، وباعوا بعرها. ولم يمضِ غير وقت قليل حتى سماهم القرويون بيت العنز.

ذات يوم أقام آل العنز وليمة على شرف آل السنديان.

في المساء والقرية هاجعة الا أصوات كلابها، أقبل العشرة. مشوا عبر حارات القرية ثلاثة ثلاثة، يتقدمهم كبيرهم. وأمام المنزل استقبلهم نظراؤهم باحتفاء لا مثيل له. تناولوا منهم أرديتهم وأحزمتهم ثم قادوهم إلى غرفة الردى.

لم يعلم أحد علم اليقين كيف تم الأمر. سوى أن الليلة سميت ليلة الدم. الذي حدث أنهم وجدوا أنفسهم بغتة أسرى. ربطوهم بالحبال وشدوا وثاقهم. وبعدئذ أرسلوا إلى شيخ السنديان يطلبون حضوره ليشهد موت أبنائه.

وقيل إنهم أجلسوه على الأرض، على بساط أو حصير أو شيء ما. وقيل انهم ذبحوا أبناءه العشرة على فخذه، واحداً بعد الآخر.

بعد ليلة الدم أغار بيت العنز على أملاك الشيخ السنديان القريبة من المدينة، وأقاموا فيها. عدة سنوات مضت قبل أن يستطيعوا اجتذاب الفلاحين للعمل على الأراضي التي صارت لهم. وعندما استطاعوا أخيراً، كان الحرف الأوسط من كنيتهم قد سقط تاركاً تحسناً مدهشاً في معنى الاسم. وفي أوائل القرن العشرين كان الشيخ ابراهيم العز الفتى اللامع في العائلة. كان يمتطي جواداً متيناً جاءه من نجد، ويرمح به عبر التلال الخضراء والسهول الرمادية، رغم أنه كان مقيماً في المدينة منذ ولادته.

كان شيخ السنديان في السبعين من عمره. لم يبكِ. لم يتكلم. وتركوه يمضي.

في اليوم التالي لليلة الدم، نهض من نومه كأن شيئاً لم يحدث. ذهب إلى الحقول. صلى عند السنديانة العتيقة.

شاهد الفجر والشروق. شرب من ماء النبع. استمع إلى سقسقة العصافير. تأمل الأشجار طويلاً، وتلمس أقلام الزمهرير الناصعة المتدلية من أغصانها. وعندما اجتمع حوله فلاحوه، كان جالساً تحت السنديانة. أخبرهم أنه يريد أن يتزوج، وطلب النصيحة.

لقد أسعدهم أن يلبوا طلبه. وفي ذلك المساء تزوج فتاة في السابعة عشرة. وبعد تسعة أشهر ولدت زوجته ابناً. وبعد ستة عشر عاماً تزوج الابن للمرة الأولى. وبعد أربعين عاماً قتل الابن عشرة رجال أشداء من آل العنز.

عام ١٩١٦: وصلت الحرب العالمية الأولى إلى سورية.

وأثناء تراجع الجيش التركي، عم الخراب بلاد الشام على نحو لم تعرفه منذ دخوله إليها قبل أربعمئة عام. ولأن المواسم فنيت، والمؤونة نهبت، والمواشي نفقت، والأموال أخذت، والرجال شنقت، هام الناس على وجوههم هرباً من الموت. عشرات الآلاف، ولو كان عدد السكان أكثر لصاروا مئات الآلاف. هؤلاء تركوا بيوتهم وانساحوا على وجه الأرض. من البوادي والسواحل تدفقوا إلى القدس، ومن بيروت وحوران إلى دمشق، ومن الجبال إلى حماه واللاذقية. ومن السهول إلى حلب. وفي الشوارع كان صوتهم المسموع الوحيد: خبز! خبز! ومع متاعهم القليل البخس سرعان ما حلوا أمراضاً قاتلة، كان التيفوس أكثرها تمسكاً بهم. لقد وجد القمل في رؤوسهم وآباطهم مزارع مسمدة، فتكاثر بأسرع مما كانوا يموتون. ولذلك ماتوا بأسرع مما عرفوا.

تجمعوا في ساحات المدن وصاحوا: خبز! هناك ناموا وقاموا، بالوا وزالوا. ولم يأت الخبز. ودونما زمن يذكر، انتفخ بهم بطن الأرض، واتسعت المقابر. دونما زمن يذكر، صاروا ينقلون إلى المقبرة على عربات تجرها الحمير، وفي حالة الرفاهية تجرها البغال. وعند حفرة قطرها عشرون متراً وعمقها ثلاثة، تدار العربة حتى تصير مؤخرتها فوق الحفرة لتفرز حمولتها الشبحية الهلامية. كان الدفن يتم ببطء، فمنح القمل فرصة للدبيب خارج القبر، وبعض الموتى فرصة لرفع رؤوسهم ومسح المكان بنظرة، قبل أن يهال عليهم التراب.

قرية الشير كانت محمية من الجائحة. وربما وحدها كانت محمية. ليس لأن الجنود الأتراك كانوا أشد تعباً من أن يخترقوا الغيوم إلى ذروتها المسطحة: ذلك أمر لم يصدقه أحد، فالجنود الأتراك كانوا قادرين على زحزحة القمر. كلا. كانت الشير محمية لأن الشيخ السنديان ظل فيها ولم يبرح. وبين قرى البلاد الممتدة من ساحل البحر حتى الغابات الشرقية، وحدها نعمت بحضور رحاني لرجل تنزل له قصعة يومية من السماء. لم يغير شيئاً من عاداته. استمر يتابع تحركات الشمس وهجوعها. كان في الثامنة والسبعين من عمره، ويمشي بلا عصا. وعندما مات وجمت القرية. في البداية ظنوه معتكفاً. مضت ثلاثة أيام وهو غائب في الصومعة. في اليوم السادس أوصل التيفوس أم كحلة إلى الموت، وكانوا يظنونها خالدة. لكنهم ظلوا مطمئنين، الا من صمت خيم عليهم. وقبيل صلاة الفجر سمع بعضهم صيحة عظيمة فأفاق، وبعض بعضهم رأى انفجاراً نورانياً شق بطن السماء وفاض على الكون: لم تكن لديهم ساعات ليعرفوا كم طال، لكنه طال بما يكفي لأن يشاهد بعض بعضهم شيخ السنديان صاعداً نحو الأبراج وقد استحال انفجار النور حوله إلى تسبيحة.

في الصباح مات أربعة آخرون. وللمرة الأولى عبر الأتراك قرية الشير وقتلوا ثمانية. وصار الصمت نذيراً. فجأة وإذا عالم بأكمله ينهار. كأن صاعقة ضربته وما أبقت فيه سوى الرعب. ويوم قامت الثورة في روسيا، انضم سكان الشير إلى القطا البشري الزاحف من القرى، الهارب من الموت نحو المدينة، الحامل موته إلى المدينة.

الشيخ عبد الجواد الخياط كان واحداً من هؤلاء. على ذراعيه حمل أحمد سليم، وكان مريضاً. وحملت الأم داوود، وكان رضيعاً. أما صالح فمشى بين أبويه. الأرض المتموجة حولهم بدت أشبه بمدينة دونما بيوت. أسرة

هنا وأسرة هناك. والجميع يمشون بتلك الخطى الوئيدة الضالة، التي كان الخوف من الموت قوتها الوحيدة.

لم يقل أحد لأحد: مرحباً. لكن تجاورهم على وجه اليابسة جعلهم يألفون الرعب والقنوط. بعضهم كان قد جاء من قرى نائية، وهؤلاء بدأوا يهرشون رؤوسهم قبل غيرهم ويصطادون القمل. وكان الظفر بقملة، وسحقها بين حجرين، فرحاً يتناقلون حديثه، فيمشون بضعة خطوات أخرى وهم آمنون من الموت. ثم سقطت ضحية أخرى: امرأة شابة. كانت الانتفاخات الوردية قد ظهرت على وجهها قبل أربعة أيام أو خمسة، ثم صارت حمراء. لكنها تابعت المسير. ارتفعت الحرارة وصار المسير عسيراً. لكنها تابعت. وفي اليوم السابع سقطت. تلكأ أقرباؤها قليلاً وتبادلوا نظرات مذنبة، ثم امتلأت أعينهم بالدموع وهم يحملون أنفسهم على الابتعاد عنها.

وصلت طلائع سفر برلك إلى الطريق العام، فتنفست الصعداء. غير أن الشيخ عبد الجواد توقف. كانت الأسرة الصغيرة قد أنهكت، واللاذقية ما تزال بعيدة. وفجأة شاءت السحب أن ترسل مطرها السيلي المداهم، فأغرقت الأرض والأجساد المرهقة والفضاء.

لجأت الأسرة إلى جسر حجري نصف متهدم. وتحت قوسه الضخم، المنذر كل لحظة بالهبوط، التصق الزوجان وأولادهما، وراحوا يرقبون السيل السماوي. ووقفوا بلا حراك، وفي المد الشاسع من المطر والأرض والجبال والبحر والسماء، بدا الخمسة مثل جمادات صغيرة لا مغزى لها، وربما لا حياة فيها.

لكنهم وقفوا، نصف ملتجئين من الغيث القاتل، والزوجان يتحاشيان التقاء نظرتيهما. ولكي لا يخرج ما في السر إلى العلن، راحت الأم تفلي شعر أحمد سليم، ثم انتقلت إلى داوود، فصالح. وأرسل الشيخ عبد الجواد عينيه إلى الفضاء المخردق بالمطر ونسي أن يتفرج عليه. كلاهما وجد راحة موقتة في هذا التأجيل المضني، فانصرفا أحدهما عن الآخر بصمت مطبق.

أخيراً وصلت اللحظة التي لا بد منها. وقال الشيخ عبد الجواد:

ـ ماذا نفعل؟

فهزت الزوجة رأسها باستسلام: ـ الذي تريد.

ـ لا نستطيع أن نتابع هكذا. والبلد بعيدة.

قالت وهي تختنق بالدمع، وعيناها تلهان الأولاد بنظرة ثابتة:

ـ الأمر لك.

ولأن الأمر له عجز عن الكلام. تلفت حوله، مغضباً قليلاً لأن عليه أن يقرر. نظر إلى البحر الضبابي البعيد، وإلى السماء المنسولة خيوطاً من مطر. لم يطق أن يرى الأولاد. أما الأم فأخرجت ثديها ودفعته إلى فم داوود، وراحت ترقب زوجها بتوقع هادىء مشبوب.

التفت إليها وعيناه لا تستقران على مكان، وسأل بعزم لم يكن ضرورياً:

ـ مَن منهم؟

ـ الذي تريد.

ـ أحمد مريض. أخاف منه.. لكن... يا رب! ما هذه التجربة؟ تعبنا عليه خمس سنوات.. نتركه؟ هل نترك داوود؟ يمكن أن يكون التيفوس. نأخذه إلى المدينة. ويموت. ونترك هنا واحداً ويموت. يا رب! يا رب! ذنب كبير ارتكبته. لا أعرف ما هو، لكنك الآن تعاقبني عليه. نترك داوود؟

ـ الذي تريد.

ـ قولي شيئاً غير هذه الذي تريد. عادتك أن تقولي.

لم تجب الأم. ونبر هو بعصبية: «قولي شيئاً. هؤلاء أولادك أيضاً». لكنها أصرت على الصمت. نظر إلى داوود الممسك ثدي أمه بفمه وأصابعه. ثم إلى أحمد الموسد على التراب. فجأة اقترحت هي: «نترك داوود؟» وأجاب هو ذاهلاً: «نترك داوود؟».

ـ أحمد مثلما تقول تعبنا عليه. الولد البكر. وهو مريض بغير التيفوس.

صمتا. وثبتت أعينهما على الرضيع. تأملاه مستغرقاً في تناول وجبته، قريراً غافلاً.

ـ أحمد ثقيل حمله. داوود أخف.

ـ نترك أحمد.

هذه المرة نظراً إلى أحمد: هو الآخر كان مستغرقاً غافلاً. لقد خثره المرض، لكنه مع تلك النظرة تسنم مكانه الكبير في نفسيهما. الولد البكر، الأعز، الألصق بالقلب.

ـ نترك داوود.

ـ اترك داوود وخلِّصنا.

كانت غاضبة. وللتوّ. بكت. نظر إليها بامتنان:

ـ ضعيه هنا. تحت الجسر. والله تعالى يكون في عونه.

لم تضعه. بلا إرادة شدت يديها عليه وأخذت تبكي بلا صوت.

ـ قلت لك ضعيه، ولنمش.

ـ طيب، طيب. خلّه يرضع زيادة، عسى ابن حلال يصادفه ويكسب حسنته.

وهكذا كان. غادر الأربعة ملجأهم وانطلقوا في الوحل والمطر. صعدوا إلى الطريق فغاب عنهم بكاء الرضيع. تعثرت الأم بدمعها، فأمسكت بظهر الأب، الذي تعثر هو الآخر لكنه ظل سنداً لها. بعد خطوات، توقف صالح والتفت إلى حيث بقي أخوه، ثم لحق بأبويه راكضاً:

ـ أمي، تركنا داوود!

ـ اسكت.

وبعد قليل أضافت:

ـ ستأتيه الملائكة وتسقيه الحليب.

فتفرس صالح في وجهها مندهشاً، يريد أن يعرف لم هي باكية إذن.

عام ١٩٢٠: الجيش الفرنسي احتل سورية.

استغرب الشيخ ابراهيم العز قصة وزير الدفاع السوري، يوسفَ العظمة. فهذا الأجدب، كما سماه، هرع على رأس مجموعة من الرعاع اللابسين ثياباً عسكرية، ليلاقي موتاً سخيفاً على أعتاب ميسلون. وكانت النتيجة أن اضطر الجيش الفرنسي إلى سفك الدماء وتأخر وصوله إلى دمشق يومين.

واستغرب أكثر أن الشيخ صالح قد ركب رأسه هو الآخر وبدأ يطلق النار على الفرنسيين. ماذا يريد الشيخ

صالح؟ جولة ثأر أخرى ضد بيت العز، وقد أفنى معظمهم الموت؟ أم تهديم المدارس التي سيبنيها الفرنسيون، والطرقات التي سيشقونها، وجهاز الدولة الذي سيقيمونه؟

بعد عام ونصف من الصمت، أعلن لجلسائه أن الشيخ صالح قد تجاوز حدوده. كانت نبرة صوته هادئة لولبية، ونظرة عينيه تعبر شجرة ما من كروم الزيتون البعيدة. في اليوم التالي، قاد أول مجموعة من جنود فرنسا إلى معقل جبلي لم يستطيعوا أن يبلغوه من قبل.

عام ١٩٣٩: أعلن هتلر الحرب على العالم، ومات أحمد سليم الخياط.

كان في أوج شبابه وعشقه، فارع الطول كما يليق بآل السنديان، يقرأ كتباً ويسمي نفسه أحمد القروي. وكان دكانه ملتقى لنوعين من الوافدين: فلاحي القرى الحاملين تحت آباطهم أثواباً يخيطها لهم قنابيز وشراويل ولبائس، وشباب برموا بقراهم بعد أن تلقوا شيئاً من العلم ووجدوا في دكانه الصغير عالماً أفسح من ريفهم الواسع.

في أوائل السنة الخامسة قبل موته عشق ابنة الجيران. لذلك ثارت ثائرة أم أحمد. يحب فتاة ليس أهلها مشايخ. من بلاد مجهولة بعيدة أقرب إلى طرابلس منها إلى اللاذقية. تلبس فستاناً لا سروال تحته يغطي كاحليها. وبعد قليل تضيف: «وهو أحلى منها..».

لكن أحمد سليم لم يرضخ لمعارضة والديه. لم يعلن أمامهما تعلقه بالفتاة، الا أنه ازداد تعلقاً بها. ومضى على الحب عامان. ثم حل به ذلك الداء المحير الغريب الذي أسلمه فيما بعد إلى القبر. في البداية شكا من ألم في عنقه. وازداد الألم. ومرت الأيام فصارت حركة العنق عسيرة. صار يغدو إلى الدكان ورأسه مائل كأنه يهم بالنظر إلى يساره. يجلس وراء آلة الخياطة وكأنه ملتفت إلى الشارع. عام كامل مضى وهو يرفض الذهاب إلى الشيخ عبد الهادي الريحان. أخيراً ذهب. لم يشف. ركب حماراً ومضى إلى مزار النبي يونس. وعلى تلك القمة الشامخة أمضى ثلاثة أيام يخدم المزار وينام عند العتبة. لم يشف. عاد مشروخ النفس: تارة يسخر بمرارة من زيارته، تارة يترنح كالسكران من رعب الموت، وتارة يستنقع في نصف رعب جليدي من أنه ربما قد تخطى في أفكاره الجديدة عتبة محرمة وأنه فعلاً يعاقب لأجل ذلك.

في كل الأحوال، كان لا بد من العودة إلى الشير. هناك تيبّس عنقه إلا قليلاً، وتعيّن عليه أن يلازم سريره الخشبي. الشيخ بهاء جاءه بأعشابه، ومكث أسبوعاً يسقيه نقيعها، ومغلّيها ويطعمه عجينها. لا فائدة. حملوه إلى جميع المزارات، وعند كل منها أمضى ثلاثة أيام. لا فائدة. قال له الدرويش الجوال: «يلزمك مغلي الصبار. هاتوا شرائح من جذوع الصبار». وغلى الشرائح حتى ذابت، ثم قدمها له. كان طعمها مراً إلى درجة جعلت أحمد سليم ينتفض بعد الجرعة الأولى، ويهبط عن السرير ممسكاً حلقه بيده. لقد عرف أخيراً طعم العلقم.

على الأغلب، كانت تلك حركة عنقه الأخيرة. بعدها تيبّس تماماً. وذات يوم طلب من أمه أن تنهضه حتى عتبة الباب. قال انه شعر برغبة مفاجئة لرؤية الدنيا خارج البيت. عندئذ أدركت هي. ومع دموعها التي هطلت كمطر سفر برلك، أسندته إلى جسمها المهدود وهي بالكاد تقف وبالكاد تراه، وأوصلته إلى العتبة. ثوان قليلة، تأمل خلالها السماء الدكناء، والمطر الهاوي، والأشجار، والطريق. وكان ما بقي فيه من حياة كافياً فقط لإعادته إلى السرير.

بالطبع حزنت الشير كلها لموته. لكن الحرب العالمية الثانية لم تتوقف.

عام ١٩٤١: كانت باريس قد سقطت وجنود بريطانيا يخوضون في مياه دنكرك.

وكان الشيخ عبد الجواد واقفاً في صحن الدار، يفكر. في سجل الذاكرة أنه ولد عام ١٨٨٥. ربما قبل هذا

التاريخ بخمس سنوات، وربما بعده بخمس سنوات. فيما مضى، لم يكن هذا الافتقار إلى الدقة الحضرية يعنيه في شيء: ما دام الإنسان يولد ويعيش ويموت، فماذا إذا نقص رقم أو زاد، وحتى إذا سقط وضاع. الموت نفسه لم يكن يعنيه في شيء. فهذه الدنيا دار مقام لا دار بقاء. الرحيل المسرع عنها خير من التلكؤ فيها. ولقد مر عليه حين من الدهر أحب فيه الموت لأنه بداية القربى من الله، والمصائب لأنها تختبر الايمان والتقوى. لذلك، وبعد أن مات داوود تحت الجسر، وصالح مختنقاً بحبة فول، سمى ابنه الرابع أيوب. لكنه كره المرض، لأن المرض عذاب، خلخلة لناموس الطبيعة المطلق. وكره الإصابات، والعمى والعور والصمم والكسر.. لأن الإصابات تشويه لجمال الطبيعة المطلق. لقد ولد وترعرع في هذا الحيّز من العالم، حيث الأرض الوطيئة تشرب ماءها وماء غيرها وشرب التواضع. ولأن الجبال المجاورة معاقل للريح الصافرة الصافية، تسمدت نفسه بالكبرياء والجبروت. ولأن الأرض الكلسية تعطي دائماً أقل مما يتمنى الفلاح، تأرجح بين الكرم والبخل. ولأن الزاد قليل تعوّد القناعة. ولأن الرحلة طويلة تعلم الصبر وانفجار الشعور.

تنقل بين القرية والمدينة، عندما كان التنقل بين قرية وأخرى حدثاً يروى، وعرف لماذا آثر جده الشيخ عزلة الصومعة. عاش في المدينة سنوات الحرب والاستقلال الخاطف، ثم عاد إلى القرية ليعمل مرابعاً عند البيك، ثم نزل إلى المدينة مرة أخرى ليضع الأولاد في المدرسة. لم يتغير في ذهنه شيء من صورة العالم، ظلت امتداداً بلا أطراف وتجليات لأصل واحد.

كان ذلك فيما مضى ـ عندما كانت الفصول تأتي وتروح ويراها رتيبة وجميلة ومفرحة، والألوان تتبدل في وجه الطبيعة الأبدي مع دورات المطر والجفاف، القمح والحصيد، الريح والسكينة، الزمهرير والقيظ. ولقد رآه ثابتاً، مؤبداً، غير قابل للتغيير. لم يرَ في الحياة شيئاً أقل من مطلق، ولا في الموت ـ حتى ذلك الغروب، إذ وقف يرقب الصغار وهم يلعبون أمام البيت الكبير، وخطر له خاطر غريب.

ربما كان على ذلك الخاطر أن يجيء قبل ربع قرن. فوفاة جده شيخ السنديان لم تكن أقل من زلزلة. فجأة اختفى، وكان حضوره الدائم الغائب ضمانة لثبات الأفلاك وتحركات الشمس حول الأرض. فجأة سقطت حمايته للشير من الموت المداهم. فجأة اقتحم الموت الجبال والوديان والزرع والبشر، وتعين على الجميع أن يهربوا منه بدلاً من أن يستقبلوه بابتسامة حزينة. فجأة وإذا العائلة العريقة ثلاث عائلات، وذهب باسمها الأصيل الشيخ ابراهيم، بينما بقي له، هو الشيخ عبد الجواد، كنية الخياط، ولحقت بالشيخ عبد الهادي كنية الريحان، وبآخرين كنى أخرى. كان هو أقل الثلاثة حظاً، وأكثرهم زهداً، أوفرهم علماً وأخفهم على سطح اليابسة.

ربما كان على ذلك الخاطر أن يجيء يوم ترك داوود في البرية ليموت. لكنه لم يأت. وبدلاً منه حل نوع من الرضى بأن المشيئة أرسلت داوود واستردته بسرعة. لقد بكاه طويلاً، ليس سخطاً، بل لأن الحزن بسبب الموت شيء من طبيعة الحياة. وكان هو إنساناً طبيعياً، جزءاً من صخور الشير وأعوامها. تعلم القراءة والكتابة عند الشيخ السنديان وختم القرآن على يديه. وتعلم أن يقرأ في كتاب الطبيعة، وهو بعد طفل يصنف أزهار البراري ويتتبع السيرة الذاتية لحبة القمح. ثم خرج إلى الحقول، خلافاً لآل السنديان، وعمل على أراضيه الصغيرة البعيدة. وصار واضحاً أنه الخلف الطبيعي للشيخ، سوى أنه كان أصغر سناً من قريبيه الآخرين وأكثر تشدداً في حساب الخطايا. لكن الفرصة ضاعت: توفي الشيخ ولم يوص، وأقام هو في اللاذقية أطول مما ينبغي، وبرز ابراهيم السنديان كشيخ محترم قادر على حل المعضلات، فيما تضاعفت ملكية عبد الهادي للأراضي. وفوق هذا أغار الشيخ ابراهيم العز على ثلاث أراض له استطالت داخل أملاكه كأشباه جزر صغيرة ووضع فلاحيه عليها. وكان على ذلك الخاطر أن يجيء، فهذا الاضطراب في ناموس الأشياء أمر لم يألفه الشيخ عبد الجواد من قبل. أم أحمد ثارت. تكلمت بأقوى العبارات عن جشع ابراهيم العز وطغيانه. وذكرت زوجها بليلة الدم. لكنه لم يحرك ساكناً. بالطبع جاشت نفسه غضباً من انتهاك العدل، غير أن ابراهيم العز كان قوياً، مؤسساً في المدينة. وشيئاً

فشيئاً، عمل على أن يرى في كل ما حدث حكمة خفية لا يعرفها، لا بد وأن تستعيد الناموس ذات يوم، وتعيده إلى مطلقه الأبدي.

كان قد جمع مالاً لا بأس به من مهنة الخياطة. وكان أحمد سليم قد حاز على الشهادة الابتدائية وهو في التاسعة، وصار له أخ جديد، أيوب الذي ولد ضخماً ومعافى وصامتاً. وبدا لأم أحمد أن العودة إلى الشير مناسبة للغاية. فالأرض التي سلبها ابراهيم العز يمكن تعويضها بما أرسل الله من مال، وشراء أرض بديلة قرب البيت الكبير. كانت حجتها قوية، ومنطقها مبرماً. وصارت أقوى بضعفها النسوي المنسحب، القادر دوماً على تزيين قرار من هذا النوع، والايحاء بأن من سيتخذه ليس هي بل الشيخ عبد الجواد نفسه، وأنه إذا لم يتخذه فسيكون خاسراً لا محالة. وقد توجس الشيخ خيفة من صواب آرائها. فالنساء طوال الشعور قصار العقول، وآراؤهن خاطئة بالضرورة وخاصة عندما تكون سديدة. لكن المنطق والضعف فعلا فعلها. ومع أن عقيدة الشيخ الثابتة كانت: شاوروهن لتخالفوهن، فقد ألفى نفسه أعزل حائراً أمام تحليلها الحاسم الموجز للأمور.

لو أن ذلك الخاطر جاءه يومذاك لما حفل بالاستماع إليها. لكن الأرض تقدمت في ذهنه متخطية جميع الاعتبارات الأخرى، وسيطرت عليه. وكان هناك هم آخر لم يكشفه لها لئلا تزداد حجتها قوة: بالنسبة له كان آل السنديان هم الشعب، الأمة التي ينتمي إليها، وكانت أرضهم وطنه، وخلال السنوات الماضيات ترك الوطن وعاش في اللاذقية، وتعرف إلى أناس كثيرين حتى بات يخشى الغربة ليس فقط على نفسه بل وعلى أولاده أيضاً.

عادت الأسرة الصغيرة إلى القرية. وللتوّ باشر الشيخ عبد الجواد العمل على الأرض. لكن الأيام مرت، ولم يشترِ أرضاً. ورغم حنق أم أحمد ووخزات كلامها المحكمة، ظل يلتمس عذراً هنا وعذراً هناك ولم يشترِ. لم يقلقه مرور الأيام بلا أرض، فالأيام كثيرة، وإنما أقلقه أمر آخر مختلف تماماً. كان ابراهيم السنديان ذا كفاءة واضحة. فهو مهيب وسريع الفهم. وهو حاضر للعون قادر عليه. وهو غني بما يكفي ليعزز سلطته الروحية. ولكن كان في طبعه غلظة ونفاد صبر، أخافا حتى كحلة التي لا تخاف والتي تكبره بعشرين عاماً. وقد أقام في منحدر الغابة الشمالي، فانبتّ عن الناس إلا قليلاً، وصارت زيارته مشقة. فبعد الغابة بوابة يقعي وراءها كلب ضخم عاشق للنباح. وبعد البوابة طريق طويل محفوف بالأشجار وصغار الشجر، على نحو يبقي الرهبة في القلوب ويجعل الكلام عسيراً أمام قامته الباسقة وشاربيه الصقريين.

وقد خشي الشيخ عبد الجواد أن ينصرف الناس عن الهداية الروحية، فيضعف ايمانهم وترتخي العروة الوثقى التي تشدهم إلى الله. ذات يوم، وكان قد أنهى زيارة لجده الراقد في الصومعة، نظر حوله بإمعان ورأى أن الشير لم تعد الشير. فيما مضى كان لها مقام وشخصية. الآن هي مجموعة بيوت متناثرة هنا وهناك لا يربطها رابط ولا تشير إلى معنى. كان الغرباء يتوافدون إليها مطمئنين إلى نومهم وأكلهم وهدايتهم. فالشير كانت تعني شيخ السنديان، وشيخ السنديان الشير. كان البيت الكبير للبيوت كلها، باسمها تذبح الذبائح فيه، ومن زاره زار القرية وعرف كرم أهلها وتقواهم وصفاءهم. الآن تبددت الهالة. على نحو ما، بطريقة غريبة غير مفهومة، صار تحصيل لقمة العيش أشق وأهم. مع أن الأمور لم تتغير. الأرض هي الأرض، والفصول الفصول. والينابيع والمطر والجفاف والريح الشمالية. كل شيء. كان ابن الشير يرضى بأي مقدار تجود به الطبيعة، يكتفي بشوربة العدس والتين اليابس. الآن تغير ذلك. فجأة برز أناس مثل محمد الغفري وسالم خضير ورسلان محفوظ وجحجاح، وصاروا وجوه الشير. وجوه الشير لا لشيء سوى أنهم بعد الحرب وتركيا صاروا أغنياء. وصار أحد آل السنديان واحداً منهم، عبد الهادي الريحان الذي كان الثاني بينهم.

وضاعف خوف الشيخ عبد الجواد أن الشيخ ابراهيم لم يرزق حتى ذلك الحين إلا بسلسلة مخجلة من البنات، مما جعل الاستمرار في هذا التراث أمراً محفوفاً بالخطر. لذلك عزم على إحياء عادة عريقة كان جده يتابعها

حتى وفاته، ثم انتقلت إليه هو عندما انتقل الشيخ إلى جوار ربه: استقبال الضيوف في البيت الكبير نفسه الذي تركه له الشيخ كإشارة ضمنية إلى خلافته. كان بيتاً هائلاً، بناه شيخ السنديان الأول قبل أن يذبح أبناؤه العشرة. وضم إليه شيخ السنديان الرابع بيوتاً لصيقة لنوم العائلة والضيوف. وجعله شيخ السنديان السادس أقرب شيء إلى دار حكومة، مضافة يقصدها الفلاحون من ثلاثين قرية مجاورة.

أم أحمد دفعت الضريبة. دفعتها مرتين: المال المخصص لشراء الأرض تسرَّب، واعداد الولائم تضاعف ثم تثلّث ثم تخمّس. كان الشيخ عبد الجواد يشتري الخرفان والعجول، يذبحها ويسلخها، ويترك الباقي لزوجته. لم تجدها توسلاتها، ولا حملها المقترب من شهوره الأخيرة، ولا أمارات التعب التي ظهرت على أشدها كلما التقى الزوجان. وعندما وضعت أيوب الثاني (عند نبع الجفون في البستان المجاور للغابة فيما الشيخ وابنه يتناولان طعام الافطار الذي نقلته إليهما) كان عدد الضيوف اليوميين يفوق العشرة باستمرار. وبعد الولادة صار عشرين. وعندما وضعت كنعان بعد عامين (أيضاً في الحقل، ولكن أثناء شتل الدخان في الأرض الشرقية) كان البيت الكبير يوشك أن يختنق، وكان الشيخ عبد الجواد أبعد ما يكون عن الخاطر الذي خطر له ذلك العصر، أثناء الحرب العالمية الثانية، إذ وقف يراقب الصغار وهم يلعبون أمام البيت الكبير.

بالطبع كان الشيخ ابراهيم السنديان سريعاً في إعلان استنكاره لنوايا الشيخ عبد الجواد. لقد رأى في تلك الولائم المسرفة محاولة مكشوفة لاستلاب الزعامة. بصمت، ووراء محبات مفروشة، احتدم الصراع بينهما، وعاد إلى الذاكرة الليل الذي سبق وفاة جدهما الشيخ: كان عبد الهادي قد نقله من صومعته وهو في غيبوبته، نقله على بغلة وأسجاه في بيته، ثم نام قرير العين مطمئناً إلى أن الشيخ سيموت في اليوم التالي عنده؛ وعند منتصف الليل اكتشف عبد الجواد السرقة فثارت ثائرته، هجم إلى بيت عبد الهادي وحمل الرجل الغائب بين يديه إلى البيت الكبير، ونام قرير العين مطمئناً إلى أن جده سيموت في اليوم التالي عنده؛ ثم اكتشف ابراهيم الأمر فثارت ثائرته، وقبيل أذان الصبح حمل الرجل الغائب بين يديه إلى منزله في الغابة، ونام قرير العين مطمئناً إلى أن الشيخ سيموت في اليوم التالي عنده؛ وفي اليوم التالي أفاق الرجال الثلاثة ولم يجد أي منهم أي أثر لجده الشيخ، ثم التقوا في الصومعة وكان الشيخ قد مات.

فيما بعد انسحب عبد الهادي من الصراع، وهاجر عبد الجواد إلى اللاذقية. وظل عبد الهادي منسحباً، زوجه تنجب الأولاد وهو يشتري الأرض، حتى صار ندا لبكوات المدينة. لم يأت خطر منه، فقد اقتصر على كتابة الحجابات وشفاء المرضى. عبد الجواد كان شيئاً آخر. هذا الرجل القوي الشكيمة، اللين العريكة، الذي خبر الدنيا زاهداً وعاشر الأقوام شريفاً، كان يتسلل كالنعاس إلى قلوب الفلاحين ويفرض عليهم حبه وزعامته. كان في تعامله معهم نوع من التكريس، وربما الاجلال، ولقد اندفع في أعمال البر بحمية وسماحة، وخاصة بعد أن زاره جده الشيخ ثلاث مرات: لم يشاهده تماماً بل شاهد يده، يده الضخمة البيضاء التي امتدت أمام عينيه الجامدتين وغطت رأسه، ثم مسحت على وجهه ثلاثاً.

لم يبدر من الرجلين ما يشير إلى خلاف أو ضغينة. كان عبد الجواد متقيداً تماماً بتبعيته لابراهيم، يتبادل معه تقبيل اليد أمام جميع الناس، ويثني عليه في غيابه. وكانا يلتقيان في الحقول فتتشفّ نفساهما وهما يعملان معاً على أرض ابراهيم، يصليان معاً عند نبع الجفون، ويتودّعان قبيل المغيب. وشيئاً فشيئاً صار واضحاً لابراهيم أن ابن عمه يهيء ابنه أحمد سليم لمستقبل الأيام.

لهذا كله، وبعد عامين من عودة عبد الجواد إلى الشير، أفلتت أعصاب ابراهيم ذات مساء. حمل ساطوراً يستعمله لقطع الأشجار وهجم على زوجه في المطبخ. التقطها من عنقها، وأطلق أيماناً ثلاثة أنها إن تلد بعد الآن بنتاً فسيقتلها هي وبنتها. بعد ستة أشهر ولدت البنت السادسة واختفت. قالت المرأة له: تزوج. فرفض. وألحت عليه فرفض. وبعد أيام أعادت الكرة، فرفض مرة ثالثة. وفي ذلك المساء بكيا معاً. بكيا حتى صفا

الحب الجميل الذي جمعها منذ عشرة أعوام. ابتهلا إلى الله ونذرا النذور. وقرر ابراهيم أن يقيم في كل عيد أضحى وليمة جماعية لسكان الشير والقرى المجاورة، بعد أن كان الأمر مقتصراً على عيد الفطر.

بعد عام ونصف ولد إسماعيل السنديان. وكان عرس. وكانت ولائم. امتلأت ساحات الغابة باللحم المسلوق والبرغل المطبوخ، بالطبول والمزامير والرقص. وتوافد الناس من مسافة آلاف الأمتار، ليشاهدوا الزعيم الوليد لبيت السنديان، ويشبعوا الأكل كرمى له.

أحدثت ولائم الشيخ عبد الجواد نزيفاً دائماً في جراب المال المطمور تحت البلاطة. وقد استنفدت أم أحمد كل الحدود الممنوحة لها في مناقشة زوجها، بل انها تخطتها مرة أو مرتين، فاستحقت نظرة زاجرة لجمت لسانها. لا فائدة. صحيح ان الضيوف كانوا يأتون أحياناً بما يحل ذبحه، فيتوزع الطعام على المحتاجين. لكن النزيف استمر. وفي أوج احتقان الأزمة الاقتصادية العالمية، وصل الشيخ إلى الحضيض. انتهى ماله. لم يبق له إلا العمل على الأرض، والسمعة الطيبة. إلا أن ذلك الخاطر لم يأته. كان سعيداً إذ أنفق ماله في سبيل الله. لم يؤسه أنه ظل بلا مال ولا أرض، وأنه ظل يعمل مرابعاً. كل ملك زائل، والذي لا ينجز اليوم ينجز غداً. وإذا لم ينجز قط فلا بأس. مال الدنيا يبقى في الدنيا. وكل ما يصل إليه الإنسان يتركه ذات يوم ويمضي. لماذا الغيظ إذن والحسرة والتعب؟

كان أحمد سليم في الثامنة عشرة. بلغ سن الزواج ولم يستطع أحد اقناعه به. كانت بنات عمه الشيخ ابراهيم ينتظرن مجيئه بين ليلة وأخرى، غير عابئات بتصميمه الحازم ألا يتزوج أيا منهن. وانتقل والده من التلميح إلى التصريح، لا لشيء إلا لأنه يكره مغادرة الحياة الفانية وليس له حفيد. وذات مساء جلس الاثنان في سقيفة البيت الكبير، وقد فهم أحمد صمت أبيه المعبّر. غابت الشمس في الصمت، وتلملم الضوء.

أخيراً قال الأب: ـ يا ابني، أما حل وقت الزواج؟

قال الابن: ـ أتزوج، أين أعيش؟ أنا وعائلتي.

قال الأب: ـ تعيش في البيت الكبير!

بالنسبة له كانت الأمور على ما يرام. لكن أحمد فاجأه:

ـ لا أريد أن أعمل مرابعاً عند أحد.

قال الأب: ـ عمك الشيخ ابراهيم ليس أي أحد. أرضه أرضك.

قال الابن: ـ لا. عنده ست بنات وصبي. أرضه أرضهم.

قال الأب: ـ تزوج خديجة أو زينب أو ياقوتة، وتصير أرضها أرضك.

قال الابن: ـ بنات عمي مثل أخواتي.

قال الأب: ـ لا يا ابني. بنات عمك بنات عم، لا أخوات. ووالله هن أحلى بنات المنطقة، وأشرفهن وأشغلهن في البيت والأرض. أعطني حجة غير هذه.

قال الابن: ـ ألن تغضب؟

قال الأب: ـ لماذا أغضب؟ ووالله لم أغضب من حق في حياتي.

قال الابن: ـ من مئتي سنة وبيت السنديان يتزوج بعضهم بعضاً. قصدي، يقولون في الكتب، إنه في هذه الحالة، تكثر الأمراض، والآفات.. اثنتان من بنات عمي، واحدة جدباء، وواحدة خرساء.

قال الأب: ـ لا تقل هذا الكلام عن بنات عمك.

وبعد صمت قصير أضاف: ـ هذا هو السبب، أم لا تريد المشيخة؟

قال الابن: ـ وأنا لا أريد المشيخة.

قال الأب: ـ ولا العيشة بين الفلاحين.

قال الابن: ـ ولا العيشة بين الفلاحين. أحب الفلاحين. ولا أحب عيشتهم.

وكان أيوب في السابعة وبلا مدرسة. يقرأ القرآن كله، دونما خطأ، ولكن بلا مدرسة. كذلك كنعان: الأعجوبة الصغيرة، بل النابغة، الذي ختم ربع القرآن قبل أن ينتبه أحد. ومرة أخرى خامر الشيخ عبد الجواد تشوش مربك بشأن أبنائه، ولولا تدخل أم أحمد الخنوع الحاسم لانبثق في ذهنه ذلك الخاطر الغريب الذي خطر له بعد أحد عشر عاماً، عندما وقف في صحن البيت الكبير يراقب الصغار وهم يلعبون.

على أية حال تعيّن أن ينتقل مرة أخرى إلى اللاذقية. كان حزيناً. بل كان مضطرباً. بعد أن استردت الشير عافيتها، بعد أن عاد لها الانسجام والصفاء، وانتظمت أوقات الصلاة والعمل، يجد نفسه مضطراً لمغادرة هذا النظام المتصل مباشرة بالكون، بكل ما هو ثابت ودائم وأزلي. لكن أم أحمد تدخلت في الوقت المناسب. ومرة أخرى انحلت المشكلة. اقتنع الشيخ عبد الجواد أن الانسجام والصفاء يمكن أن يوجدا في المدينة أيضاً، لأن المدينة جزء من الكون، والكون سرمد.

في المدينة، وبعد أربع سنوات عجاف، ولدت أم أحمد ابنتها الوحيدة. كان ستة صبيان قد ولدوا قبلها، حتى بات مجيؤها أمنية ودعاء إلى الله. وكان الشيخ عارفاً أنها بنت قبل ولادتها بشهرين: أتاه جده من غمامة بيضاء وأخبره. وكان ضرورياً أن تولد بنت، فأم أحمد تدق أبواب الأربعين، أو الخامسة والثلاثين، وليس من يعينها في شغل البيت. لهذا هرعت الحارة بأكملها يوم تعثرت، وكانت تحمل خولة في بطنها وابن الجارة على صدرها، وتسحب كنعان من يده. سقطت على الأرض فلم تنهض إلا بعد أن أحست بلزوجة الدم. نقلت بسرعة إلى البيت، ولكن كان لا بد من الطبيب، فالنزيف مستمر، والحمل في بداية شهره الثامن. وجيء بأبي أحمد بعد ثلاث ساعات، وأفهم بسرعة واقتضاب أنه اما الطبيب واما الموت. وقبل أن يجد فسحة للاعتراض، وحتى الكلام، وجد نفسه يسير في الشارع قاصداً بيت الطبيب هيكاز في آخر البلد. ركب عربة خيل أوصلته إلى البوابة. نزل. وألفى نفسه غارقاً في العتم. لم يجد أحداً سوى الأبواب الموصدة. تلفت حوله بقنوط. من بعيد لمح بصيص ضوء يلمع عبر نافذة جرداء، فتمشى نحوه ويداه معقودتان وراء ظهره. كان الليل يتساقط كالمطر على الفضاء. وبالتدريج ظهر البيت الصغير المتداعي، وتبين أن النافذة باب، وأن الضوء صادر عن قنديل وضع على الحصير عند ضريح الولي نور الدين. خلع الشيخ عبد الجواد نعله. دخل. قرأ الفاتحة مفتوح اليدين. كانت عتمة منزل الطبيب وضوء الولي قد دخلا بسرعة سهلة في واعيته كرمزين واضحين. جثا على الأرض، ورائحة البخور المحترق تملأ أنفه وعينيه وقلبه وروحه، ونذر خمسا وعشرين ليرة. قرأ شيئاً بتمتمة خفيفة وخرج. لم يجد ثمة ضرورة لركوب العربة فعاد ماشياً.

في البيت سألوه أين الطبيب، وكانت أم أحمد ما تزال تنزف. قال:

ـ جئتكم بطبيب أحسن ألف مرة من طبيبكم.

وروى لهم ما حدث.

في الصباح نهضت أم أحمد إلى العمل وهي في أتم عافيتها. وبعد خمسين يوماً، بعد أول رمضان من استقرارهم في المدينة، جاءت خولة. ولولا أنها بنت لأقيمت لها الأعراس على نحو ما صار لإسماعيل السنديان. ولكن، ما العمل. أحمد سليم أصر على تسميتها خولة، متيمناً بتلك المرأة العربية الباسلة التي أغارت على جيش

وخلصت أخاها من الأسر . وفي يوم مولدها الأربعين وفى أبو أحمد بنذره، رغم احتجاج أم أحمد على ضخامة المبلغ.

بعد رمضان ثان ولد عبسي، وبعد رابع ونصف ولد شداد . وكان أحمد سليم قد أعاد ملء الجراب بالمال، وأحال الدكان إلى مضافة من نوع غريب: لم يكن الزائرون ضيوفاً، ولم يقدم لهم طعام، ومع ذلك كانوا يأتون. يجلسون ساعات، يضحكون، يعبسون، يتجادلون بشدة، يتكلمون لغة غير مفهومة وأفكاراً غامضة. لم يتضايق الشيخ عبد الجواد . الناموس هو الناموس. والحياة هي الحياة. وهذه الظهورات الغريبة آيلة إلى الزوال.

لم يخطر له أي خاطر عكر. على العكس، صار بوسعه أن يتجول في المدينة مستمتعاً بشوارعها الخالية من الوحل والغبار. يتأمل الافران والمساجد والكنائس، والساحات والبيوت والدكاكين والحدائق والبحر، زحمة عربات الخيل والدراجات النارية. يقارن ذلك كله بهدوء الشير وصمنها . كانت المدينة سريعة، قلقة، مزدحمة بأناس يغدون ويروحون، يأكلون ويلبسون بالمال وليس بالقمح والتين. ومنذ البداية حصّن نفسه ضد اضطرابها وعجالتها. ظلت حوله، أمام عينيه. على مسافة أمان كافية. لا شيء يعادل ضجعة الشير على سطح الجبل، وعلى المهاد المنبسطة من نفسه الرحيبة. هذا الوسن الراشح من بيوتها، المتهلل من أغصان كروم التين والعنب والزيتون، الراقد في قرارات الينابيع والوديان وعلى قمم الجبال.

كان أعظم ما خاطب روحه الهادئة الهانئة في المدينة، مقام الشيخ البطرني ومسجده. مقام ومسجد بسيطان، لولي بلغ به السر والبرهان أنه كان يقف على الصخرة التي سميت باسمه، وينظر الى البحر، فتجد سفن الصليبيين نفسها عاجزة عن التقدم إلى غزو المدينة، تدور على محاورها حتى يبتلعها اليم أو تحطمها العاصفة. وكان الشيخ عبد الجواد يقطع المسافة المستقيمة من كنيسة مار جرجس، حيث أقام وأسرته، الى المسجد ماشياً، فيصلي أوقاته وقد تعبأت روحه بصفاء سرمدي.

وفجأة اكتشف أن لحيته صارت شائبة، وبطنه وسيعة: وسيعة حتى لتضايقه في الركوع والسجود. عجيب! كيف صار هكذا دون أن ينتبه؟ حتى أم أحمد لم تنتبه، فهي لم تغمز ولم تلمز. أم أنها انتبهت؟ يا للنساء! وراح يتأمل بطنه الى أن وقر في نفسه اعتقاد جازم بأن هذا البطن كرش وليس مجرد بطن. يا للنساء العظيمات! يقبلن بأزواجهن كيفما كانوا. وانفلت في ذاكرته شريط من الذكريات أكد له بما لا يقبل الشك أن أم أحمد هي المرأة الودود الولود التي تحدث عنها سيدنا محمد. لكنه سرعان ما عاد الى عمله، شاعراً على نحو ما أن بعض الوقت قد مضى وهو ينشر جذع شجرة في صحن الدار. للتو أقبلت أم أحمد حاملة صينية، وشاهدته. توقفت. :

ـ أما انتهيت من هذه اللعبة؟ صار لك أربع ساعات!

ازداد انهماكاً في العمل. عض على شفته ليستحضر جهداً شعر أنه خذله، ولم يجب.

ـ ولم تأت بالكاز. الآن تغيب الشمس، ونبقى في العتم.

فاغتنم الفرصة. رمى المنشار، ونظر اليها باهتمام:

ـ ابعثي أيوب. ابعثي كنعان، يا كنعان!

هرع الصبي حاملاً بيده كتاباً، ووقف أمام أبيه وهو ما يزال يقرأ، فيما الأم تقول:

ـ هه! ووسخت قميصك. شف

نظر. لم يجد شيئاً. التفت اليها متسائلاً مستغرباً. «هنا، هنا» قالت له وهي تشير بإصبعها. لم يجد شيئاً. عندها هتف كنعان، مشيراً الى أسفل بطنه:

ـ هنا، هنا. بالنزول، ليس بالطلوع. أنت لا تراه.

وتلمس الشيخ كرشه ضاحكاً بخفوت وتقطع، فيما ظل كنعان جامد الوجه لعوب العينين. ورأى أم أحمد تهز رأسها:

ـ أربع ساعات وأنت بهذه الشفقة الحطب.

ـ أنت يا نزهة لا يعجبك العجب، ولاالصيام في رجب. كيف تتدفأون إذا لم أنشر الحطب؟ يا ابني، خذ القنينة، ورح الى دكان عمك الحاج عمر. قل له يملأها بالكاز، وهاتها.

بين فترة وأخرى كان يصعد الى القرية: ليوم وليلة دائماً، ثم يعود بعد أسبوع. واذ تتعطل السيارة في منعطف القلوف، يهبط. يقف بحذاء الطريق حتى ينزل الركاب الزائدون. خمسة أو ثمانية، عن الصندوق أو عن السطح. وقبل أن يبدأ دفع السيارة على المرتفع الضيق الملولب، يكون ثمانية الركاب الأصليين قد نزلوا أيضاً وشاركوا الآخرين القسم والتوكيدات أن الشيخ لن يمد يداً. عندها يمتطي أبو هاشم مقعد القيادة، وتتلحلح الكتلة الصدئة المتداعية صعداً باتجاه مزار الشيخ أحمد القلوف. في الوحل، في الغبار، في الثلج، في أي شكل تتخذه الارض بفعل الطبيعة، كان لا بد من تلك الوقفة. لم يكن الشيخ عبد الجواد ليقلق. فالسيارة لا بد وأن تجتاز المحنة. حتى لو ان شيئاً انعطب فيها من تلك الاشياء ذات الاسماء الفرنجية الصعبة، فلا بد وأن تجتاز المحنة. وإذا اقتضى الامر عودة أبي هاشم الى المدينة لشراء بديل للقطعة المعطوبة، كان الشيخ يبتسم قرير النفس لأهالي القلوف الذين جاءوا يتفرجون على السيارة الواقفة، وراحوا يستضيفونه الى بيوتهم. وكان يلبي. واذا أطال أبو هاشم بقاءه في المدينة، كما هو مألوف، أمضى هو ليلته هناك، وتابع عند الصباح رحلته الى الشير.

في كل الأحوال كان يصل الى الشير أخيراً. وسرعان ما يمتلىء البيت الكبير بالبرغل والبيض والديكة ولوازم الطبخ، بخروفين أو ثلاثة يشتريها الشيخ أو يدفع نصف الثمن، وبالنساء الطابخات والرجال الآكلين. وتعيش الشير مرة أخرى تلك الظاهرة التي كانت في زمن هتلر غريبة للغاية وصارت الآن ضرباً من الخرافة أو المستحيل. كان شيء من طبيخ البرغل وشيء من اللحم المسلوق يصلان الى كل بيت. وكان البيت الكبير يضيق بالرجال، فتقام الصلاة تحت شجرة جوز قطرها مئة خطوة يمتلكها آل الحطاب جميعهم. وعندها يحل الرضا في نفسه ويفيض، مثل جدول أو مطر. ينظر الى الشير مرتاحاً، مطمئناً الى أن المخلوق الوحيد القادر على خرق الناموس، الانسان، ما زال منضبطاً به عاقداً عليه.

وقد أراح قلبه أن ابن عمه الشيخ ابراهيم قائم على خدمة أهل الشير أكثر من ذي قبل، وأن ابنه اسماعيل يحضر مجالس الكبار ويجيب بالآيات والأحاديث عن عديد من مسائل الدين والشرف والحياة. لذلك لم يعبأ كثيراً بأخبار غامضة عن أن ألمانيا ستطرد فرنسا من سوريا وأن البلد ستستقل بفضل هتلر. في الحقيقة، لم يعبأ كثيراً بأي شيء. الآن وقد حفل بيته بخمسة ذكور وابنة، واستردت الشير عافيتها الروحية رغم وفاة جده الشيخ، عاد كل حادث وأي حادث فصار أمراً مقبولاً على اطلاقه. بل انه لم يعبأ سواء حدث أم لم يحدث شيء. حتى عشق أحمد سليم لتلك الفتاة الغريبة، ذات العينين الفرنجيتين، لم يكن ذا بال. فالولد سيصحو على نفسه، ويجد أن ابنة عم أبيه مرجعه الأخير.

لقد استقرت الحياة أخيراً. هذه البساتين والحقول والينابيع، ما تزال كما هي، مذ لمست عيناه أول مرة أشكالها المتنوعة وتفرعاتها العديدة. أشجار كثيرة نمت وانتشرت. وأشجار أخرى صوحت وقطعت. هكذا سيكبر أولاده، وسيموت هو. سينمون وينتشرون، ويأتيهم أولاد، ويأتي الأولاد أولاد والأحفاد أحفاد.

وستستمر الحياة إلى الأبد، كما استمرّت منذ الأزل. وهو سيذبل ويجفّ ويوارى قرب قبة جده الشيخ. أتراه يتصومع مثله في أخريات عمره، ويترك الحياة الدنيا سلفاً إلى الحياة العليا؟

كثيراً ما ساءل نفسه هذا السؤال. وكان لديه وقت مديد فلم يستعجل الإجابة. انه ما زال في الخمسين، أو الخامسة والخمسين، أو الخامسة والاربعين. ما تزال في نفسه عشبة خضراء من الحياة الدنيا، يجب أن تذوي أولاً، وإن كان لا يعرف متى. لم يستعجل ذبولها، فكل أمر له حين، والذي يتحقق يأتي من تلقاء نفسه. الإنسان منفّذ لا مصمّم. غير أن الداء الذي أصاب أحمد سليم حوّل كل شيء الى اتجاه آخر. كان أيوب وكنعان قد تعلما الخياطة على يدي أخيهما، الأول بفتور والثاني بحماس. وكانا قد أخذا حقهما من العربية والفرنسية، وحتى الكيمياء والفيزياء. لذلك سهل عليهما الانقطاع عن المدرسة والقيام بعمل أخيهما الأكبر، عندما تعين على الأخير أن يتعالـج لكن الشيخ وجد نفسه بالتدريج أمام أمر كريه: المرض. واذ يبس عنق ابنه، ملأه جزع شديد أقض مضجعـه. ولما مات، كان هو في اللاذقية، وقد عاد الى شغل الدكان الى أن يقضي الله أمراً كان مفعولاً. وإذ قضي الأمر، أحس أن زلزالاً أماد الارض تحت قدميه. أحس أن عينيه قد عميتا، ولسانه تصلّب. ظل شهراً كاملاً بلا كلام، وأم أحمد حوله وفي كل مكان: تنوح وتجعر وتفقد عقلها وتلطم صدرها وتمزق ثيابها وتقتلع شعرها. ولولا أن الزلزال لم يستطع أن ينزل يديه المرفوعتين الى السماء، لولا ايمانه الاقصى بأن العدالة العليا قد تعني أحياناً ظلم البشر، لولا الهاجس المروع الذي اختلس الظهور في وعيه حيناً وحيناً بأن موت أحمد سليم كان عقوبة مستحقة لتلك الأفكار الغريبة التي استمر في تنشئتها دون أن يجهر بها ولا يتخلص من سحرها الشيطاني ـ لولا هذا كله لانشق في وعيه ذلك الخاطر الذي باغته بعد عامين، عندما كان واقفاً ذات عصر في ساحة البيت الكبير يراقب الصغار وهم يلعبون.

لكن شيئاً من هذا لم يحدث. وبدلاً من أن يحتج، أو حتى يتذمر، قبل بما رآه أيوب وكنعان، واعتبره امتداداً لسنّة الحياة. قبل أن يعود الى القرية وأن يعمل أيوب مرابعاً ـ وكان المال قد تبدد على الأضرحة والحكماء وطاردي الشياطين ـ ويطلق لحيته على منوال آبائه وأجداده. قبل أن يتطوع كنعان في الجيش ويغادر الوطن الى بيروت ليصير عريفاً خطيراً بسرعة. قبل أن يغلق الدكان وأن يمتنع عن حشد الناس في البيت الكبير إلا عند حلول الاعياد. وظل مقتنعاً أن هذه هي سنة الحياة، أن ما جرى كان لا بد أن يجري، وليس هناك خيار آخر. ظل يرى في كل حادث أو فعل حكمة علوية لا يعرفها ولكن لا يشك قط في خيرها المطلق وصوابها الأبدي.

بالمقابل فترت حركاته حتى كادت أن تنعدم. وراح يقضي الساعات الطوال مقتعداً إحدى كراسي الطين المنتشرة على أطراف ساحة البيت، يقرأ كتبه القديمة، أو واقفاً ويداه وراء ظهره، يتذكر أيامه القديمة، يعيش أحلامه القديمة، ويراقب الجيل الجديد من أولاده وأولاد جيرانه.

كان واقفاً يسمع دون أن يصغي. وكانت الشمس تنحدر. انحدرت مقدار قامة وهو يرى الاطفال ولا يعرف أنه يراهم. منذ شهور لم يأته طيف جده في المنام. ربما منذ وفاة أحمد. لا يتذكر. المهم، مدة طويلة. والبيت خال. أم أحمد مضت الى القبر لتشك حوله أغصان الريحان. كنعان في الجيش. أيوب في الحقل. وخولة وعبسي وأبناء الجيران يلعبون. يركضون. يصيحون. يبكون. يضحكون. وكان هو واقفاً.

بلا مقدمات، بغتة، دونما أية اشارة أو وعي سابق، خطر له أن الحياة قصيرة وأن الحياة تمضي. خطر له أن عبور الحياة تحت الجسر الذي وقف عليه لم يكن مجلبة للفرح بل للخوف. أن الايام والسنين والشهور ليست قارباً يستقله نحو الكون والابدية، بل شيء ينقص منه، هو بالذات. أحس نفسه تجيش بما لا يعرف ولا يعي، برغبة في ان يفعل شيئاً، أن يتمنى أمنية وتتحقق. ماذا يتمنى؟ وطمره خوف كغبار كثيف يتساقط. عندها لم يعد يسمع الصغار ولا يراهم. ودونما انتباه تحول الخاطر الى سؤال: ما الذي أنجزه طيلة هذه السنوات التي لا

يعرف عددها؟ مات من مات، وعاش من عاش، واشترى أرضاً من اشترى. قامت البيوت والاعراس والحرب والجنازات، ومن يدري متى تقوم الساعة. ماذا فعل؟ ثم عاد الخاطر بقوة أكبر. لطمه لطمة كادت تفقده حضوره. تماسك. بذل جهداً موحشاً ليسترد وعيه بساحة الدار، وبجسده الواقف عند كرسي الطين. أحس بما يشبه الصديد نازاً من أنحاء جسده، متقدماً نحو حلقه. جرض بريقه. الحياة قصيرة والحياة تمضي. عاد الى رؤية الصغار وتفرّس فيهم: خولة، احدى عشرة سنة. عبسي، تسع سنوات. شداد، سبع. يونس ملحم، اثنتا عشرة. محمد علي الريحان، عشر. بديع خضير، احدى عشرة سنة.

كيف حفظ هذه الارقام؟ متى حفظها؟ لماذا حفظها؟ ما الذي أنجزه؟ أين أم أحمد؟ كم عمره هو؟ هل كان على خطأ؟ هل كان على خطأ؟ لم يكن على خطأ. كان على خطأ. هل كان على خطأ؟ ماذا فعل ليكون على خطأ؟ هل خالف؟ هل اعتدى؟ هل أسرف؟ أسئلة تساقطت في رأسه كحبات البرد، وعلقت هناك كخيوط الزمهرير. جاءت من الغيب. عقوبة. تفرس في وجوهها بارتياع متزايد خائر، وهو يكتشف مصعوقاً أن ملامحها ليست غريبة عليه، انه رآها من قبل مرة واحدة على الاقل، وان كان لا يعرف أين ولا متى. وخطر له أن هناك أسئلة كثيرة، لا تحصى، رماها في الزمان الطويل وراء ظهره، وها هي ذي الآن تتكون أمامه، حوله، فوقه، داخله. رغبات لا يعرف ما هي. خطر له أنه عاش متجاهلاً العيش. خطر له أنه فرح بالحياة، لكن الحياة لم تفرح به؟ لم يفرحها. فعل كل ما تعيّن عليه فعله، وليس ما أراد فعله. ماذا أراد؟ هل أراد؟ خطر له أن عمره كان سلسلة فادحة من الأخطاء الصغيرة، الحسابات الغلط. لم يخطىء. كان دائماً مسترشداً بالحق. أحمد سليم كان مخط.. أحمد سليم.. مر عامان.. ماذا بقي منه؟

نظر الى الصغار فرآهم يلعبون. يلعبون حقاً. باستغراق كلي، وغياب تام عن كل شيء ليس لعباً. الحياة ملك لهم. ملك ثمين. وليسوا ملكاً لها. كأنهم غير مسؤولين. لا واجب عليهم. لا همّ. وفاجأه منظر اقشعر له بدنه. كانت خولة قد ربطت أعناق عبسي ومحمد علي ويونس بحبل أمسكت طرفه الأمامي وجعلت شداد يسوقهم من الخلف. كانوا يركضون في شبه دائرة، إلا بديع خضير، الذي ركب غصناً وركض به في الساحة وراح يستحثه على العدو بقضيب رفيع.

دونما إرادة منه صرخ بصوت عظيم: «خولة!» وكان صوتاً مفزعاً خرج من جميع أنحاء جسده، وأصاب الصغار بضربة عقل. توقفوا.

«تعالي هنا!» قال لها بهدوء. راقبها تترك الحبل، تنظر الى الآخرين بحيرة آسفة، تتقدم حتى تصل اليه، وتقف أمامه بانصياع.

ـ ربطت أخاك وابن عمك بحبل. تشوفين أنهم حمير يا ترى؟

ـ نحن نلعب. هذا لعب.

أيضاً دونما إرادة، ارتفعت يده وهوت على وجهها. ومع الدوي برم رأسها نحو الكتف، تطوحت وسقطت على الارض، وانفجرت من فمه كلمات: «يا فاجرة، يا روح ابليس»!.

شاهدها وهي تتدحرج، ثم تهدأ على مبعدة منه، فكأن ثقلاً قد خرج من نفسه عبر يده، وابتعد عنه. وشاهدها وهي تنهض نصف نهوض، جسمها الممدد متكئ على راحتيها، ورأسها ملتفت اليه. تفرّس في العينين البليلتين الجامدتين. وانكمش شيء في أعماقه اذ لفحته نظرة إنسان مظلوم أخرس، لم تقل خولة شيئاً ـ سوى تلك النظرة. وكان ذلك كافياً: هذه الانثى! تتهمه، تقول له انه على خطأ. وبلمح البصر تحول الانكماش الى سيل من الغضب.

تلكأ قليلاً. خاف من غضبه فانتظره ليهدأ. ثم ناداها. نهضت وجاءت.

ـ تردين بوجهي الكلام؟

وجدت عيناه عليها اذ تحرك فيه الغضب.

ـ كنا نعلب، بس. كله لعب.

وشاء أن يصدق اتضاعها، وقد خشي أن يضربها مرة أخرى، فشرح لها فعلتها المنكرة:

ـ تربطين أخاك وابن عمك كالحمير، وتجعلين شداد، الأصغر سناً منهم، يسوقهم. وأنت البنت تجرّينهم!

ـ كنا نلعب بالدور.

انغرزت عيناه في وجهها: ما تزال تدافع عن نفسها!

ـ وتردين بوجهي الكلام! وأنت مسخة!

ـ أنت تكلمني.

ـ أكلمك، نعم، أكلمك. أنا أقول أي شيء أريد. الأب يقول ما يريد. البنت، في كل الحالات تقول كلامها بتهذيب، بخضوع ـ إذا تكلمت. أنت لا يحق لك غير هذا. أنت أنثى.

وانتظر ليرى ما إذا كانت ستقول شيئاً، فلم تفعل. صمتت. انتصبت قوية راضخة، تماماً كما أراد لها، ولكل أنثى، أن تكون. عندها هدأ صوته.

ـ أين أمك؟

ـ في الحاكورة. تقطف ورق التوت.

ـ روحي ساعديها.

مضت، أيضاً قوية راضخة.

فيما بعد، في مناسبات بعيدة، تذكر الجميع هذا المشهد: يونس ملحم عندما جاء يخطب خولة، وبديع خضير يوم جلس على مقعد الطائرة أول مرة، وعبسي عندما رأى أن للمال أسناناً قاطعة، وشداد يوم خرجت خولة من المحكمة وعيناها السعيدتان تسبحان في الدموع. وتذكره الشيخ عبد الجواد نفسه بعد أربع سنوات، في ذلك الليل المقمر الذي أعقب دفن أيوب، وقد مشى من البيت الكبير الى التلة الشرقية: مطرقاً، يداه وراء ظهره، غارق الذهن في لجة أفكار. كان المشهد قد توضّع في المكان الأعمق من راحة نفسه. كان برداً وسلاماً هبطا على مشاعر وأحاسيس تفاقمت حتى بلغت حد العذاب. لقد استرد يقيناً كان يهرب منه يومذاك، يوم وقف في ساحة الدار ورأى عالماً يفلت من بين يديه. بلطمة واحدة استرد العالم. كان الأموات في قبورهم، والعقاب نفذ في أحمد سليم. بلطمة واحدة أمسك بالعالم من جديد. كانت الأولى والأخيرة. بها أيقن أن الاحياء لن يضلوا سواء السبيل. أن خولة ستظل امرأة طاهرة حتى الموت. لن تلطخ شرفاً. لن تذل اسماً. وأن عبسي وشداد سيتابعان سيرة آبائها الأولين. وأن العالم الثابت منذ الأزل سيبقى ثابتاً الى الأبد. أنه رغم الموت والخطأ والتأرجح سيعود الى الله بنفس مرضية راضية.

لكن أيوب مات. مات بلا لزوم. وربما كنعان أيضاً: ففي هذه الحرب الغريبة انقطعت أخباره. لم يكن طرفاً في المعادلة. لقد غادرهم صغيراً، بعد أن ادعى أنه داوود واختفى. أحمد سليم وأيوب هما القطبان المتناوبان. ظهر الأول وغاب، ثم ظهر الثاني. كان أحمد عاطفة في القلب، كبرياء في النفس، حقيقة راسخة. ثم

صار قلقاً في الدماغ ـ عندما رفض المشيخة، ورفض الفلاحة، ورفض ابنة عمه، ورفض القنباز والشروال، وقبل المدينة، والخياطة، والقميص والبنطلون، والفتاة الغريبة. لسنوات كان المصدر الوحيد لهزات رجّت جدراناً في مطلق الحياة الذي بنى هو عليه مطلق عقله. ولأمر ما، لحكمة خفية، ظهر أيوب عام بدأ المرض المحير يغزو عنق أحمد سليم، ويمتص الحياة منه. هو أيضاً كان طويلاً، أسمر، فاحم الشعر، كبير العينين، عطوفاً زاهداً لا يجادل. لم يحلق لحيته قط، وتابع علوم الدين بدأب وخشوع. وقبل أن ينتهي أحمد، كان هو قد حل محله ومضى في الاتجاه المعاكس: شيخاً يليق بآل السنديان، فلاحاً يليق بقرية الشير، وابناً رضياً.

لكنه مات. بلا لزوم. وفي تلك الليلة المقمرة، والأب متوجه بخطى بطيئة ليزور قبر ابنه، تذكر اللطمة التي هوت على وجه خولة فأعادت عقله الى مطلق الحياة: كانت سلواناً كاذباً. كانت لطمة طغيان أبوي لا تقويماً لاعوجاج بنوي. الآن يعرف أن ذلك الخاطر كان حقيقة لا هاجساً. أن أحمد مات لأمر لا يعرفه، وليس عقاباً. وأن أيوب مات لأمر لا يعرفه أيضاً. لا يعرفه البتة. يعرف أن الكون قد نبذه، وربما باحتقار. أنه عندما حاول أن يصير حجراً راسخاً في جدران العالم كان مغروراً ومضللاً. أنه لم ينجز شيئاً ذا بال. أنه إن وجدت حكمة في موت أبنائه الواحد بعد الآخر، فهو لا يعرفها، وهو غير قادر على الرضى.

أدرك أنه حزين ـ حزن الواقف أمام الفضاء والجبل والبحر، حزناً نظيفاً وضاء لا أمل فيه، حزناً سببه الموت. وموت ليس حياة جديدة. انتهاء، وحسب.

تنهد، وسمع صوت تنهده. نظر الى الوديان البعيدة ومجرى النهر: كل شيء مسربل بضباب فضي كامد، الى الجبال الزرقاء القاتمة والسماء الغبشاء. تذكر جده، الروح التي نبضت طيلة ستين عاماً بين هذه التلال وقلوب الناس. كيف كان يفكر؟ كيف كان يعيش؟ فجأة وجد الشيخ عبد الجواد أنه لا يعرف. ألم يقلق؟ ألم تخطر له خواطر؟ ألم يحزن؟

كان جالساً على حجر منحوت عند ضريحي ولديه. وهتف: قل لن يصيبكم إلا ما كتب الله لكم. حسبه الآن أن يقيم توازناً بين الاحداث المتضاربة، بين موت أحمد سليم وموت أيوب. رجع من رحلة المطلق الى معرفة الذات والزمان. عاد لا يهمه ضبط القدر بل ضبط النفس. هناك شيء جديد يطل عليه كزرقاء اليمامة، وهو يريد أن يصل الى نهاية الخط واقفاً.

نظر الى القبرين وغامت نظرته. هذا هو أحمد وأيوب، تباعدا في الحياة، تقاربا في الممات، وكان كل منهما على صواب. هو ـ كان على خطأ. أمضى عمره وهو يقسر حياته وحياة الناس حوله على التطابق مع مثل أعلى رآه الآن مفتقراً الى العدل والحرية. تذكر الفترة المضطربة التي أعقبت وفاة أحمد سليم، وانتهت الى اعتبار موته عقوبة مستحقة. ومثلما حدث يوم ترك داوود في العراء ويوم لطم خولة، خرج من داخله صوت داوٍ ووصل الى شفتيه هامساً متعباً: «أحمد». أراد من ابنه أن يقف أمامه، في تلك اللحظة بالذات، وقد أدرك أن ابنه قد دفع حياته ثمناً لبطولة ايمانه وشجاعة نفسه، بينما هو، الشيخ عبد الجواد، لم يصل الى ذلك. كان أحمد شجاعاً فنظر في عقله، أحب وأخلص الحب، فكر وأخلص التفكير، عمل في الخياطة وأخلص العمل؛ أما هو، عبد الجواد الخياط السنديان، فلم يكن هكذا. هل صارح نفسه يوماً بمشاعره؟ هل اعترف بها؟ أين هي أيامه الحلوة، وأيامه المرة، أيامه العظيمة؟ لم يستطع أن يتذكر أنه أراد شيئاً طول حياته. انصرف عن النفس الأمارة بالسوء! أهوائها! وتلاوينها!

لقد وضعه موت أيوب على حافة الفقر، مثلما وضعه على حافة كل شيء: الحزن خاصة، والرضا بالممكن، والقلق. وأهم من هذا كله: اتهام الذات. وخطر له أن جده، كل أجداده، قد اعتزلوا هرباً من الحزن والقلق واتهام الذات. هرباً ـ وليس لسبب آخر.

بعد أربعين أيوب، شاهده الناس يحمل المحراث على كتفه العريض المتهدل، ويسوق أمامه شقيرة وخضيرة، بعد أن حلبتها أم أحمد في شقة الفجر، ويمضي الى نبع الجفون، الحقل الذي بدأ فيه حياته العملية وأنهاها.

عام ١٩٥٠: توفي الشيخ عبد الجواد.

في السنوات الخمس الأخيرة من عمره، كان أقرب الى النكد والصمت والشرود. بعد أن خاض ما خيل اليه معركته الاخيرة مع ولديه الاخيرين، انسحب. عندما جاء الخريف وآن لعبسي وشداد أن يغادرا الى المدرسة في اللاذقية، قال لهما إن أيام المدرسة انتهت. وقف الولدان مصعوقين، ونظرا اليه نظرة من لم يصدق ما سمعه. قال:

ـ أنا كبرت في العمر، يا ابني. يشهد الله لو أني قادر على العمل وحدي، لتركتكم في المدرسة حتى تأخذوا كل شهادة في الدنيا. أيوب كان في مثل عمركم وقت نزل الى الأرض معي.

وفوجىء بعبسي يقول بثبات وهدوء:

ـ أنا لن أترك المدرسة. بعد سنتين آخذ الكفاءة، وأصير معلماً.

عبسي الوديع، قال تلك الكلمات. وبقوة أكبر مما كانت في كلمات أحد.

ـ يا ابني، ستترك المدرسة. الخبز أهم من المدرسة. أريد من يساعدني في الفلاحة، وأمك كبرت على هذا الشغل، وآن لها أن ترتاح.

ـ خلنا ننزل الى اللاذقية. الخياطة أروح لك، وفيها مال كثير.

ـ لا. أنا لن أعيش عمر النسر. بودي أن أقضي آخر عمري مكان عاش أبي وأبوه وجده. رحمة الله عليهم. كان أخوك أيوب يرسل لك لتعيش في المدينة. الآن.. أنا غير قادر.

ـ وأترك المدرسة؟ أريد أن أصير معلماً.

ـ اشتغل أنت في الخياطة.

ـ أريد أن أصير معلماً.

ـ يا ابني، أسوأ شيء عرفته البشرية، أتدري ما هو؟

ـ ما هو؟

ـ المال واللغة. نعم. أراك تنظر إلي كأنك مستغرب، أو مستهزىء. المال يضيع العقل والأخلاق، واللغة تضيع الوقت. اعمل حسابك من الآن. أما انْ تنزل الى اللاذقية وتعيش على مسؤوليتك، أو تعمل معي في النهار وتقرأ أنت وأخوك في الليل. العمل، يا ابني. لم يبق لنا إلا العما. نحن فقراء.

ـ الى متى سأبقى أشتغل في الارض؟

ـ حتى أموت.

ـ وإذا أخذت الشهادة الثانوية؟

ـ لن أعيش حتى تأخذها.

وهكذا كان. توفي الشيخ قبل أسبوع من بدء الامتحانات، وبعد شهرين من زواج خولة. وطيلة السنوات الخمس عاش في فوضى الحياة وخلخلتها دون أن يعيد الأمور الى نصابها. صار يعتبر كل ما يحدث له ضرورة

لا مفر منها. لذلك لم يبد عليه أي اضطراب أو مقاومة عندما وصل به الفقر حداً أجبره على ترك الاحتفال بعيد الفطر. اعتبر الأمر مشيئة من الله. وعندما حل العيد دون ذبائح توزع على أهل الشير ودون برغل مطبوخ، نزل الى الحاكورة وأمضى سحابة يومه في قطع الجذوع والاغصان اليابسة، وتكويمها وراء البيت الكبير، كمؤونة لبرد الشتاء. وعندما مات خطيب خولة فجأة، رد الهدايا والتقدمات بلا كلام. كان موقناً أن كل ما يحدث له عقوبة مستحقة، وأنه لا يملك إلا الرضى. وعندما نجح عبسي في امتحان الكفاءة، وبعده شداد بسنتين، لم يجد في النجاح أي فرح خاص، مثلما لم يجد في وفاة ابراهيم السنديان أي حزن خاص. في المناسبتين الأوليين ابتسم مدركاً أن سبيل المدرسة سيكون مختلفاً تماماً عما ألفته الشير خلال قرون. وكان هذا الادراك قد عزز حساً غامضاً التقطه من قبل في لحظة هاربة، يوم جلس مع ابراهيم السنديان للمرة الأخيرة، وتحدث معه عن انتهاء الحرب العالمية الثانية واستقلال سورية. كان الرجلان مرتبكين. تكلما عن الحرب الغريبة التي اقتحمت وعيها، بحيرة رزينة رصينة، وتفاءلا بالحكم الوطني الجديد دون أن يعرفا لماذا. ثم أطرقا وصمتا صمتاً طويلاً، قطعه الشيخ عبد الجواد دون أن يرفع رأسه:

- كم مضى على العرب وهم غير مستقلين؟

- الله أعلم. ليس على زماننا ولا زمان آبائنا.

- يقولون إن لبنان صار دولة مستقلة.

- يقولون إن العرب صاروا دولاً كثيرة.

- وكلها مستقلة.

- الله أعلم. ألا ترى أنها كلمة غريبة: الاستقلال؟

- المهم أن العثمنلية والفرنسيين راحوا.

- صدقت. صار الواحد منا آمناً في أرضه.

- صدقت. ولكن كما تقول الاستقلال كلمة غريبة. كيف سيكون هذا الاستقلال؟

- الله أعلم. ستكون الجندرمة والعسكر من أولادنا، أخمن لك.

بعدئذ سقط الشيخ ابراهيم في غيبوبة متدرجة، اكتملت خلال أسابيع، ودامت نصف عام. أخيراً مات، فدفن للمرة الرابعة، بعد ثلاث محاولات سابقة ظنوه فيها ميتاً، ثم اكتشفوا الخطأ إذ سمعوا في اللحظة المناسبة أنين توجعه على بلاطة القبر. في الرابعة كان الشيخ عبد الجواد هو الذي أعلن موته، بعد أن وضع أذنه على صدر الرجل المسجى وأطال الإنصات حتى خاف الناس عليه هو.

كان حزنه على ابن ابن عم أبيه هادئاً شفافاً. لم يقل في وداعه سوى: سبقتني يا ابراهيم. وحرص على أن يقيم له مأتماً كالذي أقيم لجده الشيخ، استدان لأجله عشرين ليرة. وفي ما بقي له من الحياة جاءته المشيخة أخيراً فقبلها بلا حماس. قبلها كوجه من وجوه الضرورة التي لم يعد يتصدى لها وإنما يردها الى مشيئة علوية يجب أن تطاع. وفي الفترة الأخيرة، كان يمشي على دروب القرية فيراه الناس ويهمسون باسمه، ويتذكر المعمرون منهم جده الشيخ فيعقدون المقارنة: مثله تماماً، سوى أنه لم يسمح بتقبيل يده وهو ماش على الطريق. كان يؤثر الاحتفاظ بيديه وراء ظهره، والنظر لا الى الطريق ولا يميناً ولا يساراً، بل على مستوى أفق عينيه. ينظر، لا أحد يدري الى أين ولا الى ماذا. لكن أحداً ممن عبر بهم، ماشين أو جالسين أمام بيوتهم، لم تفته تحيته. كان يحيي كلاً باسمه، فكأن له عينين في صدغيه تريان الى ما حوله أيضاً. لذلك اقترب من أن يصير خرافة، وزاد التشابه بينه وبين شيخ السنديان السادس حتى خطر للأهلين أن يعتبروه السابع، لولا أنه لم يملك أرضاً ولا ثروة وكان أكثر

فلاحية من أكثرهم. بالنسبة له، كان يعرف قدر نفسه: إنساناً في المال، ضيعته فكرة ووجده حقل. لكنه تقبل الاحترام الذي منحوه له مثلما تقبل كل شيء: براحة رخوة وكبر زهيد.

على أن سورات غضب موسمية كانت تنتابه فتلقي الرعب في قلوب عائلته الصغيرة. كان غضبه يأتي من أعماق هدوئه. كأن كل ما قمعه أو أرداه طول عمره الذي لا يعرف طوله، يبعث حياً في أعصابه. وقد توقعوا هذا الغضب كلما ازداد رضى أو وداعة أو صبراً. لكأن يداً خفية ماهرة لحمت حد الهدوء بحد الغضب، وجعلت قرارة كل منهما ذروة الآخر. فجأة، بلا مقدمات، دونما أية إشارة أو وعي سابق، كان يصرخ في أحد أولاده صرخة تجمد الدم في العروق، وينفجر جبروت غضبه لأمر مثل زيادة الحطب في الموقدة، أو ينظر نظرة لا وصف لها إذ يسمع ما كان قد سمعه صامتاً: نقاشاً عن كروية الارض، إعجاباً بالخوارج، كلاماً بالانكليزية، ذكراً لأيوب وأيامه المجيدة، امتداحاً لكنعان لأنه ترك الشير ومضى.. عندها يشعر أن السيل قد بلغ الزبى. ينظر الى أولاده كغرباء نزلوا من أصلاب أخرى. يرى فيهم ميوعة لا حد لها، ورخصاً مسفاً. وينظر الى نفسه كغريب ألقته المقادير بين ثلاثة أعداء. لا كلمة تسمع، ولا طلب يلبى، ولا رأي ينال استحساناً. كل ما يفعله، يجدونه أخرق أحمق، وحتى عندما يصمتون عن مشاعرهم يرسل صمتهم اشارات استهزاء وسخرية. عبسي، عبسي نفسه، لم يقل «أبي» منذ مات أيوب. أصر على عبارة «أبو أحمد»، كأن كلمة «أبي» مذلة. أو قيد. تربطه برباط كريه ثقيل. كله من تأثير هذه الأفعى خولة. كان عبسي كالخاتم في يده. ولداً رضياً طاهراً مطيعاً. وصار متمرداً نمروداً حتى عندما يطيع. وهذا المسخ شداد، يلبي الطلب ويداه تنتران في الهواء وقدماه تخبطان على الارض. كأن الطلب الذي يطلبه أبوه، أبوه وليس الجار أو الغريب، رصاص يضطر الى حمله. وهذه الافعى. كأنها لم تعقد ذراعيها حول عنقه يوماً. كأنها لم تتدل على ظهره وتلبط بقدميها في الهواء. تربية أخيها العاق الأول. نسل. لا تقول إنهم من آل السنديان. كان عبد الهادي محقاً. منع أولاده منعاً باتاً مطلقاً من الاختلاط بأحد. حاهم. وها هو الواحد منهم يقف أمامه وركبتاه تصطكان، فلا يلحق يسمع الكلمة من أبيه حتى يلبيها. وظلوا في كنف أبيهم. لا اشتراكية، ولا فلاحين، ولا هذه الكلمات النابية تخرج من أفواههم كالزبل وهم يضحكون. كان عبد الهادي محقاً. هو، كان على خطأ. يجب ألا يعطى الولد كل ما يريد. كل عسلاً، واطعم ابنك بصلاً. ضحي في سبيلهم بالغالي والرخيص، براحته ووقته ورغباته ولقمته. بحياته. وفي النهاية «أبو أحمد». تكفهر وجوههم ساعة حضوره. خولة لا تنطق بحرف، لو ظل ساعة يكلمها. يتغامزون وراء ظهره. حتى السورة من الكتاب لا يجد أحداً يقرؤها له.

في تلك الحالات يخرج الى ساحة الدار وبيده جام من القمح. هنا لا يضطر الى المناداة. ثوان قليلة وتغف عليه عشرات الحمائم. على كتفه وصدره وذراعيه، على راحته تلتقط منها الحب. ثم يطأطيء. ينثر الحب أمامه، ويملأ راحتيه منه، ويهدأ إذ تزدحم الارض والراحتان بالحمام، بل ويبتسم. ويمد يديه فيمسح بهما على ظهور الحمامات، فلا تهرب ولا تتضايق ولا تراوغ. ثم يعود نافضاً يديه، وما يزال مغطى بالحمام، ملاحقاً به. يمشي بينه كما في الزرع أو شجيرات الذرة. يصل الى العتبة، والحمام كأنه يعانقه. يدخل فيظل الحمام بالباب، يرف، يختلط، يعلو، يهبط، كأنه يقيم تكريماً له.

في حالات الغضب المفلت، ينهض فيجمد الآخرون. وفي الخارج، دائماً في الخارج، يفتح قنوات غضبه على أول غرض يصادفه. مرة ذبح خروفين، سلق لحمها، طبخ برغلاً، وأمر الأولاد وأمهم أن يوزعوا كل ذلك على الجيران. مرة أوقف ولديه أمامه وقال لعبسي: «أنت خرجت على إرادتي، وخرجت على حياة الشير، وستخرج عن نفسك حتى لا تعود تعرفها». وقال لشداد: «وأنت ماش مثل النائم على طريقك، وستظل نائماً حتى يأتيك الموت فلا تراه إلا في اللحظة الأخيرة». ومرة أمسك فأساً وانهال على باب البيت الكبير وحطمه.

ومرة اجتث نصف أشجار الجاكورة، ثم نشر القطع حطباً وكومها حول الزريبة. مرة ظل يومين يمنع الحمام عن المبيت في أوكار أنشأها له من قبل في البيت الكبير.

ويوم سمع أن مريم خضير ماتت لبث ثلاثة أيام لا تمس يده الخبز ولا يرقد له جفن ولا ينطق بكلمة. ثم جلس مع أم أحمد عند التوتة الكبيرة وتحدث اليها. أليست هذه الميتة الشنيعة، الميتة النكراء التي لا يحدها عقل، عقوبة مستحقة؟ أجل، وإلا فما معنى أن تموت هكذا امرأة خرقت كل عرف وخلق؟ لم تجب أم أحمد. ولم يكن ينتظر جواباً. ثم سألها بهدوء شارد مبهم: «أليس مرضها شبيهاً بمرض أحمد؟» وشهقت: «ماذا جرى لك يا أبو أحمد! ماذا تريد أن تقول؟» وجمجم هو: «لم تفهمي. لم تفهمي.» وصمت. لماذا يتشفى بموت ابنه؟ رباه! ابنه البكر، أحمد! أي شيطان يدفعه الى أن يربط موت ابنه بموت تلك العاهرة، أية لعنة؟ يا للروح الضالة التي لم تهتد الى الله. بماذا يجيب وهو في القبر عندما يسأله أنكر ونكير عن نفسه؟ ماذا سيقول؟

بعدها حمل معولاً ومضى الى التلة الشرقية، وبقي هناك حتى الصباح. لم يجرؤ سوى أم أحمد على اللحاق به. شاهدته يحفر قرب ضريحي أحمد وأيوب، وعادت.

تلك كانت آخر نوباته. بعد أن أكمل حفر قبره بثلاثة أيام، مات. ولم يبد عليه شيء. اضطجع في فراشه، وتأمل البيت ثلاثة أيام متواليات، ومات. وكان موته أسرع عمل قام به في حياته.

عام ١٩٣٠: مات محمد آغا الغفري.

وكان ابنه حسن الوحيد الباقي من خمسة أبناء. قيل إن عمره يومذاك كان خمسة عشر عاماً. وقد جمع بيديه أملاكاً لا تغرب عنها الشمس، لأن أباه رفض توريث بناته الخمس. ولد وترعرع وسط الشير: حيث ترتفع من بداية نصفها الغربي. في الجزء الشمالي من الارتفاع انتصبت علّيته. ومن هناك أطلت على البيوت والوديان والبحر البعيد. المسكن الوحيد في القرية الذي تصعد اليه درجاً. المسكن الوحيد الخالي من الساموك، العمود الخشبي الضخم الذي يستقر على رأسه السقف. الوحيد المطلي بالكلس والمطل منه شباكان. الوحيد المؤثث: كنبات، سجاد، سرير معدني تنزل عليه من السقف غلالة شفافة بيضاء.

كان حسن الغفري عالي الهامة أيضاً، غنياً في كل شيء إلا اثنين: المشيخة وحب زوجته له. كانت أراضيه تكفي لأن يعمل عليها آل الغفري كلهم، فيقوا أنفسهم ذل المرابعة عند الآخرين. لم يتمكن من أن يصير شيخاً، فذلك ميراث محصور ومستعص، يتطلب غوصاً في آبار العلم لم يكن عقله مهيأ له. لكنه تمكن من أن يحمل أحد أقربائه الى سدة المختارية. لذلك ضمن ولاءهم له. وعلى نحو ما شعر براحة عميقة. ليس لأنه يهوى الزعامة، أو يستطيعها، بل لشعور آخر نابع من طبيعته الوديعة المحبة: خوفه من أن ينفضّ عنه الناس. لقد مات أبواه وأشقاؤه بسرعة. وكلما وارى واحداً منهم التراب أحس أن جزءاً من عالمه الغامض اختفى أو أكله النوم الأبدي. ويوم مات أخوه الأخير صار سيد الأملاك المطلق، فجزع جزعاً شديداً واشترى فرساً. أراد أن تأخذه الفرس لينتشر بين تلك التلال، كلما طوقته العزلة وصمت الدار الواسعة. ومن اعتلائها استمد شعوراً بالظفر والقوة واتساع الحياة. لكن الفرس علمته أنه لم يخلق فارساً. كانت تطيح به كلما اعتلاها، فتخلخل شيئاً من تركيب جسده. وبعد أسابيع من الاضطجاع والمعالجة يعود الى اعتلائها بالعناد الأصم المعروف في ليونته ودماثته، يتصيد ذلك الشعور بالقوة الراجحة الذي أراحه من عناء حاجته للبشر. والفرس لا تلين. لكأن فحولتها عاينت أنوثته، فراحت تعيده مرة تلو مرة الى الاضطجاع والمعالجة.

أخيراً باعها الى اسماعيل السنديان، وبعد عام تزوج مهرة من نوع مختلف، وصل صيت جمالها الى عشرين قرية مجاورة. كانت مريم خضير خرافة. جميلة الى حد الوهم. قيل إنها لنقاوة بشرتها كان الماء الذي تشربه يبين من حلقها. وكما هي الحال في مفارقات الحياة الغريبة، صار جمالها عقبة في وجه زواجها. مضى بها العمر دون أن

يجرؤ أحد على طلب يدها. وحين بلغت السابعة عشرة تلفّت أهلها حولهم في ذعر مستتر: غداً تبور البنت وتعنس. حسن الغفري وحده، السنجاب المذعور من محبيه وثروته، تقدم بخطى واثقة وطربوش جديد، واخترق الحاجز العصي.

كان عرساً تحدثت به الركبان. سبعة أيام بلياليها وساحة القرية تغص بالجموع الوافدة. كان النهار مأدبة، والليل طقوساً. من يعلم كم ذبيحة شويت على النار أو سلقت في الدسوت الهائلة؟ من يعلم كم جائعاً مزمناً شبع؟ وكم طفلاً كف موقتاً عن سرقة التين اليابس من بيت أبيه؟ في المساء كانت تلال الحطب التي حملتها فتيات القرية على ظهورهن ووضعنها في الزاوية الجنوبية الغربية، تذوب بالتدريج في النيران المضرمة. بلمحة عين يندلع اللهيب الضاري كأفاع برتقالية نصف شفافة، ويندفع في السماء كبرج بابلي ممسوس. وعندها يتقدم شاكر حزّيق ويدفىء طبله الضخم، ثم يضرب عليه ضربة يتردد صداها في جنبات الوديان المجاورة. ويعقبه فليفل، عازف المزمار، فيرد على الطبل بزخة قصيرة. وهكذا يبدأ الحوار. تتلاحق الضربات حتى تغدو إيقاعاً كرعد مهذب، وتتصل زخات المزمار حتى تغدو مطراً. يتوافد الشباب والرجال، وقد أحسوا أن الساحة حييت بالنار والموسيقى. ينزلون الى المرسح مباشرة، أو ينضمون الى الحشد المرتصف كالسوار حول عقد الراقصين. ثم تنضم اليهم النساء، وبعد قليل تتشجع الصبايا.

لم يبق أحد لم يرقص ويشبع الأكل في عرس مريم. وبعدها أثبت حسن الغفري أنه رجل كالرجال. في الصباح التالي لليلة الدخلة جاءت والدتها الى العلية، واستلمت من مريم خلسة قطعة الحرير البيضاء المبقعة بالدم. وانطلقت بلا توان ترفع شاهد البكارة وتزغرد في أزقة القرية حتى وصلت الى بيتها.

لكن حسن الغفري بدأ يعاني إرباكاً من نوع جديد. فمذ حلت مريم في بيته تعلم أن يبكي لسبب آمر غير الموت. أنْ يبكي من الفرح. كان يتأملها وهي تروح وتجيء في البيت، فتدمع عيناه ذهولاً وفرحاً. يرى الى هذا الجمال، هذا التكوين الرباني البديع، فتهدر نفسه بوجودها كالبحر. وأمام جزع غامض، يتساقط الهدير قبل أن يصير لغة أو فعلاً. كان يمتلك حساسية الشعراء دون شعرهم. بل إنه كان أبكم. لم تسمع منه يوماً أياً من صلوات لا عد لها كان يترنم بها داخل نفس شبيهة بالمعبد. لم يعرف كيف يستجمع قوة الرجولة، ويطلقها الى الذروة التي تلألأت عليها قوة الأنوثة.

لذلك بدأ يتضاءل في نفسها الشبيهة بالصحراء. ورأت عيناه تضاؤله. كان جمالها كبيراً كالحياة فأعجزه، صامتاً كالسر فأعياه. ومرة بعد مرة حاول إيقاف تدهوره أمام الجبروت الصامت لضعفها الأنثوي. سوى أن يداً خفية ضخمة كانت تعقله من حيث لا يدري. كيف يأتي بفعل من هذا النوع، هو الذي لم يذبح في حياته دجاجة، وقوامها الرملي يروح أمامه ويجيء مثل واحة: أعزل شفافاً باسقاً.

لذلك راح يتضاءل في نفسها الشبيهة بالصحراء. يصغر، يصغر حتى غدا بحجم ارتسامه على بؤبؤيها الاسودين الوحشيين. وكان يعرف. تضاعف جزعه. عادت اليه ذكريات الفرس. أحس أنه صار حبيساً في سعة أراضيه وجمال زوجته. وتحركت فيه قوة غاشمة منتقمة، كانت على الدوام تتحول الى مزيد من العطاء. ومثلما ألح على الفرس بالركوب، ألح على مريم بالترف. وانكفأت القوة الى داخله. راحت تقرع الطبول على رأس الرجل الصخري الثاوي في نفسه تحت تلافيف الدماثة والارتباك والكرم. والى أن يهدأ اليم ويتلاشى الضجيج، تزدحم الأساور والعقود على ذراعيها وجيدها، والثياب في خزانتها. لا فائدة. بعد الولد الثاني بشهور قليلة صارت مريم جندلاً وصار حسن مطرقة من تراب.

«مظاهر. كلها مظاهر»، همست كحلة في أذن وطفا. لكن هولا رفضت التفسير: حسن الغفري يحب مريم خضير، وهذا هو كل شيء. وعندها تطلعت كحلة حولها، واطمأنت الى أن أحداً لن يرى حركات رأسها؛

فهزته يمنة ويسرة وهي ترمق هولا برثاء: «أنت يا مسكينة لا تعرفين. اسأليني أنا. لماذا الهدايا» إذا كان حب؟» وردت هولا بكلمات ذات مغزى: «لأن الهدية تفرح قلب المرأة. لو كان أبو خليل حياً كنت تعرفين لماذا الهدايا». لم تتزحزح كحلة: «لا تغلطي. قلب تفرحه الهدايا لا يكون فرحان. لو كان فرحان لا يحتاج لهدايا». وابتسرت هولا النقاش بحسم: «مريم خضير حلوة، وتستاهل».

وهكذا داخت وطفا. كانت تحب مريم كما يحب الإنسان وردة في رأس الجبل. وساءها أن هذه الكائنة التي يفرح جمالها القلب، قد تكون تعيسة. فكرت في الأمر ملياً، غير أنها لم تصل الى خاتمة مريحة. وفي اليوم التالي مرضت. تحملت المرض. صلت وابتهلت الى الله لكن الله لم يستجب. وفي اليوم الثالث، ومن الحارة التحتانية، حملت جسمها المضروب بالحمى، وصعدت الدرب الضيق الى بيت الشيخ عبد الهادي الريحان. أربع مرات توقفت كي تخفف اللهاث الجائش في صدرها. استندت الى الجدران والعصا، وأجفانها العارية ترفرف وسط فيض الضوء الساطع. أخيراً وصلت الى الطاحون، ثم الى المعصرة، وفي النهاية الى بيت الشيخ.

لم تجد هناك أحداً. كان البيت الطيني الشاسع مفتوحاً، والدجاج يسرح بلا خوف أمام ساحته المرتفعة عن الطريق. وقفت لا تعرف ماذا تفعل، سوى أن تزداد اتكاء على العصا. بهذه الحمى وهذا العياء، أتعود الى بيتها لتموت، والشفاء على بعد خطوات فقط؟ للحظة واحدة، لعلها أقصر لحظة في التاريخ، واتتها الشجاعة لأن تتقدم نحو السور، تفتحه وتقف، عسى الشيخ عبد الهادي يكون جالساً في إحدى غرفه الاسمنتية ويراها. غير أن الشجاعة ذابت في حرارة ساقيها السائلتين.

شاهدت محمد علي يمشي على أحد أرصفة الحديقة، ويتقدم نحو الملفاف. طرفت أجفانها إذ راحت عيناها تدفدفان اليه وهو ينزل الدلو في البئر، نحو عمق الماء البارد. جرضت بريقها: أي شيء الآن يعادل رشفة من هذا الماء المبارك. بيت الشيخ وحدهم يملكون بئراً جدرانه مليسة بالاسمنت، وقاعه مرصوف بالحجارة. حوله تميس الورود للنسيم. وحول الورود تنتصب أشجار التفاح والمشمش والخوخ والدراق، مما لا يوجد مثله في الشير كلها. وبين الأشجار مزيد من الورود والأزاهير. وحول ذلك كله سور من القصب والدوالي.. لا شك أن شيئاً مثل هذا هو الجنة.

هتف محمد علي: ـ وطفا! ماذا تريدين؟

فانتفضت. طرفت أجفانها وتحركت أصابعها على العصا:

ـ دخيلة آبائك وأجدادك. الشيخ عبد الهادي موجود؟

ـ لا. عيونك تنزّ. أنت مريضة؟

ـ اي والله يا عيوني. الله يرحم أجدادك. قاصدة الله والشيخ عبد الهادي، يكتب لي لأطيب.

ـ أبي في البستان. أنا أكتب لك.

ـ أنت يا عيوني؟ صرت تعرف؟

ـ أنا الذي يعرف. أبي علمني. ولا تقولي يا عيوني، عيونك تنزّ.

ـ دخيلة آبائك وأجدادك. اعطني يدك لأبوسها.

واندفعت نحو يده. طأطأت تحاول إمساكها وتقبيلها. وإذ سحب يده متأففاً، ترنحت العصا وترنحت وطفا وسقط الشيئان. اندفع محمد علي الى الغرفة الطينية كالسهم، ثم عاد يحمل كرسي خيزران. أنهض الجسد المعجون بالحمى، وأجلسه على الكرسي، محاولاً أن يتفادى سيل لهاثها المعتكر بالمرض وكلمات الدعاء.

ـ اسكتي، لا تحكي. وإلا أصبتني بالعدوى.

ـ سكت، سكت. الله يرحم أجدادك. سكت.

ومشى الى الحديقة.

بعد قليل عاد يحمل قلماً. اقترب من وطفا اقتراباً شديداً حتى رفرفت أجفانها، وطأطأ فوق جبينها الذي ارتفع. بلل القلم بلعابه واتخذ الجبين دفتراً. وعاد فبلله ثانية، وتابع الكتابة.

بعد أن انتهى، قال لها بصرامة: ـ روحي اقعدي في فراشك. لا تتحركي منه. بعد يومين ينتهي كل شيء.

وهكذا كان. في اليوم الثالث جاءته بدجاجة مسمنة، مذبوحة ومنتوفة ومغسولة. وضعتها أمامه وقبّلت يده عنوة، دون أن تكف لحظة واحدة عن الدعاء، ثم مضت.

سأله عبسي: ـ وماذا كتبت لها؟

فأجاب: ـ هيهات يا بو الزلف، عيني يا موليّا.

وضحك الاثنان.

انسحبت وطفا ولكن ليس الى بيتها. مضت الى الحارة الوسطى، وغاصت في البيوت واحداً بعد الآخر. وختمت زياراتها بجلسة مع مريم خضير طالت وقتاً يكفي لأن تضع دجاجة بيضتها. ثم عادت بخفّي حنين. كانت مريم لطيفة، ودودة، كالعادة. أعطتها نصف ليرة، ولكن لم تعطها شيئاً. حتى في الحارة الوسطى، لا أحد يتكلم. لا أحد يقول كلمة، ولو صغيرة. كأن الأمور على ما يرام. ولكن لماذا سيرة مريم دائماً؟ الكل يتحدث عنها. لا يخلو مجلس من الحديث عنها. والحديث يطول، ووطفا لا تستطيع أن تجمع شيئاً منه. لماذا لا بد من الكلام عن مريم؟ ولماذا لا معنى لهذا الكلام؟ غمزة هنا ولمزة هناك. ابتسامة ملغزة. نبرة خاصة. ووطفا تمسك بالغمزة فتفلت منها اللمزة، تبتسم مع الابتسامة وتضيع في النبرة الخاصة. حتى عنيترة وريما لم تعطيا ما يبلّ الريق.

بعد شهور انفجرت الحقائق. خرجت كالعادة من مقهى أبي ضرغام. بسطت على دروب القرية وداخل البيوت، وتجمّعت عند ريما. وخلال ساعات تمكنت من أن تشرح لوطفا: مشاوير تامر خدام الليلية لها علاقة بمريم، ومرور عيسى محيسن على ظهر القرية الجنوبي له علاقة بمريم، واختفاء فضل الأسمر ثلاثة أيام بلياليها له علاقة بمريم، وإجازات شكيب الغفري لها علاقة بمريم. هؤلاء جعلوا من كثرة التلميح والنبرات الخاصة بلا معنى حقيقة لها معنى. كانوا يفتخرون فخراً غامضاً مبطناً بالإشارات الجنسية، سرعان ما صار في أذهان سامعيهم وقائع دامغة. وكثرت الوقائع، واستعصى حبسها في جراب الابهام، فخرجت. دفعة واحدة، وإذا هناك قصة وقصص وروايات، اكتست بالألوان والتفاصيل وسمّدها الخيال. واستمر الغمز واللمز حتى بالنسبة لسويلم الاسكافي وحيمود المبيض ونديم الحداد. بعض الغمز واللمز صار حقائق جديدة، وحل محله غمز ولمز جديدان. وتتابعت السلسلة.

إذن: تحولت مريم الى مضغة أفواه. تحول الحديث عنها من مجرد رواية جرداء لما جرى، عارية من المشاعر والآراء، الى فن في السرد متلون بالخيال، مفعم بنكهة تفسير الدافع واستقصاء حالات الشعور. صارت القصة الواحدة قصصاً، لكل منها صورها وظلالها وإناراتها. وسمن الفن فصار تفنناً، إذ عانت مريم بعد سقوطها الجنسي، سقوطاً آخر في نوازع الرواة المحتدمة وقد انطلقت من أعنّتها.

أبو ضرغام تكلم بلا مبالاة ساخرة، تميمة بنت أبي مفلح تكلمت بتشفٍّ، الشيخ عبد الجواد تكلم بغضب

مستتر، ربما تكلمت بأسى، الشيخ عبد الهادي وزوجته تكلما بترفع، الحاج فهد أبو المضافة تكلم بعنكبوتية مأثورة، ورضا المجنونة تكلمت بجموح خيال متقطع. كثيرون أعطوا أوصافاً حسية مباشرة طرزها الكلام السفيه والنهنهات المسبطرة. وانتقلت الروايات الى مخيلات اليافعين فكوتها بمشاهد أفلتت في السر من كل رقابة وحولت مريم الى فريسة لافحة رائعة، معبودة ومحتقرة، مؤلهة ومستباحة.

زمن قصير، سنوات قليلة، تلك التي جعلت من مريم خضير حضوراً راسخاً في وعي الشير، انضاف بلا عناء الى حضور آل السنديان الآفل، ثم احتل مواقعه. وكان يطيب لأبي ضرغام أو الحاج فهد، أو كحلة، وحتى لرضا المجنونة، سرد قصة مريم بتفاصيل غير محتشمة ثم الانتقال الفوري السهل الى التمسك بأهداب الأخلاق الراسخة على مر أجيال منسية. لقد اتسعت الشير على ضيقها للحضورين معاً، ولحضورات كثيرة أخرى كان لا بد ان تنبثق من السهول الصغيرة والسفوح والوديان الغنية والقمم الشجراء.

على أن مريم ظلت قادرة على أن تستخلص من تلك الأفواه أجمل الكلام والاحترام. شيء واحد على الأقل كان دائماً في مصلحتها: لم يسع أحداً من أهل الشير أن يكرهها. وإذا ما خطر لأحد مثل زوجة الشيخ عبد الهادي أن يعاملها بفوقية مترفعة، فسرعان ما كان الخاطر يذوب بكيمياء عذوبتها ووداعتها. كيف يمكن لأحد أن يجرح مخلوقة تمشي كالحجل، كما قالت خولة بعد ربع قرن من موتها، وكانت قادرة على إلغاء الحزن والهمّ والحقد من قلب الكافر، كما قال حسن الغفري بعد ثلاثين عاماً. لذلك استقبلتها أم أحمد بتلكؤ أنيس ذات يوم، إذ رأتها مقبلة تلمع وتفرفر كأوراق الحور في مهب النسيم، وقد ازدادت جمالاً بفضل الرذيلة. دعتها وهي تبتسم الى الجلوس على المصطبة الطينية. كان الحديث عادياً، بل بشوشاً، وكأن مريم ليست بطلة خرافية لقصص واقعية، وكأن أم أحمد لا تعرف. لكن أم أحمد أوصلت الحديث الى النقطة المحرمة التي لم يستطع أحد ممن جلس مع مريم أن يوصله اليها. وبصراحتها المحبة الغفورة قالت:

ـ يا لك يا مريم. ما هذه القصص التي حواليك؟ حتى مع سويلم الاسكافي؟ دنئت نفسك الى هذا الحد؟

وهزت مريم رأسها مثل مضطهد عاجز ولكن لا يحقد على مضطهديه:

ـ ترين يا أم أحمد، ترين؟ حتى مع سويلم الاسكافي! لا أعرف ماذا فعلت لهؤلاء الناس.

ـ يعني كله كذب يا مريم؟

ـ ولو يا أم أحمد. حتى أنت؟ انظري الى وجهي. ترينه مكتوباً عليه شيء من هذا الكلام؟

ـ والله يا مريم وجهك مثل الملائكة، بلا تشبيه..

ـ وبعدئذ، ما له، حسن؟ شاب مثل الشباب، وأكثر. غني. كريم. محب. وأنا ماذا أريد؟

لم تحفل أم أحمد بسؤالها الأخير. تابعت معها الحديث، وسرعان ما وصلتا الى موسم الزيتون وبيع التبغ. مريم نفسها لم تحفل به، رغم وروده على لسانها ولسان حسن: في مناسبات الشجارة النادرة التي زوبعت بينهما قبل أن يرضى نهائياً ويبدأ مسيرة حفلات باذخة انتهت بانتهاء حياة مريم. لعلها فعلت ذلك فيما بعد، عندما التقت باسماعيل السنديان في ذلك الأصيل، وعندما اصطفت بدر جندار بعدئذ عشيقاً وحيداً.

كان أصيلاً فظاً جبلاً، عصفت بسمائه ريح الشمال الثلجية الموحشة وطردت كل غيمة هناك، فما ترنحت الشمس على خط البحر في الفج بين الجبال البعيدة. كانت يداها تطوقان وسط حسن على مهرة روضها بدر جندار ترويضاً شديداً، قبل أن يمتطيها حسن ليفي بوعد قطعه على نفسه: أن يطوف بها على أملاكه منذ الصباح وحتى مغيب الشمس. وحقاً، فإذا توهجت ذرى الجبال بالنور القرميدي وصل الزوجان الى تخم الحقل الذي اصطدم بتخم أرض اسماعيل السنديان. كان الأخير يلوح في البعيد منتصباً على مهر يرمح به عبر التلال.

.فعة واحدة انتبهت مريم الى أمور عديدة: الفرس التي باعها حسن لاسماعيل يوم كان الأخير طفلاً في العاشرة، اكتشافها أن أيوب الخياط يريد الزواج وليس الحب، شعورها المختلط بالفراغ والاختناق والتداعي.. بعد سنوات، عندما روت لخولة قصتها على فراش الاحتضار، قالت إنها ساعة رأته على مهره وتأملته لثوان قليلة، داهمها ذلك السؤال: وأنا ما أريد؟ أحست ببساطة أنها تريد اسماعيل السنديان، ببساطة ولكن بامتلاء. التفتت الى حسن وقالت:

ـ لماذا لا تدعو أحداً من بيت السنديان الى حفلاتنا؟

ـ هؤلاء؟ هؤلاء مشايخ. ألا ترين عبد الهادي كيف يمنع أولاده من مصاحبة أولاد الضيعة؟

فصمتت لحظة تأملت خلالها الخط الفاصل بيت تخمي الأرضين، ثم قالت بنبرة عابرة:

ـ واسماعيل؟

وكان اسماعيل قد وصل تقريباً، فصمتا حتى ألقى السلام وأنقذ حسن من عناء القبول المباشر.

فيما بعد، قالت مريم لخولة إن جميع من أحبتهم قبل اسماعيل كانوا أناساً غريبين حقاً. انتقتهم بنفسها، لم تأت بهم اعتباطاً. تأملتهم طويلاً. تأملت حتى خطواتهم. منهم من رأته يهوي بفأسه على جذوع السنديان فيقطعها بضربة أو اثنتين. ومن رأته يشد قبضته على المحراث فتنغرز سكتهافي التراب حتى ليعجز الثوران المكدونان عن جرها. ومن رأته يسحب سدادة فتحة البركة فتندفع المياه العاتية وتضرب ساقيه العاريتين بقوة ظنتها كافية لقلع شجرة، وهو واقف لا يتزحزح. ومن رأته يلف بمنجل الحصاد سيقان القمح الهشة الرشيقة، ثم يجمعها في قبضته فتنخصر كقامة بشرية، ثم يرميها على الارض المحصودة فتنفرد قليلاً كما تنفرد خلايا المرأة بعد وصال رطيب. باختصار: راقبتهم في لحظاتهم الأكثر طبيعية، وهم غافلون عن أنفسهم، في لحظات كانوا والطبيعة شيئاً واحداً. وكل مرة، ظنت أنه مثلما النبع يجري ويسقي سيجري في نفسها الحب ويسقي، مثلما الجبل راسخ ستكون الطمأنينة في نفسها راسخة. وكانت تتمنى أن يتم اللقاء في عمق الوادي، أو امتداد السهل، في أجمة أو بين ضريحين..

وكان رد فعل خولة المباشر العفوي، الذي لم تعلن شفتاها عنه، أن مريم تهذي. غير أنها أنصتت.

قالت مريم إنها فشلت على طول الخط. كانوا يأتون اليها كما يأتي اللئيم الى مأدبة اليتيم، مثل من اقتنص حرية مجانية. وكان أعمق بهجتهم، الشعور الذي كاد يفقدها صوابها، أنهم يظفرون بزوجة الآغا، أنهم يختلسون شوال حنطة أو كيس تين يابس من موسم أراضيه. لماذا هذا الحقد عليه؟ هذا الاحساس باللذة العمياء لنهبه. كان يعطيهم فوق ما يحق لهم. ولا يرضون. ما شأنها هي بموسم أراضيه؟ وكانوا لا يتورعون عن إظهار سخريتهم واحتقارهم. وساعتها تطردهم كالكلاب. لأنهم جاءوا اليها كالكلاب. لم تسمح لأحد منهم أن يحتقره أو يسخر منه، هو الإنسان فوق الناس، الرائع النبيل.

حتى جاء إسماعيل السنديان. حسن لم يكن قوياً. كان صلباً وليس قوياً. وفي وهلات صلابته كانت رقته تضيع فتخلّف تمثالاً. وإذ يرق تختفي صلابته. إسماعيل خلق قوياً.

كانت زوجة إسماعيل قد توفيت منذ شهور، تاركة له ابنة وولداً. لذلك عاد إلى هواية اشتهر بها مذ كان في العاشرة: يوم امتطى مهرة حسن آغا وانطلقت به فغابت منذ الظهر إلى ما بعد أذان العصر. وبعدها عادت لاهثة مترهلة الخطا، ووقفت أمام بوابة الدار منكسة الرأس، انتصب هو على ظهرها واللجام بيده، وصافح بابتسامة واهنة نظرات أبيه وفلاحيه المذعورة الفخورة. فيما بعد، علمت مريم أنه وقد جمحت به الفرس، لم يدر ماذا يفعل فصمغ ساقيه على بطنها وتركها على حريتها.

بعد تلك الحفلة اطمأنت مريم. في الفترة الأولى جمحت به جوحاً لم يعرفه حتى الشلال المندفع من قلب صخرة الأموات عند خاصرة النهر الكبير. وتركها هو على حريتها. هامت به. فاجأها في غبش النوم، في منعطفات الوديان وأشواك الديس. وكانت تطعمه الحب الأسود وتقول: حب الديس للعريس.

لا يعرف أحد بالتحديد لم طالت القصة بين اسماعيل ومريم. وقد كانت قصصها دائماً قصيرة. بعد ثلاثة عقود من تلك الحوادث قالت ريما، وقد تكورت وتضاءلت بمرور السنين، إنه كان شاباً استثنائياً بالنسبة لشباب الشير. وقال محمد علي الريحان ـ بعد زمن مماثل، وبعد أن جيء بسيرة مريم كتحفة أثرية على مائدة عمرت بالويسكي والجن والشمبانيا ـ ان الأمر يعود إلى العشق نفسه، فلو أنهما تزوجا لخمدت حرارة حبهما بعد شهور قليلة. قال ـ وقد غادرت زوجته المائدة إلى المطبخ ـ ان اللقاء بالسر، خلسة، ولوقت قصير يدرك العاشقان ثمنه، يؤجج في النفس مشاعر وانتشاءات تكون في العادة خامدة بين الزوجين. وهكذا يطول عمر الفرح، ويقصر عمر الشكوى، ويجهض الاحساس بالعقم فلا يلد، خاصة إذا كان العاشقان من طبقة واحدة. مريم نفسها لم تكن واضحة عند هذه الفترة من تاريخها. وإذ راحت تنثر الكلمات المريرة جزافاً، اعتقدت خولة أنها دخلت مرحلة الهذيان التام. تكلمت عن السيطرة والعنف، عن التخبط والضياع. رددت كلمة الحرية مرات ومرات. وأخيراً استسلمت للسعال المنهك المدمر فصمتت ربع ساعة. لقد ولد الإحساس بالعقم، وخاصة بعد أن مات ولداها الأولان. وكان شيء آخر قد ولد أيضاً. خلال سنوات راقب آل الغفري كتّتهم وهي تنجرف. لم يفه أحد منهم بكلمة، فحسن آغا سيد رزقهم. وأي عمل يقومون به سيجر عليهم الفضيحة والذل أولاً بأول. ثم وصلت الأمور إلى ذروتها: صار تحركهم في القرية وذهابهم إلى الحقول أمراً لا يطاق. همس الفلاحين، نظراتهم الطويلة، ابتساماتهم الصامتة المتبادلة، توقفهم عن الحديث أو العمل. وفوق هذا، اسماعيل السنديان الذي لا يترك بنتاً من شرّه.

عندما بدأ التدخل كانت قصة العاشقين قد شارفت على نهايتها دون أن يعرف أحد. أول المتكلمين مع حسن آغا، أخو جده، عاد منه بإنذار حاسم أن من يفتح فمه بهذه السيرة يقطع لسانه. وعاد وفد من آل الغفري بالنتيجة نفسها. وذات مساء حل ذكور العائلة أنفسهم وجاءوا عن بكرة أبيهم إلى منزله. لم يتغير شيء: مريم امرأة شريفة ولا غبار عليها. قالوا ان ألفي دونم ورثها عن أبيه قد نقصت إلى النصف، بذخا وحفلات وشراء ألبسة وزينة وأثاثاً. قال لهم ان المرء لا يعيش حياته مرتين، وهو رجل يحب الحياة. رأوا أن يترك الحفلات، فرفض. قالوا له: طلّقها، فطردهم. أشاروا إلى منعها عن مقابلة أحد، فسخر منهم: ليس هو من يحجز حريتها وهي امرأة تحب الحرية. عرضوا أن يراقبوا تحركاتها، فانفجر صبره غضباً وشتائم. لم ييأسوا. ذهب الوفد إلى منزل درويش خضير، وتكلموا بصراحة. وفاجأهم درويش فأسكتهم: عاشت مريم في كنفه سبعة عشر عاماً فلم يمسها أحد بسوء، بعدها صارت ملكاً لآل الغفري وهو لا سلطة له، هو مجرد فلاح، صحيح أن عنده أرضاً صغيرة وبئراً، لكنه فلاح، ولولا حسن آغا لبقي مرابعاً. أسقط في أيديهم. التفتوا إلى بديع، أخيها الفتى المتعلم ذي البأس والشجاعة. هز كتفيه بلا مبالاة وظل صامتاً.

بعد شهر من الذهول والاحباط، قرروا بدء العمل. بعضهم أراد قتل حسن آغا، وبعضهم أراد قتل امرأته. لكن ذكر الدرك أشاع الرعب في قلوبهم. وخلال أيام اتفقوا. أحكموا طوق رقابة على دار حسن آغا وعلّيته. من البيوت والدكاكين، على الأسطحة، عبر الحواري.. كانت أعينهم تصوب على الدار وهم يسهرون ويتسامرون. حتى فسحة الأرض الفاصلة بين الدار والبيوت كانت معبراً لمشاوير ليلية، ينتهي أحدها ليبدأ الآخر. بالطبع لم يخطر لأحد أن يراقب الناحية الشمالية. فالجرف الصخري الذي قامت فوقه الدار والعلّية أشق من أن تتسلقه أفعى. وبالطبع، كان إسماعيل يتسلق حبلاً تربطه بساق السرير وتدليه من النافذة.

للمرة الأولى منذ ثلاثمئة عام، ملأت حياة الشير قصة جديدة تماماً ومسلية. من قبل، حدثت قصص حب

جامحة. لكنها سرعان ما كانت تخنق في مهدها، أما بقتل المرأة وإما بقتل الرجل. كانت القرية محكمة الانسداد بحيث تفضح كل علاقة من هذا النوع. وإذ تفتضح تنتهي. ويبقى الشرف في حرز حريز، إلا ما ستر الرب. لذلك كانت مفارقة، وربما تناقضا صارخاً، أن تنبت من تربة الشير سيرة كهذه، تحكمت بها الغريزة، وقادها بحث أعمى عن الحرية والحب. أن تبدأ كنقطة بيضاء، مثل دودة القز، ثم تفقس وتتحرك وتنمو، أيضاً كدود القز، وتلتهم الورق الأخضر للأخلاق والتقاليد العريقة. وبعد هذا كله أن يدخل ابن شيخ الشير نفسه شرنقة مريم خضير، ويعطي ذلك اللون المميز لنسيجها الذي حاكته من عشرات خيوط نسلتها من كل بيت.

في هذه القرية التي لم ترسم قط على خارطة ولم تذكر في كتب التاريخ، انتبه الفلاحون إلى سيرة لم يعرفوها من قبل: عشق وتحديات وعائلة تنهض لشرفها، إصرار على القتل، وخوف من الدرك تارة ومن ثارات آل السنديان تارة أخرى. وخلال أسابيع تشكل حول طوق الرقابة طوق آخر فضولي لمراقبة المراقبين، فضفاض وأوسع قليلاً. وسرعان ما تشكل طوق ثالث ليستخبر من مراقبي المراقبين. وصار ليل الشير ترقباً ساهراً مشبوباً، وأحاديث لم تكن للحرب العالمية الثانية ولا للاستقلال سوى حصة الأرنب فيها. حتى الشيخ عبدالجواد تساءل ما الخبر. وعندما قيلت له كلمة أو كلمتان هتف بحنق أربد: «لعنها الله!» ومضى إلى خيمته.

أخيراً تكلم حسن آغا الغفري لزوجته:

ـ يا مريم، وضعت رأسي في الوحل.

ـ حاشا يا حسن. سأكفيك شرّهم جميعاً.

ويومها أغلقت النافذة. أطفأت السراج، ونامت وزوجها متعانقين عناقاً طويلاً باكياً. وانتظر اسماعيل في قعر الجرف حتى جهجه الضوء. تارة يقذف بالحجارة الصغيرة أي مكان، وأخرى يسكت حمحمة حصانه. وأخيراً ذهب. أخيراً انتهت القصة.

ثم جاء بدر جندار. لم يجيء. كان دائماً حاضراً. كان بدراً حقاً، شاباً بهي القامة، شرس المحيا، مرابعاً عند حسن آغا منذ ولادته. وخلال تلك السنوات الطويلة، رآها مراراً وتكراراً. لكن ما بقي في الذاكرة هو تلك النظرات الخاطفة التي اصطدمت بالعتم وانكفأت بلا توتر ثم ضاعت. مع خيط الفجر الأبيض كان يقبل حاملاً النير على كتفه وسكة المحراث بيده، ليسوق الثورين الأسودين من حظيرتها تحت العلّية. وإذ يتمطى ليزيل آثار النوم عن جسده المربوع، يراها متكئة على افريز السطح أمام العلية وقد جافاها الكرى. وبعدئذ يفد النهار، والمساء، فيتقابلان مرة أخرى. ولكن بلا معنى، بلا ذاكرة. هي تطلب ـ أي شيء تريد، من الابرة حتى الجمل ـ وهو يلبي.

ثم حضر المعنى. وحضرت الذاكرة. بلا مقدمات، دونما إشارة أو وعي سابق. لكأن تلك النظرات تراكمت كما تتراكم حبات القمح المذرّاة على البيدر لتصير كوماً مفاجئاً. قالت لخولة وهي تلهث كلماتها في آخر لقاء لها مع البشر، إنها متأكدة من أن ذلك الفجر الذي أحست فيه ببدر جندار لأول مرة واعية، كان نفسه الفجر الذي أحس فيه هو الآخر بحضورها الأنثوي. لقد قال لها ذلك. قال انه أحس بنسمة تتغلغل فيه، وهو يرى بطنها المنتفخ في شهره الخامس، ويكتشف فجأة أنها صارت أروع كأم وأجمل.

هنا، في ذلك اللقاء الأخير، تحايلت على جسدها وقعدت. حكت لخولة حكايات لم تستطع هذه أن تصدقها ولم تستطع إلا أن تصدقها. كذبتها لأنها خشيت أن يتهدم فيها سور بناه عبدالجواد السنديان لبنة لبنة، وصدقتها لأن ما روته مريم كان فقط حكايات الأمس القريب. كانت الرقابة قد انفضّت، ومريم قد استردّت حرية اخترقت كل سور كي تصل إليها. هذه المرة تصرفت بحكمة. لم تترك فرصة للشك أو الوقيعة. شيء ما

في مخيلتها كان قد تصلب: هذه الأنماط المقيمة، العقول المسترخية، النفوس الملفقة - دخلت في ذهنها باستفزاز كابح. لكنها لم ترعو.

عندما عرفت أن بدر جندار قوي لا كحسن، رقيق لا كإسماعيل، معدم ولا يطمع بالملكية - عرفت أنها أخيراً وجدت الحب. كل إنسان تكرس لأجله، حتى ولداها المطرزان بالثياب والأحذية البيروتية. كل شيء تكرس لأجله: الطعام الخاص، أثاث جديد لبيته، فرس خاصة به. أعفته من شغل الفلاحة والبساتين، لكنه رفض. لم يشأ أن يغير من حياته خارج العلّية. لم يشأ أن يستفيد من بيئته الجديدة. بقي مرابعاً. ظل يحترم مريم وحسن والأولاد والعائلة، ويفرض احترامه عليهم. ورغم أن حسن آغا عرف، استمرت العلاقة بين الرجلين كأن أحداً لم يعرف.

مر عامان على الحبيبين. تغلغلت مريم فيه كجذور الجوز، وتغلغل فيها. عبر تلك الأيام، صارت امرأة أخرى. تجوهرت بالحب. تفتحت بالحرية. تخمرت بالفرح. وصلت إلى قرارة العيش. أعطت عطاء امرأة في الثلاثين بلغت أشدها، عطاء أرض عرفت غرزة المحراث، فتفتحت في طريقه، وتمرست بتفتيت حبة القمح وبعثها. وقد أحبها بدر لأنها كذلك، وأحبته لأنه فلاح.

من يدري ما هي الطبيعة الحقيقية للحب؟ كيف يتجلى وكيف يندفق. عبر تلك الأيام اخترقت مريم أسوار الشير واحداً بعد الآخر. أحياناً بوعي وغالباً بلا وعي، ودائماً مدفوعة بالخضم المزداد هديراً في نفسها والمتأبي على كل قيد. بقي سور واحد فقط: زوجها. كان قد تهدم حتى كاد يتسوى بالأرض. لكنه سور على أية حال، والذي يعدو لا بد أن يرى فيه نتوءاً غيابه أروح من حضوره. إنه بقية من الشير في حياة تخلعت وانفلتت. وجاء حين فرض فيه الحب على مريم حاجة عاتية إلى الوحدانية. حسن، حسن آغا، حسن الغفري - بات لبلابة تتسلق حيث ينبغي أن يهب بدر. وخشيت أن حياتها قد باتت قصيرة.

باختصار، كان لازماً أن يغيب حسن. يموت. وكيف يموت وقد تجاوز العمر الذي يموت فيه أبناء الشير؟ عندما بزغت الفكرة في وعيها جدتها كنوع من الهول. حسن - يموت؟ وبعد قليل رفعت قدماً كأنها صمغت بالأرض، ودلفت نحو النافذة. كل هذا العمر الذي مضى، وهي كمن تطير في الحقول أو تستحم في الأنهار، لم تنتبه إلى عقبة أو دورة أو وقوف. وها هي ذي أمام منعطف، نظرت من النافذة إلى البحر والفضاء الرحب وتموجات الطبيعة، ورأت نفسها داخل الغرفة. يجب أن تقتل. نعم. يجب أن تبقى لبدر وحده، وإلا زنخت نكهة العمر.

في ذلك المساء أحست بالصعوبة لأول مرة. عرفت حقاً أن كل ما اخترقته من قبل كان هيّناً، وأنها الآن أمام الاختراق الصعب. كل شيء رتّب بدقة، وصمت. حتى بدر لم تقل له. كان يجلس في الغرفة الكبيرة على كنبته المألوفة. ورغم شجاعة إضافية استمدتها من حضوره تلكأت. نادت الخادم من غرفتها الداخلية وهي تنظر إلى الباب نظرة خثرة فارغة. أقبلت الخادم.

- يا يمامة، صحن الأكل على طرف الخوان، هذا لبدر. ضعيه أمامه ليأكل، وقولي له أن يأتي الصبح.

كيف حدث الخطأ؟ هل تعمدت يمامة الخطأ؟ هل دفعها آل الغفري إلى الخطأ؟ لم يعرف أحد. لكن الذي حدث حدث. ومثلما انتبه عبد الجواد إلى الخطأ بعد فوات الأوان، كذلك انتبهت مريم. بعد دقائق: صرخ بدر، هبت هي من غرفتها، صعد آل الغفري على الدرج. كانت الصرخة ذئبية. وكان الشباك مفتوحاً. وكان صحن الطعام نصف فارغ وكان شكيب الغفري أول الواصلين إلى الباب.

بهدوء جليدي سألت مريم خادمتها: - ماذا حدث؟

وردت البائسة والكلمات ترجف في فمها:

ـ قال: قتلتني يا مريم. سمع صوتهم. رمى حاله من الشباك.

ثم ازدحمت الغرفة، بآل الغفري أولا ثم بحسن. وقفوا جميعاً: مريم عند الباب الداخلي ونظرتها الجليدية تصد نظراتهم المتشفية المتهمة، وحسن صامت ضائع العينين بين الفريقين الصامتين. أخيراً عاد شكيب يحمل جروا. أفلته على بقية الطعام. اندفع الجرو وأكل. وبعد دقائق عوى وتلوّى ومات. وكانوا ما يزالون صامتين. أطرق حسن، لا خجلاً ولا غضباً، بل حزناً.

قال شكيب: ـ والآن يا خال، ماذا تنتظر؟ كان لك هذا الصحن.

ـ اخرجوا من هنا. أنتم لا شأن لكم.

بهتوا. لم يتحركوا. لكنه واجههم بنظراته الصلبة العريقة دون أن يحرك ساكناً. وأمرهم:

ـ اخرجوا كلكم. لا أحد يبقى هنا.

خرجوا. وفي الصباح دخل الدرك. كان بدر قد مات ـ إما من السم وإما من السقطة. حمله الجيران من قعر الجرف مغمى عليه ووسدوه ذراعي أمه الناحبة. وبعد نصف يوم خرج حسن ومريم من الشير إلى الأبد.

في اللاذقية تلقفها سجن الرمل. وتتالت الأحداث بسرعة. خلال خمسة أشهر باع ألف الدونم المتبقية كي يضمن لمريم براءتها. وهكذا انتهى آغا وانتفخ آخران. فالمشتريان الوحيدان كانا الشيخ عبد الهادي وعبد الرحمن بيك. وبعد ثمانية أشهر حل عبد الرحمن بيك في العلّية ليستمتع بليالي الصيف والمناظر الجميلة. وفيما بحث الشيخ عبد الهادي عن مرابعين جدد لأراضيه الجديدة، وأقام عبد الرحمن بيك سرادقاً على سطح الدار، وجد آل الغفري أنفسهم عاطلين عن العمل. بالطبع لم يشاءوا أن يعرضوا خدماتهم على الشيخ، فبعد كل شيء هو الآغا وهم المرابعون. وظن هو أنهم سيأبون العمل عنده. كان رجلاً بسيطاً، ويعرف أنه ليس خارق الذكاء. لم يفهم أنهم لن يأبهوا لمن يملك الأرض طالما هم يعملون عليها، حتى اقترح الفكرة عليه ابنه البكر مأمون. ويوم بدأ معهم اقتسام المحاصيل على البيدر، قبلوا العودة إلى الأرض دون أن يخسروا شيئاً من اتفاقاتهم.

الخاسر الأكبر كان أولاد مريم. هؤلاء تحركوا في القرية. ليس في أي مكان فيها، وإنما فيها كلها. بعد المحاكمة الأولى كانت آثار النعمة قد زالت عنهم تماماً: البدلات، القمصان الحريرية، الأحذية اللماعة، المناديل المطرزة. كانت يمامة قد احتفظت بهم، ثلاثة صبية وفتاة. وحين انتهت النقود التي أعطاها لها حسن، انتهت السنة الدراسية بالنسبة للأكبرين. لم يخطر لهم أنهم صاروا بلا مأوى. كانوا في حيرة من كل أمر. بالأصل لم يكونوا معتادين على زيارة أقاربهم. وعندما فعلوا لم يستقبلهم أحد. في أفضل الحالات كان شيء من الخبز يوضع لهم مع حبة أو حبتين من البصل وذرة ملح. وإذا ما بلغ العطف أقصاه أضيف الزيت في آنية صغيرة فخارية. حتى يمامة تغيرت. صارت جافة ومتذمرة. ثم اعتادت أن تتركهم بلا طعام. أخيراً تجرأت وخاطبت أخا جد أبيهم. كانت متلعثمة وباكية، لكنها لم تغفل ولو عن جزء من شكواها. وقال الجد ساخراً: «أولادنا؟ هؤلاء أولاد مريم يا يمامة. أولاد حرام. امنعيهم عن بيتك. خلي حسن يشتغل ويطعمهم».

أثناء المحاكمة الأولى كانت مريم هادئة. جلست في القفص تتصفح أعين الناس الفضولية بلا فضول. كان نصف سكان الشير، معظمهم تقريباً، باستثناء آل الغفري والسنديان، قد غامروا بركوب سيارتي أبي هاشم ومحمد الرطل، وجاءوا ليتفرجوا. شهود كثيرون ـ من أين جاءوا كلهم؟ ـ تكلموا ومضوا. ومريم ترمقهم عفو الخاطر، كأنها تنتظر ما بعد المحاكمة، أو لا تنتظر شيئاً على الاطلاق. وفجأة وقعت عينها على حسن، واقفاً يرد على أسئلة القاضي، يداه متهدلتان، ورأسه أيضاً. وعيناه. كله. وسمعت القاضي يقول:

ـ ولكن الكلب مات بعد أن أكل من الصحن.

وسمعت حسن، رأته وسمعته.. كان واقفاً، وقد كبت عيناه ذلاً، وساعداه ممدودان على المنصة كأنه نهض للتو عن الأرض، كأنه يهم بالسجود.

ـ يمكن أنهم أطعموه أكلاً مسموماً قبل أن يجيئوا به.

ـ إذن أنت تنفي أن تكون مريم قد وضعت لك السم في الدسم.

ـ نعم يا سيدي القاضي.

ـ وتبرئها من هذه التهمة.

ـ نعم يا سيدي القاضي. هي بريئة.

بكت مريم ـ بلا حراك، ودون أن ترف أجفانها.

بدت على القاضي حيرة واجمة. سأله وكأنه يحذره:

ـ وإذا قالت مريم غير ذلك؟ ستعتبرك المحكمة شاهد زور.

ـ مريم الآن في حالة غير طبيعية. كل عمرها طبيعية، الآن هي غير طبيعية. يمكن أن تقول كلاماً لا تفطن لمعناه. لكنها لم تضع السم لأحد.

ابتسمت مريم، وكانت ما تزال تبكي. وتابع القاضي بالحيرة والوجوم نفسهما:

ـ وأنت.. كنت تعرف بما بينها وبين.. بدر جندار؟

كانت القاعة كلها تعرف الجواب. لكن الناس صمتت لتسمع جوابه.

ـ نعم.

استمر الصمت. الناس، والقاضي، ومريم، وحسن.

ـ أما كنت.. تتضايق؟

ـ أبداً.

ـ لماذا؟ هذا دفاع عن الشرف. أعني، عمل مبرر ضد الاثم.

ـ كنت سأتضايق أكثر. أنا غير قادر على القتل. لا أحب القتل يا سيدي القاضي.

وكان الصمت مطبقاً، حتى ليسمع رنين ابرة تقع على الأرض.

في جلسة تالية حضر حتى اسماعيل السنديان، وأناس لم يعرفوا مريم ولا سمعوا باسمها ـ من قبل. جاءوا من القرى والمدينة على السواء. ملأوا المقاعد والممرات. غطوا الجدران.

وكانت مريم هادئة أيضاً. كانت ممتقعة الوجه، وبعضهم قال صفراء. وإذ بدأت الكلام، صعد صوتها إلى آذان عارفيها بنبرة جشّاء. سعلت مراراً. وضعت أصابعها البلورية على عنقها، وسعلت.

قالت انها وضعت السم في صحن أعدته لحسن الغفري كي يأكله ويموت. قالت انها تحبه، ما تزال تحبه، وانه أفضل إنسان في العالم، ولكن كان يجب أن يموت. لماذا؟ لا تستطيع التعبير. لم تعد تطيق ولو ظل شجرة يفصلها عن بدر. كلا، بدر مات بالسم، وليس من السقطة. متأكدة لأن بدر لا يمكن أن يموت من سقطة. هي تعرفه جيداً. كان شاباً قوياً كالصخر، لدناً كصمغ المشمش. كلا، هي لا تكذب. بدر أكل السم الذي كان مقصوداً لحسن. لا يهمها أن تموت. أصلاً هي ليست انسانة حية لكي تموت.

ثم لطم الوجوه المتدلية والعيون المسمرة صوت حسن الغفري. كان قد وقف دون أن يلحظه أحد، وصرخ:

- يا سيدي هذه المرأة تهذي. مريم فقدت عقلها. تريد أن تموت لأن سعادتها ماتت. مريم بريئة. أنا أعرف يا سيدي القاضي. مريم لا يمكن أن تقتلني. مريم تخجل مني. ما كان ضرورياً أن تقتلني. لم أمنعها عن شيء وكنت أحميها.

وعندما كم شرطيان فمه، نتر رأسه بحركة العنف الأولى في حياته وصرخ:

- بريئة! بريئة! فقدت عقلها!

في الجلسة الأخيرة أعلن القاضي أن مريم بريئة. وصعق الناس. كانت صفراء كالورس، متهدلة الصدر والبشرة. كان واضحاً أنها لم تفقد عقلها، وإنما رئتيها. لم تقل لخولة فيها بعد كيف عاشت في غيهب السجن. لكنها، إذ أفلتت سيطرتها على نفسها، وراحت تهذي وتدق القضبان بقبضتيها، تهالكت فجأة. تهاوت. أمسكت بالقضبان وركعت. حاولت المستحيل كي تكتم سعالها. انفجر السعال. وبعده اندفعت من فمها كتلة صغيرة حمراء، سقطت على الأرض بين منصة القاضي وأعين المتفرجين.

توقفت الحركة وتوقف الكلام. كذلك توقفت الأعين على مريم، التي هبط رأسها على القضبان وأطبقت أجفانها. بعد هنيهات انحلت أصابعها عن القضبان، وارتخى جسدها فاتخذ وضع الاتكاء. كان حسن يحاول بلا فائدة الوصول إليها، والشرطة تمنعه. ثم هدأ: شاهد عينيها تنفتحان وترسلان إليه ابتسامة شاردة خابية. بعدها جالت عيناها في القاعة مثل كاميرا بطيئة لا فيلم فيها، وهدأتا على وجه شكيب الغفري: رأته ينظر إليها متشفياً ضخم الجثة والحنكين. رأته متبجحاً منتصباً بعنة الشرف والأخلاق الرفيعة. نظرت إليه باحتقار. ابتسم. حرك رأسه قليلاً، يريد تخليص وجهه من نظرتها. وعاد فنظر إليها بالابتسامة نفسها، وقد خالطها شيء من الانكماش، ونصف شيء من التوسل، كأنها تطلب من مريم رحمة التجاهل والصمت.

لم يتوقع أحد أن يهتم الشيخ عبد الجواد بقصة مريم. بعد أيام قلائل من انتهاء المحاكمة، توافد الرجال والشباب عند العصر إلى ساحة البيت الكبير، التي فرشتها أوراق الخريف. لم يشأ أحد أن يبدأ الحديث عنها، لكن الشيخ سأل. وأجيب. وقال شكيب انها فعلاً دست السم في الدسم، واعترفت، وشهادة الكلب الميت خير من شهادة خاله الحي. وكان الشيخ ينصت له بعينين ثابتتين ووجه جامد. وإذ انتهى الكلام هتف كمن استفاق: «لعنها الله!» وعاد فسأل. وقال شكيب ان ثمن ألف دونم من الأرض يكفي لإصدار حكم بالبراءة. وهتف الشيخ: «لعنها الله!» وعاد فسأل. وقال وسوف حيدان إن بدر كان يدخل البيت منذ طفولته، لذلك لم يرتب أحد في البداية، وعندما حدث الارتياب لم يستطع أحد منعه.. وقال شكيب انهم حاولوا منعه بكل الوسائل، ولكن عبثاً، ولولا أن إجازاته قصيرة لتصدى له بنفسه، كما أراد منه آل الغفري، إنما ما العمل، عيّنوه مسحراً بعد أن انتهى رمضان. وهتف الشيخ: «لعنها الله!» وعاد فسأل. وقالوا انها رغم تغاضي حسن آغا، حسن، عن كل شيء لم تستطع أن تتحمله، مع أنه لم يكن عقبة في وجه مباذلها، رضي ولم ترض، تحكمت بها رغباتها، وكان يخرج عندما تريده أن يخرج، ومع ذلك رغباتها تحكمت بها، هذه هي المرأة، شر لا بد منه، منذ بدء الحياة لم تتغير، المرأة والأفعى صنوان.

عند هذا المقطع من الحديث صمت الشيخ ولم يلعن مريم. تذكر أحمد سليم، الذي ظل يموت ثلاث سنوات ولم يتراجع. وتذكر أيوب، الذي مات بغتة. وكنعان الذي اختفى إلى الأبد. ويوم هوت كفه على وجه خولة. ويوم قرر بينه وبين نفسه أن موت أحمد كان عقوبة مستحقة.

التفت إليهم إذ سمع أحداً يقول:

- ما كان يجب أن نفتح السيرة في حضرة أبو أحمد.

وقال هو: ـ لا. رأيت أنت أني مهتم كثيراً بأمرها. والله، صدق بالله، إن قلبي يوجعني عليها. هذه المرأة الضالة. استسلمت لشيطان شهوتها. وهذا الرجل الضائع زوجها.. يا مسكين يا بدر. يا ضيعان شبابك.

وعاد فسأل: ـ والآن؟ ماذا حل بها وبحسن؟

بعد أن خرج الجميع من المحكمة، خرج الزوجان مخفورين إلى الشارع. وهناك تركتهما الشرطة. استأجرا عربة خيل أقلتهما إلى سوق العنابة. ثم مشيا حتى غرفته وسط حشد من الأعين المذعورة المتلهفة. كانت الغرفة فسحة ضئيلة تحت درج، انفصلت بجدار طيني عن ممر مظلم رطب يفضي إلى حارة داخل الحارة. فيما مضى، كانت مبولة لأطفال الحارة الداخلية ولعابري الزقاق. ولأن الرائحة صارت أكره من أن تحتمل، أقام أصحاب المنزل ذي الدرج جداراً للفسحة، ووضعوا فيه باباً ونافذة مقضبة. كانت غرفة ممتازة بالنسبة لحسن، الذي عز عليه أن يضيع مالاً على أي شيء سوى مريم.

وسدّها على الفراش القطني الرقيق، وجلس على الأرض ينتظر نهاية نوبة السعال.

فيما بعد، عندما استعاد شداد صور حياته الماضية، وهو يستعد للوثوب خارج شباك بيته، راعه أنه بات مشدوداً بين مصير أبيه ومصير مريم. تذكر أن أباه آب من رحلة المطلق متعباً واستقر في أرجوحة التوازن وتدبير الحال، بينما قفزت مريم من الأرجوحة ومضت نحو الأفق.

كان واضحاً أن مريم تتجه نحو أن تصير خرافة. وبعد خمسة فصول ذاع في بقاع الأرض كلها أن مريم خضير ظلت ميتة في غرفتها ثلاثة أيام. عرف أهل الشير أن رائحة النتن والتفسخ هي التي أجبرت سكان الحارة الداخلية على اقتحام الغرفة، وأنهم دخلوا وأبصروا الجثة ففروا هاربين بذعر غريزي، وأنهم أبلغوا بلدية اللاذقية بأنصاف كلمات وأرباع، ثم تقاطروا إلى الغرفة ليشاهدوا اخراج الجثة في تلك العربة المغلقة إلى حيث لا يعرف أحد. يومها سح حزن غريب في قلوب معظم أهالي الشير. حتى الذين استقبلوا النبأ بمزحة غليظة، أدركوا أن هذه المرأة التي توارت كانت أسعدهم ذات يوم وأشقاهم. عرفوا أنها ان بارحت وعيهم وهلة من الزمن فلن تبارح ذاكرتهم. حتى الشيخ عبدالجواد صفن قليلاً، تنهد، وتمتم: «يرحمها الله» وبعد سبعة أيام مات.

كان كثيراً على أهل الشير أن يموت عبد الجواد ومريم في أسبوع واحد. ليس لأن الحزن بسبب الحادثين أضخم من أن يحتمل، فلقد تمرسوا بما هو أقصم للنفس منه. كانت المصادفة هي السبب. لقد تجاور الحادثان في الزمن تجاوراً دفعهم إلى ربط متطير بينهما. لذلك هربوا إلى جنازة الشيخ واحتشدوا على طريق القرية الرئيسي من الساحة الوسطى حتى التلة الشرقية، كل يدفع الآخر ليشق طريقه نحو النعش فيحمله خطوتين أو ثلاثاً. سبعة أيام واظبوا على الخروج إلى الضريح الجديد المغطى بالريحان، والعودة إلى البيت الكبير لتلاوة آي الذكر على روحه.

اسماعيل السنديان كان أكثرهم حزناً وأقلهم تطيراً. لقد أدرك صلة ما بين الموتين، فصفا ذهنه وغيمت على عينيه الدموع. ويومها اتخذ قرارين، أولها كريم والثاني خطير: تكفل بنفقات المأتم، ثم أعلن أبوته للوليد المنتظر في رحم خادمته. وكان مأتم لم تستطع ذاكرة في الشير، حتى ذاكرة كحلة، أن تستدعي شبيهاً له. وكان إعلان الابوة بداية الهاوية.

أيوب الخياط، بدر جندار، اسماعيل السنديان، زينة شباب الشير. لا يمكن لشجرة أو لحقل أو لرجل أو امرأة سوى أن يتذكرهم. كانوا شموس الأربعينات من القرن العشرين. ومنذ الخمسينات صاروا ملكاً مشاعاً لوعي قرية لم يذكرها التاريخ ولا وضعت على خارطة. أيوب أطولهم، وبدر أجملهم، وإسماعيل أسحرهم. كان حضورهم متعة للناظرين، ونكهة لا بد منها: في الفلاحة وجني المواسم، الأعراس والأعياد، على البيادر وفي

المعصرة والطاحونة. بهم ازدهر للشير شباب لم تعرفه من قبل: إسماعيل على فرسه الرائحة أو المنتصبة، أيوب بقرآنه وعصاه اليمانية المنجورة كالسيف، وبدر بطاقاته البدنية الهائلة.

كان إسماعيل في العاشرة عندما امتطى فرس حسن الغفري وجمحت به. اخترقت الغابة، ارتقت حقل ديب مريشد، استوت على أرض عبد الجواد الخياط، عبرت طريق القرية الرئيسي حتى ساحة البازار، ثم انعطفت بحذاء كرم الشيخ بهاء وغابت وراء أشجار التين. يومها تقاطر الناس، شباناً وشيباً وصغاراً، علهم يحظون بنظرة مشبعة للنيزك الأرضي العابر قريتهم بلا انطفاء. وانهالت كحلة على رضا المجنونة بالسؤال. وكان الجواب لا شيء: فرس مجنونة يطوق صبي عنقها بذراعيه. في الساحة تذكر الناس أيام الفروسية والجريد، وعنترة وأبا زيد الهلالي والزير سالم. واندفع الصغار بنوع من العدوى يسابقون فرسا سبقت الريح، وتوقفوا عند طرف القرية الجنوبي حيث غابت. لم يظفروا بشيء، فانكفأوا نحو الشيخ بهاء يناجزونه ويحاولون خطف زجاجة عرق التين من بين أصابعه.

عم البكاء القرية. بدأ أولاً في منزل الشيخ ابراهيم، الذي خر مغمى عليه وقد أيقن بهلاك ابنه الوحيد. ومضى نصف ساعة، ثم ساعة، والفلاحون العائدون من الحقول يقولون إنهم لم يروا فرساً ولا صبياً. في الساعة الثانية انتشر العويل والبكاء على صبي كان محط الآمال حتى بالنسبة لمن لم يحفلوا به.

منذ ذلك اليوم، بعد أن رجع الصبي منتصباً على ظهر الفرس اللاهثة، لم يعد محتاجاً إلى مأثرة أخرى تصنع منه رمزاً وأمثولة.

أيوب الخياط سلك درباً مختلفاً. يوم عاد مع أبيه والعائلة بعد تسع سنوات من الغياب في المدينة، نظر الناس إليهم بشيء من التعجب. أشفقوا على الفتى الناحل، المتهزهز طولاً، ذي العينين السوداوين والوجه المدور كقرص من خبز الذرة. تذكروا مجد أبيه الخاطف في العشرينات، ذلك المجد المضيء الذي خبا بموت أحمد سليم ثم تلاشى معيداً العائلة كلها إلى صفوفهم. لكن أيوب استطاع أن يجني في موسم واحد ما فاضت به عنابر البيت وخوابيه، وما فاضت به نفسه من احترام الفلاحين ومحبتهم. وكان القمح ما يزال على البيادر، عندما صار معروفاً أن كل صبية حلوة في الشير ترشح نفسها زوجة له.

لم ينسَ أحد، حتى بعد ثلاثين عاماً، كيف أنقذ ديب مريشد من عضة حية قاتلة. كانت حية بيضاء طولها عشرون شبراً مشدوداً، تصدت لديب وهو عائد من بستانه عبر سفح الشيخ عبد الهادي.

في اليوم التالي وصفت عنيترة لفضة كيف هوت عصا أيوب الخياط على رأس الشيطان فطيّرته عشرين قامة. وفي الأسبوع التالي وصفت فضة لبريبهان كيف لف أيوب الحية على زنده وأمسك بعنقها فظل يخنقها حتى خرجت روحها الخبيثة. وفي نهاية الشهر صححت بريبهان لقطيفة معلوماتها، ووصفت بدقة كيف لفت الحية على جسم أيوب، وطولها عشرون ذراعاً، وضغطت «على عظامه الطرية يا ولدي، ولولا لطف الله وقوة بدنه لانكسرت أضلاعه، بس أيوب رجل، أمسكها من رقبتها وشال بعصاه اليمانية، وضربها تلك الضربة، وطار رأسها عشرين قامة».

كان الصغار أكثر الناس احتفالاً بالعمل البطولي. لم يكتفوا بالحديث، أعادوا الحدوث. تناوبوا الأدوار بلا كلل، حتى صار أبو فيصل أرنباً وأيوب أبا هول. وذات يوم ظفروا بالشيخ بهاء. كان قد جاء يتفرج على الحية، فوجد الأطفال. قالوا له انها هنا، في الديسة. وطأطأ لينظر، فرفعوا ثوبه حتى بانت عورته. صرخوا بصوت عظيم صاخب. انتصب وسقطت بطحته. هش عليهم بعصاه. تفرقوا. التقط البطحة وتابع طريقه نحو الغابة. تبعوه. وعلى الدرب الضيق بين الحقول والبساتين لحقوا به رتلاً متدافراً، وهم يزعقون كجوقة إبليسية. لم يلتفت. عند مزار الشيخ علي بن سلمان أوقفتهم الرهبة. اختبأوا وراء أشجار الغابة، ودخل هو. تفقد الضريح،

وهو ما زال يدعو عليهم بالهلاك وقطع النسل، ووجد بصلتين ورغيفاً. تلفت حوله بارتياب خائف وغيّب الطعام في عبّه. في تلك اللحظة أغلقوا عليه الباب وأرتجوه. وراحوا يبادلون صياحه الناعب السفيه صياحاً صاخباً مسبطراً.

بدر جندار كان أبطأهم وصولاً إلى سدة الخرافة. علا كما يعلو غمر الحصيد في الحقل، تراكم صيته نبذة بعد نبذة. إنه الفلاح بلا انقطاع، الذي يعرف أهواء الأرض ونسغ الشجر. الذي ما إن تجمح به الفرس حتى يشد ساقيه الفولاذيتين على بطنها فيقطع أنفاسها. بفضله استطاع حسن آغا أخيراً، وكذلك عبد الرحمن بيك، أن يمتطي فرساً لا بد لكل مالك أرض أن يمتطيها ليوقع الرهبة في قلوب فلاحيه. وهو الفتى الذي غلب كل فتى تصدّى له في عيد الزهور. وهو الذي يمسك أول حلقة الرقص في الاعراس فيمس الأفئدة وجداً ونشوة. وهو الذي تستقبل الحواكير والتلال أغانيه ومواويله، إذ ينهض إليها مع الفجر.

وهو الذي أزاح صخرة جبل الشير عن فخذ محيمود خدام، مرابع الشيخ عبد الهادي. كان محيمود حشرياً، وذا معلاق كبير. أراد دحرجة الصخرة الهائلة التي باركها شيخ السنديان الثالث، لتهوي في النهر، وتريح العابرين من خطر سقوطها المفاجيء. حاول أول مرة وفشل. تأجج حماسة. ألقى بثقله على الصخرة ودفعها. تحركت الصخرة باتجاهه. برمت نصف برمة واستقرت على فخذه. وصرخ. هرع ثلاثة فلاحين قريبين. لم يستطيعوا شيئاً. دب الصوت. وصل إلى الشير. وكان بدر عائداً من البستان، حاملاً عناقيد العنب لمعلمته مريم. لم يتوان. بغمضة عين قطع المسافة بين العلية والنهر، مجتازاً السفح الجنوبي وخندق الجقل ووادي الأحمر. وبغمضة عين أخرى اجتاز النهر والسفح المقابل، ووصل إلى حيث محيمود يئن نصف مغمى عليه. كان الدم ينزف من الفخذ لكثرة ما حاول الفلاحون إزاحة الصخرة عنه. وصاح بدر: «هاتوا حبلاً. هاتوا حبلاً». جيء بالحبل. عقده وزرده. أنزله تحت الصخرة وفوق الفخذ. أرساه على كتفه ومرره تحت ابطه. «يا الله يا رجال. ادفشوا». وشد، وشدوا. مشى خطوة، ثم خطوتين. تلحلحت الصخرة، وصرخ محيمود. انزاحت، ثم تدحرجت. وهوت في طريقها إلى النهر. رفع الرجال محيمود، فأخذ يراقب الصخرة وهي تستقر عند الدوار. وأمام بصوت واهن فخور: «غلبتك يا بنت الكلب». ولم يبد عليها أنها سمعته وإلا لكانت ـ كما أكدت رضا المجنونة ـ نهضت من مرقدها وعادت إلى فخذه. كذلك لم يثبت عليها الاسم الذي أطلقه، فبعد زمن قصير صار اسمها صخرة بدر.

نتفة بعد نتفة تراكم صيته. عملا بعد عمل. وجاء زمن تأكد للفلاحين أن هذا التراكم المستتر صار صرحاً ثميناً. لقد سمعوا وصف نسائهم له، ولمسوا لهفة بناتهم إذ يصل حديث السمر إليه. ويوم أزاح الصخرة عن فخذ محيمود خدام، تمنت كل صبية أن تغسل الجرح الذي حفره الحبل في كتفه، تمسحه بورق الغار وتضمده.

أيوب وبدر وإسماعيل جعلوا من الأربعينات أعوام العشق. لم تعرف الشير من قبل ظاهرة كهذه: صارت البنات عاشقات. كل واحدة تحط عينها على شاب. تراه في مكان ما، فتحلم به. وتعود إلى البيت فتضع حلمها تحت العتبة وتدخل. لا أحد يعرف. وتستمر القصة كنبع جوفي، ثم ينبجس الماء: فإما تتزوج معشوقها أو تتزوج غيره. تنتهي القصة. يأكل العمل والنسل مشاعر الصبا، وتحل العشرة الكادحة محل الخيال الرخي.

في الأربعينات دخل العشق البيوت. دخلها كلابس طاقية الإخفاء. هبّ على القرية كلها مثلما كان يهب شيخ السنديان السادس قبل ربع قرن. ووجدت الصبايا متعة في أعمال كانت من قبل مغيظة ومرهقة. ومثلما ازدهر مع الشبان الثلاثة جيل من الفتيان الأشداء، ازدهر جيل مقابل منهن. لقد عرفن تمشيط الشعر المتكرر، وإفلات ذؤابة كافية تنسدل من تحت الوشاح وتلامس الزنار الحرير. وصرن يطالبن بإلحاح غير معروف من قبل أن يفصلن فساتين مكشكشات، لها أذيال وخصر ـ ليس تقليداً لمريم خضير، بل لتمييز الواحدة عن الأخرى فلا تظل حبة في مسبحة. ورحن يفصلن اللبائس الحمر قصاراً ويرفعنها عن كواحلهن حتى تختفي داخل

الفساتين وتظهر انسيابة الساق. وياما قامت المعارك بين الأمهات والبنات، ووصلت الشكاوى إلى الآباء والاخوة الكبار فبدأت العقوبات بهدلة أو ضرباً أو قصّ شعر. وياما حبست صبية في البيت فلا تغادره، لأن كحلة أو هولا أو ثمرة... شاهدتها تطأطىء عند البئر لتملأ دبليزها، أو حملت الدبليز على رأسها، فبانت ساقها، مسافة أربع أصابع كاملات.

عندما دخلت خولة عالم النساء صار جمع الحطب ونقله إلى المكادس شغلها الأثير. رأت فيه تعويضاً عن حرية الحياة في المدينة. وسرعان ما اعتادت أن توقظ فتيات الحارة كل فجر وتمضي بهن إلى الجرد. لم يعرف أحد بأية وسيلة سحرية كانت تجمع حملتها. ثلاثة أرباع وقتها يضيع وهي جالسة قرب ريحانة أو صخرة، تتأمل ضباب الوادي المتلاشي خفية، وتتذكر أيام المدرسة. وفي لحظة مفاجئة، تنهض بخفة فتجمع وتقطع وتصنع حملة، ثم تعود إلى جلستها.

ذات يوم، والبنات مختفيات في أعمالهن. لمحت خيّالاً يرمح عبر الجرد الواصل إلى نبع الجفون. تأملته بلا انتباه، ثم انتفضت. وقفت. لم يبقَ عندها شك في أنه اسماعيل. وملأها الجزع لحظة رأت الفرس تقف، تميل يساراً، وتندفع باتجاهها.

قبل أن يصل كانت كل بنت قد اعتلت أقرب نتوء مجاور لها، ووقفت ترقب ما سيحدث. ووصل إسماعيل في جمحة فرس أخيرة. حيا الطفلة المرأة فاضطربت شفتاها. هتف: «بنت العم تجمعين الحطب!» ولم تجب. أضاف بلهجته التي لا تنسى، التي تحشر حروف الكلمة فتلفظها بنصف الوقت المألوف وتطيل الفسحة بين الكلمتين: «لا يجوز. لا يجوز. أنت بنت السنديان. تجمعين الحطب! سأبعث لك تفاحة. تجمع عنك. يالله إلى البيت».

ووجدت نفسها تقول: ـ أنا مبسوطة. أحب الشغل.

ـ لا لا. سيقال عنك. حمالة الحطب، في جيدها حبل من، مسد. تعرفين هذه؟

ـ امرأة أبو لهب.

ـ برافو. الآن. إلى البيت.

ـ لا. أنا فلاحة وهذا شغلي.

ـ كلنا فلاحون. أنت وحدك بس؟ ستجيؤك تفاحة وتحمل الحملة. أنت ارجعي إلى البيت. أنا سأقول لأيوب. هذا لا يجوز.

كانت الفرس تتحرك في مكانها، تضرب بساقها وتخفض رأسها وتعليه، وهو يزجرها ويشد اللجام. ثم انطلق، قبل أن يتأكد أنها ستعود. وعرفت هي أنه ماض إلى خندق ابراهيم، حيث يعمل أيوب. انتبهت ورأت البنات حولها. قلن: «يا عيني يا عيني، يا خولة». و«خلص، اسماعيل لخولة»، و«أولاد عم!» وصاحت هي: «مجنونات! ما دخل أولاد العم؟ أخي مرابع عنده».

بنات الشيخينْ ابراهيم وعبد الهادي وحدهن لم يعرفن تلك المتعة الصباحية. كانت مطيعة شبه مرسومة باسم أيوب ـ السر الوحيد في الشير الذي بقي سراً ـ وكانت تنتظر. أحياناً تخرج مع تفاحة وابنتيها، فيجمعن حطباً للتسلية. كان البيت مطوقاً بالأشجار والحطب، وتغذية المدفأة عملا يومياً بسيطاً. مع جميلة وحبرية اختلفت الحال. صحيح أن بنات المرابعين أغنينها عن جمع الحطب، ولكن ليس بلا حسرة. لقد تمنّتا الخروج، لعل إسماعيل أو أيوب ـ إسماعيل بالدرجة الأولى ـ يراهما. إلا أن أوامر الشيخ عبد الهادي كانت واضحة وقاطعة:

ليس لأية من ابنتيه أن تقوم بعمل يحط من قدرها، وليس لأي من أبنائه أن يختلط مع أبناء الآخرين فيعكر سماء شعوره بأنه سليل آل السنديان.

عام ١٩٤١، اقتلعت شتلات الدخان من مساكبها وحملت إلى الحقل. كذلك حمل الماء من الينابيع. وإذ ازدحم العمل صارت الأرض أغنية، مفاصلها الأخاديد المهيأة للزرع، وكلماتها البشر المتوزّعون كل إلى عمل. هناك تسابق أيوب وبدر. ليس في السرعة فقط، وإنما في اتقان العمل، الحرص على كل شتلة، وضعها في الموضع الأفضل. وكان لازماً أن يتسابقا، لا اصطياداً لإعجاب الصبايا، بل لأن حقولاً أخرى تنتظر، لأن للشتل ذروة عمر يجب ألا تنحدر قبل زرعه، ولأن المياه قد تغور فجأة أو تشحّ تاركة خضرة الشتلات لصفرة الموت. وفوق هذا لأن الوقاف لم يبرح المكان إلا ليعود إليه، يده تحمل الكرباج وتلوّح به، وحصانه المنزعج يخبط قوائمه بالأرض. يومها كان مهرجان أعمار، من السابعة حتى السبعين، ومهرجان عمل لم تعرفه الشير من قبل. الحماس المتجدد كلما أضعفته الرتابة والتكرار، حيث انجلى للفلاحين جمال تحيلهم على الطبيعة وعلى أنفسهم.

بعد ذلك العيد، تم أكبر عدد من الخطوبات في تاريخ الشير.

نيسان ١٩٤٢: منذ الصباح فرد الباعة حلواهم وسكاكرهم على الطرف الجنوبي من الغابة: مصائد للصغار القادمين في عيد الزهور بقروش غالية يشترون بها ما لا تذوقه شفاههم خلال شهور. أمامهم يصطف باعة الأقمشة الذين جاءوا من المدينة، وفرشوا الأثواب الزاهية ولفافات القنابيز والشراويل. وإذ قرع من بعيد طبل شاكر حزيق وتبعه مزمار فليفل بنفخة ملولبة، هرعت الصبايا القليلات الصبر، يتنادين مثنى وثلاث، ويمضين على الدروب بين الحقول. وانتظر الشباب: بين التخوم، عند المفارق، على إطلالة أرض أو بيدر مجاور. تفرجوا على اللبائس الحمر، والقامات التي مشقها شغل الحقول وارتقاء النجود وأعمال المنازل.

ثم جاء الجميع. حتى رضا المجنونة والشيخ بهاء. وعلت الزلاغيط. بدأت لعبة العصي، فلعبة السيف والترس. نحرت الذبائح عند ضريح الشيخ علي بن سلمان. أولمت القرى. بدأت المغالبة، والمصارعة. والصبايا يتفرجن، يتهامسن ويبتسمن، يجزعن. بدأ ترقيص الخيل. ضج طبل شاكر ومزمار فليفل.

وكانت الخاتمة نزالاً بين أيوب وبدر. توقفت النشاطات الأخرى. جمع الباعة معروضاتهم وانضموا إلى المتفرجين. وأصر أيوب على أن يقبّل بدر نفياً لكل ضغينة، وبدر على أن يعانقه توكيداً للنفي ذاته. ثم انفصلا. راحا يدوران. تسمرت الأيدي نصف الممدودة أمام الوجه والصدر. توترت الأعصاب. خمدت حركة المتفرجين: أيوب يستفز بدر أن يتحرك، وبدر واقف كالطود. يمنحه فرصة بعد فرصة وهو لا يريم. فجأة انقض بدر، وعلت قامة أيوب على كتفيه. شهقة جزع وشهقتان خوفاً على الجسم النحيل من أن تهوي به يدا بدر الغليظتان فتلصقاه بالأرض. يختفي الجزع. أيوب ماكر. أفلح في زحزحة بدر، ولف جسده عليه. انزلق عنه والاثنان يتطوحان. تماسكا ظهراً لظهر، محدباً ومقعراً وبالعكس. مرة أخرى أعلاه بدر. طارت ساقا أيوب في الجو وزحف رأسه على رأس بدر. وثب كالغزال وهبط كنابض، واقفاً أمام غريمه. ووقف بدر كوتد دق في الأرض.

اثنان من بين المشاهدين أصابتهما المنازلة بنوع من الحمى: جميلة وحبرية. كان شعور حبرية مكشوفاً، على الأقل لأختها. كلما لاح لها أن أيوب سيهوي رفعت راحتها إلى شفتيها وكتمت صيحة ذعر فضاحة. وكلما أمسك أيوب بظهر بدر ولواه على فخذه، ابتسمت وأسنانها مطبقة وعظمتا حنكيها نافرتان. وسواء غلب أم غُلب، كانت هي تنتهي إلى البكاء. عندها سحبتها جميلة من يدها وخرجت بها من مكمنها، قبل أن يلتقط الحشد أنفاسه ويراها. «عجلي، عجلي. الآن تلاقينا أمك بفصل من فصولها». وعلى الطريق تصب غضبها

المتقيح على هذا الفلاح الذي يتصدى لابن السنديان. على الثور القبيح ذي اللعاب الزارب. الحيوان الذي صدره غابة كريهة الرائحة. الذي لم يشبع الخبز في حياته. الخادم عند حسن الغفري. النكرة الذي لن تقبله بنت عائلة.

في النهاية بقي هناك عنقود الأرامل، من كحلة إلى عنيترة: لقد شاهدن عيد زهور استثنائياً. لم تبق واحدة منهن إلا واصطادت نظرة، ابتسامة، إشارة، التفاتة.. وكحلة التي فقدت سبعة دراهم من بصرها، كانت مسجلة من نوع فريد، حفرت في أذنها طبقات الصوت بأفضل مما هي محفورة على أسطوانات اسماعيل السنديان. وإذ اجتمعن، تناسج وصف العين مع تقرير الاذن. ثم انفرط العقد. كل امرأة لتزور بيتاً.

في ركن من بيت عثمان صقور جلست وطفا وتنهدت: «يا لشباب هذه الأيام». قالت الزوجة، وقد ساورها القلق، بمحبة وترحاب: «ما لهم يا وطفا؟» تنهدت وطفا: «يعرفون يا أختي كيف يفرحون بعيد الزهور. ما هم مثلنا، يا حسرتي». والتفتت بمحبة أم إلى الصبية، وضعت راحتها على ركبتيها: «وأنت يا حبيبتي يا مزنة، إن شاء الله فرحت وشفت شبابك بهالعيد؟» ابتسمت مزنة بخفر مضبوط، ثم ضحكت بصفاء رخي. حاورت وطفا وباسطتها. وحرصت وطفا على ذكر مآثر الشاب المقصود، قدمت تفاصيل عفوية. فردت مزنة بتفاصيل مضادة: أين كانت، وماذا فعلت عندما كان الشاب هنا أو هناك. واختتمت الأم الجواب بتعداد أسماء البنات اللواتي رافقتهن مزنة، بقيت في صحبتهن، وعادت معهن.

أقفلت القضية: براءة.

وعلى بساط من المحبة والتكرم أطلقت عنيترة قذيفتها الأولى: «كنت ضائعة، يا حبيبتي يا بديعة، في الحرج اليوم؟» زلت عينا بديعة، ثم زل لسانها: «كنت، كنت..» ولم تكمل. وأدركت عنيترة أنها اخترقت خطوطها الدفاعية، وأدركت الأم أن الأخبار ستذاع في اليوم التالي كمنشور سري. عندها انبثقت الهدايا من تحت الأرض.

والهدايا تتنوع. ليس التين اليابس أو البصل أو الخبز أو صرة برغل، بل وتاسومة أو فسيتين عتيق، وربما شال من حرير القز الموشى.

وأحياناً تقبل المرأة بالصمت. وحتى بأن تكون رسول غرام، إذا ما صادف وكان العاشقان جريئين أو ميسورين. وعندها يجزل لها العطاء وتغدو ضرورة مدللة. وإلا فكيف تعيش امرأة مقطوعة، لا حجر ولا شجر؟

ما أكثر ما احتفى الشيخ عبد الجواد بهذا الدرع المنيع الصائن للأخلاق. فكم فتاة منعت من أن تشرد الى حبيبها ـ والعياذ بالله ـ بفضلهن. كم من فضيحة خنقت في المهد. كم عائلة بقيت مرفوعة الرأس لأن كحلة أو بريبهان أو تمرة.. استطاعت بتدخلها الفاضل أن تضع حداً لزوغان البنت ذات الروح البارمة. كان أكثر رجال القرية إكراماً لهن وممازحة، رغم ثقته المطلقة بأن ابنته لن يرقى اليها الشك، والحمد لله. وفي مرحلة من الحديث كان لا بد أن يقول للمرأة: «في ذمتك، في دينك، وها يدي على رأسك (أحياناً يضع يده)، لو أنك صبية مثلهن، أما كانت نفسك الخبيثة.. هكذا تلعب..؟» هولا كانت تبتسم. وطفا تشهق: «ويلي يا أبو أحمد!» كحلة تضرب بيدها على صدرها الشاقولي وتصيح: «أنا يا أبو أحمد؟ والله والله، بعد أبو خليل، رحمة الله عليه، ما لطمت عيني برجل». ويقول هو: «ما لطمت عينك، صحيح. أنت من ستين سنة بربع نظر». غزالة تتنهد وتضحك: «يا أبو أحمد، أنت كل عمرك ضد النسوان». ويقول هو: «اي والله. صدقت. ألم تخرجنا حواء من الجنة؟»

فتاة واحدة أفلتت من رقابة الأرامل. حبرية التي شردت مع حمود الأقرع بعد أربع سنوات من التنسك حزناً على أيوب. وكيف لكحلة وصويحباتها أن يراقبن بنت الآغا وابن الحكومة؟

عيد الزهور يوم واحد في السنة. زاه وخاطف كالومض. ولا يروي. والشباب الثلاثة في ذروة عمر الزواج. لذلك طاب الخروج الى الحقول. حرص الرجال على مزيد من العمل، وحرصت كل أخت أو ابنة على حمل الطعام اليهم. كان شقاؤهم فرحهم. الأيدي التي غلظت من شدة القبض على المحراث أو الفأس، ضخت فيهم شعوراً بالرضى. وعراكهم مع الزمهرير والقيظ والأفاعي والضباع عوضهم عن ذلهم أمام الآغا والبيك وابن الحكومة. كانت الأرض والطبيعة والمناخ غرماء حميمين لهم. وكل عام تدور الدورة، يمضي الزمهرير والقيظ، ويقتل سالم صادق ضبعاً أخرى، ويحملون ربع المحصول الى بيوتهم وثلاثة أرباعه الى بيوت الآغا والشيخ والبيك. لذلك كان الحصاد قمة الشقاء والفرح.

عام ١٩٤١: هجمت الثعالب والضباع مع اصفرار الزرع. وكان هتلر قد اجتاح هولندة وبلجيكا في طريقه نحو باريس. صحيح أن الضباع أخافت الثعالب فخففت من وطأتها. لكن أعدادها كانت أكبر من شجاعة سالم صادق. قبع وراء البيت الأخير عسى ضبعاً تضل طريقها فيصطادها، بلا فائدة. الذي استطاعه هو أن يراقب الكلاب المندفعة من جميع بيوت القرية، نحو عراك غريزي تكشف عن حماقة انتحارية. غير أنه والكلاب أبلوا بلاء حسناً مع الثعالب. وما لبث الرجال أن تقاطروا لبذل جهد آخر. فالرماية على الثعالب عنت حريقاً يلتهم الحقل بأكمله. وسرعان ما غادرت تلك الحيوانات الذكية الحقل المهدد بالرصاص الى جهة أخرى وحقل آخر. وغادر الرجال وراءها. تكررت المداورة. وصار حسبهم أن يتصـدوا للثعالب. لكنها، وقد أمنت شر الضباع، اندفعت نحو الاخام، فلم يردعها إطلاق النار عن الأسطحة، ولم تتراجع إلا بعد أن تعفرت بدماء الضحايا.

عام ١٩٤٣: هبت العاصفة. وكان الخطر أشد وأقل احتمالاً: في العام الفائت استطاع الرجال والنساء إنقاذ أكثر من ثلث المزروعات. رفعوها عن الأرض سنبلة سنبلة، بقليل من الأمل وكثير من الثقة برحمة الله. لكن معظم السنابل هوى ثانية، وأيقن أصحابها أنهم محط عقوبة مستحقة. وانصرف أيوب إلى قراءة القرآن.

مع العاصفة لم ينفع شيء هذا العام. ها هي ذي الطبيعة الصرف، القوة الخفية الرهيبة، التي ليس للبشر أن يلمسوها، التي تجري وتسرع وتبطىء بالقدرة. لقد أودت بأزهار الزيتون والاشجار المثمرة الاخرى. لم يتذمروا. العام الفائت كان موسم الزيتون جزيلاً، ولديهم منه ما يكفي عاماً ثانياً. لذلك استقبلوا العاصفة بشعور متضارب من الفرح الخبيث والفرح الناغل. نصف أشجار الزيتون في الشير ملك لعبد الرحمن بيك، وربعها للشيخ عبد الهادي، والموسم كله يصب في معصرة الشيخ، ويخرج الى جيوب الاثنين.

حقول الحبوب كانت مصدر الذعر. ثمانية أيام وتسع ليال، والرجال والنساء والأطفال حول الحقول. لم تبق آنية صغيرة ومتوسطة إلا وملئت بالماء. وحملت الى التخوم. وفتح الشيخ عبد الهادي بئره لهم كي لا يبقى أحد بلا سلاح. ففي أية لحظة يمكن للعاصفة أن تضرم النار، وفي أي حقل. البيك نفسه جاء من اللاذقية. حسن آغا خرج وطاف على أراضيه، رغم الاحتياطات الكاملة التي اتخذها وقافه أحمد الغفري ومرابعه بدر.

همّان متلاغيان خفقا في القلوب، فيما العاصفة تخفق عبر الفضاء. كان الوقافون على نار خوفاً من أن يضرم النار أحد الحاقدين ويعزوها الى العاصفة. هؤلاء الذين رفض البيك والآغا والشيخ تجديد الاتفاق السنوي معهم على المرابعة. كانوا بالطبع من سفلة الناس، لا يتورعون عن إثم ولا أذى. هم وليس العاصفة أجبروا عبد النبي أفندي، وقاف البيك، ومأمون الريحان وأحمد الغفري، على الطواف آناء الليل وأطراف النهار بكل سهل وسفح.

الصبايا والشباب أذابوا رعب العاصفة في فرح اللقاءات الخرساء. وبعد أن دلقت تفيدة ماء وعائها بحركة

عفوية، فاضطر أيوب الى ملئه، صار انقلاب الأواني جزءاً متكرراً من نشاط الريح الهائجة. كانت متعة الخطأ تبعثر الخوف المزدوج: من العاصفة ومن سوء التفسير. شباباً وصبايا، فشلوا في إبقاء أوانيهم على أرض مستوية تمنع انقلابها. هؤلاء توافدوا الى أولئك، وأولئك الى هؤلاء. وعرف كل شعور مقدار حقه في الحياة.

ثم انتهت العاصفة. وبقي الزرع. وأيقن الفلاحون أن صلوات أيوب في العام الفائت لم تذهب عبثاً، وإن تأخر قبولها عاماً كاملاً. وإذ أطل الصباح التاسع بشمس دافئة وفضاء نظيف، صار فرح، وصار الفرح رقصاً وزغاريد. حتى كحلة التي لا تملك شيئاً، ظلت تهاهي وتزلغط حتى جاءها الشيخ عبد الجواد ونبر: «آه يا روح البارمة! استحي على شيبتك!».

عام ١٩٤٤: أقبل الجراد من الشرق. بادىء الأمر ظنه الفتيان والصغار غيوم غبار غريبة الانخفاض. وفيما خرج الناس ليتفرجوا كان الدوي والزحير قد بدآ يتناهيان الى مسامعهم. وللتو نظروا إلى أغمار القمح المكومة على الحقول والبيادر، وأيقنوا أن اللقمة الداينة لن تصل قط إلى أفواههم. وقفوا مبهوتين يابسين. أين الريح وأين المطر. أين وحوش البراري. لا شيء يتغلغل في الحصيد كهذه الأرواح الشريرة المتجسدة. لا نار تلتهم كما تلتهم. ثلاثة أيام واكتملت النكبة. ثلاثة أشهر، وإذا الشير كلها مديونة مرة أخرى للبيك والآغا والشيخ.

كانت كوارث الطبيعة والوحوش مرارة مقبولة، لكن ظل الوقاف لم يكن. كان يداً تحمل سوطاً وعينين لا تكفان عن المراقبة. حضوره خوف وانقباض، وغيابه توجس وصور بغيضة. في الحالتين يظل ردة عن فرح الفصول والأرض وعودة الى شقائها. عبد النبي أفندي، عبد المولى أفندي، مأمون الريحان، أو أحمد الغفري ـ الفرق ليس كبيراً. يكفي أن يطرد أحدهم حصاداً حتى تبوخ نشوة التعب، تنحبس الألسن عن الكلام والخيال عن الحلم. الوقاف قوة آمرة لا ترد. وكيف لديب مريشد أو أبي فارس أن يحصدا بالسرعة التي يريدها؟ الشباب يساعدون، أيوب ومعروف وبدر.. شرط ألا يرى. لكنه يرى. فحصانه يقطع المسافات في غمضة عين. وعندها تقع العقوبة على الاثنين: حسم نصف الأجر اليومي، فالأجر كله، فالطرد نهائياً. والذي يطرده عبد المولى، يطرده أيضاً مأمون وأحمد الغفري.

الجرم الأكبر أن تضيع السنابل، تتهشم أو تحصد قصيرة. عندها يهوي السوط كحطبة تحترق، كفلقة صوان مسنونة. يهوي بضربة عمياء، فينفجر على الظهر المتقوس ويشطبه. وتتطاير معه كلمات الوقاف: «متفق مع اللقاطات، ما؟ خذ اذن.» الشباب من جيل أيوب وبدر يسقطون أرضاً، على وجوههم، على خواصرهم، لا فرق. المهم ألا يقعوا على المنجل. المتقدمون في العمر تضنيهم الضربة. أنة ألم متحشرج، ومزيد من التقصير ومزيد من الضرب.

في ذلك الحصاد من عام ١٩٤٤ انهال سوط عبد المولى على رأس ديب مريشد وكتفيه مثنى وثلاث ورباع. وانهالت الكلمات: «قم يا كلب!»، «ما شاء الله عالنعومة!»، «وجعك ظهرك يا كلب!»، «قل من شريكتك في السرقة. لمن تترك نصف السنابل وراءك؟»

ضاع على ديب أجر اليوم. وكان قد ضاع وعيه. نهض ودم جبينه يملأ مقلته. تابع العمل. في اليوم التالي استمر الحصاد صامتاً كئيباً، وبلا توقف. ساعتان مضتا وديب مريشد يلحق بعبد المولى أفندي كالكلب، منتظراً قراره النهائي. لكن القرار لم يصدر. كان أبو فيصل مثبتاً عينيه على الوجه الكامد، عندما فقد الوجه تعبير الصرامة، وتدلى، ثم هوى مع الجسد عن ظهر الحصان.

لم يصدقوا أن عبد المولى أفندي مات بهذه السهولة. وبعدها لم ينسوا. فالوقاف في العادة لا يموت. إنه الشخصية الفريدة في القرية. مزيج من الوضاعة والطاغوت. أضعف من الطبيعة التي يقارعونها وأقوى. لا يعرفون من أين جاء ولا كيف. بالأحرى يعرفون. إنه واحد منهم. أو كان. ولكن، لماذا صار هناك وقاف؟

لولاه لكان الحصاد عيداً. لكان الرجاد عيداً. لكانت البيادر مراسح أعياد. لكنه دائماً موجود. إنه الآمر الناهي. الحاكم بأمره. ويل لفتاة استحلاها، أو امرأة. لن ينسى أحد كيف أن تفيدة ذات العينين الساحرتين، زوجت خلال أسبوع لحداد السرسكية، القرية البعيدة نصف نهار بسرعة القدمين. رآها أحمد الغفري ووقع. استقتل. عرض المال والبيت والحنطة. صحيح أنه تجاوز الخامسة والستين، ولكن من يستطيع أن يشبعها ويحخخها مثله؟ استمهلوه يشاوروا أخاها الغائب في الجيش، ثم ليشاوروا عمها المرابع في عين الزرقاء، ثم خالها العامل في اللاذقية. وأخيراً نفذ. وجاءوا الى أحمد أفندي شاكين باكين: لقد شردت البنت، ضد رضاهم، لعنة الله عليها، هل سيبقيهم مرابعين؟

ولن ينسى أحد شكيبة زوجة ابن أخت وطفا، التي سميت ناهدة عندما بلغت، التي كان ثدياها رمانتين. اشتهاها عبد النبي أفندي وحاول المستحيل. اختفت من طريقه، فطرد زوجها من المرابعة. وجاء الزوج يسأل العمل عند الشيخ عبد الهادي. وكان الشيخ آسفاً. لم يرد عبد الرحمن بيك أن يزعل منه. وكان أحمد الغفري آسفاً أيضاً. لم يرد لعبد الرحمن بيك أن يزعل منه. اشتغل الزوج في المواسم. نزل الى المدينة، وعاد مخفقاً. وعبد النبي وراءه، والهم والحصار أمامه. باع أشياء بيته القليلة. استعطى. وعبد النبي وراءه. وزوجته أمامه. عرض عليها أن تلين لعبد النبي بعض الشيء، وليس كل الشيء. رفضت ورفض. مرات عديدة سحب السكين وهمّ بتشويه صدرها. وفتحت هي فستانها ليفعل. ضجت القرية. سنتين بلا عمل. وذات ليل اختفت الأسرة الى الأبد.

الوقاف. العمود الصفيحي الواقف بين البيك والمرابع. يتلقى عن البيك لعنات الفلاحين وكرههم، ويكيل لهم بمكياله. إذا شاء أبقى الاغمار في الحقول حتى ينقل النمل حبوبها الى أوكاره. إذا شاء أبقى الحصيد حول البيادر حتى تقرضه الدواب والفئران. إذا شاء أبقى المدروس على البيادر حتى يسقط مطر تشرين فيجرف بعضه ويعث البعض الآخر. وكان يطرز الأغمار والمدروس بمسحوق أبيض يأتي به من المدينة. وويل للفلاح المسؤول إذا اختفى. والوقاف يعرف كيف يعاقب. يعرف أنواعاً من العقوبة ليس غائباً عنها هتك العرض. انه الوقاف.

لكن الحصاد كان يستمر. ويظل الفرح بالطبيعة والشغل مقيماً، ولو تحت خيمة الوقاف. الأشياء الجميلة تبقى في العين جميلة. يبشعها الوقاف، وتبقى جميلة. وإلا فما العمل؟ إذا لم يكن من الوقاف بد، فحرام أن يظلوا يذكرونه. وكان بدر وأيوب يمنحانهم شعوراً بالقوة والشباب والضيان. وكان اسماعيل يمنحهم الصورة التي أرادوها لأنفسهم ولم يريدوا أن يكونوها.

عام ١٩٤٤: آخر مهرجان لعصر الزيتون شارك فيه أيوب الخياط. وكان عصر الزيتون مناسبة وثنية، مهرجاناً للقوة. يبدأ بكثيرين، ويبلغ ذروته باثنين: بدر وأيوب. كان شغلاً مقصوراً على الرجال. ولأن المعصرة ملك للشيخ عبد الهادي، كان الماء يأتي من بئر بستانه الصغير.

قبيل الضحى كان الزيتون المكسور قد عبىء في البراميل، والماء في الصفائح. الشباب لقمصانهم المبتورة ولباسهم المقصوصة فوق الركب، مدوا أثواب الخيش على طاولات الخشب. بعضهم سكب الزيتون المكسور على الخيش. بعضهم لفّه كما الأرغفة بالمئزر. وبعض ثالث نقله الى الرفوف. من الرفوف الى القاعدة الحديدة. لفة فوق لفة حتى لطمت العليا بسقف المكبس الحديدي. وكان السباق بين معسكري أيوب وبدر: أية أربعة يستطيعون تقليص حجم اللفات الى النصف بضربة أولى.

عندما وصل عبد الرحمن بيك وحسن آغا وانضما الى الشيخ عبد الهادي، وقف الثلاثة كأنصاف آلهة يتفرجون كيف يميل جسد أيوب الى اليمين، على رجله اليمنى المنثنية، ثم يهوي الى اليسار بضربة قدم يسرى

ويدين تبرمان المقبضين، كيف يطق صوت المقبضين من بين يدي بدر كطلقات رصاص وهو ثابت في مكانه، كيف تتناقص الطلقات حتى تغدو واحدة، كيف يتأخر الشباب فيبقى النجمان يتناوبان على المقبضين حتى يمتنع الصوت. ويعود أربعة فيغرزون عصي الحديد في أربع فتحات، يشدون بها على لولب المكبس حتى ينزف الزيتون آخر قطرة من زيته.

ويكون الثلاثة الكبار مبتسمين راضين، منتبهين الى أن هولا أو غيرها لن تسرق ماء المعصرة المهدور، المباح لمن يدفع ثمنه، وحريصين على أن ينقل عرجوم اللفات الى أكياسه.

ذاك كان عهداً جميلاً. لم يجد سبباً للشكوى، ولم يتقاعس. جيل لأن أحداً لم يكن يرى. وقد مات أيوب دون أن يرى. وكان موته أكثر غرابة من تقلبات الفصول وأكثر فجيعة. فجأة، بعد أن انتهت الحرب العالمية الثانية، مرض. لازم فراشه أسبوعاً. الأكل قليل والحرارة عالية. في الاسبوع الثاني صار مجنوناً. كان ينتفض من فراشه كفهد جريح ويركض حافياً الى باحة البيت الكبير، يتسلق الحائط الى السطح، يركض على السطح، يهذر ويهذي. ألقوا القبض عليه. كتفوه وربطوا قدميه. وجاءوا بالشيخ بهاء. خرجوا من البيت وأغلقوا الباب. واستل الشيخ بهاء سكينه المطوية، وراح يقرأ، يسأل جفجفيًا وينهر حنزقيلم، يستدعي درقول ويلعن هبردوش. ويده تشد بنصل السكين الغليظ على جسد أيوب المنتفض النحيل، وأيوب يصرخ، وأم أحمد تنوح، وأبو أحمد يبكي، وأصوات الجن تخرج من حلق أيوب، والشيخ بهاء يقرأ، ويده تشد، وفمه يصرخ، يأمر الجن بقوة الأسماء أن تخرج، والجن تصرخ، وهو يصرخ، وتخمد حركة أيوب.

أسبوع كامل. لم يبق أحد إلا وزاره، وفي المقدمة الثلاثة الكبار. بعده ركن أيوب. في اليوم الحادي والعشرين فارق الحياة.

كان بدر أكثر الأصدقاء حزناً. أصر على ألا يترك النعش، من البيت الكبير حتى التلة الشرقية. أصر على أن يقطع بيده الريحان، وبيده يغرزه حول القبر. وفي دخيلة نفسه، أصر على الاعتقاد بأنه لا بد لاحق بأيوب. على نحو ما أدرك أن صديقه الراحل توأم مضاد ومكمل له. كان أيوب روحاً. نسمة صافية هبت على زمان رنق. وكان بئر أسرار يملؤها بدر بقصص محباته ومغامراته، فلا يتردد فيه صدى ولا تخرج منه كلمة. لم يتحاورا بالكلام إلا قليلاً. ورغم الوشج الأقوى من الأخوة الذي شدهما معاً، لم يلتق عقلاهما إلا على الأرض. لم ينفتحا لسؤال مشترك، سوى العمل.

في أربع السنوات التي عاشها بدر بعد رحيل صديقه، تغير كل شيء بالنسبة له. عامان مرا بطيئين ثقيلين. بلافرح. بلا همة. تزوج، وهاجس الموت دافعه الوحيد. كره أن ينتهي مثلما انتهى أيوب، بلا ولد. غير أن زوجه لم تحمل. وفجأة لمعت الحياة حوله وفيه. وجاءه ابن، ولكن من امرأة أخرى. تلك اللحظة الفجرية التي انتبه فيها الى المرأة المتكئة على افريز السطح، جلت نفسه. وبعد يومين كان ينهل من ينبوع مريم.

كانت حياة كاملة. كل ما هدر فيه من قوى لاطم بها الفصول الأربعة والأرض، توجه الآن الى أجمل ما في الطبيعة. لم يفارقه الحزن. كانت مريم نبعاً من الحب والصداقة والحرية. كانت إعصاراً وبحراً ونجمة ودرباً. كلما خاف تشجع بها. كلما تعب ارتاح عندها. كلما ندم اندفع معها. وقبيل موته كان تاريخ الشير وعلاماتها قد ذابا من نفسه، وتوحده مع مريم صار العلامة الأكثر طبيعية ونظافة. وكان متأكداً من أن أيوب لن يشجبه.

هو الآخر مات دون أن يرى. وكانت اسرائيل قد قامت وفلسطين قد هوت. وبقي اسماعيل.

كان اسماعيل فتحاً في عالم الشير المائل الصغير. زكي النفس كأيوب، جامح الأهواء كبدر. مثلهما، قطعة من طبيعة الشير، بعكسهما، لا عمل له. وكيل أبيه على الاراضي، وليس وقافاً. وارث المشيخة، وليس شيخاً. منذ طفولته رسمته أذهان الفلاحين شهاباً، فتى جديداً وغابراً.

عام ١٩٤٣، أذهل مواطنيه وخذل بناتهم بزواجه المفاجىء من ابنة قريب له في قرية تبعد عن الشير مسافة نصف نهار بسرعة سيارة أبي هاشم.

وأذهلهم مرة أخرى، وقد انتهت الحرب العالمية الثانية، بصندوق اشتراه، عليه دائرة كالقرص، والى جانبه ذراع تدور كالملفاف، وتنتهي بفوهة دائرية متسعة شبيهة بفم كالكهف. ومع الصندوق جاء بأرغفة صلبة سوداء، كل واحدة مصرورة بورق لامع ثخين عليه كتابة فرنجية ورسوم. ويوم قيض لكحلة أن تلمس إحداها ارتاعت من أمر السكين العجيبة التي حفرت عليها أخاديد كالشعر، أخاديد عجيبة على شكل دوائر ملولبة عجيبة. لكن الدهشة الكبرى، الهلع الأكبر، أصاب زين المها. لم تكن قد عرفت بعد بما اشتراه ابن أخيها من بيروت. وجاءت تستطلع. قبلت يد أخيها المضطرب غضباً، وقبلت وجه ابنه. «ما هذا يا حبيبي؟» فأسرع الى الجهاز. استل الرغيف من ورقته، وضعه على الدائرة المخملية، وأدار الذراع اللامعة. وبقدرة قادر تحركت ذراع أخرى حول محورها وحطت على الرغيف.

لم تنس زين المها ذلك الحادث، حتى بعد وفاتها. عندما انبثق الصوت الداوي من فوهة الكهف وباغتها، وجدت نفسها تنتصب وقد اجتاحها ذعر مطلق. وانهمرت الأصوات على أذنيها مثلما أن السماء انشقت ليندفع من جوفها بوق إسرافيل صاخباً، لا بنذير يوم القيامة وإنما بأغنية «حوّل يا غنام حوّل، بات الليلة هين». لكنها لم تسمع الأغنية. لطمها الصوت. في ثانية تراخت. وفي أخرى هوت. ورفع اسماعيل الذراع بإحباط شديد، وأعادها الى حاملها، قبل أن يرفع عمته عن الأرض ويحملها الى البيت لترشقها أمه بماء الورد.

لأول مرة يتشاجر في الشير أب هو ابراهيم السنديان، مع ابنه. ولأول مرة يخرج كل ما في طبع الشيخ ابراهيم من حرارة وجبروت، فينصب على رأس ابنه: هذا الولد المارق، الذي جاء من بلاد الفساد بآلة رصدت عليها أصوات الجن، وربما الجن أنفسهم، ووضعها في قلب بيت السنديان، الذي قص لحيته، وترك الدين الى الدنيا، وطق عرق حيائه فلم يرع حرمة زوجة ماتت منذ شهر فقط، الذي...

في ذلك المساء استمع الى الأغنية، بعد أن هدأ ضرام الصدمة. بعد أن لطم ابنه بيد كالصخر، تسلل الابن الى قلب أبيه. توسل اليه بنبرة محتدمة وعينين مؤمنتين أن ينصت فقط. إنها أغنية، والصوت لامرأة حقيقية، تعيش مع زوجها. هذا علم وليس سحراً. العالم الراقي كله يسمع الى هذه الآلة. الجنرال ديغول نفسه، وحتى ستالين.

جلس الشيخ على كرسي بوجه جامد، وذهنه يناوش الصندوق المستفز. وراءه أقعت زين المها، يداها ووجهها وصدرها بصدر الكرسي. وعلى عتبة الباب البعيدة وثبتي حصان، وقفت أم اسماعيل متهيئة للفرار.

في اليوم التالي وصلت الصدمة الى أطراف الغابة. كان فلاحون يدرسون القمح على البيادر، ونساء يطبخن لهن طعاماً، وأطفال يلعبون منتظرين دخول الشيخ بهاء الى المزار، وفلاحون آخرون يعبرون دروب الغابة الى الحقول. لم ينتبه أحد الى الصوت. ثم انتبهوا. الذين عبروا بحذاء سياج السنديان، تلكأوا قليلاً قبل أن يقروا بأن صوتاً يغني من لا مكان دخل فعلاً في آذانهم. أنصتوا ليتأكدوا. لا ريبة: امرأة! تغني، ومع صوتها عزيف طبل ومزمار وأشياء أخرى.

ثم عم الانتباه. توقفت الدراسة والطبخ والمسير واللعب. تحركوا هنا وهناك يريدون أن يقتفوا مصدر الصوّت القادم من جميع الجهات، وتوقعوا شراً وشيكاً. كان الشيخ بهاء قد دخل المزار، وأراح قلبه أن الأطفال لم يوصدوا الباب عليه. سمع الصوت. التفت حوله وجحظت عيناه. بسمل. قرأ الفاتحة، ثم آية الكرسي. واندفع من الباب راكضاً كزوبعة من غبار. وجد الناس حوله يتحركون باضطراب، يديرون رؤوسهم في كل اتجاه،

وأعينهم فوق تحت. بعضهم هربوا، ومعظمهم نسوة. وكان الأطفال يركضون على منحدرات الغابة باتجاه الصوت، ويصيحون: «الجن! الجن! تعالوا نكمش شمهورش!».

أسبوعاً كاملاً، ولا حديث للشير إلا شمهورش وجفجفيا. اسماعيل السنديان استطاع أن يرصد ملوك الجان ونساءهم ويجعلهم يغنون بصوت أحلى من صوت مزنة. وتقاطروا الى البيت العتيق. اقتربوا من الصندوق العجائبي، ووقفوا مذهولين تماماً. وحلا لاسماعيل أن يوجه البوق نحوهم، ويتفرج كيف انتفضوا هاربين وقد صار الصوت جسداً يطاردهم.

كان يمزح معهم بجدية صارمة. يضحك إذ يفرون. ويخشى إذا ما وقفوا واستداروا أن يعودوا الى التحلق والتدافر حوله. لقد جاء بالجهاز ليطرد من حولهم الجن، وها هم ينظرون اليه هو وكأنه الملك الأحمر. إنه ينفر منهم. يخاف من حبهم الأعمى له، ومن شغفه بهم، من قذارتهم وانصياعهم وهمجيتهم. إنهم يتجمعون حوله كالطوق، ويتحركون كديدان قابلة للمعس في أية لحظة. ويشاء أحياناً فيخلي الساحة منهم. لا يبقى سوى الأطفال والفتيان. فيدعوهم إليه وينصت معهم: هؤلاء شيء آخر. فضولهم خال من طيف الملك الأحمر. خوفهم معقول. استعدادهم كبير لأن يمدوا أيديهم إلى أجزاء الآلة ويتعلموا تشغيلها. بل إن بديع خضير أتقن كل حركة بعد محاولتين فقط.

وأذهل الناس مرة ثالثة، عندما بدأت قصته مع مريم خضير تصل الى المسامع. بالنسبة لهم كان أمراً فظيعاً أن يدنىء سليل السنديان نفسه. لم يكونوا ضد أن يعاشر اسماعيل امرأة. ذلك كان سيفعمهم بشعور شخصي من نشوة الغزو والانتصار، ويطلق لهم عنان القول والحديث، وكأن كل واحد منهم اسماعيل نفسه. ولكن، مع مريم؟ هذه المجدلية بلا مسيح؟ كيف يأتيها من يحكم على ضمائرهم ومثلهم العليا؟

لم يبال. بعد وفاة زوجته لم يعد يبالي بشيء اصلاً. ليس لأنه أحبها أو شاهد فيها بلقيس، أو رآها عالماً غنياً. لا شيء من هذا. تزوجها لأنها ابنة عمه، ولأن أباه اختارها راضياً: فهي ستشد العائلة المبعثرة وتمنع حساسيات اختيار زوجة من الشير. وبعد أن تزوجت حملت. وبعد أن حملت وضعت بنتاً سماها تمرتاج. وبعد البنت صبياً سماه ابراهيم. وبعد ابراهيم ماتت.

لقد اكتشف ذات يوم ـ وكان يراقب بدر وأيوب يصارعان حديد المعصرة ـ أنه دون أن يعصر الإنسان لا ينزل منه زيت. وخطر له أن الحياة باهتة، وأنها تمضي حتى ركوب الخيل بدا له باهتاً. ما هو ركوب الخيل؟ وثبة في الفراغ، بطولة جوفاء، وهذان الإنسانان ينزان عرقاً فتنز أكياس الزيتون زيتاً.

ثم توارى الخاطر العكر، كما توارى من قبل جميع الخواطر العكرة. لم يكن قادراً على تحمّلها. لكن وفاة زوجته شقت في نفسه تراباً كتيماً، وسمحت بالظهور لذلك الرشيم الذي نما بسرعة وتفرع فصار غابة، وصارت الغابة مصيدة. كان متوقعاً أن يتزوج ثانية، والصبايا حاضرات. أن تأتيه سلسلة أولاد تشدّ ظهر آل السنديان. فاتحه أبوه في الأمر، وفي كل مرة كان خوف غامض يطبق على جسده، فيطلب التأجيل. خطر له أن القصة نفسها ستعاد. ستأتيه زوجة لا يعرفها إلا بالاسم، تنجب له، تهيىء أكله وملابسه وسريره. وبعد فترة شهور أو سنوات، يحبها بقوة العشرة، ويضجر منها للسبب ذاته. وسأل نفسه: ألمثل هذا خلق اسماعيل السنديان؟

ثم تحول الخوف الغامض الى قلق واضح. الارض، البساتين والحقول والينابيع، التي كانت له ملعباً، بدت لعينيه مثل زوجته المتوفاة. له كل شيء فيها وعليها. ولكن لا علاقة له بها. بل لا علاقة لها به. ملكه وليست ملكه. وكلما ازداد تطوافاً بامتداداتها ونجودها، ازداد شعوراً بأنه مجرد عابر سبيل.

حتى الحاكي اضمحل وهجه. صار رتيباً مملاً. أفسد السر الجميل المخيف النامي بينه وبين مريم، إذ أصرت على شراء مثيله فربط الناس بين الحاكين.

ثم الفرس. من كان يظن أن مطية المجد والخيلاء ستشحنه بالخوف، ستجعل الخوف حساً جسدياً لذيذاً لحظة الخطر، شعوراً في البال بالعزلة والصمت والكآبة لساعات قلق طويلة.

ثم الولدان. رآهما يكبران، يزدادان حجماً وعمراً. ورأى نفسه يكبر، يثبت حجماً وينقص عمراً. ورآهما على الأيدي، عند السياج وبين الدجاج، على الارض والفراش، وتساءل أين الفرح العظيم الذي يمنحه الأبناء للآباء، وأين الزينة في حياة جاءها المال والبنون.

ولكن رغم الغربة لم يتغير نمط حياته. استمر يرمح بفرسه بين الأراضي ويجتاز الوهاد والتلال، وظل عبوره نبضاً في قلوب الفلاحين. حتى إذا تعب من الحركة، آب الى البيت، أخرج الحاكي، وجلس يستمع. رغم الرتابة والضجر، كان يمضي ساعات مسترخياً على كرسي، شارداً أو متثائباً. كلما انتهت أسطوانة استبدلها بأخرى، حتى حفظ الكلمات واللحن بلا خطأ. كان ضجراً حتى الخوف. لو أن ثمة شيئاً يفعله. فيقي نفسه شعورها المرير بالضآلة. الاختيارات التي هيئت له منذ طفولته، لا حياة فيها، والحياة الكبيرة تخفق في مواطن أخرى لا يعرفها.

بالطبع، بقي كل شيء طي النفس. لا الأب عرف ولا الآخرون. وكانت غرابات سلوكه تجد تفسيرها السهل عند المتطلعين اليه، من عمته زين المها الى الشيخ بهاء: تلك علامات.

كانت زيارته لمريم أول خطوة على طريق تبين فيما بعد أنه منحدر. القلق الذي آمن الفلاحون أنه علامة الاشياء العظيمة، وجد مسرباً وغار في تربة سوداء. هذا الشاب العملاق الذي لم يعرف المرأة حقاً، وجد نفسه فجأة أشبه بصياد تطارده حجلة، مثل انكيدو يوم أوقعته الحرمة سمحة في أحابيلها الجميلة. منذ المرة الاولى اكتشف أن لجسدها مزاجاً، نبضاً، بل ايقاعاً. إنه أغنية غير التي يسمعها من الحاكي، أو قطعة موسيقى. وعاد القهقرى أحد عشر عاماً، الى يوم اعتلى فرس حسن الغفري أول مرة وقادته عبر شعاب الارض. وتذكر كيف ألهمته غريزته أن يطوق عنقها الناشب بذراعيه، فاختلط عرق وجهه بعرق جيدها وصارا صديقين.

باختصار: وجد اسماعيل السنديان نفسه. ولم تكن اللقية فرحاً كالذي تنبثق عنه الأشياء العظيمة. لقد حيرته مريم وأربكته. بالتدريج بدأت تعريه، وتحكمه. فاجأت قدرته الكبيرة على الجنس بقدرتها الأكبر على الحب. وذهل! من كان يصدق! هذه المطية التي اعتلاها الفوارس والراجلون، تشده من تلابيبه كي يصل الجنس بالحب. طلب جسدها اليه أن يحمله ويجتاز به العتبة الى البستان. وظل هو في موقعه، متشبثاً كالجمل الحرون. لم يستطع أن يخرج، إلا لأجل العنف، ومزيد من العنف. فيما بعد، وقد مضى ثلاثون عاماً أو يقل، ووجه الضابط يزداد كظماً وقتامة، ويده تزداد شراسة، لمع في ذهنه هول المفارقة. تذكر كيف كانت مريم تتوسل اليه بجسدها أن يطلع، يعلو، وكيف كان يهوي عليها بجسده كي يخمد توسلاتها. ذلك كان السر إذن - قال لنفسه وهو يتأمل وجه الضابط المحتقن. أرادته مريم أن يكون كما تصورته وكما تصوره الناس: فارساً، مخلوقاً للأشياء العظيمة. طالبته، ورد على الطلب بالضراوة. ناشدته، ورد على النشدان بالكبر. ويوم أوصدت الشباك، حطم في عبوره الفلوات كل سياج وغصن ونبات صادفه. يا للسخرية.. ها هو يقف أمام الضابط موقف مريم أمامه قبل ثلاثين عاماً أو يقل. وها هو ذا، بلا مقدمات، بغتة، دونما إشارة مسبقة أو وعي بما يحدث، ينهض أمام جلاده ويهتف بهدوء: «أنا أعرف أين شداد، ولن أخبرك. افعل ما بدا لك».. وفجأة وجد نفسه، هو ابن الثانية والخمسين، الشائب الشائه الوجه والعين، يتلقى اللكمة الهاوية على وجهه كرصاصة ممدودة فلا يتحرك ولا يضيره الألم. فقط لو أنه فهم يومها. يا ضيعة العمر. لكان وفر على نفسه الزواج البائس الثاني، ووفر على خضرة زواجه الثالث.

أرجعته مريم الى قواعده. ويوم هلل الناس، وأبوه على رأسهم، لعودته الى ارتداء صورته الأولى، كان هو

يتساءل حائراً عما أقلقه وعما أرضاه. تزوج. ازداد التهليل وازداد التساؤل. ماذا يفعل لهذا الشعب؟ وماذا يفعل لنفسه؟ أين هي الأشياء العظيمة كي يقوم بها؟

عمته زين المها لاحظت قلقه. ثلاثة أيام وهي تراقبه دون أن يحس بها. وملأ قلبها الروع. اسماعيل مفكور! وعندما وقفت وراءه ذات ضحى، وقد ألقى بيديه على السياج وأطلق تنهدة حارقة، لم تطق بعد صبراً. شهقت، وجثت أمام ركبتيه، وصاحت: «دخيلة أبيك وجدك أنا، ما بك يا ولدي؟» فنظر اليها بإمعان، ولكن كأنها غير موجودة. تضاعف ارتياعها. شهقت أيضاً ولطمت صدرها: «اسم النبي سليمان يسمي عليك وحواليك. ما لك تنظر إلي هكذا؟» فتمتم بنبرته المتصاعدة المتهابطة: «أنت لا تعرفين. أنت لا تعرفين». وصاحت هي: «أنا امرأة جاهلة. قل لي. أبوس يدك». لكنه نتر يده من يديها، وتقدم خطوتين الى السياج المقابل. لحقت به، وقد صار صياحها عويلاً، وطوقت خاصرتيه بيديها.

التفت رأسه اليها ببطء. استقرت نظرته عليها، فصمتت مفتوحة الفم جامدة العينين. «عندك للسر موضع؟» سألها. وهتفت: «بئر غميق يا حبيبي. قل، قل يا ولدي».

تلكأ. عاد ينظر الى البعيد. ولم تطق صبراً. بكت. جثت أمامه وتوسلت. «طيب. طيب. خلص، لا تبكي». فوقفت ككتلة جامدة منتظرة. نظر اليها وهو على وشك الكلام، وصمت لحظات كادت أن تهلك روحها. ثم انفرجت شفتاه: «رأيت مناماً. مناماً».

ـ منام، رحم الله جدك.

ـ لا تقاطعيني.

ـ نعم. نعم.

ـ رأيت مناماً. ثلاث مرات. كأن جدي الشيخ. جاء يقول لي. كان راكباً على فرس. نازلاً من السماء. كله. أبيض. وجهه غير واضح. لكنه جدي الشيخ. وضع يده على كتفي وأنا أنظر له، كيف؟ مثل واحد مدهوش. فهمت؟ مثل واحد مدهوش. أنظر اليه ولا أراه، تماماً..

صمت مكرهاً، إذ انهارت عمته على الأرض، وقبلت التراب بين قدميه. وجد أن الحكمة في انتظارها حتى تصل للحظة المناسبة في سير طقوسها. لكنه لم يطق الصبر. رفعها عن الأرض بعصبية، وصاح:

ـ ما لك، أنا أكلمك عن جدي، وأنت تبوسين التراب، بين رجلي. هذا جدي. ليس أنا.

ـ أنت وجدك شيء واحد يا حبيبي يا نور عيني. أنت ستصير مثل جدك.

ـ اسمعي.

ـ نعم. نعم.

ـ قال جدي: أنت يا اسماعيل قاعد هنا، وأهلك مقيمون في بيروت. فلا، فلا تذهب وتراهم؟ قلت: قلت أقربائي يا مولاي؟ في بيروت؟ وجاءني دهر العجب. بيت السنديان في بيروت! وكأنه ماذا؟ كأنه فهم علي. ربت على كتفي. وقال معاتباً، نعم معاتباً: ألا تعرف أن روح بني هلال حلت فيك، وأنك عكرمة مفتاح حرب بني هلال؟ قلت أنا يا سيدي؟ قال نعم. اذهب لرؤية أهلك في بيروت. سترى مضارب لبدو رحل. هؤلاء بقايا بني هلال.

مرة أخرى صمت مكرهاً. وذعر لأن عمته انهارت على الأرض، وبقيت بلا حراك. ماذا سيحدث إذا ظهر أبوه فجأة ورآها. وأسرع يحمل الكتلة البشرية الى البيت، مغتبطاً بخلو الدار من ساكنيها.

عندما أفاقت عمته نهضت وهي تصيح: « هات يدك لأبوسها يا مبارك. » وفعلت، بلا مقاومة منه. « أين بيروت؟ ألا يقدر أبو هاشم أن يوصلك اليها؟ ».

أصابه إحباط تام. أبو هاشم! هذه الحمقاء. وضحك مغيظاً: « أبو هاشم يوصل الدجاج الى الخم. بيروت بعيدة، يلزمها مال ». وكأنما سقطت عبارته في رأسها كمخدر قوي، فزاغ بصرها وانبلهت: « مال؟ من معه مال يا ولدي. ألا يقبلون حنطة؟ كيس تين يابس؟ ».

لم يرد عليها. خرج. مضى الى السياج. وضع يده عليـه، ونظر الى البعيد. لم يطل انتظاره. تريثت حتى وصلت الى المسافة المعقولة وصرخ: « ارجعي! أنا المخطىء. شاورت امرأة ».

في النهاية رفعت زين المها يديها الى رأسها. رفعت طربوشها عن الرأس المتشمل برقيق القماش. وضعت الطربوش على حجرة العرزال. نزعت دبابيسه العشرة. ردت طياته السبع. من الطية الخامسة سقطت مجيدية، وكرجت قليلاً ثم قلبت. ومن الطية السادسة سقطت اثنتان، تناولتها فوراً. وتناولت الأولى. لفّت الطربوش. شكت فيه دبابيسه. أعادته الى رأسها، ولمحت عيني اسماعيل اللافحتين.

بثلاث ليرات ذهبيات تمكن اسماعيل من الذهاب الى بيروت. أمضى هناك خمسة أيام، وشاهد ثلاثة أفلام سينمائية خمس مرات. ثم عاد مبهوراً الى الشير. أياماً قليلة وعادت اليه الشير. نظر اليها، أرضاً وبيوتاً وبشراً، وأيقن أنه لا قبل له بهذه البلاد. أياماً قليلة وأحس أن حتى زوجته الثانية أطبقت عليه من جديد. أنه لا حول له بالشير ولا قوة. أين هي وأين بيروت. وأين باريس. وأين هو وأين ديغول. وهذه الفرس. أين هي من سيارة رجب العز التي تمسح شوارع اللاذقية كبريق الخاطر، وتصل الى الشام وبيروت وحلب.

أكملت وفاة أبيه فراغ حياته. رغم الغربة، رغم الساعـات الطـويلـة مـن تضـارب النـدم والغيـظ والحب والاختناق، ومشاعر أخرى لم يعرفها بالضبط، كان ابراهيم السنديان أباً ملأ خيال ابنه. كان أمثولة. وها هو يمضي تاركاً ابنه بين يدي شعور بالخذلان. لقد مات ولم تتحقق أية من أماني العمر التي عقدت عليه. ومن قبل مات أيوب، وكان مقدراً له أن يصير كل ما لم يستطع هو أن يكونه، لولا أن أيوب ولد لعبد الجواد وليس لابراهيم، فلم يرث. ورحلت زوجته الثانية. ومات بدر، بعد أن أعطى لمريم ما عجز هو عن إعطائه.

بدر. أجل. بدر هو السر. إنسان بلا سمو، ولكن إنسان. قادر على الحب. أما هو، المحلق في أجواء عليا، المتأنف على الحياة، فقد أنزلته كيمياء مريم إلى منخفض لا قبل له به. جعلته غريباً عن الطبيعة، عن الأعشاب البرية والحساسين ونسمات الصباح النقية.

في القاع الذي رأى قدميه تستقران عليه شاهد خضرة. فتاة ذات شعر قرميدي وعينين حشيشيتين وفم دقيق. قطعة من أوروبا. وجهها مثل الصلاة على النبي. كانت خضراء حقاً، شابة بهية القامة هشة المحيا، بنت دريويش العون، المرابع عند أبيه منذ ولادته. وكان قد شاهدها من قبل آلاف المرات. لعبا في الطفولة معاً آلاف المرات. وجرها من شعرها مئات المرات. وها هي تقف أمامه، وتقدم له القهوة بانعزال النبتة البرية. أنحل من مريم وأطول، وتقول له: « تفضل القهوة، يا سيدي. » بادىء الأمر انتبه الى يديها، ثم إلى قامتها. نظر اليها دون أن يتناول القهوة، وهي مطأطئة قليلاً، مطرقة تماماً، وفستانها الرث بالكاد ينم عن تكوينها المعافى. أدهشه الفرق الصارخ بلا صوت: يدان غليظتان تشققت بشرتها ووجه نقي تورّد بالبرد والشمس. رفعت عينيها اليه بتساؤل صغير، تنبهه الى أنه لم يتناول القهوة، ومسّت عينيه.

ذلك الليل لم ينم. تساءل: أهكذا يكتشف الإنسان عناصر الحياة الجميلة؟ فجأة وبلا مقدمات؟ ويكتشف أنها أمام سمعه وبصره منذ زمان قديم؟ ثم استعاد مشهد تقديم القهوة: اليدين الغليظتين. تساءل: ما الذي حدث فجأة؟ كيف يكتشف حادثاً كل تفاصيله معروفة؟ ما الذي أنبتّ فيه وجعله كأنه يحدث للمرة الأولى؟ ثم

استعاد المشهد: العينين اللتين مستّاه. تساءل: أهكذا يأتي الفرح؟ ودائماً مصحوباً برعد الحيرة والاضطراب؟ أتكون هذه الرخاوة في مفاصله والشدة في أعصابه علامة حب قالت مريم إنه عاجز عنه؟

عشرات المرات استعاد المشهد. استعاده نتفة نتفة، خلجة خلجة. وبين الاستعادة والأخرى أسئلة لا تنتهي. أسئلة وأسئلة. وكل مرة ينتهي هو حيث بدأ. يرى نفسه مشدوداً بين قطبين متلاغيين: الجمال ـ الفرح ـ الحب.. الحب؟ مع خضراء الدمن هذه؟ مع فتاة لا تحسن إلا الحلاب والصرّ؟ وماذا عن الأشياء العظيمة؟ خضرة لا تعرف شيئاً خارج هذا البيت وذلك الحقل.

لكنها شيء آخر غير زوجته التي غادرته. تلك كانت متلفعة برداء آل السنديان الطويل السميك، حتى عندما تكون عارية. وكانت ممارسة الحب فريضة تؤديها له ثم تخلد الى النوم. وكذلك الطبخ والغسل وترتيب البيت. امرأة لا تقلق. لا تضجر. لا تسخط. ويوم عاد من بيروت استقبلته كأنه غادر البيت في الصباح. بالطبع كان البيت كله والطفلان والحاكي على استعداد تام لاستقباله. إلا هي. وذات صباح، في اليوم الحادي والأربعين لوفاة أبيه، حزمت متاعها وعادت الى قريتها.

وخضرة صامتة، بعيدة، غائبة، منتظرة، خالية، تقريباً بلا أمل، بلا خواطر.

لماذا يثير الجمال كل هذا الحجم من الشعور؟ ولماذا لا تثيره الأشياء الأخرى؟ كيف هذه اليقظة فجأة؟ لماذا بعد وفاة أبيه؟ ما الذي منعه من أن ينتبه قبل سنوات، مثلاً؟

نظرت اليه باستغراب، تسأله لم لا يتناول قهوته هذه المرة أيضاً. ولما التقت النظرتان اختفى من عينيها السؤال. أجل. حل محله وعي مباغت بما في عينيه من اهتمام مباغت. من انتباه ودهشة.

أيكون الفلاحون أقدر على الحب من آل السنديان؟ بدر كان. كلا. بدر أحب الأرض أكثر من مريم. كان سعيداً مع مريم، لكنه أحب الأرض أكثر منها. وماذا بوسع الفلاح أن يحب؟ الحب كبير ويتطلب نفوساً كبيرة. الفلاح ضئيل. إذا كان الركوب في حنطور أبي هاشم يطير عقله فرحاً، فما الذي يبقى من عقله إذا مر عليه الحب؟

ما الذي جاء بسيرة الحب؟ ستكون خضرة سعيدة كفراشة إذا اهتم بها. وسيفعل. هذا هو كل شيء. وعندما اضجطع أخيراً، منغسل النفس بخاطرته الأخيرة، لم تبق لديه أسئلة.

في اليوم التالي تحرشت به طيلة الوقت. كانت حاضرة دائماً. أينما تحرك وجدها. كيفما استدار. لبّت له عشرين طلباً وطلباً. ثوان وتكون رغبته ملباة. تعب جسمها ولم تتعب. وكلما خاطبها نظرت اليه. وكلما نظرت اليه هرب من عينيها سؤال. وتحرشت به.

أخيراً لم يعد يتمالك نفسه: ـ خضرة. لم تروحي الى البستان اليوم.

ـ لا.

ـ العادة، تكونين في البستان.

ـ العادة، أكون في البيت، يا سيدي.

ـ كل الوقت؟

ـ الا وقت تبعثني أم اسماعيل أو عمتي زين المها.

ـ أنت غير طبيعية اليوم.

ـ كيف؟

ـ كيف؟ غير طبيعية! يعني. غير طبيعية! مثل النحلة. من مكان الى مكان. لم تتركي الدار لحظة واحدة.

ـ العادة، أنا لا أترك الدار. العادة، أنت تتركها. يا سيدي.

ـ طيب، طيب. روحي الآن الى نبع الجفون.

ـ لأي شيء.

ـ روحي، املأي الدبليز ماء.

ـ الدبليز ملآن والجرة ملآنة.

ـ متى ملأتها؟

ـ وأنت تشرب ثالث فنجان قهوة.

صمت. هز رأسه هزات قصيرة. وبعد قليل تمتم: «الله يعطيك العافية». فانصرفت.

في الأسبوع التالي اكتشف أنها تأبّت عليه، وضعت لتحرشاته مسافة لا تتجاوزها، محصنة بـ «يا سيدي». لذلك قبع الى جوار صندوقه يضع اسطوانة ويغيرها حتى غاب القمر. بعدها نهض، ومشى حتى وصل الى حيث تتصل ساحة الدار بسطح بيتها. مشى على السطح حتى الشراف. في بقية ضوء القمر لمح شجيرات الورد والنرجس والفل تطرز الممشى الصغير، أمام البيت الصغير الذي ينام فيه سبعة آدميين. ثم عاد.

ظهر اليوم التالي ناداها.

ـ خضرة. ما لك أطلب منك أمراً فتلبينه، ولكن، ولكن يبدو، من تصرفك أنك، أنت تطلبين وأنا ألبي؟

ـ أنت غلطان يا شيخ اسماعيل. بس أنت في نفسك نية.

ـ نية؟

ـ نعم. وأنا غير منتهى.

ـ ما لها منتهى؟

ـ لا تقل إنك ما سمعت.

ـ سمعت أي شيء؟ ما هذه الألغاز؟

ـ منتهى أغرقت نفسها أمس في بئر الدروقية.

ـ أعوذ بالله من شر الشيطان الرجيم؟ لماذا؟

ـ ...

ـ لماذا؟

ـ لأنها.. حملت.. من مأمون الريحان. وتنكر لها.

ـ مستحيل! الوغد!

صمتا. وانتبه الى أنها بدأت تنصرف. صرخ: «وأنت تفكرين أني مثله؟».

التفتت. قالت: ـ رجب العز دهس طفلاً في شوارع اللاذقية.

تابعت مشيها بهدوء. كأن مسألة هامة قد حسمت، وماتت بأرضها.

مر شهر. لا سلام ولا كلام. تضعه ورجب العز على سوية واحدة! قاطعها تماماً. لم يطلب منها شيئاً. وصارت زين المها ـ التي حملت أعباء أمه المعتكفة ـ تصنع قهوته وتحملها اليه بيديها الراجفتين، فيتناول نصف الفنجان المتبقي صامتاً غير متذمر.

أخيراً تحرشت به فعلاً. قالت إنها تطلب مسامحته لسوء الظن، إنها تعرفه شريفاً وابن شرف، وأنه أكبر بكثير من رجب ومأمون وبقية الناس، وأنها خافت على نفسها منه. سألها:

ـ خفت على حالك من أي شيء؟

فأجابت بخفوت أقرب الى البكاء: ـ أنا بنت شريفة مثل بقية الناس.

هذه التفاصيل، وأضعافها، انحفرت في ذاكرة اسماعيل السنديان وأقامت هناك غير قابلة للموت. تضاعف عمره وبقيت حية. زالت أمه وزين المها، وبهتت صور الفرس والدار ونبع الجفون، واضمحلت لمعة عيني أبيه المتوقدتين، وظلت هي متوهجة في الخاطر. كانت لبنات قصة تحدث مرة واحدة في العمر، وقد لا تحدث. قصة حب. تقدم فيها بإصرار وثبات، وسرعان ما هنّأ نفسه على شجاعة أصيلة مكنته من اقتحام صمود خضرة وكبرها المفاجيء. لكنه سرعان ما اكتشف أنه لولا شجاعتها هي لما كان لإقدامه أن يثمر، وأنه ليس هناك أشجع من امرأة تحب. وعرف أن شيئاً عظيماً في حياته قد تحقق. وراحت القصة تنسج نفسها في السر، تنتقي خيوطها بفعل حيويتها وعفويتها، في تلك الغابة الصغيرة على سفح الجبل. ثم خرجت الى العلن يوم ماتت مريم وانتهت قصتها. يوم اكتشف اسماعيل أن شيئاً عظيماً آخر في حياته قد تحقق.

في ذلك المساء عاد من اجتماع حاشد صاخب، ورأسه يدور بين كتفيه. كان وجهاء الشير وحكماؤها قد تداعوا الى الاجتماع السابع بشأن بناء مدرسة إعدادية في ساحة القرية. وذهب. لم يكن يتوقع شيئاً سوى الفشل. فالسبيلان الموجودان، سد أولهما عبد الرحمن بيك والشيخ عبد الهادي، وسد ثانيهما الهواء الجاثم على الشير منذ الأزل. كان السبيل الأول بسيطاً، وقد اقترحه اسماعيل بنفسه: البيك والشيخ يملكان ثمانين بالمئة من أرض الشير، ليدفعا ثمانين بالمئة من تكاليف البناء. وهو، المالك لعشرة بالمئة، سيدفع مقدار هذه النسبة. والفلاحون، العشرة الباقية.

مجنون، قال عبد الهادي في سره. وأعلن البيك أنه سيدفع مثل الشيخ عبد الهادي وحبة مسك زيادة، باعتبارهما متساويين تقريباً. والتفت الشيخ الى اسماعيل، بمحبة أبوية وابتسامة غافرة:

ـ أنت يا شيخ اسماعيل متضايق مما رزقني الله؟

ـ أعوذ بالله يا عمي أبو مأمون. لكن الله أعطاك لتعطي عباده.

ـ وأنا أعطي عباده أكثر مما يعطيهم أي رجل في الشير.

ـ ليست هذه هي النسبة التي قررها الإسلام يا عمي أبو مأمون.

ـ تظن أنه واجب علي أن أدفع؟ هذه منة يا شيخ اسماعيل، لا واجب.

في الاجتماع الخامس، تقدم مندوب وزارة المعارف باقتراح جديد: ليدفع كل واحد ما يستطيع، أو ما يريد، والباقي يأتون به من بيع الأشجار اليابسة في غابة الشيخ علي بن سلمان.

مجنون، قال له عبد الهادي علناً. وكان معظم الحاضرين قد شهق وقهق. وعاد فابتسم للمندوب بمحبة أبوية

معتذرة وروى له قصة درويش العون، جد درويش الحالي وكيف أنقذه من نقمة الولي ايمان الشيخ ابراهيم السنديان.

كان الاجتماع السادس أكثر انسداداً. كانت حماسة اسماعيل، التي شربها ممثلو الفلاحين بنهم، تنطفي أمام منطق البيك والشيخ الرقمي الوديع: كل أب يدفع بحسب عدد أولاده الذاهبين الى المدرسة.

في الاجتماع السابع، لم ينتظر اسماعيل كلام أحد. التفت الى الشيخ عبد الهادي وسأله: «أقصى ما تريد أن تدفع، كم؟» وأجاب الشيخ بابتسامته المحبة: «كرمى لك، خمسمئة». وقال البيك بلا سؤال: «وأنا أدفع كرمي للحضرة، ستمئة. مع أني لن أستفيد شيئاً من بناء المدرسة». وبدا أن بوده أن يضيف شيئاً آخر، لكن اسماعيل قاطعه: «كلمة شرف؟» وأجاب الاثنان أنها كلمة شرف. التفت الى مندوب الوزارة وسأله: «عندك من يشتري الأشجار؟» فأجاب الآخر مبهوتاً ولكن فرحاً: «نعم. موجود». وقال اسماعيل: «طيب. أنا أبيعه الأشجار.»

وصمت. وإذ مرت فترة الدهشة، نهض واقفاً. صمتوا. نظروا اليه. قال:

ـ الغابة ملك لي. جزء من أملاك أبي. أشاعها جـدي شيخ السنديان، رحمة الله عليه وعلى موتاكم. لكن بقي لنـا حق التصرف فيها. والله يعلم نحن، لا نبيع الشجر طمعاً، في مال، ولا مخالفة للشريعة. لو كان الشيخ علي بن سلمان، حياً، لوافق على بيعها، لخدمة، لخدمة الفلاحين، لنشر النور في عقول أولادهـم. وأنا مسؤول عن كل ما يحدث، للقرية.

كانت كلماته دوياً. وأعقبتها معركة. وكان الشيخ عبد الهادي مستميتاً في منعه عن تنفيذ قراره. وللتو انحاز اليه عبد الرحمن بيك: كيف تخرق المقدسات وتداس المحرمات؟ لم يبال اسماعيل بهم. ولكن خذله موقف ممثلي الفلاحين. كان يعرف أنهم يؤيدونه، ولكن يخافون: ليس فقط من نذائر الشيخ عبد الهادي وإنما أيضاً من غضبه والبيك معه. لكنه لم يتزحزح. اتفق مع مندوب الوزارة على سعر طن الخشب وسط ضجيج لم يسبق له مثيل، وتهديد بالقوة مبطن ما لبث أن صار معلناً. ثم التفت الى الرجلين المعارضين، اللذين تشددا في موقفهما بشراسة فاجأته هو قبل غيره:

ـ إذا خطر لأحد أن يقاوم، عملية قطع الشجر أو، يتعرض للشاحنات، فلا يلم إلا نفسه.

وقال عبد الرحمن بيك مزمجراً: ـ أظن أنك ستجمع حولك هؤلاء الزعران. قطاع الطرق الذين يريدون الاشتراكية والإلحاد.

ولم يمهله اسماعيل ليكمل: ـ سأجمع حولي الجن والشياطين. إذا لزم الأمر. إذا لزم الأمر.

قال الشيخ عبد الهادي باسترخاء: ـ يا شيخ اسماعيل. طوّل بالك، يا شيخ اسماعيل. أنت كريم وابن عائلة كريمة. ما هكذا..

ـ أنتما الاثنين لا تريدان بناء مدرسة في هذه القرية. إذا تعلم الفلاحون خسر البكوات.

نهض عبد الرحمن بيك: ـ طالما الحالة هكذا، أنا أنسحب. ومتأسف جداً. لن أدفع ما وعدت به.

نهض الشيخ عبد الهادي بهدوء وقال: ـ لا أحد يدفع مالاً وهو يهان.

في الخارج تلقف قطاع الطرق اسماعيل، وحملوه مرة بعد مرة حتى الغابة. لم يكن محتاجاً للاتفاق معهم. قالوا له كل ما يريد سماعه. وكان آخر ما سمعه صوت عبسي الطافح:

ـ سنقطع العصي من الغابة، ونضربهم إذا تدخلوا.

سار وسط الغابة الموحشة وقد انفض عنه الشباب وعادوا. كان طنين خفيف يملأ أذنيه ورأسه. وكان ضوء القمر المتغلغل كالخيوط بين فروج الشجر يجعل الغابة جسداً غير حقيقي. تماماً كالحادث الذي مضى. سار خفيف الخطى، والصمت مطبق إلا من أصوات السناجيب الفزعة. سار ممتلئاً بشعور عظيم.

في باحة الدار لمح مجلساً آخر لخمسة أو ستة من الناس جاثمين على الكراسي بلا حراك. وخمن أنهم صمتوا إذ أحسوا بقدومه. قبل أن يصل نهضوا دفعة واحدة ووقفوا بلا حراك ينتظرون منه تحية المساء.

حياهم. أمه وعمته، خاله، دريويش العون وابنه البكر. أسرعت أمه تحضر كرسياً سادساً، فيما الآخرون يبادلونه التحية ويلثمون يده.

جلس. وعادت أمه. صنعت له قهوة وجاءته بها. والآخرون صامتون. رشف رشفتين، ورحب بخاله مجدداً، ثم سأل: ـ لأي شيء اجتماعكم؟

نظرت زين المها الى الخال. والخال الى البعيد. وأطرق دريويش وابنه. لف الخال سيجارة. وتنهدت الأم. لم يتكلم أحد.

ـ حادث موت؟

تكرر رد الفعل. نظر اسماعيل اليهم وهو على تخم الضيق:

ـ حادث موت؟

ـ تقريباً.

التفت الى خاله بصمت يسأله ماذا يعني. وقال الخال:

ـ بودّك الحقيقة بالمقشر؟

ـ بالمقشّر.

ـ خضرة حامل. تريد أن تقتلها بنفسك أو يقتلها أخوها؟

ظل اسماعيل جامداً. سوى أن قلبه لطم بأضلاعه. تفحصهم واحداً واحداً، ثلاثة ينظرون اليه مترقبين، واثنين مطرقين. رشف من فنجانه رشفتين أخريين:

ـ أين خضرة؟

ـ تحت. في البيت.

ـ ماذا قالت؟

ـ ما أحد منا قدر أن يأخذ منها حقاً ولا باطلاً. قعدنا ننتظرك. لتقول لك عن الفاعل.

ـ وإذا يبّست رأسها؟

قال الأب: ـ اتكالنا على الله وعليك.

قال الأخ: وإلا قتلتها.

ـ وإذا حكت؟

قال الخال: ـ نزوجها.

نهض اسماعيل فجأة. مضى الى العرزال. وضع قدمه في مدخله، وأرسل عينيه صوب الوادي المديد. كانت

الأشجار والدروب والروابي الصغيرة غبشاء في ضوء القمر القوي. تأمل المشهد مشحوناً للحظات. ثم ارتعش. ها هو ضوء الحقيقة يسطع. وخضرة حامل. فلماذا يغبش عقله؟

فيما بعد تذكر المشهد مرات عديدة ـ أيضاً بكل تفاصيله. تذكره في منعطفات حياته الحاسمة، وفي هزاتها الشعورية ـ كلما أرهقته قوة خضرة وعجزها عن أن تكون «تحت في البيت»، وكلما عصرته الحياة والفقر، وكلما دوخه الشك وغبش عقله: أكانت تلك الأيام العظيمة عظيمة حقاً؟

لكنه ذلك المساء وجد نفسه منساقاً بما في نفسه. أحس أن شيئاً عظيماً ثالثاً يأتي. وعج صدره بجيشان طافر، وبدا له أن الأشياء العظيمة لا تأتي فرادى. عاد الى المجتمعين ببطء، ولكن بتصميم، وأعلن لهم باقتضاب أنه أبو الجنين الذي تحمله خضرة.

أغمي على أمه. ولم يكن ذلك شيئاً ذا بال، فأمه عاشت في الظل القاتم طيلة حياتها.

ونهضت زين المها كلبوة ثائرة وكأنها تقمصت شخص أخيها وانشحنت بكل ما في آل السنديان من أعصاب فائرة. لكنها جمدت إذ لطمتها نظرته السنديانية الصلبة وعقدت ذراعيها على صدرها.

وتحرك رأساً الأب والأخ والتقت أعينهما في نظرة قصيرة.

الوحيد الذي تكلم كان الخال الهادى الوقور: ـ تقول الحق يا اسماعيل؟

ـ نعم يا خالي. لماذا أقول غير الحق؟

في الصباح بلغه نبأ موت مريم، وعند العصر جاء من قال له إن الشيخ عبد الجواد امتنع عن الطعام. وكان الحادثان نذيرين، على الأقل في أعين الفلاحين والشيخ والبيك. لكنه لم يبال. جاءت الشاحنات عند الضحى. نزل منها العمال واتجهوا الى حيث أشار لهم وهو يدور على فرسه من شجرة الى أخرى. وبدأت فؤوسهم تقضم قواعد الجذوع اليابسة.

كان منظراً فريداً في تاريخ الشير. ليس فقط أن كل إنسان تقريباً جاء الى الغابة، من كل حدب في القرية وصوب، وإنما أيضاً كان كل إنسان غابة: حمل شعوره وجاء. فتية الجيل التالي لجيل اسماعيل، الذين كانوا بالأمس فقط أطفالاً يعابثون الشيخ بهاء فيدفعونه الى الكفر والجنون، حملوا ما تيسر من معاول، أو حملوا أجسادهم وحسب، وهجموا على الأشجار اليابسة كبدائي يهجم على فريسة. والذين وقفوا في الأرض المجاورة للغابة، يتفرجون على الاشجار وهي تقطع وتحمل الى الشاحنات، كانوا أشجاراً بشرية تجتاحها مشاعر خوف أو رعب، فضول شبق، استسلام موتي، شهوة ملتوية بأن تهبّ النار في الغابة وتلتهم مدنسيها.

مر الوقت سريعاً وبطيئاً. شاحنة تمضي وشاحنة تجيء، والغابة المترهلة المتداخلة تستعيد شبابها، تخضر وتتجدد تحت الشمس وضربات المعاول. والأطفال يتسللون بين الأشجار فيجمعون حطباً ويفرون به قبل أن يدركهم الشيخ علي بن سلمان، وما تلبث أيدي آبائهم أن تلتقطهم وتهوي عليهم بضرب مبرح، تنتزع الحطب فإما تتجرأ وتعيده الى الغابة أو ترغم الأطفال على إعادته.

لمع برق وقصف رعد من غيوم الغرب التي تجمعت فجأة وفي غير أوانها. وراقب اسماعيل السماء بعين باردة وقلب يقطر توجساً. الفلاحون ينتظرون صاعقة، وناراً. أحس بموقفهم يجنح بالتدريج نحو العداء. كلما مر الوقت دونما حادث، تجهمت وجوههم وخفتت أصواتهم أو تلاشت. كانت حشودهم في الحقول المجاورة ثقلاً يجثم على أعصابه. وعند العصر بات لا يستطيع التحمل، فقصف الرعد على أشده والمطر سيول. بعضهم قال إن الشاحنات ستتهور في منحدر حرفوش. ولم تتهور. وقليلهم خمن أن شيئاً سيحدث في اليوم الثالث، لأن السر والبرهان لا يظهران إلا في اليوم الثالث. وسرى التخمين فصار ترقباً موتوراً.

غابت شمس اليوم الثالث. وجاء مساؤه عصبياً مشحوناً. القرية كلها سهرت مطفأة القناديل والسراجات، إلا منزلي الشيخ والبيك. والقمر بدر. والأشجار المصفوف بعضها فوق بعض على أرض الغابة، تتأرجح كالجثث في الخيال، كالجثث المقطوعة الرؤوس. ليس فقط أن اسماعيل لم ينم. سهر معه، كل في غرفته، أمه وعمته وخاله، وأسرة دريويش العون. لم تظهر خضرة. ولم يأت أحد على ذكرها. فذلك الليل كان ليل الويل.

مر اليوم الثالث. وتأكد اسماعيل أن الشيخ علي بن سلمان لا ينوي به شراً. في الصباح اعتلى ظهر فرسه وأطلق له العنان عبر طريق القرية الرئيسي، ووصل الى خندق الجقل فاستطلع مجيء الشاحنات. وعاد. وفي الغابة وجد العمل قائماً على قدم وساق. عديد من الفلاحين كان انضم الى الشباب. ووقف يتأملهم وقد عقد الفرح لسانه وكاد يحل دموعه.

ظهر اليوم السادس انتهى العمل في الغابة. وأيقن الناس أن المدرسة ستغدو حقيقة واقعة. وكانت أياماً لها تاريخ، من النوع الذي يحفر برؤوس الإبر على أماقي البصر فتكون عبرة لمن اعتبر. وفي فجر اليوم السابع توفي الشيخ عبد الجواد.

كانت وفاته نكسة. بطريقة ما ربط الناس بينها، وقد حدثت مباشرة بعد قطع الأشجار، وبين وفاة شيخ السنديان السادس أيام سفر برلك، وبين وفاة مريم خضير قبل أسبوع. وأحس اسماعيل بالمعنى الخفي، حتى قبل أن يواجه الناس وقت التغسيل والتكفين، ويرتعش خاطره للمسة نظراتهم المليئة. تعثرت قدماه غير مرة. ولحسن الحظ كان حزنه على وفاة عمه عذراً مقبولاً. وراحت عينا عبد الهادي الوديعتان تطاردانه أنى ذهب، وحاجبا عبد الرحمن المعقودان حزناً على عبد الجواد يشطبان عليه كعصا: عمه مات، ومريم ماتت، وخضرة حامل. الأشياء العظيمة تهدد بأن تنقلب الى أشياء فادحة. ماذا لو جاء عقاب الشيخ علي بن سلمان سريعاً؟ ماذا لو انكشف أمر خضرة؟

صباح اليوم الثامن نهض بقوة. الضعف نفسه الذي أنهكه، دفعه في ساعات النوم الثلاث التي نالها نحو صلابة منعشة وعزم نشيط. وقصد بيت عمه المتوفي محفوفاً بفلاحيه. أنفذهم لشراء مزيد من الذبائح، وجلس في صدر البيت الكبير يتقبل التعازي. وازداد الشيخ عبد الهادي دماثة وحضوراً، فابن «أخيه» سيتكل بنفقات الجنازة وسيولم للناس.

سبعة أيام أخرى والذبائح تنحر، والناس يأكلون، ويترحمون على آخر ضوء يأفل من آل السنديان. وخضرة مختفية. تحت، في البيت. انتهت دوامة وبدأت أخرى. مساء اليوم السابع، عاد اسماعيل ليجد في الدار اثني عشر شخصاً جديداً جالسين. كانت أخواته وأزواجهن في البيت منذ وفاة عمه. لكن أحداً لم يجلس في ساحة الدار هذه الجلسة المتربصة. وصل، فحيا، فنهضوا وقبلوا يده. جلس فجلسوا. ترحم على الراحل الكبير، فترحموا. صمت، فصمتوا.

أدرك الآن أن وراء الأكمة ما وراءها. تجاهل الأمر. نظر الى خديجة بشكل خاص: سبعة أيام ولم تلتق عينها بعينه. خديجة التي أحبته كنبع واعتنت به كأم. جلست حد خالها وأمسكت معصميها فوق بطنها المرروض. ثم ياقوتة، الجميلة دائماً، وزينب الشقية، وليلى ومرجانة العليلتان، ومطيعة المشة كالبلور. إلى جانب الخال، جلس الأصهار جلسة كومبارس، لا شأن لهم سوى أن يكونوا الحشوة اللازمة لمشهد عريض.

لو شاء لظل صامتاً وأفشل محاولة التدخل. ما من أحد كان سيجرؤ على فتح الموضوع. لكن طبيعته لم تسمح. وفهم أن خديجة هي التي رتبت هذه الجلسة الغريبة واعتمدت على أنه لن يستطيع الصمت. هي تعرف: اسماعيل ليس مناوراً كمأمون، ولا يملك القدرة على التجاهل. وهي تظن: ستغدق عليه الحب والاحترام والمجد، ثم تقوده الى اتخاذ القرار الذي تريد. ستثير حميته حتى تفيض ثم توجه فيضها الى الساقية التي تشاء.

لكن الفيض جاءها قوياً. أقوى بكثير مما توقعت. وبعد أن فشل الحب والاحترام والمجد، والشرف والنخوة وسلالة السنديان، بدأ التهديد. إذا ظل مصراً على الزواج من خضرة، فالأخوات مضطرات الى فعل مالا يحببن فعله. سيندم. الآن لن يقلن ولن يفعلن شيئاً. سيذهبن في الصباح إلى بيوتهن وكأن الأمور عادية. خديجة لا تهدد.ولكن يجب ألا يتزوج خضرة. ليزوجها الى أحد فلاحيه ويبقيها حوله. أليس هذا ما فعله مأمون الريحان مع وسيلة بنت ابريهوم دياب؟ شرف السنديان أهم من خضرة. خضرة زانية. هي التي غررت به. ثم متى كان يحسب للفلاح حساب؟ كل عمره لا شيء. خلقة الله؟ الذباب أيضاً خلقة الله، والأفاعي. إذا كان هو يحسب حساباً فليتحمل النتائج. الأخوات الست سيطالبن بنصيبهن من الإرث، وسيحصلن عليه. العادة، نعم، ألا ترث البنات، وأيضاً التعهد. ولكن الآن الدنيا تمشي على القانون، والشرع بينه وبينهن. أيرث أولاد بنت العون أرض إبراهيم السنديان، اذن؟

وهكذا كان. تزوج اسماعيل خضرة، واشترى لأهلها بيتاً في الحارة الشرقية. وبعد ستة أشهر ولدت تغريد، ابنته الأولى. وانتقل الى الأخوات الست ثلاثة أرباع الأرض، وثلاثة أرباع المنزل والعزال والساحة والممر والبيوت التي تحت. ولأن اسماعيل لم يشأ مصادمة النساء، لأنه رأى نفسه أكبر من أن يطالب بنصيب عادل من الإرث، أعطي الأرض الصخرية أو البيضاء. ضاع منه نبع الجفون، وخندق ابراهيم، ووطاء السرسكية. ولم يعترض. ويوم قرر النزول الى المدينة، بعد أن باع حصته لعبد الرحمن بيك، كان الناس قد قرروا أن آل السنديان انتهوا. تلاشت الهالة. واسماعيل الفارس، الحلم والحقيقة الكبيران، صعد الى البوسطة مع زوجه وابنته. جلس في المقعد الخلفي، وسأل كم الأجرة الى اللاذقية. وعندما جاءه الجابي، ابن مرابع عند عبد الرحمن بيك، مد يده وهو يعلك علكة من صمغ الصنوبر. لم ينظر اسماعيل اليه. مد يده الى جيبه بسرعة، وعبث بالنقود مضطرباً، كأنه يلمس شيئاً آخر غيرها. أخرجها وبسط كفه أمام الجابي. ومد الجابي أصبعيه كنشال، التقط قطعة معدنية وقذفها في الهواء، ثم التقطها ثانية وطوى ذراعه عند صدره. وتحركت البوسطة. تهزهزت، شخرت، وانطلقت.

ذلك كان آخر عهده بالشير طيلة عشر سنوات تالية. وسواء كان الأمر غريباً أم طبيعياً، ففراقه لم يكن صعباً على القرية الصغيرة. ليس فقط لأن مناخاً جديداً بدأ يهب عليها خلال أربع السنوات التي أعقبت استقلال سورية، وإنما لأن مصيره، الذي وصل الى مرحلة أرذل فيا بعد، عزز عند الناس يقيناتهم على اختلافها. الذين رأوه هالة أو نجماً ساطعاً، تنهدوا وقالوا هذه هي طبيعة الحياة: لا تدوم لأحد. وعادوا فاستثنوا الشيخ عبد الهادي وعبد الرحمن بيك. والذين خافوا من عقاب الشيخ علي بن سلمان تبينوا في رحيله الموجع الى اللاذقية تحقيقاً للسر والبرهان، وعلامة على قدسية المقدسات. وقاطعو الشجر، الذين لا يعجبهم العجب ولا الصيام في رجب، أصروا على صواب آرائهم، بدليل أن المعتقدات الإقطاعية الرجعية التي قهرها اسماعيل في عبد الهادي وعبد الرحمن، ظهرت عند أخواته وقضت عليه. قالوا إنه لو كان عند الناس وعي بالاشتراكية، حس بها على الأقل، لما رأوا في زواجه من خضرة تلك الفظاعة والانتهاك اللذين دفعا أخواته الى تقديمه على مذبح المصلحة الطبقية.

كلمات كثيرة جديدة دخلت اللغة اليومية، الى جانب الفلاحة والتعشيب والحصاد والرجاد.. لم يستطع استيعابها حتى أبو هاشم الذي كان كل يوم في المدينة ويسمع الأخبار: الاقطاعية، الرجعية، الطبقية، الاشتراكية، التاريخية، وعديد من هذه الـ (اية) التي أربكت ذهنه. « بهذه السرعة؟ البارحة كنا تحت ابط فرنسا! » وكان متضايقاً أساساً من أمر أفدح: الى جانب سيارته التاريخية صار في الشير الآن بوسطة تتسع لعشرين راكباً جالساً ولعشرين آخرين في أمكنة أخرى؛ وسيارة جديدة لأبي جابر تتسع لثمانية ركاب جالسين وستة محشورين في أمكنة أخرى. وصار الفتيان والشباب، الذين كانوا يركبون سيراته بلا شيء على أكتاف

آبائهم، يعزفـون الآن عن سيارته المناضلة صاحبة الفضل. ولكن، ما العمل، حقاً؟ معاني الكلمات تغيرت، لأن معاني الأشياء تغيرت.

كالعادة كانت كحلة من نقل للناس أول صدمة أحست بها تجاه معاني الكلمات. في ذلك الضحى عبر عبد الرحمن بيك حارتها قادماً من قريته الشرقية، وماضياً الى منزل الشيخ عبد الهادي، حيث انتظره خروفان مسمنان ليذبحا على شرفه احتفالاً بنهاية الحرب العالمية الثانية. وهرعت كحلة من بيتها حتى الطريق، أصابعها تسقف جفنيها المرفرفين، وهي تهمس بلهفة خائفة: «أيهم البيك؟ أيهم البيك؟» وقال الذين وقفوا هناك، هذا هو. وأشاروا. سألت، وأصابعها ما تزال تسقف جفنيها المرفرفين: «هذا هذا هو؟» فأكدلوا لها وأشاروا. صمتت. لم تنبس بحركة. ظلت تحدق اليه حتى اختفى. ثم التفتت اليهم. بصوت كسير، بقامة ازداد انحناؤها بفعل الخيبة المريرة، تمتمت: «حسبنا البيك بيك، وإذ به رجل مثل غيره».

هذا الاحتجاج الخائب، الذي لم تقدمه لأحد على التعيين، ضاع في زحمة المساء. بعيد الغروب وجد الناس أنفسهم على الأسطحة، ووجوههم مشرئبة باتجاه المدينة. في تاريخ الشير كله لم يشهد أحد مثل هذا الشكل لرقعة السماء الغربية. كانت عروساً تزدهي كل لحظة بألوان ضوئية. من المدينة البعيدة، ومن فوق البحر، بل ومن وراء البحر، تصاعدت سهام وأقواس ونياشين، واخترقت الفضاء العاتم بحركة رقص عجيبة. وبين الحين والحين كانت جمهرة من الحبيبات اللامعة تضيء فجأة تحت سمع السماء وبصرها، تتسع ألوانها الصاحية وتتمايز، ثم تسقط في العتم.

على نحو ما شعر الفتيان والأطفال بأن أمراً جديداً يطلع على العالم مع الشهب النارية، مثيراً للروع، غامض الفرح، حافلاً بالمفاجآت، مثلما السماء في ذلك المساء حافلة بمزيد من النجوم.

قالت خولة لأخيها عبسي بنبرة حازمة: «شفت؟ هذه نهاية الحرب».

وقال هو، مزدرياً شيئاً فاتته رؤيته: «وأي شيء هذه الحرب».

فأجابت دون أن تحول بصرها عن الشهب والنيازك: «الحرب العالمية يا غبي».

عام ١٩٤٥: انتهت الحرب العالمية الثانية.

وبدأ جيل جديد بالظهور. ألهبت الحرب خياله، وما بعد الحرب. وتطلع حوله باحثاً عن الأشياء العظيمة، وبعد عامين أسس حزباً. كانت البداية مع الشيخ بهاء. وكان الشيخ بهاء نهاية. يذكره الأطفال والفتيان قوساً قرب طرفاه من طرفي عصا بدت في مثل طوله، بسبب انتصابها وانحنائه. لم يشاهد من دونها قط. والذين يستطيعون أن يرووا عن عمل قام به بلا عصاه، غادروا الشير إلى قبورهم منذ عهد بعيد. فكأن عمره ألف عام. كأنه لا يموت.

عرفوه عالماً يروي عشرة آلاف حديث، وصوفياً متدروشاً، وفلكياً ينذر الناس بمصائرهم، وضارب رمل يكشف اسم من سرق ذهبات كحلة والى أين شردت حبرية الريحان، وسكيراً تنام معه بطحته وتصحو، ترافقه الى البستان والمزار وتخوم القرية. عندما دخلت الغرابة في عقله وطبعه، ازدادت مهابته. أيقن الناس أنه قد وصل الى المعرفة. وتناقص عدد مريديه والمولعين به. فمذ وصل الى المعرفة دأب على فضح النوايا والأسرار. لم ينس أحد إلا هو، يوم هجم قبيل صلاة العيد على مأمون الريحان، ويده تلولح بعصاه، وقد انتصبت قامته بقدرة قادر: «اتق الله يا مأمون الريحان!» صاح به، وعيناه تقدحان كمن لبسه شيطان. ابتسم مأمون بسعة قلب، وسأل: «وماذا فعلت يا شيخ بهاء؟» فأجاب بلا إبطاء: «تريد أن اقول؟ أحكي قدام هؤلاء الأفاضل؟» واضطربت ابتسامة مأمون الحليمة، واتسع قلبه فمد يده وأعطاه ليرة كاملة. تناول الشيـخ بهاء

الليرة مكشراً، ودسها في جيب قنبازه: «أنا أحذرك حتى لا تتخطى حدود الله». وعاد الى الخنانه. قفل راجعاً وهرول الى مقهى أبي ضرغام فملأ بطحته. وهز مأمون رأسه هزة أسف بليغ: «يا ضيعان علمه وعقله. صار يبتز الناس ليشتري الخمرة».

صباح اليوم التالي شوهد الشيخ بهاء على قارعة طريق وادي الرميم، وهو يئن موجع الجسم. وبعد ساعات اكتشفت جثة سلمى بنت وسّوف الجدي في بئر الدروقية.

يومها جاءه الفتيان والشباب بلا مناجزة، وسألوه إن كان يعرف السر. نهنه ثم ضحك: «هذه لا تحتاج الى ضرب رمل. لكن الذي يعد العصي ليس كالذي يأكلها». ثم كشر عن أنيابه متحولاً بلحظة الى إبليس حقيقي، وهوى بعصاه على أقربهم فكسر ذراعه.

رغم كل شيء ظل الناس يرون فيه تجسيداً لسر قديم، صورة عن مجد غابر، كان العلم فيه علماً، والأشياء العظيمة أشياء حقيقية. يوم كانت الكتب تقرأ، والنجوم تدرس بالأرقام والمسافات، والتصوف رداً على نوازع الشر في نفس الإنسان. ثم تعرض السر والمجد لهزة في العقل، تحولا الى لوثة وخوف. وصارت كلماته غامضة مضطربة، لا تقدم بشارة ولا تسعف خاطراً قلقاً، ولا تستر وجداناً معذباً. وصار الموقف الأسلم أن يبتعدوا عنه ويبعدوا الصغار. ومع الزمن، تآلف مع وحدته، صاغها محارة. وكلما مسه الأولاد، خرج، ولفظ عليهم صدأه ونزيزه.

ذات يوم، وبعد أن نال محمد علي الريحان بسببه علقة عمياء، اجتمعوا عليه بلؤم واضح. وكان عكر المزاج. مشى، ومشوا حوله. لم يصبر عليهم. كلما صار أحد في متناول عصاه، هوت عليه ضربة لا تقل لؤماً. قذفوه بالتراب والعيدان والحصى. هرول، فركضوا وراءه. وتوقف فنال اثنين منهم. هرول أيضاً، فصاروا حذرين. وأخيراً وجدوا أنفسهم أمام مزار الشيخ الغريب، ووجدوا الشيخ بهاء يقف غير منتبه الى صراخهم وقذائفهم، ينظر الى المزار وقد أثبت قبضته على عصاه وتقوس وراءها.

كانت رضا المجنونة جالسة على عتبة المزار وظهرها مسنوداً الى بابه. وجنتها مسترخية على ركبتها، ويداها مشدودتان على ساقيها. تأمل الشيخ وجهها الملوح بالشمس وعينيها الصافيتين. اقترب منها والريح تهز الشجر، فخف سقوط الصراخ والقذائف عليه. وإذ وصل اليها تلاشى السقوط. وكانت عيناها شاردتين عند الجوزة الكبيرة التي تقام تحتها الصلاة في الصيف. جلس على حجرة قريبة وأطرق. بعد ثوان سمع صوتها: «البارحة قبروه.» ظل يـرنو: «من؟» «قبروه وحده لم يقبروا أحداً معه.»

- أنت مجنونة! من الذي قبروه؟

- قبروه في جب التسار. لم يقبروا أحداً معه.

- قتلوا أحداً؟ من القاتل؟ الوقاف؟

- كانت تصرخ وتولول مثل المجنونة. أطعمتها بيضة مسلوقة لم تأكل. وجاء الملك الأحمر فربط فمها وأخذها معه الى الجب. روحوا من هنا أنا ما شفت ولا سمعت.

- يعذبونك، ألا يعذبونك؟

- يعذبونني. من؟ البارحة شلحوني لباسي.

- أنا أعطيك لباساً. من عندي.

- أنت مجنون؟ امرأة لا تلبس لباس رجل.

ـ أنا حزين. اليوم تذكرت أم ميهوب.

ـ أعرفها. البارحة غرقت في النهر الكبير. أين هي؟

ـ ماتت من زمان.

ـ تسأ تسأ. أنا أصير امرأتك بدلاً منها.

ـ يقولون مجانين. أنت مجنونة وأنا أهبل.

ـ روحوا من هنا. أنا رميتها في الجب أنا ما رميت أحداً. قولك يرموننا في جب الدروقية؟

ـ لماذا يرموننا في جب الدروقية؟

ـ هناك رموا سلمى. يمكن يرموننا. والله.

ـ وأنت يا بنت الحرام تعرفين!

وتلفت حوله بذعر. كان الأولاد قد تجمعوا وجلسوا وراءه. وبحركة غريزية رفع عصاه في الجو. لكنه توقف عن الضرب بفعل صيحة رضا المرتاعة، وفر اثنان كانا تحت مهوى العصا.

فيما بعد، قال شداد الخياط إن الشيخ بهاء علمهم أن يتجرأوا ويخترقوا. كان الإجلال الذي يلاقيه من آبائهم والمفارقة المضحكة في وجوده على قيد الحياة يثيران فضولاً عاتياً كي يستفزوه ليروا ما الذي جعله مقدساً وما الذي يشجعهم على ابتذاله. ثم كبر الأولاد. ولحق بهم من بعدهم دون أن يعبروا نهر الشيخ بهاء. كبروا دون أن يجتاحهم الموت الذي اجتاح سابقيهم. كأنهم ولدوا محصنين.

بعد الحرب، كانوا يجلسون على مكادس القمح، أو عند المزارات، أو على مصطبة المدرسة الابتدائية، يتحدثون عن البنات والشيخ عبد الهادي وحسن آغا وعبد الرحمن بيك. عن العدالة والحرية وتحقيق الذات. يغنون أغاني الريف ويهزجون بأهازيجه. لكن مجلسهم الأثير كان التلة الشرقية. هناك يتخذون من الأضرحة الحجرية مقاعد، ومن الغابة والنهر والجبال البعيدة مرمى لأبصارهم. ويعود الحديث عن الإقطاع والاستغلال والبؤس، فيمد خيالاتهم بأكثر مما يستطيعون مناجاته. لكن لحظة كان لا بد أن تجيء، كل ليل، يلتقون فيها عند نقطة واحدة: بديع خضير يسحب شبابته من داخل قميصه ويهتف: «يا الله يا عبسي!» وعبسي يهتف: «لعينيك.» وبعد هنيهات يتدفق في الليل صوت الشبابة وصوت عبسي، ويصفوان في الميجنا والعتابا والمواويل. ينشجان بأصوات الآخرين وهي تكرر اللازمة، في الليا والسكابا..

كان بديع يقول: ـ الغروب رائع، جميل بشكل يجل عن الوصف. ولكن ماذا يبقى من جماله إذا نحن لم نحس به؟ يمر المسخ أمام الغروب ألف مرة، فلا يفرق عنده عن قيظ الظهيرة. يمر الإنسان الشفاف المتفتح للجمال، فيقف أمامه كمن يقف للصلاة.

لذلك تجلاهم المشهد: وراء فسحة مربعة بين كتلتين من الجبال، تنزل الشمس وكأنها لا تنزل. تزداد حمرة في انحدارها الوئيد. تصل الى الخط الفاصل بين شفة البحر وشفة السماء، فتبدو في حجمها الأضخم المثير للروع.

كان بديع خضير فتى مشرقاً. لم يتميز بالجمال كأخته، بل بشفتين رقيقتين وأنف حاد وعينين كبيرتين. ومثل أقرانه، كان يتصف بنوع من عدم الرضى، خال من السخط، سريع الغضب. ظل في المدرسة الابتدائية ينجح من صف الى صف حتى جاءها معلم جديد فرض على كل تلميذ بيضة واحدة على الأقل صباح كل سبت. ويوم طرد المعلم مصطفى جمجوم من الصف، لأنه لم يستطع إحضار بيضة، قال بديع إن أمه لم تستطع تأمين بيضة.

وخرج. وجد مصطفى عند جدار المدرسة باكياً. أمسكه برفق وقال: «تعال. تعال نشوي بيضتي ونأكلها.» وقصدا إحدى الحواكير، فأضرما ناراً وأولما.

صباح السبت التالي كان عدد من لم تستطع أمهاتهم تدبير البيض أحد عشر تلميذاً. وخرجوا من المدرسة اثني عشرة. وفي السبت الثالث صاروا خمسة وعشرين. هذه المرة لم يكتف المعلم بطردهم. أمرهم فنزعوا أحذيتهم، وأخرج من درج الطاولة مسطرة طويلة بثخن الكف وانهال على أقدامهم.

يومها كره بديع المدرسة ولم يقنعه قول أبيه إن الأستاذ على حق فقد ترك أهله وبلده وجاء يعلم في بلد غريبة. ليل الجمعة نظم حملة من الفقراء الصغار المتأبين، وهجموا على أخمام حسن آغا والشيخ عبد الهادي. لم يبالوا ببارودة الوقاف، التي أطلقت النار ولم تصب أحداً. وعادوا بإحدى وستين بيضة. وفي الصباح، عندما لم يتخلف أحد عن إحضار البيض، فهم المعلم. استفردهم واحداً واحداً، وفي المساء أعطى أسماءهم للمختار.

في نهاية العام فشل في امتحان الشهادة الابتدائية، وأتقن ركوب الفرس المروضة.

بعد الشهادة، فشل سنة أخرى في اللاذقية. وبعد أن انتهت الحرب وترفع الى الصف الثامن، عاد ليمضي الصيف في قرية شعر أنه قد كبر عنها وابتعد. وقال الأب إن المدرسة قد أخذت من عمره ما يكفي، وأن مرجعه الأخير هو الحقل. أخوه الأكبر فتح دكاناً في اللاذقية وترك الأرض. لمن يتركان الأرض؟ وعرض أن يزوجه.

عقدت الدهشة لسان بديع. أنصت إلى أبيه كمن يسمع نكتة ولا يجرؤ على الضحك. وسأل:

ـ ماذا أعمل في قرية يملك أربعة أنفس تسعين بالمئة منها؟

قال الأب: ـ نحن أحسن حالاً. هناك قرى بأكملها ملك لرجل واحد. حتى نساؤها ملك له. أشكر ربك. نحن أحسن حالاً. والمرابع معزز مكرم. أنت أقوى من أيوب الخياط وبدر جندار.

ـ أنا أشتغل مرابعاً عند هؤلاء الكلاب؟

ـ زوج أختك ليس كلباً. ستشتغل عنده مثل بدر جندار، وأعز.

ـ لماذا فتح أخي دكاناً في اللاذقية، إذا لم يكن حسن كلباً.

كان السؤال أقسى من أن يتحمله أبو شحادة. هم بالمسير، ولكنه لم يعرف الى أين، فتوقف واضطرب في مكانه:

ـ وحدي اذن أتحمل هذا الذل!

ـ أنت طمعت في ماله. زوجته مريم..

صرخ الأب وهوى بكل قوة يده على وجه ابنه. وتلقى الابن اللطمة بهدوء. تناول كتابه عن الأرض وخرج.

في ذلك الصيف تعلم ركوب الخيل. وأنصت الى الحاكي عند اسماعيل السنديان وأداره بنفسه. وراح يتبارى مع بدر على كسر الجوز بإصبعين، السبابة والوسطى. وجد نفسه يلتقي مع حشد من الفتيان كان يلاعبهم صغيراً، ورآهم مثله يريدون شيئاً آخر غير القرية ولا يعرفون كيف يصلون اليه.

معهم أخذت رابطة جديدة تقتحم حياة الشير. رابطة النشاط الذهني والبطالة الجسدية. وخلال عام رأوا أنفسهم بوضوح غرباء عن القرية أو موضوعين فيها بطريق الخطأ، فاقدين للاستقلال في بلد انتزع استقلاله مؤخراً. قال لهم بديع: «لماذا يذهب ديغول من سورية ويبقى عبد الرحمن بيك؟» وضجوا بالضحك. قال

عبسي: « ولماذا يبقى الشيخ عبد الجواد؟ » وقال ضرغام: « ولماذا يبقى أبو ضرغام؟ » وتتالت الأسئلة.

بعدها مضوا الى محمد علي. انتظروه على الطريق إلى أن أقبل يطج كرة القدم أمامه، ويبتسم. وتبادلوا الكرة بين أقدامهم حتى وصلوا الى ساحة القرية.

كانت مريم تكبره بسنوات تكفي لأن تجعل منها أماً ـ أماً بلا طقوس. كانا يتساران في كل شيء إلا حياتها الخاصة، ويتفقان في كل شيء الا في احتقاره المطلق لحسن الغفري. وذات مساء صامت من أوائل أيلول. سألته فجأة:

ـ بديع. أنت لا تقرف مني؟

ـ لو كنت أقرف منك لا أزورك كل يوم. أتضايق من الكلام عنك، وخاصة من نظرات المسوخ.

ـ رفاقك. ألا يقولون عني شيئاً؟ عبسي الخياط مثلاً.

ـ أبداً. نحن لا نتدخل في شؤون الناس الخاصة. وعبسي دائماً يذكرك باحترام. لأنك تتحدّين.

ـ وأنت؟

ـ أي شيء يهز الأموات في قبورهم، أحبه. لو كان حسن حراً، لما صرت أنت زانية.

ـ أنا زانية؟ يعني أنت تقرف مني.

ـ بلهاء. الزانية مقدسة. أنت تهدمين المزارات النتنة من عقولهم.

ـ هذا كلام كبير عليك يا بديع. تقرؤه في الكتب؟

ـ لا شيء كبير علي، وحولي هذه المسوخ.

ذلك المساء قررت مريم أن تتكفل بنفقات تعليمه في اللاذقية. قال لها إن أباه يريد إجباره على أن يعمل مرابعاً، وأخاه تنكر لكل روابط الأخوة ورفض حتى أن يعتبر مصروفه ديناً. وعندها غلغلت أصابعها في شعره وأسندت رأسه على صدرها. « لا يهمك »، قالت له، « كل شيء علي ».

بعد الحرب دخل في حياة الشير أهم اثنتين من علامات المدنية، المدرسة والمخفر. كانت ثمة مدرسة ابتدائية من قبل، وكان مخفر: بناءان تقليديان خلفهما الجيش التركي وراءه عام ١٩١٦. وبقيا طيّ مكانيهما أيام الاحتلال الفرنسي. فجأة بُعثا حيّين. وصار التلاميذ اللاعبون الصاخبون في ساحة القرية ظاهرة. وصار الجندرمة ذوو الجزم العالية، المشرئبون على احصنتهم، ظاهرة. وسارع الفلاحون الى قبولها بلا تردّد. فالمدرسة علم، والعلم نور. والدرك اسم جديد لمؤسسة قديمة تمرسوا بإطاعتها. وكان عزاء أن الدرك في المناطق القصية ـ حلب وحماة بصورة خاصة ـ لا يرضون بمجرد الدجاج والبيض والزبدة، وإنما يضربون الفلاح بالكرباج ويهددونه في دوابه ونسائه إذا هو عصي أو حتى تلكأ. وكان عزاء أن البيك والآغا والشيخ مضوا إلى أبعد من القبول بالدرك. لقد اغتبطوا بهم. وأظهروا أنهم قادرون على مراضاتهم إذا ما غضبوا على الفلاحين.

تلك الغبطة كانت سبباً إضافياً للعداء الخائف الذي شعر به الشباب تجاه الجانبين. وذلك العداء كان سبباً إضافياً لعداء مقابل شعر به الجانبان تجاه المدرسة.

في الصيف التالي، عاد الشباب الى اجتماعاتهم، وعادت المعاني الجديدة للكلمات الى الظهور. وكان حديث واحد من عشرات قد أخذ يتكرر بينهم كل يوم: الدرك سلطة جديدة انضمت الى سلطات الإقطاع القديمة.

قال سرحان: « يدعون أنفسهم الى البيوت، فهمنا. العرب لا يطيقون الحياة من دون ضيوف..

قال ضرغام: ـ كأنهم، أولاد الحرام، يشمون رائحة البيضة المسلوقة من عند كحلة حتى مخفر عين الزرقا. وعندها يطلعون بمهمة رسمية على خيولهم.

قال يوسف: سمعتم ما حدث اليوم في البازار، ما سمعتم؟

قال عبسي بفضول: ـ ما سمعنا.

قال يوسف: ـ ضربوا قلفوط، مرابع الشيخ عبد الهادي، وضربوا خاله ميهوب لأنه حاول حمايته.

نزل بديع عن الضريح: ـ كيف صار الحادث؟

قال يوسف: ـ بعدما لفوا الرمان والعنب والبيض والزبدة والعسل، لطشوا منديل حرير من ريما وخمسة أذرع من قماشات تاجر من المدينة، وبعد أن شكلوا سروج خيولهم بالدجاج والحمام وعرانيس الذرة وجدائل الثوم، حتى شكت لهم الخيول بعبرة وتحمحم، بعدها سخط الله ووقع بصر أحدهم على ديك قلفوط. والحقيقة يا أخي ديك. أكثر من أربعة كيلوات. نزل الدركي عن فرسه ولولح بأصابعه: « هات هالديك ». وتوسل قلبوط: « ما عندي غيره يا أفندي، والله العظيم ما عندي غيره ». قال له: « أبوس ايدك يا أفندي، أحلف لك بالله، أول ديك يكبر في بيتي، لك ». وقال الأفندي: « خل ذاك الديك لك. » قلفوط تأبط ديكه، والدركيان الثانيان صارا فوق رأسه. بكى من قهره. وارتمى على الدركي صائحاً وراء ديكه، ضربه الدركي الثاني على ظهره بالكرباج. وتلقى الضربة الثانية خاله ميهوب. ميهوب كان جاء ليتوسل للدرك.

كان البازار النشاط التجاري الوحيد تقريباً الذي يتم معظم التعامل فيه بالمال. باستثناء دكاكين ريما ورجوب وأبي يوسف، ومقهى أبي ضرغام ومطعم مسعود ياسين.

قبيل الظهر، وصلت أم أحمد للمرة الثانية الى شاطىء البازار. دخلت في المتاهة الزاهية، دارت، أضاعت انتباهها مرتين ثلاثاً وهي تتأمل المعروضات التي لا تستطيع شراء أي منها، وأخيراً وصلت. كان شداد واقفاً حيث تركته بالضبط، وأصابعه اليسرى ما تزال قابضة على الرسن. « أين الحمار؟ » فأشار لها الى الحيوان المنبطح على الأرض، الماد رقبته على امتدادها، وقد ظهرت بقعتا القطران على بطنه المخرش.

ـ جاءك أحد؟

ـ نعم. جاء رجل وسألني كم ثمن الحمار..

ـ وماذا قلت له؟

ـ قلت له ثمانون ليرة، ولكن يمكن أن نبيعه بأربعين.

نظرت الأم الى ابنها غير مصدقة: ـ قلت له يمكن أن نبيعه بأربعين!

أحس شداد بخطأ فادح ما، ولم يستطع إدراكه: ـ ألم تقولي أنت هذا الكلام؟

ارتبكت. هزت رأسها: ـ نعم قلت. بس قلت لك أنت، لا لتقوله للرجل. الآن لن يشتريه أحد بعشرين.

وفي موجة الضيق اليائس التي أسكتتها، التفتت عاجزة، ولأجل مزيد من الدهشة شاهدت بديع خضير جالساً على حجرة وأمامه ثلاثة ديكة هائلة.

ـ أنت تبيع ديكة يا بديع؟

ـ نعم يا خالتي أم أحمد. أبو شحادة ما عاد يعطيني مصروفي.

ـ ومن أين لك الديكة؟ ما شاء الله ما أكبرها.

ـ من عند أختي مريم.

لم تقل شيئاً. عادت الى همها. عقدت ذراعيها على بطنها، وتخيلت الحمار مباعاً:

ـ إذا سألك أحد، قل له ثمانون. سمعت؟ ثمانون ولا تنقص. وإذا شفت أن وجهه وجه شراء تعال به الى البيت. سمعت؟ سمعت؟ ثمانون. قلها بهداوة.

وانصرفت. كان حشد البازار لاغباً، من الناس والأشياء والحركة. في سمائه انعقدت سحب الأصوات المتداخلة، من صياح محمود على اللحمة الطازجة، الى اليمينات المعظمة يطلقها باعة الأقمشة، الى صياح ديكة بديع الفاضح ونهيق حمار شداد.

أخيراً أقبلوا. ثلاثة راسخون على أحصنتهم وجباههم عالية. أقبلوا من طريق جب التسار. لمحهم أبو ضرغام فهرع الى كراسيه المثقبة يرتبها بصورة أفضل. ولمحهم مسعود فأسرع يخفي اللحم الطازج ويظهر اللحم المدهن. لمحهم كثيرون واستعاذوا بالله. ولمحهم شداد فدس سبابته وإبهامه في فمه، وأطلق صفيراً ثلاثياً. نظر بديع اليه وفهم. والتفت الى طريق الدورقية فشاهد عبسي وسرحان ويوسف وضرغام يخرجون من بين شجرات التين ويمشون على مهل.

لحسن الحظ، وربما لسوئه، تفرق الدرك الثلاثة في البازار، كل يسعى الى رزقه. وكان واضحاً أن العريف طهماز يفضل الدجاج على أي شيء آخر. ساق حصانه الى اليمين وشق طريقه الى سوق الطيور. قادته قوائم حصانه الى مجلس بديع. وهناك وقف. أثبت ذقنه على صدره ومسح بإصبعيه على شاربيه. كان شارباه سيفين بلا مقبضين، وصدره واسعاً ومليئاً.

ـ ثلاثة ديكة، كلها لك يا شاب؟

أجاب بديع بهدوء مترقب: ـ كلها.

ـ ما شاء الله! يعني واحد منها لي. هدية.

ـ هذه الديكة للبيع. ليست هدايا.

عجيباً كان تطور الحدث. سوى شداد، لم يستطع أحد أن يروي بالتسلسل كيف جرت الأمور. الذين وقفوا الى جوار العريف وبديع، انتبهوا الى صهيل الحصان ورأوا قائمتيه الأماميتين معقوفتين في الجو. ثم رأوا بديع منبطحاً فوق العريف. قال شداد إن العريف صرخ بوجه بديع: «ترد بوجهي، يا كلب!» وناوله كرباجاً لسع يده وخاصرته. ومن مكانه على الحجرة انطلق بديع بوثبة واحدة، فأطبق على العريف قبل أن يتهيأ للضربة الثانية، فأطاح به عن ظهر حصانه.

عندما تجمعوا حولهما كان بديع قد نهض وبيده الكرباج. وفيما بعد روت المتشفية ربما أن بديع: «حفظه رب العالمين، نزل على الدركي بالكرباج حتى نهنهه، سواه سيّا». ولم تنفع محاولات الدركيين الآخرين لإغاثته. انطلقا نحوه، ولكن بضعة أمتار فقط. لكزا الحصانين، لكن حشداً من الناس وقف أمامها كسد متحرك. وعندما قاربا الوصول أوقفها تماماً سد آخر من الشباب. هؤلاء لوحوا بأيديهم أمام الحصانين فأجفلوهما. وبديع ما زال «ينهنه» العريف طهماز

وصل حسن آغا لاهثاً. شق الصفوف ونفذ الى بديع، فأمسك بذراعه المرفوعة في الهواء.

شيء ما كان قد حدث، أثناء الصدام وبعده. أنصت الناس الى أصوات السوط وهي تنزل كالرعد في آذانهم. ورأوا العريف طهماز يتلوى ويتقلب بين يدي الفتى القائظتين، فخالوا أنفسهم عائشين في دهر من

العجب. كثير من الأحداث خرق سرمد حياتهم، منذ بدأت مريم قصصها حتى حاكي اسماعيل السنديان. لكن شيئاً مثل هذا لم يحدث قط، لا عياناً ولا في الذاكرة. ابن الحكومة، يضرب؟ وهزهم شعور تضارب فيه الخوف والنفور والحبور والتوقع. توجسوا خيفة، ليس من نتائج الحادث المباشرة، ولكن من توقع مضطرب لمستقبل لا يعرفون عنه شيئاً، مثير ومخيف، ومتجه أيما اتجاه سوى ما عرفته حياتهم من تسلسل ودوام.

وظهرت الهزة أوضح ما تكون عند ريما. هذه المرأة التي لم ينصفها أحد، مذ مات زوجها وقبل أن يموت، أتقنت رواية الحادثة بعد محاولتين فقط إتقاناً يندر عند الحكواتية. كانت مقدماتها مثيرة ومقنعة، وواعدة بنهاية تشفي الغليل. وكان لب الحدث، الذي لا ينقطع قط، مرشوشاً بتفاصيل حسية لا تغفل عن شيء، متسلسلاً مترابطاً، خلا تعليق صغير هنا وتوضيح أصغر هناك، مما لا يفسد الحبكة القوية المحكمة، على نحو ما نشاهد في روايات هذه الأيام. وقد انضافت جهودها الى جهود أخرى في الشير، وبعد أسابيع ظهرت رواية شبه موحدة لما صار إذ ذاك أسطورة صغيرة داخل عالم القرية الصغير.

استأنف البازار سيرته القديمة طيلة أربعة أسابيع تالية. حتى وطفا استطاعت أن تبيع بيض دجاجاتها الأربع دونما خوف ولا وجل. ونجا بديع خضير من انتقام الدرك بفضل حسن آغا، الذي أولم لهم بكبش مسمن.

ثم تفرق الشباب الى مدارسهم، واستأنف البازار سيرته الجديدة. ومضى الناس الى الفلاحة والبذار. وهطل المطر كعادته. وتشكل الزمهرير في أوائل كانون الثاني، وتدلى كأشعة القمر من الأغصان العارية. وانتهى سعد دبح كعادته، وبقية السعود.

لكن الشير لم تعد الشير. من جميع المشاعر التي ازدهرت عقب المنازلة بين بديع خضير والعريف طهماز، بقي في الناس شعور التشفي. وعند الشباب كان ثمة شعور أقوى لكنه زلق وضبابي.

في ذلك الصيف نال بديع الشهادة الإعدادية، وفشل فيها عبسي الخياط لاضطراره الى أن يعمل، ومحمد علي الريحان لاضطراره الى ألا يعمل. وكان الحادث أيضاً داوياً. عند المساء اجتمع نصف القرية في ساحتها، وتحلقوا حول السيارات ليسمعوا الأسماء من المذياع. محمد علي نجا من ذل الرسوب، فقد منعه أبوه من الاختلاط بالجمهور. وأصر عبسي على الحضور، ثم مشى كاسف البال مع بديع. لم تؤثر في بديع تهليلات الناس لنجاحه، واعتذر عن تناول فنجان الشاي من أبي ضرغام، الذي حقق يومها دخلاً خيالياً.

لم يطل ببديع الوقت، فأفضى لصديقه بهمومه: لقد رفض أبوه إرساله الى المدرسة حتى على حساب أخته. كان يائساً ومقهوراً. قال إن المسوخ سيضعون حداً لحياته، فكل شيء انهار وغار. وهذه القرية لن تنجب رجلاً يعرف معنى الحرية. لقد سوست العقول لكثرة استنقاعها في وخم التاريخ والعبودية.

بعد صمت طويل سأله: ـ ماذا ستفعل؟

وأجاب باقتضاب وعزم: ـ قدمت أوراقي للكلية الجوية. لكن إياك أن تخبر أحداً.

قال عبسي: ـ وأنا أيضاً سأقدم أوراقي السنة القادمة للكلية الجوية. لكن يقولون إنها خطرة.

كانا يقفان على أعلى نقطة من ظهر الشير.

قال بديع: ـ والبقاء هنا موت. لنمت بين طعن القنا وخفق البنود. إذا مت يا عبسي، ادفنوني هنا.

وأشار الى منحدر صغير يبدأ عند قدميه وينتهي عند أشجار التين.

وكان قد بقي له عمل استثنائي واحد لينجزه قبل أن تتحقق نبوءته.

بعد قرابة شهر وصلت للشير أنباء واضحة عن قتل وديعة بنت المرابع حامد برهوم. الروايات كلها أجمعت

على أن وديعة اغتنمت فرصة غياب الوقاف، وانسلت الى أرض لعبد الرحمن بيك مزروعة بحشيش الفصة. لم يخطر لها أن عبد الرحمن بيك نفسه سيطوف بتلك الأرض، مع شريكه في المعمل رفيق بيك. وفاجأها الرجلان ممتطيين حصانيها في نزعة عند الأصيل. كانت الصبية قد ملأت نصف كيسها حشيشاً عندما وصلا. التفتت مذعورة وهمت بالفرار. وأمرها عبد الرحمن بيك بهدوء أن تبقى. التفت الى صديقه:

ـ هل تصلح، يا ترى؟

وعاينها الآخر بدقة خاطفة، ثم رفع شفتيه المطبقتين وقلص خده الأيسر. عندها رفع عبد الرحمن بيك السوط على طول يده وهوى به عليها. لسوء حظها تفادت الضربة برشاقة مغيظة. وبلمح البصر حملت كيسها وعدت. لو أنها تلقت الضربة، ثم تكومت على الارض وهي تئن، لما اغتلى غضبه صعداً باتجاه رأسه، ولما انطلق حصانه وراءها فأدركها في منتصف الحقل ورفسها، ثم تمالك جسده وعاد اليها وهي تنهض فرفسها، وعدا ثلاث خطوات أو أربع والتفت بجموح متصاعد ورفسها، ثم رفسها. ثم رفسها. باختصار، لو نالها السوط لما نالها الحصان، ولما ماتت.

هذا الجيل الجديد! لولا أنه يتكلم في السياسة والاشتراكية لما اضطربت الشير هذا الاضطراب. وإلا كيف سولت لبديعة نفسها أن تسرق؟

في الصباح الثالث بعد دفنها، ذهب بديع الى اسماعيل السنديان، وطلب أن يستعير فرسه. دهش اسماعيل وسأل لماذا. وأنصت الى شرح بديع، وهو تارة يراه وأخرى يرى أخته. في النهاية وافق. وأضاف:

ـ لكن بشرط. لا تقل لأحد إنك حكيت لي عن السبب.

امتطى بديع الفرس. وانطلق بها الى منزل عبد الرحمن بيك في عين الزرقاء. لم يجده هناك فتحول الى الحقول. كان استفساره المقتضب عن البيك كافياً لأن يحس الفلاحون بالفضول. ولأنهم كانوا منتشرين، لم تغب فرسه عن بعضهم إلا لتظهر للبعض الآخر. لذلك تناقلوا العلامات كما لو أن بينهم أجهزة لاسلكي.

قال الذين شاهدوا المعركة في بدايتها إن فرس بديع اقتحمت مسار حصان البيك في نقطة كادت تصير اصطداماً، لولا أن الحصان شب على قائمتيه الخلفيتين وصهل صهيلاً مروعاً وهو يكف عن الحركة. وإذ أنزل أماميتيه، والبيك مذهول مما يجري، كانت الفرس قد عادت من عشرين متراً قطعتها في حميا اندفاعها، واتجهت نحو الحصان. عاينها البيك تختلط الذهول بالغضب. وفي اللحظة المناسبة لكز الحصان بمهازيه ومرق من طريقها. وكان واضحاً الذعر الذي أصابه. جمح وانطلق. وتبعته الفرس. وشد البيك لجامه. صهل وشب. استدار. استدارت وراءه. بلغ الاثنان غمراً صغيراً من القمح، وصارا يركضان حوله، فيما الفرس تقترب من الحصان. التفت البيك. امتشق سوطه وضرب. في اللحظة المناسبة أيضاً انبطح بديع على عنق الفرس. وفي اللحظة التالية نهض فتفادى ضربة أخرى. سقطت الضربة على جيد الفرس.

قال الذين شاهدوا الحادث إنهم لم يروا حيواناً استشرس على هذا النحو. هذه المرة دخلت الفرس المعركة فعلاً. كأنها هي التي تعارك وليس فارسها: فرس اسماعيل السنديان، لا غيره. اختزلت عدوها على محيط الدائرة وشقت وتراً الى نقطة حسبت أن الحصان سيكون عندها. وأدركته. صهلت صهيلاً راعداً، وشبت بأماميتيها، ثم هبطت على البيك. لكن البيك لم يقع. وبعد أن ضربها بالسوط ثانية، أحس بشيء في فخذه. كانت قد نفرت بهياج مريد. والتفت الى فخذه ليجد بنطال الصيد ممزوقاً ومخضباً بالدم. وأدرك أن حافرها قد نال منه.

انطلق نحوها، وهو يلكز حصانه بسعار شيطاني. وكان بديع يحاول السيطرة عليها، وإرجاعها. أدركه البيك

وضربه بالسوط ضربة نزلت على ظهره كسيخ محمى. وعندها كبح جماح الفرس وتواجه الإنسانان والحيوانان. كان ثمة صهيل غطى الجنبات، واشرئباب يكاد يطيح بالراكبين، ودوران حول نقطة واحدة. وكان تبادل الضرب، البيك بسوطه وبديع بلجام فرسه. ثم ابتعاد، ثم التحام وضرب. فابتعاد. فالتحام وضرب. وفجأة أمسك بديع بطرف السوط. نتره، فاهتز البيك وترنح. وهوى بديع على غريمه بضرب أعمى متلاحق كالمطر. اعترض طريقه ومنعه من الهرب. شج وجهه.

غير أن البيك أفلت. لم يعرف الفلاحون كيف. شاهدوه يلوي عنان حصانه وينطلق في السهل ثم يتجه الى عين الزرقاء. وشاهدوا فرس بديع تجمح به في الاتجاه المعاكس. وانهالت الحجارة على الحصان المبتعد، وسقطت على الأرض.

انقشع الفارسان فجأة عن الأرض. وتلفت الفلاحون فلم يروا سوى غمر القمح الذي تناثرت أطرافه هنا وهناك بفعل المعركة. التفتوا حولهم والى بعضهم بعضاً. ومثل لصوص جائعين ركضوا عبر السهل. في ثوان انقضوا على الغمر، وفي ثوان ذاب. كل منهم انتشل حملة، أركزها على كتفيه، ومشى. لم يركضوا، ولم يكن أحد خائفاً. مشوا عبر السهل، كل متجه الى بيسته. وعاد الى المكان السكون.

بعد ساعات قليلة، لم يبق منزل في الشير هادئاً. جاء الدرك بقيادة رئيس المخفر وطوقوا منزل درويش خضير. وهرعت كحلة ووطفا ومزنة وعنيترة.. فجلسن على عتبات بيت خضير وفي بستانه الصغير. ثم جاء الفلاحون تسللاً. وتجرأ بعضهم فجلس في مقهى أبي ضرغام، وراقب. ثم أقبل الشيخ بهاء، فرضاً المجنونة، وأخيراً المختار.

تقدم المختار برفقة رئيس المخفر وبسمل وصاح عند العتبة. وفي تلك اللحظة كان المقهى قد خلا من رواده. هؤلاء هرعوا الى المشهد ليلتقطوا كل ما يحدث. وكان درويش يقول:

ـ فتشوا البيت وقعدوا حواليه. ادخلوه فتشوه، ادخلوا.

وقال المختار: ـ يا أبو شحادة نحن لا نريدك أنت. نريد ابنك بديع.

ـ بديع ليس ابني، ولا أنا أبوه. أنا بريء منه الى يوم..

ـ قل لنا أين هو، وذمتك بريئة.

ـ لو كنت أعرف لمشيت قدامكم ودللتكم عليه.

ولم يكونوا بحاجة الى مزيد من المجادلة. التفتوا جميعاً الى جهة تقدم منها بديع وسط حشد من الشباب حاطوا به من جهات ثلاث، وبيد كل منهم عصا أو قضيب رمان. بصورة عفوية انشقّ جمع الفلاحين ليفسح مكاناً للقادمين الجدد. ومشى هؤلاء بهدوء في قلب صمت مطبق. وتوقفوا على مسافة متر من المختار والدرك.

قال بديع بوقار: ـ ماذا تريد يا حضرة رئيس المخفر؟

قال رئيس المخفر: ـ تفضل معنا الى النظارة، يا ابني. أنت اعتديت على عبد الرحمن بك.

ـ هو الذي اعتدى علي. اعترض طريقي، وكان سيوقعني عن الفرس.

ـ كيف؟ هو قال إنك أنت اعتديت عليه!

ـ وأنا أقول إنه هو الذي اعتدى علي.

ـ تعال معي الى النظارة لنتفاهم.

ـ خلنا نتفاهم أولاً على الموضوع الأهم. لماذا لم تعتقلوا عبد الرحمن بيك، وهو الذي قتل وديعة بنت حامد برهوم؟ أما سمعتم بالخبر؟

انصفق باب البيت وغاب درويش خضير وراءه. سقطت المسبحة من يد المختار. نظر الناس بعضهم الى بعض.

ـ سمعنا بالخبر. عبد الرحمن بك بريء. لا يوجد شهود عليه.

ـ عندك شهود علي أنا؟

ـ كيف! الفلاحون شهود.

ـ اسألهم.

وأشار بيده الى الحشد الصامت. التفت ورئيس المخفر اليهم، وصمتا منتظرين.

رعد صوت رئيس المخفر فجأة: ـ من المعتدي؟ قولوا.

لم يتكلم أحد. ورعد الصوت ثانية: ـ من المعتدي؟ خرستم؟ احكوا.

وصاح أبو ضرغام: ـ أنتم لا شغل لكم إلا أكل دجاجنا وتوقيف شبابنا؟ عبد الرحمن بيك اعتدى.

ـ أنت كنت حاضرا يا أبو ضرغام؟

ـ نعم كنت. احكوا يا عالم! عبد الرحمن بيك ضرب بديع بالكرباج وإلا لأ؟

سرت همهمة، وتصاعدت فصارت أصواتاً: «عبد الرحمن بيك ضرب،» «عبدالرحمن بيك المعتدي،» «أبو ضرغام كان هناك يفتش عن عنزته،» «لولا لطف الله لمات بديع»..

قال بديع: ـ لأي شيء لم تعتقلوا البيك وهو قتل وديعة؟ ولم تعتقلوا رجب العز، قتل بسيارته طفلاً؟

قال رئيس المخفر: ـ رجب العز شغلة الشرطة، ما شغلة الدرك.

وقال بديع: ـ وعبد الرحمن بيك؟

قال رئيس المخفر بإصرار: ـ لم يشتك أحد عليه.

ـ أنا أشتكي عليه.

ـ ومن أنت حتى تشتكي عليه؟ هذا يقدر أن يرميك في السجن ويسرحني.

حمحم المختار، وقد التقط مسبحته. مد يده الى ذراع رئيس المخفر وقال:

ـ يا أبو فواز، كرمى له. هه، وهذه بوسة من هالشوارب. اخز الشيطان، هذا ولد لا ينظر بعقله. قل لعبد الرحمن بيك إنك أطعمته فلقة على التسع والتسعين، وانتهى المشكل.

بعد عشرة أيام التحق بديع بالكلية الجوية. وخلال تسعة عشر شهراً زار الشير مرتين، ونام عند أصدقائه، إذ رفض أبو شحادة استقباله. وبعد ثلاثة أشهر أخرى زارها للمرة الثالثة، مسجى داخل تابوت من خشب الصندل، ملفوفاً بالعلم السوري. وعندها نهضت الشير كلها لاستقباله والاحتفاء به.

وصلت السيارة الى ساحة القرية. ودل رئيس المخفر سائقها على بيت درويش خضير. كان الصغار يتابعون المشهد بوجوم، وقد حدسوا أن أمراً فظيعاً حدث. ثم فهم الجميع: طائرة بديع سقطت به من الجو، والشيء الذي داخل التابوب فحم أسود طري، لا علاقة له بالفتوة التي كانت.

عندما ظهر التابوت من السيارة كانت زاويته الخلفية تقطر نزيزاً قطرانياً. وشهق أبو شحادة كأن رئته وضعت تحت مكبس الزيتون. سقط على الأرض فشجت صدغه حجرة نخرة، ثم انقلب على ظهره فاقداً الوعي. وللتو شاهد الناس أم شحادة تمزق ثوبها وتنطلق من الباب حاسرة الصدر، ثم تركض في ساحة القرية كرضا المجنونة، وهي تجعر وتعوي عواء الضباع.

كان مأتماً منقطع النظير. من خمس قرى ـ كلهم حضر. غطت الجماهير سطح الظهر وسفوحه. كان في نفوسهم شعور ممرور بأنهم يدفنون أملاً عزيزاً، دربا الى المستقبل لم يعرفوا مثله من قبل، انسد قبل أوانه وتركهم حيارى محبطين. مثل هذه الفتوة والبسالة، المروءة وشفافية النفس، لم يظهر في حياتهم من قبل. وألقى اسماعيل كلمة تأبين أبكت وأوجعت. قال إن بديع خضير كان مخلوقاً للأشياء العظيمة، إن البطولة تجسدت فيه، إن القرية التي لم تعرف كيف تحافظ على روحه الوضاءة ستغرق في الظلام، وأن الجوع الى البطولة سيجعلها تأكل أولادها كذئبة هرمة.

اثنان فقط غابا عن المأتم: مريم خضير، وكانت في السجن، وحسن الغفري، وكان حول السجن. وهكذا غاب فرسان الحياة الحلوة والشقية: مريم وبديع وبدر وأيوب وابراهيم السنديان. اعتكف عبد الجواد واسماعيل. وهاجر حسن. ومر ذلك الشتاء بطيئاً ثقيل الوطأة. كان شيء ما ينسل كل يوم من ديمة المجد التي أمطرها في سماء الشير شباب عرفوا رحم الأرض، وأسرار الفصول، وشفافية العلو، ودسامة الثمالة، وكبرياء الفروسية، وخصب القلق، ولذة الاختراق.

ولكن ظاهرة معاكسة الى حد غريب كانت تتكون خفية، وتنمو في منأى عن الانتباه كما تنمو ديدان الربيع. عندما أطل الصيف التالي وجدت الشير نفسها أمام حالة انفردت بشقاء أسود وفاقت غيرها بالغرابة. كان حسن آغا قد صار متسولاً. لم يكن يصلح لأي عمل. ووجد، هو الذي تمرس بابتكار صيغ نبيلة لذله الشخصي، أن ذل النفس أروح من تعب الجسد. وقد استطاع تدبير وجبة أو وجبة ونصف له ولزوجته. وسرق ابريقاً معدنياً من حارة القلعة، صار يملؤه ماء من حنفية السوق، فيسقي مريم ويغسل لها أوساخها. لكن عقله كان مشغولاً بأمر آخر. وذات يوم ذهب الى محاميه وقال له:

ـ اسمع يا أستاذ. أنا ما تعودت على حياة الشقاء هذه. وما عاد معي مال لأعطيك.

قال المحامي منكمشاً: ـ ماذا بودك؟

ـ بودي أن ترفع لي دعوى على شحادة خضير. أخي زوجتي.

ـ دعوى على شحادة خضير! بأي تهمة؟

ـ لا تهمة ولا من يتهمون أنا ما معي مال. ومريم تموت بالسل. أخوها مجبور أن يطعمها ويداويها. يضعها في مستشفى. يجلب لها دكتور. مريم تموت. وأخوها تاجر أقمشة..

ـ وإذا لم أرفع الدعوى؟

ـ لا، سترفع الدعوى. أنا أعطيتك مالاً يكفي لخمس دعاوى. كن كريماً معي، ولا تجبرني على الجريمة.

ـ أي جريمة؟!

ـ إذا ماتت مريم ولم يعالجها دكتور لن يهمني أن أقضي حياتي في السجن، ولا أن أموت. سأقتل قتيلاً.

رفعت الدعوى. وطارت تفاصيل المحاكمات الى الشير. ويوم قرر القاضي إلزام شحادة خضير بما طلبه المحامي، ماتت مريم. ولم يكن حسن الغفري يعلم أن موتها سيكون بعثاً له.

في الشير، كان القسم الأخير من قصتيها ثلاثة أبناء وبنتاً ـ ليس في أي مكان منها، وإنما فيها كلها. لم يكن عددهم كبيراً مثل دود الربيع. صحيح أنهم باضوا وفقّسوا، لا أحد يعرف كيف، لكنهم كانوا أربعة فقط. ولحسن الحظ مات رابعهم، أو فقد: رضيع حملته يمامة ليلاً ووضعته أمام بيت أحمد الغفري، الذي أفاق لصلاة الصبح ووجد اللفافة فعرف. وحمل الرضيع حتى وادي الرميم فسجاه عند إحدى خيام الغجر الموسميين وعاد بخفة النمس. عند العصر رجع الى الخيمة وسأل. وقالوا له إنهم لم يشاهدوا رضيعاً ولا جرة ذهب. ضرب يداً بيد وهتف: «لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم».

الثلاثة الآخرون بقوا. طفلة ولدت يوم جلا الفرنسيون عن سورية عام ١٩٤٦، وطفل يكبرها بأربعة أعوام، وآخر يصغره بعامين. هؤلاء أولاد مريم الأحياء. وكان بوسع الأهلين أن يهمس بعضهم لبعض بأسماء آبائهم. فالرضيع ابن بدر جندار حتماً. وزهرة بنت اسماعيل السنديان حتماً. وبديع ابن أحد ثلاثة. ورمضان، الذي ولد في الشهر المبارك، أقرب الى الغموض.

لحسن الحظ أيضاً، كان تشرد أولاد مريم في بداية الصيف. أثمار البساتين وفيرة، والفلاحون متساهلون. والنساء يحملن الى التنور مآزر عجين واسعة.

ظل تشردهم معقولاً، بل ومريحاً، طيلة شهور. بل إن بعض الأطفال حسدهم على حرية استمتعوا بها بغير زجر الآباء وتقييدهم. وحتى ريما كانت تجد في دكانها ما تجود به عليهم. والذين لم يستطيعوا إعطاء الأشياء، أعطوا عطفاً وكلمات رقيقة. لكن هذا كله تلاشى. كان لدى كل من الطرفين شعور غريب، مقلق لحياة الشير الباطنية. فالأولاد الذين لم ترفض لهم حاجة من قبل، الذين نظروا الى أطفال القرية كغرباء وسخين، تقبلوا بسهولة عجيبة إذلال حاجاتهم. كانوا يطلبون ويلحفون في الطلب. يتعلقون بالثياب كالعلق، وتنهمر كلماتهم المستعطية كمتسولين فطريين. همهم الوحيد أن تلبى طلباتهم، سواء بالرضى أم للتخلص المشمئز من الإلحاح.

الذي حدث ليس فقط أن عطف الأهلين استنزف، وأنهم باتوا يخشون استمرار أولاد مريم على هذا النمط من الحياة. كانوا أصلاً مشمئزين من أن هؤلاء أولاد حرام. والتقى النفور والاشمئزاز عند منعرج تديني عميق صيرهما سداً عاطفياً محكماً: أولاد حرام ومتسولون ملحفون. وبالتدريج تحول الامتناع عن مد يد العون الى اقتناع راسخ بأن مصائر الأشقياء الثلاثة عقوبة مستحقة. رأوا أن الله عاقب حسن، ثم مريم، وها هو الآن يعاقب نسلها.

وهكذا تشرد الأولاد تماماً. قوطعوا وحوصروا. منعوا حتى من التفيؤ في ظلال الاشجار، التي باتت ملكاً لعبد الرحمن بيك والشيخ عبد الهادي. آل الغفري رفضوا قطعاً إيواء أولاد ليسوا من صلبهم. ودربويش خضير رأى في قبولهم اعترافاً مستحيلاً بأنهم أولاد حرام. بعض الأهلين خشي أن ينجم عن الإحسان تشجيع لغير مريم من النساء أن يسلكن طريقها. وبعضهم كان متأكداً أن مثل هذا الإحسان سيدير أعين القرية نحوه في يقين أنه الأب الحقيقي لأحد الصبيين الأكبرين.

كانت نهارات الصيف مقبولة حتى الظهر. وبعده يشتد القيظ، تشتد الرطوبة البحرية، وخماد الهواء. ومثل حيوانات تنشد مأوى على صدر البوادي، كان أولاد مريم يتجولون على دروب القرية وزواريبها. الخوف يغلق الأبواب في وجوههم. الخوف من عار محتمل أو دنس فظيع. الخوف من أن ترى الأعين أحداً يراهم. الخوف من وعي نبذته الإرادة بعيداً، بأن أولاد مريم عبء على الضمير، تهمة متجولة. ولأن العداء لهم انتقل من الخفاء الى العلن، راح الصغار من أعمارهم يطاردونهم أنى ثقفوهم.

ثم تأتي ساعات بعد الظهر لتدفعهم الى تيه مضن في أعماق القرية الصغيرة. وآنئذ يضطرون الى الفراق. كان بوسع رمضان وبديع أن يختفيا أحياناً، كل في مكان. وتبقى زهرة: اسماً بلا مسمى تقريباً، إلا ذلك التوهج

القاني في خديها الذي تركته سياط الشمس الكاوية. كانت تجر قوامها الصغير على غير هدى. تمشي كأنها كبرت سنوات في شهر واحد، بوجهها الأقشر المحروق، وشفتيها المفتوحتين، وبصرها الزائغ، وفستانها الفضفاض المقرطم، وقدميها المتشققتين الورمتين. حتى إذا تعبت، جلست على مصطبة بيت اختفى ساكنوه. نظرت حولها، إلى الأبواب الموصدة، والى الأبواب المفتوحة يخرج منها إنسان ثم يعود. وفجأة تبدأ جعيرها. جعير لا نغمة له. لا علو ولا هبوط يتناوبانه. بلا دموع. صرخة ممطوطة أشبه بعواء رتيب. تتالى دقائق. وربما ساعة. وتكون الصوت الوحيد الصارخ، وحتى المسموع، في برية حارة أقفرت وخوت. وفجأة تهدأ. تصمت. تتبدد نظرتها أمامها. تصفن. ربما نهضت وتابعت مسيرها، وربما سكنت. ربما عاودت صراخها. ربما أي شيء.

لم يكن لهم مكان ثابت للنوم. غالباً في المزارات. إذا لم يطردهم منها زوارها. أو تحت الجوزة الكبيرة، إذا لم يطردهم أصحابها. كان الدرك يروعونهم. والوقاف والليل. لذلك ناموا معاً ما استطاعوا. ولم يعرفوا أن مصيرهم أضاف وهجاً جديداً وحماساً مصراً لأحاديث الشباب، الذين كانوا يجتمعون في الغابة كل يوم ويبتدرون نقاشاً وتحليلات: لمأساة ضياع ثمانية أعشار فلسطين وتشريد شعبها؛ لقيام دولة أجنبية في قلب الوطن العربي؛ للحكم العسكري في سورية.. وقد وقفوا أحياناً قرب الشباب وأصغوا الى ابتداراتهم. مع أنهم لم يشاهدوا أحداً منهم يأكل شيئاً، أو يحمل شيئاً يؤكل. وقد عرفوا أن هؤلاء لا يملكون حقلاً ولا بيدراً. وكانت ثيابهم قد اهترأت بفعل الزمن والوسخ. والخيمة التي أقاموها من العيدان والأغصان تهدمت نهائياً، إما بمجيء الريح، أو بمجيء أطفال يحملون مشاعر آبائهم ويترجمونها الى وقائع.

ثم جاء الشتاء. ولم يعد نومهم في الليل الريفي صحياً ولا شاعريا. تركوا أكواخهم وحلوا في المزارات. بإذعان تام استقبلوا صرخات الزوار أن اخرجوا من هذا المكان المقدس ولا تنجسوه. واختفوا وراء الأسيجة المجاورة. حتى إذا فرغ المكان من الناس عادوا. أغلقوا الباب غير خائفين من أن يرتجه أحد عليهم. حتى إذا تغلب النعاس على الجوع، افترشوا حصيراً والتحفوا حصيراً وناموا.

تعيّشوا على الصدقات السرية يعطيها لهم خلسة أناس أبرياء من وخم مريم وخائفون على شرفهم من التقولات. وعندما انضم الشيخ عبد الجواد الى هؤلاء، تجرأ آخرون وقدموا لهم طعاماً. وقد دأب الشيخ على تكرار القول الكريم: «ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً. إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا.» الشباب أيضاً قدموا لهم ما استطاعوا، كرمى لخالهم الراحل، وتحدياً للمجتمع الإقطاعي، ورفضاً للبؤس الإنساني. لكن المحسن الأكبر كان رضا المجنونة. فمذ برم عقلها باتجاههم، راحت تعاملهم كأم تعشق أولادها. كانت تتسول لهم الطعام والملابس، وتأخذهم الى عين الغسيل فتحممهم بالصابون والماء البارد. وإذ تتذكر، تأخذهم إلى بيت الشيخ بهاء ليناموا. وبعدها تصدق عليهم المحسنون بالأحذية النافقة والثياب المهترئة. وقد قبلو أي شيء.

رغم شقائهم، كان في منظرهم شيء من الدعابة: أقدامهم تخوض في أحذيتهم وأحذيتهم تخوض في الوحل؛ سترة أبي ضرغام تتأرجح كالبرذعة على كتفي رمضان؛ شروال سويلم القزم يرتفع حتى ترقوة بديع. أما زهرة فظلت شبه عارية، لأن أحداً في مثل سنها لم تكن تصنع له الثياب فتلبس وتهترىء ثم تعطى لها. وذات يوم التقتها رضا المجنونة فساقتها بيدها الى بستان الشيخ بهاء، وحفرت بأظافرها تراباً عند البئر، ثم استلت كنزة لم تعرف الشبر أقدم منها. كانت موصولة الأطراف والنسيج بخيوط ومزق فاقت عدد خيوط الصوف الأصلية. وفيما وقفت زهرة بلا حراك، ألبستها رضا الكنزة ونفضت غبارها ثم قالت: «يا الله. هيفرحون بك.»

تلك الكنزة سببت نكسة في عطف الأهلين على زهرة. من يضمن أن لا تكون رضا المجنونة قد أسكنت فيها ملكاً؟ وتعزز خوفهم إذ انتبهوا فجأة إلى عيني الطفلة الكبيرتين النفاذتين، وأيقنوا أن رضا قد فعلت بها شيئاً.

ثم نسي الناس حديث الكنزة. وواجه أولاد مريم مشكلة جديدة: أين ينامون؟ لقد اشتد البرد حتى أعدم الدفء في حصير المزار. تحملوا البرد أسبوعاً وأسبوعين. وذات ليل نفخت فيه ريح الشمال، خرجوا وأسنانهم تصطك برداً، وزهرة تبكي. وصلوا الى القرية، وعندها بدأت زهرة تجعر. عبثاً حاول أخواها إسكاتها. التفتا حولها وراحا يبكيان أيضاً. كانت القرية هاجعة، ظلماء. ساحتها الرئيسية وطرقاتها مقفرة تماماً. حتى الكلاب صمتت، وقد أحست أنها لا قبل لها بريح الشمال.

لاحت من رمضان التفاتة فرأى التنور. جرها الى خيمته اتقاء للريح. ووقفوا يفركون أيديهم طلباً للدفء. مد بديع راحتيه داخل فوهة التنور، وصاح فرحاً: «مدوا، مدوا أيديكم. التنور دافىء.» وفعلوا. ثم مد الأخوان جذعيهما، وصاحا بحبور حقيقي. ثم رفعا زهرة الى الفوهة وأدفآها. وهتف رمضان: «مدي رجليك لأشوف». فمدت. «ضعيها على الرماد.» فوضعت. وأنزلاها. «ابقي هنا للصبح. أنا وبديع نجيء اليك. يا الله يا بديع. كل واحد الى تنور. تريدين شيئاً؟» ولبثت هي صامتة تنعم بالدفء بلا حراك. وانطلق الاخوان.

وهكذا آوتهم التنانير. ناموا على دفء قد يستمر أحياناً حتى الفجر، وبعدها يهجم البرد ثانية ويستوطنهم. ثم اعتادوا على تحمل البرد المتأخر، لأن مأوى آخر لم يكن ينتظرهم في أي مكان حتى عام ١٩٥٢، عندما اختفوا فجأة من القرية ورحل كابوسهم عنها.

وحتى ذلك الحين لم يعترف بهم أحد.

* * *

القسم الثاني

الخبز والحرية

(١)

عند استواء الأرض على قمة الجبل، وقفت خولة، وأصابع قدميها تلامس الحافة الهاوية. فكرت أنه لو اتسعت تلك الفسحة وتراجعت الجبال الى الطرفين لأمكنت رؤية البحر كله، من أوله الى آخره، وكيف يدور حول القرى البعيدة والغابات التي على رؤوس الجبال.

تذكرت أحمد سليم فانطلقت تعدو اليه. وتذكرت أبا أحمد، فالتفتت في عدوها نحو الشمس، واطمأنت الى أنها لم تغب بعد، وأباها لن يغضب إذا هي عادت في بقية من الضوء. ووقفت إذ أوشكت أن تدوس على نبتة صغيرة، لمعت في رؤوس غصيناتها أزهار برتقالية. طأطأت، وقطفت الازهار وعدت. ثم توقفت أمام نبتة أخرى، وثالثة، حتى وصلت الى القبر وبيدها باقة ضخمة من بخور مريم ضمتها الى صدرها.

فرشت باقة الازهار عند رأس القبر، وصنعت منها اكليلاً. ثم وقفت مطرقة متباعدة القدمين. مررت نظرتها على الأزهار وأغصان الريحان. وأحست برغبة في البكاء فبكت.

كانت تضحك ملء رئتيها عندما أدركها أحمد سليم وراء النخلة واختطفها عن الأرض. طوقت عنقه بذراعيها الصغيرتين، وتحول صوت الضحك في فمها الى صوت بكاء . أنزلها قليلاً إلى صدره.

ـ لماذا البكي؟ خائفة؟

ـ اي.

ـ تخافين من سليم؟

ـ لأ.

ـ لأي شيء خائفة اذن؟

ابتسمت. مدت أصابعها الى فمه وذقنه كأنها تستطلع نواياه:

ـ أنا ما كسرت الابريق. هو انكسر.

ـ طبعاً هو انكسر. بس مرة ثانية، لا تخليه ينكسر.

ـ أريد فستاناً كبيراً مثل الذي لماما وكندرة كبيرة وأنزل الى الدكان.

ـ الفستان والكندرة بعد أن تأخذي السرتفيكا. الاثنين تدخلين مدرسة الكرمليت. تتعلمين العربية والفرنسية والحساب والجغرافيا. وتكونين أول بنت في الشير معها سرتفيكا. وهناك، لا تكسري الأباريق!

قال أحمد سليم: «خولة ستكون شعلة كبيرة. انظري اليها، كيف تفرش كتبها ودفاترها على الحصير، وتنسى حالها. مثلما أفرش أنا أثواب القماش على الطاولة وأقصها. سأشتري لها طاولة صغيرة». وقال أبو أحمد:

«أنت تدللها كثيراً يا ابني. هذه بنت.» وقال سليم: «البنت مثل الصبي، ويمكن أحسن.» وقالت أم أحمد: «صبي ولا مئة بنت. الله يقطع البنات.»

شفتاه تنفتحان. نحن راجعون الى الضيعة. وأنت يا أيوب أقفل الدكان جيداً. وكان يقول ما لم يقل. وجهه متجهم وحاجباه مقفلان وعيناه رطبتان. انقفل البيت أيضاً. الشوارع لا أعرف كيف ولا مجال للعب فيها ولا مدرسة هذا العام سيارة أبو هاشم مدوه على السرير الخشبي بلا فراش ونشروا فوقه ملحفة بيضاء غطت رأسه وقدميه. كان بلا ثياب والرجال حوله والماء الساخن ارتعشت لحيته البيضاء غضباً. ينظر إليّ كأني دخلت مكاناً محرماً أقرب باب وركضت هاربة. نساء كثيرات يبكين بلا حركة بقليل من الحركة موكوءة الرأس والكتف الى الحائط عند الاثفية والبكاء خثرها كاللبن مسحت على رأسي وقالت لا تبكي وبكت وبكيت وقالت لا تبكي وبكت ثم تركت رأسي وألصقت يديها بوجهها وخرج الأنين من بين أصابعها وبكيت وأنزلوه عن النعش ودلّوه في القبر أنزلوه عن النعش ودلّوه في القبر أنزلوه أبعدونا نحن الثلاثة وساقونا نحو البيت أنزلوه عن النعش ودلّوه في القبر ولن يبرد في التراب لأنه مات ساقونا الى البيت وكانت تبكي يبكين حولها ويعتني بعضهن بأمور البيت دلوه في القبر بكيت جلست وبكيت وهو لن يعود أبداً الشوارع والبحر والمدرسة جلست وبكيت وانحفرت أرض البيت أمسكت بي وانقلبت على الأرض وامتلأت أذناي بالدوي.

جاء الاثنان من وراء الهبطة ووقف كل منهما الى جانب ولم يبق إلا الحائط ألست أنا التي أحملك يا شداد ظلت عيناه جامدتين وعرفت أن عبسي لعب بعقله لازم أن تعرفي حدودك أنت بنت قال ثم تخلخل الاثنان في عيني عندما هز عبسي قضيب الرمان وابيضّ كل ما حوله في عيني وكأنما أغمي على عقلي وهجمت في البياض ولم أعرف كيف حتى سحبتني يد من ياقة ثوبي وسمعت عبسي يجعر تحتي وأحسست كوعه يئز فيه وجع حارق وعرفت أنه قضيب الرمان وصرخ أبي فوق رأسي.

قالت كحلة: «بالك يا أم أحمد. بالك من خولة هه! الحساد كثار، وأنا خائفة أن ابن حرام يصيبها بالعين. ما شاء الله، البارحة وجه الصبح، شفتها على كتفها حملة حطب، والله أيوب، الله يخليه، لا يشيلها.» وقالت أم أحمد: «ماذا أعمل لها يا أم خليل؟ الله خلقها مجنونة. ماذا أعمل لها؟» وقالت كحلة: «شوفي الشيخ عبد الهادي، يكتب لها حجاباً». وقال الشيخ عبد الهادي: «أنت عقلك أكبر من هكذا يا أم أحمد. هذه طفلة وتريد أن تلعب.» وقال أيوب: «سمعت؟ يريدون أن يكتبوا لك حجاباً. لأنك عفريتة وما بودك أن تعقلي. أنا لا أحب أن أضربك، ولكن لازم أن تكوني عاقلة ومستحانية، وتخليني أرفع رأسي بك.»

تأبطت ذراعه وسارا مبتعدين عن مبنى المحكمة: هو بارد مكشر يقظ العينين، وهي متعبة الجسم نشيطة النفس. سارا صامتين، ودوي غرفة القاضي الصغيرة ينث من رأسيهما. رغم ابتسامتها أحست بحكة صغيرة في وجهها. ومدت اصبعها وهرستها. فرشت يدها ببطء على امتداد وجهها، وببطء سحبت يدها حتى توقفت الاصبع الوسطى على ذقنها. قالت مبتسمة:

ـ أتدري بماذا أفكر؟

فنفض كتفه لتستقر عليه السترة الفضفاضة وأجاب:

ـ بعبد الجواد الخياط.

وقفت مبغوتة: ـ يا إلهي! كيف عرفت؟

ـ كيف؟ أبوك صدع رأسنا لكثرة ما حكى عن تلك الضربة.

ـ ولماذا تذكرت الضربة؟

ـ ها. « كانت أعظم درس أعطيته، وأعظم درس أخذته مني خولة. »

ـ أحياناً أضع كفي على خدي، مثل التي الآن أكلت تلك الضربة. قبل أن أكلمك كنت أتصوره في تلك اللحظة، يوم ضربني. وقلت لحالي لو أنه الآن حي يرزق لضربني مرة ثانية.

ـ معنى الكلام أنك تشعرين بالذنب لأنك طلقت. أو بالعار.

ـ كيف! لا، أنا لا أشعر بالعار.

ـ لو تشعرين بالفخر لتصورت الموقف غير هكذا. لتصورت نفسك واقفة أمامه بشموخ، وهو عاجز عن ضربك.

ـ لا. تذكرته وأنا مرتاحة، فرحانة. عمري ما تذكرته مثل الآن. بس.. أخ يا أخي. الإنسان عنده أفكار كثيرة، ولا يقدر أن يعبر عنها. على كل حال.. الآن أشعر أني سأتابع حياتي التي كنت أعيشها قبل تلك الضربة.

ـ حتى ذلك اليوم كنت كأنني أعيش في غفلة. بعد أن ضربني ذاك الكف.. قد تضحك علي، ولكن يا شداد صرت كأني محروسة داخل حائط مدور. هذا الحائط كان فاصلاً بين الخير والشر. قال لي أبوك بعد سنتين إنه ضربني لأن « الكف يكف »، ولأن سيرة مريم خضير كانت تملأ الضيعة وهو لا يريدني أن أصير مثلها. وكنت مرتاحة. داخل الحائط كنت أعمل أي شيء. لا تظن أنه كان جباراً ولا شغلة له غير الضغط علينا. صحيح كان جباراً، ولكن لأنه كان عنده مبادىء. أنت تسميها المثل العليا. ولكن في ذلك اليوم، عندما لمست الدم، أحسست أن الجدار هبط، مثل أني صرت مكشوفة، كأني بلا ثياب. كنت أعرف، هذا يعني أني دخلت عالم النسوان، وذات يوم سأتزوج. وهذا أماتني رعباً. أقذر شيء في المرأة هو الدم. لا تستطيع أن تتحرك بحرية، تركض، أو تضرب بالفأس، أو تركب الخيل. المرأة حركتها محدودة. تخاف. حتى ذلك اليوم لم أكن أخاف. كنت أستحي. لأن جسمي صار له شكل جديد. صدر كبير ثقيل، وما لا أعرف. كيفما تحركت أحسست العيون صارت علي. أنت صعب عليك أن تفهم هذه الأمور. نحن نحس بها بالغريزة. نحس بالقذارة. كأن الدم يبعث على الإقياء، على القرف. شفت كيف؟ والقرف كله خوف. شيء مضحك أن تقول الواحدة: القرف كله خوف. بس، كله خوف. رعب. وكانت هناك صورة للرعب. أراهنك أن كل بنات الشير عرفنها. صورة مريم خضير التي تقول أنت انها قديسة. أنت تفكر غير شيء. بس، مريم خضير كانت ترعب بنات الشير. كل واحدة تموت رعباً أن تصير مثلها. تفكر أن الدم يعني مريم. بعد أن انهد الحائط صار عندي وعي جديد، والعقل امتلأ بصورتها. وعي بالخوف. لهذا الشيء.. أنت تقول لماذا انكمشت طوال هذه السنين. لهذا الشيء دوّرت عن حائط جديد، لأتستر به. ووجدته. أنا عمّرته. أنا عمرته. ولكن، أخ. ما الفائدة؟ مضى الذي مضى. كان الخوف دخل. ودخل، ولا يطلع. بقي ثلاثاً وعشرين سنة حتى طلع.

ـ هذا مقبول كله. إنما لأي شيء هذه الكآبة؟ عند الظهر خرجنا من المحكمة وأنت تطيرين فرحاً. كنت فعلاً سعيدة. أنا لا أفهم هذه المشاعر عند النساء. لذلك، قولي لماذا أنت كئيبة؟ لماذا تتذكرين مريم خضير؟ مع أن منظر الغروب جميل، ونحن جالسان حد البحر تماماً، وأنت تحبين البحر.

ـ أووه! أنا أعشق البحر. البحر شيء ثان. البحر بلا حيطان. تعلو الموجة وتصير حيطاً، لكنها تقرّب منك وترفعك فوقها. وتصير أنت فوق الحيط، لا محبوساً داخله. وترى البحر كله.

ـ علقنا. ها هي خولة الرومنتيكية. من أول وجديد. قولي لنا يا ستي، ما قصة مريم خضير.

ـ الطلاق يا شداد شغلة فظيعة. المرأة المطلقة في بلادنا، يعني أقل من العاهرة بدرجة. أعرف أعرف ما

ستقول. لكن الآن راحت السكرة وجاءت الفكرة. تريد شعوري الآن بالضبط؟ مثل شعوري يوم الدم. حيط انهد. اختفى، وأنا كأني عريانة. الآن يعود أبوك وينظر الي. وصورة مريم تعود وتدخل في عقلي. والكف. يومها قال لي أبوك، روحي ساعدي أمك واقطفي ورق توت لدود القز. أنا عشت مثل دودة القز ظل أبوك يطعمني حتى كبرت ودخلت الشرنقة. وجاء النساج ووضعني في ماء غالية وسحب خيوط الحرير خيط خيط. العادة أن تثقب الدوة الشرنقة وتطير منها بعد أن تكون صارت فراشة. لكن النساج يسحب الخيوط حتى نهايتها وتبقى الدودة في حوض الماء الغليان. تموت. أنا امرأة. عمري ثمان وثلاثون سنة. لم أمت مثل غيري. لكن ماذا بقي مني؟ سنوات قليلة. ثمان وثلاثون سنة. كل عمري مأسورة برغبة واحدة. أني أحب إنساناً وأعطيه عمري. ماذا بقي من عمري؟ يا ترى، سألتقي بالذي يرجع الى روحي شبابها؟ أو ستكون محاولاتي مثل مأساة مريم؟ يا ترى، سأحب وأبقى مستورة؟ والحب المستور حب ناقص. حب سرقة. وأنا لا أحب السرقة. الإنسان لا يرتوي من شيء إلا إذا تناوله بحرية. الأساس الحرية. أن تعيش بلا خوف. أنا أحتاج للحب. وللحرية. الحب جمال، والحرية جمال. هكذا قالت لي مريم.

ـ تعلمت منها شيئاً، على الأقل.

ـ تعلمت منها كثير أشياء. أما قلت لك إنها كانت ترعب بنات الشير؟ مريم دائماً في رأسي. مريم خضير وعبد الجواد الخياط. دائماً في رأسي. كف أبيك حيط حاني، أحبه وأكرهه. وكف مريم البحر. أحبه وأخاف منه.

وقال أبو ضرغام: «أنا أراقبها من المقهى كلما جاءت وكلما راحت. يا أخي بنت الاصل غير شيء. والله انها تمشي كالنائمة، وعلى رأسها الدبليز. من أول الساحة حتى أول طريق جب التسار. لا تلتفت، لا تهز، لا يطلع منها صوت، لا حركة. وترجع مثلما جاءت. تمشي مثل النساء وهي بنت عشر، اثنتي عشرة سنة، كم عمرها؟»

شاهدتها، كل واحدة تسير الى موقع التقاء الدربين على السفح. وثبت بخفة، وزحفت إذ زقت وطفا: «يا لك يا كحلة، أين كنت؟» وأجابت كحلة: «ألم حطباً لبرد نيسان. وأنت؟» وزقت وطفا: «أقطف لباس القطة من تحت الزيتون. بودي أخبز فطائر لابن بنتي».

اقتربت حتى آخر أجة، واندست بين عيدانها. وشاهدت كحلة تلتفت حولها باسترابة، وسمعتها تهمس: «شفت لك فضل الأسمر ينسل مثل الكلب بين الشتل». وطرفت عينا وطفا وهي تسأل: «وأي شيء يعني؟»

ـ ويلي عليك. ما عرفت أي شيء يعني؟

ـ أنا لا دخل لي. سيأتي يوم ويعاقبها الله كما تستحق.

ـ يا ويلك يا مريم من يدي الله. بهدلت اسم الغفري وخضير. تفتح سيقانها لأي عابر سبيل.

ـ نحن لا دخل لنا. بدني يقشعر كلما جاء اسمها على لسان. يا رب نجنا ونج بناتنا.

ـ قولك أما هي خطر على البنات؟ أنا أعرف أنها تجمع عندها الصغار، الصبيان والبنات.

ـ وأهلهم لا يقولون شيئاً؟

ـ أهلهم لا يعرفون. وهم أولاد فقراء. بدل أن يلعبوا وهم جائعون، يروحون اليها، يشبعون ويلعبون عندها.

ـ يا رب نجهم من هالمستقبل.

وقال عبسي: «إذا ضربتني أروح أشكوك لأبيك. اجرؤي!» وقالت خولة: «تضربني قدام أبيك. لأنه لا يخليني أرد عليك. والله لأكسر رأسك». وصاح عبسي: «آع! آع. شداد أمسكها من الخلف». وقالت خولة: «شداد، أما نلعب سوية نحن الاثنين؟ يا حبيبي يا شداد. اسبقني الى التوتة، سأريك عش عصافير».

وقالت رضا المجنونة: «الشيخ عبد الجواد عنده بنت. خمنت كلهم صبيان. قريضة».

وقال أيوب: «شفت؟ لأنك تتحركين أكثر من اللازم وقعت سلة التين من يدك. أنا لا أضربك، لكن أنت حركاتك كثيرة. لازم أن تكوني هادئة. البنت المؤدبة تكون هادئة».

وقالت أم أحمد: «العمى ضربك! تسألين أسئلة عن مريم خضير؟ تفكرين فيها؟ أنت ماذا أنت من صنف البشر؟ مجنونة؟ مغضوبة؟ من يفكر فيها إلا الذي على شاكلتها؟ أنت عارفة أنك بنت السنديان والا لأ؟ قومي ادخلي البيت الجواني، ويا ربك إذا طلعت منه».

دخلت البيت الجواني مطرقة متعثرة بدموعها، وصفقت الباب وراءها. هرعت الى الاثفية. وضعت ساعديها على الوجاق، ورأسها عليهما. بكت وشهقت. سقط شيء ما. رفعت رأسها، وتناولت مرآة أيوب عن الارض. تأملت وجهه؛ مسحت عنه الدموع. نظرت الى جسمها؛ أحست بخدر خفيف ينتعش فيه. ثم جاء الخوف: مريم خضير سقطت في جسمها، وجسمها انتفخ، صار شرانق رذيلة.

وقال أبو أحمد: «خولة، روحي اجلبي لي عن الرف الكتاب الثالث من اليمين». ثم قال: «خولة. تعالي. بعد أن تجلبي الكتاب والكرسي، سخّني لي ماء واغسلي قدمي».

وقال أيوب: «أعجبني جوابك الصبح لاسماعيل. كوني هكذا دائماً. نحن فلاحون. وكوننا من بيت السنديان يعني الأخلاق والشرف، بس. لا الكبر ولا الخيلاء ولا الثروة».

نزل عن الفرس مبتسماً لكنها لم تحفل به ثم طار على فرسه واضطجعت على الحشائش البرية تتأمل النجوم ثم أخذت النجوم تتسع وتنتعش حتى صارت غيوماً بيضاً ملأت السماء وانشقت الغيوم عن حصان أبيض انتصب على ظهره فارس أبيض له ملامح وليس له إنسان بلا وجه حتى بلا رأس تقريباً سوى العمامة البيضاء وراح يقترب منها بسرعة ووجهه غائم وبين لحظة وأخرى يصل.

وقال أبو أحمد: «هه. هكذا يا بنتي، الله يرضى عليك. بودي أن أرفع رأسي بك دائماً، ويقول الناس ولدت لعبد الجواد السنديان بنت فما أوطأت رأسه. خذي، هاي ثمن فستان اشتريه، وأخوك أيوب يخيطه لك. بس انتبهي. لا تخيطيه عالموضة!»

وقالت خولة: «إذا ضربتني أشكوك لأبيك. أنا صرت بنت كبيرة، وأذهب مع أمك لزيارة الناس. ما بقي لعب نلعبه. رح العب مع محمد علي وبديع.»

وقالت هولا: «شفت لك مأمون عبد الهادي، يتطلع بخولة تطليعة! مثل الذي بوده أن يأكلها. وهي انتبهت له. عبست عبسة! وحمحمت حمحمة! كأنها تريد أن تبصق.» وقالت عنيترة: «لا تقولين كأن بيت الخياط وبيت الريحان كانوا عائلة واحدة. هؤلاء بطروا بالغنى، وهؤلاء عاشوا مثل الفلاحين.» وقالت هولا: «كل عيد تكون خولة بين البنات اللواتي يشتغلن بالطبخ. وهي تشتغل شغلاً! بقدر عشر بنات. مع أنها صغيرة».

رفعت أم أحمد قامتها في باحة الدار الخلفية، وألقت بالمكنسة ثم صاحت: «يا خولة!» وتناولت الرفش وراحت تغرف الروث والبعر وتلقيها في القفير.

امتلأت القفير. ألقت أم أحمد بالرفش وصاحت: «يا خولة!» وانبثقت خولة من الباب كزوبعة صغيرة،

نفر جذعها وبقيت يداها الى الخلف ممسكتين به. نظرت الأم اليها، ثم أمالت رأسها على كتفها. وفهمت هي أن هناك خطأ ما، لكنها لم تكترث. قالت الأم: «أخ لو يراك أبوك وأنت بهذه الوقفة». سألت البنت وصدرها ما يزال نافراً: «ما لها هذه الوقفة؟» قالت الأم: «ما لها؟ ما لها؟ والله مريم خضير ما وقفتها». دمدمت البنت، وهي تعود الى وضعها العادي: «كل شغلة ولها عندكم تفسير؟ احترت والله كيف أتحرك». قالت الأم وهي تضع خرقة سميكة على كتفها: «خير أن شاء الله. ومن حيرك؟» واحتجت البنت: «أبي. دخل علي وأنا أعجن. وقف أمامي وعقد حاجبيه. جدت بأرضي. قال: هكذا تعجن البنت الشريفة الطاهرة؟ سألته كيف تعجن البنت الشريفة الطاهرة. قال: تأدبي وأنت تخاطبين أباك. باللغة الفصحى. ثانياً، البنت تعجن بيديها، لا بصدرها وظهرها. حالة غريبة! أنا أرتاح بالعجن هكذا! حتى بالعجن يتدخل؟» وعقدت يديها في حضنها. قالت الأم: «هذا أبوك. وأنت يلزمك تربية؛» واحتجت البنت: «فهمنا. إذا بقي يرعبني هكذا كل مرة، يعود لا يجيئني أولاد.» وصرخت الأم: «يا مقصوفة العمر! يا شائنة! طالع منك، والله! انضربي خذي ثلاث بيضات من الخم وروحي عند ريما، اشتري ملحاً. يا الله! وبعدها روحي الى المكدس، اجلبي الحطب للتنور.» وسألت البنت: «أنا أروح الى المكدس؟ تعبت من العجن.» وكانت أم أحمد قد طأطأت فوق القفير، فانتصبت: «أنا أروح الى المكدس. تحملين القفير الى المزبلة؟» وصاحت خولة: «لا لا. أنا أروح الى المكدس.»

أجابت دون أن تحول بصرها عن الشهب والنيازك: «الحرب العالمية يا غبي.» وبعد قليل أفلتت يديها عن عمودي الخيمة، واسترخت في وقفتها. وحانت منها التفاتة الى الناس المنتشرين على الأسطحة المتلاصقة. سمعت هتافهم وكلماتهم ولم تسمع. تنهدت. ومن وراء الحارة الغربية نظرت الى أفق المدينة البعيد المضاء رغم الليل. استدارت، ودخلت الخيمة مطرقة. تمددت الى جانب عبسي، المنشغل بمواراة شبابته تحت الوسادة. تنهدت أيضاً وتمتمت: آه ما أحلى العيش في المدينة.»

قال عبسي: ـ أنا سأصير محارباً مثل نابليون.

ـ في المدينة ناس يحكون بالفرنسية.

ـ أو أصير معلماً، وآخذ راتباً كبيراً، وأشتري بدلات وأحذية.

ـ هنيئاً للذين يعيشون في المدينة.

ـ إذا ظل أبي يضربني، سأهج الى البحر وأصير قبطان باخرة.

ـ أبي يحبّنا كلنا. لا يضرب أحداً. وهو راح مع شداد الى المدينة لأنه يحبه.

ـ وأنا ضربني لأني أنفخ بالشبابة. وأمي بهدلتني. هو لا يحب غير أيوب.

ـ اي طبعاً. ميهوب شريبا، راعي الدواب، ينفخ بالشبابة.

ـ ميهوب شريبا ابن آدم، مثلنا.

وبعد وقت قصير نامت. وكانت الشهب وحبيبات الضوء الملونة ما تزال ترقى معارج السماء. تندفع من أقصى الى أقصى وتغيب. تنبلج في كبد الليل وتتناثر في الفضاء كقطع النقود المرمية على العروس. كأنه كله صار نجوماً لا مسافة بينها، ونهضت من فراشها وسارت دون أن تلامس السطح لئلا يفيق عبسي والتفتت فلم تجد أحداً على الأسطحة وتطلعت الى وجه السماء وقد صار غيمة كاملة من الضوء ثم انقشعت الغيمة بشكل دائرة اتسعت حتى برز منها الحصان الابيض وعليه الفارس الابيض وأخذ يهبط بين الغيوم البيضاء ويقترب منها بسرعة فتتقطع أنفاسها وتشعر براحة لا توصف وتمشي على السطح فلا تلامسه قدماها وتنتظر الوصول لتذهب

الى البحر والفارس يغذ الهبوط وتتأمل وتحدق وتتفرس فلا تستطيع أن ترى وجهاً لأن غيمة الضوء غمرت مكان الوجه فلا وجه ولا عينين ولا فم ولا نهاية للهبوط.

وقال الشيخ ابراهيم السنديان: « خذوا هذه البنت الى البيت ولا تتركوها تجيء الى القبر. خذوها قبل أن تهلك. مرتين عطلتنا عن التلاوة. » وقالت مزنة: « اي والله الناس نسيت أيوب واتشغلت بأخته. يا ويل قلبي. أبوها وقع على الارض وهي طقت خواصرها من البكي والصريخ ». وقال الشيخ عبد الهادي: « ما كان لازماً أن يسمحوا لها بالمجيء الى القبر. الحزن يجر بعضه. وخولة عواطفها قوية. »

وقالت أم أحمد: « ما لك يا بنتي، يا حبيبتي. امسكي نفسك. هكذا لا يصير. نكون بمصيبة نصير بمصيبتين. تعالي لا تبكي. هنا، نامي على حضني. نامي على حضني، وخليني أضمك مثلما كنت وأنت صغيرة ».

وقال الشيخ ابراهيم: « لم أر في حياتي حزناً أجمل من حزنها. لو أن اسماعيل صبر عليها حتى الآن وتزوجها لكان أحسن له. »

وقالت كحلة: « تقولين كأنها كبرت خمس سنين بيوم. بعد ما مات أيوب، راحت منها آثار الطفولة. هنيئاً لأمها عليها. تحمل كل شغل البيت على كتفيها. لو كان عندي بنت مثلها ».

وقال عبسي: « كلما بكيت أنت بكيت أنا. ويرانا أبوك، يتذكر أيوب، ويتلوع قلبه. خلينا ساكتين قدامه. تعالي نتفرج على أعشاش العصافير. »

تودعت النسوة عند مدخل القرية الشماليين، وصعدت أم أحمد الى بيتها. من أول الباحة الخلفية تناهى الى مسمعيها الصراخ. وهرعت: عبسي؟ شداد؟ ولكن لا. انه صوت هذه المقصوفة خولة. ودخلت البيت بسرعة أبطأ. كانت خولة تتخبط على الفراش، وتعر عرير ذئبة ثكلى. اقتربت أم أحمد فشاهدت غطاء الوسادة ممزقاً، وأسنان ابنتها مغروزة فيه، ويديها تتقبضان بأي شيء تصادفانه. راقبت مشدوهة: خولة تقرفص، تتشنج، تعض، تنقلب، تصرخ، تنهش، ثم تهوي كمن دوخها الألم؛ مع أنها كانت قبل ساعة مثل القردة عند عين الغسيل. وقلقت الأم، ثم جزعت، ثم ضربت بيدها على صدرها، وخرجت متطوحة اليدين الى الجانبين.

من مسافة لا بأس بها، وقفت وأرسلت الى أبي أحمد نظرة خاصة. تأملها قليلاً وتابع حديثه مع جلسائه. لكنها لم تنسحب. التفت اليها دون أن يحس أحد. لم تشر بشيء. لبثت واقفة. وهز رأسه هزة غير مرئية. عادت. وقفت أمام الباب.

وصل أبو أحمد مقطباً: ـ خير إن شاء الله. دائماً وأنا بين الناس يطلع برأسك موال لا معنى له.

هتفت،هي بهمس حريص،ويداها تهزان أمام صدرها: ـ خولة، خولة، يا أبو أحمد.

تطلع اليها باهتمام خائف: ـ ما لها خولة؟

هتفت بهمس أعلى: ـ عجل، عجل.

وخبت أمامه فتبعها. في الغرفة شاهد الأبوان ابنتهما وقد استباحها الألم. ونظرت الأم الى الأب، منتظرة أن يقول شيئاً. اقترب من ابنته. انحنى ولمسها: « ما لك يا بنتي؟ » وصرخت هي منتفضة: « اتركوني! آخ! »

التفت الى الأم: أي شيء جرى لها؟

ـ لا أعرف. رجعت قبلنا من عين الغسيل. ووقت وصلت شفتها على هالحالة.

ـ عين الغسيل؟ ملأت الدست بالماء؟

ـ ملأته.

ـ سمت باسم الله الرحمن الرحيم؟

ـ لازم أن تكون.

وكانت خولة ما تزال تصرخ وتمزق غطاء الوسادة.

ـ لعبت بالماء ؟

ـ مثل العادة.

ـ طلع القمر الجديد؟

ـ أنت الذي يعرف.

صفن قليلاً. وظهر على وجهه الارتياع:

ـ اليوم يطلع القمر الجديد؟ هذه البنت مسكونة. مئة مرة قلت لك وصيها. عجبك؟ ها صار عندك بنت مجنونة.

ـ باسم الله الرحمن الرحيم. يا أبو أحمد لا تقل!

وكان قد التفت وهرول الى الباب.

عند المساء أغلق عبسي باب البيت للمرة الثالثة. وللمرة الثالثة جلس على الكرسي الصغير يقرأ الآيات. وأقبل الشيخ بهاء الى خولة المقيدة اليدين والقدمين. انتشل سكينه المطويلة، وراح يغرز حدها الغليظ في لحم مريضته. «اخرج يا لعين!» ويغرز. «ارمي عليك اسم نبي الله سليمان بن داوود، اخرج، واترك هذه البنت الطاهرة!» ثم يغرز ويغرز.

«شمهرق هلفت جفجفيا. شمهرق هلفت جفجفيا، يا عدو الله.»

بعد ساعة اطمأن الشيخ بهاء. مسح عرقه المتصبب بمنديله ونهض. بعد صراخ مرير وصراع أمر، خرج الرجيم من جسم المريضة. كان يهرب من مكان الى مكان وهو يلاحقه بحد السكين. من يدها إلى عنقها الى خصرها، فالى ظهرها والى ساقها. وأخيراً حشره في قدمها اليمنى، وشد عليه بقوة علوية، فصرخ ذاك بألم فظيع حارق، فنهره وألقى عليه بالأسماء. وعندها تسلل من الأصابع وولى الأدبار.

وقال: ـ لا تخلوها تغسل عند عين الغسيل مدة ثلاثة أشهر. لأنه هناك ينتظرها. وإذا دخل مرة ثانية، لا يخرجه غير قدرة الله. لأنه مارد شرير قوي، والآن صار مدرباً.

وكانت خولة قد همدت تماماً. مع الصبح أفاقت على إحساس مزعج بالسيلان. تلمست فتأكدت. يبست أصابعها. انفتحت عيناها وفمها. اجتاحها خوف لم تعرفه من قبل. ظلت مسمرة حتى صاح الديك مرتين. وفي المرة الثالثة أيقنت أنه الشيطان، تلبسها وتلبس الديك. تلفتت حولها بذعر فتاة وقع عليها الدنس، ومن الأبالسة. وغام وعيها.

قبيل الظهر عادت أم أحمد من الحقل، ووجدت ابنتها غائبة الجسم تحت اللحاف مفتحة العينين خارجه. «كيفك يا أمي؟» سألتها. لم تجب خولة. ولم تستطع الأم أن تقرر ما إذا كانت سكين الشيخ بهاء قد فعلت فعلها. «الآن، كيف تشوفين حالك.» «لا أعرف. اعطني لباساً.»

نظرت الأم الى ابنتها غير مصدقة. وللتو ضاء وجهها بفرح طاغ ما لبث أن تحول الى زغرودة. وخرجت تطلق الزلاغيط واحدة اثر الأخرى.

هرع أبو أحمد مضطرباً، وقد ظن أن زوجته هي التي جنت هذه المرة. «ماذا بك؟ ما هذا الجنون؟» فمالت صوبه وهمست في أذنه أن خولة قد دخلت أخيراً طور النسوة.

وقال شكيب الغفري: «أرى لك أن خولة بنت الشيخ عبد الجواد صارت صبية قدّ الصبايا. وقريباً تأخذ دورها.» وقال حمود الأقرع: «أنت أخذت إجازة، بس لتفرج على من صارت صبية؟» وقال شكيب: «وماذا يعني؟ بنت أصل، ومتربية. وفقيرة مثلنا. أخوها أيوب، الله يرحمه، كان صديقي.» وقال حمود: «من يصدق أن عبد الهادي وعبد الجواد جاءا من عائلة واحدة؟» وقال شكيب: «نحن نحكي عن خولة».

وقال أبو أحمد: «حكيت لك من قبل كيف نزل النور على جدك شيخ السنديان السادس. الآن سأحكي لك عن شيخ السنديان الثالث، الشيخ يوسف، وكراماته. جدك، الله يرحمه، ترك المال والعيال وصعد الى الجبل. هذاك الجبل، ترينه؟ جبل الشير. صعد الى الجبل، ونبه على عائلته أن لا أحد يأتيه الى هناك، لأنه منقطع عن الدنيا منصرف الى الآخرة. زوجته، وكانت امرأة صالحة، الله يرحمها، أصرت على أن ترى أين اختفى. ركبت على جحشة وأخذت درب طريقها الى جبل الشير. ولأمر أراده الله، اقتربت من المكان الذي هو فيه. وكان مكاناً وعراً في رأس الجبل، لا أحد استطاع الوصول اليه. رآها هو من مخبئه، صاح بها: «يا أنيسة، ارجعي وإلا عميت.» وكرر عليها النداء ثلاث مرات. لم تسمع له. ظلت ماشية. وبعد النداء الثالث شهقت. تعرفين لماذا شهقت؟ لأنها عميت. نعم لأنها عميت. وناداها مرة ثانية: «الآن ابرمي جحشتك وعودي. ومدي يدك اليمين لتضرب بصخرة الشير. إذا كان إيمانك صحيحاً انشقت الصخرة ونزل منها الماء. وعاد اليك بصرك. عندها تتابعين طريقك وإياك أن تنظري الى الخلف. واذا كنت مراوغة ستأخذك الجحشة في درب لم تسلكيه في حياتك.» وفعلاً. أدارت جدتك جحشتها، ومدت يدها فلطمت بالصخرة. وانشقت الصخرة. ونزل الماء. وبللت جدتك يديها بالماء ومسحت على وجهها. أبصرت. ومن يومها الى اليوم والماء ينز من صخرة الشير. تعرفينها. روحي أنت وأخوك عبسي، وخذوا شداد معكم. شوفوا المكان، وشوفوا أثر ثلاث أصابع عند مكان نزول الماء. واحدة الى اليسار واثنتان الى اليمين.»

وقالت بريبهان: «أمك بعثتك يا حبيبتي، وقالت لك خلي بريبهان تفقس بيوض القز؟ يا حسرتي، أين أخبئها؟ ما عاد عندي صدر، انمسح. لازم صبية مثلك تصر البيوض وتضعها تحت صدرها؛ العين تحرسك.. سلمي على أمك، وقولي لها بريبهان يبست، وصار كانون أدفأ منها.»

وقالت قطيفة: «عقلها يساوي مئة بنت، وأدبها وحياؤها.» وقالت تمرة: «وأنفها مثل منجل الحصاد، وصدرها قد الجرة، وأذنها قد المخباط.» وقالت قطيفة: «أحلى من بنات ابنك. يا لهالقوام، والخصر، والصدر..» وقالت زهية: «ولماذا لا ترضى بالحكي مع أحد؟ أهي نازلة من السماء؟» وقالت تجرة: «لو عينها طرفت شعرة لليمين أو شعرة لليسار، ماذا كنت ستحكين عليها يا زهية؟» وقالت زهية: «الصدق أنجى يا أختي، كنت حكيت عليها مثلما أحكي على مريم خضير. بس هي معطية لخالها ثقلة كبيرة.» وقالت قطيفة: «حتى لا تترك لواحد منا باباً للكلام. نحن، لساناتنا مثل المبرد. يكفي ضيعتنا بهدلة مريم. خلي واحدة تطلع وترد شرف الضيعة.»

وقال الشيخ عبد الجواد: «الآن أنت ابنتي بحق وحقيق. وأنا فخور بك. لكن إياك والغرور.»

راح شداد يهسهس واضعاً أصابعه على فمه، مبتعداً عن الباب كلما أحس بانفجار الضحك في حلقه، ومقترباً منه كلما هدأ. وبين الحين والحين تنتبه خولة الى اقترابه فتدفعه بعيداً. تعبس بوجهه عبسة شيطانية، ثم لا تتالك نفسها فيصدر عنها ضحك خفيف مقهور. حتى إذا ابتعد ألصقت عينيها بأحد شقوق الباب، وتابعت مراقبة المشهد.

كانوا جالسين عند الاثفية. الشيخ عبد الجواد الى اليمين، وديب ملحم الى اليسار. وبين القطبين كوكبة من الرجال ذيلها عبسي ويونس ملحم. وبدا أن ديب ملحم قد استمرأ المنازلة الشعرية الحامية. شد طرفي بردته الى صدره، وشهر ذراعه في الهواء كالسيف، أرجع يده قليلاً ليهبط عنها الكم، وأنشد:

والنـــوم راحـــة للجســـد والمـــا يصـــدق يتكـــي
والعـــز في ضهـــور الخيـــل والمـــا يصـــدق يعتلـــي

فهمهم الشيخ عبد الجواد معجباً، وتعالت الصيحات. وتنحنح عبسي المتربع، مال الى الامام قليلاً وساعداه على ركبتيه، وأنشد:

مـــن مبلـــغ الاخـــوان عنـــي أنتـــي لله دركمـــا ودر أبيكمـــا
قـــد كـــان يـــرعـــى الخيـــل وهـــو مهلهـــل أرمـــي مـــروءتـــه على بـــرديكما

فهمهم الشيخ مبتسماً، وتعالت الصيحات. وانتقلت أصابع ديب ملحم من شاربيه الى صدره. شد طرفي بردته، وشهر ذراعه في الهواء كالسيف، أرجع يده قليلاً ليهبط عنها الكم، وأنشد.

دخلت أم أحمد على غير توقع، وشاهدت ابنتها في الموقف المشين. «خولة!» صاحت بصوم مكتوم، «الله لا يكبرك. هذا مجلس رجال، وأنت تتنصتين؟»

نهضت خولة، تنهدت. تأملت شداد الذي احتل مكانها فوراً، فأمها التي وقفت أمام النملية وبدأت تعبث بما لا تعرف ماذا. سارت معقودة الذراعين، بطيئة. مرت قرب أمها وبالكاد أحست بها. قالت الأم: «خذي الابريق واعملي قهوة لضيوف أبيك.» قالت وهي ما تزال سائرة: «لن أعمل قهوة لأحد.» أحست بأمها تلتفت وتنظر اليها. لم تكترث. جلست على الفراش الممدود في أقصى البيت. أزاحت اللحاف. تمددت، وكتفاها على الجدار.

وصلت أم أحمد. وقفت حد الفراش. التقت أعين المرأتين في بياض العتم. ترقبت نظرة كل منهما أن تفلت الأخرى شيئاً. ثم غمغمت الأم: «قلت لك اعملي قهوة لضيوف أبيك.» غمغمت البنت بنبرة: «قلت لك لن أعمل قهوة لأحد.» صمتتا. تبادلتا النظرة الفاحصة نفسها.

غمغمت الأم: «ألا يعجبك يونس ملحم؟» نبرت البنت: «لا.» وأشاحت بوجهها. «لأي شيء؟» صمت. «شاب قد الشباب. شغيل.» صمت. «ما عليه دين. معه لقدام.»

قالت الأم: «صار عمرك سبعة عشرة. ولم تتزوجي..» واسترسلت بمزيد من القول. لكن خولة لم تكن تسمع. إانفلتت باكية، واختفت تحت اللحاف. بكت وبكت. لم تنتبه الى أمها التي غادرت بهدوء، ولا الى شداد الذي أقبل، أيضاً بهدوء. وبرم رأس يونس ملحم الثخين الحاجبين في رأسها وعينيها وجسمها. ثم طرده السراج الذاوي. وامتد الوجاق فوق الاثفية. عصفت ريح كانون. الوجاق. الجمر الخامد في الاثفية. ومكدس الحطب. ورأس يونس الضخم. وسلة التين. وكاد طرف الحبل يفلت من يدها، ونظرت بحيرة الى رفاقها، وجوه تنظر اليها واجة داكنة والصرخة تدوي في أذنيها كموج البحر ومر سليم فتركت الحبل وركضت وراءه لكنه انعطف الى شارع آخر وركضت وراءه لكنه انعطف الى شارع آخر وركضت سليم سليم سليم لكن الحبل دخل بين أسنانها فلم تخرج الصرخة وركضت في الشوارع بين البنايات وازاء الدكاكين ولسع البرد قدميها الحافيتين ووصلت الى البحر وصرخت بالبحر لكنه تجوف وتقعر وتمتمت سور ماري إيزابيل بكلام زاجر وثياب سوداء وانعطفت الى خندق ابراهيم أيوب أيوب وابتسم أيوب ومد يده لكن يدها كانت مغلولة بالحبل والخندق مليئاً بأمواج البحر وعصفت ريح كانون وخفق السراج الذاوي وتموج العتم الابيض على وجه أيوب

فصار ضباباً وملأ الضباب الخندق وصار غيمة فملأت الغيمة السماء وانشقت وأقبل راكباً على فرسه البيضاء يرمح في الأجواز بلا وجه بلا ملمس بلا سراج بلا.

إذن فقد مر عام كامل. بوجوه كثيرة ومئة ملمس وسراجين. قالوا - قالت ريما ووطفا و - ان جسمها صار أرشق، أحلى. انها تمر كالنسمة. تسلم كهديل الحمام. وسقطت عليها الكلمات كما يسقط غبار في العيون. لم يعد غضبها رد فعل جائشاً من مراهقة تتنسم في الخفاء ما تحتقر في العلانية. كان غضباً من اقتحامهم المجاني لعالم صغير ملأته بالأحاسيس والصور. دائماً يقولون، دائماً يكشرون. ولا همّ لهم إلا أن يريدوا. لقد حاولت أن تقيم وراء العطاء والقبول حاجزاً تنفرد داخله بنفسها، أن تصنع سوراً عالياً يتأبى على المقتحمين، ويحضن فرحها الخائف، وخوفها البائس، وبؤسها السري، وأسرارها المفرحة المضنية. لكنهم اقتحموها بحرية مطلقة. سلبوها مشاعرها الصغيرة مثلما يقتلعون أعشاباً برية من حقل الحنطة. جعلوها تدرك أن هذا الجسم صار عبئاً، موطناً لرجة من الضرورات والمحظورات والمطالب. أحست به ككائن خطر انتصب الى جانبها وراح يهددها. أحياناً تنزف دماؤه، ويجب حقنها. أحياناً يحكها تحت الجلد. لمسة غافلة وإذا هو يمور ويتأرجح. لحظات من النشوة، قصيرة وطاغية. وسرعان ما يجرفها شعور دافق بالاثم والقذر. والفرح الصغير يعقبه خوف كبير. تصير العيون شهوداً على رغبات قذرة لوثت طهرها. عيون مرايا تكشف فرحها السري بجسدها وتبرزه كتلة من الهول والدنس. هي التي يجب أن تستعيد للشير شرفاً لطخته مريم.

وهذا الخاتم. جسمها وهذا الخاتم. احتلا مساحة كان عبسي وشداد يحتلانها حتى الأمس القريب؛ والقرية كلها. لم يعد عبسي يدفعها ولا شداد ينطحها. هذا الجسم وهذا الخاتم. يمليان عليها كل حركة. لقد اتضحت المعاني العميقة لكلام أبيها. وهي لن ترى المدينة ولن ترى البحر. ستنتقل من سراج الى سراج. من جبلة طين الى أخرى. وسيمضي العمر وهي غافلة تراقب عبوره أو غافلة نسيت عبوره.

الآن، تغير كل شيء. وهي لا تعرف من أين جاءتها هذه الوحشة. أنها تنتبذ مكاناً قصياً وتفكر: لكأن حجمها اتسع ليضيق العالم من حوله، ورغباتها تراكمت ليضمحل الفرح بتلبيتها. زيارة يونس جعلت من ذلك الاتساع نذيراً بالعار. نظرة أبيها هزتها خوف الوقوع في الفضيحة. أبوها، المستريح في يقيناته الأبدية، البعيد كالنجوم عن محطات خيالاتها النفقية واندفاعاتها؛ ماذا لو اكتشف أن ابنته تختلس التفكير بمريم خضير؟ ويونس، الوديع القرير، المنهك نفسه كدحاً كي يشتري جهاز العرس؛ ماذا لو يعرف أن خطيبته ترى فيه مؤذناً أيقظ جسدها لأجل صلاة الجنس؟

عند هذا الحد كانت خولة تلتفت حولها بذعر نصف عاهر، خيفة أن يكون أحد ما قد رآها. هنيهات وتباشر أول شغل تجده في متناول اليد لتطمس آثار الأفكار من الوجه. وسرعان ما يزول الخطر الخارجي أمام شعور مداهم بالندم: الى هذا الحد؟ وفيما تنهمك في الشغل، تلتفت في داخلها وتبحث: من أين تجيء هذه الأفكار؟ هكذا فجأة، وبلا مقدمات! هي التي لم يمسسها أحد ولم يضع على طرفها كلمة، تأتيها التصورات المروعة من مكان غامض رهيب، تصيبها بخدر لذيذ آثم، أو بغفلة غريبة، ثم تنقشع بهزة خاطر، وتتركها فريسة لأعين تلفحها بالنار وأشداق تطلق في أذنيها رعداً. المرة تلو المرة تروح تؤكد لنفسها أنها ليست ما تتخيله، أنها خولة التي زجرت اسماعيل السنديان وأحبت البحر. لكن الصور ما تلبث أن تفاجئها، والأحاسيس والمشاعر تعتقلها، تتسلل من جسدها الى جسدها وتسرح فيه بلذة معذبة. ثم ينقشع كل شيء بهزة خاطر. ويعود بارخاء خاطر. ينقشع ويعود. ويبقى في النهاية العذاب. وفي برهة ما من مدى شرودها المحتشد، في ليل ضاءت سماؤه وأرعد ينبسط في ذهنها سؤال أنكرته طويلاً: أهكذا تحس مريم خضير بجسدها؟

بالطبع لا. قال عبسي، عن أمه، عن أبيه، إن الأخير قال: «البنت الأصيلة كالمهرة الأصيلة. في الاول تنفر من فارسها، وبعدئذ تنفر من كل فارس سواه». ومر حين فلمست صدق الكلام. لقد أصبحت تتصرف

وكأن يونس هو البحر، كأن ما حدث هو الذي يجب أن يحدث. أحست بما في عيني يونس من حب والفة، وبالانخطاف أمام منظر رجولته المبكرة. لكن عبسي روى عن أمه عن أبيه، أن هذا الأخير قال: «أنت وبنتك تريدان زواجاً على الموضة. الزواج على الموضة يا أم أحمد، يعني طريق مريم خضير. وتذكري كلامي.» وتساءلت لماذا يتكلم أبوها عن مريم خضير. لقد بثها في الذاكرة كالوشم، منذ طفولة الذاكرة وحتى تعبها. لماذا يؤمن بلا جدال أن كل امرأة يمكن أن تمسي كساكنة العلية؟ ما علاقة هذه الساقطة المقرفة الفاقدة لإنسانيتها بكل ما تعانيه هي؟

قال عبسي، عن أبيه، إنه قال: «ألم أقل لكم؟ شوفوا كيف أن خولة تقدم القهوة ليونس وتسلم عليه في الخفاء». والتفتت الى نفسها مذعورة. رأت الكلام صحيحاً. ورأت أن يونس يتصرف كمن خلق في ذلك البيت. لم يعد يخفي اغتباطه بتنعيجها. ولم تعد تبذل جهداً لتتصرف وكأنها ليست نعجة. وخلال أسابيع استوطنت مريم خضير ركناً ثابتاً من ذهنها، ذلك التخم الزلق بين انقشاع المشاعر والأحاسيس وبين عودتها. هناك حيث تصطرع الرغبات والكوابح. تحضر الصور ومعها حكايات الزانية، ليخترقها شواظ الأقوال المأثورة يطلقها في رأسها الشيخ عبد الجواد.

بعد أسابيع تكوم لديها وعي بأنها لن تستطيع طرد الزانية من ركنها. رأتها لاصقة هناك كالعلق، أقرف من أن تمتد اليها اليد. كل ما استطاعته هو أن تضربها بشواظ الشيخ عبد الجواد حتى تنكمش وتتقلص فتمسي بحجم النقطة. وعندها تستطيع هي أن تنام. هدوء ما، نوع من التعادل السلبي، وصلت اليه بعد ستة أشهر من الخطبة، وعليه تطفو نفسها ككتلة هامدة. ذلك أن الشيخ والزانية كانا دائماً مرتاحين. هي وحدها التي تعبت، ووصلت الى مدى الهمود. الشيخ يتقدم بفم مطبق ينثر ناراً. والزانية تقبع في ركنها بلا كلام، مبتسمة، جميلة، مراوغة، بلا أسرار ولا خجل، بلا هزيمة.

ثم جاء ذلك الضحى. كانت قد أمضت هزيع الليل بلا نوم. وأغفت قبيل مجيء ميهوب شربيا ليسوق الدواب الى التلال. وعندما أفاقت تذكرت. لقد أطل. هو نفسه، الذي يبدو كجدها شيخ السنديان، ولكن بلا وجه ولا ملامح، راكباً حصاناً أبيض، رامحاً بين الغيوم.

كانت سبعة أشهر قد انصرمت بعد الخطبة. ويومها أحست بقوة مفاجئة. نهضت وفي نفسها عزم. وخلال النهار كله لم تهدأ. حتى اذا استنقعت في عجين التعب، مضت الى الزاوية من الغرفة الجوانية، وأسلمت جسدها للنوم. ونامت بسرعة.

جاء مرة أخرى. أبيض مضيئاً. يمتر آفاق السماء البيضاء. انطلقت اليه. واجهته. «قف» صاحت به. لم يقف. «خذني معك، خذني معك.» وفي الصباح تذكرت أيضاً. وأحست بالقوة نفسها. مرت أيام وكانت منتشية. تنتظره في النهار، ولا تطلب منه شيئاً في الليل. لقد جاء ليكنس الخبائث من نفسها، ويطهر جسدها. ومر حين من الزمن أحست فيه بطعم الراحة. رأت نفسها ممتلئة، والعالم فسيحاً، والفرح موفوراً. ترقبت ساعات النوم كعاشقة عذرية عبأتها زيارة الليل بنور دافىء كحليب الضروع. في الحقل ومع الدواب، عند التنور والبئر وعين الغسيل، مر النهار على عينيها مروراً شاحباً. ويوماً بعد يوم، سافرت فيه كمرتحل يحمل زوادته في قلبه، وعيناها تنشدان صبوة شفيفة كانت حتى الأمس رغبة عكرة مضنية.

قال أبو أحمد، وقد أنصت للرؤيا بخشوع مهيب: «هذا جدك شيخ السنديان، رحمة الله عليه. هو الذي أخبرني بمجيئك. يا عجباً! كيف لعالم مثله، عرف دروب الرب، أن يهتم بأنثى هذا الاهتمام! أنت يا بنتي، مؤكد، أنثى طاهرة. لا أحد يزوره الأولياء ويكون خبيثاً».

جدها شيخ السنديان؟ جاءها السؤال بعد يومين. جدها لا يركب فرساً. قد يكون الخضر، عليه السلام، أو الشيخ علي بن سلمان. ولكن ليس جدها. كل هذا الفرح والسلام والحب منه هو؟

ومن يكون؟ ومن تكون هي حتى يزورها الخضر أو الشيخ علي ابن سلمان؟

من الذين عاشت معهم والى جوارهم قرابة تسعة أعوام، لم تترك أحداً يصلح إلا ووضعت وجهه في الفراغ السماوي. ضحكت أحياناً وقطبت أحياناً. تصورت أبا ضرغام راكباً الحصان السماوي، الذي راح يمشي الهويني لثقل الكرش الملقى عليه. وعثمان حسن الذي وقف الحصان تحته بلا حراك رغم ضربات المهماز، ربما لأن الحصان لم يشأ أن يتحرك وعلى متنه فارس بوزن القشة. والوقاف، الذي تلاشت من حوله الهالة وتحول تحته الحصان الى بغل.

بين الضحك واللهفة، أدركت أن لا وجه استطاع أن يملأ الفراغ السماوي. أصابتها دهشة ممزوجة بالذعر: أما من أحد يصلح؟ كل هؤلاء الناس! كلهم بلا استثناء! ما هذه القرية؟

وحدث تطور لم يكن في الحسبان. كانت أمور كثيرة ما تزال مقلقة رغم الفرح والصفاء. لقد عجزت عن أن تفهم معنى للظهور الليلي. لم تعرف لماذا يظهر في وقت ويختفي في آخر، ملبياً رغبته الشخصية الخفية، لا رغبتها هي. وتساءلت لم هذا التكرر العجيب في الشهور الاخيرة، وكان قد قطعها أعواماً. ولماذا لا يظهر وجهه أبداً؟

وبدا أنه قد سئم ملاحقاتها. اختفى نهائياً. وبعدها بدأ التحول. وبنهاية عام الخطبة وصل الى نهايته الفاجعة. بدأ بنظرة الى جزمة يونس ملحم، المقطعة المرقعة، وقد جاء ذات مساء حاملاً تيناً رجعياً للعائلة. لأمر ما رأت فيها غلظة منفرة، وكانت من قبل صورة كدح أشاعت في قسمات وجهه انسانية محببة. وعندما غادر يونس البيت، حزيناً لأنها لم تقدم له القهوة، كانت هي نهب اقتناع مغير بأنها لن تستطيع العيش معه. لن تستطيع أن تعيش فلاحة طول حياتها.

في الصباح أفاقت بشوق هادىء الى رؤية يونس. نهضت خفيفة. وضعت لعبسي بضعة حبات من الزيتون المرصوص وبصلة ورغيف خبز. ثم انطلق الاثنان الى الحقل، هي تدفع شقيرة وخضيرة أمامها، وهو يحمل النير على كتفه وسكة المحراث بيده الاخرى. قال: «جئت في الوقت المناسب. خلقي طالع من الفلاحة، ولولا صحة أبيك لبقيت نائماً. ما الذي جعلك تجيئين؟» قالت: «لأي شيء لا أجيء؟ أنا فلاحة.» قال: «العبي غير هذه اللعبة. بنت المدرسة تصير فلاحة؟» قالت: «كله راح.» قال: «ليس على كلامك. أنا أراك تقرأين في كتبي.» قالت: «لو أني ما دخلت المدرسة كان أحسن. نصف التعلم مصيبة.» قال: «أراك رائقة بزيادة.» قالت: «هكذا البنت المؤدبة. أنا بنت مؤدبة. قريباً سأتزوج.» ولم تلتفت الى نظرته العابثة الفاحصة مع أنها أحست بها. ورأت أن عليها أن تبتسم، ففعلت.

لم تلق يونس. ربط عبسي البقرتين الى النير، وربط النير بالمحراث. وبعد أن تأكد من ثبات السكة حول لبها الخشبي، لطم البقرتين بالقضيب، وشدت قبضته على مقبض المحراث. وأخذت الارض تتشقق. أما هي فتسلقت التلة، وفيما أخذت تقتلع العشب للبقرتين، جعلت تنتصب وترسل نظرتها الى الحقول.

تقدم ذلك الخريف وأرجحها على يم الرفض والاذعان. وذات مساء اتخذت قرارها النهائي: لن تتزوج يونس ملحم. كانت قد دخلت البيت الكبير لتقدم القهوة لأبيها وعثمان حسن. تطلعت الى الرجلين، واستقرت نظرتها على حجم عثمان الصغير، فراعها الندم السارح في وجهه وانكفاءة التوبة في كتفيه. وسمعته يقول: «تهمته تهمة باطلة، وهو بريء منها. ليسامحني العزيز الكريم، والله أنا أخطأت بحقه. لقينا الليرتين تحت العنبر، وهو يسرقها.» ثم قدمت القهوة بشيء من العبوس الضروري، وعادت متجددة القلق. عثمان حسن! عاش نصف

عمره في الحقل ونصفه في الاسطبل. نال في حياته مئة جلدة من الوقاف. هذه الكآبة كلها، الحزن، بل المرارة، لأنه اتهم رجلاً تهمة باطلة؟ وللتو وضعت وجهه في الفراغ السماوي، لكنه لم يأتلف. لم تتأثر. أدركت أن هذا الرجل المغبون دائماً، الذي لا يساوي في الشير شيئاً، لا يقبل الباطل. خطأ بريء أرهقه بالعذاب. كيف اذا هي تزوجت يونس ملحم، وهي تعلم أن هذا الزواج خطأ فادح؟ خطأ غير بريء؟ ستكون مثل الزانية. ستكون مريم خضير.

كان عليها أن تجد مناسبة للحديث مع أمها. وجاءت المناسبة، وفاتت. جاءت مناسبات، وفاتت. وراعها أن تكون بهذا الجبن. حتى مع أم أحمد؟ وكانت ترتيبات الزواج توشك أن تبدأ. صار كلام، وجرى اتفاق، وتحددت مواعيد. وهي مثل ابن آوى حوصر داخل حريق. رأت النار تقترب، وهي عاجزة تماماً عن أي فعل.

ثم اشتريت الثياب، وخيطت. وكرت الأيام والأقوال كحبال تلتف عليها وتخمد حركتها. كان عبسي متفهماً، بل رائعاً. رغم انشغاله بالحقل والدراسة، لم يتركها. لكن ما أحست به كفكي كماشة سويلم الاسكافي، أخذ يطبق عليها، ويجعل حتى صحبة عبسي ثقيلة قاهرة: كيف ترفض؟ ليس هناك سبب يقبله أبوها. وأبوها هو الذي يملك القول. سينظر اليها كأن بها مساً: ليس للبنت أن تقبل أو أن ترفض. وإذا ما رفضت فلكي تبدو عازفة عن الزواج، شأن البنت الشريفة، لكنها في النهاية تقبل مشورة أبيها، شأن البنت الشريفة.

لن تنسى ذلك الشعور الذي اجتاحها غداة اكتمال عام الخطبة. كانت الغربة والذهول قد أطبقا عليها، وفي بحرانها تلفعت بمنديلها وخرجت من البيت. عام كامل، اثنا عشر شهراً، والدوار يوشك أن يوصلها الى المركز ويبتلعها. وودت لو أن الريح تحملها وترميها عند أحد سليم. على الطريق لم تتضح في ذهنها أية فكرة. حشد من الصور والأفكار والمشاعر تحى الطريق وأشجار التين من واعيتها. وعندما استدركت نفسها كانت قد وصلت الى القبر. التفتت حولها بوهلة انتباه مفاجئة الى العالم، فلم تجد أحداً، انطرحت على بقايا أغصان الريحان اليابسة المشكولة في القبر، وأسلمت نفسها لنحيب قطعته اللطمات والكلمات: لأي شيء لأي شيء؟ وشدت أصابعها على التراب، وانغرزت فيه.

كان الضوء قد التمّ ساعة رفعت رأسها، متعبة من البكاء. تنهدت كما لو صخرة استقرت داخل صدرها. ورفعت رأسها الى السماء. «يا رب خلصني! خلصني يا رب! مرة واحدة بس. وبعدها، لا تلب لي طلباً. يا رب!»

رغم أنها اختنقت بصوتها، وقفت. قاومت البكاء بخوف مبهم. تماسكت وسارت. أراحها قليلاً أنها ستعود قبل حلول الظلام. ثم أحست براحة أكبر لم تفهم لها سبباً. واذ وصلت الى البيت كانت سكينة طينية هامدة قد حلت في نفسها وسدت أبواب الخوف والحزن والضيق واليأس. عند الباب التقاها شداد بتأثر مرتبك. سألها: «أين كنت؟ سمعت بالخبر؟» نظرت اليه منتظرة ولكن بلا تساؤل. قال: «يونس ملحم مات. خبرونا من ساعة. وأبوك راح الى بيتهم».

لم تستطع بادىء الأمر أن تفهم كلام أخيها. سألته بلا انفعال: «ماذا قلت؟» فردد: «يونس مات. خبرونا من ساعة. وأبوك وأمك وعبسي في بيتهم.» نظرت اليه وهي ما تزال بلا انفعال. لم تدر كيف تنفعل. وخمنت أنها يجب أن تبذل مزيداً من الجهد لكي تستوعب معنى الكلمتين الصغيرتين: يونس مات، وما بعدهما. ورأت الى تطليعة شداد الاسيانة المنتظرة. واندفعت من فمها مقاطع مبهمة، ثم قالت: «مات؟» ثم قالت: «متى؟» قال: «من ساعة.» وسقط الادراك عليها كاملاً هائلاً: «من ساعة؟ أو من ساعتين.. ثلاثة؟» وأجاب بتأكد واجم: «لا. أقل من ساعة».

وقفت تنظر الى شداد ببلاهة مطلقة. تسمر بالأرض والهواء وجه أخيها. كلما رف لها جفن فمسح بعض

ذهولها، ارتد اليها الذهول. وبعد لحظات مرت كالدهر، ارتخى عقال لسانها. جمجمت بما لا تعرف ماذا. ثم قالت: «مات!» ثم سألت: «من ساعتين أو ثلاثة؟» كأنها كانت تخاطب نفسها، أو حجاً من الريح اتخذ جسماً وتشكل بملامح شداد.

كان شعوراً غريباً، لكنه امتلكها يوماً كاملاً بكل ثقله وجسامته: هي التي أماتت يونس ملحم. دعت الله أن يخلصها، فأخذ روحه لكي يخلصها. والله يستجيب لمن روحه طاهرة. لقد تمنت موت يونس. أجل. تصورته مرات ميتاً. واندس ابليس في تصوراتها. هي التي أماتته.

عندها فقط انعقدت المقارنة، وفقدت خولة صوابها. أرادت أن تطرد الخبر اليقين بأية وسيلة. تعيده الى فم شداد وتطبق عليه. ترجع الى ما قبل ساعتين أو ثلاث لتتصرف بطريقة أخرى، لتحذف ذلك الدعاء الرهيب وتقبل بأي شيء، أي مصير سوى أن تمضي في طريق النوايا القاتلة، أن تموت هي، وتنتهي، وتندثر.

أحست بالبيت يرمح ويتقلقل في سعته، يهبط جداره الأيمن ليرتفع الأيسر، والأيسر ليرتفع الأيمن، والسقف يموج. والسراج يترنح. مريم خضير. مريم خضير. دست أمنيتها بالخلاص من حسن الغفري سماً في جسد بدر جندار. ومات بدر. وكان موته عقوبة. ومات يونس.. بدر الممزق الاحشاء محمولاً على أيدي المشفقين والشامتين. وجه يونس تغيض منه الابتسامة الحيية الوقحة البريئة. رأت مريم تقترب. تخرج من السجن وتأتي اليها. وجهها يطفح بابتسامة متشفية. تساوينا يا بنت الشيخ عبد الجواد. أنا مثلك فكرت مئة مرة بقتل حسن الغفري. حسن طيب مثل يونس. ورأتها تبكي. ثم تنظر اليها بابتسامة شامتة. ثم تضحك. وتكز على أسنانها. والأسنان ترسم كلمة: قاتلة.

حين دخل شداد اليها بعد قليل، سمعت خفق نعليه وصرخت. هتف يسألها عما بها. أزاحت طرف اللحاف ونظرت اليه: «شداد؟» تساءلت بوهن. وارتبك هو: «ما لك؟ تتطلعين كأنك لا تعرفينني.» «ظننت الدرك مروا من هنا.» «الدرك! لأي شيء يجيئون في الليل؟» صمتت. رمقت السراج بنظرة أخيرة وتهاوت على الفراش. وهجمت عليها الصور. أغمضت عينيها وانتظرت أن تنام. مريم خضير مريم خضير شيء كالماء الساخن يسري على الجبين قبر سليم يغبش في الغسق قال شداد الكتفان يؤلمان السيارة ذات الكوخ التي تقل مريم مقيدة اليدين تمر في ساحة القرية هذا الماء الساخن قال شداد يمكن أقل أبو أحمد هو الذي سيغسل الجثمان وغدا في الصباح قال أبو أحمد البنت اما ان تجلب العار أو تجلب العدو الى باب الدار السراج الخافت أو تجلب الموت بدر بدر جندار أبو أحمد سيغسل الجثمان والعينان المطبقتان أعواد الريحان الماء الساخن والصدر المحقون والجثمان وهي أرادت الحب والحرية ووصلت الى الجريمة.

عاد المعزون أول الليل وقص لهم شداد ما حدث. أنصتوا واجمين. التفت الاب الى ولديه بحزن جهم: «روحوا ناموا، أنتم. واياكم أن تقولوا لأحد أختكم مريضة.» انسحب الاخوان. التفت الى زوجه. ووقف الاثنان على طرفي نظرة خائفة. «ماذا نفعل؟» «الذي تريد.» «اذا ماتت البنت.. يتلوث اسمنا الى أبد الآبدين.» «خولة قوية. لن تموت.» «مات خمسة أخوة لها. لماذا لا تموت هي؟» «إن شاء الله لن تموت.» «أيوب أصابته حمى ومات. يونس أصابته ومات. وهي أصابتها حمى.» «يا أبو أحمد لا تحك هكذا.» «ما كنت أتصور أنها أحبته هكذا. رحمه الله. على كل حال. انتبهي يا أم أحمد، شرفنا الآن مهدد بالعار.» «لن يعرف أحد ان شاء الله.» «أين وضعت القرآن؟» «معلق عند الوجاق.» «عبسي! يا عبسي!» ومشى الى الوجاق.

دخل عبسي. لم يبد عليه أنه أخلد الى النوم: «نعم.» تناول الاب القرآن والتفت: «أشعل بخوراً في فخارة

وهاته.» ومشى. قال عبسي: «لأي شيء البخور؟» توقف: «أنا أقول هات البخور الشاعل. هاته، وبعدئذ اسأل.» ومضى الى خولة. وضع الكتاب وراء رأسها وأخذ يقرأ. وقفت أم أحمد على مبعدة.

عاد عبسي يحمل الفخارة، وتقدم مستنشقاً رائحة البخور المحترق. مد الفخارة الى أبيه. ختم الأب قراءته ونظر الى ابنه: «ستدفع غالياً يا عبسي ثمن استهتارك. لا تقول تفضل لأبيك، ما؟» قال عبسي: «لماذا البخور؟ تريدون أن تخنقوها؟» قال أبو أحمد: «بلغت بـك قلة الأدب، اني أكلمك في موضوع فتكلمني في موضع ثان؟» قال عبسي: «أي موضوع؟ هذا البخور سيخنقها. خولة مريضة بالحمى، ودواؤها الكمادات الباردة.» قال الأب بمرارة: «أنت أشطر من حكمة الرب؟ يا ويلك من الله. يا ويلك من نفسك.» قال عبسي: «طيب، طيب. ضعوا لها البخور، واتركوني أضع الكمادات.»

مضى هزيع من الليل. كانت خولة ما تزال طريحة غيبوبة تبخر أنيناً وأمأمة، وأخوها عند الجدار يضغط على جبينها بقطعة قماش بليلة، وأبوها في الطرف الآخر يقرأ ويشعل مزيداً من البخور.

بعد ثلاثة أيام نهضت. كانت صفراء كالقمح، هزيلة كشجرة زعرور.

وكانت ما تزال أسيرة طوق خامد من الرعب وفضاء خامد من الصمت عندما قال عبسي:

ـ كفاك يا آنسة خولة. لو كنت من النوع الكذاب.. أنا أعرف، أعرف.

نظرت اليه نظرة فارغة. تابعت ضرب قبضتيها في العجين بلا انفعال. وتناولت طاسة الماء، فسكبت بعض ما فيها على العجين.

ـ ما السر الذي في صدرك؟

ـ لن تفهم يا عبسي، لن تفهم.

ـ بلا سخافات. أنت حزينة ومرعوبة، وأنا لا أصدق.

ـ أنا السبب في موت يونس ملحم.

وتوقفت عن العجن. نظرت اليه وهي على وشك البكاء، مرتاعة لأنها تكلمت بهذه البساطة، ومترقبة منه نظرة انصعاق واشمئزاز واحتقار.

ـ قصدك أنه مات عشقاً؟ قيس ليلى.

أصابها يأس. كل عمرها وهي تقول له: غبي؛ وها هو الآن يؤكد صدق كلامها. وعادت تضرب العجين بقبضتيها، منحدرة مرة أخرى الى جدران نفسها الكتيمة.

بعد أن لفت العجين بالمئزر، غسلت يديها بما تبقى من ماء الطاسة ومسحتها بالمريول. نهض عبسي وظل واقفاً. وقفت أمامه:

ـ تريد أن تعرف كل شيء؟

هز رأسه هزتين صغيرتين.

ـ تعال معي الى الحاكورة، نجمع حطباً وأحكي لك.

أمام البيت الخارجي التقيا بشداد. رأت خولة في عيني الفتى رغبة كسيرة واضحة بمرافقتها. اقتربت منه وربتت على كتفه: «نذهب معاً فيا بعد. لن نطيل. سأخبز لك فطيرة اليوم.» وأحست وهي تمشي بحذاء عبسي أن شداد وقف يراقبها كسيف البال. كذلك أحست بالأجساد تخرج من أبواب بيوتها وترسل وراءها نظرات

قارئة. لم تتكلم حتى تجاوزا بيت محمد نعمان. وعندها تنفست الصعداء، وبدأت تنتشر في المكان الأليف الذي صار غريباً بعد أسابيع من الانقطاع.

باديء الأمر وجدت في جمع الحطب مأمناً من مباشرة الحديث. أرادت أن تقول، وكلما همت رأت قطيعاً من الرهبة يهاجمها من كل اتجاه.

ـ وبعدئذ؟ أراك عدلت عن الكلام.

ـ اصبر شوية. حتى لا يلاحظ الناس شيئاً.

بعد قليل هتف عبسي متبرماً: ـ اما أن تحكي، وإما أنا راجع الى البيت.

« في ذلك المساء المشؤوم » المساء الذي لن أنساه مدى حياتي « مشيت الى قبر سليم » بل لم يكن مساء كان غروباً وصلت مع المغيب ونفسي تتغلق « وكان وجه يونس يطبق على ذهني كالصفيح وكنت أفكر بالقدر الذي رماني على طريق يونس ملحم » آه ما أصعب الكلام في مشاعر متوترة بالعذاب وصارت جرحاً لا يطيب« دعوت الله رجوته أن يلبي لي هذا الطلب وبعدها لا يلبي لي شيئاً لم أكرهه لم أكرهه فقط كرهت أن أعيش معه » رجوته أن يريحني ولو بالموت « آه ما أصعب قول الحقيقة » ولكن موتي أنا لا موته هو « أيعقل أن الله رآني راغبة في موت يونس » أبداً لم يخطر لي موته هو « لم تكن أمنيتي أن يموت عبسي يا عبسي، وقت رجعت الى البيت وقال شداد إن.يونس مات عرفت تماماً أني أنا كنت السبب. أنا لم أطلب موته. ولكن كيف يلبي الله طلبي ويريحني بغير الموت؟ اما موتي واما موت يونس. الطرق كلها مسدودة ولا خلاص الا بالموت. لبى الله طلبي فأماته هو. لأن هذا هو السبيل الوحيد. فهمت كيف؟ كأنني حكمت عليه بالموت. أنا السبب » يجب أن يفهم عبسي هذه الناحية يجب أن يفهم أني قاتلة بنواياي قاتلة مثل مريم خضير ولا أعرف كيف أكفر عن...

ـ كلام فارغ.

هل أسلم نفسي الى الدرك أم أفتح قلبي لأبي وأبي أقسى من الدرك والنهاية في كل الأحوال الوصول الى أرذل العمر مثلما وصلت مريم وها هي تعث في السجن.

ـ أقول كلام فارغ! ألا تسمعين؟

ـ كلام فارغ؟

ـ نعم كلام فارغ، يا مجنونة. في حياتك لن تصنعي من نفسك شيئاً له أهمية. كان سيموت شئت أم أبيت. مجنونة. يونس أصابته حمى ومات، مثل أخيك أيوب.

ـ كان سيموت؟ حتى ولو لم أدع عليه؟

ـ طبعاً. مثل أيوب. أم دخل في عقلك أنك مقدسة بنت مقدسين؟

ـ أنت لا تفهم. أنت بعيد عن هذه الأمور لأن عقلك ليس مع الله. لا تفهم سوى الظواهر.

ـ وأنت فلاحة بلهاء. عقلك كله خرافات. لأجل هذا اذن أنت مريضة ومعلولة كل هذه المدة؟

ـ التسبب في موت ابن آدم، خرافات؟ هل ترضى إذا كنت السبب في موت واحد من الناس؟

ـ وبعدها تقول التسبب في موت واحد من الناس! اسمعي. أنت طلبت الخلاص من الزواج، لم تطلبي موت أحد. إذا شاء الله نفسه ان يميته، لماذا تحشرين نفسك أنت؟ هذه مشيئة الله يا بلهاء. هل نحن مسؤولون عن ما

يجري في هذا الكون؟ نحن مسؤولون فقط عن حياتنا، عن هذا الشقاء الذي نرسف فيه، الموت الذي نحياه. إذا لم نقم بثورة ضد الفقر والاستغلال والتبعية، وقتها نكون مجرمين. إذا لم نقم بثورة على هذا الوضع الفاسد المتخلف، وقتها نكون مجرمين. تعرفين؟ أنت يلزمك عشرون سنة لتخلصي عقلك من الخرافات وتصلي الى القرن العشرين.

وقفت بلا حراك تتأمل الفكرة المفاجئة: هي غير مجرمة. هكذا دفعة واحدة.

ـ الذي يسمعك يدوخ.. لكن النوايا تميت يا عبسي. عندما نوى جدك عميت جدتك..

ـ يا عيني على جدك وجدتك. اخلصي من خرافاتك، مزقيها، يا فلاحة يا بلهاء. لن أتركك تقرأي كتبي بعد اليوم.

ـ أنت تثرثر مثل كحلة. يا الله نأخذ حطباتنا ونرجع.

وشقلت حملتها عن الارض وهرعت في طريق العودة. اختطف حمله. هرع وراءها، وحاذاها.

ـ أنت تمسح المشاكل مسحاً. لو في صدرك قبس، مثلما يقول أبوك، كنت عرفت الآن أن الله قال كلمته دون أن ننتبه. انظر إلي الآن. أنا حمالة الحطب.

أمام البيت هتفت باحتدام مكبوت:

ـ اسمع عبسي. أنا نويت موته. فهمت؟ تصورته ميتاً كذا مرة. فهمت؟ وصخرة الشير تضربه في رأسه. أنا كأنني دعوت الله أن يموت يونس. فهمت؟

ـ يا للجريمة النكراء! يا لطيف! عزيزتي، أنا تمنيت موت عدد من الناس مئة مرة. القانون لا يحاكم المشاعر.

ـ إنما الأعمال بالنيات..

ـ وماذا عملت أنت؟ كنت بعيدة ثلاثة كيلومترات عنه. الأعمال بالنيات، نعم. لكن ماذا عملت أنت؟

صمتت وصمت. مشيا حتى البيت الداخلي. عند الباحة الخلفية غمغمت، بعد أن رميا الحطب:

ـ ما أسهل الأمور بالنسبة لك.

ـ طبعاً. عندما أرتكب جريمة، يأتي الدرك ويأخذونني. مثلما أخذوا مريم خضير. الانسان مسؤول أمام القانون، بس. ومسؤول عن أفعاله لا عن نواياه. أنت فرضت عليك خطبة لا تريدينها. هذا انتهاك للحرية. من دون حرية يتشوه الانسان. الحرية هي الدم المتدفق في شرايين الحياة. كل من ينتهك الحرية يجب أن يموت. وأنت طالبت بحق طبيعي. أن تكون لك حرية الحب.

ـ تعال الى البيت الجواني. من أين لك هذه الأفكار؟

ـ أفكار بسيطة وواضحة، مثل عين الشمس. وبعدئذ أنا أحمل شهادة الكفاءة. أنا فهمان ومتعلم.

ـ كفاك منفخة. هذه الأفكار أكبر منك.

ـ أكبر منك أنت. أنت كل شيء أكبر منك. أنا، أقرأ فلسفة وتربية وطنية وكتباً كثيرة. أنت تعشين في الخرافات والخزعبلات.

ـ ماذا تقرأ في الفلسفة والتربية الوطنية؟

ـ أن الانسان أكبر من كل شيء. وأن القانون لازم أن يكون المرجع الوحيد للخلافات، والحقوق والواجبات. من دون القانون لا توجد حضارة، ولا حرية. القانون، لا الأساطير، والعلاقات العائلية أو الشخصية أو الاقليمية. القانون المبني على العدالة والاشتراكية.

جلست على الفراش وتنهدت. ثم استرخت. وظل هو واقفاً.

ـ هنيئاً لك. فكرك مرتاح من المشاكل، وأنت حر..

ـ أنا؟ بالعكس. فكري مزدحم بالمشاكل. مشاكل غير الأوهام التي في رأسك. مشاكل كبيرة وتاريخية.

ـ أنت عشقان؟ ما زلت صغيراً!

ـ يا لطيف ما أسخفك. من يفكر بالعشق في هذه المرحلة الخطيرة؟ لو أنك تحضرين اجتماعاتنا كنت عرفت ماذا يجري في هذا العالم. فلسطين احتلها اليهود، وعملوا فيها دولة. حكامنا الخونة انهزموا في الحرب. تصوري. سبع دول تنهزم أمام عصابات. واليهود يحتلون ثلاثة أرباع فلسطين. وشعبنا غارق في الاوهام والخرافات. اليهود يحتلون قسماً من أرضه، والاقطاعيون والاستعمار ينهبون القسم الباقي. الأجيال الجديدة تهيء الشعب للثورة من أجل الحرية والاشتراكية. وأنت قاعدة تفكرين بحادث موت طبيعي.

نظرت اليه ملياً ثم غمغمت:

ـ يعني أنا ما لي علاقة بموت يونس؟ يعني أنا ضميري حر، وما لي علاقة؟

ـ طبعاً يا خولة. فكري للأمام. فكري بالمستقبل. الدنيا تتغير. الناس تتغير. ونحن سنقضي على الاقطاع والصهيونية والاستعمار. سنوحد البلاد العربية في دولة واحدة، يحكمها العمال والفلاحون..

ـ كل هذا! وأنت ماذا ستفعل؟

ـ سأدخل الجيش وأصير ضابطاً.

ـ ولماذا لم تدخل؟ مثل بديع خضير. أخذت الكفاءة السنة.

ـ إذا دخلت ومعي بكالوريا أصير لواء في المستقبل. بديع لا يصير لواء.

ـ والجيش سيضرب الاستعمار و.. ما الباقي؟

ـ أما قلت لك إنك بلهاء متخلفة؟ والاقطاع والصهيونية. وسنوحد العرب بجيش من العمال والفلاحين، ليس بجيش!

ـ الآن، تلك الايام انتست. العجيب، أن الخطبة التي كانت ستغير مجرى حياتي، انكمشت، انكمشت، ماذا أقول لك؟ يعني كأنها طول هذه السنين لم تكن. مع أنها كانت معركة. الآن بعد كل هذه السنين، بعد كل العذاب والفشل، أقول.. أستغفرك يا ربي، كان من حسن حظي أن يونس ملحم مات. ومن حسن حظي أنه كان لي أخ مثل عبسي، واع، أراحني من عذاب الضمير وأفهمني أنه ما كان له مبرر. لكن الأهم زوال الكابوس. لأنه كان كابوساً فعلاً. لأني يومها كنت بلا شخصية. أخ. كنت بقيت فلاحة. ونسيت القراءة والكتابة. تمر بالانسان لحظات.. تنعد بالاصابع، يتذكر فيها عمراً. كل هذه السنين، عشرون سنة، كانت راحت في الفلاحة، وما صار لحياتي هذا الوسع، والتغير. العمر يمضي، يا أخي، العمر يمضي. لكن أنا ما آسفة على شيء. بالعكس، أنا صرت أفضل. وسأصير أفضل وأفضل. في المرة الاولى أنقذني القدر. هذه المرة أنا أنقذت نفسي. قبل عشرين سنة كنت مثل القالب، مثل ما يريد أبوك، الله يرحمه، والمجتمع. صنعوني على هواهم. وأنا قبلت بكل شيء. البيئة لا ترحم. اما أن تمشي شخصيتك كلها على طريق البيئة واما أن تمشي على الطريق الذي قطعته أنا في عشرين سنة. طريق الاشواك، فعلاً. لكن طريق الشير هو الموت. أبداً. البيئة، اما أن تسحقك أو تمصك مثل قصبة السكر. ولو جاء أبوك يومها بعريس ثان وقال تزوجيه لما عرفت ماذا أقول. بس أبوك، الله يرحمه، صحيح كان لا يطاق في أواخر حياته، لكن أبوك فهم علي. كان يعرف ما يدور في قلب الانسان. انما أنا، في تلك الفترة كنت خائفة وعاجزة. كان تفكيري أن القدر يسيطر على حياتي. شهرين.. ماذا أقول لك؟ هيا الموت بغينه. ما علينا. لا داع لذكر ذلك الشتاء. المهم. ذات يوم، واذا نحن نسمع خبراً هز الشير من أقصاها الى أقصاها. حبرية بنت الشيخ عبد الهادي، شردت مع العريف حمود الاقرع. اي والله. خبر! صاعقة. الشير قامت بأربعتها وما قعدت. أنا ما تفاجأت. كنت أعرف. لكن بعد أن هدأت الضجة في الشير، قامت في عقلي. حبرية تحدت القدر والبيئة والمجتمع، وكل شيء. لماذا أنا أهيم في البرية مثل أرنب خائف من صياد لا يراه؟ وصممت من وقتها أن أتزوج على كيفي، وأترك حياة الشير مهما كلف الأمر. أحياناً أقول لنفسي إني هربت من قدر ووقعت في قدر ثان. انه، كل شيء صار ضدي في زواجي. كانت حياة

مغشوشة. وفيما بعد صارت رخيصة وقاهرة. لا فيها نبل ولا لها أصل. كلها مظاهر وادعاء وكذب. ظاهرها التمدن، وباطنها العذاب والوحشية. لكن هذا القدر غير ذاك القدر. هذا القدر أنا خيطته بيدي ثوباً ولبسته. والآن أنا رميت الثوب.

ـ خولة لا تستطيع ان تقف وحدها. ولهذا السبب طلبت من رئيس الأركان نقلي الى اللاذقية. أنا أعرف خولة أكثر مما تعرفها أنت. خولة عندها رخاوة عاطفية. وأنت عندك هذه الرخاوة. ولكن أنت رجل ويمكنك أن تدبر حالك. هي، الى جانب الرخاوة، امرأة. ضعف الانثى والضعف العاطفي كثيران عليها في هذه الظروف. الآن هي امرأة مطلقة، لا تنس. يعني عزلاء من السلاح في مجتمع لا يرحم. المجتمع ضد المرأة المطلقة، من دون تفكير. هكذا، لله تعالى. وأنا، لا تزعل، لازم أن أكون الى جانبها. أنت ميال دائماً لأن تبرر للانسان أفعاله. ويمكن أن ترى في كثير من تصرفات خولة الغلط تصرفات طبيعية. هذا لا يساعدها للوقوف بوجه ظروفها. أنا أعرفها أكثر منك. تذكر خطبتها ليونس ملحم؟ تعرف أنها شارفت على الهلاك يوم مات، لأنها اعتقدت أنها هي التي قتلته؟ لا أعرف لماذا أتذكر الآن قصة انتهت من عشرين سنة. كانت خولة مثل الأموات. ومع أني جئتها بأسلوب الاستخفاف تجاه أفكارها، هذه الأفكار كانت قوية في عقلها قوة الإيمان: هي التي قتلت يونس ملحم. أتدري ماذا فعلت أنا؟ استمعت الى أفكارها باستخفاف، وزجرتها، وقلت لها إنها سخيفة. كانت مغامرة عقلية. قلت لها كلاماً أنا نفسي ما كنت أحسن التعبير عنه لنفسي. ما كنت أعرف أبعاده تماماً. ولكن قلته. يومها كنا نتلمس طريقنا وسط الضباب. نركض وراء الأفكار لنقارع بها عقلية الشير، وبيئة الشير. كنا ضد العقل الاقطاعي بشكل خاص. والخرافة والسيطرة. العقلية البائدة. أول طليعة تقدمية في البلد منذ قرون. خلال نصف ساعة، أو ساعة بالأكثر، كانت خولة تغيرت تماماً. لا يمكنك أن تتصور. طارت من رأسها الافكار الى الأبد. واندهشت أنا من قوة الأفكار. واندهشت أكثر من أني قلتها. ولا أخبيء عليك، امتلأت فرحاً وغروراً لإيمان خولة بي. فخولة، المهم في الأمر، متقلبة. فكرة واحدة تأخذها، وفكرة تجيء بها. وأفكارك أنت لن تساعدها. لأنك أنت غير واقعي. وأنا أتمنى أن لا تناقش معها تصرفاتها الشخصية، بالذات. مثلما قلت لك، امرأة مطلقة، تكون عيون المجتمع سبعة وأربعة عليها. والذئاب تحاول نهشها، والأرانب حتى، تنال من سمعتها.

أطلت عنيترة من عند تينة رضا المنذورة للفقراء. كان واضحاً، وهي تدكدك في مشيتها، أن المطر قد أرغمها على ترك وقار الشيخوخة. وسرعان ما وصلت الى البيت الكبير فالتجأت الى حائطه، واستعادت وقارها المؤجل. دست يديها في صدريتها، واستأنفت المشي بخفة وحذر.

كانت الحركة الوحيدة في مشهد أسكت أشياءه انهار المطر. الدجاج اختفى، والدوري صمت، وقبع الحمام في أطواقه. لذلك استوقف انسلالها عيني خولة المنتشرتين بين الفضاء وأشجار التين والبيوت الهاجعة.

وصلت الى باب البيت البراني، وفاجأها وقوف خولة على العتبة. «الله يعطيك العافية، يا بنتي.» قالت، وتابعت مشيها. «الله يعافيك. فوتي، فوتي. تلجّأي من المطر.» «أخاف أتأخر، وهولا منتظرة.» «لا عليك. المطر قوي.»

تلك كانت البداية. بعد ساعات عرفت خولة أن عنيترة كانت آتية اليها هي، لا الى هولا. ومنذ ذلك المطر، دخل شكيب الغفري في حياتها، وأقام هناك عشرين عاماً.

كان شكيب فتى لامعاً من فتيان الشير. تعززت سمعته الطيبة في الثامنة عشرة من عمره، يوم وقف ضد تصرفات زوجة خاله الشائنة، وهدد بالقتل. كان التهديد سرياً، محصوراً بآل الغفري. ولكن من الذي يستطيع إخفاء موقف مشرف كهذا؟ يومها توسط له خاله أن يقبل في الجيش، وتخلص من مناوىء خطر. وحين سرت

الشائعات عن علاقته بزوجة خاله، كان قد صار عريفاً وبهر القرية بزيه العسكري المشدود على قامته الضخمة. وظل حتى اعتقال مريم نجماً من نجوم الاعراس، دبّيكاً لا يتعب حتى يتعب شاكر حزيق وفليفل. ثم توطدت مكانته كخليفة لأيوب وبدر، بعد أن جاء بكلبه الشهير وأثبت بما لا يقبل الشك أن مريم دست السم في الدسم وقتلت، لا حسن الغفري الذي كان بغيتها الآثمة، بل بدر جندار الذي لاقى عقوبة مستحقة. ويومها كان يضع على زنده رتبة رقيب.

لم تطلق علامات سيرته البارزة تلك الشرارة في خيال خولة. شباب كثيرون دبكوا في الاعراس وظلوا على طرف مخيلتها. وشباب كثيرون تركوا القرية الى المدينة والجيش، وغابوا، عنها وعن القرية. اختفوا وظلت المدينة في خاطرها. ولولا ذلك الشعور الخاطف بالحب نحو يونس لظنت أن فيها مناعة ضد الحب نفسه. أحياناً رأت في تلك المناعة أمراً طبيعياً، فالبنت لا تحب، كما يقول أبو أحمد. البنت تكون هدفاً للحب، لا الحب هدفاً لها. في أحسن الحالات، الحب جنون، والمرأة بنصف عقل. في الحالات الاخرى، عار ومذلة. كيف يرفع الأب رأسه إذا أحبت ابنته؟ الحب يعني الدم. يعني تلك الاحاديث المقززة التي تلصصت الانصات اليها من أفواه العجائز، والتي صبت دائماً في خليج مريم خضير الدنس.

كانت كلمات عنيترة حصى صوانية سقطت عليها. لم تدر بأية براعة وبراءة تسللت اليها تلك المرأة الشبيهة بالخلد، ووصلت الى حديث عن شكيب جعل عظامها تحمر خجلاً. لم تعرف كيف ترد على العجوز الخرقاء. تضحك أم تغضب. نظرت اليها بامعان، وابتسامة بطيئة تلد من وجهها. أخذها شعور بالرثاء للهيكل المتداعي. هذه المرأة أرغمتها ظروف العيش على فعل قريب جداً من أفعال مريم خضير. ثم هالها أن المرأة البائسة أخذت تكيل له المدائح، وترسمه بالكلمات حتى أوشك أن يصير الفارس الابيض نفسه. هذه الحرباء! رأت في ابتسامتها قبولاً!

عندما مدت لها الرسالة، فوجئت، وكانت خالية الذهن تماماً. تناولت الورقة بحركة لا إرادية. قلبتها بإصبعيها، وهمت بالسؤال عنها، لكن عنيترة كانت قد ابتعدت مهرولة، ووصلت الى بيت هولا. فتحت الورقة بذهول خانق، قرأت نصف سطر المقدمة، وبلمح البصر شدت أصابعها عليها وتلفتت.

بعد حلول المساء جلست عند الاثفية، وأخذت تقلب صفحات كتاب هرم من كتب عبسي. لم تنصرف هذه المرة الى البكاء على العاشق الرقيق الذي اختار بكامل إرادته نهاية فاجعة. لقد لفت انتباهها أن القصة كلها مروية عبر الرسائل. الأشواق والمشاعر والأحداث، كلها تحملها الرسائل. وربما لو أن القصة كتبت بطريقة أخرى لما أنزلت من عينيها كل تلك الدموع. وتصورت شكيب الغفري جالساً في ثكنته الباردة، على الجانب الايسر من طاولته مسدسه الثقيل، وعلى الجانب الايمن يده المنهمكة في كتابة رسالة حارة. وفيما قلبت صفحات معينة من الكتاب، وقرأت مقاطع منه، توالت الرسائل، واحدة بعد الاخرى، وشكيب منكب على طاولته، وهي تضحك. انتبهت ونظرت حولها. كان شداد متمدداً على فراشه وقد ألصق كتابه بأنفه. وكان نخير أمها المتعب يمتد وينقطع. ضحكت. ذلك العاشق الرقيق لم يستطع الوصول الى حبيبته. ولأنه عاشق صادق، واليأس ثقيل، والليل ضخم، وضع المسدس على الرسالة، وأشعل سيجارة. هل يدخن شكيب الغفري؟ لا يدخن؛ ولكن يحسن استعمال المسدس. يقولون إنه رام ماهر، الأول في السرية برمي المسدس والبارودة.

كانت رسالة غريبة. وكلما تعارمت موجة غضب لمجرد إرسالها، انفرطت الموجة الى ضحكة صغيرة هازئة. ما أبعد هذه الكلمات عن كلمات العاشق الرقيق الشاب. وهذه الجمل! كل جملة تبدأ بحرف الفاء! كأن عواطفه كلها أخذت شكل حرف الفاء. وربما، لو لم يوجد الحرف لما وجدت عواطفه، على الأقل لما استطاعت ان تنزل على الورقة.

مزقت الرسالة ورمتها في نار الاثفية. وأوقفت عنيترة أمام عيني خيالها، وأنذرتها أن الويل لها إن هي اقتربت من البيت مرةًا خرى. ونامت وهي ما تزال حانقة هازئة.

مضت أيام وعنيترة لا تجرؤ على الظهور في الحارة. وخلال أسبوعين اطأنت خولة الى نهاية ذلك السخف المضحك. استأنفت سيرة حياتها الاولى. وعاد كل شيء الى نصابه القديم. حتى القبور كفت عن أن تثير فيها وخزة أو حنيناً. وبعد أن عادت ذلك العصر حاملة حطباً للتنور، مرت بخاطرها ذكرى دعائها للخلاص من يونس ملحم بقليل فقط من الوجوم، ثم تلاشت. واستغرقها مد أقراص العجين الى أرغفة تتلقاها أم أحمد وتلصقها في جوف التنور. لم تنتبه الى عنيترة التي وقفت وراءها ويداها مدسوستان في صدريتها، حتى هتفت أم أحمد: «الله يسعد مساك. تعالي كلي خبزاً سخناً». التفتت خولة اليها وزورتها. ثم استأنفت عملها.

وهكذا جاءتها رسالة ثانية. تقدمت عنيترة من الارغفة المتناثرة على مصطبة التنور، أمسكت برغيف، رفعته، ورمت تحته الرسالة، شقت قسماً منه، تأففت من سخونته، لقمت كسرة، وهتفت بعرفان: «يكثر خيرك، يا أم أحمد.»

كانت لحظات رعب لم تعرفها من قبل. في الثواني القليلة التي أعقبت دس الرسالة، همّت أكثر من مرة أن تسحبها وتقذفها بوجه عنيترة. لكن الرعب جمدها. لن يصدقها أحد. سيقولون انها ليست المرة الاولى، والا لما جرؤت العجوز على هذه الفعلة الشنعاء. وستذرو الأفواه القصة في الشير. وسيذبحها ابو أحمد كما يذبح فرخ الحمام. ألم يكن أن حبرية شردت قبل شهرين، وهزت أركان الشير؟

مر الوقت، وازداد وجود الرسالة ترسخاً. صار رفضها مستحيلاً. باتت حقيقة جامدة كالصخر، واستقرت على أعصاب خولة. وفي المساء كان هناك ضيوف، وصنع قهوة، وجلي فناجين. ثم ذهب الضيوف. وتعذر عليها الانشغال بعمل يخفي اضطرابها. ونامت العائلة. وبقيت هي قرب الاثفية.

كانت الرسالة اعتذاراً طويلاً عن الاضطرار لكتابتها، وإشادة سماوية بأخلاق خولة العالية، ورجاء متّضعاً بألا تغضب لأن تلك كانت الوسيلة الوحيدة لنقل الحب الكبير الذي لم يعد يقبل بالاستتار. وحرف الفاء هذا! كل جملة تبدأ به. كان ساموك الرسالة. لا. شكيب الغفري من نوع مختلف تماماً عن العاشق الرقيق الشاب. انه يهجم، وشعوره هادر كالنهر، وتعابيره كالارض الوطيئة، وخطابه محتشم متضع، وحرف الفاء صولجانه.

بعد أول الليل فشلت محاولات الاستخفاف. واحتل ذهنها هول المعنى المشرئب برؤوسه من الرسالة. نهضت ومشت الى فراش عبسي. هزت كتفه بيدها، وهتفت. أفاق شداد. ابتسم وفرك عينه بظاهر يده. ابتسمت هي وتابعت هز عبسي.

عند الاثفية مرت عليها ثوان جامحة. ماذا لو قرر أخوها قتل هذا العسكري الوقح؟ تكون امرأة قد تسببت في هلاك رجلين. وكان عبسي يعبس ويضحك. وبعد أن انتهى من القراءة لم يرفع رأسه. رمى بالرسالة في النار. وبان على وجهه مزيج من السخرية والحنق قبل أن يهمس: «الكلب الحقير! كيف يجرؤ؟» ونظر الى خولة نظرة خاطفة، ثم الى الرسالة المحترقة: «يفكر أنك مثل حبرية. حمود صديقه خطف حبرية، وهو يريد أن يخطفك.» بعد صمت متوتر سألت: «ماذا أفعل؟» «تفعلين؟ لا شيء. أنا سأملص رقبة عنيترة إذا حومت حواليك. وأنت انتبهي، لا تخليها تباغتك. ولا تخلي أبو أحمد يحس بشيء.»

نظرت اليه غير متيقنة أن الحديث انتهى:

ـ عبسي، احلف لي بالله العظيم أنك لن تفعل شيئاً.

ـ شيئاً مثل ماذا؟

ـ شغلة مجنونة.. تتهور.. تؤذي أحداً..

ـ لأجل رسالة! وماذا في الرسالة؟ صرت كاتباً عشرين رسالة، وكلها وصلت..

ـ أنت! أنت تكتب رسائل وتبعثها للبنات؟ مثل شكيب؟

ـ مثل شكيب! فشر. أنا أكتب بلغة راقية وأسلوب. ليس حرف الفاء هذا. فأنت كل حياتي! فأنا لا أرى سواك؛ فالحياة بدونك لا تحتمل.. وبعدئذ، أنا لا أبعثها للبنات، أنا أسلمها يداً بيد.

كالعادة، مرت الأيام. وصارت خولة مثل طائر علق بقضيب الدبق مرة وأفلت، فعرف كيف لا يعلق بعد ذلك قط. حومت عنيترة حولها في كل مناسبة تقريباً. ودائماً كانت يداها مدسوستين في صدريتها. لكن خولة استطاعت أن تبقيها على مبعدة: إما بتسديد نظرة مهدّدة الى عينيها الحرباويتين، أو بلفت انتباه الآخرين اليها، أو الاحتماء بزميلة حضورها يمنع عنيترة من أية محاولة. ووراء الأوجه الوادعة لحياة الشير، احتدمت بين الاثنين معركة صامتة قوامها الكر والفر، يدان مدسوستان في صدرية وعينان شرستان تنذران عينين ذليلتين مصممتين.

في أواخر الشتاء ظفرت عنيترة بخولة. كانت الثانية عائدة مع تميمة من عند جب التسار، وعلى كتفيها جرتان ملئتا ماء. واستغرقت الفتاتان في الحديث، حتى غفلتا عن عنيترة، التي بزغت من وراء المدرسة الابتدائية الهرمة، وقد جمع البرد كتفيها عند عنقها ويديها داخل صدريتها. لمحتها خولة فاضطربت. وقبل أن تتدبر تصرفاً واقياً، أو تنذر تميمة بألا تتكلم معها، كانت العجوز قد حازتها وزقت: «جرتان ماء يا حبيبتي! هاتي واحدة لأحملها عنك.» ومدت يدها نحو الجرة القريبة منها. وصرخت خولة: «ابعدي، خالتي عنيترة. أنا متعودة على حمل الجرتين.» وكانت عنيترة قد رفعت الجرة عن الكتف، واذ لطمتها النبرة المنذرة في صوت خولة أرختها، ووقفت مكسورة الخاطر. راقبت الفتاتين بجمود، وقد عادت يداها الى صدريتها.

لم تصدق خولة أنها نفذت حقاً من مؤامرة عنيترة. وشعشعت فيها حماسة فرح عارم، فوصلت الى البيت في غمضة عين. ودعت رفيقتها بسرعة، ودخلت. نادت أمها، فأتى عبسي. «أنزل عن كتفي جرة، يا أخي.» وفعل. وبدلاً من أن يدخلها في وقبها الجداري التفت، وتابعت عيناه رسالة هوت عن كتف أخته، ترنحت في الهواء، ثم تخطفت حتى لامست الارض.

«عجّل عجّل،» هتفت. وأنزلت الجرة فأدخلتها في الجدار. كذلك فعل هو. وفيما أسرعا الى البيت الجواني، أخذا يتخاطفان الرسالة حتى وصلا الى مكمنهما. فتحا المغلف، وراحا يقرآن.

ـ سامع؟ قال بوده أن ينتحر، قال. إذا لم أرد عليه.

ـ تخلصين منه.

ـ يي يا عبسي!

ـ ماذا؟ أنا أطمئنك أنه لن ينتحر. يقصد تخويفك، وبس. الرجل الشريف المؤمن بموقفه لا يهدد بالانتحار. «فلماذا أعيش وأنت لا تردين علي.. فالحياة بدونك لا تعاش..» فلماذا لا يطلب يدك من أبيك؟

ـ يخاف. يمكن أبوك لا يقبل.

ـ كلام فارغ. أبوك يمدحه دائماً. أنا سمعته عشرين مرة يمدحه.

ـ طيب؛ يخاف أني أنا لا أقبل.

ـ طبعاً. أنت لا تقبلين بواحد مثله.

ـ من قال لك؟

ـ تتزوجين رقيباً في الجيش! يمكن أن تتزوجي ضابطاً.

ـ ضابطاً! وه! لكن شكيب يحبني.

ـ مرحبا يحبني. هذه مراهقة، لا حب. اسأليني أنا.

ـ يعني لن يقتل حاله بالمسدس؟

ـ إذا صار له شيء أنا المسؤول. تفكرين أنه مثل عشاق القصص؟

ـ يعني كل هذه التدبيجات هواء؟ مستحيل. لماذا يتعب نفسه هذا التعب إذا لم يكن يحبني؟

ـ يمكن عنده وقت فراغ بزيادة. شكيب الغفري رجل لا قضية له. لا يهمه أمر الوطن والاشتراكية في شيء. يريد أن يتسلى؛ يقوم يهدد بالانتحار. لو عنده قضية، كان يكتب لك عن المستقبل، عن التحرر، تحرر المرأة، عن الوحدة العربية.. أما التهديد بالانتحار.. هذه شغلة واحد عاطل عن العمل.

بعدئذ جرت الأمور كما يحدث في القصص. أو هكذا قيل. بعد شهر امتلأت الشير بحديث شكيب الغفري. هذا الشاب الذي كله صحة ونشاط، انطلقت من مسدسه رصاصة واخترقت أمعاءه، ووركه الأيسر. كان جالساً الى طاولته، أمامه قلم ودفتر رسائل ومحبرة، وعلى الورقة الاولى كلمة: عزيزتي. ثم لا شيء. بالأحرى، ثم الرصاصة. رفاقه في الثكنة شاهدوه على الارض مسبحاً بدمه، والمسدس بين الكرسي المنقلب والطاولة الهامدة.

هذه المرة لم ترجع ما حدث الى نواياها أو الى القدر. رأته أمراً طبيعياً، مثلما قرأت في القصة. حزنت له وفرحت به. وكان للحزن وللفرح لون واحد: ليس عميقاً الى أية درجة مقلقة. أساساً شعرت أنها لا علاقة لها. وشعرت بشيء من القلق؛ وشيء من الغرور. واذ نفذ شكيب من الخطر، بقي شيء الغرور وصار غبطة. صحيح أنه أعلن أمام هيئة التحقيق أن الرصاصة انطلقت وهو يسحب المسدس من حزامه؛ لكن الحقيقة هي أنه حاول أن ينتحر. تماماً مثل العاشق الرقيق الشاب.

شكيب الغفري! من كان يظن؟ في الشير، حيث لا حادث خارقاً يتجاوز شريدة حبرية مع حمود، ينزل نبأ كالصاعقة: شاب يحاول الانتحار! ولماذا؟ لأنه عاشق. لا أحد ينتحر في الشير. لا أحد ينتحر. رغم الفقر الأبلق والتعب الأبدي. الجميع راض بالحياة. قابل بما تعطيه، ولو كان لا يقاس بما يعطي.

ولكن ماذا تفعل لشكيب الغفري؟ هي لا تحبه. بل انها لا تزال تنفر من أساليبه الملتوية كلما تذكرتها. لا تريد أن تحبه لأنه حاول الانتحار من أجلها. تريد أن يكون حبها اختياراً، يتم بملء الحرية، كما قال عبسي، لا أن يأتيها على كف الظروف.

لذلك انصرفت الى حياتها اليومية بالاهتمام المعهود منها. تسقطت بحيادية دقيقة أخبار شكيب: زوال الخطر عنه، تماثله للشفاء، محاولات أهل الشير الفاشلة لمعرفة «عزيزتي». وقد بات يقيناً لدى الجميع أن الرصاصة لم تنطلق عفو الخاطر. ظلت هادئة تماماً. وكلما تواردت الأخبار عن تحسن صحته، ازداد شعورها بالاستقلال ونقص حسها بالذنب.

غير أن اضطراباً هادئاً صغيراً تسلل اليها عشية مجيء شكيب الى الشير ليمضي شهر نقاهته. لم تهتم. كل شيء منته، وهي لا علاقة لها. وتحدث الناس عن «عزيزتي» فأرعبوها دون أن يخطر لهم أنها السبب البريء لانطلاقة

الرصاصة. وخلال أسبوع غدا شكيب الغفري بطلاً من نوع خاص، بلغ به الحب حدود الموت، والرجولة والشرف حدود الصمت المطلق عن اسم «عزيزتي».

في الاسبوع الثاني أصابته نكسة. كان قد تحرك أكثر مما ينبغي، هو الشاب الممتلىء نشاطاً المفطور على الحركة. واذ بدأ جرحه ينزف أصاب الشير فزع الشعور بمأتم متوقع. هرعت العجائز والأرامل ومعمرو آل الغفري الى الشيخ بهاء. بعضهم حمل الدموع، وبعضهم عرق تين مثلثاً، وآخرون مالاً. ورفض الشيخ بهاء الدموع والمال، ثم انطلق الى البرية مهدداً: من يحاول الاتصال به خلال ثلاثة أيام يكن سبباً في تأخير شفاء العليل. حمل زاده من العرق، وعاج على رضا المجنونة، فشرح لها نوع الأعشاب المطلوبة جمعها، وروي أنه اتفق معها على مواعيد محددة في أماكن محددة. ثم اختفى.

وكانت الأخبار تصل الى خولة. بل إن فضولاً صغيراً دفعها كل يوم الى مرافقة أم أحمد كي تسمع الأخبار من دكان ريما. خمس دقائق أو عشر، ثم تعود بمفردها الى البيت. وعصر اليوم الثالث لاختفاء الشيخ بهاء، وجدت عنيترة قابعة في زاوية الدكان العاتمة. نظرت اليها وأحست أن دركياً جاء يلقي عليها القبض.

في غمرة الحديث، نهضت عنيترة الى الجرة وصبت لنفسها طاسة ماء. وأيقنت خولة أن في الأمر رسالة أخرى. لم تستطع الانسحاب. وجلست عنيترة الى جانبها، مبتسمة محبة. لم تضع وقتاً. التفتت الى خولة وابتسامتها تتسع، وهمست: «أنت من غير صنف البشر؟» هلعت خولة، ثم ابتسمت: «لأي شيء؟» وابتسمت العجوز: «شاب يقتل نفسه لشأنك، وأنت وكأنك لا سمعت ولا دريت. ما فيك حس؟» وذعرت خولة، وابتسمت: «ماذا أفعل؟» وابتسمت العجوز: «اكتبي له كلمتين. قولي له الحمد لله على السلامة. أنت حجر؟»

ـ أنت سرقت قليلاً من كل شيء، وكنت خليطاً غير منسجم. صحيح أن رسائلك استعملت فيما بعد كأداة ابتزاز. لكنك اقتنعت أنه لو لم يكن يحبك لما طاش ذلك الطيش وهدد بنشرها. هو أيضاً كان يبحث عن الحب. وأراد أن يطمئن قبل أن يطلبك من أبيك.. احياناً يتهيأ لي أن مشكلتنا هي أننا نتخذ أنصاف مواقف، أو نضطر لاتخاذ أنصاف مواقف، من أمور لازم أن نجابه كلها أو نترك كلها. مواقف بالتقسيط، كما نحن نشتري كل شيء في هذه الأيام بالتقسيط.. قصدي، كل عناصر الطبيعة تنمو نمواً كاملاً، إلا الإنسان. الإنسان لا ينمو كاملاً أبداً. أنا جربت حتى اقتلاع بعض النباتات لأتفرج على جذورها. رأيت قسماً من هذه الجذور لا بد وأن يبقى في الأرض. لو أن الإنسان ينمو نمواً كاملاً مثل النبات، لا بد وأن يترك شيئاً من جذوره في أرض الحياة. حتى لو اقتلعته يد عابثة، أو يد مستغلة مجرمة، تصير بقايا جذوره سماداً للأرض. الآن، ماذا ترين حولك؟ نصف شعور، نصف حس أخلاقي، نصف مسؤولية، نصف تفاعل مع شروط الحياة. وحده الانسان بين عناصر الطبيعة لا يمد أغصانه وجذوره الى الحد الاقصى. دائماً هذه الأنصاف، وشروط الحياة، تمنعه... أنا كنت أراقب كل شيء. عرفت ما في الرسالة التي أحرقتها في النار أنت وعبسي. كأنكم كنتم تتسلون. والحديث انتهى بموضوع ثان، مختلف تماماً. الحقيقة، تعلمت ذلك العام أول درس عن كيف تفرض شروط الحياة على الانسان حتى عواطفه. توجد قوى في الخارج، أقوى منه. هذا واقع لا مفر منه. أنت أحببت شكيب لهذا السبب تماماً. رأيت أن فرصتك قد جاءت لتتصرّفي بحرية، وتختاري ما تريدين. ويومها لم نكن نحس بهذا الانحراف الكبير نحو المدينة. بعد قصة يونس ملحم، ولما اعترض أبوك على شكيب، كما تقتضي العادات بعد كلمة «عزيزتي»، أصررت أنت على موقفك، وصار اعتراضه رفضاً. لأنه رأى أنك تحبين شكيب. ثم علقت المعركة بينكما. هددك بالقتل، هددته بالشريدة. ولم يستطع عبسي أن يتدخل كثيراً. ربما لكي لا يزيد الطين بلة، بسبب شجاره المستمر مع ابيك، وربما لأنه لم يقتنع بشكيب. ودخلت أنا، وقلت إني سأمنعه حتى عن ضربك. وفوجىء، كأنه يراني لأول مرة في حياته. لم يكن أحد يحسب لي حساباً. وحتى الآن،

لا أحد يحسب لأمثالي حساباً. وأن أتدخل بعد أن أنسحب عبسي المشاكس! هذه كبرت عليه. لكن عبسي كان يجب أن يتدخل. وأنا أيضاً. لأنك يومها كنت تتصرفين بموقف كامل. كنت تحبين شكيب. وشكيب يحبك. ولا ينقص غير الحرية. كانت أياماً جميلة ورائعة. لأنه، ما الانسان؟ أنا قرأت عن مسرحية اسمها (أوديب الملك) أن أوديب، رغم معرفته بقدره الذي ينتظره، انطلق ليتحدى ذلك القدر، ويصنع قدره بنفسه. وأنت فعلت هذا تماماً. طبعاً، اضطررت أن تغيري اتجاه ذلك القدر.. ولكن، لا يهم. صفة الانسان أن يظل يتحدى قدره. لذلك، لا تعطي أذنك لتخويفات عبسي، انك مطلقة، والناس تنهش، وما لا أعرف ماذا. استمري. أنت الآن في حالة فراغ. عاجلاً أو آجلاً ستحتاجين الى ملء هذا الفراغ. إذا ملأت الفراغ الذي حولك، تراكمت الأشياء عليك وخنقتك. وإذا ملأت فراغ قلبك، امتلأت الدنيا حولك رغم فراغها. أنا وزهرة سعيدان. لا نشبع الأكل. ليس عندنا بيت مثل العالم. كله لا يؤثر.

نزل أبو أحمد من السيارة، ونزلت خولة. كان وجهه مغلقاً تماماً، والريح تلطمه. بدا وكأنه لا يرى شيئاً حوله في الساحة التي راحت عينا خولة تلتهمانها. لم يمهلها. قادها الى سوق العنابة، ووقف:

ـ تعرفين السوق. اشتري حوائجك، ولا تنسي الخيطان والإبر. ولا تروحي هنا وهنا. أنا ذاهب الى البطرني، وقبر الولي في الطابيات. نلتقي في السيارة بعد صلاة الظهر. يا الله.

دخلت في السوق المكتظة. بعد خطوات، التفتت الى حيث فارقت أباها. رأته واقفاً ينظر اليها. وقبل أن تستأنف سيرها انتهرها بيده أن امشي. مشت.

تذكرت السوق تماماً. وخلال نصف ساعة اشترت ما تريد. ثم اتجهت الى ماء السبيل، فالزقاق الذي لا اسم له الى اليسار، فالفرن. عند منعطف الفرن أحست أن وجيب قلبها صار خانقاً. توقفت قليلاً ونظرت الى المنازل المتواجهة على الجانبين. تذكرت الأوصاف وراحت تحصي الأبواب الى اليسار. ذاك هو المدخل، ولا بد. المدخل ذو القنطرة، قبل الدرج مباشرة. سارت.

توقفت أيضاً عند المدخل. كان ثمة صبية يلعبون، في الزقاق وفي الزنقة. ألقوا نظرة عابرة على ثيابها الغريبة، وصاح أحدهم: «فلاحة!» وركض في الزقاق. تقدمت من الباب الموارب الى اليمين، تحت الدرج. مدت يدها، لكنها لم توصلها الى الباب. أنصتت. لا صوت. أوصلت يدها الى الباب، ودفعته برفق. جفلت إذ صدر عنه صرير صغير. شهقت متراجعة الى الخلف أمام كلب خرج من الباب على عجل وهرول في الزنقة. تشجعت. فتحته وهي ما تزال في الخارج. تقدمت الى العتبة، ثم دخلت بلا صوت. مشت خطوتين في الداخل ووقفت.

كان المكان مظلماً، تنز منه رطوبة باردة وخليط من روائح البراز والعفن والمرض. ثم صارت العتمة مألوفة. وعلى ضوء فتحة ضيقة في الجدار الخشبي، استطاعت أن ترى الفراش الرقيق المغطى ببطانيتين، وأن تخمن التكور الضئيل الناتىء تحتها. نظرت الى الوجه المجوف المغلق، والمرض يلطمه، والى الفم الذي ما زال جميلاً رغم يباسه، الشعر المتقصف والأنف الحاد، والى العينين المطبقتين اللتين نفر محجراهما.

كتلة مفاجئة من خيبة الأمل جعلتها ترخي يديها وتوصل الصرة الى الأرض. أهذه هي مريم خضير؟ لولا النهوض الوئيد للصدر والهبوط الخافت، لبدت أكثر وفاة من شجرة يابسة. وسرعان ما عصف بذهولها وخيبتها صوت بدا لها هادراً رغم نحوله، انطلق من الجمجمة التي ما زالت تحتفظ بجلدها:

ـ جئت تتفرجين علي، يا بنت الشيخ عبد الجواد؟ جئت تتفرجين كيف صارت مريم خضير؟

كانت المفاجأة تامة، الصوت واضحاً، لكن الوجه كله ظل مطبقاً. وخيل اليها أن «يا بنت الشيخ عبد الجواد» لم تكن سوى شتيمة، سخرية وازدراء. وظلت واقفة بلا حراك. لكن الوجه المطبق اختلج قليلاً،

وانتشرت فيه إنسانية حقيقية إذ انفتحت العينان ونظرتا اليها: كل شيء في تلك المساحة الضيقة من المادة البشرية تغير بعد أن انفتحت العينان. كانت النظرة خابية، لكنها متصلة وتعرف أين استقرت. بلمح البصر انفتح الوجه المغلق واسترد في عيني خولة سحره الغابر. ورجفت إذ بدا لها أن العافية الطارئة التي استردتها مريم قد أخذت منها هي. تساءلت بحنق لم هي جامدة كأرومة شجرة مقتلعة. وفيما عيناها مشتبكتان مع عيني المرأة العليلة في عراك صامت، تذكرت أياماً ماضية لا تحصى كانت مريم فيها شبحاً موفور الصحة يطارد طمأنينتها وضميرها. وها هو الشبح أمامها، بجلده وعظمه، مرمي على الارض كأرومة شجرة مقتلعة، رميم محصور في المكان الأضيق، فزاعة رافعة اليدين أمام جبروت الحياة، مهزومة محمومة. لماذا إذن هذا التخثر الأبله؟

الوجنتان الناتئتان، والبريق المنطفىء المتقد في عينيها بفعل مشاعر لا يدركها إلا الله: أهذا ما حسبته انطفاء نهائياً للأسطورة؟ لقد انهارت، لكنها لم تمت. هذه الأسطورة المنفجرة ـ قد لا تموت أبداً. ربما لأنها استوطنت، ربما لأن لها معنى لا يموت.

ـ ألا تخافين أن يصيبك مرض السل، يا بنت الشيخ عبد الجواد؟

ـ لا. لا أخاف. الله يعطيك العافية.

نهضت مريم بلأي، واتكأت على مرفقها. حدقت الى خولة قبل أن ترد التحية: «الله يعافيك.» وظلت تحدق. لم يبد عليها أنها سترحب بزائرتها الى الجلوس، ولا أن الترحيب نفسه قد خطر لها.

ـ أنا لا يزورني أحد. لماذا جئت أنت؟

تلكأت خولة في الجواب. لم يحن الوقت بعد. وسألت باسمة:

ـ وحسن آغا، ألا يزورك؟

ـ حسن ليس أحداً. لماذا جئت أنت؟

اعتصمت بموقفها السابق. كان مستحيلاً أن تدخل الى غيهب امرأة دفنها العالم قبل أن تموت، وتسألها فوراً السؤال الذي جاءت لأجله. قالت:

ـ أين حسن؟

وللتوّ فهمت أن السؤال لم يكن مناسباً. ارتبكت أمام اتقاد سريع في عيني مريم أضاء وجهها، وشرود أعقبه فأطفأ الوجه.

«حسن»، غمغمت المريضة، وأبعدت عن وجهها ابتسامة سخرية ومرارة. نظرت الى خولة بكره مفاجىء لامرأة ضبطتها في حالة ضعف. وهتفت وهي ترمق النافذة المقضبة: «حسن لا يتحمل منظري، يصعب عليه أن يراني وأنا أكح. لأنه يحبني».

ـ يقولون إنكم ستكسبون الدعوى ضد أخيك شحادة.

ـ حسن مجنون. يصعب عليه أن يشحد لقمة لأجلي. أنا لن تنزل في فمي لقمة من مال شحادة. ولا يصعب عليه أن يأتيني بها من شحادة. يقول إنه سيذله ويشرشحه. ذاك حيوان أبرص. وحسن مجنون؛ يوسخ نفسه بالانتقام من واحد كلب. لماذا الانتقام؟ الانتقام سيذلني أنا. لم يؤثر أحد منهم على كندرتي. وهو يخاف أني إذا لم آكل سأموت..

كان تنفسها قد صار صعباً منذ الجمل الثلاث الأخيرة، التي خرجت مضغوطة ومقلمة. وعند آخر كلمة داهمها السعال.

ظلت خولة بلا حراك، لا تعرف ماذا تفعل. كل سعلة لطمتها كالكف على وجهها. ثم أمسكت السعلات بعضها بتلابيب بعض، واشتدت وتلاحقت، حتى بدا أن هذه هي أنفاس مريم الأخيرة، وأن مريم تمنعها من الخروج لئلا تخرج روحها معها، وأن الأخيرة ستكون النهائية.

ثم رأت نفسها تقترب وتركع صوبها ـ أشارت مريم بكفها أن لا. وعلقت عينا الفتاة بالكف الشبيه بمشط من الأسلاك، والأصابع التي لوحت بالرفض كأنها تلوح بالوداع، أو كأنها أصابع أحد القديسين في مدرسة الكرمليت تلوح بالبركة. جلست على طرف الفراش ومدت ساقيها فوق الارض. وراقبت المرأة المتهزهزة كجزرة في ماء يغلي: كيف أغت، وكيف انتثر الدم على فمها، وكيف اتكأت بيديها على الوسادة ورفعت جسدها الرث، وكيف تهاوى ظهرها على الجدار وضرب رأسها به، وكيف همدت.

ها هي ذي مريم خضير؛ قالت خولة لنفسها. الاسطورة. الشيطان. الرائعة. العاشقة. القاتلة. الزانية. المسلولة. المسكونة. الساحرة. نسمة الأصيل. حديث الليالي. بئر الذنوب. مشجب الآثمين. ابنة الفقر. سيدة العلية. الصفراء كالشمع.

لم تكتمل سلسلة الأوصاف لأن مريم فتحت عينيها. عينان ثقبان امتلآ بالضوء الأسود. أكثر غوراً؛ والوجنتان أبرز؛ والوجه أضمر وأكثر تقعراً. والصدر، الذي كان حبتي فطر كبيرتين، ذاب. الوجه، أبيض بلا دم، أزرق من شدة البرد. الثوب، قطعة كتان لم تغسل منذ عهد بعيد. والصدر بلاطة. الجسم شجرة بامياء يابسة. الفم المرقش ما يزال جميلاً. ضامر وجميل.

حاولت خولة أن تمسح بمنديلها الدم الجامد على الشفتين وحولهما. ومرة أخرى راعها أن مريم تراها وهي مغمضة.

ـ خبئي منديلك يا بنت الشيخ عبد الجواد. وابعدي يا مجنونة. لئلا يصيبك السل. ماذا جاء بك الى هنا؟ وإن يكن الانسان قادراً على الانتقام؟ الانتقام ضعف. أنا أقوى منه. لا أريد خبزه ولا أريد ماله. ماذا جاء بك الى هنا؟ مجنون. هذا ما كرهته فيه. كل واحد يقدر أن يؤذيه. كل واحد، لأنه ضعيف. قلت له لا أريد من شحادة شيئاً. ولو جاء الى هنا لبصقت دمي على وجهه. على كل حال. لماذا جئت الى هنا؟ على كل حال. أنا سأموت قبل أن يدخل خبزه هذا البيت. لأن حسن يعملها. سيكسب الدعوى، أعرف. وسيأخذ مال شحادة ويفرح قلبه لأنه شرشحه. لكني لن آكل لقمة واحدة من ماله. أنا سأموت على كل حال. سأموت بعد شهرين أو ثلاثة. نصف رئتي بصقته. والباقي لا يتحمل أكثر من شهرين ثلاثة. ولو جاء لبصقت النصف الباقي على قلبه. سأموت بشرفي ربلا خبزه. لن آكل خبز أحد منهم. أنا أنتظر ساعتي. ساعة الخلاص. ما عاد لي شيء أعيش به. لا خبز، ولا حرية، ولا شيء..

سعلت. اختفت اللغة، وانهمرت بدلاً منها سلسلة سعلات. كل سعلة أوحت بأنها الأخيرة؛ ولم تكن. وخيّل لخولة أن السعال لن ينتهي أبداً. وإذ ارتفعت يدا مريم لتسدا أذنيها، تبلبلت هي وقد انشدت بلا حراك بين لهفة ساذجة أن تفعل لمريم شيئاً، وخوف مسيطر أن تصيبها العدوى. بلا إرادة ضاقت عيناها لئلا ترى الجسد المهدم يزداد تهدماً. ثم اتحدت اللهفة والخوف في رغبة بالبكاء لحظة زحفت اليدان عن الأذنين الى الوجه، فالأنف، فالشفتين الزرقاوين وانغرزت فيهما الأصابع.

بعدها هدأت مريم. رست كحصاة في قاع النهر. وأخذ صدرها يعلو ويهبط بسرعة، والأنفاس الرتيبة تتحشرج فيه.

للمرة الأولى التفتت الى الغرفة. كان واضحاً أن حسن لم يأتها منذ فترة لا بأس بها. ربما أسبوع. في الطرف الأبعد تحت الدرج، نتنت نفايات مريم. وقريباً منها تناثر بعض العظام. ثم سلة صغيرة فارغة، ومكنسة. والى

جوار الفراش ابريق ماء فخاري وطاسة نحاسية. ثم النافذة الضيقة. ثم مريم الخامدة. مريم التي يعاقبها الله، التي روعت ضمائر أهل الشير ثم صارت عبرة لمن اعتبر. وتساءلت أترى ستتمكن أن تسألها عما في خاطرها.

كانت مريم قد فتحت عينيها ونظرت الى خولة:

ـ أنت في ذهنك شيء. قولي ما سبب مجيئك.

أربكها السؤال. وفاجأها ضعف نبت من كلمات مريم القوية المهاجمة. هذه المسلولة لم تتغير، وها هي تعيدها الى خوفها القديم. شيء محيّر. من أين لهذا الجسد المتداعي هذه القوة الرابية؟ في الصمت يبدو وكأن كلمة واحدة ينطق بها ستجهز عليه، وفي الصمت يبدو كأنه يجد مكاناً للصراخ.

ـ لا أعرف كيف أقول. قصة طويلة. أنا خائفة. خائفة من الحياة.. لا أعرف.. وأنت.. أنت كنت دائماً في خاطري. كلما فكرت في شيء أو رغبت في شيء.. خفت أن يصير لي ما صار لك. عندي فكرة تضحك، عند الناس كلهم.. أنه إذا أعطى الانسان نفسه لرغباته يصير له ما صار لك. وأنا خائفة لأن أهلي لم يقبلوا شكيب الغفري خطيباً لي..

كفت عن الكلام متوقعة من ابتسامة مريم الغامضة أنها ستقول شيئاً.

ـ وأنت ضربت رجلك بالأرض، وقلت بودك شكيب الغفري، ووافق الشيخ عبد الجواد حتى لا تصير فضيحة.

ـ شكيب يحبني. وأنا..

وصمتت مرتبكة. مدت يدها الى الصرة فسوتها، وجلست عليها. ووجدت نفسها تقول:

ـ لا أحد يعرف لماذا مضيت على هذا الطريق. أي شيء جعلك تعيشين تلك الحياة.

ـ أنت بنت مفتحة العينين مغمضة القلب. ضيعان شبابك. لكن لا تزعلي. الناس كلهم هكذا. يحسون بالحياة بعد أن تهرب منهم. الحياة لها صوت. الذي يسمعه يتبعه. مستحيل ألا يتبعه. لكن الذين يضعون أصابعهم في آذانهم، كيف يسمعونه؟ وكيف يعرفون الطريق؟ آخ! أنا مشتاقة للحكي. لا أحد يزورني لأني امرأة ساقطة. وهم شرفاء. يبس لساني في فمي. أحياناً أحكي مع حالي. وبعدها أقول لنفسي: أنت صرت مثل رضا المجنونة. أسكت. أحكي مع حالي بلا كلام. وأحكي مع غيري. أحياناً يقعد في رأسي أربعة، خمسة أشخاص. ونحكي سوية حتى أتعب. وقتها أصير مثل رضا المجنونة. بعدها أنام. في النوم الحكي لا يتعبك مثلما في اليقظة. اللسان لا يتعب من الحكي. نشكر الله. والعقل لا يتعب في النوم من كثرة التفكير.. تحكين ساعات وراء ساعات. أنا أشوف منامات. طويلة، طويلة. ولا أقدر أن أفيق قبل ما تنتهي مناماتي. والمنامات تبدأ ولا تنتهي. أحياناً أنام يومين ولا أفيق. لا أفيق حتى يخلص المنام.

لاحظت خولة شعور الانس الذي فاض من مريم. ها هي مريم ـ قالت لنفسها ـ الرقيقة الوديعة، المستأنسة دائماً بالآخرين. وتشجعت فسألت:

ـ لأي شيء يا ضيعان شبابي؟ قصدك أنه سيصير لي مثلما صار..؟

انبثق من عيني مريم البريق الآكل نفسه الذي عض خولة قبل دقائق. نظرت اليها باشمئزاز وإشفاق، وزمجرت:

ـ لن يصير لك مثلما صار لي أبداً. أنت ستظلين مغمضة القلب. أنا لم يصر لي شيء. أنا وصلت لشيء ما وصل له أحد في الشير. غير أبيك. أبوك بس، وصل لهذا الرضا. كنت كلما رأيته.. كان الشخص الوحيد

الذي خلاني أفكر في حالي وحال الدنيا. كنت أقول بيني وبين نفسي.. أفكر في عينيه الهادئتين، المليئتين بالأسرار!.. يا ترى يا شيخ عبد الجواد، لو مشيت على طريقك، كنت وصلت للذي وصلت اليه؟ أبوك وحده كان يخليني أشك في أمري..

ابتسمت بوهن، وصمتت خوف نوبة السعال. وحضر أبو أحمد ومعه الحارة الشرقية، ومشى في ذهن خولة: الجدار الواقي، الدرع، السنديانة التي قاومت وبقيت قوية. ثم تكلمت مريم بهدوء كلمات كان ممكناً أن تخرج حامية ثائرة:

ـ لا تظني أني ندمانة. لا. هذا المرض لا يهمني. قريباً ان شاء الله سأموت، وأنا راضية. بس.. هذه أمور أنت لا تفهمينها.

أمام الانس المتزايد في نبرتها، أحست خولة بأنس مماثل. ابتسمت كتلميذة شقية كانتها قبل أحد عشر عاماً، وقد خف نفورها الأخلاقي من مريم ومصيرها:

ـ هاتي فهميني. سألتك لماذا مشيت على هذه الطريق.

نظرت مريم اليها بإمعان، وهومت في عينيها ابتسامة:

ـ أي طريق؟ كان هناك طريق غير هذه الطريق؟ الشير ليس فيها طرق. الشير ضيعة طويلة ومسدودة. مثل البرميل. أعرف ماذا تقولين بعقلك. امرأة مخرفة. زوجة آغا. تسكن في علية. عندها خدم وحشم. لا شيء ينقصها. يا بنتي، أنت بعدك صغيرة. شوفي أمي. من يوم ما تزوجت أبي ما غيرت وجه فرشتها. مبسوطة راضية. أربعة وعشرين قيراطاً. إلا من مريم.. لكن لا. أنت لا تفهمين. المسألة غير هذه. حسن وحده الذي فهم. كان عنده شعور مثل شعوري. كان عنده هذا الشعور قبل ما يتزوجني. الانسان يمل. القرآن الكريم نفسه يقول: خلق الانسان ملولا. أنا سمعت أبي وهو يقرأ. غداً تتزوجين وتعرفين. حسن كان مل. أنت لا تعرفين حسن. لا أحد يعرفه. كل إنسان يا خولة، إذا كان إنساناً عن صحيح، يريد شيئاً.. شيئاً لا يتهرأ، يظل مجوهراً. وقتها يشعر أن حياته حياة. أنا وحسن كان بودنا هذا الشيء. أنتم لا تعرفون حسن. هو عرف. العلية، والخدم والحشم؟ هه. لكن عمل غلطة واحدة. هو معذور. أي شيء في الشير يداوي الملل؟ هو عمل غلطة. فكر أن مريم مثل أي امرأة بهيمة. فستان، والا بدلة، من بيروت، ترضيها؛ غرفة على آخر طرز، وما لا أعرف. الفستان والبدلة وغرفة النوم، هذه هي التي طيّرت عقلي. والسفر الى بيروت. حسَن لم يعرف. كان يريد أن يرضيني؛ طيّر عقلي. حسن أحبني، لأنه رآني لا أهترىء. يا عيني عليك يا حسن. يا ترى تلد النساء مثلك في هذا الزمان؟ أحبني، لا لأنه عندي سيقان وصدر وعيون، مثل هؤلاء الهمج. أحبني لأني جميلة.. أنت لا تعرفين. كيف تحبين المنظر الطبيعي؟ هكذا أحبني حسن.

على غير توقع أحست خولة أن الوقت يمضي، وأن السؤال الذي جاءت لأجله لم يحن وقته. تنازعتها ضرورة الإسراع بالعودة ورغبة الانصات الى حديث القلب المعفر، فوجدت نفسها تقطع حديث مريم وتسأل:

ـ ما هذا الملل؟ ملل من أي شيء؟ واحدة تحت يدها كل ما تريد، لا شغلة ولا عملة؛ ولا يعجبها الحال؟

ـ أنت مشغولة بتحقيق آمالك. لهذا الشيء لا تحسين بالملل. الانسان يمل إذا ما كانت عنده آمال يحققها. وإذا كانت عنده آمال ينخدع بتحقيقها الى أن تمضي حياته وهو يلهث، حتى يصل الى عمر يشوف أنه ما تحقق إلا القليل القليل، وأن حياته ما بقي منها إلا القليل، القليل. هذا هو الانسان. وأنت من النوع الثاني. يوم تفتحين عينيك، وتشوفين أنك لا شغلة ولا عملة، وقتها تذكري مريم خضير.

شيء من الضيق تململ في خولة. لم ترغب ان يتحولَ الحديث اليها؛ الى مستقبلها الجميل المؤسس على الحب، بشكل خاص؛ الى تذكر مريم في السنين القاتمة، بشكل أخص. وسألت:

ـ قلت حسن طيّر عقلك. كيف يعني؟

ـ طيّر عقلي بالهدايا. خذي يا حبيبتي. والسفر الى بيروت. خلاني أشعر أنه وراء عالم الشير عالم! واسع! كبير! ما هي الشير؟ أجمل مكان فيها هو المقبرة. وأنا أشفقت على حالي، عمري يضيع وأنا في العلية. وحولي كل هذا الجرب. كل يوم مثل الذي سبقه. الانسان الذي لا شغل له، يطق، يفقع. وأنا لم أكن أرفع عوداً وأضعه على أخيه. صار مللي جنوناً. أحسست هكذا أن الحياة طويلة وقصيرة. ووقت صار الملل جنوناً في رأسي، أحسست أن الحياة قصيرة، وأنها تمضي. ماذا أعمل؟ أنا عندي رغبات، مثل النهر الهادر. مثل الجنون. وهذه الهدايا. والعالم الكبير البراني. رغبات مسحتكم كلكم. لم أعرفها من قبل. ولا عرفت من أين جاءت. أحسست أن الحياة تمشي وأنا واقفة. ماذا أعمل؟ وأنا امرأة جيلة. أنظر الى حالي في المرآة، وأشوف أني جيلة، وآخذ العقل. لكني لم أصر مغرورة مثلك. يا أرض اشتدي ما أحد قدي. لا. رأيت أن الجمال لا قيمة له، ولا حياة له، بلا حب. الجمال خلق للحب. لأنه لم يكن لي شغل. وقلت، الشيء الذي لا يهترىء هو الحب. الجمال يريد الحب. هكذا. ليس مثلكم. أنتم أصحاب الشرف تخرجون من قبور أمهاتكم وتركضون في الحياة على دروب تصل الى القبور المحفورة في التراب. حاملين نعوشكم من رؤوسكم الى سيقانكم. أنا أردت أن أعيش للحب. قلت لحالي، هناك، الناس يحبون حباً جميلاً...

كان وجه خولة سادراً، وذهنها يرد على مريم فكرة بفكرة: لن تطلب أبداً هدايا من شكيب. وإذا أخطأ وجاء لها ذات يوم بهدية فسترفضها مهما كانت النتائج. ولو زعل. ولن تكف لحظة واحدة عن شغل البيت. سيكون مضبوطاً كالساعة لامعاً كالبللور. الملل؟ أبداً. شكيب موجود، اذن الملل غير موجود. ستكرس جمالها كله ـ أهي جميلة؟ ـ لشكيب. كل همزة منه. لشكيب وللشرف. وستجعله يرفع رأسه عالياً. ويعيش سعيداً أبد الدهر. أي حديث تافه، حديث القبور هذا! هذيان. مريم تهذي. نمشي من قبر الى قبر؛ تقول؟ ستكون الحياة سفرة رائعة، وبيتها جنينة وبستاناً.. لكن حديث مريم طغى على انتباهها. ما تزال هذه المرأة المتلاشية تتكلم كأنها على عرش:

ـ وكل الناس تعرف أن الحب زادني جمالاً. ومحل هذا الجمال كان فيهم قبح. لهذا كرهوني، ونهشوني. لكن أنا عريتهم، أكثر مما عروني بكثير، بكثير. أنا أعرفهم. كانوا خائفين من بشاعتهم؛ وبقيت وحدي جيلة. أنا وبدر. آخ! يا بدر. قتلتك. ما نفع الندم الآن. أنا راجعة اليك لتغفر لي. كان حبنا جميلاً وأنا قتلتك..

كانت خولة على وشك البكاء، وصوت مريم يختلج في زحمة الكلمات ويتصاعد نبضه. لكن مريم سبقتها، إذ أطلقت إعوالة مريعة، ونحبت نحبة واحدة، قبل أن يداهمها السعال كنباح كلاب آمنة. ثم أمطر وجهها وحلقها سعالاً سيلياً، وراحا يغرقان فيه. جحظت عينا خولة بالرعب، موقنة أن مريم لن تنهض بعد هذه النوبة أبداً. وخثرها صوت شق تدفق الموت من فم العليلة وحمل الى أذنيها كلمة: «بدر.. بدر..» في البداية كان المشهد أفظع من أن تستوعبه، وبعد لحظات ضاء في ذهنها بوعي مفاجىء أسود: هذا هو الحب؛ قالت لنفسها. وتتابع السعال والكلمة، حتى أحست أنه لولا تلك الذاكرة الحية، والشعور الأكثر حياة، لماتت مريم لتوها. كان سعالاً لا بد وأن تختنق به أية رئة، أو تتمزق، يبتر أي حلق أو يشطر.

لكن مريم لم تمت. هدأت، ثم رست. وبدا لخولة أن التعب من السعال هو الذي أوقف رئتيها عن الخضوع له. ثم راحت مريم تغط، وهوى رأسها على كتفها. كانت أقرب الى الشبح، خالية تقريباً من بشريتها.

تلفتت خولة حولها بتنهدة سريعة قوية. انتبهت الى دموعها فمسحتها بكمها. نهضت وقد زكمت الروائح أنفها فجأة، وعاودها الخوف: ماذا لو أن أبا أحمد يراها في هذا المكان؟ أو يمر في الزوارب ويلتقي بها؟ نهضت الى المكنسة، وراحت تكنس أرض المكان وترمي النفايات في الخارج.

بعد قليل عادت الى صرة الثياب وجلست عليها. على نحو ما أحست أن قلقاً قديماً دمياً قد تلاشى منها: بعد الآن، بعد أن شاهدت مريم على هذه الصورة، لن يمكن لرغباتها أن تجرفها، كما دأب أبو أحمد على التنبؤ لها. ليس فيها غلط. ولا هي من طينة مريم أبداً. مريم مجنونة، أو مختلة، لا روادع فيها. صحيح، أبو أحمد طاغية، لكنه أيضاً درع واقية.

تململت مريم وأمأمت. فتحت عينيها. اعتدلت ونظرت الى خولة وحولها، ليس كمن لا تعرف ماذا ترى، وإنما بوجه شيطاني يصفرّ قلقاً. واتضح لخولة معنى كلماتها أنها ترى منامات. اتضح أن النوم لم يوقف عقلها ثانية واحدة، فقط غيّر مزاجها، نقله من الحزن الى الشراسة. هذه المرات بدأت هي بالكلام:

ـ أنت لا تعرفين، لا تعرفين، لا تعرفين. المثل يقول، إذا أراد الله أن يسعد فلاحاً جعله يضيع حماره ثم يلقاه. أنت هكذا، لكن هكذا أروح لك.

صمتت قليلاً، وبؤبؤاها يدوران بحثاً عن شيء لا يجدانه. عبرا بخولة كأنها شيء. وفجأة صاحت دون أن تنظر اليها:

ـ اسمعي. أنت لا تفهمين، لكن سأحكي لك. تظنين أني قتلت بدر بالغلط. يمكن. بدر مات بالغلط. صحيح. اسمعي. بدر.. لا.. كيف أقول؟ مئة مرة تشخصت بدر ميتاً. كلام مجانين. الدنيا ناس وناس. ناس يصلون من حبهم لدرجة، يتمنون حبيبهم أن يموت. أنا كنت سعيدة مع بدر حتى أني، لدرجة أني من خوفي عليه صرت أتشخصه ميتاً. احترت ماذا أفعل به. هذا هو الغلط الوحيد في حياتي. وقت السعادة التي ما بعدها سعادة، كنت أراه ميتاً. أتشخصه وأموت رعباً، وأتشخصه. مثل التي كانت تتمنى! موته، يا ترى؟ أنا تمنيت موتك يا بدر؟ معقول؟ أنت كنت تميتني بالسعادة. ومئة مرة ضحكت وقلت: موتني يا مريم.

صمتت كمن تتابع الحوار في ذهنها. ثم نظرت الى خولة بلا انتباه، وخاطبتها:

ـ أنا لا أغفل هذه الغفلة. حيّرت بيت الغفري من كبيرهم الى صغيرهم. لم يقدروا أن يمسكوا علي غبرة واحدة.. يومها تشخصت أن بدر يمكن أن يأكل الصحن، لا حسن. هذه لم تفتني. مع هذا، قلت ليمامة! أن تعطيه الصحن. لم آخذه له بيدي. وخطر لي أن يمامة يمكن أن تغلط. يمامة حمارة. ولم آخذ الصحن بيدي. كنت واعية. منتبهة. لكن كنت كأن الشيخ بهاء نوّم عقلي بعينيه. عقلي؟ لا أدري ماذا. كنت متيقنة أن يمامة ستمشي الى الصحن المسموم وتعطيه له. كنت متيقنة. ولم آخذ الصحن بيدي.. السعادة يا بنتي ثقيلة. بالأول، تحسين كأنك طير يطير. بعدئذ، مثل الثلج الطائر، ينزل نتفة نتفة حتى يخنق التراب. لم يخلق الله الانسان ليصل الى نهاية في أي شيء. الانسان، لازم أن يكتفي بالقليل. الكثير يدوخه. خصوصاً إذا كان الذين حوله بائسين يوجعون القلب. قلت لهم في المحكمة. إني أنا قتلت بدر. لا أحد فهم. لو حكموا علي بالموت، كنت وصلت لعندك من زمان، لتغفر لي. هالآن، ستة أشهر. وأنا منتظرة. لكن الموت قريب. قريب، قريب. وأنا رايحة لعندك. لتغفر لي. أي شيء هو الموت في فكرك؟ الناس يخافون الموت لأن رغباتهم لم تتحقق. أنا عشت حتى الموت

كانت تتكلم كأنها جالسة على مصطبة وراء موقع الموت. ورأت خولة أنها باتت مستعدة للحديث عن أي شيء، دون سعال ولا انفعال. وعندها تشجعت وسألت:

ـ طيب، وهالقصص كلها؟ يقولون انه كان هناك كثيرون.

ـ لا أعرف كم واحد. ما كان هناك ولا واحد. دخلت فيهم بسرعة وخرجت منهم بسرعة. هؤلاء ليس فيهم غير السطح. شيء عجيب. كنت أنتقيهم من الحقل، من البيدر، من العرس. تشوفينهم تحسين أنهم شققة

من منظر طبيعي. يعاملون الطبيعة بحب، وحنيّة. معي أنا، كلهم يصيرون حيوانات. مثل عديم وقع بسلة تين. هذا شيء ما فهمته.

- يمكن لأنك بنت نعمة، وهم غير متعودين على النعمة.

- بنت نعمة؟ وماذا؟ أنا من بني آدم مثلهم.

- لا. الفلاح مع الفلاح، من بني آدم. مع الغني، غير شيء. أنا هكذا أحسست تجاه اسماعيل السنديان.

- أنا فلاحة مثلهم.

- كنت فلاحة!

- لا، لا. كنت فلاحة، وبقيت فلاحة. أعرف هذا الشيء من حسن. حسن ما هو فلاح. لهذا السبب لا يحس بطعم شيء، مثلما نحس نحن. مصيبة حسن أنه لا يحس بطعم شيء. مع أنه محتاج لكل شيء. الأغنياء لا يستطعمون حتى العسل. هذه مصيبتهم.

- وأنت كيف تحسين؟

- أنا لما كنت ألامس الجسم، كنت مثل الفلاح لما يلامس الزرع. كنت ماسكة الفرح بيدي. هذه، شوفيها، التي يأكلها المرض، كانت تحس بالحياة في كل شيء. هم كانوا يحسون مثل من سرق تفاحة، أو حنطة. سرقها سرقة. أنا فرحت بالجسم. ما هو الجسم الذي في دماغ أبيك عبد الجواد. لا. الجسم النظيف. الصافي مثل البللور. المشعشع مثل القنديل على باب المزار. القوي مثل السنديان. الحنون المحتاج. بس.. وأأسفاه!

شردت عيناها. كان في ذهن سامعتها خليط متنافر: اشمئزاز حسي من الحديث الصريح، لهفة مخجلة، خوف مما في كلام مريم من صدق مشين، شعور بالضآلة والفراغ، وآخر بالمسافة الآمنة التي تفصلها عن هذا الصدق. لكنها دفعت بكل ذلك جانباً. من هي مريم خضير لتوحي لها أن مشاعرها مرجرجة أو خفيفة؟ ورأت أن ساعة السؤال قد أتت، ورمته مثل سباح أغمض عينيه وارتمى في الماء

- وشكيب؟ كان.. من هؤلاء؟

- شكيب الغفري! أما فشر؟ أنت مجنونة؟ لو كان منهم ما كان وقف ضدي. شكيب الغفري جزء من بدلته لا جزء من الطبيعة.

أحست خولة بشيء ينغرز في لحمها كالسكين. انتفضت في الداخل بعد زمن من التلاشي أمام جبروت المرأة المتلاشية. وتوترت فيها رغبة ملدوغة بأن تكيل لمريم بمثل وقاحتها:

- يكون لأنه قاومك، تحكين عنه هكذا؟

- لا أحد قاومني. كلهم كانوا تحت صرمايتي. وشكيب أولهم. اسماعيل السنديان بس قاومني.

- قاومك! كيف يعني

- اسماعيل واحد ملخبط. ولخبطني. كيف هو الآن؟

- بوده أن يبني مدرسة في ساحة البازار. لكن الأهالي غير متفقين، لأن فيها دفع مال.

- هم!

وشردت عيناها. راقبتها خولة بانتظار: وجهها خال من كل تعبير، سوى نظرة تسمرت على شيء ما مستقر تحت أرض الغرفة بخمسين متراً. بعد قليل خرج صوتها خافتاً ولكن مسموعاً:

ـ هذا هو اسماعيل السنديان. كل شيء فيه عظيم. هيئته. فرسه. مشاريعه. لكن لبه منخور.

وصمتت ثانية. تحركت تحت بشرتها ابتسامة، وغارت. ومرة أخرى تهيأ لخولة انها لن تتكلم.

ـ يومها كنت ضجرت منهم كلهم. كنت أسأل حالي: وأنا ماذا أريد؟ أول مرة خطر لي السؤال مع أمك. كيف أم أحمد؟ حزينة على أولادها الخمسة. وبقي السؤال في رأسي. يوم اسماعيل السنديان، كان السؤال صار مشكلة. شفته. كان على فرسه... خمنت أنه يركب فرسه ويدور في هذه الأراضي، لأنه مثلي يشتهي العالم الوسيع. وهو هكذا. مع أنه ما كان واعياً بتفكيره.. اسماعيل قلق، قلق. لا يعرف ماذا بوده. وبعدها، هو يستكبر. أشياء كثيرة في حياة الانسان، لازم لها الاختراق، كيفما كانت النتيجة. هو، لأ. نفسه كبيرة. لا يشرب من نبع إذا كانت يداه ستتسخان. سنتين، لم يقل فيهما نكتة. لم يتزحزح خطوة واحدة عن أول يوم. لم يفتح قلبه. اسماعيل حجر صوان. يخاف على حاله. يفكر أنه إذا فتح قلبه، سينقص منه شيء. يفكر أن الذين حوله أعداء سينهشون قلبه. اسماعيل ضعيف، وضعفه يظهر في قسوته. متوحش. همجي. لأنه ضعيف. كل قوته بلا حب. كل جبروته بلا حب. فرسه هي قوته. من دونها، طفل فزعان. مدلل. شجاع وقت يكره. وضعيف قدام الكره. دركي. جلاد. صار يخاف مني. أنا فضحته مثل غيره. فضحت عجزه عن الحب. جلاد. لأنه خاف مني كرهني. أصابني في مقتلي. كرهني، جننت. وما عرف أنه كرهني. ارتعبت من كرهه. كل شيء إلا الكره. شيء يحير. واحد يعيش صباحه ومساءه بين الأراضي والبساتين والنهر والجبل. وعلى ظهر فرس. كيف لا يقدر أن يحب؟ كيف يطلع بهذا الجفاف؟ سنتين. صعب الفراق بعد عشرة سنتين. ضربني بالكرباج، لأنه انكشف.

في تلك اللحظة رأت خولة أنها يجب أن تتدخل. تهدج الصوت، احتقان الوجه، تأرجح البؤبؤين، كل ذلك جعلها تتوقع نوبة سعال أخرى بين ثانية وثانية.

ـ مريم، مريم. اسمعي شوية. بودي أسألك.
ـ اسألي يا بنتي يا خولة. اسألي. أنا من زمان ما حكيت. وأنت فتقت جروحاتي.
ـ طيب.. يعني، أنت أي شيء جنيت من الطريق التي مشيت عليها؟
ـ كل شيء. ماذا يريد ابن آدم من حياته؟ أنا شبعت الخبز.. وشبعت الحب. وشبعت الحرية. والناس كلها جائعة. مذلولة.
ـ ولا تندمين على شيء؟
ـ على أي شيء؟ كنت دافئة في عز الشتاء. يمكن أني ما عرفت أتصرف. يمكن أني خالفت وجدان الناس. بس، أنا عشت. والذي لا يعيش مثلي لا يكون عاش.
ـ قصدي، أما كت تخافين الله؟

ـ نعم: كل عمري أخاف الله. ما خاف الله أحد مثلي. كنت أخافه وأحبه. وكنت أتعذب. لكن ماذا أفعل؟ من يقدر أن يرفض الحرية. شيء من جواتي طقّ. أنا طلعت برّاة البرميل. وكلما مشيت خطوة خفت خوفاً ما بعده خوف. وبعده فرحت. لأني بعدت عن البرميل. كان الله موجوداً في كل لحظة. وفي كل شبر. من يا ترى يعرف الله؟ من يخافه؟ أنا خفت منه، بصدق وحب. ولكن، مثلما قلت لك، كلما مشيت خطوة، شفت أني لا أقدر على العودة الى الخلف، وأن الله يعرف حاجتي، وأنا لا أقدر على غير هذا.

عندها تمتمت خولة مرتاعة مشمئزة:

ـ أستغفرك يا رب. كل هذه الذنوب، وبعدها الكفر بدل التوبة.

* * *

(٢)

أنا حلفت يميناً أن لا يقام فرح في بيتي بعد وفاة أيوب. الذي تراه يا عمي أبو أحمد الذي تراه. أمرك مطاع. أنا محتاج لأحد يخبرني عنه؟ فأيوب رحمة الله عليه كان أخاً لا كالأخوة، ونجماً على الشير كلها. أحلى أيام طفولتي قضيتها معه، لذلك فأنا خسرت أخاً نادر المثال. وعيناه تمتلئان بالدموع. وبعدها أنت وعروسك خبئوا فلوسكم/شم من البنت أنفاسها تعرف أن كان أحد بأسها أنت فعلاً بنت باكر ما مسّك أحد ولكن يا حبيبتي مضت خمس ساعات وبيت الغفري منتظرون/فلوسكم للشام بلد غريبة ولا تعرفون أحداً العرس مصروف على الفاضي وفخفخة ما لها لزوم يقول تعالى في كتابه العزيز وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور أنت وعروسك/تريدين أن يقول الناس شكيب عاجز بعد ما أصابته الرصاصة صار بلا حيل/لا بد لا بد وإلا ما معنى الحب أنا لك يا شكيـب لكنـي أموت رعباً قامة بعرض الباب وصارت بعرض الجدار ثم الغرفة وأطبقت أهذا هو الرجل الفرس البيضاء يا للهول هذا الجسد ولماذا كذبت يا مريم لا زرع ولا تراب ولا حنطة قامة بعرض الجدار ولكن لا بد لا بد أنا لك يا شكيب أنا أحبك لكن مهلك شوية سبع ساعات والضوء قرّب يطلع على مهلك شوية ما هكذا كنت أتصور الحالة على مهلك وأصير أحسن شفت أني بالأول كنت حتى لا أنطق بكلمة والآن آخذ وأعطي معك/لا يا حبيبتي لازم أن تقدري ظروفي ماذا تقول الناس خليهم يعرفونا أن شكيب الغفري رجل لازم أن تقدري ظرو/لازم أن تقدري ظروفي أنا رجل لا بيت لي في الشير ولا أقدر أن أفتح بيتاً لمدة شهرين وبعدها نروح الى الشام/بس يا شكيب أنا صار وجهي بالارض أول يوم بعد سفرك جاءت أليفة وقالت شكيب استعار الكرسيين لمدة خمسة أيام وهذا هو اليوم السابع وجاءت امرأة عمك وقالت انك استعرت الطاولة لأربعة أيام وهذا هو اليوم الثامن وبعدها وبعدها الصحون والطناجر والملاعق وبابور الكاز والشراشف واللحاف والسرير وكل شيء وكنت كلما نقص شيء أروح إلى أم أحمد وأطلبه وعبسي وشداد حملوا الفراش واللحاف في غيابات الليل بين الأشجار حتى لا يراهم أحد كنت قل من الأول كنا جئنا بكل شيء من بيت أهلي/ أعوذ بالله تجيئين بكل شيء من بيت أهلك أنا لا أقبل هذا العار أبداً كنت أشتغل زبالاً أو عتالاً ولا تأتين بإبرة من بيت أهلك ولكن كما قلت لك يا حبيبتي الظروف لا تساعد على فتح بيت/ أيوه هكذا يا حبيبتي لا تتحركي خلينا نخلص/ الدم/ هذا السيخ المحمى وعلى جوانبه أربع شفرات من التنور يندفع الوهج والحرارة قامة بعرض الغرفة تطبق/ يطير الجسد مع الورح على الذراعين القويتين ويخفق فستان العرس ندفا بيضاء وضاءه كشهب نهاية الحرب والعروس/ لا يا خولة هكذا صرت مثل الخشب يا حبيبتي ارتخي شوية/ الشفرات تدور كالمغزل وتكز والغرفة تدور/ العروس لازم أن تتجاوب مع عريسها ألا تحبينني/ بلى أحبك يا شكيب لكن الوجع لا أقدر أن أتحمل/ الدم الشفرات الكاوية/ ولكن لا بد/ سكاكين الشيخ بهاء ولا هذه رفسة من حافر شقيرة/ جاءوا بالفرس من أسطبل عبد الرحمن بيك لا تخافي هذه فرس عاقلة الفرس البيضاء الغيمية أيادي عبسي وشداد ترفع وسرج الفرس متين بلحظة وإذا الفستان الأبيض منفرش على جانبي

السرج ويدا سليم مريشد الصغيرتان منشدتان على الخصر/ لا لا هذا مستحيل لا يمكن/ أمام العتبة يدا أم شكيب ممدودتان بقرص العجين أتناوله أرقه قليلاً ألصقه على الباب مباشرة عبسي وشداد ينظران باهتمام واجم يزيدني خوفاً من أن يقع القرص وتكون ساعة شؤم/ قامة بعرض الجدار تتكوم مستندة على يدها وجهه يلتفت الى اليمين ثم الى اليسار بحركة بطيئة قصيرة، وأصابعي مغروزة في طرف اللحاف جامدة على صدري يا لتعاسة العمر يا للشقاء الدم أيضاً الدم الرعب ولكن لا بد شكيب محموم صامت لئلا أزعل أنت ستضعين رأسي في الوحل سبع ساعات لم يبق وقت لا لا تقل هذا الكلام هذا ال يا شكيب/ أنت لا يهمك أن يراني الرجال بعين ناقصة لا لا ولكن ألا توجد طريقة ثانية وضباب الوديان واصل الى الوسادة لا بد لا بد كان لا بد آه والغيوم البيضاء المتناغلة الواحدة تلد من الثانية وشكيب محموم والفرس البيضاء تخترق الغيوم البيض والصرخة البيضاء أما تخرج من الحلق والأصابع تنز انشداداً على قضبان السرير والسكاكين والشفرات أبو احمد يا أبو أحمد ليتك لم توافق آخ هذه الأسياخ أما آن له أن يسيل ألم يسل بعد متى والقامة مثل صخرة الشير تهوي وضباب الوديان ينعقد في الأفق في الأنف في العينين في الأذن في الدماغ أما آن له أن يسيل حشرجة كبكاء طفل منهور من القامة المنطرحة متى وقد سال من شفتي بين أسناني مستحيل هذا لا يمكن ساعة واحدة أمهلني امهلني ساعة واحدة أنا أختنق أمو خلص خلص يا حبيبتي انتهى كل شيء ولسان القامة يلهث.

يا للسخف. كان لا بد طبعاً. مفاجأة لا تخطر على البال. العذاب. والقرف والغربة واليأس. الفظاعة. لكن، كان لا بد. وأم أحمد يا ترى؟ ومريم؟ لن تدخل ابنتي في هذه المفاجأة. سأقول لها كل شيء/ الوجه يتهدل حزناً والعينان حائرتان لم تعرف كيف تقول لي إن الشجرة الكبيرة الجبل العالي نزل في الأرض فارق الشير ووضعوه قرب جده وأنا قاعدة في الشام غريبة بين غريبين. يا أبو أحمد مضى الذي مضى وبقيت عزيزاً على القلب. كانت الشير ناقصة من دونك. مرمية على رأس الجبل كيتيم نام جوعاً. ساعة أخرجت رجلي من السيارة ووضعتها على الأرض احسست أن الاشجار باتت غير شكل والهواء كأنما نقص منه شيء، غاب. والساحة والطريق والمدرسة والبيوت. وأم أحمد يا أم الشقاء والموتى الكثيرين وجه مصفر ناتيء وسط منديل أسود أخفى هيكلك الذي صغر حجمه. المنشفة أين وضعتها؟ مضى الذي مضى. للمرة الأولى أحسست حالي أماً لأم أحمد. كانت خائفة وغير آمنة ومتداعية. وعبسي الذي طالت لحيته و غارت عيناه. قال انه كان يحسب الحسابات لرفض أبي أحمد ذهابه الى الكلية العسكرية. كان قلقاً عصبياً يائساً. أما أن تنحل المشكلة بموت أبي أحمد فهو لم يستطع أن يتحمل. تذكر يونس ملحم والنوايا المجرمة. في وقت مضى تمنى موت أبيه ولم يكترث. ومات الأب وتحققت الأمنية بفظاعة لا تطاق. آه يا عبسي ما أجملك كنت طيباً وعظيماً. وشداد الذاهل الذي بطول أيوب. كيف ستتابع تعلمك يا شداد. وقف قرب أمه دائماً. التقطها قبل أن تقع على الأرض عندما رأتني وشهقت بالبكوة. الدار البيت الكبير فارغ. ينسحب. ريما وكحلة وعنيترة وكلهن جالسات على البساط. كدت أمسك به مددت يدي لأمسك به وهو ينسحب لكنه انسحب عبر يدي. صعب أن ترتسم هذه الدار في العين ولا تكون أنت. لكنك انسحبت. من الجدران والتراب والهواء والباحة. والحمام لا يعرف كيف يعود الى أطواقه. بعد المغيب طار هنا وهناك كأنه فزعان. أين وضعت المنشفة؟ لم يكن يريد أن يبات في البيت. بكت أم أحمد. التفت ورأيتها تبكي وعبسي وشداد يمسكان بها. ثم ركضوا الي وشكيب أولهم أمسكوني صرت بلا ساقين والجدران مشت الي والحمام دوخني. كانت ليلة اشتعل فيها البكاء. كأنه رجع وصار بيننا ممدداً على الأرض في كفنه الأبيض والضباب يغشي عيني مرة من الوادي ومرة من الدموع ويدي تقطع جذوع الريحان وحدي هذه المرة والفلاة وحدها والعصافير وناي ميهوب شريبا يحزن من بعيد عند النهر يا ترى ماذا حل بك الآن أنت ومريم، رأيت عنيترة الحزينة كأنها هي التي مات أبوها رغم معارضتك هي التي أعطتني مفتاح السعادة من غير شكيب وصدره يتحمل بكائي عليك مضى الذي مضى من يومها وشكيب يفتح لي صدره وحنانه لا يعوض عنك لكنه درع أيضاً كل يوم يزداد حباً هذا القبر هو كل ما بقي الحزن عند القبر غير الحزن في البيت الحزن

في الوجوه حزن حي عند التربة يصير شيئاً آخر أستغفرك يا رب لا أعرف ماذا هو كأنه حزن ميت عند التربة يهدأ والطبيعة الصامتة تهز سريره يستلقي في القلب وينام يصير مثلما تكون آسفاً أو نادماً بلا إزعاج أو حرقة بلا وزن مثل تنهيدة خرجت وهدأ الصدر حزن فيه حرية كأن الشيخ عبد الجواد انكمش وتمددت أنا أنسحب كأنه من الطرقات ومني وبقي الحزن يا إلهي أني أضع المنشفة كل مرة أن تفارق إنساناً تحبه يعني الحزن وأن تفارق الشيخ عبد الجواد يعني الحزن والحرية التخفف من أشياء كثيرة اعتدت عليها ولا تحبها واللوعة.

شكيب يغزل في مشيته يقترب بهدوء وحزن مبتسم. كيف تجيئين الى هنا وحدك كنت قولي وأنا أجيء معك. رأسه جامد أما عيناه فتنتقلان بسرعة بيني وبين التربة وشفته الناتئة تصنع نصف دائرة جسمه سمين لكن سمنته كلها حب كلها أمان وحنان ومستقبل وحنكه كبير وقوي وكله عزم عنيترة يا عنيترة فلاحة جاهلة وحققت يا ماكرة مثلما في الكتب كنت تعرفين أن ابن الحكومة قلبه كبير وعاطفته نبيلة يمكن أن يضحي بحياته كرمى للحب غير شيء عن بيت الغفري لم يمض أسبوع إلا وجاء كل واحد أو بعث امرأته لتسترد غرضاً. لكن شكيب ضحك. لم يزعل منهم. ضحك وقال نحن لسنا بحاجة لهم بيتنا في الشام وهناك الشام تظل نصف نهار وأنت تمشي وتضيع إذا لم تتذكر العلامات بلاد في وسطها نهر والسيارة الكبيرة أين سيارة أبي هاشم تقطع جبلاً وسهلاً ووادياً وصحراء والبساتين الكثيفة سبحان الخالق من كل شجر نوع الغوطة ثلاث مرات وكل مرة أنبهر وشكيب يمسكني بيدي ويسحبني من تخم الى تخم وبستان الى بستان والشوارع العريضة المزفتة والدكاكين والسيارات تروح وتجيء ولا تدهس أحداً مثلما فعل رجب العز من سنوات وترك المسكين مسبحاً بدمه. تلك الليلة. الدم. شكيب تضايق لكنه بعدها فرح مثل طفل. الرجال عجيبون يغضبون فيخيفون ويفرحون فيصيرون أطفالاً. أمسك يدي وباسها وشهقت كيف يا شكيب وبكى فرحاً وظننت أني ضايقته فقال لا أنا أبكي من الفرح. الدم. كل هذه الأيام ولم ينقطع. حتى رجعنا من الضيعة لكن شكيب مبسوط. الآن انتهى الكابوس. ثلاثة أشهر. يا عجيب الدهر كم يتغير الإنسان في ثلاثة أشهر.

يقولون أيلول ذنبه مبلول. وهذه المجنونة كلثوم تعبت وهي ترقص تحت المطر. وتصيح:

ـ يا نسوان! يا نسوان! قوموا نطلع عالسوق نشتري خضرة ولحمة.

وصوتها مثل صوت الهاون. مجنونة. لو رآها صبحي لفصفص عظامها.

يقولون هذه الدار كانت قصراً. والبركة وسط الساحة أصغر من عين الغسيل بزمان، لكن شكلها غريب. والنافورة وسط البركة كانت ترش الماء قبل أن تضع الحكومة عدادات ويصير الشرب بالمال. أحياناً يتجرأ أحد الساكنين فيفتح النافورة وتنفر خيوط الماء في الجو ويتسلق الصغار البركة ويلعبون. في النهار الدار شيء وفي الليل شيء آخر. بعد أن يذهب شكيب الى الشغل أعود الى النوم وأفيق قبل الظهر وعندها تكون ساحة الدار مثل معصرة عبد الهادي ناس رائحة هنا وهناك وأولاد يلعبون ويزعقون فلا أحد يزجرهم وهذه تستعجل الثانية لاستعمال الحنفية لأن الدار كلها فيها حنفية ماء واحدة وإذا تعطلت تلخبط الشغل وتعطل الطبخ وجاء الرجال ولا أكل.

الحيطان مثل حيطان الضيعة تبن وطين ولكن فيها خشب وجوّاة البيت ملساء أحسن من الضيعة وفيها رفوف ضيقة وغميقة لترتيب الصحون والثياب. لكن الساحة مبلطة بحجارة سود وزهرية وفيها من ناحية اليسار عمودان من الرخام تنسند عليهما سقيفة. وقبل المغيب تغسل النساء الساحة بينما الرجال داخل البيوت فتلمع وتصير فرجة بنظافتها والأسود والزهري يلمعان عليها وبعدها تفوت النساء الى البيوت وهكذا حتى يلم الضوء وتشعل الكهرباء ويخرج الرجال بالطاولات والكراسي ويلعبون الطاولة أو الورق وشكيب دائماً غالب. ومثل الصلاة والصوم كل يوم يجيء الدور على واحد فيصيح على سمية وإلا زينب وإلا كلثوم أو عزيزة اعملي الشاي

لكن الشاي لا يبدأ حتى يقوم هو ويملأ الابريق من الحنفية ويعود الى باب بيته فتدخل يده مع الابريق وتعود بلا ابريق ويعود الى مائدة اللعب. وبعدها يسمع دقات على باب بيته يقوم يشق الدرفة فتدخل يده وتعود حاملة الصينية وعليها الابريق والكاسات والسكر. طبعاً يمكن أنه يفوت كله الى البيت لكن اللعبة حامية ولا يريد تضييع الوقت. الوقت طويل طويل في الليل. الدالية طالعة من تحت شباك كلثوم ومتمددة على السطح. المدينة كلها تنام أو تهدأ. لكن داخل الدور لا أحد يعرف ماذا يصير. سراج الكهرباء يضيء فوق رؤوسهم. النجوم بعيدة. السماء بعيدة. الشير أبعد. أصوات بعيدة. ذائبة. لا تعرف من أين. لكن الزيزان في الليل أصواتها أقوى على أغصان التين. العواء وصياح الديكة. صرخات رضا القصيرة الحادة. نهرات غريبة لا تفزع.

كل شيء بعيد. ما عدا شكيب. تكون الغرفة ميتة وتأتي فتعود لها الحياة. والابتسامة التعبانة في عينيك المشتاقتين. جالس تأكل وأنا منتظرة حتى تنتهي فأغسل الصحن وتنام. بعدها المشوار. النهر الماشي بين حيطان. حيطان وجسور. حتى يطلع من المدينة وهناك يتركونه على حريته. المدينة حرية. خلاص. لا طين ولا عجين. ولا شقاء من بكرة الصبح حتى العشية. المدينة عالم كبير. يفرح الإنسان إذا ضاع فيه. كل شيء فيه رائع وبلا غربة.

الآن تحققت الأماني. تلك الأيام ولّت. البيت الكبير والتعب والخوف. لها غصة، أكيد. كلما مرّت بالخاطر مرّ الدمع بالعين. لها معزّتها وحلاوتها، رغم كل شيء. ولكن فقط لأنها ولت. بعض أيام الإنسان تكون قاسية، وتمر، فتصير حلوة. إنما من بعيد. كانت أشبه بالأسر. لا حرية لا حركة لا رأي. وكل شيء مقرر سلفاً. كانت معركة بحق وحقيق معك يا أبو أحمد. الآن مضى الذي مضى وصار صوت الإنسان من رأسه. الحب تحقق والحرية تحققت. سعادة كبيرة لا حد لها. لولا هذا الوجع في ساقي. غرفة صغيرة فقيرة ولكن كل ما فيها لنا. لا سلطة ولا سلطان. الدنيا مفتوحة ونحن معاً. نفعل ما نريد. نلعب ونضحك. وأجمل شيء في الدنيا الحب بلا خوف. والإنسان يعيش بكسرة خبز وبصلة إذا كان خاطره مرتاحاً ويحس بالحب في كل خطوة آمناً من غدر الزمان وأيضاً هذه اللهفة العذبة التي تصير قلقاً وتتحرك عندما يتأخر شكيب حتى إذا طلع صوت بوطه العسكري على الدرج نزل القلق من الرأس مثل البخار ونفنف على الصدر ماء منعشاً ونسيماً يفتح القلب ويحملني من الغرفة الى رأس السلم لأرى ابتسامتك المتعبة وأسمع كل نبرة من كلمة مرحباً وأشربها ويدك تحمل السدارة والأخرى تلف على كتفي وظهري مثل العريشة فنصل الى بيتنا واركض كأنني لست على الأرض لأصب طعامك وأتفرج عليك وأنت تأكل.

عزيزتي خولة يا حبيبي يا عبسي دائماً مستعجل أكتب لك على عجل إذ لم يبق عندي طويل وقت يا ربي ماذا حدث آه تحققت الآمال وبدأت مسيرة المستقبل العظيم الحمد لك يا ربي لم يحدث شيء مسيرة المستقبل العظيم هذا هو عبسي وهذه كلماته نعم يا أخي يا حبيبي هذه الكلمات أقولها لنفسي منذ تزوجت لقد امتنعت عن الكتابة الصيف بطوله لكي يأتي الوقت وأزف لك الأخبار الحمد لله الحمد لله وصلت يا أخي الى مبتغاك تعرفين أني نجحت في البكالوريا إذ لا شك سمعت أسمي من الراديو لا والله لم أسمع شيئاً آه لو أن عندنا راديو وبعدها قدمت الوثيقة الى الكلية العسكرية بصمت تام.ودون معرفة أحد يا ملعون يا عبسي دائماً عندك أسرار من يوم ما بدأت تعشق البنات وتحكي في السياسة وكنت تقدمت للفحص الطبي وكان معدل قياس الصدر الى الطول هو الصفر وهذا نموذجي وقبل خمسة أيام جاءني أبو هاشم ببرقية تطلب مني الالتحاق فوراً بالكلية في حمص في حمص أليست قريبة من هنا الآن رتبت كل شيء وحقيبتي جاهزة يا ألله بعد الانتظار الطويل تجهز حقيبتك وتمشي نحو المستقبل العظيم وقد مضت هذه المدة الطويلة طبعاً خمسة أيام مدة طويلة لأن اللهفة تطيل الوقت لأن أمك صارت تبكي وكل يوم تقول لي ابق يوماً آخر والآن رضيت مع أنها ما تزال تبكي يا أمي يا أم أحمد يا ترى سيأتي يوم لا تبكين فيه ونكافئك على شقائك معنا مع أنها ما تزال تبكي وتتكم سخافات من

نوع أنها ستموت يا حبيبتي يا أمي وأنا في الغربة تصوري أكون في حمص وتسميها غربة شداد سيبقى شداد يا أحلى أخ ظلمناك أنا وعبسي وتركناك وحدك بعيداً عنا شداد سيبقى في القرية الآن وهو أيضاً نجح في الكفاءة أخ الحمد لك يا ربي الاثنان نجحا يا أحبابي ولا أعرف ماذا سيفعل للمستقبل ولا أظن أنه هو يعرف دائماً كسول يا شداد وتائه بين الأراضي والبساتين غير أنه لا يريد الاستمرار في الفلاحة والزراعة لكي لا يشتغل لحساب غيره كما يقول وأنا سأرسل لأمي خمس ليرات كل شهر خمس ليرات عيشي يا أم أحمد من كان يتصور أن تجيئك خمس ليرات ويبقى معي سبع ليرات تحياتي القلبية لصهري شكيب وألف ألف سلام لك ولك يا أغلى الناس يا عبسي يا قلبي إن شاء الله أعيش وأشوفك ضابطاً وعلى كتفك نجمة تلمع مثل نجوم ضيعتنا يا حبيبي يا شداد ستبقى في القرية أخيراً تحققت الآمال ووصلت الى بداية مسيرة المستقبل العظيم تحياتي القلبية لصهري شكيب وألف ألف سلام لك.

اليوم تأخر أبو دعاس. يمكن أنه أعطى لحاله إجازة بمناسبة رأس السنة. العادة أشوفه متربعاً على مصطبته ينظر الى شكيب أول ما يخرج من باب الدار حتى يحاذيه فيرد التحية قبل أن ينطقها شكيب يردها باليدين فوق الأذنين وبنهزة ترفعه قليلاً عن وسادته الصغيرة المصنوعة من نتف القماش فيبدو مثل من يرفع جسمه على طرف قدميه مثلما كان يفعل بديع خضير الله يرحمه. بديع خضير. ترى كيف كان ينظر اليها وحولها كل تلك القصص؟ الغرفة اللعينة. الوسخ والروائح والظلام. هي نفسها أنتنت. لو تركوا جثتها هناك.

هذا الشباك نعمة من نعم الله. مؤكد أن الذي عمله كان فاضي البال خالي الأشغال. تقعد الواحدة فيه كأنها قاعدة في سريرها ترتاح تشوف ولا أحد يشوفها. وغطاؤه الغريب البراني ينتفخ الى الخارج مثل بطن امرأة حبلى ومصنوع من أصابع خشب بينها مربعات صغيرة. وربك حميد أن حائط الجيران مقابلنا لا شباك فيه وإلا كان الشباكان يتماسان كما يتماس بطنان. الشباك الثاني ليس مثله لكن هذا يطل على أرض الديار والليوان حيث الجلسة رطبة.

ها أبو عبده. واقف أمام أبو دعاس. لا يرفع عينيه عنه وأبو دعاس ولا كأنه حاسس بوجوده. أبو عبده أحدب لكن قوته في ظهره خفيف مثل الشيخ بهاء تقول كأن ساقيه مسكونتان بالعفاريت يلطم أبو دعاس بيده وتطير به ساقاه حتى ماء السبيل. وإذا أخطأ أبو دعاس وطارده زاغ والتف بقدرة قادر وعاد الى المصطبة فجلس مكان غريمه وأخذ ينادي لله يا محسنين من مال الله الله يعطيكم وأبو دعاس يناوله الركلة بعد الركلة حتى تحضر الجدباء كريمة كأن واحداً بعث لها برقية لتحضر وعندها تقول كلاماً مثل رضا المجنونة وتصيح فيفهمان عليها ويهدآن كل في المكان الذي يكون فيه ساعة حضورها. أف. يا لها عادة. أنسى حالي فتتخشب رجلي وتصير مثل غصن مكسور متدل من شجرة تين ويلزم أن أتحرك من مجلسي ليعود اليها الدم. وجع وفوقه يباس. تتيبس تماماً وعندما تعود اليها الحركة تنقز تنقز ويكاد يغمى علي. هكذا طول النهار إذا لم أنم. تتيبس فأقوم عليها وأنا لا أحس بها فتدب فيها الحركة فأعود وأجلس. حتى تتيبس من جديد.

وهنا سيلعبون أربعة أو خمسة ليس مثل أم أحمد أربعة أو خمسة ويكفي وهنا سيلعبون ويصيحون لابسين الثياب البسيطة الجميلة والأحذية النظيفة بابا ماما في الأحضان على الكتف تحت السرير فوق السرير لا لا هذه الغرفة لا تتسع سيكون بيت فيه غرف نوم واحدة للصبيان وواحدة للبنات وواحدة لشكيب ولي يا عيني عليك يا خولة ولكن أين ينامون وكيف يأتي شكيب بالمال ليشتري لهم بيتاً شكيب يقدر على كل شيء وسيشتري بيتاً كل شهر نوفر خمسين ليرة وبعشر سنين يصير معنا ثمن بيت نحن الآن لا نشبع الخبز لأجل أن يجيئوا وتكتمل حياتنا بهم ومن المدرسة الى البيت لئلا يختلطوا بأولاد الشوارع أو يوسخوا ثيابهم أو يتعلموا من الحارة الكلام السخيف مثل أولاد زينب وعزيزة ويصيرون أطباء ومهندسين وصيادلة وشعراء الطبيب حيان الغفري والمهندسة نزهة الغفري آرمة كبيرة في أحسن شارع تضيء ولكن متى يجيئون حتى عبسي وشداد سألوني.

لا أدري ماذا يحدث له. كل مرة ينتهي ينام. يعلو تنفسه وينزل صعباً. وفمه يرتخي على المخدة. يروح في نوم مسموع. مع أني أنتظر لينتهي فأتحدث معه. لا توقظه حركة ولا جلوسي في السرير. أخاف عليه وكل نهاره تعب ايضاً. قد يصيبه مكروه. لا سمح الله. كلما نظرت اليه انشد جسمي وتصلب. كل مرة يصير جسمي مثل بيضةتنسلق. كأني نمت عشرين ساعة ولكن نومة واحد جوعان. مثل واحد ضربوه مئة عصا وصارت عروق جسمه مشدودة نافرة. ماذا يمكن للإنسان أن يفعل وهو مثل القاعد على نار؟ لا يأتيني نوم ولا أعرف لماذا. هو ينام وأنا أظل قلقة. وهذا الوجع. كنت مرتاحة وأعصابي مرتخية. والآن وجعتني ساقي. متى زرعوا تلك الشجرات عند النهر؟ سبحان الخالق. وهذه الحديقة كيف هي مرتبة ومقصقصة وفيها ممرات والآن في آذار تدور بين الورود والأزهار المبرعمة وتنسى حالك والشجرات الكبيرات تفيء على الحديقة كأم تحمي أطفالها. شكيب مستعجل يريد ولداً. يا الله يا خولة حان الوقت صار قريب السنة الآن. ماذا أفعل الأمر بيد الله لا بيدي. قصدي يمكن لأنك تكونين دائماً منكمشة لا تتجاوبين مثلك مثل صحن الأكل ينهي الواحد الأكل ويبقى الصحن فلا يتحرك. ألا أطبخ لك طبخاً طيباً؟ لا لا ما فهمت قصدي أنا أتكلم عنك أنت كأنك تقدمين لي وجبة. أما هي وجبة طيبة؟ لكن أنت لا تأكلين معي أبداً من الأكل ذاك. في تلك الغرفة النتنة المرأة الساقطة تصيح أنها فرحت بالجسد ولمسته كما يلمس الفلاح الزرع. الجسم داخل الثياب نعم ولكن في غير حالة رعب واشمئزاز والواحدة تدير رأسها الى جهة ثانية وتغمض عينيها. لماذا تبكين يا حبيبتي خولة لماذا تبكين؟ هذه الشغلة كلها لا أحبها مثل سكين تقطع لي لحمي ولكن شكيب لا يفهم. لا يحس حتى بالقرف الذي يسببه الغسيل لكن شكيب لا يلام. هذا حقه هو يراعيني الى أبعد حد ينتهي بسرعة ليريحني فهذا الشيء لا بد منه وهو يعجل ليريحني. لو أنه لا ينام فوراً كنت لا أحس بالحروقة ويكفيني أن أرخي رأسي على زنده بعد أن يلبس البيجامة.

شداد قرد العشّ يـا حبيبي عزيزتي خولة منذ شهر وأنا أفكر بهذه الرسالة ويمكن منذ شهرين كل عمرك كسول وبلا حيل واليوم بعد أن أطعمتني أمك بهدلة من العيار الثقيل حبيب أمه يا حبيبي معتاد على قوارصها ولهذا يبتسم لكل شيء بمحبة أتمدد الآن عند الاثفية وأكتب لك الحقيقة ولست أدافع عن نفسي عند الصباح اليوم الجمعة صممت على أن أكتب لك بعد أن رأيت احزري ماذا بين نبع الجفون وحافة سرحل رأيت زهرتي بخور مريم بخور مريم في هذا الوقت يا لك يا شداد كنت أجمعها قبل المغيب وأضعها على قبر سليم وأيوب وقلت لازم أن أكتب لك بعد أن وصلت بشائر الربيع وأن تصلك الرسالة قبل أن يكتمل عام على زواجك كم أنت حبيب أنا صاحبة الموعد كدت أنسى يا عزيزتي أمك صحتها ليست قوية كالسابق أم أحمد أم أحمد لا تشكو من مرض فلا تقلقي لكنها ضعيفة شوية يا حياتي يا أمي بعد أبو أحمد طبعاً وأنا اتفقت معها على أن أشتغل في اللاذقية وأعود مع المغيب لأنها لم ترض بمفارقة البيت الكبير ولا يمكن أن تتركه وأنا لا أحب أن أشتغل عند أحد في الزراعة لذلك أشتغل الآن عند أحد الخياطين للمحافظة على اسم العائلة وهو يعطيني ليرتين ونصف في اليوم يذهب النصف أجرة للسيارة وأنا هكذا مرتاح كثيراً أشتري كتباً وأقرؤها كنت تتلصص على كتب عبسي وتقرؤها ولكن يجب أن أجمع بسنتين ٣٥٠ ليرة يعني نصف ليرة كل يوم لأدفع بدل الخدمة العسكرية فأنا لا أحب أن أخدم في الجيش تحب أن تدور مثل النحلة من تخم الـى تخم هذه هي أخبارنا أمك تسألني كل دقيقة هل سلمت لي عليها وعلى شكيب هل سألتها يا حياتي يا أمي عن أحوالها وإذا كان بودها شيء ربما أيضاً تسلم عليك وكحلة وكل عجائز الضيعة قاتلك الله يا شداد كل عجائز الضيعة اذن وأنا أيضاً أسلم عليك وعلى عزيزي شكيب وأرجو أن تراسلونا كرمى لأمك على الأقل لا يا حبيبي وكرمى لك أيضاً ولكن أنت لا تحس كم أنت حبيب وغال على القلب يا شداد يا أخي.

لو أن صنع الشاي مطلوب مني يومياً وأسقي شكيب والجيران وأجعله يفرد جناحيه فرحان بكرمه تياهاً.

لكن شكيب قال ضاحكاً ويده تشد رأسي من شعري تريني قاعداً على كنـز أو عنـدي معصرة الشيـخ عبـد الهادي؟ سمية كثيرة الحركة هذا النهار. وهذا الولد يقفز من سطح الى سطح مثل القط يمسك الحمامة ويعود بها الى أبيه الواقف على سطح بيته. والأب يمسح على ظهر الحمامة ويطلقها في الجو فلا تخاف منه. ويده تمتد وراءها حتى النهاية فكأنه يريد مرافقتها في الجو والحمامة تطير فرحانة بهذا الحنان تغيب في الجو وبعد قليل تعود فاردة جناحيها نازلة على مهلها كسيدة ذات شأن وتهبط. الحمامات تهبط على كتف أبي أحمد ورأسه وذراعيه غفيرة تأكل القمح من يديه. مع أحمد سليم وأيوب. من سيعمر لك ضريحاً مثلما عمرت لها ليصير الثلاثة على ارتفاع واحد شواهد للحزن والزمن العسير. أم أحمد والبيوت الفارغة تبكي كلما رف جفنها وتصب حزنها على حزن ربما فترتاحان وتضيقان ذرعاً بكحلة. يا لك يا سمية لماذا كل هذا الضجيج هذا اليوم يوم غير عادي لعل عندها ضيوفاً حماتها أو غيرها. في الأيام الأخرى حركة وأصوات والكل يشتغلن في الطبخ والغسيل وضرب الصغار وطردهم الى الحارة ولكن شيئاً بعد شيء تصير النسوان لا شيء ولا أحد يحس بهن تصير الحركة مثل السكون كأنه في الحقيقة لا يوجد أحد في أرض الديار والأصوات الناغلة لا تعود الاذن تحس بها كما لو كان صمت حتى إذا انقطعت الحركة والأصوات أحس الإنسان كأنه كان جامداً وحرّكه الصمت والسكون وهات يا أفكار وذكريات وكل حجر في الدار تتكلم بدل سمية وحماتها وهذا الحر يشويك مثل رغيف العجين في التنور.

أتذكرك كثيراً أتذكرك صباح مساء لكنك اليوم لم تفارق خيالي الحمامات تعانقك وتحضنك حزيران طباخ المشمش وأنت ذهبت في حزيران كنت خائفاً يوم وافقت وكنت غاضباً وأكثر ما أخافك أني سأعيش في المدينة بعيدة عنك والمدينة تفسد الأخلاق لذلك كنت خائفاً ولكن ليتك الآن حي ترزق لترى التي ربيتها وضربتها ذلك الكف حرصاً على شرفها لا أحد يمس شرفها بكلمة ولا ينفض عنها غبرة حتى تلك البعبع لم تعد بعبعاً الآن تبين كل شيء وهي كانت غلطة في حياة الشير ولن تؤثر على أحد أنت لم ترها أنا رأيتهـا لم ينتظر الله آخرتها صار يعاقبها في الحياة وبقيت أنت صحيحاً وعلى حق بقيت نفسك طاهرة هادئة صافية غرست في الإحساس بالشرف والآن هو إحساسٌ بالحياة لا شيء يرضي الإنسان مثل الإحساس بالشرف يشعر أنه نظيف روحه متشعشعة وخاطره منشرح سوى هذا الانصرار في المعدة كأنها قطعة قماش تعصرها بيدين قويتين أول الأمر تبدأ بوخزات خفيفة ولكن يا إلهي الحالة نفسها في الفترة الأخيرة أف هل أقوم لأجل كسرة خبز وقطرات زيت منذ البارحة في مثل هذا الوقت أين هو الزيت صحيح والخبز سيضطر شكيب أن يذهب الى الفرن منذ الصباح لا عليه لازم أن أنام وإذا لم آكل شيئاً.

هذا الوجع مرة ثانية كأن رجلي ضربت بالعصا حتى شبعت وكيف أرتاح وجسمي كله مثل أسلاك الكهرباء إذا لم أمسك بالفراش وأشد رجلي لا شيء في العالم كله يوقفني عن الهرب أنا لا أتعذب فلأجل شكيب لا يوجد عذاب ولكن ليت هذا الوجع لا يأتي ماذا أفعل لأرتاح كأنني نزلت في قالب شيء مثل الكلابة يشد يشد حتى يقطع النفس شكيب صار معقولاً خفيفاً لا يضيع وقتاً ولا يتعب ولكن لا بد من الوجع لا بد شكيب رجل عظيم ومحب ويستحق كل شيء يقول إنه يريد ولداً سعادتنا لا تكتمل بغير الولد صار سنة وزيادة ولا بشارة راح تموز وغلى الماء في الكوز وجاء آب اللهاب ولا بشارة وهذه الحياة الجديدة صرنا في المدينة لاكنس زبالة ولاحلب شقيرة وخضيرة عالم جديد ولبس على الموضة وكندرة لها كعب عال بدل التاسومة ولا ينقص شيء سوى الولد كل مساء أمد يدي على خاصرته أو صدره وينتظرني حتى أنام ويمسح على شعري والسعادة تنفر مني مثل النافورة وبعدها ينام هو يغفو فأفيق واستمع الى تنفسه وأتفرج على ظهره ولا يجيئني نوم كم تعذبت البطلة وضحت لأجل حبيبها وحبيبها يواجه الصعوبات وكيد الأنذال لكن الحب دائماً ينتصر والحبيبان يقهران الصعوبات والأنذال ويمشيان في حفلة العرس بين أهلها وأصدقائها وتنتهي القصة والموسيقيون يعزفون اتمخطري يا حلوة يا زينة يا وردة من جوّه جنينة.

جلس شكيب على السرير فاتحاً ساقيه وألقى سدارته على الوسادة. أسرعت خولة تحقن وابور الكاز وراء الباب وتنكش فتحته بالنكاشة. أشعلت الكاز وأقعت تنظر الى شكيب. مبتسم لكنه مشغول البال.

ـ خبز جديد. احزري.

ـ ماذا أحزر. قل لي.

ـ لا، احزري.

ـ كحلة ماتت!

ـ ما حزرت. شغلة لا علاقة لها بالموت ولا بالضيعة.

دقت الوابور دقتين، ونهضت. أسرعت الى طرف السرير وتناولت من تحته طنجرة صغيرة.

ـ قل لي لا تقلقني.

ـ يا ستي، قرروا ينقلوني الى سلك الشرطة.

وضعت الطنجرة على الوابور: ـ ماذا يعني؟

ـ لا تعرفين؟ مثل الدرك، بس بالمدينة. الآن، صحيح بين تشرين وتشرين صيف ثان، لكن بعد أيام يأتي المطر وتصير الروحة الى الثكنة صعبة صعبة.

أشعل سيجارة وانتظر رد الفعل. نظرت اليه وقبضتاها تحت ذقنها، كمن تنتظر مزيداً من الشرح. وقال بنبرة:

ـ أما عندنا صحفة قهوة؟ أعطيني شيئاً أنفض فيه السيجارة.

نهضت ووقفت حائرة. رفع عينيه اليها باستغراب. وهتفت:

ـ انفض على الأرض، على الأرض. أنا أكنسها فيما بعد.

وضرب السيجارة بإصبعه:

ـ لم تقولي ما رأيك.

ـ رأيي، وما رأيي؟ الشرطة غير الجيش، يمكن.

ـ كلها بدلة. لكن الشرطة فيها فرص كبيرة. خير الله.

ـ من أين؟

ـ من المخالفات. الواحد يتسبب أحياناً بخمس ليرات.

ـ كيف، يتسبب؟

ـ سائق يخالف. نكتبه ضبطاً بعشر ليرات، أو يراعي خاطرنا.

ـ لا أفهم شيئاً. يراعي خاطركم، كيف؟

ـ إذا خالف قواعد السير يدفع للحكومة غرامة. عشر ليرات، يمكن عشرين.

ـ لماذا يخالف؟

ـ يكون أجدب. واحد طائش مستهتر. مثل رجب العز. إما يدفع غرامة للحكومة، أو يراضينا بليرة ليرتين.

ـ إذا راضاكم لا يدفع للحكومة؟

ـ لا.

ـ ومال الحكومة؟

ـ أنت زعلانة على الحكومة؟ عندها مال لا تأكله النيران.

ـ بس حرام. مال الحكومة لازم أن يظل في جيب الحكومة.
ـ أنا ابن الحكومة.

أعادها الجواب المنطقي الى وعيها فشهقت. التفتت الى الوابور وأطفأته. ونهضت فاحتوتها يدا شكيب وضحكته الصامتة. نفرت من بين يديه بشهقة ثانية وهي تنظر الى النافذة، وابتعدت عن مرمى البصر.

ـ تشهقين لأن البرغل احترق! مئة كيلو يحترق ولا شهقة منك يا روحي.

عن رف خشبي داخل جدار الطين تناولت صحناً، وأخذت تملؤه من برغل الطنجرة. ها هي ذي وهلة أخرى من وهلات السعادة الطافحة. لم تنظر اليه. لكنها أحست بانتصابته الى جانبها تنتشر في المكان كله وتغطي حتى الطنجرة فلا تعود هي تراها جيداً لتصب منها.

ـ لم تقولي رأيك في أن أصير شرطياً.
ـ أنا لا يهمني أي شيء تصير. المهم ربنا سبحانه وتعالى يخليك فوق رأسي.
ـ غداً يصير عندنا أولاد، من أين نصرف عليهم؟ الواحد لازم أن يحسب لبعيد ولقدام.

وح وح الشام لابسة ملاءة بيضاء وهذه الجبال لأول مرة تظهر فيها الحياة بعد أن كانت مثل الجبل الأقرع والبنايات البنايات وأشجار الغوطة سبحان الله لم أحس بنزوله البارحة أوي.

ـ شكيب! شكيب تعال!

توقف شكيب عن ارتقاء المرتفع ونظر اليها. كانت ساقها اليمنى قد غاصت في حفرة أخفاها الثلج. ضحك. طأطأ، وغرفت يده قبضة ثلج رماها بها. تراجعت الى الخلف وارتفعت ساقها. رماها بقبضة ثانية:

ـ تحركي. سبقتنا الناس.

ولكن أين يمكن إلى الأمام حفرة أو إلى اليمين أو اليسار هذه أرض لا أعرفها.
ـ تعال خذني. كيف وصلت عندك؟
ـ أنا أيضاً غطست. وبعدها قمت.
ـ شكيب تعال. الله يخليك.

منذ أن وصل اليها حتى عادا الى الساحة في إبط الجبل ووقفا أمام مدخل الترام، لم تترك ذراعها ذراعه. وهكذا استمتعت بالثلج الساكن على الربوع، والشمس المتوهجة كقرص أجوف وراء ضباب الفضاء.

في الترام جلست هادئة تماماً ومغتبطة. راقبت البيوت المتوارية والناس المتراشقين، فيما الآلة المقلقة الممتعة تخرخر في تجرجرها واندفاعها دون أن تخرج عن خطها المتوازيين.

في الباب ثقوب وشروخ. وبوسع أية عين متلصصة رؤية أشياء عديدة في الغرفة المتطاولة. وللباب متحركاً صرير خفيف كصوت الزيزان. الجديد الوحيد فيه مزلاج لامع عمره سبعة أشهر أو ثمانية، أقوى من أي كتف مقتحم. وراء الباب مباشرة ستارة كتان سميكة: غشاوة مضادة للعيون المتلصصة ورمز للبيت الحديث المجهز بالستائر.

أرض الغرفة خشبية، واقية من الحر والقر، سوى أن الزمن والصراصير مستلقيان في تضاعيفها، والجرذان أحياناً، مرة بحركة ومرة بلا حراك. وللمشي عليها بالقبقاب دوي كدوي المطارق. الى اليمين جدار من الطين والخشب فيه شباكان عربيان متوجان بنصفي دائرة، مطلان على بيوت أربعة جيران ـ أربعة بسبب رفض صاحب الدار زيادتهم الى ثمانية، وهي الطاقة الاستيعابية للدار المكرسة عربياً، المتشرنقة داخل جدرانها داخل

المدينة، المتآكلة طيناً وخشباً. الى اليسار جدار أصم مزدوج الثخونة، سد منيع بوجه وصول الأصوات من غرفة فارغة مرادفة. في الجدار نافذتان مسدودتان مرفقتان. على رفوف الأولى حاجيات الطبخ: طنجرتان صغيرة وكبيرة، ست ملاعق، وستة صحون، ملعقة ضخمة، مقلاتان صغيرة وكبيرة، ستة فناجين للشاي ومثلها للقهوة، ملعقة صغيرة، كيس برغل، كيس ملح، زجاجة زيت، علبة سمن، بصلتان، قطرميز سكر، قطرميز زيتون، قطرميز شنكليش، علبتا كبريت، نصف أوقية من الشاي في ورقة مثناة، أوقية من البن في ورقة مثناة، ابريق شاي، وكأة قهوة.

على رفوف الثانية ثياب خولة وشكيب: فستانان، كندرة، أربعة أثواب داخلية، كنزتان، قميصتان، تنورتان، مشط كبير، مرآة صغيرة، ملقط حواجب؛ وبزة مدنية، بزة عسكرية، سدارة، بوط، بنطلون مدني، حذاء، ثلاثة قمصان، ربطتا عنق مدنيتان وأخرى عسكرية، أربعة أزواج من الجرابات، أربعة أزواج من الثياب الداخلية، منشفة وملحفتان ووجها وسادة وغطاء فراش.

الجدار الرابع مطل على الزاروب. فيه نافذة وصفتها لنا خولة من قبل، جاثمة من الوسط فوق الدرب الضيق الأغبر صيفاً الموحل شتاء، والمنتهي شرقاً بمصلبة أبي دعاس وغرباً بمنعطف شمالي. هي كرسي مريح في لحظات الحاجة أو الحر، ومتكأ أروح لمراقبة العالم الخارجي: بيوت أخرى بمداخلها الضيقة ونوافذها الناتئة، أناس عابرون الى مكان آخر فآخر، أطفال يلعبون ويصرخون، أبو دعاس وأبو عبده وكريمة، وباعة ينادون على الخضار والألبسة المستعملة ومشتقات الحليب.

على أرض الغرفة عدد من الأشياء: وابور الكاز في الزاوية الأمامية اليسرى، والى جانبه نكاشة وكبريتة، مكنسة ومجرفة متمددتان تحت النافذة في الزاوية الأمامية اليمنى، كرسي خيزران مقشش عند قدم السرير، سرير معدني ذو رفاس جديد عليه غلاف رسالة مفضوضة، متمدد بين النافذتين المطلتين على أرض الديار، كرسي خيزران آخر عند رأس السرير، ظهره باتجاه أرض الديار، عليه خولة متمددة مرتخية الساقين، مرتخية اليدين على الركبتين، بيدها اليمنى مغرفة، والمغرفة متدلية بحذاء ساقها اليمنى، شعرها مربوط بقطعة مطاط، شفتاها منفرجتان قليلاً وجامدتان، عيناها ثابتتان ومستقرتان على نار الوابور، مصطلية بها، أو ذائبة فيها، أو مرتدة عنها، لا أحد يعرف.

أهه! يا لطيف اللطف! كل هذا النوم! وصلت الشمس الى رف الشباك وأنا نائمة. كنت كتبت الرسالة لو لم أنم. الآن يأتي شكيب ولا يجد طعاماً. بعد كل تعبه وعذابه سبع ساعات في الحياة الصعبة وأنا أشخر على السرير كأنه يتعب لأجل أن أنام. وإذا زعل مني كيف أقول إني أحبه ومستعدة أن أضحي بحياتي لشأنه. أنت مخبولة كلما ازدادت راحتك ازداد كسلك وشكيب يأتي كل يوم ما هو قادر على رفع حنكه ولسانه مرتخ من التعب. إذا زعل ماذا تساوي الدنيا. هو لا يزعل. الاسبوع الماضي لم أطبخ فأخذني ورحنا الى المطعم ودفع ليرتين بسبب إهمالي. آو. أين هي الفاصولياء يا ترى؟ ستأخذ ساعتين على النار. هاه! هذا هو الكيس. غرفة واسعة يضيع فيها الإنسان. ساعتين وكيفما تحركت يراك إنسان. قال انزلي تحت وتعرفي على النسوان تتسلي كيف تقعدين كل نهارك هنا آو وقلت اني تعرفت عليهن لا يختلفن عن نسوان الضيعة وأنا لا أريد أن أكون مع أحد سواك ولا أفرح إلا بوجودك ودمعت عيناه وما عرف كيف يتكلم فأخذ يدي وراح يبوسها ويمسح فمه وجفونه بها. آه! الوابور! أنت مجنونة مجنونة لا رضا ولا كريمة. أين هي خولة التي كانت تفيق من شقة الضوء وتظل تشتغل حتى يلتئم الضوء.

قال شكيب إن قلبه قد وجعه عليه فوضع على راحة يده فرنكين ولو شفت كيف انعصرت أصابعه عليها وارتفعت قبضته الى فمه فباسها وبعدئذ رفعها أمام جبينه وفمه يرتعش بكلمات الدعاء ويرشها مثل الرشاش مسكين أبو دعاس أية حياة هذه التي يعيشها الناس تروح وتجيء أمامه طول النهار وهو قاعد قاعد ينظر الى كل

واحد منهم منتظر متلهف ويمر ذاك ولا كأنه يراه يا حيف عليك يا أبو دعاس قم ولاق لك شغلاً تشتغله صحتك بألف خير من الله اليوم أكثر من كل يوم نزل عليه المطر مسكين نزل حتى عمله خرقة مبللة وصار يمسح فمه بكمه ويمسح عينيه لا تقدر أن تترك المصلبة وتروح الى بيتك لأنك إذا لم تشحد من أين يأكل أولادك ويمكن اليوم غير الفرنكين من شكيب ما جاءه شيء لماذا لا تلاقي لك شغلاً تشتغله فتعيش بكرامتك وعرق جبينك الانسان الذي لا شغل له يطق يفقع قالت قالت حرام كل هذه الصحة ويقعد طول نهاره ينتظر المحسنين من فرنك الى كسرة خبز الى فرمة جبن وكانت صحتها قوية وجميلة بين الجميلات لكن الشيطان وسوس لها وصارت آفة وجربا بينما أهل الشير كلهم يشتغلون.

هذه العواصف لا وجود لها عندنا عواصف غبار مخيفة في الليل لولا شكيب الى جانبي لارتعبت كأن الريح تأتي مرة من الغرب ومرة من الشرق وصفائح التنك على السطح بسم الله الرحمن الرحيم تقعقع وتقعقع كأن الجن تلعب بها والغبار يئج من شقوق آخ هذا الوجع كلها نسيت وحركت رجلي اخترقها سيخ من طرف الى طرف الحمد لله أن هذا الوجع لا يؤثر بالنسبة لشكيب لكنه زائد اليوم آخ أنا التي لا أعمل شيئاً طول النهار طبخة صغيرة كل يوم وغسلة ثياب كل أسبوع وهذا الوجع قال شكيب قال لي لا تشدي حالك تحركي واسترخي لكن الشغلة صعبة وأنا ما عدت أطيقها ولا أقوى على تحملها ما هذا ما هذا ليس صوت الصفائح أم هو صوت الصفائح كأن الصفائح تحكي مثل بني آدم هذا الليل غير طبيعي فيه أصوات غريبة مثلما رضا المجنونة تتكلم والصفائح تئن وتطن مثل سعلات مريم في الغرفة الرهيبة ما هذا في حياتي لم أسمع هذه الأصوات الريح تئج والغبار يهب من شقوق الباب يمكن الآن أن تزرب حية سوداء طويلة من السقف من بين الخشب وتتدلى على مهلها فوق رأسي ياي ياي هكذا أفضل اه اه إذا نزلت يضرب رأسها باللحاف ولا تصلني عضتها آ ه آه في الليل العاصف تخرج الحيات من سقوف البيوت وفي الحر الشديد هذه الأصوات يا ربي غير أصوات الصفائح خشنة ومتقطعة شكيب لا يشخر ولا تطلع منه أصوات في النوم كأنها كريمة المجدوبة لم تنزل الحية الشبابيك تتكتك الباب يخفق يا للمهزلة لازم أن أخرج رأسي وإلا اختنقت كل هذا الخوف غير معقول ولكن هذه كريمة هذه كريمة فعلاً تقلد العاصفة أو أن العاصفة تحرك شياطينها والشياطين تلعب وتصرخ من البداية شفت الصوت غير طبيعي أيكون تحت شباكنا الله لا اله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما في السماوات وما في الأرض من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه يا ربي ما هي التتمة الآن يصل أحدهم وها هي تضحك وتصرخ بالضحك وإذا كان له قرون وذيل من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه و إذنه وإذا ناديت يمكن أن أفتح فمي ويدخل فمي وأبدأ بالصراخ مثلها شكيب شكيب شكيب.

ـ ماذا، ما لك يا حبيبتي؟

ـ قم، قم اقعد.

ـ أي شيء صار؟

ـ رضا.. كريمة المجنونة تصرخ تحت الشباك.

ـ أهذا الذي أخافك؟ لماذا لم تنامي؟

ـ كيف أنام والجن تصرخ في الزقاق؟ قم اطردها. ما هي تتمة آية الكرسي؟

ـ إني ذاهب الى الشباك.

ـ لا تنظر من الشباك، يمكن أن تلطمك الجن. الزقاق مسكون، ولو لم أقرأ لدخلوا البيت.

ـ لا جن ولا من يجنون. لا أحد في الزقاق. الأصوات من صفائح التنك على السطح.

ـ مستحيل. أنا سمعت صوتها.

ـ أقول لك لا أحد في الزقاق. كريمة مجدوبة، صحيح، لكن لها جسم ويتأثر بالبرد. لا تجيء في هذه الليلة. تعالي شوفي.

ـ أعوذ بالله من شر الشيطان الرجيم. هذه الليلة غير طبيعية.
ـ تعالى شوفي يا مجنونة. لا أحد في الزقاق. تعالي ليروح خوفك.

بعد سنوات، في لحظات الصفاء والدعابة، قالت خولة إن عامين كاملين يمضيان فلا يتشاجر عروسان رقم قياسي في حياة المتزوجين. كان نيف وعامان، سبعمئة وسبعون يوماً، قد انصرم عندما تشاجرت وشكيب للمرة الأولى. لكنه كان شجاراً مهلكاً!

أثناء مهرجان الأزهار الذي يقيمه الربيع كل عام في الغوطتين، قال شكيب:

ـ أنتظرك عند الشجرة الكبيرة في أول حديقة الجلاء. اسألي عن الساعة. الثانية والربع تمشين من هنا. تجدينني عند أول نخلة. من هناك نأخذ سيارة الى الربوة ونتغدى لحمة مشوية. يا الله، بخاطرك.

عند الثانية والربع، بعد أن سألت كلثوم عشرين مرة عن الساعة، انطلقت. عبرت الزواريب الى الشوارع، والجسر الى سور النهر، ومن السور نحو أعالي الشجرات الطويلات وراء التكية السليمانية.

وصلت الى زاوية التقاء الشارعين، وانتظرت. بعد دقائق رأت الفرصة سانحة، فالبعد بينها وبين أول سيارة قادمة زاد عن مئة متر. اندفعت، وخلال ثوان كانت على الرصيف الآخر، قرب الشجرة الأولى، آمنة مطمئنة. إذ ذاك تلفتت عيناها بحثاً عن شكيب.

لم يظهر شكيب. وبعد زمن أحست بالقلق. كان قليل العابرين ينظر اليها باستغراب وتساؤل. بعضهم تفحصها متباطىء الخطوة فضولي النظرة. لكن الشجرات الثلاث ظلت ملجأ عينيها وقلقها. مضى زمن طويـل. وخطر لها أن تعود. وظلت واقفة. انتبهت الى شاب يروح منذ دقائق ويجيء على الرصيف، وراح الآن يحوم حولها. بغير تفكير فكت ذراعيها وأمسكت بحديد السور. لا بد من العودة. وكلثوم؟ ستشمت بها. لن تعود.

بعد إغلاق الباب جيداً وإنزال الستائر، انفجر شكيب. كانت قد التقته أول الزقاق، واقفاً متصالب الذراعين. هتفت له فلم يجب. وعندما وصلت اليه كانت حيويتها التي انبثقت لرؤيته قد تلاشت بوحي وقفته الجامدة المستطيرة. مشيا معاً بلا كلام. عبرا أرض الديار. ولم تكن كلثوم هناك. صعدا الدرج، واستدارا الى اليمين.

داخل الغرفة، سألها شكيب من بين أسنانه: ـ أين انتظرتني؟

أجابت ولسانها يرتجف: ـ تحت الشجرات الكبيرات. عند التكية.

ـ عند التكية. سمعتني أقول عند التكية؟ سمعت اسم التكية يخرج من فمي؟ أما قلت لك حديقة الجلاء؟ كم مرة أخذتك اليها؟

إذ ذاك انجلت الصورة. أجل، لقد أخطأت. قال لها أنتظرك عند الشجرة الكبيرة، ولم تسمع بقية الكلام: انبثقت أشجار التكية في ذهنها وجعلتها تعتقد أنها المقصودة. وكان شكيب ينظر اليها بهدوء صارم، لا شيء يتحرك فيه سوى بؤبؤيه: تستقر نظرتها عليها، تتحرك نحو مكان آخر في الغرفة، ثم تعود اليها. كأن قوة الغضب قد أبطلت قوة التصرف.

ـ يا ويلي! يا لها غلطة!
ـ غلطة وبس؟

وعاد الى تحريك بؤبؤيه، مزدحم الخاطر بالكلام وغير عارف أي كلام يقول أولاً.

ـ هذا تصرف بقرة. واحدة عمياء القلب ولو أنها مفتحة العينين. أنت ما عندك حس بشيء. تطلع الشمس ويصير العصر ويصير المساء والليل، وأنت لا تفرقين عن، عن هذه الكرسي. وأنت ولا كأنك في هذه الدنيا. مثل واحدة مخثرة. تحتاج من يجرها مثل البقرة.

ـ شكيب! أنت توجه لي هذا الكلام؟!

ـ أوجه لك؟ كلام؟ فهميني كيف أنت تعيشين؟ مثل جبّالة الطين. جبالة لا غير. كان الناس يحكون عن عقلك الكبير. وصل صيتك الى عشرين ضيعة. وأنا أكلت الخازوق. تركت كل بنات الأرض لأجلك. فإذا بك واحدة بلا مخ. فإذا سمعت الكلام يدخل مخك نصفه وتضعين الباقي من عندك. أنت جثة. لا شيء يحركك. فالحياة الزوجية لا تعيشينها.

تذكرت رسائله. عرفت أن ظهور حرف الفاء يعني اشتعال العاطفة. لكن اشتعال العاطفة في الرسائل كان شيئاً وفي هذه اللحظات شيء آخر.

ـ .. مثل المسطولة. الله خلقك وتركك. قال، فتشت على بنت أصل، قال، بنت العائلة. فإذا كان هكـذا الشرف، مرحباً شرف. نفخة وتفخة عالفاضي. كنت عدمت حياتي بسببك. كنت بين الأموات. كنت لا أتصور الدنيا من دونك. فإذا أنت..

ـ شكيب لا تكمل. يكفي الذي قلت. أنا لم أتغير. أنا خولة التي كانت بذهنك. أنا أحبك. وغلطة واحدة لا تخرب كل شيء. لا تستأهل هذا الكلام..

ـ غلطة واحدة؟ أنت حياتك كلها غلط. أنت كلك غلط. ما فيك حس. سارحة وهائمة في دنيا غير دنيا. لا شغل لك. قاعدة تتفرجين على المجانين والشحادين. أنت ما تغيرت أنت؟ كنت تقومين من شقة الضوء الى البرية وتقطعين حملة حطب. تكنسين الحارة. تذهبين مع عبسي الى الحقل. تحلبين شقيرة وخضيرة. تشتلين الدخان. تمرشين الزيتون. والآن أين أنت؟ أنت ما تغيرت؟ أليس فيك ذرة حياة؟..

ـ قل لي ماذا تريد وأنا أفعل. ألا تجد أكلك حاضراً؟ وقهوتك وشايك؟ وثيابك مغسولة ومكوية؟ وسريرك مرتباً؟ وبيتك نظيفاً؟

ـ بس أنت أين أنت أين؟

ـ أنا قدامك ألا تراني؟ قدامك.

وعندها بكت. دفنت وجهها بين راحتيها. انحنى جذعها الى الأمام ونحبت. وخرج شكيب من الغرفة.

تلك الغرفة الفظيعة أستغفرك يا رب كيف خطرت لي في المنام كانت مستلقية في الفراش في الغرفة والغرفة في الشير في بيتنا وأنا كأني في البيت وكأني خارج البيت وأم أحمد تأتي بصحن من شوربة العدس وتطعمها بالملعقة وتضع على رأسها كمادات الماء البارد وأبو أحمد يقرأ القرآن فوق رأسها ويدعو الله أن ينجيها من المرض أم أحمد تبكي وتلتفت اليه وتسأل الى هذا الحد كانت تحبه فيقول رحمة الله عليه كان شاباً وأصيح بهم صيحات تفج رأسي إنهم مخطئون إنها لم تحبه بل أحبت بدر جندار وهذه مريم وليست خولة وتلتفت أم أحمد بوجه صامت يعلن خوفاً أن تموت فيقول أبو أحمد لن تموت بإذن الله خولة بنت قوية وعمرها ما مرضت.

هذا الوجع هذا الوجع بلطة داخل اللحم تشق طريقها على مهلها كلما تحركت وهذا الهبيب الفظيع مثل جمر الاثفية يجب أن أقوم وإلا احترق الباذنجان كانت شفتاك أحسست أن جداراً في مزار قد انهارت حجارته على رأسي وجسمي ليت هذا الموعد لم يتم ولا قلت لي تلك الكلمات كنت مصممة على ألا أغضبك أبداً ولا أجعلك

تتضايق من أي شيء الباذنجان أخ هذا الوجع له صوت مثل صرير الباب والباذنجان يا إلهي الماء الماء الحمد لله وصلت في اللحظة المناسبة لا بأس لن أتكلم سأتحمل الوجع وكل شيء فلا تقول إن خولة خيبت أملك ومن أين جاء هذه الكلمات كلها هكذا فجأة البارحة كنت سمناً وعسلاً أين كانت مخبأة.

أين كانت مختبئة طيلة السنتين الماضيتين كانت الغرفة خالية منها تماماً لا صوت ولا أثر الآن كلما هدأت الحركة وساد صمت قليل طلع صوتها من هنا أو طلعت هي من هناك ودبدبت بخطواتها السريعة القصيرة شكيب صار مهملاً من قبل جاء بدواء ووضعه على فم الوكر فكأنها فص ملح وذاب لماذا تبتعد يا شكيب كلما سرح عقلي أسمع صوتاً كمن يحك جسمه علي وأرضك الى مكان الصوت خائفة على البرغل أو الحمص فيسكت الصوت وأعرف أنه هناك بين الأكياس وأني إذا ابتعدت سقيضم الحمص أو الفاصولياء وأقف لا أنا قادرة على تركه خوفاً على المؤونة أو البقاء خوفاً منه واليوم كأنها على موعد خرجت من أوكارها واجتمعت وسط الغرفة مثلما تجتمع سمية وكلثوم وعزيزة وزينب ويا لطيف اللطف يا لهذا المنظر ليس ناقصاً سوى واحد يقدم لها الشاي شيء يقشعر له البدن كأنها في اللحظة التالية ستنقض علي وتغرز أنيابها في لحمي وأنا لا تلجئني الأرض ولا تخبئني ولكن أين صارت الآن إذا رفعت اللحاف ونظرت نظرة هل سأراها تتنزه على أرض الغرفة أم أنها ما زالت.

كم الحياة صعبة دائماً أناس يقاسون ويشقون في هذا العالم ولا معين لهم غير الله وشكيب يسأل لماذا بكيت كيف لا أبكي عليها هي البنت البريئة التي أوقعتها ظروفها بين مجموعة ذئاب ولولا لطف الله لضلت سواء السبيل وصارت مثل مريم خضير وفوق هذا أبعدوا حبيبها عنها وجعلوه يشك فيها ويحتقرها وهي تتعذب وهو يقضي أوقاته بين الكباريهات والراقصات وشكيب يتضايق ويسخر لأني بكيت حالة تقطع القلب وحبيبها غائب عنها مختف وتبقى وحدها وتبكي وتسأل أين أنت يا.. يا ماذا كان اسمه يا شاكر لكن الله يعرف كيف ينتقم من الأشرار ويصفي قلب المحبين يا لهذا الفيلم كم يحرك المشاعر.

يا عيني على الرجال وقت تلبس ثياب الحكومة يا عيني والأزرار تلمع على الصدر وعبسي واضع على الكتف اليمين نجمة وعلى الكتف اليسار نجمة تتلألأ مثل نجمة الصبح وكل منها يغطي رأسه بسدارة مثل الخيمة لها شراف أسود فوق الجبين يمتد تحت رجلي عقاب ذهبي معقوف الأنف يا للفرحة التي لا تتسع لها الدنيا شكيب صار شرطياً وعبسي ضابطاً وشكيب يقول لعبسي موافقاً صحيح لازم أن يتغير الحكم فيقول عبسي لأن أديب الشيشكلي جاء عن غير طريق الديمقراطية وحكم البلاد بقوة السلاح والمخابرات وصحت بهما هس لا تحكوا في السياسة خلونا بحالنا فابتسم شكيب ونظر الى عبسي وضحك عبسي علي وقال لا بد من إسقاط أديب الشيشكلي وقال كلاماً كثيراً عن الخبز والحرية والعدالة والشعب والنمو الطبيعي والأزهار المتفتحة والثورة التي تكنس الوخم والآفات وتجعل العامل سيد معمله والفلاح سيد أرضه يا حبيبي يا عبسي صرت مثل الرجال وتتكلم كلاماً يدوخ كلام شخصيات عظيمة تحمل هم البلد على أكتافها ولكن ضع على جسمك شيئاً من اللحم ستشهق أمك لمنظرك جاء يزورنا وراجع في الليلة نفسها الى أمه يا سلام يا دنيا كأن دهراً مضى ولم أر أحداً.

منذ ساعتين يمكن ثلاث لا أعرف جالس على الكرسي ثلاثة أفواج من كؤوس الشاي قام مرة واحدة لأخذ الصينية مني ولا كأنه رآني وتعثرت بالدرج ووقعت على طولي ولا كأنه سمعني لا عليك سيأتي يوم وتعود الى خولة التي تحبك جلست على الدرج وبكيت من أجل غلطة تصير بعيداً كل هذا البعد ويدك تخبط على الطاولة وهي ترمي الورقة أنا اعرف أنك تغلبهم ولكن في عليائك نسيت أني ضعيفة لا يحمل علي سلاح من يوم أحببتك خرجت قوتي مني وذهبت اليك ليت عبسي يزورنا كل يوم لأراك تبتسم مثل أيام زمان جالس مثل الجبل وظهره الى غرفتنا لا يرفع رأسه إلا لينظر أمامه وماذا أمامك غير شباك كلثوم الوسخ وهنا العتم والصمت والحيرة هنا لا بحر ولا أفق مدينة كبيرة ولكن لا أحد فيها كبير صغار إلا الحكومة إنما الإنسان يقدر أن يجد

وسعاً في المكان الضيق ها هم أربعة حول طاولة نسوا الدنيا عندها وصارت دنيا واسعة ملأت عقولهم وأنا كل هذا الفراغ حولي أينما جلست ألاقي نفسي منكمشة أينما تحركت أحس أن أمامي مسافة كبيرة إلا وقت يلعب شكيب فلا مكان يصلح للجلوس إلا وراء الشباك كلثوم كلثوم تزيحين الستارة مثل لص ووجهك محرور مثل وجه الخائف وتتفرجين على اللاعبين يا أخت مريم والله لو رآك صبحي لحطم أنفك هذا الأهبل يجلس مقابل شكيب فلا يقدر أن يراك يا لك لهذه الجرأة وليس بينك وبين زوجك غير نصف متر.

هذه الشروش مهترئة قبل دقائق أمسكت بواحد منها فانقلع وانقطع وتدحرجت على ركبتي وبطني أهذا خندق تريكية من الذي قطع كل أشجاره حتى أروماتها والنبع كيف جف في قاع الوادي كنا أحياناً نملأ منه الجرار للشرب وكل عام نسقي شتلات الدخان الوحل الناعم والرائحة الكريهة شكيب يا شكيب لا تقف فوق وتتركني أتزحلق ارم لي حبلاً وأمسك به وأزحف هذه الشروش المهترئة يا إلهي ألا تسمعني يا شكيب والأرض ليست صلبة سأصل الى القاع حتماً هناك أفاع وجرذان كان رأس الخندق في متناول يدي والآن صرت قرب القاع والوجع أيضاً ما هذا التراب يهبط الأرض تنزل والوجع الوجع وأنا أنزل شكيب يا شكيب.

إن أركض وأقفز داخل السرير معناه أني جبانة انه هناك أراه من طرف عيني مثل شبح صغير واقف ليرى إن كنت سأتحرك وماذا سأفعل وإذا تحركت هرب يا رب أطعمه حركة لأطعمه ضربة بهذه المكنسة أنا تراخيت تجاههم بزيادة أخ ظهري ولكن إذا بقيت منحنية سيظن أني تمثال أو خشبة مثل الكرسي ويتحرك فأضربه ضربة قاتلة وماذا إذا تحرك من ورائي يمكن أن يصل الى كعبي وأنا لا أحس به إذا هربت إلى السرير ويصل إلى كعبي إذا هربت ويصل إلى كعبي ابن حرام درجة أولى كيف بهذا الذيل والسيقان مثل عيدان الكبريت يروغ وينخطف ولا أحد يطاله إذا ركضت ويزحف من تحت المكنسة كالنسيم آخ يبس ظهري وبردت أصابعي وهو واقف مثل شبح صغير فظاعة قلت إنه ابن حرام أين اختفى آخ أخ.

اقترب العام الثالث من نهايته ولا ولد شكيب معه حق يريد ولداً ثلاث سنوات وأنا لا أعلّق ما فائدة الزوجة بلا ولد انجدني يا رب ماذا أفعل شكيب ابتعد عني يئس من الولد ولا حيلة لي وإذا استمرت الحياة على هذه الحالة صرنا عجائز ونحن في أول العمر يلعب يصيح يبول وأضمه الى صدري فيلف يديه على عنقي واللعاب يمرغ وجهي انجدني يا رب هذه المرة ولا كل مرة وبعدها لا تلب لي طلباً أنا يائسة وحزينة والحياة بلا طعام في هذا العالم ملايين الناس ولن يضيرك أن تزيدهم واحداً واحداً فقط ولا أريد غيره أنا شقية وحزينة نعم يجب أن أقول هذا الكلام لا أعرف إذا كان صحيحاً شكيب صار بعيداً الرجال بعد فترة يملون من زوجاتهم زينب تقول ولا يعودون إلا إذا جاء الأولاد شكيب يحبني لكنه بعيد ما زال يحبني لكن هذا الحب كل شيء موحش البيت موحش والجيران والمدينة شكيب موحش حتى عندما يقاربني لا يكون فيه حنان صحيح صحيح دارت الدورة ووصلت الى الضيق والبؤس ثلاث سنوات هذه لعنة لا نستحق ولدا خولة عاقر مرتين سافرت الى الضيعة ولا حديث للناس إلا الولد أم أحمد تريد حفيداً قبل أن تموت وريما وكحلة وحتى الشيخ بهاء لماذا عاقر ماذا فعلت يا رب لتحرمني هذه النعمة وتعطيها لحبرية. أنا لم أخطىء قدمي لم تزل ألأني زرتها في غرفة الموت تلك واستمعت اليها هي الملعونة الى أبد الآبدين لماذا أنا عاقر لماذا أههه.

دعت كلثوم الله أن لا يأتي أحد منهم. وقالت زينب انها ستلعب مع الأولاد في طول الدار وعرضها. وقالت سمية إنها سترمي معظم ثيابها وتتمدد على أرض الديار تحت الشمس الساطعة، وتغمض عينيها مستمتعة بالأصوات وبأنها ليست مضطرة لأن تطبخ لتوفيق وأمه وعمته والقبيلة كلها. وسألتها عزيزة: «وإذا ظل غائباً، تنامين والمخدة تحت رأسك؟» وغمغمت سمية أنها لا تتحدث عن النوم بل عن اليقظة. وصاحت كلثوم: «قطيعة تقطع النوم والنائمين. بودنا حريتنا لا نوم ولا غير نوم.» وزقت زينب بكلمات لم يسمعنها. سألتها عزيزة ماذا قالت. وصاحت سمية في الوقت نفسه: «كلثوم كلثوم، ارقصي لنا رقصة.» ولم ترد

كلثوم، تابعت نظرتها المفاجئة الغامضة الى خولة. وكانت خولة جالسة معقودة الذراعين باسمة حيناً مرفوعة الحاجبين حيناً تنقل نظرتها المذهولة بين النساء. وصاحت سمية: «ماذا نفعل؟ اسمنا اليوم خلصنا على بكير من الشغل.» وقالت كلثوم: «يا بنات، خولة ولا كأنها معنا.» ودمدمت زينب: «خولة دائماً ما معنا.» وهتفت عزيزة: «خولة مبسوطة.» وضحكت سمية فنبرت أصابعها على ركبة عزيزة: «بعد ما أفاقت. انتظريها شوية.» «مسحورة يا أختي مسحورة. خذيها عند الشيخ يفك عنها الرصد.» «ثلاث سنين وشوية. نومة طويلة.» «من كثرة التعب.» «من كثرة التعب في الليل.» «لا ولد ولا تلد ولا تقصير عمر.» «ولا خياطة ثياب بليرتين وليرة.» «ولا أقرباء تحشو بطونهم وتغسل خروقهم.» «البنت متعلمة وتقرأ في الكتب.» «أنت حسودة.» «معلوم حسودة. سبع سنين..» «لا طلعة ولا نزلة.» «الطلعات للرجال.» «هذا حقهم.» «يقطع الرجال وحقهم.» «نحن خدامات بشرف.» «هذه حال الدنيا لولا أن الرجال أنانيون.» «واحدهم لا يفكر إلا بحاله..» «تكون الواحدة في دنيا، تتزوج..» «الرجال كابوس. يقطع الرجال.» «يقطعكن ويقطع حديثكن. أي شيء استفدنا من غيابهم؟» «يا الله يا كلثوم. قومي ارقصي.» «وإذا جاء؟» «نرتج باب الدار من جوة.» «قومي عزيزة، أنت معلمة. اقفلي الباب.» «وأنت هاتي الطناجر والملاعق».

نهضت عزيزة الى الباب، وطردت الأطفال الى الزاروب. ونهضت سمية الى المطبخ المشترك. ونهضت كلثوم الى غرفتها. ونهضت زينب فتمطت: «سأسقيكم الشاي من بين يدي.» وفي ثوان خلت الدار. انحل ذراعا خولة عن صدرها، واستقرا على حجرها. ثم امتدت يداها الى ركبتيها.

صدرت الأصوات متنافرة في البداية، ثم تناغمت. انشق الباب وبرزت كلثوم. استقبلها الهتاف وإيقاع الطناجر والملاعق وزغرودة. نظرت خولة اليها بانسحار. كانت قدربطت شالاً أحمر حول كفليها، فأنشدّ قميصها الأبيض على قوام رأته خولة جذاباً متقن التكوين. واندفعت كلثوم الى الوسط من دائرة النساء، تتلوى وتستقيم، وتنحني في الاتجاهات، وتنهض، بحركات إيقاعية مذهلة. «يا حلو! يا حلو!» «يا عيني على هالقوام!» «تسلم لي هالليمونة!» «أيوة! دقوا يا بنات!» «يسلم لي الشعر الطائر؟» «ما بودّنا رجال!» «وهالغمزة الحلوة!» «ما بودّنا رجال!»

يا الله يا ألله بعد هذا الحب كله وهذه التضحية تموت ولا أحد يبالي ولا أحد يهتم تموت وحيدة في غرفة مظلمة وحبيبها يركب الطائرة إلى أوروبا تفوه على هكذا رجال.

ما الذي أيقظني في هذا الوقت لم أصدق أني غفوت. وشكيب ما زال في المخفر العتم شديد يا لطيف من أين جاء كله؟ والستائر يه! من نزع الستائر؟ والباب من فتح الباب الباب مفتوح الآن تدخل واحداً وراء الثاني يجب أن أغلقها ها هو ها ها هو على العتبة عيناه تبرقان ذيله وراء العتبة عيناه تنظران إلي مشى خطوتين وشكيب ما يزال في المخفر أبو دعاس اطلع برّه يا حرامي يا كلب تهاجم النسوان في بيوتهن اطلع وإلا صرخت ولمت الجيران عليك وما يزال يبتسم مشى أيضاً خطوتين عيناه تبرقان ذيله صار على العتبة عيناه تبرقان كأن فمه ينفتح وشكيب ما زال في المخفر أنت يا مجنونة ما الذي جاء بك الى هنا اطلعي وخبئي وجهك في الضباب يا للعينين القادحتين مثل جمرتين من جهنم خطوتيـن مـاذا تريدين تمشين على مهلك الساقطات فلا أعرف ماذا تريدين اذهبي الى أبو دعاس مشى أيضاً خطوتين لماذا تمشي بهذا البطء وتفتح فمك عن نابين أصفرين يا للابتسامة الفاتنة ارجع ارجع أقول لك خطوتين والذيل وسط الغرفة والنابان يقدحان هذا أبو دعاس أم غول الذيل يلتف على رقبته الشعر يطلع من كتفيه الى أذنيه وشكيب ما زال كريمة المجنونة من أين جاءت بجمرتين في هذا الصيف ووضعتها بين أجفانها خطوتين هاتان القدمان الصغيرتان ستنشبان مخالبها في رقبتي البطء القاتل معقول معقول النابان يقدحان سينغرزان في صدري سيصلان الى صدري وينغرزان في صدري ألا أحد سيسيل الدم سيفوران في صدري لا أستطيع إذا صرخت سمعني الجيران وثبة واحدة ويصير على السرير البطء البطء

القاتل الخانق أبو دعاس وجسمي مخثر سينغرز الناب ويسيل الدم وصل وصلت وصل النـاب يلمع وأنا مسمرة بالسرير وأبو دعاس الدم الدم الدم الدم شكيب الدم شكيب شكيب الدم شكيب شكيييب شكيييب.

ـ نعم! نعم!

ـ افتحي عينيك. اقعدي وخذي نفساً.

أدارت رأسها الى شكيب. نظرت اليه بإمعان. كانت نظرتها متفحصة تحت ضوء القمر، ولكن عائمة وشاردة. وهتف فمها:

ـ شكيب؟

ـ نعم، شكيب. ماذا بك يا خولة؟ نومك مضطرب جداً في هذه الأيام.

ـ متى جئت من المخفر؟

ـ من المخفر؟ لم أذهب للمخفر. تعشينا ونمنا سوية. لماذا لم تلبسي ثيابك؟

كان الظلام دامساً لولا خفقات متلاشية من مصباح الدار الكهربائي الذابل. وكان الصمت شاملاً لولا أجيج بعيد متقطع لريح الخماسين الغبراء. وكانت خولة نائمة لولا توقع رخو لمجيء شكيب توانى بفعل الانتظار. أخيراً رفعت رأسها ها هو ذا وقع خطواته المكتوم، الذي يحرص عليه لكيلا يفيق الجيران. بإصبعها تحت الستارة قليلاً ونظرت اليه: بهدوء، ببطء شديد، مشى وكأنه ينصت الى شيء ما. وأثار هبوب الريح المفاجىء مفاصل شباكها وباب غرفة كلثوم الذي انشق بهدوء وبطء شديد، وعاد فانغلق. واتجه شكيب الى بيت الماء، فابتسمت وعزمت على أمر. غاصت في السرير، والتحفت تماماً، وأغرقت رأسها في الوسادة.

لم تكن تدري ما الوقت. لعلها أغفت. وعندما انتبهت تناهت الى أذنيها التراتيل من المسجد المجاور. نظرت الى السرير. لم يكن شكيب قد وصل بعد. انتبهت أكثر، فسمعت وقع خطواته على الدرج الخشبي، وقعاً مكتوماً يحرص عليه لكيلا يفيق الجيران. وفيما تتزايد غبطتها لقدومه، تمنت لو أن بوسعها أن تشتري ساعة لتعرف كم يستغرق بقاؤه في بيت الماء. وتساءلت أترى الرجال يقضون وقتاً طويلاً هناك؟ أم أنها هي التي لم تعد تستطيع تخمين الوقت؟

عندما نزل الغيث لأول مرة في تشرين، جاء عبسي الى دمشق. جلس على السرير في بيت أخته، ساقاه لا تكفان عن التلويح، وكعباه يضربان في كل مرة إطار السرير السفلي. كان شارداً بغير همّ، متكتماً مثل من ازدحمت في رأسه الأفكار والاحتمالات.

لم تطق خولة صبراً. بعد فرح اللقاء وحديث الذكريات القصير، هتفت بلهجة رصينة:
ـ عبسي. أنت تخبىء شيئاً.
ابتسم. رمقها بأخوة صافية، وقال: ـ من عادتي أن أخبىء عنك شيئاً.
ـ لا. لكن اليوم أنت تخبىء عني شيئاً.
ـ فعلاً. وها أنت مثل العادة تفطنين له. ولكن لا يصير أن أقوله لك.
هتفت بجزع: ـ عندك شيء لا يصير أن تقوله لي؟
ـ وقت يتعلق بمصلحة الوطن. ليس ملكاً شخصياً لي؛ ملك للشعب. مصلحة الشعب الكتمان.
ـ عبسي!

ـ أرجوك. كوني عاقلة. البلد تئن تحت سيطرة الدكتاتورية، والناس يتطلعون الى الحرية والحياة. العمل

الوطني يجب أن يظل سرياً، الى أن يتم الخلاص ويستلم الشعب مصيره بيديه. بعدها تبدأ مرحلة العمل الوطني العلني. يبدأ تحريك الشعب وتنظيمه للقضاء على الاستعمار والتجزئة. الآن يجب الخلاص مهما كان الثمن.

أحست بالاضطرام. وفي موجة حماس وإعجاب هتفت: ـ وأنت مسؤول عن هذا؟

ضحك بابتسار: ـ أنا؟ أنا نقطة في بحر. ماذا أنا؟ مجرد جندي في خدمة الشعب. ليس عندنا أفراد. العمل الجماعي هو الأساس. صحيح العمل الفردي يقع عليه عبء ضخم، أكبر من المعتاد، لأن الأمة غير متكونة سياسياً. لكن الأفراد لا شيء. جنود نذروا أنفسهم في سبيل الثورة.

عقلت خولة فضولها. كان واضحاً أن الأمر خطير، والاستفسار عنه أخطر، رغم نبض الفرح القوي. راحت تتأمل عبسي، الذي عاد الى شروده، كمتعبدة سحرها جلال الهيكل. وتراءت لها آفاق رحبة تنفتح وتتسع وتتعانق. تخيلت الوطن والشعب والحياة الجديدة. ومرة أخرى انتشت إعجاباً.

بعد فترة أطلقت نفسها الحبيس في تنهدة متطاولة. قالت:

ـ رأيت أمك من قريب؟ كيف صحتها؟

ـ والله صحتها سيئة. أظن يا خولة أنها لن تعيش طويلاً.

هذا الشتاء الكئيب والحياة تمضي الشتاء يضع الإنسان في مكان نازل والسماء البعيدة تبتعد حتى لا يعود يرى منها غير رقعة بحجم الرغيف لا لون لها والعتم حوله من كل جانب والوحشة حتى الحب صار بعيداً ولا طعم له الحياة الحياة شيء لا أفهمه كأن الإنسان لا حيل له أو لا يدري ماذا يفعل وكل شيء يهرب مع أن الأمور هي هي ما الذي هرب ما الذي ضاع لا أعرف كنت أتحرك في البرية أكثر مما أتحـرّك في المدينة كنت على سطح البرية أما الآن أين أنا هذه الكآبة والوحشة ليست مأساة ليست مأساة لكن ما الذي هرب منها ما الذي ضاع ليتني أعرف لعله هذا الشتاء ليست مأساة مع ذلك لا طعم لشيء لا بهجة لعله مع ذلك ليست مأساة لعله مع ذلك لا أعرف يمكن.

ما الذي أعاده بعد الغياب الطويل منذ عهد بعيد اختفى كأنه لم يكن والآن يرجع كأنه لم يغب لحظة كان جميلاً كان منيراً فرحة بيضاء أترى ألاقيه مرة أخرى لم يتغير الفرس البيضاء والغمائم البيضاء والشعر الأبيض ووجه مختلف لا يبين ترى تطول هذه الراحة التي زرعها في جسمي سيقان الفرس تخفق في الفضاء البعيد فأراها تدنو مني ويدنو الفرح والبهجة حتى لأوشك أن أطير كيف خطر له أن يأتي في هذا الوقت أنا التي لا أعرف أين صرت جاء وأخذ يرفعني التي يمضي ليلها ونهارها بلا حركة غير الكوابيس والمنامات زارني هزني رفعني وها أنا أعود الى تلك الحفرة والحزن كأنني في يوم خريفي بارد سماؤه غيوم لا تمطر وفضاؤه لا هو بارد ولا دافىء والجبال البعيدة صامتة مثل إنسان تمدد على الفراش بلا لحاف والنهر يلمع في مجراه ولا يتحرك أين صوتي يا أبو أحمد.

كان المساء راشحاً بغبار الخماسين. وكان أديب الشيشكلي قد سقط، وعام زواج خولة الرابع قد اكتمل. كان الناس يستعدون للانتخابات، والربيع جميلاً رغم الخماسين، وسورية تبدو خضراء.

كانت خولة جالسة على الكرسي، خاصرتها متكئة على افريز النافذة، ذراعاها متشابكين، وعيناها سارحتين باتجاه أرض الديار. كانت تتساءل بصمت، بمرارة صارت الآن مألوفة وغير مريرة: لماذا لم يرزقها الله ولداً. خطر لها أن في الأمر عقوبة لذنب ما. تذكرت سليم، ودعاء الرحمة الغريب الذي كان أبوه يهتف به كلما حضر اسمه. تذكرت مريم ودعاء الرحمة المفاجىء الذي هتف به أبو أحمد يوم سمع بالنبأ. ولكن أي ذنب اقترفت هي، ولماذا يعاقبها الله؟

لم يتسع لها الوقت كي تسعى وراء الجواب سعياً ينتهي كالعادة بمزيد من الأسئلة الصامتة. انفتح باب غرفة عزيزة وانبثقت منه المرأة بحالة غير هادئة. وخرجت وراءها امرأة أخرى تحمل قماشة فستان. واستدارت عزيزة بأدب حانق وصاحت:

ـ يا فطمة، والله العظيم ما عندي وقت.

وقالت الأخرى: ـ أنت حطيه عندك بس. متى ما صار عندك وقت، خيطيه.

استغرق الحوار خولة استغراقاً غير طبيعي. كان وقته دقائق قليلات، ولكن من يستطيع أن يعرف كم فكرة وصورة تعبر الذهن في دقائق؟ في البداية استقامت قامة خولة ونظرتها. انقشع شيء من جبينها، وانفك ذراعاها. تذكرت سليم في دكانه المعتم تحت القنطرة، وأثواب القنابيز والشراويل والقمصان مكومة هنا وهناك. تذكرت وجهه المشرق وعينيه الكبيرتين المنشغلتين، والشريط المتري يلف حول عنقه وينسدل على صدره. تذكرت الشوارع البليلة التي كانت تسرح فيها آنذاك..

مع آخر صورة لشفتي مريم كان تنبه خولة قد صار حركة. حركة إنسان أشبه بالنائم لشدة ما سيطرت عليه فكرة مستبدة خارقة. ولم تدر سوى أنها نهضت مدفوعة بقوة غامضة ومرقت عبر الغرفة فالرواق فالدرج فباحة الدار، ووقفت بحذاء المرأتين.

توقفت المرأتان عن الكلام ونظرتا اليها. قالت تخاطب فطمة بهدوء منساب:

ـ أنا أخيط لك الفستان.

استمر صمت المرأتين. قبل ثوان أسكتتهما مفاجأة حضور خولة، والآن أسكتتهما المفاجأة الثانية. أخيراً قالت فطمة:

ـ أنت تخيطينه؟ كيف تخيطينه؟

ـ إذا قبلت عزيزة أن تعيرني الماكينة، وكلثوم الفستان الذي حكيت عنه.

ـ ومتى تنهينه؟

ـ تعالي الصبح الساعة الثامنة تجدينه جاهزاً.

ـ ما رأيك، عزيزة؟

ولم تكن عزيزة لترضى أن يقال عنها إنها رفضت.

كان شكيب في المخفر، مناوباً حتى الصباح. لذلك أحست خولة أن الغرفة بأكملها يمكن أن تتحول الى ورشة لخياطة فستان. أغلقت الباب بإحكام. سدت النوافذ. تصورت السرير طاولة أحد سليم، وفرشت عليه القماشة. جاءت بفستان كلثوم ومددته. عشرات المرات تصورت القطع المقصوصة، ترتيبها، شكلها النهائي. لكنها لم تتقدم خطوة واحدة. دب فيها اليأس مثلما كان النعاس يفعل عبر أربع السنوات الماضية. عشرات المرات همت بالفعل، ثم تلكأت يدها وانتظرت توجيهات الخيال. تعثر الخيال بحواجز الخوف ونهض على ساعدي الإرادة. وظلت يداها ترتجفان. الشكل الجديد الذي سيطلع من الخامة أقض مضجعها: بفرح مجيئه وبرعب الخطأ. إذا تخربت القماشة، سوف تضطر لدفع ثمنها، وهي لا تملك فرنكاً واحداً. سيجن جنون شكيب. وتسقط من عينيه الى الأبد. إذا لم تف بوعدها.. لا، لا يهمها ضحك عزيزة وكلثوم، وإنما ستضيع الفكرة التي لم تعرف ما هي، الفكرة التي دفعتها للذهاب الى المرأتين والتعهد بإنجاز الفستان قبل عودة شكيب. وفيما مضى المساء والليل سريعين كالضوء، ظل خوفها ثابتاً كاملاً: خوف من أن تخطىء في قص القماشة، وخوف من أن تستسلم للفشل.

أخيراً جاء الحل. لم تتردد، فقد عرفت أنها إن لم تقاوم اليأس الآن فلن فلن يمكنها أن تقاوم فيا بعد. أمسكت بفستان كلثوم وفتقته قطعة قطعة، كلما انفصلت قطعة وضعتها على مكان من القماشة. وتمعنت قليلاً في الشكل الجديد قبل أن تمسك يدها بالمقص وتبحر به في يم القماشة المتلاطم.

عند أذان الفجر تنهدت مرة أخرى. تذكرت أنها لم تأكل شيئاً، وسرعان ما قرصها الجوع. نهضت بخفة وعلقت فستانها بزرّ النافذة. تناولت قرصاً كاملاً من البندورة، وذرت عليه الملح، ثم راحت تقضمه والخبز معه. منـذ زمان لم تأكل بهذه الشهية. منذ زمان لم تحس بهذه اللذة المفعمة. وإذ هبطت الوجبة الى معدتها أحست بوطأة التعب والنعاس.

عندما وصل شكيب الى باحة الدار كانت عقارب الساعة تقارب التاسعة. تفقدت الغرفة بنظرة أخيرة، واطمأنت الى أن كل شيء على ما يرام. مشت خفيفة الخطى الى الرواق، ووقفت تنتظر. وتقدم هو بخطى واهنة وحنك رخو. حاذاها ونظر اليها مستغرباً. ابتسمت وهي تنتثر شعاعاً. ودخلا الغرفة.

ـ ما لك؟ جرى شيء؟

انسندت الى الباب ويداها الى جانبيها.

ـ ما لك؟ أنت اليوم غير طبيعية.

ابتسمت. لقد أثارت اهتمامه. اندفعت نحو السرير، ومن الخلف جلست قرب الوسادة. رفعت الورقتين الماليتين، ونظرت إليه.

ـ ما هذا؟

ـ خيطت فستاناً لجارتنا. وأخذت أجرته.

ـ شيء عظيم. متى؟

ـ طول الليل. لم أنم تقريباً. خذها. خذ الليرتين.

التقط الليرتين وتمعنها. ابتسم ابتسامة مختلفة. قال وهو يضعها في جيب سترته الصدري:

ـ معك فلوس، ما؟

ـ بلى.

ـ اشترى لنا خبزاً، كيلو. لأن الخبز خلص. وأنا سأنام.

* * *

(٣)

دخل شكيب غرفة الخياطة فنهض شداد احتراماً وترحيباً. تصافحا. وبدا شكيب عاتباً للغاية:

ـ صار لنا شهران في اللاذقية، شفناك مرتين. أنت لا تحبنا مثلما نحبك.

غمغم شداد: ـ أبداً والله، يا سيد شكيب. بس الشغل كثير ولا وقت عندي لأحك رأسي.

قال شكيب وهو يتجه الى كنبة ويجلس: ـ كيف الشغل؟ مرتاح مع هذه البواخر؟

ـ راحة، لأ. لكني أحب هذا الشغل.

التفت شكيب الى خولة: ـ يلزمنا فلوس يا خولة. ضرغام قال إن الأرض تتسع لعشر زيتونات زيادة.

أوقفت خولة خياطتها. مضت الى غرفة النوم. وما لبثت أن عادت بالورقة المالية. «ما عاد معي غيرها»، ومدتها إلى شكيب، فتناولها وأبقاها بين أصابعه. وفيما عادت الى الخائطة قال لشداد:

ـ عندنا أرض في الدروقية لا تصلح لشيء، قلنا نزرعها زيتوناً، مثلما زرع أبوك، الله يرحمه، للأولاد، يجدونها قدامهم في المستقبل.

ساد صمت قصير. لم يتلق شكيب من شداد غير ابتسامة موافقة. ورغم أن خولة كانت تبتسم أيضاً وبفرح، لم يشعر أن متابعة الحديث ستكون ممتعة. تحرك في كنبته وضحك بمزاح معتذر:

ـ كنبات عظيمات، ما شاء الله. رئيس الشرطة لا يملك مثلها.

نبرت خولة بمودة: ـ المهم عندنا شيء يقعد الواحد عليه.

قال شكيب لشداد: ـ هذا كله من فضل خولة. صرنا نسكن في بيت.

قال شداد: ـ المهم أن تكونوا سعيدين.

قال شكيب بجدية فرحة: ـ والله يا عمي، الذي يعيش مع خولة يعيش سعيداً. يا خولة يا حبيبتي، أما اتفقنا أنك في المساء لا تعملين؟ بالله عليك يا شداد، أنت تكلم معها. امرأة حامل في شهرها السابع، تظل من شقة الضوء وراء هذه الماكينة، لا تقوم إلا لشغل البيت أو لتستقبل زبائن، هل هذه حياة؟

ـ إذا لم أشتغل من أين نسكن بيتاً ونصرف عليه؟ صرنا نشتري أشياء كنا لا نفكر فيها من قبل، وكل شيء سعره نار.

صاح شكيب: ـ حاشا. أنا مقصر عليك في مصروف البيت؟ أنا أشتغل عتالاً وآتيك بالمال. أشتغل بالفاعل. أشتغل أي شغلة. لكن يا حبيبتي نحن نعيش مستورين، لماذا هذا التعب كله؟

ـ الذي لا شغل له لا كرامة له. ماذا تقول يا شداد؟ لماذا أنت ساكت؟

قال شداد: ـ ساكت، أفكر، كم أنتم سعداء. طبعاً الذي لا شغل له لا كرامة له.

قال شكيب: ـ لم تحك لنا ماذا يعني شغلك في البواخر. كيف خطرت لك هذه الفكرة؟

ـ كنت أفكر فيها من قبل. بعد وفاة المرحومة، شفت دكان الخياطة ضيقاً. أنا معتاد الوسع. قلت لحالي، البحر، واسع مثل الأراضي. لكن أصحاب الزوارق أولاد حرام.

ـ لا يتركونك تشتغل على كيفك.

ـ لا. ما هكذا المسألة. يأخذون نصف أجري لينقلوا الثياب الوسخة من الباخرة الى المحل، والنصف الثاني لينقلوا الثياب النظيفة من المحل الى الباخرة.

ابتسم شكيب غير عارف ماذا يفعل: يضحك للعبارة، أم يغضب على أصحاب الزوارق.

قالت خولة: ـ الله يلعن أبوهم، واحداً يقول للثاني. لكن يا شداد، أنا لم أفهم هذا المحل. أين هو؟ وتنام فيه؟

ـ لماذا لا أنام فيه؟ المثل يقول، مطرح ما ترزق ألزق. هناك طبيعة جميلة. بساتين وأرض حمراء.. وأنا محلي على مسافة قريبة من البحر. المحل الأول كان كله من خشب. كوخ، أو محرس. المحل الجديد بيت صحيح، من طين سميك. لكنه مرتب مثل بيوت المدينة.

قالت خولة: ـ يعني وراء حارة الرمل؟ بيت بعيد.

عند منتصف الليل، وكان شكيب قد نام، تساءلت خولة عن السر الغريب وراء فشل شداد في الثانوية. لو أنه نجح لكان الآن ضابطاً مثل عبسي. أحست أن هذه البكالوريا شغلة خطيرة فعلاً وأحست بالرثاء لهذا الإنسان الحالم. تذكرت أن أيوب كان سعيداً في شقاء الفلاحة. ورأت أنها هي أيضاً سعيدة في شقاء الخياطة، وأن عليها أن تجلو طنجرتين وثمانية فناجين قهوة. وكان آخر ما ولج في خاطرها قبل أن تنام شعور رغيد بأخوة الشقاء شدها الى شداد.

بعد أسبوع قبضت خمسين ليرة أخرى. بغير إبطاء نزلت الى السوق واشترت قماشاً متنوعاً لابنها. كانت مصرة على أن الجنين صبي. بعد سبع سنوات من العقم، تجيئها بنت؟ لا. وتساءل شداد ضاحكاً عن علاقة سنوات العقم بالجنين، فأجابت أن هناك سراً لا تفهمه تسبب في عقمها، وأن السر زال، فلا بد للأفضل أن يجيء. وغمغمت: «هذه الحياة كلها أسرار.» وأضافت، أن الأنثى في هذا الزمان وهذا المكان لا حرية لها، ولا شخصية، وأنها لا تريد بنتاً لن يكون لها حماية غير رجل. ولذلك فجنينها ليس بنتاً.

كانت قد اعتادت أن تفيق في السادسة، تحمل قطعة جبن وبضعة حبات من الزيتون، وتجلس في الشرفة الضيقة منتظرة صبي الفرن يأتيها بالخبز الطري. وبعدها تتناول إفطارها بلذة شبة منتشية. الخبز ـ أيضاً سر من الأسرار. تدور الحياة والفصول، ويدور الإنسان معها، كي يخرج من التنور رغيف خبز. تتذكر أنها في سنوات العقم لم تكن تجد له أية نكهة، وفي السنين البعيدة لم تكن تتأمل الرغيف وتجده دائرة مسمنة بالفرح. ثم تلتفت الى بائع الحليب المطل من رأس الزاروب، وتنتظر دورها. تراقب أم عبودة وهي تفتح دكانها وتخرج منه البسطات لتضع عليها ما يجيء به المزارعون من خضار وفواكه. تتذكر حليب شقيرة وخضيرة، وحزم الحطب، ودكان ريما المزيل. وكل مرة تنتهي الى التلة الصغيرة المكورة التي صارها بطنها، وتمرر راحتيها عليه بشعور أقرب الى نشوة واعية لإنسان يلج سراً قدسياً.

ثم بدأت شهرها التاسع. كانت تجمع أدوات الخياطة وتودعها صندوقاً، عندما جاءت السيدة أم الفضل وبيدها لفافة. وبعد السلام والتعارف والتحيات، قالت السيدة:

ـ سمعت يا ست خولة أنك خياطة ممتازة. وأنا، الحكي في سرك، لا تعجبني موديلات السوق..

تأملتها خولة بفضول مكتوم، وابتسمت لكي لا يبدو عليها أنها تتفحص المرأة التي انتقاها رجب العز. لحسن الحظ، انتبهت في اللحظة المناسبة الى أن زائرتها قد أنهت الكلام:

ـ والله يا ست أم الفضل، أنا دخلت شهري التاسع، ومثلما تشوفين، أوقفت الخياطة. كان أملي أن أخيط لك.

نظرت السيدة حولها وأيقنت أن الكلام صحيح. ابتسمت بمودة وقالت:

ـ معك حق. لا شيء أغلى من الولد. ستردينني خائبة إذن؟

هذه اللطافة، الدماثة وأكابرية الموقف، زعزعت تصميم خولة. أحست أن حزمها ارتخى وانشق فيه درب من التساهل. وكان درباً سارت عليه المرأتان فيما بعد نحو صداقة هي أيضاً كانت سراً من الأسرار. وبعد أن أخذت خولة قياسات السيدة، وودعتها، أخذت تعمل في صنع ملابس ولدها وحس الحياة يكبر فيها ويتسع. كانت قد رأت في سنوات العقم حكمة علوية، وها هي ترى في حادث الحمل حكمة أعلى. سراً. والحياة جميلة بأسرارها. كان سراً اليوم الذي هرعت فيه إلى عزيزة وفطمة وكلثوم ـ الحقيرة، لعنة الله عليها ـ ودخلت ذلك السر. بقيت فيه واستمر. ويوم بدأ شكيب يطلب المال بدل أن يأخذه من يدها الممدودة، حملت. فكيف تفسر هذا؟ لقد أطلت برأسها من فوهة البئر، وشاهدت، وثارت ـ على شكيب وكلثوم وأشياء كثيرة أخيرة ـ ثم تقدمت في عملها خطوة فخطوة أعلى وأعلى: أليست هذه كلها دليل عناية خارقة؟

عندما حكى لها شداد بعد فترة حادثاً صغيراً جرى قرب كوخه، انفتح في خاطرها باب موصد. قال إنه ذات مساء، قبل أسبوع تقريباً، كان عائداً من المدينة على دراجته، وقد أطفأ ضوءها ليستمتع بالطريق الترابي، لمح أمامه زولاً على دراجة أخرى. أسرع بدراجته حتى صار وراءه، والتفت الرجل. ويا للمفاجأة! حسن الغفري بلحمه ودمه. أوقف شداد دراجته لأنه لم يدر أي شيء غير هذا يمكن أن يفعل. وهتف: «سيد حسن!»

قال حسن بتلكؤ إنه اشترى البيت الطيني المجاور، وراء أشجار السرو. ما شاء الله، صار شداد شاباً. لا ليس وحده، معه أولاده الثلاثة. زهرة ستقدم شاياً لشداد إذا جاء وزارهم.

قال شداد:ـ تصوري. هذا الإنسان الذي ظنناه انتهى. رئيس ورشة الآن، فيها ولداه، رمضان وبديع. وابنته زهرة آية في الجمال.

قالت خولة: ـ مثل أمها. أمها كانت ملكة من ملكات الزمان.

وعجبت أنها تذكرت هذا الجانب من شخصية مريم. بعد ذلك اللقاء، لم تعد تتصورها إلا في تلك الغرفة الموبوءة، رئتها تنفجر دماً على فمها، وفمها ينفث الكلمات الآثمة المرعبة. كيف خطر الجمال على البال، وليس العقوبة المفروضة المستحقة!

تذكرتها أيضاً يوم ولدت، أثناء تلك الدقائق التي تصير أبـداً. الألم القارح، الصراخ الوحشي، عض الأصابع حتى البتر، التكلم مع الموت وعنه. بعد أن خرج الجنين وكانت أعيا من أن تلتفت اليه، عبرت خاطرها صورة مريم: هذه المرأة التي أنزلت من صلبها ستة أولاد، كانت تصارع الموت فقط لكي تدنيه؛ أما خولة فقد صارعته وأبعدته. تماماً مثلما انتفضت ذلك اليوم وتعهدت بخياطة فستان، وكانت في حالة أسوأ من الموت.

جاء الطبيب ليسجل اسم الصبي، ولم تتردد. كتب الطبيب الاسم وقدمه من عينيها. غمغمت: «حيان، نعم، هذا هو الاسم.» وأحست أن الأمور اكتملت، وأنها، هي خولة الخياط، في حالة علوية.

تذمّر شكيب لشداد تذمراً متساهلاً: «أختك تتصرف كأن حيان ابنها وحدها. كلما لمسته، صاحت، خافت أن أؤذيه.» ولكي لا يبدو شكياً غيّر الموضوع وهتف: «ماذا تقول في الوحدة بين سورية ومصر؟ هل سنستفيد منها؟» قال شداد باستحياء إنه لا يعرف، لكنه يشعر أن الوحدة جميلة. وعقب شكيب: «المهم، المخالفات تظل كثيـرة». وضحك، ونهنه شداد، وابتسمت خولة.

جاء عبسي أخيراً. سمعت خولة صوته فهرعت من سريرها وتجرجرت الى البهو الصغير. فتحت ذراعيها وارتمت على منكبيه. وظل هناك حتى هدأ عناقها له، وتهدلت ذراعاه على ظهرها، مبتسماً لشكيب ابتسامة صابرة. بعدها أدخل حقيبة ضخمة من وراء الباب، سار بها الى غرفة النوم، وضعها وداعب الوليد، قبّل أصابعه، فتح الحقيبة، أخرج رزمتين كبيرتين: «هذه لحيان؛ ألم تسمه حيان؟» «طبعاً سميته حيان.» وسأل شكيب: «لماذا اخترت اسم حيان يا سيد عبسي؟ هل له معنى؟» قال عبسي وهو يمشي الى غرفة الخياطة: «طبعاً. الحياة، المليء بالحياة. الجيل الذي سيجعل الوحدة العربية قوة عالمية ويحقق الاشتراكية.» جلس الثلاثة على الكنبات. قال عبسي وهو يتفحص براحة يده ذراع الكنبة: «لا بأس بها. والله يا خولة أنت تطورت تطوراً عظيماً. المرأة العاملة! شيء مختلف تماماً.» قال شكيب: «برأيك يا سيد عبسي، ستقوم الوحدة بين سورية ومصر؟» قال عبسي وهو ينظر إلى الشباك: «لماذا لا تقوم؟» والتفت بحيوية: «لا أحد يجرؤ على الوقوف ضدها. الوحدة قدر العرب، وسنسحق كل من يقاومها.» «والأحزاب؟ سمعنا أنهم سيحلون الأحزاب.» «الشعب كله ملتف حول غاية واحدة، وقائد واحد، لماذا الأحزاب؟» قالت خولة «خلونا من حديث السياسة! عبسي، أرى في يدك خاتم خطبة.»

قال عبسي إنه تعرف بالفتاة مباشرة، في منزل أحد الأصدقاء. ثم التقاها عدة مرات وتعزز الانسجام بينهما. بنت زكية الروح، مرحة حلوة، ولا علاقة لها بنفسية أهلها البرجوازيين. لأن أهلها أغنياء يملكون نصف شارع في حمص. وهذا هو عيبها الوحيد. في حالة كهذه لا بد وأن تتأثر البنت ببيئة عائلتها. لكنها على العكس، بسيطة متقشفة، وديعة متواضعة، بل وتكره حالها لأنها غنية. قالت خولة: «مع ذلك يا عبسي. لو تأنيت في الخطبة كان أحسن. نحن الفلاحين لا نقدر على حياة الأغنياء. يجيء يوم وتصير البنت تطالبك، أريد الشغلة الفلانية، والشغلة الفلانية.» قال عبسي وهو ينظر من الشباك: «لا، لا يهمك. أنا أعرف البنت تماماً. لا داعي للخوف.» والتفت الى أخته بحماس: «فدوى شيء مختلف تماماً عن النساء. وعلاقتنا ليست مقتصرة على الإعجاب الشخصي، وإنما يدخل فيها الإيمان بهدف واحد، بحياة جديدة، واعتبار الحياة طريقاً للنضال من أجل كرامة الناس وتحقيق العدالة.»

قال إن الخطبة لم تتم بسهولة. كان عليه أن يناضل لانتزاع حقه في البنت مثلما كان على أي فلاح أن يناضل لانتزاع حقه في الأرض. وقد فشلت جميع الوساطات مع أهلها. ركبوا رؤوسهم: كيف يزوجونها لفلاح. وعندها اقتحم عبسي بيتهم، وبهدوء تام، بمنطق وحزم، أفهم أباها أنه ساعة يتحابب اثنان تسقط الاعتبارات الأخرى كلها لأن الاعتبارات هذه بالية والناس صاروا كلهم سواسية في هذا العصر الجديد. ولمح له تلميحاً كافياً إلى وجود وسائل أخرى غير المنطق، قد تعود بالضرر على العائلة كلها. وللحال تغير شيء في موقف العائلة. ابتسم عبد البر بك وقال إنه إنما كان يختبر حب عبسي لفدوى، والآن تأكد أن حبه عظيم، وما عاد لديه مانع، سوى أن عبسي يجب أن يقبل بالمعجل والمؤجل.

شهقت خولة من هول المبلغ: ثمانون ألف ليرة! لكن عبسي طمأنها الى أن هذه أرقام على الورق، وفدوى ستتنازل عن المبلغ في المحكمة، مباشرة بعد الزواج. غير أنها لم تقتنع، ولولا صيحة من حيان رفعتها عن الكنبة، لأبدت لعبسي استياء أعظم وتحملت المزيد من سخريته.

قال شداد إنه التقى باسماعيل السندياني، الذي حمله التحيات والمباركات الى خولة، واعتذر لعدم تمكنه من

الزيارة: «أنت تعرف، تعرف الظروف يا ابن عمي.» وجمد الخبر خولة دون أن تعرف السبب. بالطبع، اسماعيل السنديان، القمة التي هوت. سألت شداد كيف أحواله. وقال إن اسماعيل مرتاح وماشي حاله.

ـ يعني عنده كنبات في البيت، وغيرها؟

ـ لا، لا تذهبي بعيداً. قصدي، هو وعائلته يشبعون الخبز. وسعداء ومتحابون.

ـ ماذا يشتغل في هذه الأيام؟

ـ يشتغل في رحبة الجيش. ميكانيكي سيارات.

ـ ميكانيكي سيارات، اسماعيل! كم ولداً صار عنده؟

ـ ثلاث بنات.

اسماعيل السنديان. القمة التي هوت. كيف نزل هو، وصعدت هي. حقاً، الحياة أسرار. كان مهيأ لزعامة المنطقة. وبدلاً من أن يمشي على تلك الطريق، تزوج خادمته، ابنة مرابعه، وبسبب الكبرياء هوى على الأرض.

آخر المساء عاد عبسي. كان التأثر بادياً على وجهه. رمى سدارته على القاطع وانطرح إلى جانبها. سأله شكيب ماذا به، فهز رأسه بشرود:

ـ دنيا غريبة. زرت اسماعيل السنديان في بيته. أليس مأساة مصير هذا الرجل؟ قبل عشر سنوات كان قادراً أن يحرك عشرة آلاف نسمة. ولو ظل هكذا لكان الآن نائباً في البرلمان. الآن، هذه العيشة الكئيبة، والبيت الكئيب..

قالت خولة: ـ يمكن، ما في بيته شيء تقعد عليه.

ـ قولي، هذه بسيطة. الفظيع هو البؤس الذي لا حد له. الحياة الفارغة تماماً. أنا لو كنت محله أجن، أهستر. مأساة. بيته غرفة كبيرة ينام فيها مع زوجته وأولاده، وصالون أمامها. كلها عتم في عتم. وغرفة استقبال! وكأن المصيبة الأساسية لم تكف؛ سرحوه من شغله اليوم. سألته ماذا ينوي أن يفعل، قال إنه سيفتح دكاناً لشي اللحم. وهي فكرة تراوده منذ زمن، قال، لأنه لا يطيق أن يأمره أحد. تصوري! رغم كل هذا، ما زال يحكي معك وكأنه اسماعيل السنديان القديم: هو الذي كسر الخرافة، هو الذي حمل مشعل التطور، هو الذي ألغى المسافة بين الآغا والمرابع، هو الذي بنى مدرسة. يعني، حالة. ولا يمكن أن تأتيه من باب. لا يشعر أبداً بوضعه الحاضر الرهيب.

قال شكيب وهو يضع رجلاً على رجل: ـ أنا أعرف اسماعيل. ولدنا في سنة واحدة. كل عمره، أنفه الى فوق.

لم تستطع خولة حضور حفلة زواج عبسي. لكن شداد حضر. وبعد انقشاع الدوي أجابها عن كل الأسئلة. المحصلة: عرس مطنطن قامت له حمص وقعدت، والتكاليف كلها من جيب والد العروس. وقد منحها حيان عزاء. في أول يوم من أيام العرس، اقتربت يدها بحركة غافلة من عينيه، فرفرفت أجفانه. مدت أصابعها مرة أخرى وتلقت رد الفعل نفسه. طارت فرحاً. أحست أن الدنيا التي بدأ حيان يراها عادت لا تسعها. اختطفته عن سريره وضمته على صدرها حتى صاح ضيقاً. وانهالت عليه بتلك الكلمات الحوشية الغريبة، التي دأبت على تفريغها منذ ولد حتى صارت لغة قائمة بذاتها. وبعد لحظات وجدت نفسها تخاطبه بجمل كاملة، أو بسلسلة أصوات كل حلقة منها تصنع جملة.

كان حيان عالماً جديداً. يوم خرجت من شرنقتها وبدأت شغل الخياطة، انفتح أمامها عالم جديد. لكن ولادة حيان أمر مختلف تماماً. لا شبيه له. لا يقارن. وفي ذلك الربيع بلغت أوجاً لم تبلغه من قبل. كانت في الثامنة والعشرين، امرأة أحست أنها وقفت على قدميها، أما تمتلك فرح الأمومة، زوجة لا تخل بأي من

واجباتها الزوجية. كل شيء استوى واتزن وهي تمشي إلى أمام. ويوم جاء عبد الناصر الى المدينة، وازدحمت الخلائق لرؤيته، أحست أن السواقي قد اتصلت، والنهر صار كبيراً، والحياة انفسحت كالمحيط. حملت حيان بين ساعديها، وهي تشعر أنها ساقية خدقت بالماء النمير، وهرعت الى الساحة لتصب مع الجماهير وبينها وتضيع فيها. «هذا هو عبد الناصر يا ماما»، هتفت بابنها. «تطلع، تطلع اليه، كم هو طويل وعريض.» ورفعت الولد إلى أعلى نقطة وصلتها ذراعاها، وضاع جسدها وجسد ابنها في الزحام المتلاطم.

تذكرت هذا الضياع فيما بعد، يوم جاءها ضياع من نوع آخر، أرهقها لأنها لم تعثر على ذاتها في ساحة ولا في أحد. وقارنت. غير أنها بعد فترة وجيزة، عندما زارتها حبرية الريحان وأوصلتها إلى ضياع من نوع ثالث، لم تقارن.

كان رنين الجرس متواتراً ومستمراً إلى درجة مزعجة. وقررت خولة أن تؤنب القادم كائناً من كان. غير أن حبرية لم تترك مجالاً للتوكيد على الحرية الشخصية والحس السليم. ما إن انفتح الباب حتى صرخت. «خولة! ألف مبروك!» واندفعت الى الداخل كهبة ريح غبارية، احتضنت خولة حتى كتمت أنفاسها، وتركت على خديها أربع شفاه من الحمرة الرخيصة الفاقعة. «أرنيه، أرنيه، أين هو؟» وهتفت خولة مبهورة: «العمى في قلبك. انتظري لأشوفك، داخلة مثل الزوبعة».

قالت حبرية إنها ولدت ثلاثة صبيان، وأن أبا ياسر يريد الآن بنتاً، وأنه انتقل الى اللاذقية، وأنها فور أن ركزت حالها في غرفة أسرعت لتبارك لخولة بابنها، وجاءت بهدية بسيطة، وحسبت أن خولة ستكون مشغولة للغاية بالخياطة، وهي الآن خياطة عظيمة، لذلك أقفلت الباب على أولادها وجاءت بمفردها، وقد أعطاها أبو ياسر ثلاث ساعات وذهب..

هتفت خولة مبهورة: ـ ويلك يا حبرية. اسكتي شوية. نازلة علي مثل المطر.

سكتت حبرية. تأملت الغرفة، وراحت خولة تتأملها: الشفتان المطموستان بالأحمر، الجفون المثقلة بالمصخرة، الفستان الجاهز، الكندرة النفيسة. وصاحت حبرية: «حالتكم مثل حالتنا، يمكن أحسن شوية. نحن ما عندنا غير الكراسي. بس ثلاثة أولاد يقصون الظهر. كل يوم ثلاثة كيلوات خبز.»

استمر الحديث، عادياً وجياشاً. حضرت الذكريات. وضحكت حبرية بصفاء هادىء، إذ روت لها خولة كيف اهتزت الشير بأربعتها يوم شردت مع حمود. قالت بوداعة: «كلهم فكروا أني سأصير مثل مريم خضير. خنقونا بمريم خضير. عملوها كابوساً. إذا عشقت الواحدة، أو طرفت عينها بشاب، صارت مريم خضير. وإذ به ليس أحلى من العشق.»

وراحت تصف لخولةأحوال العشق، أفراحه، عذاباته، جماله، قلقه، صفاءه، خناقاته، وكيف يصب كل شيء في نهر لذته الكبير حتى يصل الى تلك النشوة الخارقة التي يعرفها العشاق فقط. وعندها لكزت خصر خولة بمرفقها، فجفلت تلك. غمزت بعينها وهمست: «كيف؟ أما هكذا أنتم، أنت وشكيب؟» وجفلت خولة، لكنها تماسكت: «يقطع عمرك، يا حبرية. نسيت أنك بنت شيخ؟» «وإذا كنت؟ يعني أمي جلبتني من الهواء؟»

ـ طبعاً لا. الناس يعشقون ويتزوجون ليأتوا بالأولاد.

ـ يخرب بيتك! ألهذا عشقت أبو حيان، وخربت الدنيا لتتزوجيه؟ بعدك بنت الشيخ عبد الجواد، ما تغيرت.

كان التعليق مفاجئاً جداً. وفوق هذا: أبو حيان؛ وخربت الدنيا لتتزوجيه. شكيب؛ أبو حيان. ولكن لماذا عشقته فعلاً؛ هي ما تزال تحبه. لكنها وضعت الأفكار جانباً ونبرت بحبرية:

ـ حبرية! والله مريم خضير ما حكت حكيك.

ـ أووه! وأنت أيضاً؟ يعني أنت لا تعرفين تلك النشوة الخارقة. معقول؟

ـ عن أي نشوة وفشوة تحكين، رضا المجنونة.

ـ يه! نشوة العشق، نشوة العشق.

ـ أكيد أنت مهسترة.

ـ يخرب بيتها! بطّلت تفهم. وقت يضمك أبو حيان، ماذا يكون شعورك، ألا تشعرين أنك تذوبين بين يديه؟

ذلك المساء والمساءات التالية، استعادت كلمات حبرية بحيرة واجمة. نشوة خارقة. هل ممارسة العشق غير قذارة لا بد منها؟ وفوق هذا: أبو حيان! يا للغرابة! كان مزاح شكيب منذ فترة كلاماً له أساس. لماذا لا تشعر أنه أبو حيان! مع أنه أبوه. مع أنها تحبه وتراه ضرورياً. وتقوم بواجباتها نحوه. أجل، ما تزال تحبه، ما تزال تحبه. وكل شيء ثابت الآن. ومستمر. لا كلثوم ولا صفية، ولا غيرها. ولكن ما هذه النشوة؟ الخارقة. أصحيح كلام حبرية أن المرأة تجد لذة أيضاً؟ أنها بعد حين قصير «لا وجع ولا يتوجعون؟» حتى الآن يجيئها الوجع. سوى أنها اعتادت عليه. نعم، اعتادت عليه، وذلك التاريخ مضى. شكيب هو الذي كتب الرسائل. الذي حاول أن ينتحر لأجلها. وليس صحيحاً أن الرصاصة انطلقت من تلقاء نفسها. ذلك التاريخ مضى. لا ضباب بعد الآن. لا ضباب بعد الآن.

انتظرت ساعة مساء لا خياطة فيها ولا شغل لدى شكيب. وطلبت مشواراً على الكورنيش وجلسة في مقهى بحري. وعندما اخترقا الشوارع القصيرة الى البحر، في ذلك الأصيل التموزي الحار، اكتشفت أن لهفتها للمشوار قد اعتدلت قليلاً. سارا معاً زوجين متجاورين. سارا بلا غرام. بأحاديث أليفة سريعة الانتهاء. وفي أول شارع البحر علقت يدها بساعد شكيب، وابتسمت، ورفعت وجهها نحو شمس الأفق الهابطة. تنفست بعمق. لقد أتعبتها الخياطة حتى الوجوم، والشغل أتعب شكيباً. تذكرت شعورها بأخوة الشقاء تجاه شداد، وابتسمت باطمئنان: التعب يذهب بالحيوية ويظل الصفاء، تظل الألفة، الألفة التي يعززها التعب.

أشاع الغروب في خاطرها سكينة رضية غبطة بجمال الطبيعة؛ لكنها لم تستطع نقلها الى شكيب. كان ينظر إلى الأمواج الصغيرة المدفدفة على الصخر المنخور. وقدّرت أنه، مثلها، يرى في حركة الماء جمال الاستمرار وحيوية النفس. غير أنه نظر الى ساعته فجأة وابتسم ابتسامة مذنبة. نهضت هي، وابتسمت:

ـ لازم أن تروح للمخفر؟

ـ بعد ما أغير ثيابي.

وبحثت يداه في جيوبه واحداً بعد الآخر، ببطء وارتباك. لم تنتظر. فتحت جزدانها ونتشت منه ورقة مالية.

ـ لا، لا، معي مال. لكن أين وضعته؟ تعرفين أين وضعته؟

ـ شكيب! أعرف معك مال. خذ قبل أن يرانا أحد.

أخذ. وعند البيت هرعت الى جارتها لتأتي بحيان. كانت سعيدة تماماً، فراحت تلاعب الطفل، ترمقه وترفعه في الهواء وتنزله، فيما هو يمد يديه ويغرف بهما شعرها، ويضحك ويخاف، فيثير فيها نشوة صافية. وولجت الباب المفتوح دونما انتباه. كان شكيب واقفاً بزيه الرسمي يتأمل المخلوقين بابتسامة مستوية. وهتفت هي:

ـ شكيب! لماذا لا تحمل ابنك ولا تدلله؟ أنت تتصرف كأنك لست أباه.

ابتسم أيضاً. بل وبدا عليه أكثر من الابتسام: غصّت عيناه بالدمع. تقدم منها وعانقها معاً. قبّلها، وبدا مهموماً وسعيداً ومرتاحاً وراغباً في الانصراف.

لاحظت خولة سيماءه المحيرة. غير أنها صرفت الأمر بسهولة، وأسلمت نفسها لفرح اللحظة. ثم ودعته حتى الدرج، وعادت بحيان الى السرير. وهناك أمضت نصف ساعة في ملاعبته وتخميشه.

كان نمو حيان مسيرة مذهلة. كلما نسيت أنه يكبر، فاجأها بشيء جديد. وكلما استوى فرحها كانت تكتشف أنه يكبر. وتفاجأ باستيعابه المتراكم للعالم الصغير الذي حوله. كانت زجاجة الحليب أول ما ميّز، أول شيء ارتعش له جسده ونهنه صوته. هذه اللهفة، وتفحص عينيه الفضوليتين للأشياء المألوفة والجديدة، منحاها الراحة المعقدة للشعور بالاستمرار. ذلك الفزع القديم من التوقف، الانتهاء، صار ذكرى كئيبة. جاء حيان وأبعدها عن النظر. جعلها تشعر أنها تكبر معه. كلما انتفض بين يديها، وهي تمسكه من صدره وفخذه في الجو، أحست أنه يحملها بعيداً، يطير بها.

لكن وقت نومه كان تدرجاً نحو مشاعر سادرة فاترة. الموكب يهدأ. الساحة تخلو، تعتم، إلا من سرير منير. وتتمنى خولة لو أن لها جناحين ترفرفهما حوله حتى الصباح. وفي لحظة ما يفد اليها الشعور بأن نموها توقف لأن حيان نام. ترى أنها فعلاً تكبر معه، لكن كلاً منها يكبر بمعنى مختلف. هو يكبر فتزداد فيه الحياة، وهي تكبر فتخاف. وتهرع الى الخائطة باحتدام، نصف هاربة من شعور ثالث مقنّع لا يعلن عن نفسه، نوع من الحصار، حالة إنسان يود أن يكشف الغطاء لكنه يخشى أن يرى ما سوف يرى. ربما هي تكبر، لكنها لا تنمو. ربما توقفت، لكنها تتحرك. ربما خلت حياتها من الجديد، لكنها ليست آسفة ولا خائفة..

ويمضي الزمن مع موكب آخر تأخذها فيه ربما وتعيدها ولاكن. كلما أتتها فكرة لاكنتها وردتها: حتى تغدو الأفكار لغة وحسب، صوراً، أصواتاً، تعتسن في الخيال الذي أتعبه انتصاف الليل.

عندها يهدأ الموكب، تخلو الساحة. ويستوي على ذهنها الواقع الراهن: إنها الآن ثابتة، لا تهزها الريح ولا يغمر رأسها ضباب رمادي. ويدخل شكيب، فينقفل صندوق الدنيا بابتسامة متبادلة متعبة.

كان حيان حديث الأحاديث. وكان شداد صابراً. هذا الأخ الرخو، صار عمره أربعة وعشرين عاماً، ولم يعشق أو يفكر بالزواج. صحيح أن عبسي تأخر أيضاً، لكنه الآن متزوج، وزوجه حامل، ويقبض راتبين أولها في سورية وثانيها في القاهرة. شداد رخو، لكنه يحسن الإنصات إلى قصص ابن أخته وحركاته. ولقد أبهجه وصفها لأسلوب حيان الخاص في تناول حليبه. طريقة عجيبة: يفتل قدمه اليسرى فيسند بها الزجاجة، وبيديه يمسكها. ومع كل مصة من الفم تصدر أمأمة من الحلق.

قال شداد إن هذا يذكره بالحياة التي يعيشها حسن الغفري مع أولاده الثلاثة. وهمّ بالشرح، ثم توقف. على وجه أخته لمح استياء بالغاً أسكته.

ـ خولة. لماذا عبست؟
ـ لا شيء. لا شيء.
ـ بالله عليك لماذا عبست؟ أنا لم أزعجك.
ـ يا حبيبي يا شداد، أما وجدت أحداً تقارنني به أنا وحيان غير حسن الغفري وأولاده؟
ـ لكن..هو أب ويحب أولاده!

صمتت وانشغلت بالخياطة. كان واضحاً أنها تكظم صدمة مغيظة، وترفض بصمت أقوى من الكلام إهانة المقارنة.

قال شداد متلبكاً : ـ أنا لا أفهم. فهميني أين أخطأت، وأنا آسف سلفاً.
قالت وهي تبتسم بصفراوية وتتابع عملها :

ـ يا حبيبي، أنت قارنتني مع واحد سافل، كان يأتي بالزبائن لامرأته إلى وسط البيت.
ونظرت الى أخيها فضحكت إذ عاينت دهشته الخرساء الفظيعة.
ـ وبعدئذ أولاده مثل حيان؟ هؤلاء ليسوا أولاده؛ أولاد مريم، أولاد لا أعرف من. ماذا بك؟
ـ أنا لم أفكر بحسن الغفري من هذه الزاوية.
ـ فكر فيه من هذه الزاوية، يا عيني، لأنها الزاوية الصحيحة. كيف فكرت اذن؟
ـ فكرت مثلما أراه وأقضي وقتي معه.
ـ تراه وتقضي وقتك معه! شداد، أنت تزورهم؟

ـ طبعاً أزورهم. وأشرب معهم الشاي. جماعة سعداء طبيعيون متحابون. لو ترينهم كيف يعامل واحدهم الثاني. الإنسان يتعلم منهم الحب. ورمضان سيعمل معي في غسيل الثياب وكيها، لأنه لا يحب شغلة أبيه.

قالت خولة بابتسامة ذات مغزى : ـ وستعطيه نصف أجرك.

ـ لا، لن أعطيه شيئاً. وهذا يجعلني أتردد في التعاون معه. اتفقت معهم أن اعطيهم دروساً. الثلاثة. تعرفين، هم لم يذهبوا الى المدرسة. وأبوهم لا يقدر على تعليمهم. وأنا وافقت. كيف أقول لك؟ الآن تنزعجين. أنا بصراحة، لم أجد أحداً أسعد ولا أحب منهم غيرك أنت وشكيب.

ابتسمت خولة ابتسامة طويلة الأمد. وبدا صمتها المنشغل بالخياطة طبيعياً ومريحاً. قالت :

ـ لو تعرف يا شداد.. السعادة لا تجيء بسهولة. العالم يتغير، يتغير. تعرف أني لولا الخياطة، كنت جننت. رغم كب حب شكيب وعطفه وحنانه. وصلت الى مرحلة، رأيت حالي أني لا أستحق حبه ولا احترامه. لأني كنت بالفعل لا شيء. كنت سأصل الى كارثة. لكن الله سبحانه وتعالى أنقذني. ألهمني إلهاماً، مثلما حكيت لك.

ـ والآن صرت أنت وشكيب أحسن. على قدم المساواة. هذا هو المهم.

في أواسط ذلك الخريف ظهرت لخولة الكارثة. كان حيان قد بدأ يمسك بالأشياء الثابتة ويقف بعض الدقيقة. وقالت لنفسها، وقد استبد بها الفرح: ها هو ذا يقف على قدميه في هـذا العالم. ونظرت لم تدر كيف وتسمرت عيناها على قدميه. وثبت اليه واختطفته عن الأرض. جلست على السرير. وعلى ساقيها مدت الطفل الفرح بملاعبة أمه. شدت القدم اليسرى وتركتها. عادت القدم الى وضعها الطبيعي. شدتها وتركتها. وطغى عليها الهول.

كان الوضع الطبيعي للقدم اليسرى غير طبيعي. التحمت بالساق من الزاوية الانسية، فاتجهت نحو القدم اليمنى. وأدركت خولة سر إمساكه زجاجة الحليب بتلك القدم المروعة. جلست على الأرض منهارة تماماً، مسمرة العينين على حيان. واستمر هو يخبط بيديه وساقيه، منتقلاً من مكان الى مكان، مطلقاً صيحات انفعال عميق بالأشياء التي حوله.

بعد قليل ركضت الى دكان أم عبودة، وهتفت لشكيب طالبة حضوره الفوري.

قال الطبيب ان تجليس القدم ممكن. قد يحتاج الى عملية إذا كان الوتر قصيراً أو العظم سيء التشكل، وقد يحتاج الى عمليتين. لكنه سيكلف مالاً. سأل شكيب كم، وأعلنت خولة أنها تبيع الفوق والتحت ولا تبالي، لكنها لا تريد أن يعرف أحد.

خلال الشهرين المرهقين اللذين أمضتهما قدم حيان في الجبارة، عرفت هبوطاً حاداً في فرحها وطمأنينتها. عاهة القدم لم تكن أقل من كارثة: كيف سيكبر الولد ويعيش بين الناس وهو ناقص قدماً؟ وكيف غفلت طيلة هذه الشهور عن خلل يمكن أن يكتشف في كل لحظة؟ كيف؟ ولم يطل بها الوقت حتى أدركت أن هذه الكارثة عقوبة، ليس إلا. عقوبة بدأت بالغفلة، والغفلة سبب كل إثم. وهذا الإثم مجهول. من أين لها أن تعرف بماذا أذنبت؟ لكن النذير واضح. وراح شيء صلب في قرارتها ينسل خوفاً بعد خوف، ويبثه في أربعة أطرافها. أيكون أنها ستبتلى مثلما ابتلي حسن الغفري؟ لقد باعت كل شيء، واستدانت مئة ليرة. وسوف تفعل أكثر لأجل إنسان تحبه.

وإذ تذكر حيان تمضي اليه. تتأمله مسجى على ظهره مثبتاً في السرير، لا يعرف شيئاً، ويعبث بلعبه. تبكي. قهراً وحباً وندماً، وفرحاً أيضاً: لأن حيان أخرجها من ذاتها، جعلها تأكل الخبز الناشف وتجده لذيذاً، وتغرق في الشغل وتجد تعبه مريحاً.

عندما أزيلت الجبارة في الصمت الجامح، وتحركت قدم حيان، غرقت عيناها في الدمع فلم تعد ترى القدم. وقال الطبيب أن عملية ثانية في المستقبل المناسب ستنهي المشكلة الى الأبد. وتحرك حيان. رفعه الطبيب وأنزله الى الأرض. مشى. وفي غمامة الذهول رأته يمشي فارداً يديه الى جانبيه، ويصل اليها.

ارتاحت. رأت أنها تقف على أرض أخرى غير مألوفة تماماً وغير طليقة، لكنها ارتاحت. رأت أن قليلاً من القلق ينعش قلب الإنسان، أن شيئاً من الخوف يجلو صدأها.

كان الشتاء صعباً ذلك العام. غير أن المدينة لم تنكمش. وأحست خولة أن ثمة أشياء كثيرة يمكن أن تهتم بها، وسخافات أكثر يمكن أن تستمتع بها. لقد رفعت عنها العقوبة، أو سترفع نهائياً بعد حين، فلماذا لا تنتشر قليلاً في مدى الكون الرحيب؟ لذلك استقبلت حبرية بلا توتر، وتباسطت معها، وأنصتت لنبوآتها المستمدة من فنجان القهوة. وضحكت عندما أعلنت أم ياسر أن خبراً سيأتي خولة بعد ثلاثة إشارات ـ ثلاث ساعات، ثلاثة أيام، أسابيع، أشهر، لا تدري ـ ويهزها هزة قوية.

ـ بعد الهزة التي أكلتها قبل ثلاثة أشهر، لا توجد هزات.

بعد ثلاثة أسابيع جاءها شداد عابساً مهموماً. قال إن اسماعيل السنديان نقل الى المستشفى بحالة خطرة، وأن مناحة ساحقة تعج بأسرته.

ـ اسماعيل في المستشفى! والله خبر. ماذا أصابه؟

ـ شلل في وجهه الأيسر وكتفه الأيسر. عينه لا تتحرك. نصف فمه لا يتحرك. ويده.

ـ شداد ماذا تقول!

ـ منظر مرعب. وهكذا فجأة. أفاق من نومه وإذا به مشلول.

ـ خذني اليه. متى يسمح بزيارته؟ خذني اليه فوراً.

ـ في أي وقت. أنا أدبر الموضوع مع البواب.

كان اسماعيل رابط الجأش، ملقى على السرير، مغطى حتى العنق بشراشف بيضاء. حوله زوجه وبناته، وحولهم سبع أسـر أخرى. لكنه إذ رأى خولة وابتسم، استحال في عينيها الى شبح. عينه اليمنى تحركت بحبور، وبقيت اليسرى جامدة. زاوية فمه اليمنى تحركت بالابتسامة وكشفت عن الأسنان البيضاء، وبقيت اليسرى جامدة. انفتح فمه كأنه يهم بالكلام، وتوقف.. ونطقت عينه اليمنى بالأسف، وغاب منها الحبور: لقد نسي أنه مشلول، ثم تذكر.

ظل شبحاً طيلة وقت الزيارة. ولم تستطع عيناها أن تألفا شكله الجديد. ومع أنها تماسكت واتزن حديثها،

وبدت موقنة أن ما أصابه سيزول بسرعة، لم تتغير صورته في عينيها عن أول لحظة شاهدتاه فيها. نظرت اليه ونظرت، مستفيدة من انشغاله بحديث شداد عن أقوال الأطباء، وبقيت عند نقطة ما بين الذهول والرعب.

قال شداد إنه لاحظ في الآونة الأخيرة قلقاً متزايداً في أفعال اسماعيل وأقواله. والحقيقة أن دكان الشواء الذي عمل فيه لم يوفر له زيادة كافية على رأسماله. فقد ابتلي اسماعيل بالكرم العربي. كان يطعم زبائنه بالدين، ويستجيب لطلبهم أن يتناولوا لحم الأطراف، فيبقى في آخر النهار مع أكوام الدهن واللحم الرخو التي لا يأكلها أحد. وكان شداد يأتيه بعدد من عمال الميناء، فيقدم لهم الشواء كأنهم ضيوف في بيته. «ابن عمي، ابن عمي، تريد توابل، توابل؟» كان يقول له بكلتنه المعهودة. وذات يوم قال له شداد بأدب وخصوصية، إن إدارته للدكان غير عملية، فضحك اسماعيل بصفاء: «أتحسبني مخلوقاً لهذه الشغلة، يا ابن عمي؟ لا. لكن الأيام تمتحنني كما امتحنت نبي الله أيوب.» قال إنه يعرف كيف يبيع اللحم الرديء أولاً، وبلا خسارة، ويبقى اللحم الهبر لآخر الوقت، ويأخذ منه لامرأته وأولاده، لكن الموضوع غير هذا تماماً. إنه أسلوب دنيء، ومع من؟ مع عمال الميناء الفقراء. قال إنه شخصياً غير منزعج. لو لم تكن عنده عائلة لاعتكف في زاوية مسجد ما. لكن العذاب الأكبر هو العائلة، ساعة المساء التي يلملم فيها كسور الخبز وفضلة اللحم ويحملها الى أربعة أفواه جائعة، لا تشبع مما يصلها ولا تجرؤ على الشكوى. هذا هو العذاب. الخبز. انه ينظر الى بناته وهن يتسرقن اختطاف لقمة الخبز إحداهن من الأخرى، صغراهن تنبطح على وجهها وتبكي قهراً لأن لقمتها اغتصبت، والكبرى تغص باللحمة المسروقة، والوسطى تغتنم الفرصة وتحشو فمها. والثلاث هياكل عظمية لا يعرف كيف تستمر على قيد الحياة. والأم تتشاغل بما لا معنى له، منتظرة أن يفضل لها من الوليمة ما تحرك به لعاب فمها.. هذا هو العذاب.

ذلك الليل تأخر نوم خولة كثيراً. اسماعيل السنديان، الأسطورة الطائرة، يصيبه فالج! الأمنية المستحيلة لبنات الشير، الفتى الخرافي، الذي هز المنطقة بمفاجآته، يصيبه فالج! ثم أغفت فلم يكن نومها نوماً. وأفاقت فظنت أنها ما تزال نائمة. نفضت رأسها قليلاً، وأحست أن بعض وعثاء النوم قد تطاير منه. ثم جزعت. شيء ما تود تذكره والاحتفاظ به، تطاير أيضاً. حلم؟ حلم، أم تتوهم أنه حلم؟ رمت اللحاف جانباً، لبست ثوب البيت، ومضت الى الشرفة الضيقة. رأت صبي الفرن ينطلق حاملاً الخبز السخن. تذكرت أنها لم تصنع القهوة ولم تأت بحبات الزيتون وورق البصل الأخضر من دكان أم عبودة. نهضت.

تناولت الخبز من الصبي، والزيتون من القطرميز، وعادت الى الشرفة الضيقة. ولحظة همّت بوضع اللقمة الشهية في فمها أنزلت يدها، وثبتت عيناها على آخر شيء رأتاه. لقد استعادت الحلم.

فيما بعد صارت تلك اللحظات تاريخاً شخصياً لها: أوائل عام ١٩٥٩ استعادت خولة الخياط حلماً خرافياً ظل يطاردها ثمانية عشر عاماً، شاهدته وقد تخلص من النقص الذي استمر فيه طيلة تلك السنين، وكان التخلص مروعاً.

ذلك الفارس الأبيض، الذي لم يبد له أي جسد في فائت السنين، الذي كان شكلاً غيمياً له أبعاد وليس له، الذي أقبل دائماً بلا وجه ولا عينين ولا فم، ودأب على الظهور كلما عبرت خولة برزخاً ضاق بسفينتها - أطل في فترة ما من ليلها الأخير، أبيض بأبيض، فرسه وشكله والغيوم التي تحلقت حوله، وكان له وجه وعينان وفم. وجه متهدل من الجانب الأيسر. عين جامدة من الجانب الأيسر. فم تفتر زاويته اليمنى عن ابتسامة ويبقى رخواً ساكناً من الجانب الأيسر.

رفعت خولة اللقمة الى فمها، ثم أنزلتها. لماذا اكتمل الحلم على هذا النحو؟ لماذا اسماعيل السنديان؟ أإلى هذا الحد تأثرت بمأساته؟ وحانت منها التفاتة فشاهدت حيان يأتي اليها زاحفاً. وضعت اللقمة في الصحن، ورفعت الطفل عن الأرض. قبلت قدمه اليسرى واستسلمت لعناقه. وأنستها عاهة القدم عاهة الحلم.

عند العصر أقبل شكيب. تذكرت أنها نسيت تهيئة طعامه. وأحست بغلظة المهمة. كان ظل كثيف يتغلغل في ذهنها. وفي المطبخ تحرك جسمها هنا وهناك، ثم صبت يداها الطعام في الصحن، ووقفت جامدة تماماً. أقبل شكيب فتذكرت. وقبل أن تتناول رغيف الخبز من المئزر رمقته بنظرة خاطفة، وانبلجت في عينيها صورة جديدة له. وضعت الخبز على الطاولة، وعادت مسرعة الى عملها. وإذ اطمأنت الى استغراقه في الأكل، أوكأت ذقنها على راحتها واستعادت الصورة المفاجئة. لقد بدا شكيب سميناً، بل وأقرب الى الترهل. كان له كرش واضح، يغور فيه الزنار الجلدي. وكان لحم حنكيه وافراً متهدلاً، اختفت تحته الياقة والعنق. قالت لنفسها إن الرجال هكذا. عندما يبلغون الخامسة والثلاثين وهم سعداء، تتجسد سعادتهم في الصحة الوافرة. ثم غابت صورة شكيب أيضاً.

مر المساء وتذكرت الصورة. ابتسمت لها كأنها دعابة منعشة. وصاح ديك الجيران، ولم تنعس. كانت قد نسيت الحلم والصورة، وأحست بنشاط زائد. ثم صمتت الإذاعات، ولم تنعس. كانت سعيدة بأرقها. وأحست أنه عون إلهي ضد تهديد لم تدرك كنهه.

بعد أسبوع جاءها الحلم مرة أخرى، بوجهه الجديد وأسئلته القديمة. ومضى النهار سريعاً بين مد من القلق وجزر من الخوف. وهذه الأسئلة أيضاً. كانت تسألها قبل أحد عشر عاماً. تذكرت أنها نسيت يونس ملحم أيضاً. ثم انبلجت في ذهنها ومضة وعي مفاجئة: أيكون أنها أحبت اسماعيل السنديان دون أن تدري؟ ابتسمت. هذه حقاً دعابة سخيفة. استعادت الحالات التي ظهر فيها الحلم، ووجدتها كلها حالات شدة. وهي الآن مرتاحة ومطمئنة. سعيدة. راسخة. لا شدة أبداً ولا من يشتدون. يا للسخف! لو كان اسماعيل من أحبته حقاً، لما استطاعت أن تحب شكيب. بالطبع. وهي تحب شكيب.

مضت الى غرفة النوم. كان شكيب قد استيقظ. حملت اليه ثيابه وسألت بفرح:
ـ ألن نذهب مشواراً اليوم؟
ـ تثاءب، وأنهى تثاؤبه بهمهمة: ـ مشوار يا روحي؟ طبعاً. ونأخذ حيان معنا.

كان غروب الشمس فريداً ذلك الأصيل. على غير العادة خلا ذيل السماء العالق بالبحر من أية غيمة. كان صافياً، جميلاً، منيراً، مفرحاً. تهدلت الشمس في البحر كأنها ذاهبة للنوم في حضنه الوسيع. وتلقفت خولة المناسبة بغبطة ونشاط. مدت يدها وشاركت يد شكيب في دفع عربة حيان. ابتسمت للمويجات والنسيم العليل وأصوات الصبي الصادرة. وتنفست بعمق هانىء.

قال شكيب وهو يستعد للذهاب الى المخفر إن بعض المال يلزمه لدفع إيجار البيت.
ـ لكنك أخذت مني سبعين ليرة. الإيجار كاملاً.
ـ صحيح. لكنه نقص خمس عشرة ليرة. قدمت هدية بسيطة لرئيس المخفر. سلة مشمش.
ـ لماذا تقدم له هدايا؟ أما تقوم بواجبك على أحسن وجه؟
ـ يا حبيبتي، أنت لا تعرفين حال الدنيا.
ناولته النقود ولم تتكلم. هو سيد البيت. وسيصعب عليها أن تحترم نفسها إذا كانت زوجة عاقة.

قالت حبرية إن أبا ياسر تأثر تأثراً بالغاً لمصيبة اسماعيل السنديان، زاره في المستشفى وقدم له هدية، بيجامة بخمس عشرة ليرة. واستمرت تلغو غير عابئة بانصراف خولة الى الخياطة، حتى اضطرتها الى الانتباه بسؤال مفاجىء:

ـ بذمتك، أما فكرت باسماعيل السنديان وأنت صغيرة؟

هتفت خولة بحنق: ـ مجنونة! لم يكن في الشير بنت تجرؤ على التفكير فيه.

ـ تفكير بس. كل بنت كانت تفكر فيه. ليس على التفكير جمرك.

ـ كيف تفكر بنت بشاب وهي تعرف أنها لن تتزوجه؟

ـ ولأي شيء لا تفكر فيه؟ والله أنت عجيبة يا خولة. كل الناس الذين يجيئون وتلتقين بهم، وبعدك بنت الشيخ عبد الجواد.

جاء شداد. سلّم على حبرية بلهفة عاقلة، وجلس. قال ان اسماعيل في وضع أفضل قليلاً، والطبيب أكد أنه سيشفى بعد أن تزول الصدمة النفسية، ولكن قد يطول الأمر سنتين أو أكثر. التفتت حبرية إليه، وبلا مقدمات سألته لماذا لا يتزوج. بوغت، وقد وجد نفسه مضطراً للخروج دفعة واحدة من جو مأساة راهنة، والدخول في جو آخر لا يعرف ما إذا كان شيئاً آخر. لكن حبرية لم تمهله:

ـ أقول لك الحقيقة. الزواج فرحة مرّة. لكن الحياة من دونه مرّة على طول. تزوج يا شداد تزوج. شف لك بنت حلال وتمتع بشبابك، قاعد على موج البحر في آخر الدنيا، وما هي الدنيا غير فرحة الزوج وفرحة الولد؟ يا ضيعان شبابك يروح هدراً ولا تستمتع به..

في الليل قرصها شكيب بأسلوبه المألوف، ففهمت. تذكرت أنها نسيت جسدها تماماً. منذ زمن بعيد صار الأمر مخافة صغيرة، ونفوراً أصغر وصبراً، شيئاً معروفاً مثل الخياطة. حتى الحرقة القديمة لم تعد موجودة. واقترب شكيب بأسلوبه المألوف، فتنبهت تنبه مراقب فضولي أثناء الدقائق الحاسمة الأخيرة من مباراة.

انتظرت إلى أن أغفى وفتحت الباب لخواطرها. لا شك أن هناك فرحة من نوع ما، وإلا لما طنطنت حبرية بالحديث عنها. حبرية ليست مريم خضير، فهي تحب زوجها. أين هي هذه الفرحة. وأمام حيان في سريره فالتفتت إليه. كانت قدمه اليسرى قد خرجت من تحت اللحاف، ويداه تحت أذنيه. إذا كان هذا الطفل البريء قد ولد وفي تكوينه خطأ، فلماذا لا يكون في حياتها خطأ أيضاً؟ وإلا ما معنى أن تكتمل صورة الفارس الأبيض بوجه اسماعيل السنديان المفلوج؟ نظرت إلى شكيب وقد تعبأت بشعور مراقب خبا فضوله بعد أن رأى أن مستوى اللعبة لم يكن رفيعاً. فجأة صار المراقب فضولياً، فقاسياً، فانفجارياً. أفرحة من نوع ما، أم كذب من نوع ما؟ إذا كان هناك كذب فأين؟ تأملت الرجل المتلولب أمامها: كرشه مضطجع أمامه؛ زاوية فمه اليسرى رخوة متهدلة، انفرجت قليلاً لتفسح مكاناً لتمدد اللسان؛ والتنفس غطيط؛ والخد الأيسر ضاغط بفعل الوسادة على العين اليسرى. هذا هو أبو حيان! هذا هو أبو حيان. هذا هو أبو حيان؟

لماذا أبو حيان؟ سألت نفسها في الأيام التالية. بالأحرى: هذا هو شكيب؟

قالت أم الفضل إنها تجد في علاقات الناس القديمة تسلية خاصة. حادث جرى قبل مئتي سنة، حادث همجي متوحش لا شك، لكنه ما يزال الأساس الوحيد لعلاقات آل العز وآل السنديان. كيف يتحمل الناس العداوة مئتي سنة؟ بدل أن ينفتحوا على الدنيا، يريحوا قلوبهم، يذهبوا إلى حيث الفرح والتطور، يمسكون ببذرة شر ويسقونها من مشاعرهم وأحاديثهم فلا تموت ولا تسمح بالحياة.

قالت خولة: ـ لا تزعلي يا ست أم الفضل، بس أنا أذكر المرحوم أبي كان يقول، لولا أن ابراهيم العز تعاون مع الفرنسيين، كانت أعمال البر والتقوى التي قام بها تغفر له ولآبائه.

قالت أم الفضل بامتعاض خفيف ووداعة بيّنة:

ـ تعاون مع الفرنسيين يا أم حيان، لأي شيء؟ وهو لا يحتاج إلى أحد. هذه الطرق التي شقوها، وصلوا الريف بالمدينة. المستشفيات والمدارس، المصانع. والشيخ صالح، الله يرحمه، خرب الأرض، والزرع والشجر. صار يسوق الفلاحين المساكين إلى موت بلا ثمن. هو كانت له قدرة على فرنسا؟

ـ على أي حال، فرنسا هي فرنسا، احتلت بلادنا. هذه حقيقة.

ـ الحقيقة يا أم حيان لها أكثر من تفسير واحد. أنا متأكدة أن هدف ابراهيم العز كان خدمة البلد، لا خدمة فرنسا. لكن خلينا.

لم يكن الحديث مهماً كله. فرنسا والثارات القديمة والزعامات، صارت الآن في الخلف. أما أن يكون لكل حقيقة أكثر من تفسير واحد، فمفاجأة حقيقية. أيكون أنها استخفت بالحلم لأن وجه اسماعيل فيه وجه آخر لحقيقة لا تعرف ما هي؟ ألم يكن الفارس الأبيض حقيقة فرح فأصبح حقيقة قلق وخوف؟ ولكن لماذا الخوف وليس في حياتها شيء تخاف منه؟ أليس فيها من الانسانية ما يجعلها تتأثر لمصاب اسماعيل إلى هذا الحد؟

أعلن شكيب أنه ورئيس المخفر وشرطيين آخرين سيقومون بعد يومين بجولة تفقدية في بعض قرى الشمال. تأملته بابتسامة فاحصة، وابتسم هو بارتباك. كان مسروراً لأنه سيقود سيارة رئيس المخفر، ومحرجاً لأنه سيترك خولة وحيان. وقال مسوغاً: «ومن هناك نمر على الزيتونات ونشوف كيف صارت».

كان عليها أن ترتب له بعض الملابس وزوادة صغيرة. لكنها لم تفعل. أحست أنها في الحقيقة تستعجل ذهابه، فقط لتنفرد بنفسها.

وغادر البيت فرادها شيء من الأسى وبعض خمول. بل وأحست بنوع من الخجل. ما كان ينبغي أن تشعر بالفرح لذهابه. على الأقل ما كان ينبغي أن تتركه يهيء حقيبته بنفسه. ثم أقبلت زحمة الشغل وثرثرات النساء، فصفا خاطرها واستغرقت. تركت لزائراتها أن يفعلن ما عبر في الخاطر دون أن يخشين زجرها أو سخطها. وتنازلت عن سطوتها تماماً. وعند العصر تخلت عن نوم القيلولة واستقبلت بعضهن. وعند المساء استقبلت بعضاً آخر. وظلت تنتقل من لسان إلى لسان وفنجان قهوة إلى آخر، مستمتعة ليس فقط بالحضور البشري ودوي الحياة، وإنما أيضاً بذكرى قديمة لأبيها وهو يلاحقها من زاوية إلى أخرى في الدار وهي تروغ منه وتختبىء حتى أفلتت. ثم بقيت وحدها. ذهب الناس. وهجمت عليها الطفولة، سليم، وانذارات أبي أحمد لها ألا تكذب، افتخاره أمام الناس، ثقة أمها العمياء بها، وأيوب والجيران، وأخيراً تلك اللحظات الحاسمة التي أوقدت فيها ادراكاً حاداً بأنها لا تحب يونس ملحم ولا تريد العيش معه. كانت جالسة مع عبسي عند النبع، وكان النبع صافياً، والهواء وأوراق الشجر، وأيضاً نفسها التي خلصت للتو من عذاب عام كامل. وكان عبسي كعادته مفعماً بالحياة والأمل.

استغربت ذكرياتها. هذا الجانب المتواري من حياتها الغابرة يخطر لها الآن بلا سبب. كل ما تفعله صحيح. منطبق تماماً مع وصايا أبي أحمد، وليس هناك كذب أبداً. اطلاقاً.

استعادت في ذهنها كل شيء تفعله، ووجدته صحيحاً حقاً. تضايقت من هذه الكآبات التي تختلقها اختلاقاً. أوَليس الاخلاد إلى النوم أفضل شيء تفعله فتطرد بلاهاتها العجفاء؟ ستستلقي على السرير، متمددة تماماً، مفرودة الاطراف، مستمتعة بالمساحة كلها، مثلما كانت تفعل في العرزال على السطح.

دخلت غرفة النوم. رفعت حيان من سريره. هبطت به على السرير ببطء، وعيناها تعبّان النظر إلى طفولته الغافية. ارتخت إلى جانبه. تحرك قليلاً ورست يده على عنقها. قبّلت اليد والأصابع والراحة والرسغ. قبلت كتفه وشعره، جبينه ووجهه وفمه، غمرت وجهها به. وبكت. بكت بلا حذر ولا تماسك. لم تسأل أسئلة. لم يخطر لها أن ترى ما إذا كان بكاؤها دليلاً على شيء ما، أو نتيجة لشيء القلق وشيء الخوف اللذين رحبت بهما قبل شهور، ولا حتى إذا كان اعترافاً بالكذب.

قبيل الصباح جلست في الشرفة الضيقة وخاطرها سائح في الزمن، وذائب. ليس غريباً أن تكون عشرة أعوام من عمرها كذباً بكذب، وأن تكون عنيترة قد صنعت لها حبها. ولكن، عشرة أعوام؟ أيعقل أن

يكذب الانسان هذه المدة كلها، بلا انقطاع؟ بلا انتباه؟ لماذا يصعب على الانسان أن يعرف الحقيقة؟ أو أن يبحث عنها؟ أحست أنها لم تعد تمتلك القوة على التشبث. هو ذا جدار آخر ينهار. سوى أنها الآن تعرف ماذا تفعل، أين تذهب.

أحست أنها واقفة في مكان وراء الخوف والقلق، أنها تسللا منها ومضيا إلى البحر. وأن سماء الصيف الصباحية تهمي رذاذاً من الحزن يبلل وجه خاطرها الصاحي. هذا الزمن كله! والنتيجة، لا شيء. يا لعمر الانسان! غير أنها الآن مرتاحة. لقد كانت تكذب. وهذا أفضل من أن ترتاح لاعتقادها أنها لم تكن تكذب. أهو كذب؟ ماذا يسمى الناس شعوراً يقينياً بحب ليس يقينياً؟ أجل. لقد انهار الجدار. وليس مؤكداً ما إذا كان انهياره هو الحقيقة كلها. على أية حال، هناك حيان، وستعيش لأجله.

واعتقلت خيالها صورتان متناوبتان للفارس الأبيض، واحدة بوجه اسماعيل المفلوج، وواحدة بوجه شكيب النائم. تحيرت. ما علاقة اسماعيل في الموضوع وهي لم تحبه؟ أحست أنها تكرههما معاً. بشكل خاص، اسماعيل. هذا الشلل في الوجه، أليس شللاً أصابها هي قبل زمن طويل؟

متى بدأ الانحلال؟ بعد أن خاطت أول فستان. ربما قبله. ربما بعده. ربما يوم اكتشفت علاقة شكيب وكلثوم؛ ومع غيرها فيما بعد. أنى لها أن تعي الزمن بهذه الدقة. الزمن يمضي، والحياة تمضي، ولا أحد يعي. كان الانحلال واضحاً مذ حاولت أن تمسك امساكاً بحبها لشكيب، أن تحيله إلى سلـوك وتصرفات تؤكد لها أنها تحبه.

عاد شكيب. وعندما جلس يحدثها عن الجولة وزيتونات الدروقية أحست بالخور. كأن كل ما اكتشفته لم يكن حقيقة. رأت فعلاً أنه ليس حقيقة. هواجس أثارها ضغط الحياة وتشتت الذهن، وحالة اسماعيل المرعبة. أصغت لشكيب بانتباه قوي، وسألته أسئلة كثيرة. واختتم شكيب حديثه بأسف واضح. لقد مضى الزمن الذي كان الفلاحون فيه يستضيفون الدرك أو الشرطة. عجيب كيف يتغير الزمن ويتغير الناس. لقد كلفته الجولة كل ما معه من مال. وهو الآن مضطر إلى أن يطلب منها.

كل عضلة في جسمها تقريباً تحفزت. الآن، سوف تختبر نفسها. قالت:

ـ كان معك مبلغ محترم. كله صرفته؟

ـ كله. تعرفين، عيب أن يترك الواحد رئيسه يدفع عنه.

ـ والله يا شكيب أنا ما معي ولا قرش.

ـ مستحيل! أنت دائماً معك.

ـ ما معي.

نهض عن الكنبة بابتسامة هازئة ودخل غرفة النوم. وبعد قليل عاد. ابتسم مرتجف الشفتين:

ـ أين وضعت المال؟

أجابت بنبرة عادية: ـ قلت لك ما معي.

ـ وثمن حليب حيان؟

ـ دفعته.

ـ استديني من أم عبوده. أنا لا أملك ولا قرشاً.

ـ شكيب! أنا من عادتي أن أستدين من أم عبوده؟

لم يقتنع. لكنها تمسكت بموقفها الودود، المثبت على خوف ثلجي منه. وحين انصرف غاضباً لأنها أهانته، استعادت شعورها عبر المشهد كله، ثم شرد خاطرها. ووجدت نفسها مرتاحة.

خلال الأسابيع التالية سارت الحياة سيرتها المألوفة. لم تعتذر لشكيب، لكن الأمور الأخرى بقيت كما هي. بعد كل شيء، هي زوجة، ويجب ألا تهين هذا الرباط المقدس. وتقبّل هو ما حدث تقبلاً تدريجياً، إلى أن اطمأن بدوره أن الحياة الزوجية لم يصبها الخلل.

ذات مساء جاء شداد متفتحاً أكثر من المعتاد. قال ان أحد أصدقائه في الميناء عرض عليه العمل ككاتب في مصلحة تفريغ السفن وشحنها. هو درس الثانوية، ويعرف الانكليزية، لذلك سيكون راتبه محترماً، ويتخلص من دخل غير مستقر، ومن المنافسة، ومن سطوة أصحاب الزوارق.

قالت خولة: ـ وماذا تنتظر؟

تلكأ قليلاً، ثم أجاب: ـ أنا قبلت وانتهى الأمر. أنا أحب عيشة الميناء والعمال هناك. عيشة جميلة. لكن، الصراحة، أنا لا أحب أن أرتبط بالدولة. الدولة غول.

ـ ستشبع الخبز.

ـ أعرف. وسأخسر حريتي. لا أحب أن تحكمني الضرورة.

ـ شداد. آن لك أن تخلص من هذا التردد والحيرة. وتستقر على شيء في حياتك.

ـ أنا فعلاً غير مستقر. لكن المشكلة يا خولة، يعني ضروري الانسان يخسر إما الخبز وإما الحرية؟

ـ هناك عالم. لا خبز ولا حرية. ما لك ولهذه الأفكار؟ ستوصلك إلى أن تشتغل بالسياسة.

ضحك بعبث: ـ الشيء الوحيد الذي فيه حياة هو السياسة.

ـ خذ إذن.

ناولته من درج الخائطة رسالة عبسي. قرأها باستغراق: عبسي صار أباً، وابنته سوسن في صحة جيدة، ويسأل عن شداد وأحواله، ولماذا لا يكتب له.

قالت: ـ تظن أن أباك كان سيرضى عن عبسي أكثر، أو عنك أكثر؟

فاجأه السؤال: ـ أبي! ما دخل أبي في الموضوع؟

وفاجأها سؤاله: ـ أبوك ربانا، وعلمنا أي شيء هو الخير والشر.

ابتسم نصف مطرق: ـ أنا لا أذكره إلا قليلاً. الحقيقة أنا عمري ما فهمته. كان غامضاً، غامضاً، بعيداً. وأحياناً غير انساني. مع أنه عيب أن أحكي عنه هذا الحكي.

ـ لا يا شداد. لا تخطىء بحق أبيك. أبوك سند، لك ولي.

بعد أقل من شهر أخبرتها أم الفضل أن شداد قد اعتقل. طمأنتها بقوة، وطلبت منها ألا تجزع، فأبو الفضل يتصل بمعارفه للافراج عنه. وتمالكت خولة أنفاسها بعد هذه المقدمة الوجيزة:

ـ لماذا اعتقلوه؟

ـ يبدو أنه أطال لسانه. تعرفين الحكي في السياسة، هذه الأيام، لعبة خطرة.

عشرة أيام وخولة لا تعرف الرقاد. كانت معارفها كثيرات، ولم تترك منهن واحدة ذات زوج مهم إلا واتصلت بها. وعندما جاءت أم الفضل ثانية لتطمئنها أن شداد سيسترد حريته بعد يومين، كانت قد نسيت شكيب تماماً. لكن شكيب لم ينسها. جاء يطلب مالاً مرة أخرى، وكانت تجفف جسم حيان بعد الحمام. لم تفكر طويلاً:

ـ ما معي مال.

ـ كيف ما معك مال؟ كل مرة ما معك مال؟

اجتاحها الخوف. لم تنظر إليه. وكررت القول: ـ ما معي.

ـ اسمعي خولة. أنت تغيرت عن الأول. أنا أحلف يميناً أنه معك مئة ليرة.

ـ معي يا شكيب ولن أعطيك.. نسيت أن حيان يحتاج إلى عملية ثانية؟

رأته متفاجئاً تماماً. ورأت المفاجأة تنضح من وجهه غضباً لم يجد تعبيره بعد. وقف ينظر إليها بهذا الغضب الملتبس، رأسه جامد، وعيناه تحطان عليها لحظة وعلى حيان لحظة أخرى.

في وهلة ضعف وخوف تذكرت أبا أحمد وخيل إليها أنه كان سيعارض عصيانها لزوجها. غير أنها حولت نظرها عن شكيب، كأنما لتنظر في الخيال إلى صورة أبيها الغاضبة أيضاً. وبقسوة عاتية مخيفة، هتف صوت من داخلها: يا شيخ عبد الجواد، أما آن لك أن تموت؟.

★ ★ ★

(٤)

ـ لحظة هم عبسي بمعانقتي انتبه إلى أنفي المتورم الأزرق. وكانت نظرة واحدة كافية لفهم الموقف. عانقني مع ذلك. وبقي جامداً أمام شكيب. لكن ذاك أصر على أن يقبله من خديه. كان قد قلب البيت فوق تحت بحثاً عن المال. وسأل حيان عنه، فهرب حيان إلى الحارة وهو يبكي خوفاً. وأظن أن هدوئي قد أثاره أكثر. جاء إلي وجذب كرسي الخياطة بقوته الوحشية صارخاً أين المال. ووقعت على أنفي ونهضت فلطمني تلك اللطمة. المهم. قال عبسي وهو يجلس مقابلنا على الكنبة: ماذا؟ رجعت حليمة لعادتها القديمة؟ ولما بقي شكيب صامتاً تشجعت وقلت بعزم هذه المرة لازم أن نصل إلى حل نهائي. ووافق عبسي فوراً. هكذا حياة قال لا أحد يتحملها. غير الحيوانات. سكتنا بعدها. نظرت إلى عبسي وهو إلى شكيب وذاك إلى السجادة. وتشجعت وقلت عبسي أنا هذه المرة أريد الطلاق. تعرف؟ المرأة في بلادنا لازم أن تكون غبية. مثلاً. حرب حزيران مرت وأنا لم أفهم لها معنى. ولكن ليس هذا ما أريد قوله الآن. المرأة لازم أن تكون غبية لأنها مؤمنة لأنها ربيت على أن تؤمن أنها لا حقوق لها. لذلك، بعدما وافقني عبسي على الطلاق حتى رأيت أن رغبتي معقولة ولي حق فيها. وقال عبسي كلاماً قوياً ونزل في شكيب بهدلة وشتائم حتى صار شكيب يبكي ويحلف اليمينات أنه لن يعود للضرب مرة ثانية. ولما هدده أنه في مرة ثانية سيرسل له سرية عسكر تشبع منه ضرباً وتشرشحه في اللاذقية كلها اصفر شكيب ولم يعد قادراً على البكاء. الحياة فعلا غريبة وعجيبة. ست عشرة سنة مع شكيب وأنا لا شك عندي أنه شجاع لا يهاب الموت. ألم يحاول الانتحار لأجلي؟ وقت هدده عبسي صار مثل الكتكوت. وعندها تشجعت وقلت لعبسي لو تعرف بس لماذا يريد المال. وقال عبسي لماذا. قلت ليصرف على زبوناته. واحدة فاتحة بيتاً وواحدة تدور في الشوارع وواحدة شيء يقرف مستوى منحط.. المهم. عندها دار لسانه في فمه وقال لعبسي يا سيادة العقيد اسمح لي بكلمة. ماذا تفعل إذا رأيت زوجتك لم تعد تحبك؟ وقال عبسي في هذه الحالة الطلاق هو الحل الوحيد. فعاد ذاك إلى البكاء وصاح أنا لا أريد الطلاق فأنا أحب خولة ولا أستطيع العيش من دونها. هي السبب في تصرفاتي. خولة تغيرت. صارت شيئاً آخر من يوم صار عندها مدخول.

ـ وهو عن صحيح يحبك؟

ـ شيء يقرف. ما هو الحب؟ عشر سنين وأنا لا شك عندي أني أحبه. وبعدها ماذا؟ هواء. تعرف؟ لا أدري. غريبة. سأبوح لك بسر. عدني أنك لن تحكيه لأحد. ما لك ساكت؟

ـ أنا أستمع لك.

ـ عدني أنك لن تحكيه لأحد.

ـ ولماذا تتلفتين حولك كأن أحداً سيسمعك؟ أعدك يا ستي.

ـ الحقيقة. إذا كنت أحببت في حياتي أحداً فهو اسماعيل السنديان.

ـ إذاً.

ـ أيوه. إذا. لأني في الحقيقة لم أعرف أبداً، ما وعيت أني أحبه. لكن. غريبة. الحقيقة هو الذي أحببته. لكني أحببته كحلم لا كرجل. لا تفسير غير هذا. لكن البنت تتعلم منذ صغرها أنها تافهة ومصدر عار وذل. لذلك تغيب عنها حقائق القلب إذا آمنت بتفاهتها. هكذا أرى الآن. لو أني نشأت على الحرية كنت عرفت شعوري تجاه اسماعيل، بدلاً من أن أحوله إلى حلم. وكنت اعترفت لنفسي به يوم اكتمل شكل الفارس بوجهه المشلول. لكن الحياة، أخ. أعظم شيء في الإنسان يا شداد أن أعماقه من جوّه تظل صادقة. هذه لا يصل إليها الكذب. الآن ما عاد يفيد الندم. لم يخطر لي أبداً اسماعيل السنديان. حتى المنام لم أستطع فهمه حتى بعد أن دخل فيه وجه اسماعيل المشلول. كأني ربيت خارج نفسي. كأني أحببت خارج الواقع. وظهرت الحقيقة. لكن الشعور كان مات وتغير كل شيء. أنا ما عدت فلاحة واسماعيل ما عاد فارساً.

ـ أنسيتنا الحديث الأصلي.

ـ اي. يرجع مرجوعنا. عبسي قال لشكيب أن يخرج ساعتين أو ثلاثاً لأن له حديثاً معي. راح ذاك. قال لي عبسي صحيح أنت تريدين الطلاق؟ السؤال هزني. فوراً أحسست بالضعف وأن الطلاق غلط. لم ينتظر. قال ان هذا الطلاق سيكون ثالث أكبر فضيحة في تاريخ الشير. بنت الشيخ عبدالجواد طلقت. طبعاً الفضيحة الأولى مريم والثانية زواجك من بنتها. قال، ولا تزعل من أخيك، لأن زواجك هزنا هزة دوختنا. قال انه تكفي العائلة مذلة زهيرة بنت مريم، والمرأة المطلقة مذلة حتى ولو لم تفعل شيئاً. وما لا أعرف. ورآني صامتة والدموع في عيني فقال تشجعي واصبري على قدرك. هذا هو اختيارك أنت على كل حال وأنا يومها نصحتك وبعدها لم أتدخل. قلت هل ترضى يا عبسي أن أعيش في العنف والعبودية لأجل السمعة وكلام الناس؟ قال لا العنف ولا العبودية أنا كفيل بها. بعد الآن لن يحدث لك شيء. بكفالتي. وكرامة المرأة أهم من كل شيء آخر، وشرفها واسمها وما لا أعرف. بعدها رجع شكيب. جلس مثل المحكوم بالاعدام. وعبسي انتظر دقيقتين ثلاثاً قبل أن يحكي. قال له أخي نحن اتفقنا على الطلاق وخلنا نخلص من الموضوع بأبسط الطرق. شداد يا شداد. لو تراه وقتها. انطرح على الأرض وهو يجعر مثل الثور المذبوح. باس الأرض. باس الصرماية. اندغر على ساقي. لبطته ووقع. المهم. عبسي اعتقد أنه لن يعود إلى العنف أبداً. ورجعنا يا سيدي إلى اللاذقية.

ـ ويومها زرتك، لأني سمعت أخباراً غامضة من حسن الغفري، وخفت عليك. واستقبلتني بجفاف.

ـ صحيح. يومها ما كانت الأمور مكتملة بعضها مع بعض. أنا تمردت على شكيب. على سيطرته وتجويعه لي. وحسبت أنه وحده العقبة أمام راحة حياتي، وحريتي، وتصرفي بدخلي كما أريد. ما كنت عارفة أن موقفي من زواجك كان سلاحاً بيده. لأن الوقوف ضد زواجك كان معناه القبول بوضعي معه. وأنا اعتبرتك يومها لطخة على شرف العائلة. وإذا به هناك ألف عقبة لازم أن تزول ليزول هو.

ـ يا عيني على هكذا أخت.

ـ تعرف يا شداد؟ أنا أعتبر أن الموتى يعيشون في الاحياء. أنا أتذكر أباك ومريم خضير كلما كذبت. هل تصدق؟ كل واحد يخيفني من جانب. ماذا تظن؟ الصدق أصعب تجربة يواجهها الإنسان. ليس أصعب من الصدق غير الموت. لأقول لك. تعرف كيف تغير موقفي منك؟ في يوم أخذنا أبو الفضل أنا وأم الفضل إلى الميناء، ليرينا الشغل هناك. لأن هو عنده وكالة بحرية. ورأيتك على الرصيف. بنطلون وسخ. قميص بنصف كم. العرق يسيل على جبينك ووجهك. بيدك قلم ودفتر، وتفحص الشحن الخارج من الباخرة. والغبار والصراخ وعجيج الآلات. وقتها أحسست أنك أخي. ويومها بكيت وتمنيت لو أني أعانقك وأمسح عرقك بوجهي. لحظة الصدق تلك هي التي أعطتني القوة لأبقى مصرة على الطلاق رغم معارضة عبسي له.

ـ أكملي أكملي. لا داعي لهذه الرومنتيكيات.

ـ اي. رجعنا. شكيب صار يتصرف كأنه لم يحدث شيء. صار أرق في معاملته. وصار يعتني بحيان. علمه السباحة. يا حبيبي يا حيان. بأسبوع تعلم السباحة. ولا كأن قدمه عوجاء. طفل عجيب. أنا كلما ضعفت، ورأيته، يزول ضعفي. أراه يركب الدراجة ويفوت في الشوارع، بين السيارات والناس، ينفجر قلبي خوفاً وفرحاً. تفرج عليه وهو يلعب بكرة القدم في الحارة. وفي الحقل تحت. يطير بالكرة ولا أحد يلحق به. لا أحد من أولاد الحارة كلها يلحقه في الركض. كأن التشوه أعطاه قوة اضافية. بعكسنا نحن. نحن يمسك بنا التشوه ونمسك به.

ـ نعم. شكيب صار معقولاً.

ـ اي. طبعاً انتهت كل صلة بيننا. كانت منتهية من زمان. لكن بعد الحديث عن الطلاق عشنا مثل المطلقين. إلا وقت يقرصني في الليل. ومضت شهور، يمكن أربعة، أو خمسة. بعدها، صارت شغلة الليل لا تطاق. من هنا تنتهي ومن هنا تبدأ الكوابيس. كوابيس كلها رعب ووحشية. وصراخ. يعني، تعرف ما هو الاغتصاب؟ كانت اغتصاباً. رأيت حالي في وضع أسوأ من النساء السافلات. لا شيء يدمر المرأة مثل أن تجبر على هذه الشغلة. تشعر بقرف! واحتقار لحالها! شيء لا يوصف، أقول لك. من قبل كنت أقول هذا واجبي، وحقه. لكن وقتها رأيت أن هذا أيضاً من جملة الأمور التي ترسخ العنف والعبودية. لماذا أقول لك ان الأمور ينفذ بعضها إلى بعض؟ لأني يوم رفضت، بقيت شهراً وأنا أرفض، وإذا بي أجد خزانتي ذات يوم فارغة. كان فيها خمسمئة ليرة اختفت. طارت. فاتحته في الموضوع. أول الحديث أنكر. بعدها قال نحن زوجان وكل شيء بيننا مشترك. مال الزوج ومال الزوجة شيء واحد. المهم مرة ثانية وصلت بيني وبينه إلى الشيطان الرجيم. ورحنا مرة ثانية إلى الشام. هناك ظهر لنا شكيب جديد. طبعاً اسطوانة انه يحبني وأنني تغيرت وما عدت زوجة، أعادها وكررها. لكن وقت عبسي حكى في الطلاق، قال انه هو لا مانع عنده، ولكن سيأخذ حيان. تصور اللئيم. يأخذ حيان يعني يأخذ روحي. وهو عرف مقتلي، وتمسك به. قال له عبسي خذ حيان وخذ كل ما تريد. خولة ستبقى عندنا في الوقت الحاضر. تبيع أرض الضيعة التي اشترتها مني ومن شداد، وتشتري بيتاً، وأنت ابق في بيت اللاذقية مع حيان. وقتها لان، لكنه لم يتراجع. قال انه ما يزال يفضل الاستمرار وانه يكره الطلاق، ولكن إذا أردتم الطلاق فهو مستعد. لأنه ما عاد يتحمل هذا الشقاء. وترك البيت. طبعاً كان عبسي ضد الطلاق مثل العادة. ولا أعرف كيف تذكرت حديثاً قديماً جرى بيننا من أيام يونس ملحم. الله يرحمه. قلت له يا عبسي في الزمان قلت لي يلزمك عشرون سنة لتخلصي عقلك من الخرافات وتصلي إلى القرن العشرين وها مضت عشرون سنة تقريباً. وأنا أحاول الوصول إلى القرن العشرين لكن أنت تمنعني. عندها سكت عبسي. سكت سكت. وابتسم. قال يا خولة الثورة لا تعملها الكلمات ولا الأماني. الثورة يجب أن تبدأ بالأمور البسيطة، الأساسية. وكلما تقدم الإنسان في العمل الثوري يجد أن نقطة البداية وراءه لا أمامه. لأنه يجب أن يرجع إلى الجذور، إلى ألف ألفين ثلاثة آلاف سنة. الخطأ بدأ من هناك. وهو خطأ فاجع. القبيلة أهم من الأمة. العائلة أهم من القبيلة. المصلحة الفردية أهم من العائلة. ونحن دخلنا القرن العشرين بأجسادنا، بالروزنامة. العقول بقيت في الجاهلية. الثورة لا تصير بوزارة اعلام. خذي الآن موضوع ابنك. أكيد إذا شكيب أخذ حيان سيخرجه من المدرسة ويجبره على الشغل. إذا غيّرت القانون ولم تغيّري عقول الناس، ما فائدة الثورة؟ الثورة تعني أن تختاري ما تكرهين، ما هو ضروري تاريخياً وقاصم للظهر مرحلياً. إذا كنت قادرة على التخلي عن ابنك، يا ستي طلقي وأنا معك. وقلت له ان ابني حقي. أنا التي تحبه، وتكون معه، أنا أبعثه إلى المدرسة، أطعمه وأكسوه، أحميه، بينما أبوه يسرق لقمتي ولقمته. لماذا يحق للأب ما لا يحق للأم؟ اعملوا قوانين وامشوا عليها. أنا أريد ابني وحريتي سوية. المهم. رجعنا إلى اللاذقية مثلما جئنا. اسودت الدنيا في

عيني. كل تعبي، كل شقائي راح هدراً. أنا التي أشتغل من الساعة السادسة صباحاً حتى أنصاف الليالي، إذا تركت الشغل يوماً واحداً، جعت أنا وابني. صار لي مكانة بين الناس. يحبونني ويحترمونني. الدكتور محمد علي الريحان، كان يقول لي أي شيء تحتاجينه يا أم حيان اطلبيه مني قبل غيري. يعني، لولا أني امرأة كانت الناس تحترمني مثلما احترمت أباك. وأنا أحس بثقة كبيرة، في نفسي وفي الحياة. لكن كلما دخل شكيب إلى ذلك البيت انمسح كل شيء. صار كل ما وصلت إليه كأنه غير موجود. مثل الذي يضحك على حاله. سلطة مفروضة علي فرضاً. لا لزوم لها، وأنا لا أحتاجها. لا حياة تعطي ولا تسمح للحياة بالاستمرار. لأنه زوج، يحق له أن يبقى وتهرب بسببه كل، كل..

ـ كل الأشياء الجميلة.

ـ أيوه! وفوق هذا، حيان. كلما صممت أن يكون أول شجار يحدث بيننا آخر شجار، رأيت حيان وانهار تصميمي. الأم يا شداد تضحي بكل شيء لأجل ابنها. تتحمل الشقاء والاهانة والعنف. أنا كلما رأيته يسابق أولاد الحارة ويسبقهم، أو يفكك ألعابه ويركّبها من جديد، انتهت كل مقاومة عندي لأبيه. لكن أيضاً صار عندي شعور معاكس. كلما رأيت الاثنين معاً، أصابني مثل الذهول. وقلت لنفسي معقول هذا يكون أبا هذا! شكيب شقفة واحدة، واللحم يتهرهر من كل جانب. جمجمته بحجم البصلة وحنكاه بحجم البطيخة. حيان مثل العود، خفيف رشيق سريع، عيناه كبيرتان مثل خاله أيوب، كله حب وحياة وخوف. حيان عرف الرعب عن طريق أبيه. ذاك كان يريده ابناً مطيعاً: ناولني الحذاء، ناولني الجرابات، اسقني ماء. عوده على الذل والخوف. وأقول لحالي أنت يا خولة جلبت هذا لحياتك وحياة ابنك. وصرت بين نارين. شكيب ضروري ليكون لحيان أب وعائلة، وخطر عليه لأنه أب ورب عائلة. لو جانب واحد بس كنت قبلته مثلما يقبل الإنسان بالقدر. لكن هذه الأيام ليست مثل أيام زمان. أيام زمان كنت تقبل بالقدر وترتاح. تمشي حياتك على درب تعرفها. هذه الأيام، حتى القدر تغير. صار يسيطر عليك، ولا يتركك ترتاح. كل يوم ازعاج، كل يوم اهانة. كل يوم مشكلة. إذا وقفت فاتك الركب. إذا تحركت دخت. لهذا الشيء لم تطل فترة الهدوء بيننا. نسيت أن أقول لك. بعد ما هدد شكيب بأخذ حيان، صار يتصرف كأنه الكل بالكل في البيت. سحق تام لشخصية الولد. نبرة وعجرفة في حديثه معي. المهم. ذات يوم طلب مني مالاً. دين عليه، سيوفيه أول الشهر. وأنا أعرف أول الشهر هذا. لم أعطه. وصارت المعركة التي سمعت بها البلد. أمسك بالعصا ونزل علي ضرباً. ضربا ضرباً. حتى وقعت. ولما أمسكت بنطلونه، تقول كأنه استشرس أكثر؟ ما عادت العصا تشبعه. نزل علي باللكم واللبط والرفس، وساعتها جاء حيان يا عيوني وهجم على أبيه ودفعه. اهتز ذاك والتفت إليه وناوله رفسة. وراح حيان يتدحرج حتى لطم بالجدار. وبعدها طلع ذاك من البيت. بقي يومين غائباً. ثاني يوم شفت الدكتور محمد علي. كان جسمي أزرق بأزرق. أعطاني تقريراً طبياً وكتب أني بحاجة إلى معاينة ثانية. حملت التقرير وأخذت حيان إلى حبرية وأوصيتها به، وحملت درب طريقي إلى الشام. عبسي لم يتكلم. بقي يومين. قلت له يا عبسي أنا ابني عند الناس، ولا أقدر أن أتركه مدة أطول. لماذا لا تتكلم؟ قال اصبري حتى يجيء شكيب. قلت شكيب لن يجيء. قال سيجيء. وعند العصر جاء. قال له عبسي ما رأيك إذا وضعتك في السجن ستة أشهر لا يسمع بك أحد ولا يعرف أين أنت؟ سكت ذاك. قال له ما رأيك إذا نقلتك إلى الحسكة سنتين حتى تعث هناك. مثل العادة قال انه يحبني ولا يطيق الحياة من دوني ولا يجد طعماً لعيشته منذ تغيرت وما عدت أحترمه. وإني أستفزه وأهينه. وما لا أعرف. قال عبسي: قل لي ماذا تريدني أن أفعل بك. قال ذاك الذي تريد. قال عبسي بهذا التقرير الطبي أنزلك سنة كاملة في السجن. تريد السجن أم توافق على طلباتي. قال ذاك أوافق على طلباتك. قال عبسي أنت طمعت من يوم هددت بأخذ حيان، ولأجل المساواة تتم بينك وبين خولة، لازم تترك هذا التهديد. قال انتهى تركت التهديد. قال عبسي هكذا لا ينفع. يأتي الكاتب بالعدل إلى هنا وتوقع. وهكذا كان. جاء الكاتب بالعدل ووقع شكيب أنه إذا حدث طلاق لا يطالب بحيان، وإذا طالب بدفع عشرة آلاف عداً ونقـداً.

ـ والله عبسي شاطر ومحنك. كيف هدده بالسجن أو يوقع.

ـ فعلاً. عبسي فهيم ويعرف الرجال. ورغم كل تأجيلاته للطلاق أظل أراه سنداً لي، حماية. لكن يومها جن جنوني. قلت له أنا أريد الطلاق، لا أريد سندات. قال انتهى، شكيب لن يجرؤ على رفع يده عليك بعد اليوم. كان معه سلاح وجردناه منه. الآن هو يعرف أن أية سفالة منه ستطرده من البيت طرد الكلاب. قلت هذه المرة فعلاً صار بلا سلاح لكنه سيسمم حياتي على مهله. بمجرد دخوله البيت عابساً تكفهر الدنيا في وجهي. ويمكن أن يوجه العنف إلى حيان ليس لي أنا. قال عبسي يا خولة خليك واقعية. أنت كل عمرك عاطفية، شعور يأخذك وشعور يأتي بك. الآن بعد أن ركزت حالك وصار لك دخل صرت سهلة مع نفسك ومشاعرك، وكل ما يخطر لك تفكرين أنه حق وصواب. أنا منتبه لك. صرت عنيدة مثل شداد. الطلاق سيدمرك، اسمعي مني. وكلمة نهائية، أنا لن أوافق على الطلاق أبداً. فلا تتصرفي مع شكيب كأنك سترفعين دعوى بعد أول خطأ يخطئه. أنا لا أريد أن أخسر الأخ والأخت معاً. لأن شداد مثل الذي انتهى بالنسبة لي. هذا الكلام يا شداد أبكاني. قلت أما تكفي سبع عشرة سنة هي شباب عمري، ضاعت وكان كل فرحها كذباً بكذب، ما عدا حيان؟ ماذا بقي لي؟ مع ذلك رأيت أن الحق مع عبسي. تصورت أني سأكون في المجتمع وحيدة، مكشوفة، والكل سيطمع بي، أويفرمني بلسانه. قلت لنفسي انه لم تبق عندي رغبات كثيرة أحققها في هذا العمر المتبقي. عندي حيان وسأكرس حياتي له. شكيب يأتي ويروح وأنا لا علاقة لي به. والحب فات أوانه. هذه الناحية عدم، أتخلى عنها. وإلا كيف يعني واقعية؟

ـ أي حكم بالاعدام! في الدنيا ناس يحبون وهم في السبعين. واحد من أجدادك تزوج وهو على حافة القبر بنت واحد مرابع عمرها سبعة عشر.

ـ ذاك كان رجلاً. أنا امرأة. أنا لم يبق عندي شيء أعطيه.

ـ قصدك جسدياً؟

ـ لا والله. لكن لا أحد يحب من دون هذه الناحية. وأنا جسدي تعود على غياب الحب. ما عاد يتقبل الحب. ما عاد يتجاوب. هذه الناحية مريرة كثيراً في حياتي. حكيت لك عن الكوابيس، والوحوش الهاجة.

ـ الذي أعرفه، أن كل إنسان يحتاج للحب، مهما كان عمره.

ـ إذا التقيت بواحد يفهمني وأفهمه، لا يبقى نقص في سعادتي. أنا شبعانة خبز وشبعانة حرية. لكن الحياة صعبة. مواجهة لا تنتهي. ومفاجآت. تكون في ذهنك فكرة تقول إنها أبدية، وتأتي ظروف، تجد أن هذه الفكرة ليست حقيقية. طالما الانسان يدخل في الموضوع، لا يوجد كلام نهائي عن شيء. الانسان بحر.

ـ عدم المؤاخذة. أفكارك صارت فوقي. وأنا لا أفهم.

ـ سأشرح لك وأفهمك يا عزيزي. كيف تتصور وضعي مع شكيب بعد رجوعنا ومعي السند المسجل عند كاتب العدل؟ لن يخطر لك أبداً. سلمت السند لخيرية وقلت لها أن تخفيه تحت سابع أرض. وانصرفت لشغلي وصداقاتي. وضعت مستقبل حيان فوق كل شيء. قلت لحالي أسوأ وأحلى ما في الحياة صار ورائي. شكيب بدأ ينحف. ما عاد طلب مالاً. ولا عاد يقرصني. لم يهتم بحيان. لم يهتم بوجوده، حتى. وحيان لم يطلب منه شيئاً. يعني، صرنا كأننا نعيش في فندق. مع أننا كنا ننام في غرفة واحدة، هو على سرير، وأنا وحيان على سرير. كان يدخل البيت الى غرفة الضيوف، الى غرفة النوم. ووقت يريد شيئاً من المطبخ، يخرج اليه من غرفة الضيوف. وأنا قاعدة في غرفة الخياطة. أشتغل. أو أحكي مع زائراتي. كأنه لم يدخل. أحياناً، إذا تواجهنا صدفة، كان يقول مرحباً. بس. وأقول له أهلين. وأنا ما كنت أترك له مجالاً للسؤال. أكله جاهز، ثيابه نظيفة ومكوية. الحقيقة، كان وضعاً محزناً. وأنا وجعني قلبي عليه. لكني كنت دائماً خائفة منه. خائفة؟

مرعوبة. شكيب شخصية محيرة. مع عبسي، أرض. معك، مرح ومزوح. مع حبرية وضرغام مثلاً، زعيم. معي أنا، عاشق حقيقي ولكن سوقي، وجبار يفقد صوابه حتى يمكن أن يرتكب جريمة. مع ابنه، مثل أبو أحمد. في حياته الخاصة، رفيق عاهرات. لكن في تلك الفترة رأيت شخصية جديدة. نُحف كثيراً كما قلت لك. تهدل جلده. وكانت حبرية تقول له، ما لك يا أبو حيان كل يوم تنحف عن يوم. وكان يقول بها بودي أرجع مثل أيام زمان حتى ترجع أم حيان تحبني. وتسأل اللعينة ألا تحبك مثل أيام زمان ويقول لها واحدة فنانة وحساسة مثل أم حيان تحب واحداً قطع الأربعين وصار حجمه ضعف ما كان؟ طبعاً في غير أوقات ما كان يدخل غرفة الخياطة. كان منزوياً، وحيداً، غريباً. قصدي، كان يحس أنه غريب. كل حركة من حركاته كانت تدل على إحساسه بالغربة والوحدة. مثل من خسر شيئاً لا أمل له باستعادته ولا يقدر على الاستغناء عنه. وإذا اضطر للحكي معي، حكى كأنه يقلع الكلمة من فمه كما يقلع الضرس. الحقيقة صار عذابه يؤلمني. كنت أسأل حالي، لماذا يا ترى وقع على السند. طوال ثلاث عشرة سنة وهو يستغلني. وجاءته فـرصـة تخليـه يستغلني الى الأبـد. صحيح، عبسي خوّفه من السجن. وهو مع عبسي جبان. لكن عبسي كان يهدد لا غير. وذاك كان يعرف أن عبسي لا يمكن أن يرفع دعوى عليه لأنه ضربني. لماذا سلم سلاحه لي ولعبسي؟

ـ وطبعاً عرفت الجواب.

ـ بعدئذ، أي. يومها، لا.

ـ أما ندمت، أو أسفت؟

ـ أنت مجنون! أندم على أي شيء وآسف على أي شيء؟ ما رأيك في شعور لا يتجسد إلا بالسيطرة، والاستغلال والعنف؟ لا. لا أسفت ولا ندمت. كل شيء كان انجرح. وتشوهّ. تشوه حتى صار بشعاً، مخيفاً.

ـ لا تزعلي يا خولة. قلت إنك في الحقيقة أحببت اسماعيل السنديان. قصدي شكيب انظلم، ما؟

ـ لا. اسماعيل كان حلماً. شكيب كان حقيقة. في البداية، هاجني شكيب هجوماً خطفني عن الأرض. قلت لحالي هذا هو الفارس. لكن، لما صرت أعرفه، وصرت أكذب عليه وعلى حالي، رجع الحلم أقوى من الحقيقة. ورجع بوجه اسماعيل المشوه، لا الصحيح، لأنه كان تشوه فعلاً، ووجه اسماعيل تشوه لأنه هو كان يكذب على حاله. اسماعيل أعطاني الحلم، فقط لا غير. أنا فكرت كثيراً في هذه الناحية. عشر سنين وأنا أفكر فيها، وأسأل نفسي. لأني لم أرد أن أكذب. فكرت وسألت حتى وصلت الى هذا الفهم. لو طابق اسماعيل مع الحلم، كانت الحياة مشت مـن دون عكر. ولكن لم يطابق. وأنا أحببت اسماعيل لأنه أعطاني الحلم. اسماعيل أعطى لكل الضيعة أحلاماً.

ـ أحلام الفروسية. بارودة في هذه الأيام تصطاد أي فارس. سيارة تسبقه وتعرف طريقها أفضل مما يعرف. لكن اسماعيل شفي من الشلل. صحيح ما يزال مهدداً به، لكنه بريء منه.

ـ هذه قصة ثانية. خلنا مع شكيب، والقصة قاربت تنتهي. ذات يوم، سمعت صوت فنجان القهوة يقع على ألاض غرفة الضيوف. لم أتحرك. بعد ثوان، رأيته يقف على العتبة. نظرت اليه. نظر إلي نظرة! لا يمكن أن يصفها أحد. هي توسل، هي حريق، هي صلاة، هي انفجار، لا أعرف. كنت ما أزال أتطلع به. ابتسمت. لم أتكلم. قال من يوم صرت تشتغلين بالخياطة تغيرت. كانت حياتنا سمناً وعسلاً. وكنا متفاهمين على كل شيء، نخرج مشاوير، سينما، وليس بيننا خلافات ولا مشاكل. الآن، الخياطة دمرت حياتنا. كان يتكلم بصوت عادي، ولا كأن وراءه أي انفعال. قال ما رأيك لو تتركين الخياطة؟ قلت له إذا كانت حياتنا تتدمر لأني صرت أشتغل، خلها تتدمر. معناها أن تلك الحياة غلط. وعندها فعل فعلتـه التي تعرفها. اندفع الى المطبخ، رجع بتنكة الكاز، ورشها على محتويات غرفة الخياطة، وأعطاها النار. ربك حميد، يومها كنت اشتريت البيت

ونقلت أغراضي وأغراض حيان اليه، دون أن يعرف هو. هربت من البيت، ورحت عند حبرية، ومن هناك الى الشام. وصلت الشام ودخلت بيت عبسي. لم يكن يتوقعني. حكيت له ما جرى، وقلت هذه المرة جئت لا لأستشيرك وإنما لأقول لك إني بعد غد سأرفع دعوى الطلاق. بس أنت وافقني مرة واحدة في حياتك. ظل عبسي معارضاً. قال شكيب سيتحسن، ويتغير متى تعود على شخصيتك الجديدة. قلت أما تكفيه إحدى عشرة سنة؟ قال المرأة في بلادنا هكذا وضعها. أنا لم أكوّن هذه البلاد. المرأة من دون رجل لا تستطيع الوقوف على رجليها. وأنت الطلاق سيدمرك. قالت زوجته، ولكن يا عبسي المرأة أحياناً تتحكم في الرجل. وكانت تمزح. قال حتى في هذه الحالة يظل الرجل ضرورياً حتى تتحكم به. وظل معارضاً. لكن معارضة بلا قوة. ليبرىء ذمته أني يمكن في المستقبل أقول له أنت السبب. قال أنت مخطئة وسكت. فجأة رأيت في نفسي قوة لم أكن أعرفها من قبل. قوة على الهجوم. قلت له أنا مخطئة لأني امرأة. أنت على حق لأنك رجل. إذا قرر الرجل الطلاق يكون على حق. أضروري أن يكون الرجل دائماً على حق؟ قل لي، ماذا تستطيع امرأة أن تفعل أكثر مما فعلت أنا؟ أنا أصرف حتى على شكيب. كل شيء أنا مسؤولة عنه، الإيجار، الأكل، اللبس، حيان، الأثاث، الكهرباء، الماء. ماذا يجب على المرأة أن تفعل لتنال اعترافكم بها؟ دائماً أنت محقّ وأنا مخطئة. دائماً لا أجرؤ على الإيمان برأي عندما تعارضه أنت، وأعتقد نفسي مخطئة. عندها ابتسم عبسي تلك الابتسامة التي لن أنساها أبداً وقال، الآن تأكدت أن موقفك نهائي، وأنا نازل في المعركة. وفعلاً، بعد يومين رفعت الدعوى، وبعد أسبوع جاء عبسي الى اللاذقية واتفق لأجلي مع المحامي.

* * *

القسم الثالث

الميراث

عندما استوعب اسماعيل النبأ تماماً، رأى أن الأمر يحتاج إلى خلوة مع الذات. وهكذا اجتاز الطريق من رحبة الآليات الى بيته على عربة أفكار يجرها حصان هادىء. هذه المفاجأة الضخمة، اللطمة الموقظة، ليست مجرد إرث يظهر فجأة من عالم الغيب. إنها أكثر من ذلك بكثير. تدور الحياة وتدور، ويبتلى المؤمنون فيها حتى ليحسوا أنهم كالقابضين على النار. فجأة تقوّم الحياة نفسها بنفسها، يندفع الحق كالسيل جارفاً تلال الظلم والهوان. لقد نزل في مسالك العيش حتى صار من مصير مريم خضير قاب قوسين أو أدنى. ومر بما لم يمر به شداد أو خولة أو أي أحد. لكنه بقي سندياناً. وإن تاريخاً طويلاً يهب الآن، ومجد الماضي يبعث حياً، وآل السنديان يقررون متابعة الحياة. لقد انتهى عصر الشلل وبدأ عصر الفاعلية.

هذه المرة لم تكن ابتسامة رجل متعب جائع تلك التي واجه بها خضرة. كانت ابتسامة رجل محب يحمل مفاجأة. ودهش إذ رآها تمعن النظر اليه بعينيها الخضراوين الباسمتين، واقفة بين طفل حملته بيد وصحن من الرز بالبازلاء حملته باليد الأخرى. «ما بك؟» سألها. قالت وأساريرها تزداد تفتحاً وسؤالاً: «ما بي أنا أم ما بك أنت؟» ولبرهة خاطفة خشي أن يكون الجهاد القديم قد زايل وجهه من جديد. قال وهو يتحسس خده الأيسر: «صار لي شيء؟ وجهي به شيء؟» ضحكت. وضعت الصحن على الكومودينة وهي تقول: «بالعكس. هذه أول مرة أراك تبتسم ابتسامة كاملة من سبع عشرة سنة. ولا أثر على وجهك من المرض القديم.» وفيما ابتعدت لتحضر رغيف الخبز، تابعت: «وجهك الأيسر وفمك، ولا كأنه فيهما شيء. مثل الناحية اليمين أخلق منطق.»

إذن، أفكاره حقائق، لا مجرد ظنون. برهان عملي على أن ظهور الإرث أكبر بكثير من مجرد منفعة. وبغمضة عين التهم رغيف الخبز وصحن الرز. سألته ما الخبر، فقال: «اصبري شوية، أفكاري لم تتبلور حتى الآن ولا أقدر، أن أشرحها لك. أنت لا تفهمين لا تفهمين يا امرأة. الموضوع فوق مستوى عقلك. على أية حال، القصة قصة ميراث، من جدي شيخ السنديان، الثالث أو الثاني.»

ـ ميراث! ما يزال عندك ميراث؟

ـ شغلة كبيرة على عقلك. شغلة تخص الرجال، الرجال.

ـ بس أنا أخت الرجال. أما أنت قلت لي؟

ـ صحيح صحيح. مع ذلك هذه شغلة كبيرة، على عقلك.

ثم أضرب تماماً عن الكلام، وأسرع خارجاً من البيت. لحقت به الى الزاروب، والطفل ما زال على ذراعها، ووراءها سميرة وهزار. صاحت: «الى أين يا اسماعيل؟» فالتفت مستعجلاً وحمحم:

ـ الى ابن عمي، ابن عمي، شداد.

راقبته وهو يتبعد نصف مهرول. وتحيرت لأي شعور تطلق العنان، الخوف عليه من جيشان مذهول لم يبد منه سوى القليل، أم الابتهاج لهذه الولدنة المفاجئة التي غابت عنه قرابة ربع قرن لتظهر وهي أبعد ما تكون عن

أن تليق به. أحست بسميرة وهزار تنشدان اليها، ثم بالجيران هنا وهناك، وانتهت الى عدوى الذهول الجائش التي أصابتها، وألوت عائدة الى البيت. وضعت الطفل على اسمنت البهو، وجلست على الديوان بتأن، فأراحها انشغال خاطرها من سماع صرير النوابض الثاقب. كانت تعرف الماضي جيداً. تعرف أن اسماعيل فقد كل شبر من ميراث أبيه. أما أن يرث من جده فمستحيل لم يخطر لها. ليس هناك ما يورث أصلاً. وفجأة ضاءت الفكرة: أيكون أن الحكومة قررت إعادة الأرض التي اغتصبها بيت العز؟ تمعنت قليلاً في الاحتمال البعيد فاقترب من ذهنها، وفي لا زمن صار حقيقة: لا شيء يصعب على الحكومة. وإلا كيف يمكن أن تفسر اضطراب اسماعيل، ذهوله وولدنته، واختفاء بقايا الشلل من وجهه الحبيب؟

لكن اليقين ابتعد بالسرعة التي اقترب بها. بيت العز صحبة مع الحكومة، ولا يمكن أن تؤذيهم. ودون أن تعي جلست على الكرسي الصغير، أسندت ذقنها على راحتها، وطوقت الطفل بذراعها الأخرى. تبادلت الصغيرتان نظرة حائرة واجمة. التفتت خضرة اليهما وراعتها الكآبة الصامتة. ابتسمت: «لازم أن نفرح يا ماما. لا أن نزعل.» ومسحت براحتها على وجهيها كمن تزيل وشلاً علق بهما: «البابا جاءته ورثة كبيرة يا ماما. من جده القديم. ورثة كبيرة فيها مال كثير، وخبز، وفساتين وكنادر. وبكرة نسكن في بيت كبير، ويصير لكل واحد منا سرير، ومرآة كبيرة، ونأكل لحمة نظيفة يا ماما، ومعها صحن سلطة. وأبوك يترك شغله ويقعد معنا. لأي شيء الزعل؟ انتهى الشقاء. وبنات الجيران ما عدن يعتدين عليكن. ولا تمشين في الوحول، ولا أحد يوجعه قلبه علينا.»

أمام بيت شداد وقف اسماعيل متهيباً. لم يجد الدراجة. كيف لم يخطر له أن ابن عمه يمكن ألا يكون في البيت، وزهرة وحدها؟ التفت بعيداً وهو يرى الماضي أمام عينيه حتى نهاية البحر الهاجع تحت ضوء القمر. وعاد فنظر الى الجدران الصامتة، فسحة الدار، سياج الشجيرات القصير، والورود والأزهار الضاوي بعضها والمتفتح بعضها الآخر. هز رأسه بسخرية: الموضوع أهم بكثير من ذكرى عمرها الآن ثمانية وعشرون عاماً. الموضوع أصلاً آت ضد ذلك الخطأ. وأغلب الظن أن زهرة لا تعرف، رغم أنها تبدو محرجة كلما فتحت له الباب.

فتح الباب بديع، ولحقت به مريم، ووراءهما وقفت زهرة: «أهلاً وسهلاً، أبو ابراهيم!» مرحباً، مساء الخير. شداد هنا؟» رد عليها متماسكاً. «تفضل. إن شاء الله يكون هنا بعد عشر دقائق. لأنه راح من ساعتين. هو وحظه.» قالت مبتسمة جامدة الجسم. دخل. وفيما رافقته الى صدر المكان، قال: «أكيد راح يشتري خبزاً.» هزت رأسها: «وهل هناك مشكلة غير الخبز؟» وكان الاثنان يتمنيان أن يكون حظ شداد طيباً.

دخل الولدان، وهرعت زهرة اليهما: «بديع ومريم، روحوا ناموا يا ماما.» وتمنت ألا يذهبا. وأجفل اسماعيل خوف أن يتركهما الولدان فعلاً. «خليهما يلعبان، غداً تنصب عليهما المشاكل، ولا يبقى وقت، وقت للعب.» وتعجب من أين جاءته نبرة القنوط هذه وهو قادم بسر الأمل العظيم. جلس الولدان فجلست زهرة، وكان هو قد جلس. ونهض الصمت. التفتت زهرة اليهما، وهزت رأسها مؤنبة، ولكن بلا جدية. قالت: «مشكلة الخبز أم المشاكل. كل مشكلة بنت من بناتها.» هز رأسه مستنكراً، ولكن متسامحاً: «أنت زوجك خرب عقلك بعد أن خرب بعض الناس عقله. لولا العشرة لقلت عنكم شيوعيون.»

ضحكت زهرة أعلى مما يجب، معتقدة أنها بذلك تخفف من ارتباك أبي ابراهيم وتلبسه بالرصانة. وابتسم هو بغبطة، مدركاً أنه أذاب شيئاً من الجليد. أعجبه أنه أعجبها. وانبثقت في مكان ما منه دفقة حب أبوي، سرعان ما اعتقلها وأعادها الى بئر حكاياه الجارح. مؤكد أن زهرة تعرف شيئاً، ولكن ليس كل شيء. وها هي تصعقه بسؤال ما كان لها أبداً أن تسأله: «أبو ابراهيم، أنادي لك أبي تتسلى معه؟»

لبث برهة يحدق الى عينيها وقد صار وجهها كله وجه أمها، قبل أن ينتزع الذاكرة من ذهنه ويؤكد بلا انفعال: «لا داعي، لا داعي. أنا بودي شداد لأمر هام.» لكنها أصرت، وقد رأت أن إصرارها سيجعله يعتقد أنها لا تعرف شيئاً، أو أنها لا تبالي قيد أنملة بتاريخ مضى ولا شأن لها به: «أبي من مدة لا يشتغل. ورمضان وبديع لا يشتغلان. إذا جاء أبي يتسلى معك، لأنه وحده. بينما يجيء شداد؛» قال: «كيف حاله في هذه الأيام؟» قالت: «أبي أبي عظيم، كله حب. لكنه دائماً لحاله. لا يفوته شيء، لكن لا يهتم بشيء، دائماً لحاله.»

أنقذ اسماعيل صفير اغنية لفيروز وصل من الخارج. نهضت زهرة صائحة: «جاء شداد.» وركضت تفتح الباب، وركض وراءها الولدان. تنفس اسماعيل الصعداء، وتناول منديلاً مسح به عرق جبينه. أحس أن بوسعه الآن أن يفك ساقيه إحداهما عن الأخرى، ويريح ذراعيه من عناء تثبيت جذعه على الكرسي. وفعل. دخلت زهرة تحمل رزمة الخبز على راحتيها، واقتربت منه: «خذ لك لقمة يا أبو ابراهيم. الخبز سخن.» تحرك ومد يده، وقد استعاد تكامله الشخصي العالي. «الله يديمك،» قال لها، ووضع لقمة الخبز في فمه.

دخل شداد هاتفاً: «أهلاً أبو ابراهيم،» ورفع يداً مستوية الأصابع: «اقعد، والله لا تقوم.» وأثبت يده على كتف اسماعيل فمنعه من النهوض، وصافحه. «أكيد مسألة مهمة. وإلا لما رأيناك. زهرة، عملت قهوة لأبو ابراهيم؟» أجابت زهرة: «لا. قلت تشربانها معاً.»

كان حديث الارث شجياً. بعد السؤال والاطمئنان عن خضرة والأولاد والأحوال، صمت شداد منتظراً كلام اسماعيل. وجاءت زهرة بالقهوة، فنظر اسماعيل الى الصينية كأنه لا يراها، والى زهرة فطرفت عيناه، وغمغم: «ليت أنك عملت شاياً.» قالت: «تكرم عينك يا أبو ابراهيم.» ووضعت الفنجانين أمام شداد: «يلزمانك بعد معركة الخبز» وانسلت خفيفة باسمة.

قال اسماعيل: ـ ابن عمي. هل تظن أن الحياة مأساة؟

جفل شداد. لم يكن متهيئاً للسؤال، ورأى وراءه أكثر من مجرد مسألة مهمة جاءت باسماعيل.

قال: ـ والله لا أعرف. ما عندي وقت لأفكر في الحياة من هذه الناحية. أنت تظن أنها مأساة؟

أطلق اسماعيل زفيراً طويلاً. قال: ـ لولا ايماني بالله، لقلت إنها مأساة.

ونظر الى شداد بابتسامة مفاجئة اعتقلته بأبوتها وأربكته. ابتسم بالمقابل، وقال بمزاح مقصود:

ـ لو سمعك صديقي المثقف الثوري لأخذه العجب.

ـ ماذا يقول صديقك المثقف الثوري؟

ـ أولاً لن يقبل منك هذه النظرة التشاؤمية الى الحياة. ثانياً لن يصدق أنك تتكلم عنها بهذه الضخامة. ثالثاً..

ـ بهذه الضخامة! لكن الحياة ضخمة.

ـ أي، الحياة ضخمة. لكن أنت وأنا لسنا ضخمين. الأفكار الضخمة شغلة صعبة علينا.

ـ حط بالخرج، ابن عمي.

أقبلت زهرة بابتسامة وقدح ضخم من الشاي وضعته أمام اسماعيل. التفتت الى الولدين، أمسكت بيد كل منهما، ومضى الثلاثة الى غرفة النوم: «اليوم تنامون معنا. أبوكم سهران مع أبو ابراهيم.»

تناول اسماعيل رشفة شاي وأطرق قليلاً. أشعل شداد سيجارة، وهو يخشى سؤالاً ثانياً من النوع الأول. لكن اسماعيل مضى الى الموضوع مباشرة، رغم أنه ظل مطرقاً:

ـ تذكر يا ابن عمي، أنه في أيام جدنا شيخ السنديان الخامس، جرى تخطيط مساحة للأراضي. ومن يومها

والناس تعرف ما لها وما ليس لها. نحن وبيت العنز بشكل خاص. لكن، لحكمة ربانية بلا أدنى شك، صار غلط في التخطيط. طبعاً غلط من ناحية الأمر الواقع، لكنه الصحيح من ناحية الحق والعدالة السماوية. وبقيت قطعتا أرض لم تسجلا باسم شيخ العنز. الآن اكتشفت الحكومة، انتبه جيداً، اكتشفت الحكومة أن القطعتين، سبع دونمات لا أحد ينتبه لها، فيها معادن، ألومينيوم. فيها ـ لأنها أرض واحدة ـ ألومينيوم بكميات كبيرة، وسألت الحكومة لمن هذه الأرض؟ بحثوا في الدفاتر العتيقة، وإذا به الأرض لنا.

أرسل اسماعيل لشداد نظرة أبوية مبتسمة. وظهر اهتمام حائر على وجه شداد. تناول رشفة قهوة وبحث في جيبه عن الكبريتة فوجدها أمامه. أشعل سيجارة ثانية. قال:

ـ طيب. لم أفهم. الذي لم يأخذه بيت العز، أخذته الحكومة. وضعت يدها على الأرض، ما؟ نحن ما علاقتنا؟

ـ لا ابن عمي لا. أنت لم تفهم. الأرض لنا. الحكومة وضعت يدها عليها، لكن الحكومة ستدفع ثمنها أضعافاً مضاعفة. سبع دونمات بس، إنما وراءها ثروة.

تناول شداد فنجانه، ورشف منه جرعة كبيرة. قال:

ـ هكذا إذن. كنت أظن أن أجدادنا ماتوا وتركونا بلا ملكية. بذرونا في تراب هذا الزمن وتركونا للفقر والبهدلة. لعلاقات أكل الدهر عليها وشرب.

نظر اسماعيل اليه نظرة اعتراف بأنه هو أيضاً اقترف اثم هذا الظن. لكن ابتسامته الهازئة المحبة ظلت تحاصر شداد كأنها تطلب منه أن يقول كلاماً يريد هو سماعه. قال شداد:

ـ طيب. أرض ورجعت لنا. وسنأخذ منها مالاً. بعد شهر، شهرين، نصرف المال ونرجع يداً من وراء ويداً من قدام.

ـ لا يا شداد. هذا كلام لا يليق بنا. أجدادنا ماتوا وتركوا لنا، تركوا لنا ملكية. المأساة أننا لا نبحث عما تركه لنا أجدادنا؛ حتى يأتي أحد ويبحث بالنيابة عنا. هذه هي المأساة. ولو لم يكن وراء الإرث سر، أكيد هناك سر غميق، لما قيض الله له أحداً يكتشفه. كأن لهذا الميراث حياة خاصة به. ويجب أن يذكرنا أن أجدادنا تركوا لنا أكثر من مجرد الارض. تركوا لنا طريقة للعيش. علاقاتنا بعضنا مع بعض، ميراث أيضاً. ويمكن هذا هو الميراث الأكبر.

ـ هذا هو العبء الأكبر. البلاء الأكبر.

ـ استح على شرفك يا ولد. نحن لو أننا مشينا على درب السلف الصالح، لما تشتتنا، وانقسمنا الى.. الله أعلم كم عائلة.

قال شداد مداعباً: ـ كل هذه الافكار من قطعة أرض مساحتها سبع دونمات؟

ـ نعم. قطعة أرض مساحتها سبع دونمات نبهتني، الى الهاوية التي نحن فيها. سألت نفسي لماذا أنا في هذه الهاوية. الموضوع ليس موضوع مال نقبضه. الناحية المادية ليست بيت القصيد. أتعرف ما شعوري الآن؟ شعوري الآن مثل شعوري يوم قرأت القرآن أول مرة وامرأ القيس أول مرة. يومها بهرني ذلك الارث العظيم. تعرف، امرؤ القيس كان فتى طائشاً قصير النظر. لكن الأمر جاءه. ماذا فعل؟ وهب له حياته. وهب حياته: نحاول ملكاً أو نموت فنعذرا. أنا وأنت، كلنا، لم نحاول ملكاً، ولم نمت، ولم نعذر.

ـ ابن عمي! أنت دوختني. لا أستطيع أن أرتب كل هذه الأمور في عقلي.

ـ أما قلت لك؟ صديقك شوش عقلك. لا تفكر في الناحية المادية. فكر أننا لم نرتب حياتنا بالشكل الصحيح. فكر أن هذه الأرض تخبىء معادن. والمعادن كنز، مثلما نسمع في القصص الشعبية. والكنز علامة. تذكرة. هذه الارض نموذج فقط، عن ميراثنا العظيم.

ـ فرضاً قبلنا بالمعنى الذي تقوله. ولكن سبع دونمات من ألف؟ يعني، تخينة شوية. وبعدها، الكنز هذا، يعطى لنا كمبلغ مالي، تعويض. ومن يعطيه؟ الحكومة! لا نأخذه مباشرة.

هتف اسماعيل بحرارة: ـ هذا هو قصدي. سبعة بالألف؟ شيء عظيم. لأنه هو الزبدة. بقية الأرض ليس فيها كنز؛ شيء طبيعي. لكن المأساة، أنه يعطى لنا، مثلما قلت. لا نأخذه مباشرة. نحن لا نسأل. لا نهتم. فكر في امرىء القيس. صحيح، شاعر عظيم. لكن الارث هو الذي كشف عن معدنه الأصيل. صار عنده أهم من الحياة نفسها.

ـ على رأسي. لكن امرؤ القيس مات على أبواب الروم. ولم يستفد شيئاً..

ـ برافو عليك. الآن بدأت تفهم. على أبواب الروم. نحن لازم أن نفهم سر الكنز، العلامة، ولا نروح الى أبواب الروم. ولا نموت هناك.

ـ فهمت عليك. نروح الى أبواب الحكومة، وهناك نموت. أنا لا أريد أن أموت على أبواب الحكومة. أنا أبعد عنها وأغني لها. يكفيني أني مع هذه المخلوقات الثلاثة سعيد.

ـ خيبت لي أملي. ظننت أنك ستدهش. أو أن هذا الحق الذي عاد لنا، سيجعلك تفكر في حقوقنا المهدورة. ماذا فعلنا نحن حتى لا تضيع حقوقنا؟ لا شيء. الإرث ذكرني بهذه الحقيقة البسيطة. نحن لا نفعل شيئاً لاسترداد حقوقنا.

ـ من يجرؤ على أن يفعل شيئاً؟ الوقافون فوق رؤوسنا. من عنده وقت؟ أخذوا منا الوقت. بعد أن تؤمن الخبز والمازوت والخضار، وتدفع نصف ديونك، يصير جسمك متلهفاً لفراش. ألا ترى أن فقرنا وشقاءنا من نوع لا يسمح لأحد أن يفعل شيئاً؟

ـ الفقر والشقاء أخذا عقلي. عانيت منهما ما لم يعانه أحد. أصاباني بالشلل. وكانت حياتي مقطعة بالسكين. كوابيس الواقع كانت أفظع من كوابيس النوم. لكن موضوع الارض ضوأ عقلي. وقلت أبحث الموضوع معك. أنت خيبت لي أملي. ظننت أنك ستجد معنى أكبر من المادة.

قال شداد بنبرة اعتذارية: ـ عدم المؤاخذة، يا أبو ابراهيم. الحقيقة أنا لم أفهم. ماذا تعني لك قطعة الارض هذه؟ قصدي أي شيء ستغير من حياتنا؟

قال اسماعيل بحزن، نصف مطرق، نصف متهدل، ساخراً:

ـ جاءتك شوشوك. وأنت شوشتني. هذا الكنز علامة، على أننا لم نمت. ما زال فينا خير. أننا يمكن أن نرجع سندياناً من جديد. لا عليه. أنا هكذا دائماً. عندي دوافع للاشياء العظيمة، وليس عندي فهم كاف لها.. موضوع.. أنا يوم قررت بيع الحطب، كنـت على أبواب الاشياء العظيمة. ليس على أبواب الروم. وكان يجب أن نستمر. لكن جاءتني الضربة من مكان ثان. ظلم ذوي القربى. الخرافات مع ذوي القربى. الأمور لا تحسب بمفرداتها. إنما بمجوعها. الآن جاء ارث، لنا كلنا. ويجب أن نستمر على تلك الطريق. ونفهم السر. كنز يختبىء مئات السنين. ماذا يعني ظهوره الآن؟ ألا يدعونا الى شيء نفعله؟ ولكن من يا ترى يعرف طرق الله؟

صمت. استسلم لنصف إطراقة ونصف تهدلة. وصمت شداد احتراماً. بدا له اسماعيل في تلك اللحظة الشاب

الذي رآه قبل ربع قرن، يقود الفتيان المتحمسين الصداميين الى بيع خرافة وشراء مدرسة. ثم رآه الرجل الذي استطاع أن يحفظ حزنه فلا يرهق أحداً به حتى يتحول الى شلل واستطاع أن يشفى. وبقي جليلاً.

قال شداد باعتذار: ـ الحقيقة يا أبو ابراهيم. يعني، هذا الزمان غير زمان. قبل ربع قرن، كان هناك شباب، وكانت غابة. وأنت عمرت مدرسة من شجر الغابة اليابس. قصدي، كانت الأمور واضحة. شباب متحمسون، وغابة محرمة. الآن، كبرت الغابة وصغر الشباب. ويقال لنا الغابة حديقة. ادخلوا، ولكن لا تلمسوا الشجر، لا تلمسوا الزهر، ولا النباتات، ولا حتى التخوم الحديدية حولها أو داخلها. لكنها في الحقيقة غابة، ومحرمة. أنا ما عدت أعرف أين أضع رأسي. يهاجمونك بكل شيء. بالاشتراكية. بالتحرر. بالدكاكين. بالاستعمار. بالشاليهات. بالمبادىء. بالراديو. بالجرائد. بالتنمية. باللغة. بالظروف المصيرية. المرحوم أبي قال، أسوأ شيء اخترعه الانسان هو المال واللغة. وأنا لا أريد من حياتي غير أن أجمع زوجتي وولدي حولي، ونخرج لمشوار مفرح، فلا يعكر صفونا شيء من الخارج. لكنهم لا يتركونك تعيش بسلام. وتريدني بعد هذا أن أندهش. كيف يمكن للدائخ أن يندهش؟

عندما تودع الرجلان خارج سياج الشجيرات، كان لليل قوام الهم: في اتجاهه نحو الارض بدا أكثف كأنه يضرب أوتاداً؛ وفي الأعالي بدا نحيلاً حتى ليتلاشى. مشى اسماعيل صوب البحر، وبدا مثل طيف أرضي. ثم انعطف مع الطريق العام ومضى باتجاه حارة الرمل. وقف شداد يتأمله مبلبل الخاطر. تأمله حتى غاب في المدى. وقفل عائداً، وقد خطر له خاطر عجول. أسرع الى غرفة النوم. لكنه لمح زهرة، ووقف ينظر اليها بارتياب. كانت جالسة مكان اسماعيل، نصف مطرقة، نصف متهدلة، حزينة شاردة، منفوشة الشعر. فاجأه وجودها وطريقة جلوسها، فلم يدر ماذا يقول. ولمح جفنيها يرتفعان، وعينيها السوداوين ترشقانه بإمعان شديد ولكن عابث. تراخت وقفته وابتسم. قالت: «ألا أبدو هكذا مثله؟» قال وهو يتناول سيجارة ويجلس في مقعده السابق: «كنت تتفرجين علينا؟» قالت: «وأتسمع. أنا أرى أن اسماعيل هكذا وهكذا.» وقلبت يدها فوق تحت. قال: «ماذا يعني هكذا وهكذا؟» وثبت من كرسيها، وبلمحة تناولت الكبريتة، وأقعت، وأشعلت سيجارته:

ـ دائماً مرتبك. دائماً منحرج. مثل واحد مديون وما معه يدفع. ودائماً متخذ وضعية. أنا ما علاقتي. تعرف؟ جدت الدم في عروقه. قلت له سأنادي أبي ليتسلى معه بينما تجيء أنت. رجف. لا داعي لا داعي. قلت له أبي وحيد ولا يشتغل في هذه الأيام، تتسلى أنت وهو. لكن جئت أنه وخلصته.

نهضت وعادت الى كرسيها. التقط شداد علبة الدخان ووضعها في جيبه، وأضاف لها الكبريتة. نظرت اليه بفضول. قال: «أكيد سمعت حديثنا كله. أنا لم أفهم حكاية هذه الارض. بودي أعرف الميراث يستحق التعب أو لأ. واصل عند خولة. أسألها إذا كانت سمعت. ماذا؟»

كانت قد وثبت واقفة. وإذ سألها ماذا. أمسكت أصابعها بأصابعها. ثم تغيرت سيماؤها فوراً. قالت: «ها ها! لعب الفار بعبك، ما؟ كل الوقت وأنت زهدان، وأبو ابراهيم يطلعك من غيمة ويدخلك في غيمة. بودك قهوة؟»

قال: ـ لا. الفنجان الثاني ما خلص بعد. والله، الحقيقة الفأر لعب بعبي. يعني، إذا جاءت للواحد عشرة، عشرون ألف على بارد المستريح، نعمة.

جلست: ـ يا عيني على التقدمي. صار مشغولاً بالارث والملكية وما لا أعرف. أنا سأحكي لرفاقك عنك.

ـ تحكين لهم؟

ضربت بقبضتها على ذراع الكرسي: ـ أحكي لهم أن شداد الخياط خان مبادئه عند أول هزة.

قال ضاحكاً: ـ أوف! ضربة واحدة؟

ـ طبعاً. أنت ضد الملكية والتوريث. ويأتي ظرف فتقبل بكل سهولة الملكية والتوريث.

ـ أف أف! ما شاء الله على مثالياتك الفضائية. من أين لك هذه الفلسفة؟

هزت رأسها بسعادة: ـ منك يا أستاذ. يوم درستني كتب الكفاءة.

قال بحماس: ـ أنت مجنونة. أترك إذن عشرين ألف ليرة ليتنعم بها عبسي ومحمد علي؟

قالت بجدية: ـ ها أنا ورمضان وبديع تركنا لخالي شحادة كل حصة أمي من ارث جدي.

قال باستخفاف: ـ بلا مزاودات. أبوك أقنعكم بترك الحصة، لأن أمك الله يرحمها، ما كانت لتقبل شيئاً من بيت جدك.

قالت بإصرار: ـ يظل الموقف مبدئياً. لو أنا مقتنعة كنت أخذت. أمي تريد أو لا تريد، لا يهم. أنا لا أريد. وحياتك يا شداد، لا أريد ارثهم ولا وسخهم. وأنت لا يحق لك أن تأخذ قرشاً واحداً لم تتعب عليه. هذه هي مبادئك. أليست مبادئك؟ صحيح أنت لا تستغل أحداً إذا ورثت، لكن مبدأ الوراثة مبدأ استغلالي. ولا تحاول أن تلعب بالكلمات.

قال بوداعة: ـ الآن، خلينا نفهم قصة الارض، وبعدها نلعب كاراتيه.

نهضت واقفة، وقد همّ بالنهوض. أمسكت أصابعه بأصابعها وهتفت: «لن تروح اليها.» تأملها مبتسماً ولكن مرفوع الحاجبين. وقف وتمطى. قالت: «شداد، لا ترم حالك في هذا الدوار. لأجل أن ترث من هذه الأرض، ستحدث أشياء كثيرة، تنازلات كثيرة.» قال: «يا حبيبتي، مجرد استفهام وخلص. بعدها أعود وانتهينا.»

فجأة طوقت ظهره بذراعيها ورمت وجهها على كتفه. مسح على شعرها وقبّله. صرخ: «آي! لا تعضي يا بنت..» قبّلته وقبلها. لف عليها ذراعيه الطويلتين وشدها. وانفركت بصدره كأنها ستدخل فيه. وفجأة أرجعت جذعها الى الخلف.

قالت: ـ إذا بقيت وضممتني، ألا يكون أحسن من ميراث جدك؟

ضحك: ـ يعني أنت وميراث جدي طرفا نقيض؟

ابتعدت عنه وهتفت: ـ نعم. أنا وجدك طرفا نقيض، ليس فقط ميراثه. شداد، أرجوك لا ترح اليها.

قال بضيق: ـ يا عمي، أي شيء قصتك اليوم؟ ألا أزورها من وقت لوقت؟

قالت وهي على طرف البكاء: ـ بلى. لكن هذه الزيارة غير كل الزيارات. شداد، غداً تنجر وراء الميراث. وبعدها تنجر وراءهم. وأنت رجل عاطفي؛ يؤثرون عليك. تصير حياتنا صعبة، ويمكن تصير أسوأ.

جلس. قال: ـ هكذا إذن. اقعدي، لا تهزي بدنك.

جلست. نفض رماد سيجارته. قال:

ـ نحن متزوجان من عشر سنين. ولا يوم خطر لواحد منا أن يشك في حبه للثاني أو حب الثاني له. كل المواقف الوسخة التي وقفوها لم تؤثر علينا. الآن، قضية الميراث ستؤثر؟

قالت وهي ما تزال على طرف البكاء: ـ يمكن أن تؤثر. لأنه إذا لم تصف القلوب يظل الشر موجوداً. وقلوب الناس لا تصفو. شداد، أنت تعرف كل القصص. حياتي وأنا صغيرة. وحياتنا بعد ما تزوجنا،

والإهانات التي بلعناها، وخاصة من أخيك. وأنا هنا لا أقدر أن أجد عملاً في أي مكان لأني بنت مريم. الآن، تدور الدورة من أول وجديد. كل شيء ميت، يبعثه الميراث حياً. نحن مثل زنج البصرة، شداد. لا أحد يعترف بنا. يكفي أن ينظر أخوك اليك نظرة من فوق. هذه وحدها تساوي عشرين ألفاً. سامحني يا شداد، لا أريد أن أوقع بينك وبينه. وأنتم لستم بحاجة لمن يوقع بينكم. لكن، ألا ترى كل شيء؟ حتى الآن لم يزرنا مع امرأته. وكل الذي زارنا، ثلاث أو أربع مرات في ست سنين. كل مرة نصف ساعة، وفنجان قهوة، والسلام عليكم. ألا ترى كل شيء؟ هؤلاء رجعيون أكثر من جدي وجدك. جدي وجدك وأمثالهم كانوا يؤمنون بالله ويخافونه، وقلوبهم مفتوحة. هؤلاء، من الذي يفتح قلوبهم؟ أنا، أعرف، شداد، أعرف أعرف، ولا داعي لأن تتجاهل أنت. أعرف أن حسن الغفري ليس أبي. وهم يعرفون، ولا يمكن أن تصفو قلوبهم. لكن حسن الغفري هو أبي. هو الذي أحبني. أخذني من تنور الشير وأعطاني فراشاً دافئاً. هو الذي يحب، وهو الذي يحق له أن يكون أباً. أنا بنت مريم، ولأنه يحب مريم، أحبني. هكذا الحب. كل الذين يحتقرونه، هو أكبر منهم. بعد تنور الشير، وضعوني في تنور المدينة. وأنت إذا كنت سترث، وابتساماتهم الغفورة! تنزل عليك من فوق، أنا لا أريد هذا الإرث ولا مئة ألف إرث. وبعدها أنت ضعيف تجاههم. تتصرف معهم كأنك تعتذر. مع عبسي بيك! والدكتور! محمد علي. حتى هذا اليوم لم يدخل بيت أخته. هؤلاء تسميهم تقدميين؟ بني آدم؟

- على مهلك. على مهلك. لماذا تكهربت؟ من يسمعك يظن أني سأرث منهم، وأقبض منهم. طالما الأمر بيد الحكومة، لن ألتقي بهم إلا في الدوائر العقارية. وبعدئذ أنا لست ضعيفاً تجاههم مجرد أني أتركهم يرون أنفسهم بالصورة التي يريدونها. أنا لا علاقة لي بكيف يرون أنفسهم. لكن لست ضعيفاً تجاههم.

- لا يا سيدي أنت ضعيف تجاههم. وعبسي يعاملك كأنك واحد قاصر. بحجة أنه يحبك.

- على كل حال، إذا كان الميراث يزعجك الى هذا الحد، طظ في ألف ميراث. أنا من لي غيرك؟

وثبت زهرة من كرسيها وانطرحت عليه. لطمت ركبتاها الأرض واندس رأسها في حضنه. هممت وكلماتها تضرب ثيابه أولاً: «لا أريد هذا الميراث. لا أريد هذا الميراث. قلبي يقولي، سيكون شراً علينا.» ضحك بقوة. ورفعها عن الأرض: «قومي. صار شيء لركبتك؟ والله قصة. ذاك يقول الميراث سر كبير، وأنت تقولين شر كبير. والميراث ما يزال في الغيب لا نعرف عنه شيئاً.»

لم يذهب تلك الليلة الى خولة. حمل زهرة بين ذراعيه الى السرير. وهناك حملا الولدين الغافيين الى غرفة الجلوس، ووسداهما على فراش أعدته زهرة. وعادا الى الحب. كلاهما كان محتقن الخاطر. وكلاهما امتدت يده بالحاجة الى الحب. عشر سنوات مضت، وما زالت زهرة مدهشة. ومد يده ليسترد بالجهال دهشة ضاعت عبر الزمن. عشر سنوات وما زال لجسدها رائحة الارض ونبض التفتح. ومد يده ليستمد من حركته حيوية امتصتها الأفران والدكاكين. وانطلقت هي فيه لتبعد عن عينيها تطاول خوف كان قد شرش مذ وجدت نفسها لأول مرة على قارعة الطريق. أخذ الاحتقان ينفث، والنفس تعود الى حجمها الطبيعي، كأن جسدها قال لها أنا ميراثك، وصدره قال لها أنا وطنك والناس. وضمها كما لو أنه أراد أن يلملم الرعشات الأخيرة لقوامها الوضاء.

عندما أخذت تسرح شعرها، وهو يدخن سيجارته، قالت: «تعرف؟ كنت أقول لحالي، لو أنك الآن تلبس ثيابك وتروح اليها، أنا لا يهمني.» لم يجب. وهي لم تتوقع جواباً. بعد قليل أطفأ سيجارته وقال: «تعرفين كيف استمر حس الملكية كل هذه الدهور؟ من فشل الانسان مع الانسان. الذي ليس غنياً بالحب يسعى ليصير غنياً بالمال. أو بالسلطة. وإلا ماذا يعني هذا التطاحن؟ صراع طبقي، صحيح. لكن لأي شيء يكون الغني أبخل وأخوف من الفقير؟»

أنهت تسريح شعرها. وضعت ركبتها على السرير، ورمت جذعها على ركبتي شداد. قالت: «قاعد تعمل لي تحليلات نفسية. لو تضمني ألا يكون أحسن؟» قال: «ألا تعجبك أفكاري؟» قالت: «لا، لا تعجبني أفكارك. إذا لم يخف الغني ويبخل بماله، يصير غيره أغنى منه وأقوى منه. ألن تترك هذه الأسئلة الفوقانية؟» قال بدعة: «ليست أسئلة فوقانية. هذه أسئلة جوانية. لماذا يحب بعض الناس أن يكونوا أغنياء أقوياء؟ لماذا يحتاجون للقوة؟ ماذا يفعلون بها؟» قالت: «اسأل أخاك عبسي وأختك خولة.» قال: «أمرك. غداً أسألها.»

ارتدت عنه وصاحت: «ستزورها؟» قال: «إه! من لحظة كنت تقولين لا يهمك!» وغمغمت بوداعة: «لا، لا يهمني. طالما أنت تفضل الحب على القوة.» وشردت ابتسامتها.

تلقت خولة النبأ بفرح غامر، ولكن رصين، بدا في عينيها بعد أن أزاحت عنهما النظارات الطبية. لم تكن المعلومات كافية ولا مؤكدة. ومع ذلك، نهضت الى كرسي مذرّع وجلست عليه تاركة شغلها. نادت حيان فأقبل من غرفته. «حبيبي، ألا تغلي لنا قهوة لنشربها أنا وخالك؟» وبدا سعيداً بالمهمة، وأكثر سعادة لأن حديث الهاتف الطويل انتهى أخيراً وصار بوسعه الجلوس مع خاله. قال: «خالي عبسي في الشام لشأن موضوع الأرض.» تأملته باسترسال وهو يهرول الى المطبخ، كأن فمها راح ينظر اليه. ثم بانت على تقاطيع وجهها الناضبة تعابير كان واضحاً أن لها علاقة بالميراث وأنها وفدت من بعيد. فلوهلة نسيت شداد، الذي راح يدخن بهدوء، وامتلأ ذهنها بصور البحر ورمل الشاطىء ولمعان الشفق. أخيراً قطع عليها استغراقها، لا شداد وإنما انحباس تنفسها. عبّت شهيقاً عميقاً وهتفت دون أن تعني أحداً بعينه: «الآن صار ممكناً شراء الشاليه. يا لطيف كيف تدور الحياة. أنا التي لم يأتني قرش واحد في حياتي دون تعب.» سألها شداد عن أي شاليه تتحدث، فتذكرته. التفتت اليه: «كيف! ألم تسمع؟ وأنت صار يمكنك أن تشتري شاليه. مشروع ضخم، والناس تتزاحم عليه كأنه، ماذا أقول لك؟ شاليهات تأخذ العقل بين النهر الكبير ومخيم اللاجئين الفلسطينيين.» فرفع شداد أصابعه في الهواء وهمهم: «تريدينني أنا أن أشتري شاليه؟»

أقبل حيان بالقهوة وأخذ يوزع الفناجين. قالت: «شداد لا تغلط. جلسة على كرسي هناك، ومشاهدة الغروب، والبحر الممدود، تغسلك غسلاً. الهدوء، والطبيعة، الصمت، الراحة، الأمواج الصغيرة. وفنجان قهوة وسيجارة. واترك نفسك هكذا، تموج مع الموج. وبعدها، يوم يحب حيان ويتزوج، ويأتي مع حبيبته، يمشيان على مهلهما، ويده على ظهرها، على الرمل الدافىء، والنسيم البارد يهب عليهما، أو إذا خطر لهما في عاصفة شتوية، وراحا الى الشاليه، وقفا وراء الشباك، والموج العالي يضرب، والريح تهدر في السماء، تصور بس، كم ستصفو النفس. وبعدئذ، إذا ضاقت بك الأحوال تبيعها في أي وقت تربح عشرة آلاف عداً ونقداً دون أن تحرك رجلاً عن رجل. يعني هي ثروة.» قال حيان: «لكن خالي شداد يا أمي، ليس من النوع الذي يضع رجلاً على رجل. دائماً رجلاه متباعدتان. تطلعي اليه.» قالت: «أنت تضحك علي يا حبيبي. في المستقبل ترى وتتذكر، وتقول أمي كانت تحسب لبعيد.»

تحرك شداد في كرسيه: «آخر الكلام، أنت لم تسمعي شيئاً عن موضوع الإرث؟» قالت: «أبداً. ولا شيء. بس أظن الخبرية أكيدة. لأن عبسي في الشام لأجل الموضوع. لكن يا شداد، هذا الخبر خبر. من عشرين سنة ما هزني شيء من هذا النوع.» سألها لماذا، فابتسمت وهزت رأسها: «من يفكر ببيت السنديان في هذه الأيام» جرفتنا الحياة حتى نسينا أن لنا أصلاً. حتى أبوك ما عاد يخطر على بالي. إلا بالنادر. وفجأة! يبعثون لك هدية من تحت قبورهم. أنا بالنسبة لي، الشاليه آخر حلم أريد تحقيقه، وبعده لا أريد شيئاً. هذا الميراث، مثلما إذا القدر مد يداً وأوصلك إلى بر الأمان.»

قال حيان: « وأنت خالو، ما رأيك؟ أمي واضحة. الموضوع بخط مستقيم هو العناية الالهية.» قالت خولة: « فعلاً». قال شداد: « والله يا خالو أنا لا أعرف، إذا بودك الصراحة. أبو ابراهيم يرى في الموضوع رسالة، مطلوب منا القيام بها. زهرة، ضد كل وراثة وتوريث وتتهمني في مبادئي إذا قبلت. وأمك، مثلما حكيت. وأنا أشوف القصة كلها بسيطة، ولا أضيف لها شيئاً من عندي. أرض تجيء بالمال، نأخذ المال، وانتهينا. إذا أعطاني المال شوية حرية من ضغط حياتي، مرحباً به. لكن أظن أن هذا مستحيل.»

سأل حيان، مثبتاً مرفقيه على ركبتيه: « ماذا ستفعل بالعشرين ألفاً؟» ضحك شداد: « ماذا أفعل بها؟ كما يقول المثل، إذا صار مع الفقير مال، إما يكفر وإما يتزوج.» قالت خولة: « إما يتزوج، صحيح. لكن هذا كثير عليك. إما يكفر؟ لا. الغريب يا شداد، انه كلما زاد مال الغني زاد ايمانه.» صاح حيان: « طبعاً. ليقول هذا المال جاءه من الله، وليس من الاستغلال..» صاحت خولة: « حيان! لا أريد سماع هذه الآراء.» التفت الى شداد: « أمي ارهابية.» « أنا لست ارهابية. وقت تتكلم مثلما كان خالك عبسي يتكلم، هل أقول شيئاً؟ فكر بالاشتراكية، بالتحرر، بالثورة. لكن الأفكار الشاذة، نتيجتها الوحيدة غضب الله.» قال شداد ناهضاً عن كرسيه: « اتركي هذه الخزعبلات. المهم هو ما يفعل الانسان بأفكاره.»

ذهب شداد، وخلّف صمتاً مدوماً. الارض التي بعثت حية، وكذلك الذكريات. تناولت خولة علبة الدخان بحركة آلية، ولم تتناول سيجارة. وانتبهت الى حيان الواقف إزاءها بارتخاء. ابتسمت لابتسامته بنصف شرود. قالت: « ما بك يا حبيبي؟» قال:

ـ أنت مصممة على هذا الميراث؟

نظرت اليه بتساؤل وادع: ـ ماذا أفعل اذن؟

ـ أنا أشوف أنك بنيت نفسك بنفسك ولا فضل عليك للقدر. لماذا تقبلين هدية القدر، بعد أن ملأت حياتك بكل شيء جميل، وصرت مفخرة بين الناس؟

ـ يا ابني بعدك صغير، وتحكي من بين الغيوم. التوريث معروف ومقبول في العالم كله، ومنذ قديم الزمان. هذا حق لي، نجدة، أرفضها لأي شيء؟

ـ لتبقى صفحة حياتك مجيدة. التوريث مبدأ إقطاعي ورأسمالي ولا يجوز أن نقبل به. هذه وسيلة الطبقة الحاكمة لتوريث سيطرتها الى أبنائها، ليبقى الفقير فقيراً والغني غنياً.

ـ قصدك أني أترك عشرين ألف ليرة، لأن التوريث مبدأ رأسمالي. هذا اليوم أنت في قمة عبقريتك، يا ابني. أنا ما علاقتي بالرأسمالية؟

صمت حيان مخذولاً قليلاً. وفجأة قال:

ـ بدأت أياديها تمتد اليك. صرت الآن تفكرين بشراء شاليه.

ـ حيان! إذا اشتريت شاليه أكون رأسمالية؟ أنت تحكي بالطالع والنازل. أنا كل عمري ضد الرأسمالية.

ـ هذا قصدي. لانقدر أن نشتم وضعاً استغلالياً، وبعدها نمد أيدينا الى جيوبه. كل الموروثات يجب نسفها والبناء من جديد. لا أن نخترع لأنفسنا استثناءات.

نظرت اليه حانقة وباسمة. أكثر من ربع قرن مضى، وهاهو عبسي يتجسد في حيان. الحماس نفسه. الطيران نفسه. الأفكار نفسها. القوة المؤثرة والوقدة الانسانية المفرحة. عبسي أيضاً بنى نفسه من نقطة الصفر، وهو الآن في الشام لأجل الميراث.

قال حيان وهو يجلس على ذراع كنبتها: ـ إذا حصلت على هذه العشرين ألفاً تتركين الشغل؟

ـ أترك الشغل، لا. الخياطة صارت في دمي. أخفف. أخفف من الشغل.

ـ مئة مرة تعهدتِ أنك بعد شهر أو شهرين تخففين من الشغل. لا خففت، ولا ارتحت.

ـ ماذا أفعل؟ تعرف، بيت الضيعة كان لا بد منه. لي ولك. و...

ـ دائماً لي. دائماً لي. اتركيني أحصل على ما يلزمني بنفسي. ألم تبدأي أنت من الصفر؟

ـ ضروري أنك تبدأ مثلما بدأت أنا؟ ضروري أنك تضيع عمرك كله ليكون عندك بيت تنام فيه؟ أنا أريد اراحتك من ظروف الحياة. لتتمتع بشبابك، ولا تضيعه كما ضاع علي.

ـ هذا قصدي. لا تضيعي حياتك لتوفري علي حياتي. ارتاحي، ارتاحي.

قالت وعيناها على الارض: ـ يا حيان، حياتي ضاعت وخلص. لم يبق من العمر شيء. صرت أنت عمري.

نهضت بعناء خفيف وجرت وراءها كرسي الخيزران الى الشرفة. وفهم حيان فمضى الى غرفته. عادت الى غرفة الخياطة وأخذت السجائر وفنجان القهوة. وخرجت الى الشرفة الضيقة. منذ شهر صار الشارع الصغير المقابل، الممتد باتجاه البحر، يمنحها راحة إضافية. من قبل كانت الفسحة التي يمدها بين البنايات المجاورة مسدودة بشجرة كينا ضخمة في حديقة مار تقلا. وكانت الشجرة تقف حاجزاً مزعجاً بين عينيها والبحر. لحسن الحظ اصطدمت بها شاحنة عسكرية وأطاحت بها. وهكذا انفتح طريق البصر الى البحر.

لكن خولة لم تكن مشغولة بذلك الحادث السعيد. بعد ذهاب شداد اكتشفت أن قصة الميراث قد جرت خيالها ببساطة الى تذكر أمور ليست بسيطة. وعندما أشعلت سيجارتها تساءلت، ما الذي بحق السماء ذكرها بأحمد سليم. وأخرجت من رئتيها كتلة دخان متداخلة متمددة انشغلت بها عن التفكير حتى تبددت. والآن يأتي الارث كخاتمة طبيعية لحياتها، تصفية حساب. تشتري الشاليه، وانتهى. لم تعد هناك أحلام عظيمة ولا جهد عظيم. نظرت الى رماد السيجارة الذي طال فجأة وظل عالقاً بها. مدت يدها ونفضت الرماد على الشراع أمامها. لقد جاءت ذكرى سليم مراراً من قبل. لكنها عبرت ولم تخدش بشرة العمر والفرح والتوقعات، بعكس هذا المساء. تناولت نفساً آخر من السيجارة. كل شيء مضى، وحضر الارث. يموت الاشخاص، ويحيا الارث. حقوق تموت، وأخرى تظل حية. ما الذي أعجبه في امرأة عمرها تسع وثلاثون سنة؟ وذاك الذي أمضى اثنين وعشرين عاماً مع أطفال الابتدائية، وهو يتقدم في العمر حتى وصل الى الخلف: ظل يتلجلج أمامها بين سكون النظرات العاشقة وهياج الجسد الجاهل الصاهل. يتلجلج الى أن باخ الحلم وتقلص وانطوى. حتى رجب العز.. ولكن لا. يا للقرف. وممتاز الأحمد ولبيب محمود وفريد وأنور. كلهم اقتربوا. واقتربت. كانوا أحياء متوهجين بخيبات حياتهم؛ وكانت تتلمس الطريق المستقيم لأنها رأته متاهة. ولم يستيقظ جسدها ـ إلا على الرعب والكوابيس. خمس سنوات ووجه شكيب الغفري المتهدل على حنكيه يطل من وراء رؤوسهم. خمس سنوات ووجه الشيخ عبد الجواد يطل من وراء وجوههم. وشداد يقول لها هذا الوجه موجود في قفا رأسها وليس وراء رؤوسهم. عطاءات صغيرة فرح صغير هنا، وبخس هناك. مسرات. لم تصر موسماً قط. ما عاد أحد يزرع وينتظر. الكل مستعجل. يريد القطاف قبل الزرع. حتى جاء. وكان عريساً في الثلاثين انعطبت حياته الزوجية أبكر مما يجب. ما الذي أعجبه في امرأة عمرها أربعون سنة؟ يومها أدركت أن الشيخ قد انتهى. وأن جسدها قد أفاق. كانت قد خرجت من الحمام قبل دقائق لبست ثيابها، لكن شعرها كان بليلاً. ورحبت بزوجته الدمية ترحيباً أسرفت فيه لئلا تعي أن جسدها كان في تلك اللحظات يفيق، أن لا نظراته كانت تعيدها الى الحمام. ما الذي أعجبه.. والمواتف الليلية. أجل ما في ذلك التاريخ كان المواتف الليلية. الصوت بلا صورة. الكلام الطالع من عمق القلب بلا يد تمتد فتخيف كان دريئة ضد وجه مريم المسلول.

الوجوه كلها حضرت واندثرت. لكن أبا أحمد أرسل ابنه، شداد لا غيره. وماذا لو كان رجل مخابرات؟ فضائح. أليس هؤلاء قادرين على الحب؟ هو على الأقل كان قادراً على الحب. ومع الحب ينسى الانسان وظيفته. وماذا لو أن هواتفه مراقبة؟ رجل مخابرات. ويوم سألته أخيراً كيف يرى مريم خضير قديسة بينما لا يوافق على فرصتها هي الوحيدة للحب. عندها أخذ يراوغ، وتخلى عن مبادئه بغمضة عين بلا تردد. لا يريد أن يكون متكأ أخلاقياً، قال، حتى إذا ندمت في المستقبل، وستندم، لا يكون لها أن تقول أنت السبب، أنت شجعتني. مريم لم تستشر أحداً. كانت مقتنعة. هي ليست مقتنعة. تريد توكيداً منه، وهو غير مقتنع. يا للجبن. بدل أن يشجعها، أخافها. وكان فالح جديراً بالحب. ثلاث سنوات، وبعدها لا شيء. لقد اخترقت في حياتها أشياء كثيرة، مذ كانت طفلة على تلال الشير حتى انتزعت قدرها من مصنفات المحكمة. لكن ذلك الباب المفتوح ظل مغلقاً. يئس فالح. انتهت القصة. اعتكفت هي. لا بنت عبد الجواد الخياط كانت ولا مريم خضير. وقالت له أنت خذلتني، أطفأت ضوء حياتي. كان أقل من أخ. وكان متخاذلاً. والآن يأتي الارث ويضع خاتمه. لمسة أخيرة من آل الخياط، السنديان. أيها الحقيقي: شداد أم جده الشيخ؟

في الصباح أرسلت لحبرية، فجاءت. «ويلك يا حبرية. انحفي شوية، يخرب بيتك. ألا يقرف منك أبو ياسر؟» «أعوذ بالله! يقرف مني؟ أبو ياسر يقول حتى لو صرت مثل البقرة يظل يحبني.» «اقعدي اذن. عندي لك خبرية ستخليه يحبك حتى لو كنت مثل الجاموسة.»

زقزقت حبرية للنبأ وأطلقت زغروده، ونهضت واقفة. سألتها ما بها، فقالت ان القصة تستحق فنجان قهوة، وستصنعه بنفسها.

ـ ماذا ستفعلين بالعشرين ألفاً؟

اختفى فرحها: ـ ماذا أفعل بها؟ والله لا أعرف. سأضعها في البنك.

ـ في البنك يا مجنونة، أو تشترين شيئاً لك ولأولادك؟

ـ لا. سأضعها في البنك. وعند اللزوم! أسحب من جزداني دفتر شيكات! وأكتب شيك! مثلهم. ليعرفوا أن لا أحد أحسن من أحد.

ـ ولن تشتري شيئاً لك ولأولادك؟!

ـ سأشتري. شأشتري لهم ثياباً، وكنادر وأحذية، وأستأجر لهم بيتاً فيه غرف، وأطعمهم أفخر طعام. وأشتري لي حرة أصلية، لأن أبو ياسر صار يتضايق من هذه الحمرة تلصق على فمه كلما باسني. والباقي سأضعه في البنك. الآن خلينا نشرب قهوة، يلعن أبو المال.

ـ لأيّ شيء فرحت بالخبر اذن؟

ـ آ. فرحت، معلوم. سينجبرون بعد هذا العمر أن يوجدوا معي في مكان واحد. الدكتور! محمد علي آغا! سيقول غصباً عنه هذه أختي. يا عمي خلينا نشرب القهوة ونحكي. لأن العشرين ألف لن تبقى معنا عشرين يوماً. نحن ما تعودنا على عشرين مئة.

بالطبع كان عبسي أول من سمع بالنبأ. عند الأصيل، وكهرباء السفن بدأت تلمع على صفحة البحر، جلس وزوجته في غرفة الضيوف لتناول القهوة. وأقبلت البنات رتلاً، فقال: «بابا، اتركونا أنا والماما نشرب القهوة.» وعادت البنات رتلاً. ثم أطلت الخادم تحمل الصينية الفضية، ووضعت الفنجانين أمامها. وعادت أيضاً. مشت على الموكيت الفستقي ببطء ورصانة، واختفت وراء الباب الذي أغلقته. قال عبسي: «أم جميل مشكلة. كلما مشت على الموكيت وسخته.» قالت فدوى: «هي توسخه، وهي تنظفه.» وتناولت فنجانها.

حست حسوة ووضعته. أشعل عبسي سيجارة. تناول فنجانه. رشف رشفة ووضعه. نظرت فدوى الى البحر من وراء الزجاج الصقيل والستارة الشفافة. تلمس عبسي نواتىء الكنبة ومسح عنها الغبار بإصبعه. «أين نذهب هذا المساء؟» «ألست مشغولاً بشيء؟» رفع حاجبه بالنفي، ثم وجهه الى الجدار: «لا أعرف لماذا لم يعجبك ورق الجدران. كلهم أعجبوا به.» «في البداية. الآن صرت أراه معقولاً».

ثم رن جرس الهاتف. نهض الى الصالون بتلكؤ. وبدا أن الهاتف من دمشق، من وزارة الصناعة. وبدا أنه مهم، إذ طلب لحظة انتظار، وجلس على الكنبة، أشعل سيجارة وهو يصغي. أخيراً وضع السماعة، مبتسماً شارد النظر. مد يده الى نبتة الأصيص ومسح على أوراقها الصلبة بلا انتباه. نهض. تأملته فدوى مفترة الشفتين حتى جلس. «يتهيأ لي أن الخبر غريب. وجهك فرح ومشغول.» روى لها النبأ، ودهشة المفاجأة تختلط بانشغال البال. «ألست هذه أعجوبة صغيرة؟ تصوري! بعد كل هذا الزمن».

ظلت صامتة ومنصتة بعد سماع القصة. وعاد هو الى شروده. التفت الى حيث علبة الدخان فقدم لها سيجارة. أشعلتها. حست بعض القهوة. قالت:

ـ لم تقل لي أين الأعجوبة في الموضوع. ثمن الارض سيوزع عليكم. وأنتم عائلة كبيرة كما تقول. فرضاً كانت حصة الواحد عشرين ألفاً، ماذا يعني؟

نهض ونظر الى ساعته: ـ آه؟ ماذا يعني؟ شيئاً كثيراً. تعرفين أنا منذ ربع قرن لم أنظر الى الخلف. كنت دائماً أمشي الى أمام. ويوم تزوجنا كنت بالكاد أقف على قدمي. كنت مصمماً على أن أقطع كل رابطة لي بتلك البيئة المتخلفة، وأخلق نفسي من جديد. حكيت لك عن بديع خضير، وكيف كان رمزاً لتمردنا. كنا نريد أن نخترق عصوراً من التخلف والعبودية، لنصل الى الحضارة والحرية. وبعد أن وصلنا، وقامت الثورة، وبنينا كل الذي بنيناه، ومدت الثورة جذوراً جديدة في التاريخ، وغيرت بنية المجتمع ـ يطلع هذا الارث من غياهب الماضي ويمسك بتفكيري.

ظل واقفاً. وظلت جالسة: ـ أنت فرح، أم تحس بالخيبة؟

ـ لا، لا. أنا فرح. ومندهش. مثلما قلت لك عن الجذور. ظننت أنه لا يوجد غير الجذور التي مددناها. لا مصدر للحياة غير الذي صنعناه. وإذا به، ما تزال هناك جذور تربطنا بالماضي. بأجمل ما في الماضي. وهي تظهر لنا لتحيينا، لتباركنا. هذا يعني أننا نحن حقيقيون. إن الذي بنيناه ووصلنا اليه، حقيقي، أصيل. لأنه في هذا العصر الدائخ، أحياناً يحس الانسان أنه ربما كان على خطأ، أو أنه لم يعد يعرف من هو ويخيل اليه أنه أضاع الرؤية لكثرة ما تغير وتجدد. هذا الميراث يعني أننا لسنا على خطأ، ولسنا بلا هوية، ولسنا بلا رؤية. ترى رجع محمد علي من العيادة؟ أخاف أزوره في العيادة ويكون في البيت.

ونظر الى ساعته. ابتسمت فدوى من جديد:

ـ نسيت أن عندك تلفون؟ اتصل به.

التفت اليها مستغرباً: ـ صحيح! ترين كم هزني الخبر.

ظلت مبتسمة. وخرج هواء من أنفها: ـ التلفون واحد من الاشياء التي وصلت اليها. ألن ننهي شرب القهوة معاً؟

كان قد استدار نحو ركن الهاتف. ومشى:

ـ طبعاً، طبعاً. دقيقة بس لأتصل بمحمد علي. هذا الماضي فيه إمكانات كبيرة للمستقبل.

نظرت فدوى عبر الجدار الزجاجي الى البحر. كان قد تداكن حتى خط التصاقه البصري بحديد الشرفة، فيما بقي الأفق لامعاً وراءه. همت بشرب القهوة، ثم امتنعت انتظاراً لعبسي. ووصلتها أصواته الصاخبة الظافرة. همت بأن تمضي الى الزجاج لتتأمل تلألؤ الميناء بالكهرباء. واستثقلت. وعاد عبسي. كانت يداه تبحثان في جيوبه. إحداهما أخرجت مفاتيح السيارة.

قالت: ـ أظن، سنكمل شرب القهوة في وقت ثان.

قال بابتسامة مذنبة: ـ لا تزعلي يا فدوى. محمد علي عنده أخبار أهم. ولا يمكن التحدث عنها في التلفون. اتركي الفنجان محله، لا تحركيه. أرجع ونشربه معاً. زعلت؟

نهضت وهي ترنو اليه بمحبة: ـ أنا لا أزعل يا عبسي، أبداً. أنت تعرف. هل تأخذني في طريقك الى بيت أخيك؟

أجاب بشيء من الحرج: ـ الآن؟ أجليها اليوم.

ـ أؤجلها. بس، حدد لي وقتاً، وتعهد. تعرف، مضت سنة حتى الآن، منذ وافقت.

قال بارتياح: ـ يا ستي بشرفي، هذا الاسبوع نزورهم.

وبسرعة هبط السلم الى الطابق الأرضي.

أمام الباب الكبير نظر حوله باسترابة داخلية. بين بنايته والبنايات المجاورة أسوار من الحديد والحجارة. أسوار لا غنى عنها، حددت مساحات الجنائن وفصلت بينها، وصارت علامات متطاولة لحدود الأمان والطمأنينة التي لا بد منها لفيلا لها هذا الجلال. وعاين حساً، يأتيه بين كل حين مفاجىء وحين، بأن وراء أسوار الأمان والطمأنينة مدى مقلقاً غامض الرهبة. كانت ثمة سيارات تعبر يمين يسار، وأضواء باهرة في كل زاوية، وحجم محسوس من الأصوات والصيحات. لكن نظرة الاسترابة لم تختف من عينيه، إلا بعد أن لمح زولاً يخرج من المحرس الى الضوء الظليل ويقترب، ثم يقف متصلباً بتحية عسكرية. «يا أبو فهد،» نبر عبسي. «نعم سيدي!» «إذا سأل أحد عني، أنا مشغول اليوم.» «مشغول سيدي.» «ابق في المحرس، أنا ذاهب وحدي.» «أمرك سيدي.»

كانت السيارة السوداء قد خرجت من منزلها الى يمين الفيلا، وربضت أمام البوابة تماماً، بباب مفتوح وسائق متهيىء. وعند طرفي سور الفيلا انتصب زولان آخران، تنتأ من وراء كتفيهما بارودتان، وراحا يتفحصان المكان بتهيؤ أصم.

قال محمد علي أن مجيء عبسي أصاب عصفورين بنصف حجر: حديث الميراث ودعوة لعشاء بسيط. وأسهب في شرح مزية العصفور الأول. قال إن هذه الأرض كنز حقيقي. الألومينيوم معدن لا منافس له في الاستعمالات الانسانية المعاصرة. لذلك على عبسي أن يطلع على تقرير الخبراء، ويرى كمية الكنز الصالحة للتسويق. إذا كانت الكمية وفيرة تأتي الخطوة التالية: العمل على تغيير التقرير بحيث لا تجد الدولة مبرراً لاستملاك الارض. ثم تأتي الخطوة التالية: بعد شهور أو نصف سنة يشتري ومحمد علي الارض من أصحابها شراء قطعياً وبأسعار مجزية. والخطوة الرابعة ـ هذه التقطها عبسي قبل الكلام ونهض واقفاً: الاتفاق مع شركة تعدين أجنبية، فرنسية أو ألمانية غربية، لاستثمار الأرض، إما باستخراج الفلز الطبيعي للبيع أو باستثماره محلياً وبيعه عالمياً.

لم يظهر على محمد علي أي انفعال. جلس يراقب الدهشة النبوية على وجه عبسي، وقبضتاه أمام فمه. كانت الفكرة ومضاً ساطعاً أضاء ذهن عبسي: التعدين! لأول مرة في تاريخ سورية. سيقال، ويكتب فيما بعد، إن

عبسي ومحمد علي - عبسي في الحقيقة، لأنه الكل بالكل - أدخلا صناعة التعدين الى بلد متخلف. لأن العقل الصناعي شيء آخر تماماً، قال لمحمد علي، أرقى العقول. وبذلك تكون رحلة الانطلاق من البيئة الزراعية المتخلفة الى العقل الصناعي المتحضر قد بلغت أوجها، يكون عبسي الخياط قد أكمل للناس ثورتهم ورضي لهم الحضارة ديناً.

غير أنه هتف بإحباط مفاجئ: «لن يبيعوا.» ونهض محمد علي الى مكتبه قائلاً: «لماذا لا يبيعون؟ كم ستعطي الدولة كل واحد منهم؟ عشرين ألفاً؟ نحن نعطيه ثلاثين. وسيبيعون بعد أن يعرفوا أنه لا كنز ولا من يحزنون.» قال عبسي: «شداد لن يبيع. سيرمينا بحديث المبادىء كالمنجنيق ويكون سعيداً إذا أفسد علينا المشروع.» جلس محمد علي على المكتب باسماً. وفيما يجمع بعض عبوات الأدوية المجانية ويرميها في الدرج، قال: «وإن لم يبع. إذا ركب رأسه تروح عليه حصته. ماذا سيفعل بها ومن سيشتريها؟» قال عبسي: «أنت مجنون. أنا لا أريد الاصطدام بأخي ولا أريد إيذاءه». تطلع محمد علي اليه باندهاش: «من يتحدث عن الأذى؟ نحن نبقى دائماً مستعدين للشراء منه. يا سيدي ونزيد له خمسة آلاف. واجبك أن تقنعه، وإذا لم يبع يأخذ نسبة من الأرباح. نحن ندخل صناعة التعدين الى البلد! أليس هذا كافياً؟» «من ناحيتي سأفعل المستحيل لتحقيق هذا الحلم.»

بعد صمت قصير قال محمد علي: «وبالمناسبة، شداد سيكون قريباً في غنى عن هذه الدويخة. أرض بيته وبيت عمه سيصل سعرها الى نصف مليون.

- أنت تحكي في منامك.

- المشروع كبير ويشمل أرضي أنا. تعرف أنا اشتريت دونمين صوب البحر من سنتين، وبخمسين ألفاً. الآن يدفعون لي ربع مليون.

- لماذا لا تبيع؟

- إذا صبرت قليلاً صارت بنصف مليون. المشروع ضخم. مدينة سياحية على جانب الطريق العام، لها مسابحها الخاصة. لأن المسابح التي هناك صار يأتي اليها من هب ودب. قم الآن، يمكن ضيوفنا جاءوا.

نهض. قال عبسي: - اضرب رقم هاتفي لأكلم فدوى.

- قم أنت. منيرة تتصل بها وتدعوها. لا تنس كأس الوسكي.

- لتقل منيرة لها ألا تسوق السيارة بمفردها. خل أبو دياب يجيء بها.

عندما التأم الشمل، وامتلأت كنبات غرفة الضيوف المخملية بالمدعوين، جاء اقتراح محمد علي وكان معقولاً. قام الجميع الى غرفة الطعام. وأمام طاولة ذيلها اثنا عشر كرسياً، وطرزها خمسة عشر نوعاً من أنواع الطبخ، أخذوا ينتقون أماكنهم.

تلبك عبسي وهو يحاول اتخاذ قرار بشأن مكان جلوسه. كان قد صمم مؤخراً على تناول المسلوقات فقط، لكي يخفف من وزنه. لكن مقاومته انهارت أمام ما شاهد على الطاولة البحرية. بالطبع لم يكن بوسعه أن يجلس بعيداً عن قارب الكسكسي وملحقاته. لكن قارب المقلوبة كان في الطرف الآخر. وكذلك قوارب الكبة. أما سماط المنسف فقد جثم في الوسط تماماً، حيث لم تقبل فدوى بالجلوس. وساءه أنها حسمت الموقف على نحو رديء جداً، إذ جلست مقابل قارب التبولة وألزمته بالجلوس مقابل أبأس ما على الطاولة قاطبة: قارب الفراريج المشوية والسمك المقلي. وفوجىء وهو يدوزن مؤخرته على الكرسي منزعجاً، بأن الجميع وقفوا ليشربوا نخب السيدة منيرة التي أشرفت على إعداد وليمة كهذه يمكن لأي أديب موهوب أن يؤلف عنها كتاباً. وهكذا، وقبل أن يتمكن من جلسته تماماً، نهض بخفة، مشهراً كأسه، واستخرج من وجهه ابتسامة رضى مشرقة.

لم يدع انزعاجه طويلاً. صحيح أن فدوى رفضت الحاحاته عليها أن تتناول من هذه الأطعمة المارونية، واكتفت بصحن تبولة وفرمات من مشوي السمك، ورمقته مؤنبة للطرود الطعامية التي راح يرسلها الى معدته، مما سيزيده سمنة. لكن الطعام الذي خشي خسارته، أو خشي ألا يصله منه إلا القليل، أو يصله بلا تناسب في مكوناته، أحضر اليه بكميات جزيلة وبأنواع تملأ العين. وبالطبع استعيدت على الطاولة مقولته الشهيرة: الطعام هو اللذة الانسانية الوحيدة الخالية من الألم. استعيدت بتهليل وتحليل، وتعليقات خبيثة. ثم اندغمت، كاندغام الأطعمة في المعد، مع أحاديث أخرى ما لبثت أن صارت جدية وشمولية، بعد انتشار حس أولي بالامتلاء جعل الانصراف الى الفكر والكؤوس ممكناً.

قال أبو جمال إن جلسة كهذه، كلها صفاء ورغد ورابطة انسانية، تذكره بأيام الطفولة البائسة، أيام الحفاء والبرد والجوع في شوارع المدينة. وتجعله يشعر بفرح حقيقي، لأن رحلة الاختراق التي قام بها، قاموا بها جميعاً، قد أوصلتهم الى مراتب كان يحتلها المستعمر الفرنسي دون أبناء الشعب، وحققت للبلد قفزة نوعية في مضمار التقدم.

وأشار عبسي الى الفرق الشاسع بين البيت الكبير في الشير والبيوت الصحية التي يسكنونها الآن. رغم كل شيء، يبقى البيت الكبير طيناً، والطين ضد الحضارة. ان نضال الانسان وكفاحه قمينان بإيصاله الى آفاق من التطور العظيم تحتاج الى عقل خاص كي يسبرها. اثنتا عشرة سنة من عمر الثورة غيرت وجه سورية الاقطاعي بالكامل، ولو أن الأعماق ما تزال في حاجة الى هزة ثورية أخرى. أنه إذا ما قطع الأبناء المسافة التي قطعوها هم عن آبائهم، فسورية صائرة حتماً الى مصاف أرقى دول العالم.

وتساءل أبو ثائر عن المقصود بالأعماق التي ما تزال في حاجة الى هزة ثورية أخرى. وأسعفه أبو فراس بالجواب، فقال ان انطلاقة الثورة كانت محكومة منذ البداية بعطالة شعب ورث التخلف وراثة، وان مؤامرات الامبريالية والصهيونية ما كان لها أن تنجح لولا هذا الميراث من العطالة. إن الثورة مطالبة بالحرب على هذه الجبهة قبل غيرها، فمنها يتسلل أعداء..

واستأذن محمد علي في قول كلمة أو كلمتين. لقد نشأ في بيئة أعطته بصورة حادة بارزة قطبي الحياة الرئيسيين في شخصي مخلوقين من الشير نفسها. كانت هناك مريم خضير، ذروة الغريزة، رمزاً للإقبال على الحياة، ولكن بلا وعي. وكان هناك الشيخ عبد الجواد، والد العميد عبسي، رمزاً للخلق الرفيع، للمثل العليا. إن أعظم ما حققه هذا الجيل هو التوازن الذي أقامه في ذاته بين رمز عبد الجواد ورمز مريم.

وأشار عبسي الى أن مريم كانت الانسان بلا أبدية، بلا ايمان، بلا مطلق. الانسان الذي حياته سلسلة من الطوارىء، يجترح مباذله من يوم الى يوم، من عشيق الى عشيق. كان الشيخ عبد الجواد بالمقابل يمثل الأبدية والايمان المطلق. كان الاثنان عند الحدود القصوى، لكنهما انهارا الآن، لأن صيغاً جديدة للحياة قد نشأت. اذ من يستطيع أن يعيش في نمط المجتمع الآسيوي المتخلف، أو يستسلم لشهوة الغريزة القاتلة. فقط أناس من نوع اسماعيل السنديان أو حسن الغفري.

بعيد منتصف الليل وفى عبسي بوعده. حمل فنجاني القهوة ومشى وراء فدوى الى الشرفة. وفي الليل الجميل، المشبع رطوبة وأنساماً وأضواء سفن، حكى لها عن خطة استثمار الارض: هذا الجهد، هذا المسعى الجديد، ليس فقط هدية يقدمها للبلد، بل هدية يقدمها لفدوى نفسها.

ـ لكي تتأكدي أن عبسي عام ١٩٥٨ لم يتغير، أن مشاعره فوق الثروة والسلطة، وما يفعله كله لأجل فدوى، بوحي منها، لأن فدوى هي الأساس، وهي المنطلق. البداية بلا نهاية. والآن، هل ستبقين منسحبة؟ كأن لا علاقة لك بكل ما يجري؟

قالت فدوى بحنق ممازح: ـ أنا منسحبة! يا عيب الشوم على هكذا كلام. أنا لا أنسحب. بالعكس، أنا أحتل كل مساحة تعطى لي.

أحس عبسي بإحباط صغير. ها هي ذي تفسد الجلسة الشفافة بمزاحات ملتبسة، فيما هو يبثها أصفى الشعور، ودونما لمسة من مزاح. لكنه غالب نفسه:

ـ تقولين لا تنسحبين، وتتركين السيارة المريحة وتجيئين مشياً الى بيت محمد علي؟

وأدرك أنه وقع في الشرك: لم يكن هذا ما يريد قوله؛ والآن انحصر الموضوع برمته في عنق ضيق. وكانت فدوى قد ضحكت ضحكة قصيرة سرعان ما غابت، وبقيت مكانها ابتسامة ونظرة ملغزة:

ـ مسافة قصيرة. إذا كنت غيران. أحببت أن أتريض. نسيت أني كنت لاعبة كرة سلة؟ قلت أتفرج على الناس، أرى وجوههم، وانطباعاتها، وحركاتهم، والشوارع. تعرف أن مار تقلا جميلة جداً.

مرة ثانية أحس بالاحباط ـ هذه المقدرة على المراوغة العذبة.

ـ جميلة، صحيح. لكنها غير آمنة. وأنت معروفة من أنت.

قالت مداعبة: ـ كأنك صرت تخاف كثيراً في هذه الأيام. من يراقبك يشعر أنك مهدد.

ـ كل ثورة لها أعداؤها. وهؤلاء الأعداء مصممون على العنف والإرهاب.

عبست هي باستغراب باسم: ـ بعد كل هذا الانجاز!

هز رأسه مؤكداً: ـ تنظيمات تعمل تحت الارض. لا أعرف ماذا تريد أن تفعل. لكن يمكن أن تغتال. لأنها مصممة على العنف والقتل. الرائد فالح أخبرني. ويبدو أن إرهاب المدن قد وصل الينا من جملة آفات العالم الرأسمالي. وهذه التنظيمات تدعي اليسار وتعمل لمصلحة اليمين.

تفرست فيه قليلاً، وغابت الابتسامة: ـ عبسي: أنت طول عمرك خائف. قصدي غير واثق من زمنك. دائماً تتوقع الأسوأ، رغم كل ما لديك.

أيقن أن الحديث الذي أراده قد تبدد نهائياً. وها هو من جديد يضطر للدفاع عن نفسه. إلا أنه لم يتزعزع. لقد مرت به مناسبات أشد روعاً:

ـ طبعاً. ماذا تتوقعين من فلاح؟ أنا فلاح. رغم كل شيء. والفلاح لا يحس بالأمن، لأنه تحت رحمة الطبيعة. والطبيعة لا يوثق بها. أنت لا تعرفين جيوش الجراد، والضباع والثعالب. المطر السيلي، والجفاف، والزوابع، والآفات. ماذا تظنين أن الطبيعة تعطي للانسان؟ الخوف. وأنا ورثت هذا الخوف. وهو ميراث عميق الجذور. أنا أعرف نفسي.

ـ كنت تتكلم قبل ساعات عن جذور مددتها، وأشياء وصلت اليها.

ـ بودك الحقيقة؟ هذه البيئة التي انتقلت اليها، لا تختلف كثيراً عن الأولى. مثلما قلت لك؛ أحياناً أراها غير حقيقية. لكن الميراث الآن نفض الوهم.

ـ وأخوك شداد، يخاف؟

همهم بنصف ضحك: ـ شداد. كل عمره خامل. الخوف صفة ناس حساسين. شداد كل عمره خامل. تعرفين، كل حياتي وأنا أحاول أن أدفعه الى أمام؛ ولكن عبثاً. كل الناس الذين عرفتهم أثرت فيهم. أما هو، مستحيل. لأنه لا يعرف عن الطبيعة إلا صورة رومنتيكية مهزوزة.

ـ ألا يخاف؟

ـ مثلما قلت لك. الناس الطموحون، الذين يحبون المجازفة والخطر، وتغيير المجتمع، هؤلاء يخافون. لأن للأمور الجديدة رهبة. شداد خامل. حتى الآن ما يزال يعيش في جو الضيعة. غداً ترين بيته. وسط البساتين، بعيد عن أقرب بيت ٢ كيلومتر. شيء محير. مع أنه ذكي تماماً.

توقف عن الكلام ونظر الى البحر. كان فنجان القهوة قد فرغ. وكذلك علبة الدخان. والشوارع. تذكر أنه لم يجلس في الشرفة مع فدوى لأجل أية كلمة من هذا الحديث. وعرف أنها خائفة أيضاً. لكنها تراوغ خوفها. تراوغه حتى لتبدو أحياناً غير حقيقية. لقد دفعت به الى موضوعات لم تكن تخطر له على بال. وخشي ألا يكون قد بقي غير المواجهة المباشرة، أن يجلس معها ويطرح عليها زحام الأسئلة المشرئبة في نفسه، ويطلب إجابة محددة واضحة، بلا دوران، ولا تجاهل، ولا مزاح.

قال لها إنه ذاهب الى دمشق. وقالت إنها خمنت هكذا. قال إن إمكانيات أرض الميراث كبيرة جداً. ليس فقط من ناحية مالية، وإنما أيضاً لشعور ثمين بأن إدخال الصناعة الى البلد سيمحو الخوف والتخلف. وقالت إنها خمنت هكذا. وأضافت أنه خلال العشاء كان في أوج انتشائه وقوته، فعرفت. قال إنه لم ينتبه الى نفسه أثناء العشاء. وقالت إن هذا ليس غريباً، فقد كان موجوداً في المكان كله، وكان الآخرون تكملة عدد.

مضى أسبوع أو عشرة أيام على حديث الميراث. ووقع اسماعيل السندياني في بلبلة. وعندما هبت أول نسائم الخريف الرطبة، واستطاعت أن تخترق منعطفات الزنقة الى بيته الهابط ثلاث درجات تحت الرصيف، انتابته كآبة الفصل الدبقة وأسلمته الى رخاوة مستطيلة: لا جديد عن الميراث. كان قد عرج على بيت خولة مستفهماً، فلم يفز بغير الاحترام الذي عاملته به والحفاوة اللائقة. لقد كررت عليه ما عرفه سلفاً، فأحبطته. ثم راحت تتحدث عن الشاليه وثريا الكريستال اللتين تود شراءهما، فاحتقن غيظاً. وفيما هو يعبر الشوارع الى البيت، حانقاً تائه العينين، تذكر أن الميراث غير هذا كله، انه منذ ساعتين لم يقل ولم يفكر بغير الأشياء المادية الصرف. بينما المطلوب العثور على معنى المفاجأة الكبرى، والوصول الى الأشياء العظيمة التي تتطلبها العلامة.

في اليوم التالي قصد المساعد الأول حمود الأقرع. ومرة أخرى لم يظفر بغير الاحترام والحفاوة. لا جديد. وتكررت الحالة مع شداد: بين الآلات وصياح البشر وزوبعة الريح البحرية، قال له شداد، وهو يرتقص برداً، انه كان سيسأله السؤال ذاته. وأخيراً عزم على زيارة عبسي نفسه، مجازفاً بتعرضه لأسئلة أبي دياب المزدرية اللامبالية. وأراحه أن عبسي لم يكن في المدينة ـ أراحه حقاً. لكن الفشل استفزه، فقرر زيارة محمد علي رغم كل شيء.

كانت الزيارة خيبة كاملة لا ريب فيها. لقد ذهب وهو السندياني الأصيل، الى ابن الشيخ عبد الهادي، الواقف على تخم العائلة. وجعله الطبيب ينتظر أربعين دقيقة لكي ينتهي وقت عيادته فيتمكن من القيام بواجب الاحترام والحفاوة، كما قال. وبعدها أعلن له بأقل ما يمكن من الاهتمام أنه سمع إشاعة غامضة عن حكاية الارض هذه، أنه لم يحفل بها كثيراً لأن الموضوع أغرب من أن يصدق وأبأس من أن يؤبه له. ان عبسي لن يستطيع أن يفعل شيئاً، ما دام هناك عشرون وريثاً، لأنه لن يستطيع التحدث باسمهم. ثم أنصت بدماثة عريقة لاسماعيل الذي قال: «يا ابن عمي، هذا لا يجوز. الموضوع ليس موضوع أرض. قصة الميراث، لازم أن تذكرنا بآلاف الأشياء التي ورثناها ولكن أدرنا ظهورنا لها حتى نسيناها ونسينا ذواتنا معها.» هو نفسه أنصت لنفسه مستغرباً أن يقول هذا الكلام لطرف من العائلة لم يبال يوماً بتراثها. وانتبه الى اطراقة محمد علي فأدرك أن الكلمات قد حملت الى ذهنه تعريضاً لم يقصده البتة. عندها نهض وشعوره أقرب الى الأسى: لم يكن في نيته

قطعاً أن يزعج مضيفه، ولكن هذا حدث، وبات الانصراف أفضل خاتمة للقاء. وفيما هو يغمغم بكلمات الوداع، أدرك أيضاً أن انصرافه على هذا النحو قد عزز معنى التعريض: لكأنه جاء فقط ليقول كلماته الواخزة ويمضي.

وفيما هو يعبر الطريق الى بيته حانقاً تائه العينين، اعتصر قلبه حس جارف بأن قصة الارض والميراث قد تكون إشاعة فعلاً، وهماً، أو ألهية انسان كسول أراد أن يتسلى. وحقاً، أي خير بقي في هذا الجيل لكي ترسل له علامة؟ «الموضوع أغرب من أن يصدق وأبأس من أن يؤبه له.» نبأ جاء مثل أفكار رضا المجنونة، وبعدها تتابعت الأيام كعادتها، حتى لكأن أذنيه لم تسمعا نبأ وعقله لم يكتشف علامة. والحقيقة أن الموضوع أغرب من أن يصدق. أي شيء يمكن أن يعيد شراذم السنديان الى أرومتهم؟ لقد انخدع كعادته بالكلمات.

كان وصوله الى البيت، وجلوسه على الخوان، ونسائم تشرين الراشحة، أجزاء من استغراقه الاسيان. لم ينتبه حتى الى صرير النوابض التي جلس عليها. لكنه انتبه بعد قليل الى صرير وليده. وتذكر أن هذا الصوت الذي صار جعيراً وفحيحاً، كان موجوداً في حلق الصغير مذ دخل هو البيت.

نظر الى خضرة محاولاً أن يفهم. رآها توشك أن تبكي، والعجز يسربلها. هتفت دون أن يسألها: «لم يعد يسكت، لم يعد يسكت.» وكان الرضيع يخبط بركبتيه على بطن أمه رافعاً يديه في الهواء، ووجهه متقلص حتى البشاعة ولهاة حلقة تنفر مع كل صرخة. سألها اسماعيل سؤالاً عرف للتو أنه سخيف: «ماذا يريد؟» فأجابت: «المن والسلوى، ماذا يريد.» وتذكر أنها كانت واقفة في مكانها منذ فترة، ربما منذ جلوسه. سألها: «أما بقي فيك حليب؟» وجاءه الجواب سريعاً، لا بالكلمات بل بالحركة. أخرجت خضرة ثديها من فتحة الفستان وتركته. واختلج الثدي اختلاجة صغيرة قبل أن يتهدل نحو الأسفل كجلد مسلوخ. وسرعان ما تلقت ضربتين حانقتين من يد الرضيع، الذي رفضه من قبل ورآها الآن تعيد تقديمه له.

كانت قد خمنت من هدوء اسماعيل أن بوسعها إظهار شيء من القهر المنحبس فيها. لكنها عاينت خطأها بسرعة مناسبة. لم تبد عليه أية من أمارات العنف. سوى أن خده الأيسر وزاوية فمه اليسرى بدآ يختلجان ويتخذان شكل الشلل القديم. وقف. قال: «أعطيني، هذا المسخ.» تراجعت الى الخلف ببطء. «أعطيني هـذا المسخ.» قالت: «مرّ على شداد، إذا كان جاء بعلبة حليب.»

كانت الابنتان قد ظهرتا على باب المطبخ. قال: ـ أعطينيه.

تراجعت خطوة ثلجية. همد الصغير. وحسب هو أن العناية الإلهية جعلتها تتراجع ـ لئلا يحمو غضبه، ليراها ضعيفة فيعف عن مهاجمتها. لكنه أصر: «أعطينيه.»

تراجعت خطوة ثلجية أخرى: ـ ماذا ستفعل به؟

ـ أريد، أن، أحمله وأخرج، أخرج الى الشوارع، المليئة بالسيارات، والبيوت، العالية وأصرخ، ابني يريد، حليباً، آخر من ولد في بيت السنديان، يريد حليباً. هاتيه. خلي الناس تعرف، أن في العالم أطفالاً، يبكون من الجوع. أمهاتهم. نشفت أثداؤهن. أطفال رضع. أين هي أموال العالم، أين حليبه؟ أين خبزه؟ أين مجرموه؟ أين قتلة أطفاله؟ أين مصاصو دماه؟..

ـ أنا ما علاقتي بهم؟

هكذا صرخت. وصمت اسماعيل. سكن وجهه. شيء واحد حمل لها طمأنينة جزئية: أن انفلات الغضب قد أنقذه من نوبة شلل. كان تعثر كلماته في البداية، وضيق تنفسه، نذيراً مستطيراً. لكن استقامة اللسان أخيراً، وتطابق ترتيب الكلمات مع معانيها، أشارا الى العبور السالم لأزمة لم يعد ثمة متسع لها.

عاد عبسي من الشام بوعي جديد ومشكلة جديدة. وفور استراحته القصيرة من عناء السفر، خص فدوى بالوعي ومحمد علي بالمشكلة. قال لفدوى إنه لأول مرة في حياته ينتبه الى شيء ضخم وهائل، قائم بذاته، يتحرك كالدبابة، ويجثم كالطود، اسمه الدولة. وعندما عاين هذا الوعي، كان مثل طفل صغير في بدايات إدراكه أن الاشخاص الذين يضحك لهم والاشياء التي يفرح لها، ليسا جزءاً منه، بل أجسام منفصلة عن جسمه. انه في الحقيقة جزء من كل وليس كلاً لأجزاء. أي شيء هي الدولة! صحيح، لا حضارة بلا دولة. ولكن كيف يا ترى كانت على مر الدهور والعصور؟ وشرد قليلاً، مستعيداً جو تلك الدهشة الخرساء التي انبثقت في دمشق وجاءت معه الى اللاذقية. وتحركت فدوى فالتفت اليها باسماً محباً. رشفت بعض الوسكي. قالت: «خبّرني كيف اكتشفت الدولة.»

هز رأسه ونبس تعويذة بالله. قال انه كان يظن أن أعلى خيمة تظلل الانسان هي المثل والمبادىء. لكن الوضع غير هذا تماماً. قال إن الدولة موظف صغير يطيع الأوامر، دفاتر الصادرة والواردة، الأوراق، المراسيم والقرارات. ذلك الموظف الصغير، كان في تلك اللحظة الدولة. لم يقبل بأية مخاطبة إنسانية، ولا بمنطق: التقرير لا يمكن أن يلغى ولا يستبدل. بعد ثلاثة أيام تحرك بوصة واحدة وقال: «الدولة تريد أن يتضمن التقرير توكيلاً على وجود كميات ضخمة من الألومينيوم في أرضكم.» كان كلاماً واضحاً كل الوضوح، غامضاً الى حد الإغاظة. وسأل عبسي بانفعال فوقي عن ماهية هذه الدولة التي وجدت في سبع دونمات كنز علاء الدين. وعندها ابتسم معاون الوزير وقال: «الدولة هي الدولة، يا سيادة العميد.» وبعد قليل أردف: «على أي حال، قابلوا الوزير، عسى يصير خير.»

وهكذا كان. قابل الوزير، وبعده قابل رئيس الوزراء. وفي المرتين لم يظفر بغير الاحترام والحفاوة، وبقي التوكيد الابليسي: الدولة هي التي ستستخرج الالومينيوم. الدولة هي الدولة. أيكون غريباً بعدئذ أن يفكر واحد مثلي بالعنف؟

أخيراً عاد الى الموظف الصغير. همس في أذنه بثلاث كلمات، فأومأ رأس الرجل بابتسامة موافقة. وفي ثوان أفرغ غرفته الفسيحة من محتوياتها الآدمية، وانفرد بزائره.

سأله عبسي عن مقدار التعويض الذي سيعطى لأصحاب الأرض. وهز الموظف رأسه هزة جهل. ابتسم عبسي. قال إن هذه المسألة يمكن أن تكون موضوع تفاهم بينهما. ما دامت الدولة تريد تأكيداً على وجود كميات هائلة من الألومينيوم، فلتعط تأكيداً بوجود كميات أشد هولاً - طالما أن هذا سيرفع ثمن الارض. وهز الموظف رأسه هزة فهم. إذا استطاع الاستاذ - هكذا خاطبه - ان يرفع التعويض الى مليون ليرة، مثلاً، فليكن واثقاً أنه سيصير أحد الورثة: خمسة بالمائة له وحده. وهز الاستاذ رأسه هزة موافقة. قال إن التقرير الذي كتبه الخبراء يعطي مجالاً قانونياً للتوصية بتعويض يبلغ على الاقل مليون ليرة. وعندها سحب عبسي دفتر شيكاته وهم بكتابة مبلغ بسيط كتقدمة أولية. لكن الاستاذ رفع يده بالرفض: لا للشيكات؛ وفوق هذا هو لم يفعل شيئاً بعد؛ لكنه سينبه سيادة العميد الى أمر هام: رجب العز، الشخصية المعروفة، يتحرك من تحت الى تحت كي تحسب الارض جزءاً من ملكية عائلته.

رجب العز - تلك كانت المشكلة التي حملها عبسي، ونهض الى الهاتف بسببها كي يستدعي محمد علي. راقبته فدوى وهو يرفع السماعة ثم يعيدها فوراً، ويرجع باسترابة نصف غاضبة: «مع من تتكلم سوسن بالتلفون؟» قالت وهي تتثاءب: «مع حيان، يمكن.» وعندها تطامن انفعاله. وعرفت هي أنه لن يثور: كان مقتنعاً تماماً أن سوسن لن تفكر قط في شاب قدمه عوجاء - وأيضاً أبوه شكيب الغفري.

توجس محمد علي خيفة من «دخول رجب على الخط». وكان قد جاء بعد أن شاهد سيارة عبسي في منزلها.

ورفع عبسي زاوية فمه الى الأعلى مستخفاً. قال محمد علي إن رجب خصم عنيد لا يستهان به. مراوغ وعنيد ولئيم، بلاء، وله ارتباطات قوية. وربما تعين على عبسي الذهاب ثانية الى الشام كي يقطع عليه الطريق. ورفع عبسي زاوية فمه الى الأعلى مستخفاً: «صحيح ما تقوله عنه، لكن نحن أقوى منه. أنا سأتصل به. سأقول له ألا يتعب نفسه، أستفزه لأعرف ما يضمر. إذا كان ناوياً الدخول في معركة، نحن لها.» والتفت الى فدوى بمرح قوي غير متوقع: «نعم سيدتي. متى تريدين الذهاب الى بيت شداد؟» فصاحت بغبطة حقيقية: «يوم الجمعة؟» «يوم الجمعة يكون السوق مغلقاً. لا بأس، ممكن أن نأخذ فراريج وسمكاً من عند اسبيرو. الذي تأمرين. لماذا اخترت الجمعة؟» قالت باضطراب فرح: «ليكون معنا وقت ونقعد معهم.»

قال محمد علي بندم واضح: ـ والله أنا مقصر بحق حبرية. حان أن ننسى الماضي، الله يلعن التقاليد. وتلك المسكينة جيلة. من يوم زواجها وهي في رأس الجبل. لا أحد يراها ولا ترى أحداً. أنا سأزور حبرية قبل يوم الجمعة. سأسبقكم. ست فدوى، بودي من يديك الحلوتين كاس وسكي، من فضلك.

نهضت فدوى برشاقة ملحوظة مضت الى البار. واسترخى محمد علي في جلسته ووضع ساقاً على ساق. قال: «أنت متأكد من المليون؟» «تقريباً. لكن كم عدد الورثة؟» «عشرة. أنتم ثلاثة. ونحن ثلاثة. واسماعيل واخوته أربعة.» «أخواته الثلاث اللواتي متن، لا أولاد لهن؟» «من أين؟ كن مقعدات.»

أقبلت فدوى.

كان ذلك السبت مشمساً على غير المتوقع، ولكن البرد قارس. لذلك ارتدى محمد علي معطفه الألماني، ومضى من حانوت الى حانوت، ينتقي ويدفع فواتير حتى امتلأ مقعد سيارته الخلفي: أحذية، بنطلونات، فساتين، قمصان. وإذ وصل المبلغ المدفوع الى ٤٨٥ توقف وقال لنفسه إنه ليس ضرورياً أن يشتري بخمسمئة.

قاد سيارته في سوق العنابة، والدهشة تتسلل اليه رويداً رويداً. اثنان من الأزقة الثلاثة صارا الآن شارعين عريضين. الأبنية التي كانت حولها، هدمت كلها، بما فيها غرفة مريم. سوى ان دكان الشيخ عبد الجواد والقنطرة التي فوقه ما زالا قائمين هناك. لكأن دهراً مضى على آخر عبور له بسوق العنابة. احتار أين يصفّ سيارته، فحبرية تسكن في الزقاق الثالث الذي ظل زقاقاً، والسيارة لا يمكن أن تصل بيتها، وأولاد الشارع هنا من صنف لا يبعث على الطمأنينة بالنسبة للدواليب والمرآة وغيرها. تلفت بعينيه بحثاً عن أحد يمكن أن يحرس السيارة مقابل أجر. ولكن حتى هذا، كيف يمكن الوثوق به؟ في هذا النوع من الأمكنة يبتهج الناس بالإيذاء، خاصة وأن شارة الأطباء على الزجاج ستوحي لهم بأن صاحب السيارة لن يضيره مالياً كسر زجاج أو سرقة مرآة أو طعن دولاب.

ولكن لا بد من النزول.

عندما شاهدت حبرية أخاها يلج باب الدار، بإرشاد صبي الحارة، صعقت بالضبط. تخشبت كأن تياراً كهربائياً سرى فيها وخرج حاملاً روحها. ابتسم لها وحياها، لكنها لم ترد. ومنعته الاكياس التي على ذراعيه من أن يمد يده ليصافحها. تفحص أولاداً من مختلف الأعمار، بعضهم تجمد حولها، وبعضهم أمسك بثوبها كمن شعر بتهديد خفي. قال وهو يضحك حرجاً: «أين تجلسون؟» فمدت يدها بحركة لا واعية، وقد أيقنت أنه جاء يزورها هي لا أحد الجيران، واختلج لسانها ببعض الأصوات، وفجأة صرخت بالأولاد: «أوسعوا الطريق أوسعوا لخالكم ليدخل. من هنا من هنا.»

كان اللقاء مختلفاً تماماً عما تصوره. لقد توقع ارتباكاً من حبرية لكنه لم يتوقع أبداً أن تتبلّه وتهذر مثل رضا المجنونة. توقع تصلباً، على الاقل انكماشاً، إحساساً بالأذى كما يقتضي علم النفس، وليس هذا الاندفاع المحير ـ بعد الانصعاق الأولى ـ لخدمته والتعبير عن الامتنان لقدومه. أجلسته على كرسي أبي ياسر، وأرسلت من بدا

نه أكثر الأولاد شقاوة لحراسة السيارة، وأكبر بناتها غير المتزوجات لتغسل بالصابون الابريق والكاسة، ولتأتي بالماء لخالها. وانتهرت الآخرين أن لا يقتربوا من خالهم فيوسخوا بدلته أو حذاءه. وهمست لثالث أن يذهب الى السمان ليأتي بالبرتقال واليوسفي ويسجل الثمن على الحساب. وبعد قليل صار واضحاً له أن اهتماماتها المتلاحقة كانت محاولات متصلة لتتجنب لحظة الجلوس معه والنظر اليه. لكنها عندما فعلت أخيراً، عندما اضطرت الى الجلوس بعد إلحاحات وديعة متكررة منه، أحس في داخله بانتفاخ صلب مزعج. وازداد الانتفاخ ضغطاً عليه لأنه رأى عينيها دامعتين، ولأنه لم يعرف ماذا يفعل سوى أن يجلس بابتسامة متوقفة، لأن اللقاء لم يكن عنيفاً ولا خالياً من الانسانية كما توقع. ولم تستطع حبرية أن تبكي بهدوء. فاجأته بأنها رمت وجهها بين راحتيها وجعلت تجهش ـ إجهاشاً ينضح رضى وينز قهراً. ومرة أخرى وجد نفسه يكاد يضحك، ولكن ضيقاً وانتفاخاً. كذلك وجد نفسه يغادر كرسي أبي ياسر، فيمسك بيديها المتأبيتين، يناديها، ويحاول فك راحتيها عن وجهها، ثم يلطمها وينهرها، فتصمت وترفع رأسها باسمة.

تراجعت الانفعالات المعلنة. بالطبع كانت هناك أسئلة كثيرة، سئلت باقتضاب واهتمام، وأجيب عنها باقتضاب واهتمام. وبعدها قام محمد علي بتوزيع الهدايا بحسب المقاسات، ولاعب الأولاد واحداً واحداً. شرب قهوته. سأل عن عدد العائلات القاطنة في الدار. ونهض: «قولي لأبو ياسر أن يزوني في العيادة وقت يريد. وإذا صار لأحد الأولاد شيء، فوراً هاتيه.»

في الطريق الى السيارة أحس بانسلالات عديدة تنطلق من داخله. شيء من الدوي. شيء من الغفلة. شيء من الحضور البشري الغريب. ومن التشوش. لم يلتفت الى الخلف، حتى لكأنه نسي حبرية الواقفة على باب الدار وأولادها، خائفة من أن يلتفت. مع أنه لم ينسها. كانت وراء عينيه، وكان يراها بعين ثالثة عمياء. ولم تنته الانسلالات ويسترد ذاته إلا بعد جلوسه وراء المقود وتشغيل المحرك. عندئذ ضاء في ذهنه مكان آخر، تختلف تماماً، وانطلق بالسيارة نحوه.

قالت له خولة انه تأخر. وسمع صوت عبسي المرعد يخاطبها: «أيتها الخنزيرة، ألم تغلي القهوة بعد؟» تقدم الاثنان الى البهو وهي تهتف: «يا أخي تصرف مثل الأكابر، واشرب وسكي. ها أبو الفضل يشرب كأسه الثاني.»

نهض أبو الفضل بحماس ولكن بلا حرارة، وصافح محمد علي، الذي لم يستطع إخفاء ابتهاجه بالمصادفة السعيدة. وبادله أبو الفضل ابتهاجاً بابتهاج، إذ رفع كأسه وشرب نخب الأطباء، من هيبوقريطس الى محمد علي، الذين لا يشبعون النوم كرمى للبشرية.

بعد أن هيأ محمد علي كأسه، وعادت خولة بفنجان شاي ملأته قهوة، ضرب أبو الفضل راحته على ذراع الكنبة وهتف:

ـ نعم أخي. نحن جماعة، كلنا ما عندنا وقت نضيعه. وأنا سعيد لأن جونا جو مودة وبهجة. والفضل في هذا يعود بلا أدنى شك الى الست أم حيان.

غمغمت خولة بكلمات امتنان متحفظ. وقال عبسي، بعد رشفتي قهوة:

ـ موضوعنا واضح، أخي أبو الفضل. أنت تحاول الوصول الى ملكية أرض كانت لنا.. منذ بدء التاريخ، هي وغيرها.

كان أبو الفضل منصتاً تماماً، وعيناه مستقرتين على ساعة الحائط، شبه شاردتين، واضحتي الابتسامة. قال:

ـ هي وغيرها. قصدك، كل ما صار ملكية لبيت العز. نعم.

ـ وأنا أرى أنه لا داعي لفتح الدفاتر العتيقة وإثارة نعرات ميتة. نحن نريد فقط أن تترك هذه الدونمات السبعة، والله يسامحك بغيرها.

ـ اسمعي، اسمعي يا ست أم حيان. أخوك بوده أن يرجعنا مئتي سنة وأكثر الى الخلف. أخي العميد عبسي، بسلامة فهمك. من مئتي سنة قامت الثورة الفرنسية وغيرت وجه العالم. جاءت بالقانون وجعلته أساساً للحضارة. نحن وصل الينا القانون من حوالي ربع قرن، ليكثر خير الله. ومن يومها صار كل من يملك شيئاً يحمل مستنداً بملكيته. وأنا عندي مستندات، أخي العميد عبسي. وعندي أيضاً أنه خلال جنون فترة الاصلاح الزراعي، انتزعوا أملاكي وتركوني على الارض يا حكم. لا أحد منكم تقدم وقال هذه ليست أرضه. لأنه صار في الدنيا قانون يا سيادة العميد. وأنتم العسكريين خير من يطبق الانضباط بالقانون.

ـ تتكلم كلاماً جوهرياً. القانون يقول: هذه الدونمات لبيت السنديان. وأنت تحاول أن تلغي ما يقوله القانون.

ـ ولماذا لا أحاول؟ الذي وضع القانون يضع غيره. الدنيا حرية، أخي العميد، حرية. إذا قدرت على تغيير القانون بطريقة قانونية، أكون أجرمت؟ قبل حوالي عشر سنوات، أصدرتم قانوناً يقول إن أملاكي يجب أن توزع على الفلاحين. سكتنا. همه. (ومسح بيده على فمه) عصينا القانون؟

ـ وبعدها أعيد لك ٨٠٠ دونم، بقانون، وأخذت أوراق طابو، ولم تكن بينها الدونمات السبعة. وسكتّ. وكان سكوتك إقراراً. الآن صارت الدونمات السبعة مهمة، تجيء وتحاول انتزاعها من بيت السنديان.

ـ بطريقة قانونية.

ـ بطريقة قانونية؟

ـ نعم. إذا خرجت على القانون ارموني في السجن. وبعدئذ، أخي العميد، أنت وأخي الدكتور، الله أعطاكم ومدّ لكم. عندكم من خير الله كثير. تلحقوني على سبعة دونمات؟ أنت لا تقرأ الانجيل، تقرأه؟ المسيح عليه السلام يقول: ليس بالخبز وحده يحيا الانسان. كفاكم ما عندكم. خلوني أشبع الخبز. والله أنا رجل فقير. أربعة أولاد، ومضطر أني أفتح بيتي للناس. تعرف ضريبة كونك ابن عائلة. أنا مصروفي اليومي خمسمئة ليرة.

ـ نحن يا أبو الفضل لا نريد أن نظلمك، ولا نقبل أن تظلمنا. تتكلم عن الفقر؟ أنت فقير، أنت؟ هذه الخمسمئة ليرة التي تصرفها في اليوم، تكفي واحداً مثل اسماعيل السنديان شهراً. لا يا سيدي، وشهرين. أنت نسيت أن هناك ورثة، ستنتشلهم هذه الدونمات السبعة من الوحل. تجعلهم يشبعون الخبز، وليس الوسكي. يبتسمون للنهار، ويلبسون أحذية في الشتاء. لكن، ما علينا. أنا أرى أنك مصمم على هذه المعركة، ولا فائدة من الحوار الأخـوي في إقناعك بترك هدف مستحيل. لذلك، أراني مضطراً لأن أقول بعض الكلمات. هناك ناس يطلع قانون من الدولة فيقبلونه، ويطلع قانون معاكس فيقبلونه أيضاً. وفي رأيي، هذه صفة المواطن الحقيقي. لكن، عندما يصدر قانون عن الدولة، ويحاول أحدهم تغييره، نصير في وضع مختلف. أنت طبعاً لن ترفع دعوى لتفوز بقانون معاكس من المحكمة.

ـ لماذا الدعوى ووجع الرأس، إذا كانت المسألة ممكنة بغير محكمة؟

ـ هذا قصدي. يعني أنت ستلجأ الى معارفك في الدولة. خلنا ننزع الأقنعة. في هذه الحالة سيحاول كل واحد منا المستحيل ليكسب الجولة. وأنا من ناحيتي، لا أخبىء عليك. سأرمي بكل ثقلي في هذه المعركة، فإما تفوز أنت بسبع دونمات، وإما أفوز أنا وبيت السنديان بـ ٨٠٧.

ـ ٨٠٧ دونمات لأي شيء، أخي العميد؟

ـ مثلما قلت لك.. تكلم عن القانون، أنا مع القانون. ورئيس الوزراء مع القانون. والمحكمة مع القانون.

ـ بشرفي يا أخي عبسي، أنت رجل جدير بالإعجاب. أنت رجل. وأنا فخور بأنك صديقي. كاسك.

كانت خولة دائخة إعجاباً وفخراً. تلتقط الكلام من هنا، وتدير رأسها الى حيث توقعت الكلام من هناك. وتلتقط الرد. وترى الكلام والرد سحباً مهولة ممتعة تسرح في فضاء يزيغ البصر. وعبسي يصول ويجول مثل عنترة، وأبو الفضل مثل ابن ضمضم، وعبسي يرغم أبا الفضل على الاعتراف بشجاعته وقوته. لكن وقوف أبي الفضل ليشرب نخبه بلبل تفكيرها. ابتسمت، دون أن تفهم الكثير. بعد كل هذا التحدي، يظلان صديقين؟ وعبسي يتناول كأسها ويجرع نصف ما فيه من بيرة! وتمازحه في شبه عبادة: «يا أخي صب وسكي واشرب! ارتك لي بيرتي!» فينتهرها بحب مماثل: «اسكتي يا أنثى. تجرؤين على فتح فمك، وأنا لم أمانع في أن تشربي بيرة؟ أنا أحمي حقوق بيت السنديان.»

قال أبو الفضل: ـ أخـي العميـد، تسمح لي بسؤال فضولي؟ لم أرك في حياتي متحمساً بهذا الشكل. وأنا متأكد أن حماسك ليس سببه المال.

قال عبسي: ـ فعلاً. والسبب يا أبو الفضل سبب مبدئي. أنا كل عمري ضد الاغتصاب. من اغتصاب فلسطين، الى هذه الدونمات السبعة. الحياة مبدأ وقيم، أخي أبو الفضل.

ـ طيب. أنا أعرض عليك تسوية. ادفع لي نصف المبلغ ـ نصفه، لا كلّه ـ الذي ستدفعه هنا وهناك للوصول الى الارض، وأنا أترك لك كل شيء.

ونظر الى خولة ومحمد علي بابتسامة عريضة تسألها: أليس هذا عدلاً؟ لكن عبسي كان حاسماً:

ـ القضية يا أبو الفضل، أنت نفسك قلت، ليست قضية مال. قضية مبدأ. وقضية عاطفية أيضاً.

وعندها ضربت يدا أبي الفضل بخفة على ذراع الكنبة، ووقف:

ـ يا عزيزي عبسي، أنا حاولت جهدي الاتفاق معك. أظن أننا في الفترة القادمة سنلتقي كثيراً في الشام.

وراء محمد علي كان باب مغلق تمدد وراءه حيان على كنبة عتيقة وبيده سماعة الهاتف:

ـ أخبرك، الحفلة انتهت.. اسمعي.. أبو الفضل يودع معترفاً لأم حيان بالفضل. بعد شوية، تحمل أم حيان القنينة وتنظر اليها: سم ان شاء الله؛ نشفوها. اسمعي.. سيادة العميد يقول ان رجب العز «كشف عن نقطة ضعف..» اسمعي! «لو أنه لم يساوم المساومة الاخيرة.. لبقيت أعتقد أن موقفه أقوى..» مجنونة اسمعي! روحي خبري أمك، تضربي.

بعد قليل فتحت خولة الباب بوجه يطفح ابتساماً. لم تتكلم رغم أنها بدت راغبة في الكلام. مد حيان رأسه نحو البهو ووثب عن كنبته. «سمعت كل شيء. لا تخبريني.» «ولاحظت كيف خالك سحق رجب العز؟ يا لطيف يا عبسي. إما هكذا الرجال وإما فلا. كان مثل الباشق، وذاك أمامه مثل العصفور الدوري. ومحمد علي، ولا كلمة.» وأضافت: «أخ! لو أنك قبلت البعثة التي دبّرها لك العام الماضي. كنت ترجع دكتور أهم من محمد علي، وتصير شخصية عظيمة مثل خالك.»

ـ ماما، كرمى الله. قصة وانتهت. ناقشناها مئة ألف مرة. لا أريد حماية الدولة. ولا أريد أن أصير شخصية عظيمة مثل خالي.

ـ تضرب أنت ومناقشاتك. هذا خالك شداد، شوشك بالكلام الفارغ. أما عند خالك عبسي مبادىء ومثاليات؟ هو أبو المبادىء والمثاليات. شف كيف تحترمه الناس كلها وتهابه. لم يصل الى هذه المكانة إلا جدك

الشيخ عبد الجواد، الله يرحمه. يوم مات، ترك وراءه فراغاً. اي والله. خالك عبسي ملأه. هو رافع راية السنديان، المدافع عن حقوقهم. في حياتي ما سمعتها، واحد يختار الطريق الصعب ويترك الطريق الهين، لأنه لا يريد حماية الدولة. قم نتعش، قم.

في المطبخ سمعا زخ المطر، وفتح حيان باب الشرفة.

تأخرت عودة عبسي الى البيت، لكن غزارة السيل السماوي لم تنقص. بين حين وحين كانت قطرة أو اثنتان تجنحان عن خطها الهاوي وتندفعان من النافذة الى حيث جلست فدوى في الوضع المألوف لمشاهدة التلفزيون، والتلفزيون مطفأ. وصل عبسي، وحيا، ومسح المكان بنظرة. هبت واقفة، واقتربت منه قليلاً، دون أن تدري لماذا. نظر اليها بشيء من الجزع، وهرع الى النافذة فأغلقها: «لماذا تجلسين هكذا؟ يصيبك برد!» ثم أنار البهو. شاهد ابتسامتها الهادئة. لف ذراعه حول ظهرها. «لماذا لا تتفرجين على التليفزيون؟»

بعد صمت قصير أجابت: ـ كنت أتفرج. حتى جاءت أغنية حلوة هادئة. استمعت اليها ولا أعرف أي شعور أصابني. قلت لحالي هذه الأغنية ستبقى مئة سنة، مئتين. أغنية حلوة. وسيسمعها الناس، يوم نكون نحن غائبين. تبقى الأغنية، ونحن نروح. شغلة سخيفة. كأن الانسان يخلد. أراك فائض النشاط.

رفع حاجبيه قليلاً وهتف: «معركة جديدة.» «أين؟ في غواتيمالا؟» ضحك. ثم اكتأب قليلاً. ابتسم: «معركة مع أخي الـ...ـة رجب العز. الدنيء. يريد أرض الميراث. لكن نشبت بيننا مواجهة! بس لو كنت حاضرة.»

بعد أن بسط أمامها مقدمات اللقاء، وهم بالدخول في لب الموضوع، لاحظ أنها عادت الى جلستها السابقة.

ـ ما بك؟

ـ أعرف الباقي. أعطني سيجارة.

ـ تعرفين كيف؟

ـ أخبرنا حيان بالتلفون عن المعركة، دقيقة بدقيقة.

قال بحماس متجدد، وهو يشعل سيجارتها: ـ وحكى لك عن مناورات رجب وألاعيبه ودهائه؟

ـ رجب، كل الناس تعرفه.

هتف: ـ ما رأيك؟

ـ رأيي بماذا؟

هتف: ـ بهذه المعركة القادمة.

ـ ستنتصر فيها طبعاً. وأخسر أنا.

هتف: ـ تخسرين أي شيء؟

قالت بمحبة: ـ كسلي. مسراتي الصغيرة التي أتسلى بها.

صمتت قليلاً، ثم أردفت: ـ اليوم السبت، يا عزيزي. نسيت؟

كان واضحاً أنه نسي. لكنه تذكر في اللحظة المناسبة:

ـ أبداً. الظروف الجديدة أجبرتني على التأجيل.

صمتا هنيهات. ثم قال: ـ حياة تدوخ. كأن الواحد في سباق لم توضع له نهاية. لماذا لا أترك آل السنديان يتدبرون أمورهم؟ الانسان دائماً في عجلة من أمره. وإذا لم تكن عيناه سبعة وأربعة ينهار. ينهار تماماً. لأنه لا أحد يريد التقدم لهذا البلد. أينما وجدت مسيرة تقدم، عملت قوى الشر والعنف على إحباطها. وكل شيء حقيقي يصير مهدداً.

ـ أنا أقبل بزيارة بيت شداد الآن.

التفت اليها مندهشاً: ـ الآن! يكونون في عز نومهم. الجمعة القادمة حتماً نزورهم.

ـ سننتظر حتى يوم الجمعة؟

أجاب مرتبكاً، ولكن مصمماً: ـ في الصباح أنا ذاهب الى الشام. ولازم أن أصل الساعة ١٢ حتماً.

نظرت اليه صامتة. وحسب هو أنه تسرع في إعلان نواياه، فلم يمهد لها. في اللحظة التالية انتابه شعور بالضيق: دائماً يجد نفسه يخاطبها وكأنه يعتذر أو يقدم تبريراً لتصرفاته، بينما ينبغي أن تواكبه في مسيرته. وصمت.

ـ سامحني. أنا ما قصدت مضايقتك. تفاجأت. لكن سفرك الى الشام أهم طبعاً.

هتف بصفاء حميم: ـ لا تزعلي. تعرفين أن الانسان إذا توقف، الحياة لا تتوقف. الحياة تمضي.

ـ أنا لا أزعل أبداً، يا عبسي. طبعاً ضروري ألا تسبقنا الحياة.

التقت أعينهما، هو مبتسماً وهي مبتسمة، هو لأنه أقنعها بوجهة نظرة، وهي لأنها سمعت من جديد صوت المطر القادم عبر النافذة.

وهكذا سمع اسماعيل السنديان خبراً جديداً عن الميراث. وتصاعدت فيه النشوة كما يتصاعد الماء في نبع. عبسي حامل راية السنديان سيستعيد حقوقهم. كان واثقاً تماماً أن رجب العنز لن يظفر بطائل. لأن أحداً لا يستطيع رد مشيئة الله. لقد بدأت العلامات تنجلي. وهذا الميراث علامة، ليس في بيت العنز من هو جدير بحملها. صحيح أن المعزى تجد متعة خاصة في قضم أغصان السنديان، لكن السنديان يبقى، والمعزى يموت أو يذبح. لا يطلع له أن يكون أكثر من حيوان طفيلي.

خلال يومين تعارمت نشوته حتى شارفت حدود القلق. وكانت خضرة فرحة به خائفة عليه. ولأنها امرأة، لم تستطع أن تقنعه بجدوى الكشف عما يقلقه هذا القلق البهيج. كان شداد قد زودها بعلبتين من حليب نيدو المهرب، وعلبتين أخريين من المرتديلا البقرية ـ تفحصهما اسماعيل ملياً قبل أن يقتنع على مضض أنهما بقريتان. لذلك توفرت له راحة البال كي يفكر في أسرار الكنز المقبل. ولذلك استعصت عليها قراءة مشاعره المحيرة، الصعبة على الفهم. وبالتدريج انتقلت اليها عدوى القلق وبهجته.

قال لها، وقد أجلس ابنتيه حوله وحمل وليده، إنهم سينعمون بهدية أجدادهم الى الابد. عشرون الف ليرة، ستكفيهم مادياً خمسين سنة. لأن ابن عمه عبسي سيعرف كيف يستثمرها لصالحهم. وأنهم سيرفعون رؤوسهم عالياً باسم السنديان، فلا يعود أولاد الحارة، ولا أي أولاد، يعيرونهم باسمهم وفقرهم. وسيكونون في المستقبل منارة أقرانهم وجيلهم. لأن الاسم الذي رفض أن يموت سيمنحهم قوة علوية يستعيدون بها أمجاد الماضي ويصنعون أمجاد المستقبل.

في اليوم الثالث انقشعت غيمة القلق. تمخضت فأمطرت سبعين بيتاً من الشعر، جعلت شداد يترحم على الحطيئة. وقد هرب اسماعيل قبل ساعة من انتهاء الدوام، مخبراً زملاءه أنه مضطر الى ذلك بسبب « أمور، أمور

خطيرة شوية.» وهرول الى شداد عند الرصيف، ثم في المكتب. «لماذا لا تعمل؟ حد الرصيف سفينتان راسيتان تنتظران التفريغ.» «أنت لا تعرف شغلة الميناء يا أبو ابراهيم. العمال ينتظرون انتهاء الدوام ليشتغلوا، فيقبضوا الراتب والمساعي معه. لأن ساعات بعد الظهر تعتبر عملاً إضافياً.» «الأرذال! لماذا لا تعاقبهم؟» «أنا لا سلطة لي عليهم. ولكن لو كانت لي سلطة كنت أشجعهم.» «ابن عمي! هذا ضد مصلحة البلد!» «صحيح. لكن رواتبهم لم تزد رغم طوفان الغلاء. وأولائك صاروا مليونيرية من التهريب. والسرقة.» «ماذا تقول! الاغراض، الاغراض التي تجيؤنا بها، تهريب؟» «أعوذ بالله أبو ابراهيم هذه هدايا. تأتي من السفن. أنت يخطر لك أن يكون شداد الخياط مهرباً؟» عندها ارتاح أبو ابراهيم: «حاشا لله. حاشا لله. طيب، اسمع الآن.» وقرأ القصيدة.

بعد صلاة العشاء، جمع حوله خضرة والأولاد. «مع أن المعاني صعبة عليك، سأقرأ لك القصيدة. هذه ستدمغ رجب العنز وآباءه الى أبد الآبدين.» وقرأ القصيدة.

في اليوم التالي حمل نفسه ومضى الى منزل خولة. هذه المرة ظفر بما هو أكثر من الحفاوة والاحترام. كانت خولة مرحة وطبيعية، وكأن رهبته القديمة قد زالت من نفسها. وأبهجه الأمر. إذ ما هو الانسان، بعد كل شيء، كائن بسيط، يتميز بمثله العليا. وعندما سمع منها تفاصيل المعركة بين عبسي ورجب، تمتم بلهجة العارف الواثق: «عبسي سيدحره، لا شك. عبسي هو الدولة. أنا بحاجة لمن يقول لي؟» لكنه استاء عندما أصرت عليه أن يرفق القراءة بتناول الوسكي: «أنت تشربين الوسكي يا بنت عمي؟» «معاذ الله، يا أبو ابراهيم. ماذا تقول! في حياتي لم أذقها. ولكن يأتيني ضيوف تعـرف.» «حسبـت.» «أنـا لا أشرب غير البيرة.» «ألعنين. تشربين بيرة! لا، اشربي وسكي، أفضل. على الأقل هذه معصية الأكابر. البيرة شراب الدهماء.»

وقرأ القصيدة. وتضاعفت خيلاؤه إذ انضم لها حيان، وانفعل، وصاح، وخبط بيده على الكنبة، وأصر على نسخ القصيدة، فأطار عقل أبي ابراهيم: «ابنك هذا سنديان، ليس غفرياً،» قال لخولة وهو ينهض، مفعماً بسعادة لم تنتبه منذ أمد طويل.

لكن خيبة صغيرة كانت تنتظرة إذ أعلنت حبرية له أن أبا ياسر «عنده شغل»، فقفل عائداً.

كان أبو ياسر منتظراً في بهو العيادة، جالساً يشعل سيجارة من عقب سابقتها. أخيراً فتح الدكتور الباب وأطل برأسه: «تفضل، أبو ياسر، تفضل.» وعاد الى الداخل تاركاً الباب موارباً. أطفأ أبو ياسر سيجارة كان قد أشعلها قبل لحظات، وندم. أحس بمزيد من الاضطراب إذ صارت يداه خاليتين تماماً، فكأنه جرد من سلاح مسالم ولكن ضروري.

حياه محمد علي أمام المكتب. أمسك يده بيديه ثم سحبه نحو الكنبة الجلدية. أجلسه وعاد فجلس وراء المكتب. وجه اليه الأسئلة العريقة عن الصحة والأولاد والأحوال والأمور والشغل، سؤالاً هادئاً بعد سؤال، وابتسامة مع كل جواب، حتى فرغ ما لأبي ياسر من مخزون الأجوبة الجاهزة.

ومضى محمد علي في المباسطة الهادئة: «إذا لم تكن مرتاحاً مع حبرية، نزوجك غيرها. هذه حبرية بنت مدللة.» وفوجىء أبو ياسر؛ ليس لأن المزحة غريبة عن حياته، بل لأنها صدرت عن الدكتور. تنحنح مرتبكاً، واستند على يده فحرك مؤخرته قليلاً، ونهنه: «يا سيدي، نحن بمرأة واحدة لا نشيل الحمل، كيف باثنتين.» وعقب محمد علي: «وفوقه الأولاد، أيضاً. صرت جداً، يمكن. ما صرت؟» «هو! خمس مرات.» «ألا تساعدك بناتك؟» «والله يا دكتور، أنا لا يساعدني غير الله.» «وها بعث لك رزقة مليحة، أنت وحبرية. لكن زجب العز طمعان فيها.» «رجب العز؟» «يقول إنها له. وسيدبر واسطة لأن تكتب باسمه.» «وسيـادة العميد عبسي، ماذا يقول؟» «ماذا يقول؟ عبسي له سهم من عشرة. لا يقدر أن يحكي باسمكم كلكم.»

« نعمل له وكالة عند الكاتب بالعدل. » « لا تقدر. الارض حتى الآن ليست لنا. وبعدها، ما الوكالة؟ يظل عبسي واحداً من عشرة. لو الارض كلها له، تتغير الحالة. » « نبيعها له. هل يشتريها؟ » « والله، لا أعرف. ولا نعرف السعر. » « يقولون في حدود عشرين ألفاً. نبيعها بخمسة عشر. » « شاور عقلك ولا تستعجل. اذا شفت أنك مرتاح للبيع، أفتح الموضوع مع عبسي. وشوفوا جميلة، إذا أرادت أن تبيع. »

كانت أخبار عبسي طيبة تقريباً. لقد تلقى تطمينات توحي بالثقة، واعطى أكثر من تعبير عن الدهشة لشدة اهتمامه بالموضوع، حتى باب مقتنعاً بترك رجب العز وحيداً في الساحة الغبارية. لكن هذا لم يكن كل شيء يي رحلته الخاطفة المدوخة.

في ذلك الصباح كان المطر ما يزال يهمي، يملأ الفضاء فيوحي بأنه موجود هناك منذ الأزل، وأنه سيبقى - مثل الاشجار والجبال، مثل البحر. وكانت فدوى منتعشة نشطة. صنعت له قهوته الحلوة، وجلست معه حتى شربها. وخرجت الى الشرفة لتودعه دون أن تأبه بإشاراته لها أن تتقي المطر. وعندما أدار لها ظهر السيارة وانطلق، هجم عليه شعور كان هناك قبيل النوم ثم اختفى. المطر، قال لخولة، له لغة خاصة به. بل له مجسّات، يمدها نحو غافيات النفس فيوقظها على الحزن. لماذا كان حزيناً ذلك الصباح؟ بالطبع لم يأبه كثيراً. كان متجهاً الى دمشق لأجل صراع جديد في حياته الحافلة بالصراعات. لكن الذكريات هجمت عليه. كم مرة قطع هذا الطريق في حالات صراع غبرت وتوارت؟ ساعات الشدة والحصار. حالات اليأس. تلك المشاعر الاندحارية، التي هددت بالعودة الى قوقعة الشير والانقطاع عن الحضارة. تذكر أيام الشيشكلي السوداء، والخوف على الرفاق من التصفية. أيام فقد المرء معرفته بنفسه لأنه فقد حريته، وعاش مع الناس غريباً بين غرباء، محتقناً متأزماً كالحاً. وهمّ ذهنه بالتوغل في مشاعر الرعب القديمة تلك، عندما انخطفت عن يساره سيارة بويك رمادية وطارت في المطر. غابت الذكرى. وصار شغله الشاغل أن يسبق رجب العز مهما كانت النتيجة. لكنه لم يستطع إلا بعد أن اجتاز الاثنان طرطوس، ووصلا الى الطريق الجديدة. إذ ذاك استرخى ذهنه مرة أخرى في أيام والد فدوى، الذي عرف كيف يخذل فارس ابنته، ويحمله بالترفع الطبقي والكبرياء المتسامحة. وعندما أطلت حمص - حمص العاصي والهواء العليل وشارع الدبلان - مرقت السيارة الرمادية مرة أخرى وطارت في الضباب، جن جنون عبسي. ضغط على دواسة البنزين وهتف في سره: يا الله، يا مرسيدس. تذكر صدام بديع خضير مع البيك، والفرسين اللتين التحمتا في العراك المرير. هو ذا بيك آخر، يركب بويك، ويجب سحقه. تذكر الأيام الأخيرة للوحدة بين سورية ومصر. وأيام الانفصال. وفيما يتوغل عبر الضباب المتكاثف، توغل ذهنه في اللحظات اللانهائية التي انعصر فيها قلبه حتى أحس أنه انفطر أو تلاشى - خوفاً، يأساً، قهراً محبطاً. واتصل الضباب أمام عينيه بالضباب وراءها. وقادته الطريق الى يوم الثورة، والى قرية القسطل. هناك تلاشى الضباب. واندفعت به المرسيدس السوداء فتجاوزت البويك الرمادية، وظلت سابقة حتى قلب دمشق.

هزت خولة رأسها هزات قصيرة بطيئة وهي تتفرس بوجه أخيها، ثم تمتمت: « مع ذلك، أنت لا تعرف الا القليل من هذه الأيام السوداء. اسألني أنا عنها. أليس غريباً أننا كلنا مررنا بهذه التجربة؟ »

في الخارج أمر السائق أن يتبعه بالسيارة. لم يكن ثمة أحد في الشارع الضيق، الطالع من خاصرة شارع انطاكية الى البحر. مشى وسط صفير الرياح مغامراً بتعريض جسده لمفاجآت الليل الخفية الغادرة. وصل الى حديقة مار تقلا وقد أنعشه السير والخوف. ودخل الفيلا وقد صفا شوقه الى فدوى وشف. رأى القاعات والغرف عائمة، إلا من سحيح أضواء خافتة. وأعطاه العتم وسكون المكان مزيداً من الصفاء. ودخل غرفة النوم.

كانت سوسن تترقب عودته بصبر، قابعة عند الشباك المفتوح وقمة سيجارتها تتوهج في الظلام. انتظرت. لم تحسب الوقت، لكنها بعد فترة لا بأس بها خمنت أنه قد نام، وأن الخروج الى الشرفة صار ممكناً. انسلت بخفة من غرفتها، وأسرعت تعبر الممشى الى البهو. لمحت باب غرفة أبويها موارباً فجمدت. لأول مرة في تاريخ

وعيها تراه مفتوحاً. كان دائماً مغلقاً وخلفه عالم سحري وليس أربعة جدران. أرسلت نظرتها عبر الفتحة الضيقة، فيا وجيب قلبها ينفجر. سمعت أصواتاً مهمهمة. وعلى ضوء النواسة لمحت قسماً من الجدار، وقسماً من شعر أمها على الوسادة. اقتربت. دست أنفها في الفتحة. كان رأس أبيها يتحرك برتابة، وعينا أمها مصلوبتين على السقف. لم تفهم شيئاً. رأت نفسها مثل من تصطدم بصخر بحري. وركضت الى غرفتها. أغلقت الباب بهدوء. ارتمت على السرير. وجعلت تبكي.

يومها نام عبسي قرير العين. وظل رضي البال حتى جاء يوم الجمعة الموعود. لم يتضايق من شيء. سوى أن المطر بدأ يرذ لحظة أغلق وفدوى بابي السيارة. كانت المدينة متشحة بالغيوم. وخلال ثوان تسربلت بالمطر. أنزلت فدوى زجاج الباب قليلاً. واستنشق الاثنان الهواء بعمق. ومد يده فأدار المسجلة، وانبعث صوت فيروز، وقال بمرح: «ألا ترين أن رائحة السمك والفراريج منعشة؟» قالت: «أرى أنه ما كان لازماً أن تجلب لهم، لا سمكاً ولا فراريج.» وهز رأسه مع إيقاعات الغناء، ودندن، ثم قال: «لأنك تقابلينهم أول مرة، تفكرين أن هذه إهانة. أنا أعرف هذا الولد شداد منذ واحد وأربعين عاماً. في بلادنا، التعبير عن الحب والصداقة، يكون بتقديم طعام ينعش الجسد.»

وصلت السيارة الى المفرق غير المعبد، المؤدي الى بيت شداد. أدارها عبسي الى اليمين، ونبست فدوى بسرعة: «خل السيارة هنا، خلها هنا.» توقف مستغرباً. قالت: «خلنا نمشي الى بيتهم.» أوقف المسجلة ونظر اليها: «نمشي في الوحل وتحت المطر!» «لا وحل ولا شيء. لا أحب أن ننزل من السيارة وأسلم عليهم.» «ما عدت أفهم عليك. ألا يعرفون أن عندنا سيارة؟» «عبسي، أرجوك، لبِّ لي هذا الطلب.» «كما تريدين. والأكل، كيف نحمله؟» «أنا أحمله.» أحسن شيء، أنت انزلي من السيارة وامشي، إذا كنت مصممة أن يصيبك التهاب رئوي. وأنا أوصل السيارة الى السياج. لأن تركها هنا غير أمين.»

أطرقت. أوقف المحرك. تناول اللفافتين وخرج. ابتسمت وخرجت. كان المطر مثل ذوائب نحيلة أضيفت للاشجار والمزروعات التي ملأت المكان. أمسكته من يده وانطلقت تعدو، تهزهز جسده المليء ورفع يده الثانية ليحفظ توازنه. اضطر للركض لكي لا يقع. ثم راح يبطيء. أفلتت يده ووحوحت. اختطفت منه لفافة وهرولت. وأسرع يغذ الخطى وراءها.

توقفت عند السياج تنتظر لحاقه بها. وراء الشباك شاهدت وجهي صبي وفتاة ينظران اليها، ويداً تمتد الى جسميهما وتشدهما الى الخلف، ثم قامة زهرة الباسقة تطل من فوقهما. لوحت فدوى بيدها في الهواء، وقد قررت أن هذه هي زهرة. وعلت يد المرأة الأخرى ولوحت ببطء.

وصل عبسي لاهثاً. أدار البوابة القصبية القصيرة، ودخلا. صرخ: «يا ولد!»

خرج شداد وولداه. وهبت ريح قوية. تصافحوا وسط صيحات عبسي ولجلجات شداد. دخلوا.

كان شداد أقل رخاوة لانشغاله المربك بأن يوفق بين ثلاثة لم توفق بينهم الطبيعة، في رأيه: عبسي الذي يجب أن يتحمله المرء إذا شاء أن يستمتع به؛ وزهرة المتوترة؛ وفدوى الهادئة العميقة، التي جاءت أخيراً تزور زهرة.

تقدم عبسي في البهو منتشياً غافلاً عن كل ما ينسل حوله من مشاعر غير شعوره بالفرح. صافح زهرة بضربة يد: «كيف حالك يا زوجة أخي. أنت عابسة، هل أزعجك شداد؟» ولم تزد هي عما خيل اليها أنه ابتسامة، وأنه يكفي للرد عليه ولاستقبال فدوى. وشدت فدوى على يدها الثخينة نصف الممدودة بلهفة، ومدت رأسها فقبلتها. وقالت زهرة في سرها: يا للحرباء. فيا مد شداد يده وأشار أن تجلس الى جانب عبسي. وبعدها جلس. ونظر الى زهرة يدعوها للجلوس. تحركت. وهتف عبسي: «ماذا يصير بكم يا أخي في هذا

المطر؟ أنت كل عمرك عاشق. فدوى، شداد لا يحركه شيء غير الشجر والمطر. لذلك تزوج زهرة ـ طويلة كالشجرة، وتمطره حباً.» وأرسلت فدوى عينيها الى الزوجين بابتسامة غبطة. ودعاهما شداد الى التدخين.

قال عبسي: ـ أخي، وامرأة أخي. أنا عندي اعتراف، أعترف به خالصاً لوجه الله. هذه الزيارة كان يجب أن تتم من سنة وأكثر، والحق علي أنا في تأخرها. وأنا عاتب على حالي أكثر مما أنتم عاتبون علي. أنت تعرف أخاك يا شداد، كل عمره ما عنده وقت.

نظر شداد الى فدوى مبتسماً، وهز رأسه. واكتفت فدوى برد الابتسامة: على نحو ما خذلها برود زهرة. لكن زهرة نظرت اليها باهتمام. والتفتت الى عبسي:

ـ وأنت لم تقبل طبعاً أن تبعثها وحدها بالسيارة.

ـ امرأة أخي، بسلامة فهمك. الزيارة الأولى، مفروض أن تكون عائلية.

ـ أنت كل شيء له عندك مفروض. لو كنت محلها لجئت دون أن أقول لك.

ونظرت الى فدوى وابتسمت. أحست أن حيوية دخولها لم تكن مدّعاة، ولم تبد سيدة راقية تتكرم على الآخرين بحضورها الشخصي. ونادى شداد ولديه ان يجلسا معهم. وركض بديع مشرع القبضتين ووقف أمام عمه محني الظهر. وفيما راح الاثنان يتناوشان، وعبسي يتحمل لكماته الجدية الموجهة باستمرار الى كرشه، تبادلت السيدتان الابتسامة الأولى. وانتهر شداد ابنه: «بديع! عيبْ يا بابا. عمك يمازحك. رح أنت ومريم واقطفوا لامرأة عمك باقة أزهار.» وركض الولدان.

عندها انتصب عبسي في جلسته وتناول سيجارة. وبدأ قصة الارض ورجب العز. وفاجأ زهرة أن اكتراث فدوى بالحديث ليس إلا تأدباً. نهضت: «فدوى، تعالي أريك جنينتنا.» التفت عبسي محتجاً. غير أنها لم تبال: «هذا حديث لا يهمنا نحن النساء.» نهضت فدوى مرحبة متوجسة. لم تكن ترغب في أي عكر أو صدام. ولكن ماذا تفعل؟ هذه هي زهرة التي وصفها بأنها متوحشة. قال عبسي: «بعد شوية سنحتاج للقهوة.» قال شداد: «أنا أعمل القهوة. نعملها سوية. مزروعاتنا جميلة؛ خل فدوى تتفرج.»

في المدخل قالت زهرة: ـ بودك الصراحة؟ أول ما رأيتكم تكهربت. وقلت لشداد الزيارة وراءها شيء. وبالنسبة للسيد عبسي، حتى الآن أظن وراء زيارته شيء. لكن أنت قلبي ارتاح لك. والانسان قلبه دليله.»

قالت فدوى بسرعة: ـ لا، أبداً. لأني أنا صاحبة الفكرة.. قصدي.. يجيء يوم وأحكي لك.

خرجتا واتجهتا الى المزروعات. قالت زهرة:

ـ أكيد أنت تعرفين كل شيء عن حياتي. لأنك كل هذه السنين لم تزوريني...

ـ لا، أبداً. أنت غلطانة.. يجيء يوم وأحكي. الآن خلينا نعمر صداقتنا شوية شوية. خلينا نتفرج على حديقتكم.

ـ لا، الآن الحكي. كيف تصير صداقة وفي القلب شيء؟ يوم كنت مشردة، كانت الدمامل تظهر على جلدي بسبب الوسخ. وكنت دائماً أفقؤها. لأنها كانت بشعة. قلت لك إن قلبي ارتاح لك. لكن قلبي فيه دمامل منكما أنتما الاثنين، ولازم أن أفقأها ـ إذا كنت تريدين أن يصير بيننا صداقة. أنتما الاثنين وقفتما موقفاً شاذاً. الانسان يعترف به كانسان. لا ابن عائلة أو صاحب بنايات. ماذا لو صار ابن الحرام أقدر منكم على الخير؟ يظل ابن حرام أم الذين يأكلون خبز اليتامى والمساكين هم أولاد حرام؟

قالت فدوى لنفسها أن أية محاولة للحوار ستبوء بالفشل. وهي لم تعتد على هذا النوع من التفكير الحاد.

كانت زهرة تتكلم بانفعال يشبه الغضب. كان وجهها يتكلم، وعيناها السوداوان، وأنفها الصنوبري. وفدوى لم تكن متهيئة لهذا الحجم من الصراحة، المزعج حقاً. صمتت، وأنصتت بابتسامة. لم تعرف أنها بدت حزينة. وعندما حلت لحظة صمت فرضها احتدام زهرة المضطرب، أشارت فدوى بيدها أن اهدأي قليلاً. ونبست:

ـ أنا سعيدة تماماً بكلامك؛ لكن أنا لست مباشرة بقدر ما أنت. لذلك.. يجيء يوم ونحكي سوية. يجيء يوم. لا داعي للانفعال، طالما كل واحدة منا ارتاحت للثانية. أنا امرأة مسالمة، لا تخفي أعصابك معي. أتمنى لو أنفعل. لكن الانفعال يكبر، يصير غضباً. والغضب يكبر، يصير عنفاً. وأرجوك خلينا نبدأ بداية سليمة. من زمان وأنا مشتاقة للتعرف عليك.

قالت زهرة بهدوء: ـ لا أحد يطيق العنف. لكن أنت غير شيء. أنت غير محاصرة. لو كنت محاصرة كنت تلمسين العنف، وتصيرين مجنونة مثلي. لأني أنا مجنونة. الناس الذين مثلنا يلعنون حياتهم سبع مرات في النهار القصير.

قالت فدوى متشجعة وقلقة: ـ كيف! ألستم سعداء؟

ـ أنا وشداد؟ طبعاً سعداء. بس.. أخ! لهذا أقول لك. بدلاً من أن يقعد معي أو نمشور سوية، يضيع وقته في الفرن. أو في محطة المازوت، أو في مساومة الخضري. هذه هي النباتات التي أحبها أكثر من غيرها. تعالي.

ـ أنت دائماً تنفعلين هكذا؟

ـ أنا مجنونة. كل ساعة عقلي شكل. لا تتأثري بزيادة من كلامي. تفضلي، من هنا.

كان عبسي قد أنهى حديث الميراث والصراع مع رجب العز. وهز رأسه لكلمات أخيه الفاترة: «سيأتي مال الارث ونصرفه.. ونعود الى مشاكلنا.» وعاد الاخوان من المطبخ يحملان وكأة القهوة والفناجين. توقف عبسي بين البهو وما سمي غرفة الضيوف، ونظر الى السقف والجدران. قال لشداد، الذي جلس ووضع ما في يديه على التربيزة:

ـ صحيح سيأتي مال الارث وتصرفه. بذمتك ألست انساناً غريباً؟ كيف تقبل السكن في هذا البيت؟

ابتسم شداد صامتاً. أحس أنه بدأ يضيق باهتمام عبسي الأخوي، المتجة دائماً الى نبش الخطأ ـ أو ما يراه خطأ. ملأ الفنجان قهوة وقال: «هات فنجانك لأصب لك قهوة.» وأسرع عبسي فوضع الفناجين والصحون على التربيزة. انتظر حتى امتلأ فنجانه، وتناوله. رشف رشفة، ووسع فتحتي عينيه إعجاباً: «قهوة عظيمة.» ووضع الفنجان. قال بجدية:

ـ شداد، عندي لك مفاجأة. الآن لا تعمل لي مبادىء ومثاليات. هذا البيت لا تسكنه الأرانب. وأنت عندك ولدان، بكرة يكبران، ولا مكان لهما ينامان فيه. وأنت الآن عندك فرصة طيبة لأن تسكن مثل العالم والناس.

لم يقل شداد شيئاً. بعد أن شرب بعض القهوة، أشعل سيجارة ورمى ظهره على ظهر الكرسي منتظراً تتمة الحديث.

ـ أرضك هذه تساوي ربع مليون ليرة. هل تعرف هذا؟

ـ ربع، مليون، ليرة!

ـ نعم. وإذا عرفت كيف تساوم، أخذت ثلاثمئة ألف. وهذه تشتري لك أحسن بيت في اللاذقية وتفرشه لك أحسن فرش.

ـ يا سلام. أنا علاء الدين وما عندي خبر.

كان عبسي يتوقع هذا الرد البارد. لكن خوفه على مستقبل أخيه جعله يتحمل بلاهته. وهتف بحرارة أسيانة:

ـ قم تحرك يا شيخ، قم تحرك. الناس كلها تقدمت وتطورت، وأنت قاعد مع شوية نباتات في أرض فقراء. كيف تعيش وليس حولك ناس تلتقي بهم؟ أه؟ قل لي.

ـ أنا يا عبسي لا أتحمل ضغط المدينة. والناس فيها، تراهم إما تعبانين، اما ساخطين، أو خائفين..

ـ يا شيخ كفاك كلاماً فارغاً. الجنة بلا ناس لا تداس. وبعدئذ، ولداك بحاجة الى حياة اجتماعية. تتركهما هنا، يكبران مثل الحيوانات البرية.

قال شداد بلأي: ـ أنا تفكيري شيء غير هذا. في المدينة الحياة نوعان، إما الشكوى من الغلاء الجنوني والشتم عليه، ومقارنة سعر اللحم الآن بسعرها العام الماضي؛ واما حديث عن القداحات والسجاد والثريات، وفلان اشترى بيتاً بخمسين وباعه بمئة، أو شاليه بمئة ألف، وفلان توسط عند فلان فجاءته مئة ألف..

قال عبسي دون أن يفاجأ: ـ هذه حال الدنيا. في جميع أنحاء العالم هذه اهتمامات الناس. وبعدئذ، الغلاء ظاهرة عالمية. بعد حرب تشرين التحريرية بسنة انفجرت الأسعار مثل البركان، ونحن لسنا وحدنا الذين أصابتهم الحمى. يعني إذا عشت في هذا الخم، ألا يلحقك الغلاء؟ أينما كنت يلحقك الغلاء. وتلحقك تأثيرات مشاريع تطوير البلد.

قال شداد مازحاً: ـ يلحق حبيبتي.. أنا راض. أما عقلي.. لا أريد أن تصيبني العدوى. ألم يقل لك أبوك إن أسوأ ما اخترعه البشر هو المال واللغة؟ المال يفسد الحياة، وأنا رجل سعيد. واللغة سيستعملها الناس ضد زوجتي وأولادي، وضدي. فاما أن نقبل النظر الينا كأولاد حرام، واما لا نقول لأحد مرحباً، ولا يقول لنا. أنا هنا أعيش سعيداً بين الحرية والحب والطبيعة، ولا أريد أن أبيع سعادتي. لا أريد أن تحكمني أي ضرورة من أي نوع. مثلاً، أنت محكوم بأن تكون شخصاً مهماً، أبو ابراهيم محكوم بماضيه وتصوراته. خولة محكومة بماكينة الخياطة. أنا أريد أن أبقى خارج قوس، غير مصنف، حراً.

ـ نحن سعداء أيضاً. أنا وفدوى يحسدنا كل أصدقائنا. لا تفوتنا أي مناسبة للفرح. ولنا الحرية في أن نفعل ما نشاء. لكن الحرية عندك كما أرى هي الاستمرار في البؤس. لماذا وجدت المدينة اذن؟ أكثر من نصف البشرية صار الآن متمركزاً في المدن. أصلاً، لا طعم للحياة خارج المدينة. لماذا أنت خائف؟

ـ مثلما قلت لك. المدينة كيان غير حقيقي. المدينة ضيقة. تعيش فيها، تعيش في شارعين فقط ـ واحد يوصلك الى الشغل، وواحد الى الدكاكين. وخلص. مع أن العالم واسع، وكبير. والحقيقة، خوفي أكبر من ضيق الشارعين. في المدينة تتحول اللغة الى مجاز. تسمع الكلمات فيها فلا تعرف، هل معانيها هي فعلاً ما تظنه أنت، أم شيء آخر. ويصير عقلك مشوشاً. لا الشرف شرف، ولا الصداقة صداقة.. قصدي هذه المعاني. وفوق هذا تدخلها ومعك مال؟ أنا رأيي أنه إذا دخل المال من الباب خرجت السعادة من النافذة.

هز عبسي رأسه، ثم التفت يسأل بجدية قانطة:

ـ أي مجتمع تنتظر اذن؟ طالما أنت لست في المدينة ولست في القرية.

أجاب شداد بنبرة دعابة: ـ مجتمعاً رومنتيكياً. فيه ناس يضحكون. ويلعبون ويشبعون. وإذا لم يجيء...

جاء صياح زهرة بإلحاح يوحي بالخطورة: «شداد، شداد، شداد!» وهبّ هو واقفاً: «أيوه!» «تعال، تعال فوراً.» وهم بالاستعجال، لكنه قرر المشي بهدوء. ولحقه عبسي قائلاً:

ـ يعني لن تبيع. أنت مجنون.

في الجنينة أشارت له زهرة إشارات قصيرة مستعجلة. ابتسم لفدوى، التي كانت تتأمله مبتسمة هي الأخرى. قالت زهرة: «انظر لك نظرة هنا.» وأشارت الى سطح مستو من الارض. قرفص الاثنان، وراحت تتفحص تعابير وجهه، فيما هو يتفحص رشيمات صغيرة لا يتجاوز طولها ملمترات نتأت من بصلات النرجس. كانت هناك عشر بصلات تقريباً. وتفقدها ليرى أيها الأطول. ثم تنهد مغتبطاً، ورشق زهرة بنظرة. نهضا. وكان عبسي قد وصل، ووقف مفتوح الساقين وبيده سيجارة.

قالت فدوى: ـ وعدتني زهرة أن تعطوني من كل ما عندكم نبتة، نبتة، لأضعها في اصص. فإذا وافقت، ستتعب لأجلي بشراء الأصص، لأن عبسي لن يشتريها في حياته.

قال عبسي محتجاً: ـ كيف! بأربع وشعرين ساعة يأتيك بها أبو فهد.

قالت فدوى متشجعة: «أبو فهد هو الخبير الفني الذي سيشتري الأصص».

ـ كفاك زعبرة. اعطه مالاً يأتك بأحسن الأصص، يصر خبيراً زراعياً. يا الله، يا الله، تتغدى، أنا جعت.

مضت أسابيع ولا جديد عن الارث. ودبت الحياة اليومية في أوصال الوارثين، فخف نبض التوقعات. ثم انطمر. كان اسماعيل أكثر انشغالاً، ولكن أقل قلقاً: مبدئياً لم تعد ثمة ريبة في أمر الارض، ولا ريبة في أمر ملكيتها، فعبسي سيسحق ابن العنز، لأن عبسي هو الدولة. إلا أنه أراد أن يتنسم الأخبار. مثل هذا النوع من الأمور يتطلب دليلاً مادياً كل يوم كي لا يتحول الى وهم أو الى قلق. انه جسيم جسامة الحياة، ولكنه يبدو زلقاً، أيضاً كالحياة. وإذا بقي في الصف الثاني من الاهتمامات، فالشرف والأصالة والمجد وجميع الأشياء العظيمة، تغدو ضلال كلمات وسراباً.

وهكذا عرج على غرفة شداد في الميناء. ووجده عند الصوامع، جالساً مع رمضان وبديع، والثلاثة يلتهمون الشطائر. نهضوا ترحيباً به، فجلس هو ليمنعهم من الوقوف. وعادوا فجلسوا.

قال شداد: ـ أخبار الميراث يا ابن عمي عند عبسي. أنا والله نسيت الموضوع تقريباً.

هاله أن يصل موقف شداد الى هذه الدرجة من اللامبالاة. وزاده ضيقاً وجود رمضان وبديع، وطريقة التهامهم للشطائر. اتكأ على يده وقام. أصر على الذهاب رغم إلحاحات شداد. فجأة بدا كئيباً وهرماً. ووقف شداد، مشى معه بضعة خطوات، وقال: «إذا وصلتني أخبار، أجيء عندكم».

أنهى شطيرته، ونظر الى ساعته. التفت الى رمضان: «بعد شوية يبدأ التفريغ. انتبهوا على حالكم. العسس يملأون الميناء.» لم يلتفت اليه أي منهما. قال بديع وهو يقضم قضمة هائلة: «معنا رسالة وعنوان. هل توصلها؟» صفر شداد مقطعاً من أغنية وهو ينظر الى الميناء: «متى؟» وعاد يصفر. قال رمضان: «اليوم أو غداً.» وصمتوا.

بعد قليل قال شداد: ـ لماذا لا تزورون أباكم؟

قال رمضان: ـ والله يا أخي دوخنا. مالاً لا يأخذ. والأكل لا نقدر أن نحمله له ونحن في طرف المدينة الثاني. تسأله ماذا يحتاج، فيرفع يده ويهزها. لا يتكلم في أي موضوع. ماذا نفعل له؟

قال شداد: ـ في السنوات الأخيرة، لا يمكن أن تجعله يفلت ولو كلمة. كل يوم تروح زهرة، ترتب له البيت وتطبخ له. أحياناً يساعدها في الطبخ، ولكن ولا كلمة. أنا آخذ القهوة اليه، ونصف الطاولة، ونلعب. أيضاً ولا كلمة. إلا الشيء العابر: الشغل، سعر السبانخ، الغلاء عموماً. أما ما يجري في هذا العالم، في هذه المدينة حتى، فلا علاقة له به. مع ذلك، زوروه. يكفي أن يراكم، ولو لم يتحدث.

نظر الى ساعته مرة أخرى وانتصب: ـ يا الله، أشوفكم بخير.

أخذ الرسالة ومضى الى غرفته. تناول أوراقاً وفواتير وقلماً. وأسرع الى الرصيف. كانت الباخرة الليبرية متلصقة بجدار الاسمنت، والآلات والعمال بانتظار البدء. كذلك مندوب الباخرة الذي حمل أوراقاً هو الآخر. تقدم منه الرجل ذو الربطة وهمس: « شداد أفندي، هديتكم صارت في المكتب. هذه هي الأوراق، افحصوها. » « فحصتها. » « وهذه رسالة من سيادة الرائد فالح. » تناولها شداد ووضعها في جيبه. « ما هي هديتي؟ » « يا سيدي أنت الأمر، وكل شيء تحت أمرك. لو أنك ترضى وتأخذ، كانت الهدية أكبر من هذه بكثير. شغلة بسيطة، مسجّلة وراديو. و ٢ هوبرلور هاي فاي، وعشرون كاسيت. »

أشار شداد بيده وبدأ التفريغ. تحركت الآلات وتحرك العمال. ونزلت بضائع في الشاحنات، وتحركت الشاحنات، وحلت محلها أخرى. وتقدم من شداد رجال ذوو ربطات يحملون أوراقاً ويقدمون رسائل. وهو يفحص الأوراق، يقارنها مع أوراقه، ويضع الرسائل في جيبه. كانت بواخر أخرى محاذية للرصيف قد بدأت العمل أيضاً. وراحت الفلوك والمواعين تمخر البحر الهادىء إلى السفن الراسية بعيداً، التي رفض قباطنتها الانتظار أكثر من خمسة أيام بعد المدة القانونية. وبدا كل إنسان وشيء نشيطاً، حتى الهواء البارد الرطب.

أخيراً جاء دور الرجل الأول ذي الربطة. تحرك بلا معنى، متابعاً شداد، الذي تقدم من مندوب الباخرة التالية. قابل بين الفاتورتين، وسأل المندوب بالانكليزية: « ألف ساعة يد؟ » هز الرجل رأسه موافقاً مبتسماً. التفت شداد إلى ذي الربطة واستدعاه بعينيه. أقبل الرجل كريماً مبتسماً. قال شداد: « فاتورة الأخ مسجل عليها ألف ساعة ». هز الرجل رأسه موافقاً باسماً. « وفاتورتي عليها أربعمئة بس ». لم يقل الرجل ذو الربطة شيئاً. حافظ على ابتسامته، منتظراً من شداد أن يفهم. « العادة تكون الزيادة عشرين، خمسة وعشرين بالمئة. لا مئة وخمسين بالمئة ». ظل الرجل لطيفاً، مبتسماً، منتظراً. أدار شداد رأسه إلى البحر، وكان مستوياً مثل قماشة زرقاء مكوية. تنهد بوجوم، ثم التفت إلى المندوب: « يوجد فرق كبير بين فاتورتينا، يجب أن أراجع المسؤولين بشأنه ». استدار إلى الرجل، أمسك ذراعه بحميمية ظاهرة ودفعه إلى الأمام. قال له مطأطىء الرأس: « تشتري ألف ساعة على فاتورة بأربعمئة؟ » قال الرجل وقد ضايقته المعاملة: « والله، هكذا صار. والرائد قال ان الموضوع ممكن تدبيره ». قال شداد بجفاء، وهو ما يزال ممسكاً بذراعه: « رح إلى الغرفة وخذ هديتك. أنا أصلاً ما شفت هدية. وقل للرائد فالح، الشغلة ثخينة ولا يمكن تدبيرها ».

تكلم الرجل بأدب، فقال له شداد ألا يتعب نفسه. وتوسل فقابله بقسوة صماء. قال ان الضرائب التي تفرضها الدولة تجبره على هذه الطريقة التي لا يريدها، لأن المواطن المسكين لن يشتري ساعة جيدة بثلاثة آلاف. ونصحه شداد أن يغير الدولة، إذا لم تكن تعجبه. جفل الرجل: الدولة على رأسه وعينه، لا أحد يقول شيئاً ضد الدولة. ورد شداد بغلظة: « أنت لا تتكلم الحقيقة. أنت لا تعجبك الدولة ».

عندها اتبع الرجل أسلوباً آخر. قال ان سيادة الرائد سيزعل عندما يعرف بإيقاف الشحنة. وأكد شداد أن الرائد قد يزعل، لكنه سيرضى فيما بعد، لأنه صاحب مبادىء وإن كان يحب المساعدة. وأعلن الرجل عن شكه في إمكان الرضى. همس بوجه جامد: « بصراحة، الرائد مهتم شخصياً في الموضوع، يا أستاذ شداد ». قال شداد: « اسمح لي أن أقول لك انك كذاب. الرائد فالح لا يمكن أن تكون شغلته تهريب الساعات. أنا سأسأله إذا كان صحيحاً ما تقول. لا تهددني به ». معاذ الله، قال الرجل، هو لا يهدد، ولكن.. وعاد إلى توسله المهذب. وكان شداد يراقب في داخله تصاعداً مطرداً للقسوة، لحرن يشبه حرن الخيل. لم يكن الرجل بذاته شيئاً. رآه عاجزاً مثله، لعبة بيد لا ترى. ولم يستطع أن يضبط رغبة في التحطيم نفخت صدغيه، تراكمت منذ أمد، وقمعت بالتحمل الارادي والصبر الساخر فتضخمت.

استمر غضبه الأبكم الجبان يومين ونيفاً. قال لزهرة انه يشعر بتهديد خطير لحياته، ان هذا النمط من العلاقات العامة يجبره على مواقف لا يريدها. قال انه ليس بطلاً ليحمل السلم بالعرض في وجوه هؤلاء الناس، وليس جباناً ليقبل بمشاريعهم، وانه مذعور من اضطراره لأن يكون ذات يوم إما هذا وإما ذاك. قال ان حياته في الميناء باتت كئيبة ومرهقة، وهو يخشى أن تمتد الكآبة والارهاق إلى هذا البيت الذي اختاره بعيداً عن المدينة.

في اليوم الثالث كان قد غفل عن غضبه. واذ امتطى دراجته وانطلق، نسي آباره الخفية في الحركة والريح العاصفة والبرد اللاسع.

استقبلته خولة بلطف صائح وعتاب مزمجر. وعادا فجلسا في غرفة الخياطة. سألها برصانة مازحة أن تعطيه خبراً، أي خبر، عن الميراث، لأن أبا ابراهيم قلق ويخشى زوال العلامة. بكل ترحاب، قالت. لكن الخبر غير واضح بعد، شيء عن تصحيح كنية بعض الورثة، الذين لا تعرف حتى الآن من هم. لأنه لم يبق على اسم السنديان إلا اسماعيل نفسه، الباقون، كلهم لهم أسماء أخرى. على أية حال، سيتضح كل شيء خلال أسبوع.

بعد صمت قصير، تناولت من الخزانة الحديدية قطعة قماش بنفسجية. «تفرج واندهش». تأمل القطعة بإعجاب، ورفع حاجبيه. «هذه هدية أم الفضل». «يا سلام! زوجها وعبسي في حالة حرب، وهي تهديك هدايا!».

ـ لا تغلط يا شداد. أم الفضل أكابر إلى أبعد حد. ومؤمنة بالدمقراطية. وما بعينها كل مال الدنيا. هي من النوع الذي إذا اختلفت معك، لا داعي لأن تكون عدوة لك. يا ليت الناس مثلها.

صمت هو معرضاً. وعادت إلى خياطتها. بعد برهة رفعت رأسها:

ـ سمعت، أبو ثائر اشترى خمس سجادات، ماركة شيراز، بثلاثة آلاف وخمسمئة، بس؟

ـ كم المفروض أن يساوي سعرها؟

ـ يا ويلي عليك. من ١٢ ألف واسحب إلى فوق.

ـ بأية معجزة اشتراها رخيصة هكذا؟

ـ التهريب، يا عزيزي. من لبنان.

صمتا أيضاً.

ـ صحيح! سمعت، الدكتور محمد علي اشترى عيادة جديدة بخمسة وثمانين ألف ليرة، أخذها خلوّ عيادته السابقة؟

ـ ها أنا سمعت.

ـ وأن فاتن بنت أم فراس انخطبت، وحفلة الخطبة كلفت ثلاثين ألفاً، في الشاطىء الأزرق؟ وأنهم أهدوني قنينة بارفان بمئة وخمس وثلاثين ليرة؟

ـ سمعت.

ـ سمعت. وسمعت أن خاتم الخطبة سوليتير بخمسة وعشرين ألفاً؟

ـ سمعت.

ـ سمعت، أبو نضال اشترى غرفة نوم جديدة بثلاثة وعشرين ألفاً؟

ـ سمعت.

ـ وأن هذه القداحة التي تكرمت وأشعلت لك سيجارتك بها، هدية من أم هوازن؟

ـ سمعت.

كان فيلم التلفزيون، الذي لم تغفل خولة عنه، قد وصل إلى تأزم مأساوي. فالبطل تناول علبة حبوب فاليوم بهدوء تام، ثم كتب على العلبة الفارغة اسماً، واستلقى على سريره منتظراً الموت، بعد أن خانته حبيبة عمره. توقفت خولة عن الخياطة، ومدت وجهها عالياً وإلى الأمام، لترى ما إذا كان هذا العاشق الصادق سيموت حقاً. ومات.

ـ يا لطيف! صحيح يوجد في العالم ناس يحبون بهذا الاخلاص؟

ـ يوجد.

ـ يا لطيف! هكذا الحب وإما فلا. الحب الذي يملك كل جوارحك. آه. سمعت أن ريما بنت أم الفضل انتخبت ملكة جمال الرقص على البيست؟ اطفىء التلفزيون، جاءت نشرة الأخبار.

أطفأ شداد الجهاز، وعاد إلى كرسيه. قالت خولة:

ـ لم تقل لي رأيك بنشرة أخباري أنا.

تناول سيجارة وقال: ـ طظ في هكذا أخبار.

ـ واضح أن زهرة طردتك من البيت اليوم. مع أنك غالباً رائق، وأنت الذي يسحب الهم من صاحبه. اليوم لست على بعضك.

ـ احكي لنا شيئاً غير الأخبار الاستفزازية. قولي كم مرة ابتسمت اليوم. كم مرة ضحكت. كم ذكرى حلوة تذكرت. كله عن حمى الاستهلاك؟

ـ طيب. ما رأيك بالخبر الأخير: أنا قررت أن أدعوك أنت وأخاك، وفدوى وزهرة إلى وليمة مطنطنة عندي في البيت. عقوبة لكم، يا خونة، تجتمعون من وراء ظهري وتحتفلون، وتنسون أني أنا أمكم وجامعة شملكم. وتسكتون شهراً كاملاً، لا كلمة ولا زيارة. تظن أني لا أسمع بتلصصاتكم، ما؟ أنا، أخبار البلد كلها عندي.

ـ أنا تفاجأت بالزيارة، مثلي مثلك. يبدو أن فدوى كانت تريد أن تتعرف على زهرة. وعبسي ظل يؤجل الزيارة أكثر من سنة. مضطراً طبعاً، لأن وقته ضيق.

صمتت خولة، وبدت حزينة. كان واضحاً أن ذهنها انشغل بفكرة أخرى. ثم تنهدت. فدوى، قالت لشداد، تغيرت كثيراً. لم تعد مثلما كانت في السابق. ما الذي يحتاجه الرجل العظيم؟ امرأة تقف إلى جانبه وتدعمه. وتحمله بقلبها. وفدوى فقدت اهتمامها بعبسي. صارت منزوية، منزوية. كأنها لا علاقة لها بأمجاده. «تصور، عبسي يرجع من الشام، يجيء إلي أنا ويحكي مشاعره وتفاصيل سفرته. أنا أفرح، طبعاً، أسعد سعادة كبيرة. أنا من لي غيركم، أنتم الاثنين. لكن فدوى هي التي يجب أن يحكي لها عبسي. كأنها لا قدرة لها على المجد، يا شيخ. كأن المجد يحملها. لا، فدوى خيبة كبيرة. يا ضياع شباب عبسي وعبقريته فيها».

كان الحل الوسط الذي توصل إليه شداد مع الرجل ذي الربطة مرضياً للجميع، ولكن على مضض: تسليم شحنة بخمسمئة ساعة، وايداع الشحنة الأخرى ريثما يتم تقديم طلب جديد بشأنها. وخلال الأيام التي تلت

الاتفاق، كان خوف شداد في مد وجزر. كثيرون هم الذين ينتظرون تسريحه أو نقله ليحلوا محله على بوابة كنز مضمون. وربما كانت لدى الرائد فالح أسباب خاصة للاسراع في إزاحته.

لكن الأيام مضت. لم تأتِ بتسريح ولا نقل. وبعد أن اطمأن، رأى أنه خاف بلا مبرر، بل وربما كان جباناً: إلى الجحيم بسيادة الرائد وغيره. من تراه يسأل عنه سؤالاً. وانحسر خوف فأفسح مكاناً لخوف آخر: كيف يأتي بالمسجلة إلى البيت؟ إذا رأتها زهرة ستقوم القيامة. في نهاية الأسبوع الثاني صار وجود علبة الكرتون ملفتاً للنظر. صارت أشد خطراً من غضب الزوجة. وكان لا بد، فوضعها في سيارة أحد ذوي الربطات، ووضع دراجته فوقها. لم تفتش السيارة. وفي ساحة الشيخ ظاهر، أنزل شداد نفسه وحليه، وربط العلبة على مؤخرة الدراجة، وانطلق.

تلقته زهرة بعناق كثيف. صفدته بذراعيها وراحت تركله بركبتيها. ووقف الولدان قربهما يصيحان: « بابا وماما، بابا وماما.. » حتى أفلت شداد وصاح بهما: « اسكتوا، جرّستمونا ». قالت زهرة: « جائع حتماً ». قال: « لا، أكلت سندويشة. بس بودي كأس وسكي ». نظرت إليه بعينين اتسعتا وزاويتي فم تقوستا نحو الأسفل. « أظل آتي بالوسكي ويشربه غيري؟ ».

اغتنم فرصة دخولها المطبخ واندفع إلى الخارج. حل وثاق العلبة، واختطفها، وعاد بسرعة البرق. التقى الاثنان عند التربيزة. « ما هذه العلبة؟ » سألته باندهاش. وأجاب بالتفصيل كمذنب أيقن أن لا سبيل للمراوغة: « مسجلة ومكبران للصوت وعشرون كاسيت ». اهتزت الصينية المعدنية بين يديها وهي تنزلها إلى التربيزة. وأسرع هو يفتح الكرتونة، ويخرج منها كرة ضخمة صفراء مثبتة على حامل ليلكي، ولها عيون وآذان وفم. جمد الأربعة مبهوتين في حضرة التكنولوجيا. نسيت زهرة غضبها، ووقفت تتأمل الشكل العجيب. دار شداد حول الكرة ببطء، ووجهه يتعرق جدية. طأطأ قليلاً، واكتشف أن للكرة ذيلاً. سحب الذيل، وإذا هو شريط كهربائي. أولجه في المأخذ بنفخة افتخار ما لبثت أن خفتت، إذ أحس أن الثلاثة ينتظرون منه فهماً مماثلاً في تشغيل الجهاز. ضغط زراً لا على التعيين، فارتد إلى الخلف جدار صغير وكشف عن موضع الكاسيت.

لم يعرف كم شرب من كأسه قبل أن تخضع له أسرار الكرة. وضع شريطاً وأداره فصدح بعد قليل صوت أم كلثوم. أسرع يوقف الصوت والتفت إلى بديع: « بابا، يا ترى تقدر على حمل المسجلة؟ » هرع بديع إلى الكرة واختطفها عن الأرض بسهولة أوحت بخفة وزنها. قال شداد: « عظيم. احمل المسجلة إلى جدك، وقل له هذه هدية من البابا، وعلمه كيف يستعملها ».

كانت زهرة قد غادرت البهو. جلس على الكرسي أمام الكأس، وراح يبرم بوزه وعينيه ليضحك مريم. « تشربين وسكي؟ هذا مشروب الأكابر. خذي ». وضع حافة الكأس بين شفتيها. كشرت مريم، وخرج صوت من حلقها. « طعمها مر يا بابا، ما؟ لم تتعودي على الطعم المر ». وشاهد زهرة من طرف عينه. اختطف مريم من خصرها. ضحكت وارتخت بين يديه. رفعها. رماها إلى الأعلى. تلقاها. رماها أعلى. ذعرت. « خفت يا بابا؟ » لفت ذراعيها حول عنقه. « عيب على بنت شداد الخياط أن تخاف. أبوك لا يخاف ». وضحك بلا سبب.

وصلت زهرة إلى جوارهما، وهي تنفض الكراسي. قال شداد بحيوية: « على مهلك. ملأت الوسكي غباراً ». قالت هي بوداعة سوداء: « ماما، روحي شوفي بديع، إذ كان يلعب مع جده، العبي معهما ». قال شداد: « خذي الكاسيتات، خذي الكاسيتات ».

نبرت زهرة بعد خروج مريم: ــ الآن قل لي، ما هذه البلاوي التي تركبها على رأسي؟

تناول كأسه وأجاب بلا اكتراث: ــ ما هذه البلاوي؟

لم تستجب لمناورته، ومضت مباشرة: ـ الرشوة.

ـ هذه هدية ليست رشوة.

ـ اسمع شداد. بلا لف ولا دوران. هدية يعني رشوة. لماذا تقبل الرشوة؟

ـ تريدين أن تفهمي، بلا صراخ ولا عصبية؟

ـ نعم. بلا صراخ ولا عصبية. إذا كنت صريحاً.

ـ سأكون يا ستي صريحاً. كلهم يشتغلون بالتهريب. القوانين الموضوعة ضد التهريب، مقصود بها الناس الذين ليسوا في الدولة، ولكن يملكون رأس المال. شفت كيف؟ ناس معهم السلطة، وناس معهم المال. الاتفاق تام. الذين معهم مال مضطرون للذين معهم سلطة، لكي تمشي أعمالهم. والذين معهم سلطة مضطرون للذين معهم مال، لكي تتنفس جيوبهم. صار القانون الطبيعي هو مخالفة القانون المدني. فهمت كيف؟

ـ لا لم أفهم. لم تقل لي لماذا أنت ـ مضطر لقبول الرشوة.

ـ أنا عملت حسابي وقلت، أنا ماذا أنا؟ مجرد برغي في هذه الآلة. إذا تصلبت كسروني. هناك عشرات ينتظرون تسريحي لينقضوا على وظيفتي الاستراتيجية. إذا رموني برّه، من أين نعيش؟ من يستخدم عنده واحداً عمره فوق الأربعين؟ وسيشهرون بي حتى لا يعود أحد يقبل بتشغيلي. قلت لحالي، العشب ينحني أحياناً للريح. وأنا معي رسائل من جميع المسؤولين، حتى إذا صار شيء، برّأت ذمتي. والهدايا التي أقبلها، لازم أن أقبلها. وإلا صرت مهزأة. مراقب تفريغ سفن، ويصر على أن يكون شريفاً، هذا حمار وليس شريفاً. فهمت كيف؟

ـ لا لم أفهم. أنت تسهل عمليات تهريب من جميع أنحاء العالم وتقول أنا بريء لأني لم أقبض. ما شاء الله. ما شاء الله.

ـ يا عمي، الإنسان ليس رقماً تضيفين إليه رقماً أو تنقصين منه ويظل الحساب مضبوطاً. مؤثرات الدنيا كلها تصب على رأسه. وهو يخاف أيضاً، ويتردد، وينشغل بألف شغلة. أنا هكذا مرتاح. لا عين تشوف ولا قلب يوجع.

ـ أنت تخاف يا شداد؟

ـ لا، لا أخاف. طبعاً أخاف! الناس كلها تخاف.

ـ لماذا لا يخاف الذين معهم سلطة ومعهم مال؟

ـ سؤال غريب. لأن معهم السلطة والمال.

ـ طبعاً. شداد، إما أن تمشي معهم، حتى يصير معك سلطة ومال، أو مال بس، وتقدر أن تحمي نفسك؛ أو اترك هذه الشغلة.

ـ أف!

ـ نعم. ليس هناك نصف رشوة. ولا نصف تهريب. ولا نصف سرقة. هم مهربون وأنت مرتش. هذا هو الوضع. إذا دارت الدورة تكون أنت أول من يأكلها. لأنك أنت الضعيف. إذ أرادوا أن ينتقموا منك، جاءوا بمئة شاهد أنك قبضت رشوة. وسيقبضون عليك لأنك أخذت من الجمل أذنه بس. أنت مجنون.

ـ أنا كلي عقل. أنت تحاكمين الأمور كأنها مرسومة بالمسطرة والفرجار. هذا عصر بيكاسو، حبيبتي، عصر

بيكاسو. شوفي لوحة من لوحاته. هل تقدرين أن تعرفي أين أنت؟ الشاطر في هذه الأيام هو الذي يقدر أن يؤمن على خطواته، خطوة خطوة، وليس عشرين خطوة دفعة واحدة. أنا غير قادر على خوض هذه المعركة.

ـ هذا تشويه لأفكار صديقك خالد. اسمع شداد، إذا كنت مضطراً لتمرير التهريب، اترك شغلك. يوم وراء يوم، تصير نفسيتك نفسية مهرب ومرتش. اترك الشغل.

ـ مستحيل. سأبقى عاطلاً عن العمل. أي شغلة جديدة أبدؤها تحتاج إلى مئة ألف.

ـ إذا كنت عاطلاً عن العمل أحسن من أن تكون في السجن. لأنك إذا دخلت السجن ضعت وضيعتنا نحن. لأن أحداً في هذه المدينة الشريفة لن يمد لنا يداً. وتدور الدورة ويصير بأولادك مثلما صار بأولاد مريم.

لم يجب. ولم ينظر إليها. ظل ممسكاً بكأسه، شارد النظرة على الأرض. فجأة قبضت على ذراعه وهزته هزتين:

ـ اترك هذا الشغل ونجنا من الخوف.

نبر بعصبية: ـ أنت لا تتحملين الخوف، أنا أتحمله. أنا الذي أهرّج، وأضحك لناس أحتقرهم، وأقلق، أنا الذي أتحمل كل شيء. لأحميك أنت والصغيرين. لتبقى حياتنا هنا سليمة. هذا موضوع لا يخصك.

ـ وأنت الذي يبيع أخلاقه؛ لماذا لا تقولها؟ أنا لا أريد هذه الحماية. مثلك مثل عبسي والدكتور وآباء ثائر ونضال ومن لا أعرف. ينهبون البلد وينصبون تماثيل للمبادىء والشعارات. مثلك مثلهم.

ـ اسمعي زهرة. الذين مثلنا ليسوا سادة هذا الزمان. يا للسخف. لم يكونوا سادة أي زمن. التاريخ كله ملك لطبقة حاكمة. ليس في أي بلد مواطن واحد حر. ماذا أقدر أنا أن أفعل؟ أنا لست بطلاً. إذا كان لساني طائلاً، هذا لا يعني أن يدي طائلة. أنا محكوم. الدولة، الدولة هي كل شيء. افهمي هذه النقطة يا شيخة، وأريحيني.

ـ ونظل نعيش في خوف؟

ران صمت. كان شداد مطرقاً، ورأس زهرة مشرئباً إلى الأمام بقوة سؤالها الأخير. نبس بشرود:

ـ نظل نعيش في خوف. المهم ألا يؤثر هذا الواقع على حياتنا نحن. حتى الآن لا فائدة. من يعرف؟ يمكن أولادنا في المستقبل أن يفعلوا ما لا نستطيع نحن. يمكن أن يفعلوا شيئاً. حتى إذا راح أولادهم إلى الفرن اشتروا الخبز بسهولة. وإلى المدرسة أخذوا علماً صحيحاً. وإلى الطبيب تلقوا معالجة مجانيـة. إذا احتجـوا على خطـأ، سمعت أصواتهم. على الأقل كان لهم حرية الاحتجاج. وإذا التفتوا رأوا حديقة جميلة، بدلاً من عيون تترصد أفكارهم. إذا لعبوا لعبوا بلا خوف. وإذا أحبوا أحبوا بلا خوف. وإذا ضحكوا ضحكوا بلا خوف..

كان قد نسي نفسه تماماً ومكانه، عندما صمت فجأة بعد سرحة طويلة. والتفت إلى زهرة بعينين كسيفتين تستجديان قبولاً إنسانياً بسيطاً، فرأى الدمعة لامعة في عينيها.

خلال أيام قلائل علم الورثة من مديرية السجلات العقارية ما المقصود بتصحيح الكنية: يجب على كل وارث أن يكون «السنديان» ـ بأل التعريف ـ إذا شاء أن تصدر ورقة طابو باسمه؛ وإذا تقاعس واحد منهم، أفسد على الآخرين ملكيتهم للميراث، وعطل اجراءات تثبيتها. وكان على كل واحد أو عائلة استخراج بيان قيد من مديريات السجل المدني.

وخلال أيام أقل صارت هذه الضرورة مثاراً للتعليقات والتندرات. لقد قبلت زهرة بأن الحياة ـ على الأقل حياتها هي وشداد ـ يمكن أن تعاش وتستمر على أمواج الخوف، شرط أن يكون الملاح ماهراً. لذلك كان أول

تعليق لها على النبأ، أن العودة إلى السنديان لا تعني سوى تعميم الخوف ونقله إلى الجذور من أصلب وأقوى شجرة في الطبيعة؛ وليس العكس. وبالطبع، كان رأي اسماعيل ـ وهو السنديان الثابت الوحيد ـ هو العكس. ألم يقل ان هذا الكنز علامة؟ وها قوله يتأكد في دفع فروع العائلة إلى الانضواء تحت اسمها العريق. لكن قصر النظر لا يتيح للآخرين أن يروا في تصحيح الكنية شيئاً سوى الفكاهة أو تضييع الوقت، غير مدركين أنه لكي يرث المرء هذه العلامة عليه أن يرجع إلى أصله، أنه لكي يكون مستقبل لا بد من إزاحة التراب عن كنوز الماضي، أنه لكي يصيروا أقوياء يجب أن يحملوا اسماً واحداً يكون له وقع العزة أينما ذكر.

تنفست خولة الصعداء. قليلة هي الأنباء الاستثنائية التي تنتشلها من نهر الأيام، تضعها على رابية عالية وتتركها للشرود عبر معاني الحياة. تذكرت شيوخ السنديان وتاريخهم الموغل. وأحست أنها فعلاً قد صارت أكرم في نظر نفسها. لقد دار الزمن وأرجع كل شيء إلى نصابه. شيء واحد فقط كان ينغص عليها هذه النشوة الروحية، هو عناء المحاكم ونفقاتها. والطلبات المتكررة لقيد النفوس، كأن شيئاً سيحدث وتترك خانتها إلى مكان آخر. ورغم ايضاح اسماعيل لها أن العودة إلى الاصالة تتطلب جهداً ومالاً وليس مجرد التمني، لم تستطع سوى أن تتمناها بلا نفقات ولا تعب.

وكان محمد علي أسرع الجميع إلى التقاط المزية الخاصة للعودة إلى حرم السنديان: هو وعبسي سيتمكنان الآن أن يشتريا الحصص بسهولة، وخاصة بعد أن يدفعا نفقات المحكمة من جيبهما. وكانت حبرية موافقة تماماً. بل انها عرضت على اسماعيل، عندما زارها وزوجها ليحثهما على البدء في تصحيح الكنية، أن يبيع حصته سلفاً ويرتاح من دوخة المحاكم والدوائر العقارية. وتطلعت إليه بأسى مشفق، خائفة من أنه بدأ يسير على درب الشيخ بهاء، عندما دمدم مصعوقاً: «أنا أبيع! أنت اليوم خارج عقلك يا بنت عمي، لا تؤاخذيني. السنديان يزيدون ثروتهم، لا يبيعونها». وردت هي باندهاش لا يخلو من الاحترام: «بس يا أبو ابراهيم أنت ستبيع للدولة!» ورد كأنه لم يسمع عبارتها الأخيرة: «أنتم طحنت مصاعب الحياة سمو روحكم، فعدتم لا تفكرون إلا بالناحية المادية». لكنها أصرت: «والدولة؟ سنبيع للدولة غصباً عنا، إذا لم نبع لمحمد علي وعبسي». فوجىء. نظر إليها مفكراً: «لمحمد علي وعبسي!» وتابعت بلا ابطاء: «إذا كانت الأرض باسمهما يقدران أن يطلعا منها ثروة كبيرة، لنا كلنا». ورد هو باستحسان هادىء: «والله فكرة. أنا أبيع لعبسي، إذا لزم الأمر».

وإذ التقى شداد بعد يومين، نعى له تردي حبرية في مهاوي المادية وافتقارها إلى حس السنديان السليم. ورد شداد مشفقاً: «ما تقوله حبرية صحيح، يا أبو ابراهيم. كلنا سنبيع للدولة. وإذا لم تبع أنت عطلت علينا المشروع كله. وفوق هذا، انتبه جيداً، سنبيع للدولة، وستأتي الدولة بشركة أجنبية لتستثمر الكنز. لأننا نحن لا خبرة لدينا لاستثمار أرضنا». وجمجم اسماعيل محبطاً: «إذن نبيع لعبسي، أحسن».

سأله شداد بفضول: «عبسي يريد أن يشتري؟» أجاب: «هو ومحمد علي. هكذا قالت حبرية. هو سيستثمر الأرض، لمصلحتنا جميعاً». «وكيف يحصل على الأرض؟» «ولو، ابن عمي. عبسي هو الدولة. ألا تعرف أخاك؟».

لكنه مع ذلك أحس بمدى من الكآبة، بتيارات خفية تنسل منه وتعلو. فجأة أدرك شيئاً خطيراً لم يفطن له من قبل: إنه لن يكون حراً في الاحتفاظ بميراث أجداده. التفت إلى شداد بعجز لم ينتبه له وقال: «وأنت كيف تقبل بهذا الوضع؟ كيف نجبر على أن نبيع ميراثنا؟» ضحك شداد ضحكة صغيرة: «يا أبو ابراهيم، أنا لست حراً في الاحتفاظ بنفسي، فكيف بميراثي». «بس.. لازم أن نفعل شيئاً!» «عبسي يفعل. أما هكذا قلت؟ يحاول رفع يد الدولة عن الأرض، لنستثمرها نحن. لكن عبسي لم ينجح حتى الآن، لأن البلد كلها ملك للدولة، لا أرضنا وحدها».

فجأة هز اسماعيل رأسه مطمئناً: ـ طالما أن الأمر بيد عبسي فلا خوف.

وكان عبسي قد وجد طرفة خاصة في ضرورة تصحيح الكنية. شيء واحد أثار خياله بقوة: لكي يصحح كنيته عليه أن يقيم الدعوى على جده، وربما جد جده، متهماً إياه، أو اياهما، بانتحال كنية أخرى، ومطالباً المحكمة بإلغاء الانتحال وتثبيت الكنية الأصلية. قال لفدوى ان الدعوى مشروعة تماماً وضرورية. وليت أن الأمور الأخرى ممكنة على هذا النحو البسيط ـ رفع دعوى واستصدار حكم ـ إذن لكانت الثورة سيرورة سهلة تنجز أهدافها عبر المحاكم. دعوى على الحكّام العرب بأن دولهم ترسخ تجزئة الأمة العربية، واستصدار حكم يجبرهم على تشكيل حكومة عربية واحدة، واصدار قيود نفوس وهويات باسمها. دعوى على الامبريالية وإسرائيل، واستصدار حكم بترحيلها من جميع أصقاع الوطن العربي. دعوى.. ان الدلالة الكبرى لهذه الدعوى الصغيرة، هي أنها تعبر تماماً عن محاولة الثورة وصل الماضي المجيد بحاضر يتابع اشادة الامجاد. غريبة قصة الميراث هذه، قال لفدوى، «قصة مليئة بالمعاني لمن يتأملها». قالت: «وتصحيح الاسم، هل سيعني تصحيح الأفعال؟» أجاب بثقة: «ضروري».

لم يعد محمد علي يرى الأمر هذه الرؤية. لقد أزعجه التصحيح. الريحان نبات حسن المنظر، غض، طيب الرائحة؛ والسنديان، ما السنديان؟ شجرة عجفاء قبيحة، لم يهتز يوماً لمنظرها. وقالت خولة: «لا يا دكتور. هذه لا حق لك فيها. السنديان طول عمره ممدوح ومرغوب. وأنتم سميتم الريحان لأن أجدادك وأباك، الله يرحمهم، كانوا يتولون الصلاة على الموتى وشك الريحان حول قبورهم». وضحك هو ضحكة ضخمة: «أنت تثيرين النعرات العائلية، يا أم حيان».

كانت سعيدة سعادة خاصة. فبعد تصحيح الكنية، يأخذون قيود نفوس جديدة إلى الدوائر العقارية ويتسلمون بدلاً منها أوراق الطابو. وعندها ستبادر فوراً إلى شراء مقلاة كهربائية تريحها من نصف عناء الطبخ. قالت لحيان منتهرة: «شفت؟ أنت ضد الارث. لكن الارث يجيء بالحضارة إلى قلب بيتنا». وعادت تتأمل البيت الذي ستقلبه عشرون ألف ليرة رأساً على عقب، وتجعله جنة لساكنيه.

في تلك الآونة أخذ صبرها ينفد. وذات مساء، رفعت سماعة الهاتف وأدارت الرقم، وبكل ما لديها من مشاعر الأمومة انهالت على عبسي زجراً وتقريعاً. ورفضت أن تقفل الخط إلا بعد أن قطع على نفسه وعدا، مدعماً برحمة الأجداد وحياة الأولاد، أن يكون وفدوى عندها بعد يومين لحفلة العشاء الموعودة. ومضت إلى غرفة حيان. فاجأته بالعناق والقبل، وهو منكب على أملية طبية. قالت: «حبيبي، أما تزال تحب خالك شداد؟» نظر إليها بارتياب وصمت. ثم قال: «يعني بودك منه شيء. وأنا المبعوث إليه». قالت بابتهاج: «كل عمرك ذكي. ستذهب إليه، وتقول له الماما تدعوك أنت وزهرة، إلى عشاء فاخر يوم الأربعاء، وإذا كان عندك لتر أو لتران، الذي عندك، هاته، وتعالا من دون الأولاد». «من دون الأولاد؟» «نعم. وخالك عبسي سيأتي من دون الأولاد. أنا لا أطيق ضجتهم». «وأنا مع من سأقعد؟» «تقعد معنا! ألا نعجبك؟» «تعجبونني، لكن أحاديثكم لا تعجبني». «ما لها أحاديثنا؟» «أحاديث برجوازيين عيونهم فارغة..» «اسكت، اسكت. قم اركب دراجتك، وخبر بيت خالد شداد».

رن جرس الهاتف فالتقط السماعة. «نعم من تريدين؟.. إلى آخر الكليشة من كلام بنات الشوارع.. لو يعرف أبوك بس كم أنت منحطة.. فشرت أنت لن تحضري.. البنات البذيئات غير مرغوب فيهن.. الماما إلى جانبي تسمع كلامك (وضحك) إذا توسلت إلي أحاول اقناعها.. أن تبوسي يدي مثلاً.. على صباطي.. اخرسي ولا تعطليني أنا عندي مشوار.. عند عمك شداد.. فشرت، أو تعالي، بس خذي أذناً من أبيك..».

ثلاث شعرات أخرى على الأقل شابت في رأس خولة، وهي تنصت إلى الحديث:

ـ أنت وبنت خالك تحكيان بهذه اللغة!؟

ـ ما لها هذه اللغة؟ اللغة البذيئة تريح النفس.

ـ وتقول لبنت خالك بنت شوارع! حيان، ممنوع من الآن فصاعداً، أن تحكي معها كلمة واحدة بالتلفون. وبغير التلفون.

ـ لا ماما. هذه ستسمحين لي بها. ليس من حقك أن تقرري لي مع من أحكي.

ـ أتركك إذن تحكي مع بنت خالك كلام شوارع؟

ـ أنا ما ذنبي؟ هي لغتها هكذا. وإذا لم أجبها تطاولت علي.

ـ سوسن لغتها هكذا؟ مستحيل. أين أبوها؟

ـ أبوها في الحفلات والمشاريع. بنات يحتجن إلى حياة اجتماعية. وهو يحبسهن في البيت مثل الفئران. الناس من دون حرية تنحط، أخلاقياً وجمالياً. لو كان عندك بنت أما تسمحين لها بحياة اجتماعية؟

ـ طبعاً. لماذا يتصرف عبسي هكذا؟

ـ الآن أمشي إلى بيت خالي شداد راضياً.

كان شداد وزهرة جالسين أمام البيت في ضوء القمر الشتوي. هو مسترخ على كرسي ساقاً فوق ساق. وهي على كرسيها متكئة بذراعيها وخدها على منكبه. كانا صامتين، ينظران في المدى.

قال شداد بخفوت: ـ قولي لأبيك يروح عند رمضان وبديع، ويقول لهما انتبها.

نبست هي: ـ من أي شيء؟

ـ لا أعرف تماماً. لكن الحذر في الميناء شديد. وحركة الناس فيها شيء.

التفتا معاً إلى حيان المقبل على دراجته. راقباه وهو يدحم بها البوابة القصبية ويتقدم، ثم يكبحها أمامهما. نهض الاثنان، ونزل هو. فرد يده إلى جانبه وأهوى بها على يد شداد الثابتة، بلا كلام. ثم صافح زهرة: «كيفك، امرأة خالي». ولم يجب بشيء على دفقة الترحيبات. قدم له شداد كرسيه فرفع يده:

ـ أنا راجع فوراً. جئت أوجه لكما باسم الماما دعوة رسمية لعشاء فاخر يوم الأربعاء، مع بيت خالي عبسي، ويكون المشروب فيها على حسابك. لتر أو اثنان، وتكتمل سعادة الماما بكم.

ـ كرمى لعيني أمك سأجلب وسكي وشمبانيا. بس، بشرط أن تشرب هي بيرة.

ـ واصل. بالحرف. السلام عليكم.

تبعه شداد وهو ينطلق بالدراجة واستوقفه. سارا معاً وخرجا من البوابة.

ـ أما زلت تجتمع مع أولئك الشباب؟ وصديقك المثقف الثوري؟

ـ بلى. تريد أن أبلغهم شيئاً؟

ـ لا. انقطع الآن عن الاجتماع بهم. أسبوعين أو ثلاثة.

ـ توجد حركات مضادة؟

ـ توجد. وتعرف. لا داعي لترويع أمك. خاصة وأن امتحانك قريب.

مساء الأربعاء أصر محمد علي على لقاء عبسي. اقترح تأجيل العشاء الى موعد آخر، تأخيره ساعة أو ساعتين على الأقل. وكان عبسي حازماً: «محمد، تتكلم في وقت ثان.. عند خولة.. سلامات.»

فتح حيان الباب على مداه وحياها بابتسامة. دخلت فدوى وعبثت يدها بشعره. ودخل عبسي: ـ أين أمك؟

ـ في المطبخ. كلهم في المطبخ؟

صاح: ـ يا خنزيرة! يا جانحة! لماذا لم تفتحي أنت الباب؟

دخلا الى المطبخ. وتبودلت التحيات. وقفت فدوى بين زهرة وشداد، تعاتبها لانقطاع الزيارات. وهجم عبسي على خولة بالكلمات:

ـ أنا أدق الباب، وأنت لا تفتحينه، متى صرت أكابر، أريد أن أفهم.

ـ كل عمري. وبعدئذ أنا أهيء لكم الطعام.

ـ أنا لست جائعاً. سمكة واحدة تكفيني.

ـ ما شاء الله! كل الذي عندي سمكتان.

ـ العمى في عينك ما أبخلك. لو كنت جائعاً، ماذا سيأكل شداد وزهرة وفدوى وحيان وحضرتك؟

ـ نشكر الله أنك شبعان.

ـ ما يدريك؟ قد أجوع بعد قليل.

فتح شداد البراد وتناول زجاجة شمبانيا: ـ يا الله ندشن سهرتنا.

وانفلتت سدادة الزجاجة فلطمت السقف وهوت. وأسرع يضع كأساً تحت الزجاجة ليلتقط فائر المشروب. وخرج الثلاثة الى البهو. قالت فدوى:

ـ أنا أبعث لك السيارة في أي وقت. بس قولي متى.

ابتسمت زهرة مرتبكة، ونظرت الى شداد، ثم الى فدوى:

ـ وإذا كنت مشغولة؟

ـ تأتي السيارة في وقت ثان. لا ترددي. لأنك إذا لم تجيئي جئت أنا.

ـ أي! يكون أروح. الصراحة، الدخول الى بيتكم يدوخ.

أقبل عبسي يحمل قاربين من السمك والفراريج، وبعده خولة بقاربين مماثلين. وضعاها وعادا. قدم شداد كأس شمبانيا لفدوى فتناولته، وآخر لزهرة فتلكأت، ثم تناولته. وضعته أمامها وقالت:

ـ إذا جئت في الصباح تكون الدنيا جميلة. نجلس في الجنينة ولو كان مطر. وخاصة في هذا الوقت. الأشجار والزهور برعمت. نضع كرسيين عند النباتات، ونحكي على عبسي وشداد مثل جداتنا.

ـ ممنوع، تحكيان علينا بلا فرصة للدفاع عن النفس. أين العدالة؟

ـ نحن نحكي عليكما في حالة دفاع عن النفس. ما رأيك زهرة؟

ـ لا تردي عليه. أنت تعالي وبس.

أقبل عبسي وخولة مرة أخرى، ووضعا حمليهما على الطاولة:

ـ قوموا يا تنابل. قوموا اشتغلوا.

قال شداد: ـ نحن ضيوف. نحن لا نشتغل.

ـ وأنا خدام أبيكم لأشتغل؟

ـ أنت كبير المعلاق. اقعد، واشرب وسكي.

ـ وهذه الخنزيرة، من يساعدها؟

ـ لا حبيبي. لا تساعدني، ولا تقل لي خنزيرة.

ارتمى عبسي على الصوفا: ـ هه. الله يلعنك ويلعن الذي يساعدك.

هيأ له شداد كأس وسكي ووضعه أمامه. لم يتناوله. وعادت خولة الى المطبخ.

حثته فدوى: ـ اشرب.

ـ أنا زعلت.

والتفت الى زهرة: ـ تشربين شمبانيا، يا امرأة أخي؟

ـ بعد اذنك طبعاً. لو كان عرق تين كان أفضل.

ـ عرق التين قطع نادر. وهذا الولد يشرب وسكي.

مالت فدوى نحو زهرة وهمست في أذنها:

ـ يحيرني أين تختفي طفولة عبسي في الأوقات الأخرى.

وهمست زهرة في أذنها: ـ أنا أسأل لماذا لا يستجيب شداد عندما يتحلل عبسي من آفاته الطبقية

عادت خولة بالصحون وبقية الأدوات، ووزعتها. ووضع كل لنفسه بعض الطعام، إلا فدوى التي كوم لها شداد في صحنها حجماً هائلاً من صنوف المقبلات. لم تنتبه، وظلت ممسكة بكأس الشمبانيا عند فمها دون أن تشرب. صاح عبسي وهو يرفع كأسه في الجو: «في صحتكم، وصحة خولة على رؤوسكم.» هتفوا وشربوا. وشربت فدوى. ووضعت كأسها وبدأت الأكل.

بعد قليل انتبهت الى صمتهم وسكونهم: «ماذا؟» وضحكت خولة فضحك الباقون: «أنت تأكلين من صحن شداد، يا حبيبتي.» شهقت «مو معقول!» وضحكوا من جديد. قال عبسي: «تعرفون، فدوى حمصية. واليوم الاربعاء. لا تؤاخذوها.» صاح شداد محرجاً: «حيان! تعال كل.»

قال عبسي: «يا الله يا فدوى. قولي لنا، لماذا يصير عقلكم كذا مذا، يوم الاربعاء؟

ـ هذه نعمة من الله. ماذا تظن؟

ـ كيف؟ نعمة من الله!

ـ إذا صار عقل الواحد كذا مذا، يخلو قلبه من الهم. وبعدها، نحن لنا يوم في الاسبوع؛ غيرنا له ستة أيام.

كان حيان قد أقبل وجلس، وشارك في الضحكة الأخيرة الصاخبة. وقال عبسي، مكتفياً برد جزئي:

ـ غيركم مهما صار له، لا يأكل من صحن غيره. وخاصة هذا الولد المسكين. شوفي صحته. بالكاد عليه رطل لحم.

قال شداد مبتهجاً: ـ عزيزي، أنت ورطت حالك؛ لا تتحول إليّ.

قالت خولة: ـ كأسك عبسي! يا أعظم أخ ورجل في الدنيا!

قالت شداد: ـ خذ هذه. الحمد لله على جبران خاطرك.

اختطف حيان كأس شداد ليشرب النخب معهم: ـ أسوة بامرأة خالي فدوى.

شربوا النخب. وقال عبسي: ـ وأنت أيضاً صرت حمصياً؟

قال حيان: ـ أنا حمصي على طول، إذا كان على المائدة وسكي.

اغتنمت خولة الفرصة لتعلن عن فضول صغير:

ـ أخي شداد، ألا يخطر لك، يعني مثلاً، في يوم من الأيام، أن تخيط لنفسك بدلة، تخفي بها عظامك؟

قال وهو يلتهم ملعقة سلطة: ـ معلوم. لكن ولا خياط في البلد قبل أن يخيط لي بدلة.

ـ لأي شيء؟

ـ كل واحد منهم يظنني مجنوناً، لأني أريد بدلة بلا جيوب.

ـ بدلة بلا جيوب! طبعاً سيظنونك مجنوناً.

ـ لماذا الجيوب؟ كلفة زائدة. طالما لا مال ولا دفتر شيكات.

ـ أعوذ بالله منك.

انصرفوا الى الطعام فبطل الكلام. وبعد دقائق نهض عبسي: «دائمة، يا ست خولة.» ومضى الى الهاتف. قالت خولة: «صحتين. كل من صحني يا ماما. تريد ثلجاً؟» وقال عبسي: «آلو! محمد. تعال واشرح صدرك معنا.. في بيت خولة طبعاً.. احتفالاً بعودة الأبناء الضالين الى حظيرة العائلة.. لا تتأخر.»

قالت خولة: ـ شداد، الحنفيات عندي تطلع منها أصوات، أحياناً، كأنها أصوات رشاش.

قال عبسي وهو يجلس: ـ لأنها منزوعة مثل شخصيتك الكريمة.

قال شداد: ـ متى تطلع الأصوات؟ في أي وقت؟

قال حيان: في الليل.

ـ هذا سببه ضغط الماء. لأن الاستهلاك في الليل يقل، وتزداد كمية الماء المندفعة في الأنابيب.

قال عبسي: ـ أنت غلطان يا أخ. الأصوات سببها أن الأنابيب غير محكمة التثبيت في الجدران. سائبة في الهواء مثل صاحبتها. لذلك عندما يندفع فيها الماء تهز وتطلع منها الأصوات.

ـ التمديدات الصحية، اتركها لي، يا معلمي. أنا اشتغلت فيها سنة.

قال عبسي وهو يتناول كأسه: ـ اشتغلت فيها سنة، لا يعني أنك تفهم آليتها.

قال شداد باسماً: ـ ولكن يعني أنك أنت تفهمها.

جرع عبسي بعض الوسكي: ـ طبعاً. هذه مسألة بديهية. كل ما ليس ثابتاً راسخاً، عرضة للاهتزاز والأصوات.

ـ أظن أنك في مسألة التمديدات الصحية غلطان. غلطاً محزناً.

ـ أبداً. أنا لا أغلط. وهذه مسألة بديهية.

ـ الأصوات تطلع، بسبب ضغط الماء.

ـ أبداً. تطلع لأن الأنابيب سائبة.

ـ يا عمي هذه شغلتي. بودك أن تعلمني شغلتي؟

ـ طبعاً. إذا كنت تفسر تفسيرات خاطئة، أنا مضطر لأن أصحح لك.

ـ الأصوات تطلع بسبب ضغط الماء: تفسير خاطىء؟

ـ نعم. لماذا لا تطلع عندنا؟

ـ أما أنك إنسان غريب. أنت شغلتك العسكرية. ما الذي يجيء بك الى التمديدات الصحية؟

ـ لماذا يزعجك أني أفهم في كل شيء؟ تقبّل الحقيقة بروح موضوعية. لماذا لا تطلع الأصوات عندنا؟

ـ لأن استهلاك حارتكم للماء ـ حارة الأكابر ـ لا يقل في الليل كثيراً. ولأن السعة المائية المعطاة لبيوتكم أقل بكثير من السعة في بيوت شارع انطاكية، القديمة نسبياً، والتي لم تخضع لخطة الدولة في تخفيض الساعة المائية بسبب كثرة الاستهلاك. بالتالي، الضغط عندكم أقل بكثير.

ـ أبداً. ثبّت الأنابيب، وشف النتيجة.

ـ الحقيقة أنك انسان مكابر الى درجة. حتى الخطأ البسيط لا تعترف به.

ـ أنت انزعجت لأني برهنت على جهلك في شيء تقول أنت مختص به.

ـ يا عمي هذه مسألة لها قوانين فيزيائية، وأنت تتكلم فيها كذا مذا.

ـ أنا أم أنت. مسألة بسيطة عملت منها فذلكة كبيرة. لتثبت أنك فهمان.

ـ رحم الله أباك الذي كان يقول، أعوذ بالله من فلاح إذا تمدن. لماذا لا تطلع الأصوات في النهار؟

ـ هنا فعلاً يأتي موضوع الضغط. ولكن لو الأنابيب ثابتة، لما طلعت الأصوات، لا في الليل ولا في النهار.

ـ ما شاء الله على عبقريتك. مفخرة. هنيئاً للذين يعيشون معك.

ـ أما أنا فأرثي للذين يعيشون معك.

صاحت خولة بهستيريا مفاجئة: ـ شداد! عبسي! جننتما؟ تتعاديان لأجل هذه المسألة السخيفة؟

كانت جاحظة العينين ممتقعة الوجه. كان واضحاً أنها بوغتت بالحديث مباغتة منعتها من التدخل فيه قبل احتدامه. أدارت رأسها بين الأخوين فاغرة الفم. وخرج صوتها متحشرجاً:

ـ معقول؟ أنتم اخوة. لم يبق غيركم. من أين هذا العنف؟ ولا بين الأعداء يصير هكذا. شداد. ماذا جرى لك؟

قال شداد بسخرية دفاعية: ـ لأني الأخ الأصغر، يجب أن أكون مخطئاً. هكذا دائماً. نظل تحت حكم الأساطير. وفرضاً كنت مخطئاً؛ يمكنه أن يقول رأيه بشيء من المراعاة والذوق.

قال عبسي: ـ مراعاة وذوق معك أنت؟ منذ البداية وأنت تتكلم بحقد، بنية مبيتة لجرح الشعور

قال شداد: ـ تفضلي. لست فقط مخطئاً، وأيضاً لا أستحق المراعاة والذوق.

ـ لا أتصور أبداً. أعوذ بالله. كارثة. كارثة حقيقية. وفي يوم احتفالنا.

توقف كل شيء إذ رن الجرس. وكانت وجوههم تتخلى بسرعة عن بقايا الفرح، وتتعبأ وجوماً منذهلاً

وأمارات انهيار. لم يعد أحد الى طعامه. وكان شداد مطرقاً، مسترخياً. وراحت زهرة وفدوى تتأملان عبسي: الأولى تسأل نفسها كيف تأمن له، والثانية كيف تفهمه. وكان سخط خولة من شداد يتزايد حتى الحزن. وكان حيان مطرقاً. عبسي وحده التفت نحو الباب.

وقف حيان ومشى ببطء الى الباب ففتحه. ودخل صوت محمد علي قبل دخوله هو:

ـ آل السنديان كلهم هنا؟

أجاب حيان بابتسامة واهنة: ـ كلهم. تفضل.

سلم عليهم ببشاشة: ـ يبدو أنكم شبعتم أكلاً فارتخت أجسامكم. ماذا أطعمتهم يا أم حيان؟

مضى حيان الى غرفته. وقالت خولة: ـ شغلات بسيطة. تفضل.

ـ شكراً يا أم حيان. أنا والله تعشيت.

جلس الجميع. التفت الى عبسي: ـ سمعت بالسفينة؟

رفع السؤال الوجوه كلها الى سائله باهتمام مقصود. ونهضت خولة الى المطبخ لتحضر كأساً.

قال عبسي باهتمام كبير رخو: ـ أي سفينة؟

ـ سفينة يونانية جنحت هذا الصباح. ورست مقابل حارة الرمل.

ـ ولم يستطع أحد إنقاذها؟

قال شداد: ـ حاولنا إنقاذها وما أفلحنا. إمكانياتنا ضعيفة.

قال محمد علي: ـ أي. اتركوا السفينة جانباً. في صحة آل السنديان.

ورفع كأسه. رفع الجميع كؤوسهم. بصمت. وأعين انصبت على الكؤوس. مضى شداد الى المطبخ. وعاد بزجاجة شمبانيا ثانية: «هذه خلقت للانخاب.» وانفلتت السدادة في الجو حاملة صوت الفرقعة. وتدفق السائل. «خولة خولة، هاتي كأسك.» والتقط بالكأس السائل المكبكب.

رن جرس الباب.

التفتوا كلهم بصمت متجدد ودهشة. خرج حيان مهرولاً. ثم وقف: «ماما، افتح الباب؟» «اعرف من بالأول.»

دخل اسماعيل السنديان. كان يرتدي بدلة ناصلة كوجهه، تهدلت على جسده المتهدل، وربطة عنق عقدتها بحجم الكستبان، وقميصاً ضيق الياقة، وصديريا لم عليه الكي، وحذاء نظيفاً. شع في عينيه بريق مفاجىء. كأن حلماً قد تحقق له على غير توقع. صافحوه وأحاطوا به. ومشى الهوينى الى البهو. توقف مستنكراً: «تتعاطون المنكر!» قال عبسي: «اقعد بالأول. خولة ستأتيك بكأس عصير.» التفت الى شداد: «وأنت أيضاً؟» أجاب شداد باسماً: «وأنا أيضاً.»

كان مجيؤه خلاصاً لزهرة ونصف خلاص لفدوى، من حصار رأتاه وشيكاً إذ تحولت السهرة بمجيء محمد علي نحو أحاديث لن تحباها. كذلك أحس شداد بالراحة، وبنوع من القربى لا علاقة له بآل السنديان. وابتسم حيان متشفياً، وظل مبتسماً. وارتبكت خولة من التغير الحاد في إيقاع السهرة. لم تعرف أي شعور بالتحديد هو الأقوى. لكنها خلال ثوان قليلة صارت واعية بنوع من السلام حل في نفسها وأحست به في الآخرين. ونظرت الى اسماعيل بابتسامة عرفان.

راح عبسي ومحمد علي يناوشانه. وبالمقابل تحملا منه استسخافه المستمر لتحرشاتهما.

قالت فدوى: ـ أنا أسمع عنك يا أبو ابراهيم أكثر مما أعرفك. والحمد لله أنك جئت الآن لأتعرف عليك جيداً.

ـ وأنا سأتكاتف معك، يا كنة العائلة، ضد زوجك، لأنه يظنني حمصياً جميع أيام الأسبوع.

كانت قهقهة عبسي هي الأعلى، ورفع كأسه صائحاً: «بشرفي، نخبك يا أبو ابراهيم».

شربوا النخب بحماس. وقال شداد: ـ من فترة يا أبو ابراهيم، رأيت مسجلة غريبة، فتذكرت الفونوغراف الذي كنت أول من أدخله الى منطقتنا. ما رأيك بهذه التكنولوجيا الخبيثة؟ كلما فهمنا منها شيئاً، جاءتنا بأشياء، لا نفهمها.

ـ الحق عليكم، أنتم الجيل الجديد، أصحاب الثورة. لو تابعتم مسيرتي، وعلمتم الشعب التكنولوجيا، نعم، ما كانت بقيت اسرائيل. لكن الآن دعونا من السياسة. نحن اليوم نحتفل باجتماع بيت السنديان. وإن شاء الله نحتفل بوحدة العرب، قبل أن أموت. إنما لأجل هذه المناسبة، نعم، كتبت بعض الأسطر، ولا مانع عندي، لا مانع عندي، من قراءتها عليكم.

استوت الجلسة من جديد في ذهن خولة. الشعر هو التتويج الأجل لكل لقاء بين الناس. وابتسمت فدوى وقد بدأت تنسحر: هذه البساطة والعفوية والأصالة، والسماح المديد تجاه غمزات عبسي ومحمد علي. وفيما عبسي يرجو بصوت صاخب قراءة القصيدة فوراً، تسرقت نظرة الى شداد وزهرة. كانا هادئين تماماً، مبتسمين. وكان حيان مرخياً قدمه العوجاء على تربيزة.

تكرر الإلحاح حتى أشبع اسماعيل. واكتسى وجهه بجدية شاردة. مد يده الى جيبه الداخلي فأخرج ورقة. صمتوا. مسحهم بنظرة، وعاد الى الورقة ففتحها.

ـ طبعاً، أنا أخاطب أرضنا التي عادت لنا، باعتبارها باعتبارها، ربعاً له مكانة خاصة، معنى معنى خاص:

سلام على ماضيك أمسيت بلقعا	وقد كنت للأحباب مهداً ومرتعا
أقفر وهجر بعد أن كنت مأمنا	يناجي بك الأحباب بالحب مهيعا

واضطر للتوقف، بسبب إعجاب عبسي الصاخب، ووقوفه مطالباً الجميع بشرب نخب، وخاصة لكلمة (مهيعا). وهكذا أعاد قراءة البيتين، ثم تابع:

تكلم عن الماضي أما زلت ذاكراً	ولا ضير ان دمعي عصى لي مدمعا
وقص على الدنيا نعيماً مخلداً	وأطهر ما في الكون حسباً وأروعا
يخيل لي في كل مجرى ومحدر	بأني أرى طيف الجدود ملفعا

هتفت محمد علي محيياً الجدود، وأصر على نخب. وصاحت خولة بانتشاء: «والله يا أبو ابراهيم إنك شاعر فطحل.» وضحك حيان لكلمتها الأخيرة. وضحك الآخرون. وتصاعد إشفاق محب الى وجه شداد. ومرة أخرى كرر اسماعيل البيتين الأخيرين، وتابع:

أيا مربعاً هيجت ذكرى دفنتها	ورحت تريني ما شجاني ولوعا
وكان اعتقادي لن يمر بخاطري	وإذ بك تبديه كما كان رائعا
وإن كان إنسان شقياً وبائساً	ومر على الماضي السعيد توجعا

رفعت خولة ذراعها وصاحت: ـ قف يا أبو ابراهيم. سحبت قلبي. والله! هذا شعر.

توقف. واستأنف بعد قليل. ولم ينته الشعر والصخب والانخاب إلا بعد هزيع من الليل. إذ ذاك انجلى شعور متوتر من صدر زهرة. في البداية هلعت لأن نبوءتها صدقت، وتشاجر شداد وعبسي. وجاء محمد علي فأحكم طوق الشعور بالغربة عليها. وعندما بدأت مماحكات عبسي ومحمد علي لاسماعيل، وتفاقمت، لم تدر ما الذي جعلها تتمنى لو تمد على اسماعيل ستاراً ما وتحميه منها. رأته أكثر جلالاً من أن يمازح بهذه الطريقة؛ ورأته يتقبل المزاح فاغتاظت. ولم يكن لها إلا أن ترتاح أخيراً، وقد قام شداد واسماعيل، فقامت، وودعوا الآخرين مصافحة.

كان عبسي ما يزال منتشياً بكلمة (مهيعا). قال لفدوى، وهما يمتطيان السيارة:

ـ ما رأيك الآن أن نذهب الى (مهيعا) في آخر البلد ونكمل فيه سهرتنا؟

إلا أنها هزت رأسها بنصف تثاؤب وابتسامة كاملة:

ـ أحسن (مهيعا) الآن هو غرفة النوم. أنا فرطت من التعب.

ولم يصعب عليه أن يفهم المعنى الثاني لجملتها الأخيرة. لكنه لم يشأ العودة الى الفيلا. ربما لأنه التقط تحت جواب فدوى الوديع نبرة من الكمد. وكانت العاصفة الهازمة في الشوارع قد ذكرته بحبه القديم لرياح أوائل الربيع. لم تعترض فدوى على تطوافه الذي لا هدف له في المدينة. أرادت فقط أن تترك بسلام. وعاين عبسي وجومها، فلم يشأ أن يزعجها. فقط أحس بضيق إضافي لأنها لا تستطيع الإنصات له. وسرعان ما أحس وحدة الشوارع ثقيلة وموحشة.

قالت فدوى: ـ ما لك صامت.

قال ببساطة: ـ لأنك متضايقة.

قالت وهي تتفرس في وجهه: ـ كنت تفكر في شداد.

صمت قليلاً، ثم لم يستطع سوى أن يقول: ـ نعم.

وبعد صمت قصير نبس: ـ شداد الأخ، اللحم والدم، العشرة الصافية، رفيق التلال والبساتين، الذي أحب نقاوة المطر وبراءة الشروق؛ يفتح قلبه للحسد، ويصير صغيراً حتى ليقاتل كي ينتصر في مناوشة سخيفة.

وكان حزيناً على نحو لم يألفه منذ سنوات ما قبل الثورة.

بعد أن رفعت الدعاوى تبين للمدعين أن وكيلاً قضائياً من نوع ما لا بد منه. ورأى عبسي ومحمد علي أن معقب معاملات يكفي ويزيد، لا حاجة بهم الى محام. المحامي، قال عبسي، سينشر القصة بين الناس ويجعلها فضيحة. والمحامي، قال محمد علي، يعطيك كلاماً ويقبض مالاً. وبعد كل شيء، هو وعبسي يعرفان القاضي، والدعاوى بسيطة. وقالت حبرية أنها تفضل المحامي، «لأن الدعوى تستحق، وعيب على بيت السنديان أن يتفقوا مع معقب معاملات.»

وكان اسماعيل من رأيها. أحس، رغم أنه لا علاقة له بالتصحيح، أن تولي معقب معاملات لهذا الأمر الجليل سبة عار. ثم، ألا يقول المثل: اعط خبزك للخباز ولو أكل نصفه؟

قال له شداد: ـ انتبه يا أبو ابراهيم. أنت تتكلم في السياسة.

فالتفت اليه متجهماً: ـ أعوذ بالله يا ابن عمي! كيف؟ أنا لا تهمني السياسة، تهمني الحضارة. أنا أمشي الحيط الحيط..

ـ أنت تتكلم في السياسة. ما دام الميراث يعني لك كل ما حكيت وشرحت، وما دام الخباز أكل نصف الخبز ولم يعطك النصف الباقي، وما دمت ضد معقبي المعاملات..

ـ ابن عمي، عقلك يخض اليوم. الظاهر أن زهرة كشرت بوجهك عند الصباح. أنت تريد توريطي.

أخيراً اتفقوا على معقب معاملات. وفي ذلك المساء جلست حبرية وحمود وراء عتبة بيتها يحلمان بعشرين ألف ليرة، ويشتريان: براداً وغسالة، وطقم كنبات، وسريراً، وثياباً، ويتذكران أمراً: أرض الزيتون في الدروقية التي عرضتها خولة للبيع، وأمراً آخر: رحلة اسبوع الى تركيا؛ ويحسبان: إذا وضعنا الباقي في المصرف فستضمن فوائده للأولاد دراسة في الجامعة؛ ويتساءلان: وماذا نفعل أيضاً.

في ذلك المساء انقطع الخيط من ابرة الخياطة، ولم تسعف خولة نظارتها. همت بمناداة حيان ثم صرفت الفكرة. أحست بوهن مفاجىء. توقفت قليلاً وتأملت الخيط والابرة. صار الوهن كآبة. أشعلت سيجارة. التفتت الى التلفزيون. كان ثمة مسلسل الإعلانات. صارت الكآبة ضيقاً. من قبل كانت الخياطة سعادة، غراماً. الآن ـ ولا تدري منذ متى ـ تجلس وراء الآلة بلا فرح. تجلس متعبة حتى قبل أن تبدأ العمل.

وكان عبسي يهم وفدوى بالذهاب الى نادي الضباط لتناول العشاء. ورن الهاتف الجداري. جاءته التحية من صوت لم يميزه في البداية. وسرعان ما استدرك: «أهلاً، أهلاً، أبو الفضل. شرفوا.» ونظر الى فدوى نظرة تساؤل مستريب.

كان أبو الفضل سريعاً في الكشف عن نواياه. بعد التحيات والإعلان المعاتب عن الأشواق، التفت الى زوجته: «يا أم الفضل، أنت جئت للتفرج على أصص النباتات عند السيدة فدوى.» قالت: «إنما، اتركونا نشرب القهوة هناك وحدنا.» ووافق هو: «تكرم عينك يا حبيبتي».

قال أبو الفضل بعد أن اختلى بجليسه: ـ أخي العميد. موضوع الأرض انتهينا منه. أنا سامحتك بهذا الميراث سبعة بسبعة. مع أني أحب أن أنبهك الى أنه ليس شغلة كبيرة.

بقي عبسي صامتاً، وإن مبتسماً. وانتظر فيض جليسه قبل أن يقول شيئاً.

قال أبو الفضل: ـ الآن. عندنا مشروع جديد، يحتاج الى شراكة قوية. سمعت بالسفينة اليونانية الجانحة طبعاً. عظيم. منذ يومين جاءني عمر الماوي، وشاورني في فكرة مدوخة. والله أنا لم تخطر على بالي. قال أن نشتري السفينة. مجنون. أليس مجنوناً؟ قلت له يا عمر، هذه سفينة ثمنها بالملايين. قال، بعد أن يأخذ منها أصحابها ما يريدون، ويتركوها هيكلاً، يصير سعرها مليوناً ونصف. هو سأل، وساوم، وأجرى كل المباحثات. قلت، وماذا نفعل بها بعدئذ؟ لا أحد يشتري عظام ذبيحة. قال لي، ما يبقى فيها من الخشب والحديد، نبيعه بثلاثة ملايين في أسواق اللاذقية وحلب. هذه خشبها خشب، وحديدها حديد. وأنا أضمن لك مئة بالمئة ربحاً. هه ما رأيك؟

قال عبسي بهدوء: ـ من يومين حكيت مع الدكتور محمد علي في الموضوع. إذا كان عمر يقول هذا، فالأمر يستحق الاهتمام. هذا ابن البلد ويعرف من يشتري فيها. ويعرف حلب وجهاً وقفا.

ـ اذن اتفقنا؟

ـ على ماذا؟

ـ نشتري السفينة.

ـ من سيدفع؟ ومن يتولى البيع والحسابات؟

ـ هاها. من سيدفع. عمر الماوي. عبسي الخياط. رجب العز. عبد السلام الوزان. وأعطنا أنت اسمين. وكل واحد يدفع ربع مليون ليرة.

ـ ربع مليون، نصير عالحديدة.

ـ أخي العميد .أخي العميد. خلنا في الشغل، وبلا ندب.

ـ أنت لا تصدق. طيب. أنا أضيف محمد علي وعثمان دياب. لأن أبو ثائر سيزعل إذا شاركنا أبو نضال ولم يشاركنا هو.

ـ أبو ثائر على رأسي. لكن محمد علي، أنا لا أحبه.

ـ لماذا لا تحبه؟

ـ دائماً هذه الابتسامة على وجهه. ابتسامة نيئة، كأنها ابتسامة امرأة.

ـ أنت تريد منه ابتسامته أم ماله؟

ـ عندما يجيء ماله، تجيء معه ابتسامته، أخي العميد.

ـ خلنا في الشغل وبلا مزاجات.

ـ وأنا في الشغل! كل شغل له ناحية جمالية، أخي العميد، لا يستقيم من دونها. وشراء السفينة شغل جميل، ونحن نحب الجمال. وإلاّ كيف يطيق الانسان شؤون الحياة إذا لم يختر الجميل؟

ـ أنا مصر على محمد علي.

ـ إذا كنت مصراً عليه فأنا مستعد لتحمل ابتسامته.

ـ طيب. من سيبيع ويتولى الحسابات؟

ـ الماوي، طبعاً. أنت عندك جيشك. ومحمد علي عنده عيادته. وأنا لا أطيق المساومة. المساومة ليست جميلة. وأبو جهاد بسبع أرواح. يساوم على الفرنك حتى يعرق جبينه. تمام؟

ـ مبدئياً.

ـ لا. تمام، أو لأ. شاور عقلك أسبوعاً كاملاً. وبعدها اتصل بي. هذا مشروع تاريخي.

كان نيسان قد أقبل بأزهاره وروائحه عندما انتهى عبسي من مشاورة عقله. وتصادف أن كان اليوم المحدد لاجتماع الأصدقاء الستة في مكتبه هو نفسه اليوم المحدد لدعوى تصحيح الكنية. وهكذا حلت بخولة خيبة صغيرة مزعجة، وباسماعيل فيما بعد، إذ أعلن القاضي أن غياب السيد العميد سيضطره الى تأجيل المحاكمة شهراً، وهي المدة الدنيا: «إذا كان المدعي والمدعى عليه غائبين، كيف نعقد الجلسة يا خانم؟» نظرت الى شداد بضيق متبرم، ثم الى القاضي: «المدعى عليه؟» فأجاب القاضي باسماً: «أبوك وجدك.»

وهكذا تعين عليهم المجيء بقيود نفوس جديدة، مفردة وجماعية.

بعد شهر، تأجلت الجلسة مرة أخرى. ومرة أخرى تعين عليهم المجيء بقيود نفوس جديدة، مفردة وجماعية. وكان السبب حادثاً غريباً غير متوقع، بقي طي الكتمان يومين كاملين. هذه المرة حضر عبسي وغاب شداد. وأقسم عبسي لخولة أن شداد فعلها متقصداً: «مثلما غبت أنا يغيب هو. ليظهر أنه على قدم المساواة معي. ألم أقل لك؟ شداد دخل قلبه الحسد.»

وسرعان ما رأت خولة في تصرف شداد شذوذاً لا يقبله العقل ولا يمكن السكوت عليه. إنه بهذه التصرفات يصدع شمل العائلة، فيما العائلة تسعى لتوحيد أطرافها، ويعطل بكبرياء سخيفة انتفاع الأفواه الجائعة بميراث أجدادها. وبعيد الغروب طلبت سيارة، وقالت لحيان باقتضاب: «يا الله، الى بيت خالك شداد.» قال هو، مسترخياً على الكرسي: «خالي شداد ليس في بيته.» «أين هو اذن؟» «في بيت خالته.» «حيان بلا علاك. وقت تراني متضايقة لا تأخذ الأمور بالهزل.» صمت. تحرك ببطء نحو الباب، وخرج معها.

كان بيت شداد مظلماً. وقفت خولة تنظر اليه غير مصدقة. ثم التفتت الى حيان باعتراف غاضب صامت أنه قد يكون على حق. قالت: «طيب، وزهرة والأولاد؟» قال «لازم أن تكون في بيت أبيها.»

كان بيت حسن الغفري مضاء. لكن خولة وقفت مترددة: سألها حيان ما بها. تلعثمت: «لا أعرف. بعد هذا العمر. لم أره منذ موتها. كيف أقابله الآن؟» «من؟ أبو زهرة؟ ليس في البيت» «أين يكون؟» «في بيت أحد ولديه، يمكن. لأن ولديه أيضاً في بيت خالتها.» «حيان! أنت جئت لتريحني أم لتلعب بأعصابي؟ ما هذه الهلوسات، بيت خالته، وما لا أعرف؟» «ادخلي، ادخلي الى البيت.»

استقبلتها زهرة بجفاف: «لم تسمعي حتى الآن؟» عندها صدقت خولة. وتخشبت. مدت يدها بلا وعي، وتحركت نحو كرسي وانطرحت عليه: «لأي شيء؟» «لطول لسانه، لأي شيء. يظل يثرثر بالمبادىء الثورية وهو لا علاقة له بشيء. لكن الكلمات بالنسبة لهم أفعال.» «متى اعتقلوه؟» «من يومين.»

وضعت خولة يدها على جبينها ومسحته. وكانت نظرتها مرتمية على الحصير التي غطت أرض البيت الترابية: في أي عالم تعيش حتى لا يسمع الأخ باعتقال أخيه إلا بعد يومين، ولولا المصادفة لكانوا ثلاثة، وربما عشرة، وربما شهر.

نهضت. قالت زهرة: «اقعدي. فنجان قهوة.» «لا ذاهبة الى عبسي. ألا تخافين وحدك؟ تعالي معنا. لا يجوز أن تبقي وحدك أبداً.» ابتسمت زهرة بسخرية خفيفة: «أنا يخاف مني، وليس أني أخاف. تعرفين.» وقررت خولة أن تغض الطرف عن التعريض الأخير: «مهما يكن. لازم أن تأتي معنا. نرى عبسي. وتنامين عندنا.» وردت زهرة باقتضاب: «أبي راجع بعد قليل. والأولاد ناموا.»

أرادت أن تقول لها إن أباها ليس حماية. رجل في الستين من عمره. لكنها امتنعت في اللحظة المناسبة. ورأت من نبرة صوتها أن أخت الوحوش هذه لن تغادر بيتها لأي سبب. «حيان، نم أنت في بيت خالك، بعد أن توصلني للطريق وآخذ سيارة.» «لا داعي، ماما. امرأة خالي لا تخاف. ولا تريد.» تنقلت نظرتها بين الاثنين، ثم غامت، ثم اتضحت لأن الدموع التي ملأت عينيها تدحرجت: «أنت تظنين أننا لا نحبك. لا عليه. سيأتي يوم وتعرفين.. أنك مثل شداد سواء بسواء.» وترددت قليلاً، ثم غمغمت: «تصبحي على خير.»

على الطريق العام وقفا ينتظران سيارة. كانت وحدها تماماً. ليس لأن حيان لم يكن شيئاً في حسابها، بل لأنها نظرت الى مدينة اللاذقية المتسربلة بالأضواء والرذاذ، وأحست بالغربة. وكأنها تذكرت أمراً خطيراً فاتها من قبل، التفتت الى حيان وصرخت: «كنت تعرف ولم تقل لي!» وأجاب هو بهدوء: «هو لم يرغب.» «كذاب!» «ماما، اهدأي شوية. سيتركون خالي في أسبوع، يمكن. لأنه فعلاً لا علاقة له..» هتفت بنفاد صبر: «علاقة بماذا؟» «بهذه المنظمات السرية.. المعادية للثورة.» طمأنها كلامه الأخير، رغم أن تعبيراً جديداً انبلج في ذهنها لم تفكر فيه من قبل: هذه المنظمات السرية. نظرت الى الطريق ترقباً لسيارة، وفاجأها روع آخر، فالتفتت ثانية الى حيان. سألت بارتياب عابس: «وأنت من أين تعرف كل هذه الأخبار؟» ابتسم هو ليكسب الوقت، ثم قال بنبرة مطنبة: «أنا لا يفوتني شيء من أخبار خالي شداد وخالي عبسي.»

أعلن أبو فهد أن سيادة العميد وزوجته خارج البيت. وأصر على أنه لا يعرف مكانها. أمام الفيلا وقفت

وابنها بلا انتظار. كان الشارع والرصيف يلمعان بالضوء وصفحة الرذاذ الذي توقف. لم تكن راغبة في العودة، ولم تدر ماذا تفعل. التفتت الى البنايات والجنائن على جانبي الشارع، والى البنايات التي بعدها، والتي بعدها. واكتمل في خاطرها حجم المدينة المترامي، المفكك، الصلب ـ المدينة الضيقة، الضيقة حتى الاختناق، التي تنكشف في لحظات مباغتة عن منفى صحراوي، عن معصرة تستخرج الغربة والضياع والجنون. وأحست أن الحياة ليست بالضرورة آمنة ومستقرة، رغم التقدم في العمر. شداد معتقل، وعبسي غائب، والمدينة خاوية، وهي واقفة على الرصيف لأنها لا تعرف أين تذهب.

قالت لأبي فهد: ـ خبر عبسي متى جاء، أنه أخوه في خطر. خله يتصل بي فوراً. قل له أخوك في خطر.

كان عبسي سريعاً وحاسماً. تناول سماعة الهاتف واتصل بالمقدم فالح. وبعد ثلاث دقائق كان يمتطي السيارة الى مكتبه. اعتذر المقدم اعتذاراً مسرفاً لأنه لم يستطع الحضور شخصياً بسبب التحقيقات. أكد لسيادة العميد أن الأمور شكلية، ولا تتعدى الأسئلة البسيطة. وأكد عبسي أنه ما كان ليتدخل لو كانت لديه ذرة واحدة من الارتياب في أخيه. فقط، شداد لسانه طويل. ولكن لا علاقة له بأي تنظيم معاد للثورة. وأكد المقدم أن هذه هي انطباعته عن الأخ شداد، بل وربما يكون قد اعتقل خطأ. أكد عبسي أن شداد في هذه الحالة يمكن أن يخرج اليوم أو غداً. أكد المقدم أن المسألة ليست مسألة اعتقال لكي يطلق سراحه، إنها مجرد أسئلة بسيطة، وبعدها سيخرج بلا إبطاء. تساءل عبسي لماذا ليس اليوم أو غداً. أكد المقدم أنه لن تضيع دقيقة واحدة، إذ ليست هوايته حجز المواطنين، ولكن الأجوبة التي تسجل على كاسيتات تقارن بعضها ببعض، حتى إذا حصل تطابق، وصل المواطنون الأبرياء الى بيوتهم. وهتف عبسي بإعجاب: «على كاسيتات! كنت أظنها لتسجيل الأغاني فقط، وإذا بها تستخدم لمصلحة الثورة.» ففتح المقدم يديه كمن يقول: من يستطيع تجاهل التكنولوجيا؟

بقي شداد محجوزاً عشرة أيام. وبقي رمضان وبديع محجوزين. لم ينظر حوله عندما وجد نفسه خارج المبنى، وحيداً في طرف المدينة الغربي. مشى في الفجر البرود وهو لا يلوي على شيء. لم يلتفت يميناً ولا يساراً. بصورة خاصة، لم يلتفت إلى الخلف. لم ينتبه إلى تلك الدقائق النادرة الجمال التي اعتاد فيما مضى أن يراقب فيها تداخل يقظة الطبيعة وخطوات الخارجين إلى العمل. أشعل سيجارة ومضى قدماً. كان الشارع مستقيماً وطويلاً، فلم يمنحه لحظة توقف مطمئنة. وحتى بعد أن تغلغل بين البنايات والناس ظل يمشي مثل حصان العربة، لئلا يلتفت فيرى واحداً منهم يشير له بالعودة.

كانت الشمس قد صعدت فوق الأفق عندما وصل إلى البيت. لم يجد أحداً. خرج. ساق دراجته إلى البيت الآخر. وضعها أمام الباب وعاد. نظر إلى البساتين، والجبال وراءها، والبحر، ورأى نفسه من جديد بين هذه التكوينات. تمطى. تمهل في مشيه. دخل البيت. استلقى على الفراش. وقبل أن يغفو كانت ابتسامة خلاص أوهنها التعب قد انتشرت على وجهه.

فتح عينيه عند الظهر. رأى زهرة والولدين مسترخين حوله على أطراف السرير. كان بديع ما يزال برداء المدرسة، ومريم بثوبها المعفر بالتراب وروائح النباتات. لم يتسع الوقت لأكثر من ابتسامة نصف نائمة: انطرح الولدان عليه يصيحان بابا بابا ويغمران جسمه النحيل بجسميها الأنحل. عانقهما كلا بيد وقبلة من هذا وقبلة من تلك، وهما يخبطان ويصيحان ويمسكان بأنحاء جسمه، فيما زهرة واقفة تفرك راحتيها. وأبقاها حضور الطفلين الأناني البريء منتظرة حتى الغروب، لم تسنح لها سوى تسللات صغيرة بين خيوط المطر.

جلسا أمام بيتها. كانت زهرة قد أبلغت أباها تحيات ولديه وتمنياتها أن يتردد على بيتيهما أثناء وجودهما في تركيا. وكان شداد قد سلم عليه وسأله عن أحواله. وظل الولدان عند جدهما.

سألته لم هو واجم ما داموا لم يعذبوه. وتذمرت أنه لم ينطق بكلمة عما جرى، ولا حتى شعر بوجودها. أشعل سيجارة: « لم يجر شيء. الذين لهم وزن بعثوهم إلى الشام، والفراطة أبقوها هنا ».

هرشت رأسها بصدره نصف ضاحكة: ـ يعني أنت فراطة يا حبيبي؟

هز رأسه مؤكداً، وأضاف: ـ فقدان الحرية حالة صعبة. يأتي رجلان ويأخذان رجلاً من بيته. هكذا ببساطة، مثلما يساق البسكليت. إلى غرفة مثل الصهريج.

هتفت: ـ وضعوكم في زنزانات؟

ـ ترينها في الشارع فلا تحسبينها شيئاً. يملكان الحق في اعتقالك، لأن معها بطاقة من الدولة. وأنت ـ لا حق لك أن تسألي لماذا، ولا ترفضي تسليمها حريتك. الدولة هي الآلة. في الزمان الأول كانت الآلهة ذريعة؛ الآن أطلت الدولة سافرة. أنت موجودة فقط بالنسبة للدولة، لا بالنسبة للناس، ولا لأولادك أو زوجك أو عملك أو جسدك، أو أي مبدأ طبيعي.

صمت. وأطرق. وصمتت، لكنها ظلت تتأمله.

بعد برهة قالت: ـ طيب، نحن الآن وحدنا. واحدنا يوجد بالنسبة للثاني.

ـ عندما وضعونا في الصهريج كنا مجموعة فئران مذعورة. كتل بلا إنسانية. ناس لا تعرفينهم، لكنك تحسين أنك تعرفينهم. يعرقون في سبيل رغيف الخبز الذي يشترونه. جاءوا بهم إلى المذابح للنظر في أمرهم. لم أكن أتصور أن الدولة هكذا.

ـ وأنت تخاف.

ـ وأنا أخاف. تصوري مثلاً، أن يقول أحدنا كلمة ليست هي الكلمة الصحيحة تماماً بالنسبة لبراءته. فجأة تصير الكلمة عدواً. أو يقول كلمة يفهمونها بغير ما يريدها صاحبها. انتهى أمره. اللغة، صديقة الانسان كل حياته، تصير عدواً، غربة. كل كلمة فخ. والواحد يمشي بين أفخاخ. لا يعرف متى يعلق. وبعدها يأتيك خوف من نوع ثان. خوف لا حيلة لك معه. أن يتكلم شخص آخر في صهريج آخر كلاماً غير ما قلت أنت. أو يحصل تطابق تام بين أجوبتك وأجوبته، فيرتابون. أو تفلت منه شاردة لم تأتِ في أجوبتك. وخوف ثالث، أن لا تعرفي نفسية المحقق معرفة صحيحة. المشكلة هي إلى أي درجة من سلم الذل يجب أن تنزلي؟ لأنك إذا أخطأت الحساب تتصمغ عقولهم ولا تعود تنفعك بلاغة الأنبياء..

هتفت زهرة مذعورة: ـ شداد! هذا كلام جبناء!

نظر إليها مندهشاً: ـ كلام جبناء؟

ـ طبعاً كلام جبناء. كنت ذليلاً أمامهم؟

تحولت عيناه عن وجهها ونظرتا إلى لا مكان. بعد قليل غمغم:

ـ أظن.

قالها بخفوت، وقبل أن يعي أنه سيقولها. وكانت عينا زهرة بؤرتين للاشمئزاز والشفقة والتكذيب. وكان هو مندهشاً ـ أن يكتشف في بداية العقد الخامس من عمره صفة فيه لم يخطر له أبداً أنها موجودة: جبان؛ هكذا فجأة. ترى، ما الذي سيكتشفه في مرة قادمة؟

حاول أن يستجمع معاني عشرة الأيام الماضية. لم يهتم بمشاعر زهرة. وتابع الكلام كمن يتوغل في مسافة مجهولة:

ـ هذه الاعتبارات تختفي هناك. يصير الانسان دودة تخاف أن تسحق في أية لحظة. أنا لست بطلاً. لكن لم أكن أعرف أني جبان... كان حجم الخوف يزيد على حجم الشجاعة. أنا أعرف هذه التجربة. اعتقلوني أيام الوحدة. وكنت أنت صغيرة. التجربة هي هي. الوجوه تغيرت، المعاني لم تتغير... أيجب أن أقوم بأعمال خارقة ليحق لي أن أعيش حياة عادية؟ يجب أن تحق لي الحياة العادية دون أن أكون خالد بن الوليد.

لم تقبل زهرة. مدت ذراعها نحوه وهتفت: ـ إذا كنت أنت جباناً فمن يكون شجاعاً؟ المتخمون؟ أصحاب العيادات؟ والمكاتب، والرتب؟ أنت لست جباناً؛ أنت خائن. لماذا لم يخف رمضان وبديع؟

التفت إليها بوجه قادح. ثم تماسك. قال:

ـ أنا جبان. لست خائناً. رمضان وبديع حالة خاصة. لم يخافا لأن العذاب صقلها. أنا من الفئة التي أتيح لها أن تلحس صحون الشبعانين الفارغة. يقدمون لنا برشامة الذل بغشاء مغر من القشدة. منذ متى يا ترى وشرش الذل موجود؟ أنا لا أملك قوة في نفسي. هذه الحياة دوختني. هذا هو عمري. عشرون سنة، كل شيء فيها مطلق، مدوزن. وعشرون سنة كلها فوضى وانهيار. قبل عشرين سنة كنت أظن أن المنطقة كلها ستصير في السبعينات على بعد رمية حجر من أوروبا..

قالت بسخرية: ـ وعشرون السنة القادمة، كيف ستعيشها؟

قال بجدية: ـ من يدري؟ يمكن لواحد مثلي أن يلجأ إلى العنف، إذا استمر هذا الضغط. صديقي يقول، ان مشكلتنا نحن الفلاحين كون القيم التي نشأنا عليها تتعارض مع قيم الطبقة المتوسطة التي اكتسبناها، لكننا تبنينا قيم الطبقتين في عملية تجاور وتواز، ليس فيها صراع يوصل إلى تركيب جديد. لذلك نجد مستويين ومعيارين للسلوك والأخلاق. لكن هذه الحالة لن تدوم. أنا أتنبأ أن مئة السنة القادمة، أو خمسين سنة قادمة، ستكون عصر العنف. ضغط الدولة في العالم سيزداد، والخائفون سيخرجون من جلودهم ويصيرون مادة للعنف. العنف الشامل. وطغيان الدولة سيلغي القانون نهائياً، ويعيدنا إلى وضع همجي، التفكك والانحلال، لكل قيمة وبنية وعلاقة.

قالت زهرة بجدية كئيبة: ـ حتى في هذا الوضع الهمجي ستبقى تحبني؟

ـ حتى في هذا الوضع الهمجي. أنا أملك هذه القوة.

ابتسما بصفراوية. وفي خاطريهما سرح حس بالخطر. بعد كل شيء من يضمن أن لا يجيء هذا العصر الهمجي، ويصل إلى المنعزل الذي يعيشان فيه؟ من يؤكد أنه لم يأتِ، ولم يصل؟ بعد أحد عشر عام زواج، يكتشفان هذه الأمور المروعة في نفسيهما، وفي أحدهما الآخر، بفعل ظروف لم تخطر على البال، وكانت بعيدة عنهما كل البعد.

صمتا، وقد أحسا بشيء كريه يقف بينهما؛ وكانت كلماتها الأخيرة محاولة لابعاده. ولأنهما لم يكونا من النوع القادر على خلق تصورات مضادة، لم تتمكن أيامهما السعيدة وذكرياتهما من زحزحته. وسرعان ما لفهما خوف مخاتل من أنهما قد لا يعودان أبداً كما كانا. شداد: جبان؟

التفتا بضيق متزايد إلى ضوء سيارة سطع عليهما برهة ثم اختفى. ولم يتحركا حتى تبينا فدوى تفتح البوابة القصبية وتدخل.

جفل شداد إذ عانقته فدوى بعد أن عانقت زهرة. وفي العتم لم يدل على بكائها سوى تهدج صوتها. نظرت إلى القامتين الطويلتين اللتين وقفت بينهما منتشية ومحزونة، كأنها رأت نفسها في جو قدسي، واقفة بين جسدين علويين. وعادت تعانق زهرة من جديد وهي تغمغم: «يا أحبابي، يا أحبابي».

هرب شداد من ارتباكه إذ قدم لها كرسيه وهرع إلى البيت ليحضر كرسياً ثالثاً. هتفت بابتهال خفيف ولكن معلن. «لا يا سيد شداد..»

توقف والتفت: ـ سيد، هذه، من أين جئت بها؟

ـ شداد، قصدي؛ أنا مضطربة شوية. لن نقعد هنا. جئت آخذكم إلى بيت خولة. عبسي سبقني إلى هناك. لا تتصور كم تعبت حتى أقنعتها بأن لا تجيء. كنت أكلمها بالتلفون. قلت لها أنت، وزهرة طبعاً، ستأتيان. ولكن، قبل أن نمشي، أنا لي رجاء خاص.

صمتت. وصمت الزوجان انتظاراً. وانشغلت عيناها بتفكيرها. ثم ضحكت لارتباكها:

ـ قصدي.. الآن صرت أفهم أنك وعبسي لا يمكن.. قصدي، أنتما اخوان.. يعني.. أنا أعتمد عليك أن لا تتجادل معه. هو متضايق.. متضايق لأنه اضطر لمقابلة من هم أدنى منه.. لأجلك.. وقد يقول كلاماً. أنت لا تتضايق. أنت إنسان كبير، صاحب مبادىء، أكبر من هذه السخافات. خلوا الجلسة مزوحة. خبرنا عن جو السجن كأنك تحكي نكتة. ولا تثقلوا عيار الأفكار.

ضحك شداد ضحكة قصيرة صافية. وأطرق. حمل الكرسيين إلى البيت استعداداً للذهاب. وإذ وجد نفسه وحيداً في الرواح والمجيء، ارتد إليه اعتكار واجم. تذكر أنه كان جباناً، وتصرف أمام المحقق كجبان، وأن هذا التصرف صار كتلة ما واقفة الآن بينه وبين زهرة.

وبقي صامتاً حتى بعد انسياب الكلمات الغريبة المعجبة من فم فدوى وهي تقود السيارة على مهل. ابتسم بمرارة للاطراء الدافىء الذي راح يستنزف صمته وصبره، ويتحول بالتدريج إلى طعنات بريئة. وتجرأ فالتفت إلى زهرة، ورأى على وجهها انطباعة مفاجئة. كانت تنصت بطرب وحبور، ولو أسعفته الجرأة لرأى فخراً. أهي تريد أن تصدق كلمات فدوى؟

لذلك دخلوا بيت خولة وقد انتشر هدوء مرح في محياه. تبادل الستة العناق والقبل. وتلقى من عبسي سؤال «كيفك يا طويل اللسان»، باطمئنان منشرح. ولم يبد عبسي راغباً في إثارة المواضيع الكبيرة. على العكس، كان أيضاً شبه فخور، أكثر فيضاً وبهجة من شداد، كأنه هو الذي اعتقل وأفرج عنه. وابتعد عن زهرة خوفها مَن مشاكساته المجانية المغيظة، فاستغرقت وخولة في اعداد المائدة. وهيأت فدوى الكؤوس والصحون. حتى حيان جلس متخلياً عن ترقبه الأثيم لاشتباك لساني بين خاليه. وعندما جلست خولة أخيراً، كان وجهها ينضح غبطة مرتبكة. لم تتوقع تحولاً في المشاعر، لكنها خشيت أمراً ما، تدخلاً خارجياً غير متوقع، يوقف فرحاً تعبأها ومدى من الوئام والصفاء. لكان ذلك شراً دعت الله في سرها ألا يقع.

لكن التوقع الجفول ازداد بازدياد الفرح والصياح. تلفتت حولها، سعيدة وغير مطمئنة. ورغم شعورها بالحرج مما عرفت أنه مجرد هاجس سخيف، قامت إلى الشبابيك فأغلقتها بإحكام، وإلى ضوء الدرج فأطفأته. وعادت فأنزلت الستائر، وعبسي يطاردها بالشتائم، ورجعت إلى كنبتها. تناولت قدح البيرة، وصاحت «كأسكم يا أحبابي، يا عائلتي يا أولادي، كأسكم». وكان بودها أن تتكلم أكثر، لكن الصياح غطى على رغبتها في الكلام. وأرادت أن تحكي كلمة أو اثنتين عن خروج شداد من السجن، وأمسكت لسانها خوفاً من تحرك لسانه ومجيء السياسة. انتصبت في جلستها ومدت ذراعها: «حيان، هات غيتارك، وسمعنا موسيقى حلوة. موسيقى، هكذا، تعبير عن انتصار الانسان على الزمن». وبين الهتافات المدوية اعجاباً ببلاغتها، علا صوت عبسي صادحاً: «بيتهوفن، خالو، بيتهوفن. اسمع أملك السمفونية الثالثة على غيتارك». صاحت خولة بانتشاء: «وما هي السمفونية الثالثة، يا أخي؟» قال عبسي منتشراً: «هذه أعظم سمفونية في التاريخ. ألفها بيتهوفن تمجيداً لنابليون وسماها البطولة. لأن نابليون قاد الثورة الفرنسية وحرر أوروبا». قال حيان:

« بيتهوفن غير رأيه في نابليون. ورفض اهداءها له ». قالت خولة بخوف: « يلعن أبو بيتهوفن ونابليون. اتركونا منها. اي أخي شداد، حبيبي. ما لك ساكت؟ ».

أثار السؤال موجة اهتمام معتذر: نجم الحفلة صامت، وهم يصيحون ويصخبون، غافلين عنه. هتف عبسي: « اتركيه، لا تقاطعيه. الله الوكيل، اغتنم فرصة الحكي والصياح وأكل نصف المائدة ». لكن خولة أصرت. هتفت بنبرة وديعة حنون: « حبيبي، ما لك ساكت؟ » قال: « والله، أنا نسيت حالي ». قال عبسي: « ألم أقل لكم؟ شوفوا الطناجر، بقي فيها شيء؟ » صاح حيان: « أنا أقول لكم بماذا كان خالي شداد يفكر ». هتف شداد: « لا، خلني أنا أقول. تصوري، قبل أربع وعشرين ساعة كنت في صهريج. الآن، كأن دهراً مضى. ولا كأني اعتقلت عشرة أيام ». صاح عبسي: « طبعاً. من يأكل هذا الأكل ينسى هموم الدنيا. قل لي بالله يا شداد، أين تذهب بهذه الأطعمة كلها؟ » قال شداد: « أنا أسمع موسيقا، والموسيقا مهضمة ». وضرب عبسي كفاً بكف: « تفضلي يا ستي. معناها أن البلاد مقبلة على كارثة تموينية، إذا كانت حق الموسيقى مهضمة ». قال شداد: « ماذا أفعل؟ يا سيدي حق وجه المحقق كان يخليني أحس بالجوع ». قالت فدوى: « ظننت أن وجهه أجبرك أن تنسى عشرة أيام في الصهريج ». قال شداد: « نسيت عشرة أيام في الصهريج، لكني لم أنسَ وجهه ». قالت خولة: « وكيف كان وجهه؟ ».

ـ كان وجهه مضحكاً. كأنه خاط حاجبيه بإبرة. وكان فمه بنصف حجمه من شدة ضغط الجدية عليه. قلت له يا أخي اسألني الأسئلة مباشرة وأنا أجيبك. أنت تعرف اسمي واسم أبي وأخي وزوجتي وأولادي، ومنبتي الطبقي. فنظر إلي وصار متأكداً أني متآمر خطير. وعندها صار له حاجب واحد. وصار فمه قوساً..

صاح عبسي باكتشاف مفاجيء هام: ـ هذا هو السبب. طول لسانك يا أخ. استغربت لأي شيء لم يتركوك بعد يومين. كنت وفرت على حالك ثمانية أيام اعتقال، لو أخذت الأمر بجدية ولم تتهكم.

ـ أنا وفرت على حالي ثمانية أشهر يا عزيزي. لأني لو لم أضبط الايقاعات، كنت تصنفت في الأرشيف وصرت بالقوة شخصاً لا أعرفه. على أية حال. أنا فعلاً أحس أن الحادثة بعيدة، بعيدة. عجيبة هذه الدنيا. في معظم الأحيان يعيش الإنسان بلا ذاكرة. ماذا تظن؟

ـ هذا أروح. لأنك لو تتذكر كل ما فاتك من أكل، كنت تطق. يشيب عقلك.

قالت فدوى: ـ النسيان نعمة.

قال شداد: ـ تذكر المرحوم أباك؟ كان يتمدد على الديوان ويحكي لنا قصصاً وقصصاً. كلها حقيقية. من سفر برلك. يستعيدها كأنها حدثت في الصباح. الآن من عنده وقت ليروي حكاية قديمة؟ وحتى ليتذكرها. كل شيء عجول، سريع، لاهث، والإنسان مشوش.

تنحنحت فدوى كمن لامس كلام شداد وتراً حساساً في نفسها. أرادت أن تفتح باباً لنبضاته، وكانت خائفة:

ـ الشيء الأهم يا شداد، ليس الذكريات، وإنما التفكير. قصدي، نادراً ما يتذكر ابن آدم شيئاً مفرحاً. التفكير هو المشكلة. من عنده وقت ليعطيه لفكرة كبيرة؟ أنا ما عندي وقت. ويمكن لا أحد عنده وقت. لهذه المسائل الكبيرة، قصدي. مسائل الحب والكراهية، الحرية، مسائل الكون، والحياة والوجود، وعلاقات الناس، ومشاعر الإنسان تجاه نفسه. أنا أحياناً، تصح لي فرصة وأقرأ كتب دوستويفسكي وشيكسبير. وأتساءل بيني وبين نفسي، يا ترى نحن العرب غير هؤلاء الناس. هناك أزمات حقيقية تحس بها عندهم. ناس لهم كيانات حقيقية، ومشاكل حقيقية، ومسائل كبيرة. تحس أنهم الحياة برمتها. ليسوا مثلنا، جديين مع الجديين وسخفاء

مع السخفاء، موالين مع رجال السلطة وأعداء مع أعدائها، شرفاء في مواقف وأنذالاً في مواقف. لا أحد من العرب يحرق نفسه احتجاجاً على ظلم أو حباً لوطن، كما فعلوا في فيتنام وتشيكوسلوفاكيا. لا أحد.. لا أحد.. لا يمكنك أن تعرف أحداً.. لا تقدر أن تحس أن واحداً منهم حقيقي، وإنما يتقلب من حالة إلى حالة إلى حالة، دون أن يكون شيئاً ثابتاً.

قالت زهرة بالفة محبة: - أنت تقولين هذا الكلام؟ ماذا نقول نحن؟ عمرنا يضيع في شراء الخبز وطبخ الطعام. أنا أقوم مع الشمس. أمشي ٢ كيلو متر إلى الفرن، وأقف ساعة بالمتوسط لبجيء دوري. وبعدها ألف على البائعين، من دكان إلى دكان. أينها ذهبت الأسعار نار، لكن الإنسان يقول لحاله عسى السعر في الدكان التالي أقل. تمشين. وتمشين والناس حولك، كأنك مسافرة سفرة بعيدة. ترين شقاءك على وجوههم. النهار بكامله يضيع لأجل هذه اللقمة. قوة جسمك بكاملها تضيع، لأجل هذه اللقمة. وتقعدين بعدها لتأكلي، فيكون أكبر الفرح أنه صار عندك لقمة تأكلينها. ماذا يبقى بعدها من حياتنا للحب والمشاعر؟ وللتفكير؟ بالحرية، وبالكون، وبأي شيء.

قال عبسي ممازحاً: - وماذا تريدين أن تفعلي بوقتك، يا امرأة أخي؟

قالت فدوى: - مع ذلك، أنت مرتاحة أكثر مني. مستغربة، ما؟ أنت تعرفين تعب الجسم لكن عقلك مرتاح. اقعدي مثلي مع صديقات من نوع صديقاتي، العبي الورق، أو احكي خمس ساعات عن القمار، والثياب، وآخر الموديلات، وآخر شروة، وآخر حفلة، وشوفي قلبك آخر الليل. أنت تتعبين تعب الحركة، أنا أتعب تعب الراحة والبلادة.

قال عبسي ممازحاً، ولكن بنبرة سببها كلام فدوى:

- ما قلت لي يا امرأة أخي، ماذا تريدين أن تفعلي بوقتك.

قالت زهرة بشيء من المجابهة: - كنت أعطي لأخيك وقتاً أكثر، أحبه وأدلله. لأن شداد غير الرجال. وكنت ألاقي شغلاً وأشتغل، مثلكم أنتم الرجال. وأحس أني شريكة لشداد لا عالة عليه.

وجاء إلى ذهن عبسي سؤال: ما الذي يمنعك من الشغل. غير أنه كان سؤالاً مستحيلاً. وحضر الجواب في ذهن شداد، إذ لمح على وجه عبسي أنه سيسأل. لذلك تلقف الكلام، واتجه به إلى أبعد ما يستطيع، ليس فقط عن ظروف المعيشة، وإنما أيضاً عن سيرة أولاد مريم.

- الحقيقة، بودي أن أعلق على فكرة من أفكار الست فدوى.

- ولأي شيء «الست» فدوى يا «سيد» شداد؟

- واحدة بواحدة. حكيت عن الكتاب، أنهم يصورون شخصيات حقيقية لها كيانات، وتشعر المشاعر الأساسية. وأنه ليس عندنا شيء من هذا. الحقيقة، من فترة كان صديقي المثقف الثوري يقول كلاماً، أن مجتمعنا، بما معناه، مجتمع غير حقيقي. لا هو اقطاعي. ولا هو رأسمالي. ولا هو اشتراكي. مجتمع هلامي. ورأيي أنه إذا كان المجتمع هكذا، فالأفراد يتشكلون على صورته.

هتفت فدوى بحماس: - يعني رأيي صحيح. وفعلاً الحالة مثلما تقول.

كان عبسي يتابع الحوار بصمت، ولكن باستيعاب تام. وأحس بحلقة لدنة تضيق حوله وتهدد بأن تصير خانقة - ليس فقط كثوري تهاجم انجازاته، وإنما كعاشق ما كان لظروف الثورة الاستثنائية أن تفطمه عن الحب. وها هي فدوى، القوة الملهمة، تصير محدودبة المشاعر كأنها على وشك أن تنغلق في دائرة، فدوى الحلم والتحقق، ترى المجد والنضال فوضى وهلاماً وتفككاً.

تنحنح وقال بخطورة نابرة: ـ اسمحوا لي أنا، أرد على فلسفتكم. أنتم تنظرون إلى الأمور نظرة سكونية. كأن المجتمع يتشكل مرة وإلى الأبد. أنتم لا ترون المجتمع في حالة تبدل وتغير. وإذا تحركتم فعلى مبدأ العنف، لا على مبدأ الثورة. لماذا تقوم الثورات إذن؟ لأنه كلما استقر المجتمع على حالة ومر عليه الزمان، صار ضرورياً أن تقوم ثورة. وعمل الثورة لا ينجز في يوم أو يومين. يمكن أن تأخذ جيلاً. وفي هذه الفترة تتفكك البنية الأساسية للمجتمع تمهيداً لبناء جديد. في هذه الفترة تنتشر الفوضى ويختلط الحابل بالنابل، حتى يظن أصحاب الفكر السكوني أن القيامة أوشكت، وأن الحياة لا تطاق، وأننا نتقهقر إلى الخلف. والحقيقة أن هذا يمكن أن يصير. لا بد أن يصير. حتى لينين يقول: خطوة إلى الأمام، خطوتان إلى الوراء. الثورة تغيير عنيف وكلي لوضع متخلف. لكن الرؤية الثورية، التي يتمسك بها المناضلون الحقيقيون تتقدم عبر هذه الفوضى والتفكك، وتوصل الشعب إلى شاطىء الأمان. وبالنسبة لنا، لا تنس نحن أمامنا عدو لا يقل جسامة عن التخلف. هو أميركا. أميركا لا تريد قيام ثورة حقيقية في أي بلد. وتحاربها بكل شراسة.

قال شداد بحماس مقصود فكه: ـ كلام جميل. تحاربها بكل شراسة. ولكن أحياناً تأتي لأميركا هدايا مجانية. وأعظم هذه الهدايا، غياب الديمقراطية. لأن الديمقراطية عدوة الامبريالية اللدودة. لا يمكن لأميركا أن تنجح في بلد ديمقراطي. ولكن ماذا تجد في العالم الثالث المليء «بالثورات»؟ صديقي يقسم هذا العصر إلى ثلاث مراحل. الأولى مرحلة الاستعمار. الثانية حماية السوق الوطنية. الثالثة تدويل السوق الوطنية مع خلق طبقة حاكمة تعيش بالطريقة الأميركية، الاستهلاك بصورة خاصة، ولكن ممنوع أن تصير أميركية بالنسبة للصناعة والتصنيع الزراعي. طبقة طفيلية غير منتجة، مربوطة بالعجلة الأميركية. أميركا هي الآغا، وهذه الطبقة هي.. الوقافون.

قال عبسي باحتقار: ـ يعني صديقك يعتبرنا طبقة طفيلية. يا عزيزي، بالنسبة له، الكلام لا غبار عليه. لأنه هو شخص طفيلي. لأن لا وجود للمثقف إلا كمعلق على أحداث لا يصنع منها شيئاً. وبالنسبة لك يا عزيزي شداد، يعني لا تتضايق، طالما أن الموضوع انفتح. ترديد التحليلات والتعليقات على مسيرة محكومة بأن تتعثر بسبب ضراوة المعركة التي تخوضها على الصعيدين العربي والعالمي، وشراسة الهجمة الامبريالية المستمرة، هذا الترديد يبقى مجرد كلام في الهواء. رغم أنك تتكلم كمرجع أخلاقي، وتردد أفكار صديقك كأنها مرجع ثوري.

صاحت فدوى وحيان: ـ ولكنه دخل السجن.

زمجر عبسي ثم ابتسم: ـ هذه بطولة ولا شك.

وكان بوده أن يقول أكثر. لقد اكتشف باندهاش، وباستخفاف أيضاً، أن أناساً ضعفاء خاملين مثل شداد، يمكن أن يصيروا أبطالاً في أعين أناس منغلقين مثل فدوى، مراهقين مثل حيان، موتورين مثل زهرة. وأن هذه البطولة تعود إلى سبب تافه هو بقاء شداد محتجزاً عشرة أيام، ثمانية منها زيادة سببها الرعونة.

قال: ـ لماذا دخلت السجن؟ لأنه عندك بديل أفضل؟ ما هو البديل؟

قال شداد: ـ الحقيقة أنا لا أعرف لماذا دخلت السجن. وهذه هي المصيبة. لأن الذين اعتقلوني يعرفون وأنا لا أعرف. هم يعرفون متى أكون بريئاً ومتى أكون متهماً. وأنا لا أريد غير شوية شبع وشوية كرامة. لا بديل ولا بطولة. تريدون الصراحة؟ في السجن اكتشفت أني جبان. وأني لست أهلاً للعنف والارهاب اللذين يتكلم عنهما عبسي. كنت أحسب حساباً لكل كلمة أقولها. كل ما عندي من قدرة عقلية كان مسخراً لأن لا تفلت مني كلمة.. فأورط نفسي بإثارة غضب المحقق. تذكرت الوقاف. مأمون، وعبد النبي، وأحمد الغفري. كان المحقق وقافاً بمعنى الكلمة. لا يقبل بغير الطاعة العمياء المطلقة. وإذا أزعجته لسبب لا أعرفه، يمكن أن يكسر

ذراعي مثلاً، أو يهشم لي ضلعاً. تماماً مثلما كان عبد النبي ومأمون الريحان يفعلان عندما تفلت بعض السنابل من أيدي الحصادين. كأننا يا بدر لا رحنا ولا جينا. كيف لثورة أن تقوم والوقافون يزدادون قوة؟

ظلت خولة صامتة حتى تلك اللحظة. غير أن ذهنها كان يتكلم. وعندما وصف شداد نفسه بالجبن، ابتسمت بارتياح، وأعجبتها قدرته على قول الحقيقة. ألم يكن جبنه وخوفه ما أخمد نبضة الحب الوحيدة التي خفقت في حياتها؟ أليس هو الذي تراجع وخذلها، يوم كانت بأمس الحاجة إلى فهمه الشجاع؟ لم تستطع أن تصمت. لأول مرة اتضح لها أن شداد رجل يعيش في الأوهام لا في الوقائع، ينفعل بالأفكار وليس بنبض القلب وضرورات الحياة. أحست بالكلمات تنبع، تزدحم على طرف لسانها، وتهوي من بين شفتيها كالشلال. ومع ذلك فوجئت بها وهي تخرج بلهجة اعتذارية واجفة:

ـ أنا يا عمي، بودي أن أحكي. أنا أكبركم سناً، فيحق لي أن أحكي مع أني لا أفهم في السياسة. شداد، لأي شيء لا تقول إن المحقق يقوم بواجبه؟ يعني، إذا كل واحد عمل حاله دولة ومعارضة، وتنظيمات، أي شيء يصير بالدولة الأصلية؟ لأي شيء المحقق مخطىء، وأنت مصيب؟ هذا رجل يقوم بواجبه، وأنت من واجبك أن تساعده للوصول إلى الحقيقة.

فوجىء شداد بالسؤال ومنطقه الحاسم الخاص. وقال حيان:

ـ المحقق من واجبه أن يحقق، صحيح. لكن ليس من حقه.

قال عبسي: ـ إذا كان من واجبه، يكون من حقه. متى كان الواجب متناقضاً مع الحق؟ أمّا منطق!

قال شداد: ـ في العالم الثالث يا أخ. في العالم الثالث. الواجب والحق زوجان مطلقان بالثلاثة. في أنظمة حكم الطغمة. لا جدال أبداً أنه ليس من حق رجل الأمن احتجاز الناس وإهانتهم، لمجرد الارتياب بولائهم للسلطة لكن حكم الطغمة لا يدوم إلا بخرق حقوق الإنسان. أنا قرأت مرة لماوتسي تونغ قوله ان الثورة هي هجوم الأرياف على المدن، وفرض سلطة الريف على المدينة، وان آخر معقل للمدن سيكون أوروبا الغربية وأمريكا الشمالية. وعندها تتحقق الاشتراكية وسلطة الطبقة الكادحة. إذا كان ما نشاهده الآن في العالم الثالث تحقيقاً لقوله، فبئس التحقيق وبئس البشارة. لأنك ماذا ترى؟ تنمية للتخلف على جميع المستويات. فاشية لم يسبق لها مثيل. انهيار للأخلاق والقيم والعلاقات. المهم أن يجمعوا ثروة بأية وسيلة، ثروة غير منتجة، اتجاهها الرئيسي الاستهلاك والفائدة المصرفية.

قالت زهرة وهي تنظر إلى خولة: ـ لأن الذين يقومون بالثورة الصحيحة هم العمال والفلاحون. بحكم المنطق الثوري، ليس هناك ثورة بلا طبقة عاملة. كل حركة غير عمالية تسمي حالها ثورة ليست ثورة.

وفوجئت بقهقهة مليئة صافية تتدفق من فم عبسي، وترد كل واحد إلى كنبته:

ـ يا سبحان الخالق، على، دفقات، البلاغة، والفصاحة، والفكر الثوري. وماذا يفعل اتحاد العمال عندنا؟ اتحاد العمال يمثل الطبقة العاملة كلها. وهو مع الثورة بلا قيد ولا شرط. ومعه جميع النقابات المهنية. هه. أنا أفهم لماذا تنتقدون. أفهم الأسباب والدوافع، ولا أريد أن أجرح أحداً. أسبابكم كلها شخصية والقاسم المشترك بينها، هو أنكم جماعة سكونيون مثاليون. أنتم لا ترون الحياة، تتصورونها تصوراً. ولأنكم لم تنجزوا في حياتكم شيئاً يذكر.. قولوا لي من منكم أنجز شيئاً في حياته؟ لذلك تضخمون السلبيات الطفيفة، وتلقون عليها مسؤولية فشلكم..

هتف شداد مستنكراً: ـ سلبيات طفيفة!

ـ نعم سلبيات طفيفة. لأن الاتجاه العام كله سليم. لا خطأ فيه على الاطلاق. ليس فيه أي خطأ جوهري.

هجوم الأرياف على المدن حدث تاريخي ضخم. من نوع الثورات الكبرى. مثلما خرج البدو من الجزيرة العربية حاملين رسالة الإسلام. مثلما انساحت الثورة الفرنسية من باريس إلى موسكو والقاهرة، حاملة رسالة الحرية والمساواة. نعم سيدي سلبيات طفيفة. لأن المنجزات أضخم من أن تأتي بالسلبيات وتضعها إلى جانبها. ألم يهجم كاسترو من الريف إلى المدينة؟ ألم يهجم ماو وهوتشي منه، من الريف إلى المدينة؟

ـ لا يا عزيزي، هذه كبيرة. وتنتحل ماو وكاسترو وهوتشي منه؟ هؤلاء خارج قوس. هؤلاء حركوا شعوباً وقهروا الامبريالية. البقية حركت طبقة، وهذه الطبقة تقف بين الامبريالي والكادح، ليست امبريالية ومعظمها تخلى عن أصوله الكادحة..

ـ هذه حتماً عبارات صديقك المثقف الثوري. لم تقل لنا ما اسمه. مهما يكن. المثقفون همهم دائماً أن يبهروا الناس. يحولوا كل شيء إلى كاريكاتور. أما الإنجازات، أما التغيير الثوري، أما التصدي للامبريالية، هذه لا تخطر على بالهم..

ـ اسمه خالد. تعرف؟ أنت تقنعني بكلامه أكثر مما يقنعني هو. يا جماعة شوية نقد ذاتي. قولوا هناك خطأ. خطأ واحد. اعترفوا..

ـ ألا يجب أن تكون هناك أخطاء لنعترف بها؟ الثورة في العالم الثالث ماضية قدماً. لا شيء يوقفها. الثورة صنفت الناس بصورة نهائية، تقدمي ورجعي، مناضل وعميل. ومن حق كل ثورة أن تضرب أعداءها الرجعيين والعملاء بلا رحمة. لأنهم أعداء التقدم، وأعداء الحرية، وأعداء العدالة. أنا أعرف ما يدور في ذهنك، وسأجيب عن أفكارك..

ـ الثورة عادة تقرأ أفكار الناس، بالنيابة عنهم..

ـ نعم تقرؤها، وإلا لماذا هي ثورة. أنت تتساءل أين الحرية، وكيف يحق لحزب واحد أن يحكم بلداً بأكمله. كلمة واحدة: ماذا حل بسلفادور ألندي في لعبة الدمقراطية الغربية؟ عندما عرفوا أن الشعب راح يلتف حوله، تحركت واشنطن والرجعية المحلية وسفكتا الدماء. هل تريد هذا المصير لثورات العالم الثالث الأخرى؟

ـ هذا ما لن يحدث أبداً. بقية الثورات ستظل في الحكم.

ـ طبعاً. لأن الدمقراطية لعبة الامبريالية للسيطرة على العالم الثالث. والثوار لن يسمحوا بها.

ـ لأن أثرياء الثورة في العالم الثالث يودعون أموالهم في بنوك الامبريالية، وبالتالي عقولهم.

ـ أبداً. أنا أموالي كلها مودعة في البنوك الوطنية.

ـ وهذه الأموال محصلة من محصلات العدالة.

ـ تماماً. محصلة لجهدي الشخصي. أنا صاحب مبادهة. وأتحداك! أن تقول بضمير مرتاح أني ارتشيت أو سرقت. أنا صاحب مبادهة، عرفت كيف أستفيد من الظروف، استدنت، وغامرت، فتضاعف مالي ووصلت.

ـ وصلت إلى ماذا؟

ـ إلى الاستقلال الاقتصادي الذي أنا فيه.

ـ سأوبخ صديقي المثقف الثوري لأنه لم يقل لي كيف يكون الاشتراكي رأسمالياً أو الرأسمالي اشتراكياً، لا أعرف.

ـ ألم أقل لك؟ أنت تفكيرك سكوني، تتصور الواقع تصوراً، أو تأخذه من الكتب.. والمثقفين الثوريين. اترك مثاليتك قليلاً، وفكر معي: الثورة تقوم بها طبقة ثورية، لهذه الطبقة مصلحة مباشرة في الثورة، وإذا لم تتأمن هذه المصلحة، لا أحد يكون مستعداً للدفاع عن الثورة. لذلك، والآن جاء دوري في الهجوم، الذين مثلك ينتظرون من الثورة أن ترسل لهم مصلحتهم في طرد بريدي. وإذا لم تصلهم أقاموا الدنيا وأقعدوها، ووصلوا الى حد التآمر على المؤسسة الوحيدة القادرة على حماية البلد من المؤمرات الامبريالية. أنتم ليس عندكم تحليل واحد لواقع المجتمع. عندكم اتهامات فقط. والاتهامات لغو. كلام فاض. تشكيك حاقد ومتآمر على منجزات الثورة. مبرر لاستعمال العنف. لذلك يجب أن تقمع بلا هوادة ولا رحمة. وأنا أحذرك، في المرة القادمة ستتحمل مسؤوليك بنفسك. أنا لا أستطيع أن أحميك إذا كنت ستستمر في هذا الخط المعادي للثورة. في الحالات الثانية، أنت تعرفني. أعتقد أنك تعترف لي أني أخ بكل معنى الكلمة. شف شداد. بودك مال، أنا مستعد. بودك تنتقل الى وظيفة ثانية، أنا مستعد. بودك زهرة تتوظف، أنا مستعد. لكن أن أساعدك في عمل ضد الثورة، أنا غير مستعد.

ـ لا أدري لماذا يخطر لك أني أتصرف وفي ذهني أنك ستتدخل لمصلحتي. أنا، تصرفاتي عفوية تماماً. أنا أريد بس أن أعرف من أنا، ماذا أعني. وأنا لن أورط نفسي أصلاً، فكيف أورطك! أملك هذا اللسان، ويبدو أن ملكيتي الوحيدة مهددة بالمصادرة. لكن ليس هذا هو الموضوع. هذا النقاش كله ليس مهماً. لا قيمة له. لأننا سرعان ما نصل الى الإدانات، أو إطلاق الأحكام على أوضاع محلية. وهذا ليس مهماً، ولا مجدياً، ليس هناك خطأ في المبادئ: مبدأ الثورة يظل صحيحاً، أنا لا أدين عقيدة، العقائد دائماً تأتي تعبيراً عن حاجات وضرورات إنسانية. أتكلم عن الأشخاص. المهم أنت وأنا. مطلق انسان مع مطلق إنسان. نحن الآن في لحظة أكبر من السنوات، وأكبر من هذه المدينة، يصح أن يسأل كل منا نفسه: ما هي محصلة حياتي؟ هذا هو المهم. كلانا نقف مع الثورة. ولكن مع من تقف الثورة نفسها؟ من الذي يستتر بالثورة؟ أنا أتكلم عنك أنت بالذات. عن عبسي، من دون كنية ولا سلطة ولا ظروف. عبسي المتمرد عام ١٩٥٠، والمليونير الآن، الذي يتكلم في الثورة. ما هي محصلة حياتك كثوري؟ ما الفرق بينك الآن، وبينك قبل ربع قرن؟ الآن نظرت الى الساعة، ورأيت أن ثلاث ساعات مضت ونحن نتحاور. الى أين وصلنا؟ الى لا شيء. لا أنت اقنعتني ولا أنا أقنعتك. أنا أتساءل، ما الذي قلناه الآن، ولم يقل من قبل؟ في أي عصر لم يكن هناك جماهير تشتكي من مستغليها؟ في أي عصر لم تهدر حياة الناس سعياً وراء اللقمة أو خوفاً من الوقافين؟ يمكن، لو أننا غنينا عتابا وميجنا، مثلما اقترحت خولة في البداية، كان أحسن. أتوصلوننا الى البيت؟

قالت خولة وذراعاها ما تزالان معقودتين رغم انفراج أساريرها:

ـ إنما كان نقاشاً يملأ الرأس. وكان لازماً يا شداد أن ترد على آراء عبسي، بنفس هدوئه، لتتفاهموا.

قال شداد وهو ينتصب: ـ الحياة يا عزيزتي أم حيان، الحياة ستقرر هذا التفاهم.

على الطريق كان الأربعة صامتين، وفدوى وشداد يدخنان. وكان ضوء القمر الغباري قوياً ساطعاً. عند منعطف البحر قالت فدوى: «لو اجتمعنا قدام بيت شداد، كان أحسن.» وسأل عبسي بنبرة غامضة: «لتستمتعي بضوء القمر؟» فأجابت ببراءة: «وبالمكان الوسيع. شفت كيف أغلقت أم حيان الشبابيك وردت الستائر؟» ورد هو بالنبرة نفسها، ولكن بصدق غافل: «أم حيان أم لنا كلنا. حرصها علينا يتجاوز حرص الأخت على أخويها.»

وقفت السيارة عند الدرب الحصوي الموصل الى بيت شداد. وأصرت فدوى على انتظار الزوجين حتى وصولها الى السياج. خرجا، وودعا، ووعدا بزيارة. كان وقع أقدامها خفيفاً متمهلاً. وبعد أمتار تأبطت زهرة

خاصرة شداد: «هل تحبني؟» سألته فجأة وبتحديقة منتظرة. وأجاب هو بآلية: «بلى.» ألحت: «قدّ أي شيء؟» قال: «قد البحر.» وعادت تسأل: «بس؟» فأجاب: «بس.» أوكأت رأسها على كتفه. ووراء السياج وقفاً وتبادلا قبلة صيفية طويلة.

عندئذ شخر محرك السيارة وتحولت من حيث أتت. قال عبسي: «نمر على طريق الكورنيش؟» قالت فدوى «نمر.»

إلا أنه لم يستطع أن يتكلم. في الآونة الأخيرة، بل ربما منذ فترة طويلة، صار حديث القلب أصعب الأحاديث. ربما منذ زمن بعيد. صار فعل القلب أصعب الأفعال. ليس من نوع الفعل والأحاديث اللذين يتبادلها شداد وزهرة. زهرة كتلة غرائز. وشداد مضطر للاستجابة. هو، شيء آخر. حبه بقي ثابتاً. صفا وتنقى من الشوائب. شف وعلا. جعل من فدوى أميره وملجأ وملهمة. ولكن ما الفائدة. كل الصخور تحطمت. كل الحواجز سقطت. كل الانهار عبرتها الأشرعة. وانكماش فدوى كبر على كل انفتاح، تأبى على كل اقتحام. تماماً مثل نابليون وجوزفين. الرجل الذي دوخ العالم، دوخته امرأة. سوى أن فدوى امرأة طاهرة. ما الذي يجعل بعض النساء عازفات عن عظماء الرجال؟ إنه لموقف عجيب. هذا المساء تكلم كما لا يستطيع رجل عادي أن يتكلم. بهدوء، وثقة، ووعي، وعمق - حتى لم يعد بوسع شداد سوى أن يتهكم. ومع ذلك.

هذا الصمت مرة أخرى. هذا الصمت دائماً. من أين يجيء، وليس هناك خطأ. ليس هناك أي خطأ. مجرد سوء تفاهم عابر هنا، وزعل عابر هناك. ومع ذلك، هذا الصمت. من جديد. ودائماً.

قالت فدوى: - عبسي. كلما انفردنا سوية، ينكمش وجهك كأنك ستقول شيئاً. وبعدها لا تقول.

رفع قدمه عن دواسة البنزين. ونهنه ليطرد انطباعة الارتباك التي خلفها صمت ثوان قليلة.

- فعلاً. ملاحظتك صحيحة. أحياناً كثيرة تخطر لي خواطر. حتى في عز انشغالي. وأسئلة. تقلقني. وأتمنى لو أنك معي لنبحثها سوية. ثم تكونين معي فيتبدل كل شيء. تذوب الأسئلة وتذوب الخواطر. أرى أنك معي، ويصير تافهاً كل شيء آخر. أرى أنك معي، وهذا أثمن شيء. كل سؤال أو خاطر، لا يستحق أن يحضر الى جانب حضورك الى جانبي. وافكر في تلك الأحيان وأستغرب. من أين تأتي هذه الخواطر. لا شك أنه ضغط العمل. ضغط الحياة. يجعلني أحس بحاجة غامضة. سخف. أوهام تولد من التعب. وتختفي. حتى شوقي للحديث معك يختفي. وقت أكون معك، أصير أحب الصمت. وأستمتع به. الصمت حديث. كلام كالشعر. أنا أناجيك في الصمت. وأحس بك الى جانبي فيكون حضورك نجوى.

صمت. شعر أنه الآن يمشي على أرض مستوية، وأن فدوى ليست بعيدة كما يتوهم أحياناً. لذلك كان أثيرياً ومنعشاً رأسها الذي هبط على كتفه وجسدها الذي اقترب منه. وقرر باكتشاف رغيد أن يمضي بالسيارة على الطريق الموصل الى الجبال. ومضى. ملأه فرح الطريق وفرح الصمت. إن قربى الجسد قربى الروح. لم ينتبه لدموعها التي سالت على سترته. تأمل الحقول والبساتين والمنازل الموحية، وعيناه لا تكادان تلتقطان منظراً حتى يختفي ليبرز منظر جديد. كانت السيارة تمضي بسرعة، لأن امتلاء نفسه أغناه عن التمهل كي يتملى الطبيعة الهاجعة تحت ملاءة القمر. لم تلتصق فدوى به تماماً، خشية مضايقته في القيادة، لكنه أحس بجسمها الشفيف الهش كالعنب يفرد غلائله حول جسمه الثابت وراء المقود. وأحس أنه يوشك أن يطير، أن ينتشر في المسافات؛ وضغط على دواسة البنزين. لا شك أن فدوى قد استوعبته هذا المساء.

تحركت. وخمن أنها تعبت من المسافة الباقية بينهما. وسره أنها ستجلس جلسة مريحة، رغم ابتعاد رأسها عن كتفه. سوى أنها نشمت. وأخرجت من جزدانها منديلاً ورقياً مسحت به أنفها. ونشمت مرة ثانية. استغرب.

كان متأكداً أنها ليست مصابة بالزكام. وأحس بها تتكىء على مقعدها، تلتفت، وترمي ذراعها على المقعد. رمقها بنظرة سريعة. وقبل أن يتسنى له فهم ما يحدث، سمع صوت البكاء الناحل المتقطع.

طبعاً، كان من المستحيل أن تبكي حزناً ـ قال لنفسه. الانتقال المباغت من قمة السعادة الى وهدة الحزن، ليس من صفاتها. ليس حتى سلوكاً بشرياً ممكناً يا للسخف. كيف لم يخطر له؟ طبعاً، هي تبكي فرحاً، سعادة. وهذه هي قمة السعادة. وجمحت في داخله سعادته. أخيراً: خرجت فدوى من قوقعتها. أخيراً: أيقظ فيها الحب القديم ونفض عنه الركام. وتمنى لو يشاركها دمع سعادتها. لولا أن الدموع أصعب من معركة. ورأى أن من سلامة الذوق تركها تبكي لسعادتها. ومضى بالسيارة أسرع.

نشمت فدوى للمرة الأخيرة وقد توقفت عن البكاء. ومضت السيارة عبر الطريق الريفي، فلم تسأل الى أين. كان القمر متوسطاً كبد السماء، صامتاً، والتلال صامتة. أشعلت سيجارة، وفتحت نفاضة السيارة. وراحت تدخن وتنفض الرماد.

توقفت السيارة عند أجمة يتوسطها مزار. وقال عبسي:

ـ وصلنا.

أطفأت سيجارتها، ونبست بنبرة خاوية: ـ الى أين؟

ـ ألا تتذكرين! هذه أعلى قمة في منطقة الشير. تعالي.

خرج من السيارة وأغلق الباب. وخرجت. مشيا خطوات نحو ما بقي من ارتفاع القمة، هو يمضي وهي تتبعه. وصلا.

وقفا يتأملان الطبيعة البديعة الهاجعة. استنشق عبسي الهواء الى أعماق رئتيه، والى جانبه وقفت فدوى معقودة الذراعين. مد يدا وأرساها على خصرها. اقتربت منه أكثر. رفعت كتفيها. وبقيت ذراعاها تحت صدرها.

مرت دقائق. كل شيء بلا خلجة. وعبسي رافع الرأس. وجهه مسكون بابتسامة ساكنة. صدره يتعبأ بالهواء ويخرجه على مهل. وفدوى منضوية، وجهها خال وساكن، كتفاها مرفوعان، وأنفها ينشم مع تنفسها البطيء.

قال عبسي بخفوت: ـ تعرفين؟ أشعر الآن أني سألتك كل تلك الأسئلة وأنك أجبتني عنها.

قالت وكأنها تعرف الأسئلة: ـ بماذا أجبتك؟

فاجأه السؤال. ومرت ثوان وهو ينظر اليها دون أن يجيب. وكان يتوقع ابتسامة. لكن نشوة قلبه منحته فوق ما يحتاج من قوة. وعبر برهة خاطفة ضاء وجه أبيه في خاطره ثم اختفى.

قال: ـ وقت أسندت رأسك على كتفي تكلمت معي. ووقت بكيت، تأكدت من زيف هواجسي. بكاء السعادة ينزل على القلب برداً وسلاماً.

التفتت اليه باستغراب وبطء. ثم بهمود ومرارة منكفئة. لكن تعبير محياه أوقفها عن الكلام. كان ضوء القمر يلمع عليه كزغب وليد. وتحته هجع فرح كثيف أوشك أن يكون نشوة خارقة.

ـ أعطني الجاكيت، أنا بردانة.

في غمضة عين نزع السترة ووضعها على كتفيها. أحست باحتقان متزايد يضغط على الصدغين. ولم تدر ماذا تفعل. في بداية المشوار رأت أن عبسي كان يكذب على نفسه حين أعلن عن ذوبان الهواجس ـ ذلك النوع من الكذب الذي تمارسه أحياناً لتوقف انهياراً مؤكداً. الآن، رأت صدقه جسيماً، ورأته قاتلاً. ينبوع السعادة الذي

ترقرق على وجهه، أنشب مخالب في وجهها. أرادت حين ظنته يكذب أن تقول له إنها بكت لأنها تعيسة. لكنها أرادت أن تبقي له سعادته حين أدركت أنه كان صادقاً. والآن صار لزاماً عليها ألا تشرح هذه اللحظات النادرة في حياته، إشفاقاً عليه. ولزاماً أن تتكلم لأن البئر غص بماء الألم. ولزاماً أن تصمت لتقي بناتها شر علاقة أبوين انكشف تصدعها.

تجمعت المشاعر المتلاطمة في قناة واحدة، وتدفقت من عينيها. والتصقت راحتاها بوجهها، فسقطت السترة. هتف عبسي باسمها محترق الشفتين. تناول السترة ولف فدوى بها بين ذراعيه. وجمجمت هي من بين راحتيها:

ـ بقيت مسافة، بقيت مسافة.

ـ أي مسافة؟ أين؟

ـ بيننا. مسافة كبيرة بيننا.

ـ لا أفهم. متى؟

ـ ونحن في السيارة.

ورفعت يديها، فبان وجهها المنكمش وشفتاها المتقلصتان:

ـ لماذا عملت هذا الفعل معي؟ لماذا تصرفت هكذا؟

ـ ماذا عملت؟ ماذا تصرفت؟

بلا إرادة، رفع عنها يداً منحنية الأصابع، حاملة تساؤل قلبه الواجف عن معنى ما تقول. وحين هدأت، واستعادت صورتها المألوفة، راعه أنها كانت قبل لحظات تبدو بشعة ـ فدوى الجميلة، الهشة، ذات العينين الزرقاوين والشعر الأسود.

همست، ولعينيها شكل البكاء:

ـ لماذا لم تخفف السرعة وتلفني بيدك؟

تعبأ وجهه بندم المحب المسيء، بلهفة البريء المستغرب أن يحمل تصرف تافه هذا الجبل من الجروح والإهانة. قال:

ـ أردت، أردت أن نصل الى هذه القمة بسرعة. شوفي المنظر، ما أروعه!

ـ نصل! نصل! أنا لا أريد هذه القمم. أنا أرى نفسي تحت. وأنت ضحيت بكل شيء لأجل القمم. أنا أجيبك عن تساؤلاتك إذا شئت. والا، لا. أجبتك وانتهى الأمر. أنت أجبت عني. ووصلت الى حل المشكلات دون أن تتعبني. مثل العادة. أنت دائماً تريد راحتي. تعمل وتحكي وتفكر، بالنيابة عني. حتى لا أتعب. وتصل الى الحلول، وتصل القمة. عبسي، بيننا حالة فادحة. فادحة. وإذا أنكرتها، يكون حتى صدقك هذا المساء كاذباً. وصلت. الى أين وصلت؟ وقت كنا في بيت أخيك، قلت لأخيك إنك وصلت. الى أين وصلت، عبسي، الى أين؟

نظر اليها مرتخي الشفتين. وكان حزنه لأجلها ممزوجاً برثاء يمزقه.

نامت خولة مرتاحة ذلك الليل. تجادل أخواها في أعمق القضايا، ولم يتشاجرا. وكذلك حسن الغفري: صهره، ساتر ابنته المسكينة، خرج من السجن وبلا تهمة.

لكن اسماعيل لم يكن مرتاحاً. خلاف فترة الاعتقال، استولى عليه الخوف: شداد، الانسان البسيط المقصوص الجناحين، كيف سيستطيع أن يدافع عن نفسه أمام حنكة المحققين وقسوة قلوبهم. وعلم أن شداد صار طليقاً فتحول خوفه الى غضب: هذا الأحمق الطويل اللسان، يظن أنه سيمحو شرور العالم بطول لسانه. وعزم على تأنيبه، بل تقريعه تقريعاً شديداً، لكي لا يعود الى مثلها أبداً.

مضى يومان دون أن يتمكن من رؤيته. تفاقم الغضب. وانضم اليه شيء من السخط والخطورة، فشداد يمكن أن يرتكب حماقة جديدة قبل أن يراه ويحذره. وعندما التقى به أخيراً، أزاح تلك المشاعر المنفعلة كلها شعور بحنان غامر وئيد.

قال له: ـ يا ابن عمي. ماذا فعلت بنفسك؟ في هذه الأيام لا يجرؤ، أحد على الحديث في السياسة حتى مع حاله. أنت قدّ الدولة لتطلع ضدها؟

وكان شداد ما يزال كئيباً، بسبب السهرة الأخيرة في بيت خولة. غمغم بضيق هادىء:

ـ أنا ما طلعت ضد الدولة. الدولة طلعت ضدي.

قال اسماعيل مبتسماً: ـ معي أنا لا تلعب، بالألفاظ. أنا أشطر منك في هذه الناحية.

ـ أي ألفاظ يا أبو ابراهيم؟ ماذا تقول إذا جاء واحد من الناس لينزع عقلك ويضع لك مكانه عقلاً لا يناسبك؟ تتضخم الدولة، فنتراجع نحن الى هامش الحياة.

تأمله اسماعيل بعينين متقدتين: ـ أنت شيوعي، يا ابن عمي! يمكن لأن الدولة اشتبهت بك، اعتقلتك.

قال شداد بفظاظة: ـ يا أبو ابراهيم، اما أنك مثل كثيرين، انغسل دماغك من الدعاية، وخلقت في ضميرك شرطة على ضميرك، أو أن الفقر أعمى بصيرتك وصرت مثل كثيرين، كلما ازدادوا فقراً ازدادوا خوفاً وبلبلة. ألا يمكن أن تعتقلني الدولة ويكون معي أنا الحق؟

قال اسماعيل مكسور الخاطر ولكن مبتسماً: ـ أكيد أنت فاتتك خناقة مع أحد الناس. لا بأس. أنت خبيث تعرف أني لا أزعل منك. أنا دماغي لم ينغسل. وضميري ليس فيه مخفر. وأنا لا أخاف من احد غير الله. لكن لا قدرة لي على كسر أي يد. مع أني أفهم ما في رأسك من أفكار. والحكي في سرك، لولا الايمان ومخافة الله، لصرت شيوعياً من زمان. أنا لولا روحانيتي كنت أطق مثل البيضة. ربع قرن وأنا وأولادي في الفقر والذل. لا تقدر أن تمسك المال والشرف سوية. أنا، فقري يكفي لأن يجعلني شيوعياً. فقر الناس. وفقر الأخلاق. إنما، أنا مؤمن بالله. والإيمان بالله جدار كبير، سد كبير، تسند عليه ظهرك فلا تخاف ولا تبالي. أنت لا يعجبك كلامي. ولا يعجبك تفسيري لموضوع الارث. عش ضائعاً اذن. من الذي قال: «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟» كارل ماركس أو عمر ابن الخطاب؟ أنا أرى شباب هذا الجيل. وبنتي التي تزوجت قبل سنتين كانت منهم. يتسابقون على شراء الجينز أكثر مما كان أيوب واخوانه يتسابقون في الحصاد. أقفيتهم مطرزة بالعلم الاميركي، وعقولهم مطرزة بشعارات الشيوعية. هؤلاء يغررون بك. وعلى رأسهم صديقك المثقف. ألا يلبس الجينز؟

قال شداد بلا خطورة: ـ أنا ألبس أحياناً. إذا صح لي من دكان الثياب المستعملة.

ـ هاها. أنت تتأمرك. دون أن تعرف. غزو. غزو مشترك. شيوعية لابسة الجينز. المهم ألا يتركونا نكون أنفسنا. لأننا أمة إذا رفعت راية الأجداد أخافت الأقوياء.

ـ من الذي سيرفع راية الأجداد؟

نبر اسماعيل بقوة: ـ نحن كلنا.

تساءل شداد بضعف: ـ من نحن؟

قالت حبرية لزهرة: ـ نحن يا أختي حصتنا المسبات، بعد أن نغلق الباب ونطفىء الضوء. ويا ويل الذي يقع. لن يلاقي يداً تمتد لتنتشله. أعوذ بالله. ألف الحمد لله انه طلع. ألف الحمد لله. أبو ياسر طار عقله. ولولا خوفه من التفسيرات كان جاء من أول يوم.

قالت زهرة: ـ الحمد لله أن شداد صار له الذي صار وشفناك.

ـ يا حبيبتي يا زهرة. لا تزعلي إذا لم أقل لك أم بديع. والله العظيم، والله العظيم، نحن في سيرتكم كل طالع شمس. وأبو ياسر يقول شداد رجل بين الرجال، وصاف مثل قطرة الماء. بس، الله يلعن هالعمر. من عنده وقت ليحك رأسه. الله يلعن المدينة وعيشتها. لولا خوفنا على أخي شداد وحبنا له، ما قدرت أني أجيء. لأنه، الحقيقة، نحن انقطعت قلوبنا خوفاً عليه.

ـ شداد أخذوه بالغلط. فكروا له علاقة لأنه زوجي، وأنا أخت رمضان وبديع.

نظرت حبرية اليها فاغرة الفم جهلاً فإدراكاً: ـ ورمضان وبديع؟.

وأشارت برأسها علامة دخول. قالت زهرة: «ورمضان وبديع..» وأشارت برأسها علامة دخول.

صمتت حبرية، وظل فمها مفتوحاً. وراحت تعيد ترتيب أفكارها بشيء من الخيبة.

قالت زهرة، وهي تستوعب خيبة أملها: ـ نحن جماعة، لسنا أهلاً لهذه الأعمال الخطرة، يا أم ياسر. نحن تركنا الضيعة، وتركنا المدينة، وعشنا هنا، لا نريد من الدنيا شيئاً.

ـ ورمضان وبديع؟ ما أخبارهم؟

ـ لا نعرف. يمكن شهور. يمكن سنة.

ـ اتركينا من هالموضوع. أي شيء عملتم بموضوع الإرث؟ نحن بعنا لأخي محمد علي.

ـ بعتم؟

ـ اي. دفع لنا ألفين على الحساب. واشترى حصة أختي في الضيعة. وحصة أخوات اسماعيل. والشغل قائم قاعد في الوكالات. ويمكن عبسي يشتري حصة اسماعيل وخولة.

مر زمان على «النقاش الكبير» بين عبسي وشداد، وتغير مزاج خولة. في البدء كانت على قمة فرح. لم تسمح لحيان بأن يعلق ولا يأتي على ذكر ذلك المساء. في نهاية الاسبوع، بعد أن تراكمت قطرات التفكير وإعادة التفكير فصارت مطراً، وجدت نفسها تقريباً في هاوية. كان للنقاش رنين ما فتىء يأتي ويمضي تاركاً شيئاً من القلق، حتى أقنعها بأن الأخوين لم يتودعا بقلبين صافيين.

اتصلت بعبسي. وبعد يومين جاءها بثيابه العسكرية، وهو ينظر الى ساعته. بادىء الأمر فاجأه وصولها الى المستوى التحتي لحوار كان واضحاً أنه ديمقراطي. ولم ير بأساً من العودة اليه خلال نصف الساعة المتبقي لموعده. أكد لها أن الحوار كان مفيداً وبناء، أنه وضع النقاط على الحروف وحدد المواقف. النقاط التي وضعت على الحروف؟ تعني أنه لا لقاء بين الاخوين أبداً. بل وهناك احتمال بصدام مقبل. شداد عازم على ركوب رأسه. إذا كان ينظر الى الامور بهذه الادانة، فلا شك أنه سيفعل شيئاً ما في المستقبل. شيء سيجعل عبسي عاجزاً عن مساعدته. طبعاً، عاجزاً عن مساعدته. إذا كان شداد سينضم الى جبهة معادية، تصير مساعدة عبسي له خيانة وطنية. هو يقدس الرابطة الأخوية. لكن رابطة الوطن أكثر قداسة. هذا شأن الدول المتحضرة. سيصير هو

نفسه متهماً، إذا حاول مساعدة شداد. وقبل كل شيء القضية قضية مبدأ. شداد يقف موقف الرفض من كل ما أنجزته الثورة. بل موقف العداء التام. وبالنتيجة هو يقف ضد عبسي ويسعى الى تحطيمه. هذا واضح من كلامه. أولاً وصفه الثوريين بأنهم وقافون. ثانياً رفضه لحق الثورة في أن تحمي نفسها من أعدائها. ثالثاً وصف الثوريين بأنهم مرتبطون بعجلة المصلحة الامبريالية. رابعاً اتهامه كل من تحسنت أحواله بالفساد والارتشاء. خامساً تفضيله الفوضى المطلقة المدمرة على السلطة التي تنظم حياة الناس.

قالت خولة: ـ أنا لا تدخلوني في الدويخة. أنت ثوري وشداد ثوري. وكل واحد ثوري. شف عبسي، إذا كنت ستختلف أنت وشداد من أجل الثورة، أنا سأنتحر.

ـ أف!

ـ أبداً. وأرجوك لا تناقشني في الموضوع. يوم أوقف شداد أحسست أن ظهري انقطع. أنا في هذه الدنيا غريبة من دونكما. إذا اختلفتما، الأفضل أن أموت.

ـ قولي له هو. أنا من ناحيتي أريد السلام. وليس أكره على قلبي من العنف. هو يقوم ضدي. أنا لا أفعل ضده شيئاً.

ـ هو لا يقوم ضدك. أنا أعرف شداد. وقت يتكلم تظن أنه سيحرر فلسطين. عند الفعل، لا شيء. هو يحكي وبس. ضد الفاسدين والمرتشين. كلنا نحكي عليهم.

ـ وأنا منهم. يعتبرني منهم.

ـ أبداً. شداد يحبك ويحترمك. بس لسانه طويل. ولا يمكن أن يقول إنك منهم.

ـ أوهوه. لا يا ستي، يعتبرني منهم. ألم تسمعي حديثه عن الأموال غير المنتجة؟ أنت لم تفهمي كلامه. المقصود أنا. لأني اشتريت الباخرة الجانحة. يصنفني مستغلاً، رأسمالياً مستغلاً، طفيلياً. هذا القاموس الجديد الذي كله علك وزعبرة. أنا أتحدى ـ إذا كان شداد يقدر أن يثبت أني أستغل جهد غيري. أو كسبت ليرة واحدة كانت حقاً لغيري. أليست هذه هي الاشتراكية؟ الاشتراكية هي عدم استغلال الانسان للانسان. أنا اشتريت سفينة كان تاجر من التجار سيشتريها. أنا قطعت الطريق على التاجر. وأنا ضد التجار كل حياتي. قطع الطريق على التجار هو الاشتراكية. التجار أعداء الاشتراكية. أنا ضربتهم. أنا فخور بأني قطعت رزق تاجر. والثورة، من أول ما قامت، ضد التجار، لأنهم هم الطفيليون.

كانت خولة تتأمله بانبهار. هو ذا عبسي، ابن الثامنة عشرة، مرة أخرى. والآن اكتسب مجداً وازداد قوة. عبسي الذي يشيلها من مستنقع أوهامها ومخاوفها، ويشحنها بالأمل والواقع الصلب. كلماته القوية بعاطفتها ومنطقها، هطلت على أفكارها المضطربة فأعادت ترتيب طمأنينتها ووضوحها. وتساءلت بمرارة عما يدفع شداد الى هذه المواقف والآراء الغريبة. عاشق الأزهار والنباتات يصير عاشق مشاكل.

ـ غريبة من شداد. كل عمره قلبه طيب. لا يريد شيئاً من الدنيا. لماذا صار هكذا؟

ـ اسأليه هو. أنا لا أريد أن أتهمه مثلما يتهمني. اسأليه.

ـ لا، قل لي. أنت تفهمه أكثر مني. ودائماً تحاول مساعدته. قل لي، لأنصحه.

ـ من يوم زواجه خفت أن يشده أولاد مريم اليهم. وكان خوفي في محله. رمضان وبديع وأختها سيجرونه الى كارثة. علموه الحسد والحقد. لأنه خامل بطبيعته صار ضدي وضد الذين مثلي.

ـ يمكن امرأته هي السبب. امرأته حقودة وشرسة.

وفي غضون ساعات تضخم قلقها وخوفها كمنطاد وحملاها من رأسها. فوراً يجب إنقاذ شداد. فوراً. لأن له لهفة الى الخير وقلبه مع الفقير، يحشر رأسه في أمور أكبر منه. وزهرة خلفه تنفخه وتسممه، لأنها حاقدة على كل الناس. توقع بينه وبين أخيه. يا للبلاء. يا للمصيبة. عبسي وشداد يصيران أعداء. في آخر الزمان. لم يعرف عن آل السنديان أبداً أن اثنين منها تعاديا. ويمكن أن يأخذوه الى السجن مرة ثانية. وعبسي لن يتدخل هذه المرة. مستحيل. هذا تصرف مجانين. ما لنا وللمشاكل. نعيش مستورين. ولا داعي للحسد وضيق العين.

ـ هذا أخوك. ساعدك مئة مرة. عرض عليك عشرين وظيفة من ذهب. تقوم، تعمل ضده. وتعرض حياتك وحياته للخطر. الآن، الآن، يجب أن تعدني أنك لا تعود الى هذه التصرفات أبداً. أنت جننت؟ قم اقتلني يا أخي ولا تعيشني على أعصابي.

كان نصف محقون من حديث اسماعيل. وعندما حط رحاله في بيته، صبت زهرة على رأسه برميل كلمات حبرية. قهقه بادىء الأمر. ثم ابتسم شارداً وممروراً. كيف يستطيع الناس أن يصنفوه بهذه السهولة، وهو نفسه لا يعرف ماذا هو. بطل. جبان. شيوعي. طويل اللسان. سكوني..وأخيراً هذه البلهاء حبرية. جاءت تظنه بطلاً، وإذ عرفت أنه لا علاقة له، صدمت! خاب أملها، صدمة بأي شيء، وخيبة من أي شيء؟

ـ أريد أن أعرف ما الذي غيرك، هكذا فجأة. آخر واحد كنا نتوقع منه مشاكل هو أنت. ركبت مركب العنف، وصرت ضد الدولة، وضد أخيك. وضد أولادك، وضدي. تعرفني أنا، حياتي معلقة بك وبأخيك، وأنت ولا أبالي. أنت قد الدولة لتطلع ضدها؟ الدولة تقدر أن تأخذك من أذنك وتغيبك عشر سنين.

نبرت زهرة دون أن ترفع عينيها: ـ لا أحد يأخذه من أذنه.

وأسرع شداد الى القول: ـ أكيد أنت اجتمعت بعبسي، وجئت الى هنا مباشرة.

ـ أنا لم أجتمع بعبسي. أنا فكرت وحدي بكلامك يوم سهرتم عندي.

ـ بشرفك، أنت لم تجتمعي معه؟

ـ اه! تعال اعمل معي تحقيقاً. قلت لك لم أجتمع معه.

ـ لا تحقيق ولا شيء. أنت التي تحققين معي. لأن القصة كلها أسخف من أين يهتم بها أحد. أوقفوني بالغلط، وبعدها تركوني وقالوا آسفين. لأي شيء تعملون من الحبة قبة؟ لتصدق الناس أني متآمر خطير؟

ـ لأنك أنت ضد أخيك. وتقول عنه كلاماً كأنه مرتش، أو مستغل، أو متطفل. وتتهمه في وطنيته.

ـ كلنا متهمون في وطنيتنا. لأسباب مختلفة. لماذا تزوبعين إذا أعلنت رأيي؟ كل انسان يحق له أن يحكي ضميره.

ـ وضميرك الآن ضدّ أخيك.

ـ كيف يعني ضده؟ أنا لم أفعل شيئاً ضده.

ـ نية السوء أقوى من فعله. شف شداد، إذا ظليت ماشياً على هذه الطريق، عبسي لن يقدر على مساعدتك في المستقبل.

ـ وستخرب الدنيا إذا لم يساعدني. زهرة، طوّلي بالك، خليني أحكي مع خولة.

ـ خذ راحتك. أنا بس غيرت جلستي.

للتو أحست خولة أنها ربما تكلمت بطريقة مزعجة ـ ليس فقط لأن زهرة توترت بالعداء ويبس وجهها،

بل ولأن جملة شداد الأخيرة أوحت لها بصلابة اشتدت في نفسه وأخافتها. إذا غضب شداد، فهذا يعني أنها تجاوزت الحد. وصمتت منتظرة منه الكلام.

قال: ـ شوفي خولة. أنا لا يمكن اتهامي بنوايا السوء. وإذا كنت جئت لتقولي إن نواياي سيئة، فلا فائدة من الحوار، لأني لن أتحاور معك على أساس الدفاع عن نفسي ضد اتهاماتك. يكفيني المحققون. واتهاماتك حتماً جاءت من عبسي. وحتماً حكيت معه البارحة، أو اليوم حتى.

قالت خولة بتحد متكبر: ـ يعني أنا دون مستوى هذا الفهم.

قبيل أن تنتهي ابتسامة شداد التي يبعد بها احتدام شعوره، قالت زهرة بجفاف:

ـ لو كانت هذه الأفكار أفكارك كنت تسألين أسئلة، لا تهاجمين مثل نابليون. أنت تتكلمين وكأن رجلك من فوق، كأن المطلوب بس أن نتقيد بتوجيهاتك. وهذا لا ينسجم مع شخصيتك؛ ينسجم مع شخصية عبسي. عبسي تعود على السلطة، وهو متعود شغلة الوصاية علينا، وعليك. إذا اعترض أو إذا نصح، أعطى أوامر.

قال شداد بسرعة: ـ أعظم شيء يحققه الانسان هو أن يتعرف على نفسه. وأنا أريد أن أعرف نفسي. أنا يمكن تأخرت حتى رأيت أن هذا الشيء ضروري. أنتم كلكم صنعتم أوهامكم وتصوراتكم وصورة عن أنفسكم. أنا أريد أن أعرف أين تقف قدماي، ومن أنا. أين مكاني في هذا العالم. وماذا أعني في هذا العالم.

قالت خولة مشرئبة الجذع: ـ شداد، اعمل كل ما يحلو لك. لكن لا تصر أنت وأخوك عدوين.

ورد هو بأناة: ـ يا خولة افهمي علي. ان تظني كلامي موجهاً ضد عبسي تكوني واهمة. العالم الذي نعيش فيه ليس عبسي وشداد وانتهينا. العالم كبير، كبير، ويجرنا كلنا من آذاننا.

نبرت هي بسرعة: ـ شفت؟ هنا نختلف. لا يا سيدي، العالم هو عبسي وشداد. وأنا لا حياة لي بدونكما. أنا لا أتحمل أن أراكما مختلفين. اقتلني أنت، أو هو، ولا تختلفا.

ـ أنت تحشرين الحياة في وكر ضيق يا خولة. وماذا إذا كان لا بد أن نختلف؟ نحن لا نختلف أو نتفق لأننا أخوة. هذه موضة انتهت. نختلف إذا كنا في موقعين مختلفين. ونتفق إذا كنا في موقعين متفقين. وعبسي وأنا في موقعين مختلفين.

ـ يعني ستصيران عدوين. والسبب سيكون أنت. لأن عبسي لا يقوم ضدك في أي شيء.

ابتسم شداد بمرح متبرم. وسارعت زهرة الى القول:

ـ طبعاً عبسي لا يقوم ضد شداد بأي شيء. لماذا يقوم؟ الأقوياء، دائماً يريدون السلام. ليظلوا مسيطرين. يستعينون بكل شيء، قيم وتقاليد وثروة وعلاقات، بكل ما ورثوه، ليحافظوا على السلام. السلام بأي ثمن. على حساب العدل، والحرية، والحق، والقانون. في هذه الأيام عملوا السلام القيمة الوحيدة في الحياة. وعبسي يريد السلام. ولكن على أساس أن نذوب كلنا في شخصه. لا يريد خلافات ليبقى في القمة. وأنت تحكين عنه كأنه مقدس. لأنه الأقوى. شيخ السنديان السابع. ترينه حامي الحمى. البطل. لا يوجه له نقد، ولا يكون مخطئاً أبداً. لو كنا نعيش قبل ثلاثة آلاف سنة، لصار إلهاً.

قالت خولة بسخرية محسوبة: ـ هذه أفكارك أنت، أم أفكار المثقف الثوري؟

قال شداد بسرعة: ـ لا. نحن أتفه من أن تكون عندنا أفكار. لذلك، أنا لا أقوم ضد عبسي بشيء. لماذا تخافون من الكلام؟ أنا لا أفعل شيئاً غير الكلام. بينما غيري يرتكب الجرائم. كل هذه الضجة لأن لساني طويل؟ أنا لا أحس إلا ولساني يتكلم ضد البشاعة.

ـ ضد البشاعة. متى كان عبسي بشعاً؟

ـ يا أخي أنتم جننتموني. كل كلمة، كل خطوة، كل شعور، موجه الى عبسي؟ لماذا ليس ضد سرحان؟ أو يوسف؟ أو عمر الماوي؟ أو رجب العز؟

هتفت خولة بقوة: ـ هؤلاء مثل عبسي. وأنت تتكلم ضدهم.

نبرت زهرة بازدراء: ـ رجب العز قتل طفلاً بسيارته قبل ثلاثين سنة، ولم يحاكم حتى الآن. مثل عبسي؟ إذا كان الأمر هكذا، نحن فعلاً ضد عبسي. هؤلاء الأغوات الجدد. طلعوا ضد الأغوات في الضيعة، وصاروا أغوات في المدينة. مزارع، بساتين، كروم، عمارات، سيارات، أموال، سلطة. أنت تدافعين عن هؤلاء؟ أبوك كان في صف الأغوات أو في صف الفلاحين؟

أجابت بنبرة دفاعية قوية: ـ أنا لا أدافع عنهم. أنا يهمني أن لا يختلف شداد مع أخيه.

نبرت زهرة بقوة: ـ كيف تريدينه ألا يختلف؟ وقت ينفرز كل واحد في طبقة، يختلف.

قاطعتها خولة بابتسامة متعالية: ـ وأنت تتكلمين في الخلاف الطبقي، ما شاء الله؟

ردت زهرة بابتسام مفاجىء مرير: ـ ولو! أنا التي يحق لي. وأنت ست العارفين. أنا لقيت من اضطهاد الأغوات القدامى والجدد، أكثر من الجميع. تعرفين. أولاد الحرام لا يريدون أن يتركوا الناس تعيش بسلام. هؤلاء يعيشون عالجنط. لا ثروة ولا أخلاق. لا علاقات اجتماعية ولا عائلية. تريدينهم أن يحكوا في الوفاق الطبقي؟ هؤلاء يريدون تخريب المجتمع.

ردت خولة بتعال ثابت: ـ شداد لن يكون منهم. شداد ابن أصل، ولا يتنكر للروابط المقدسة.

سألت زهرة بسخرية: ـ أين كانت روابطكم المقدسة يوم تزوج؟

كان السؤال مباشراً أكثر من المتوقع. لثوان لجم خولة، وعزز وقعه خوف مبهم أحسته دائماً تجاه زهرة. وازداد إذ تذكرت قول عبسي ذات يوم أنه يخافها خوفاً غريزياً.

قالت بمسالمة: ـ أنا ما جئت هنا لأفتح جروحاً قديمة. يكفي الذي مضى.

ـ بس أنت تفتحينها. والذي مضى لم يمض.

قال شداد: ـ لا عليه يا زهرة. خلينا بعيدين عن الشر.

ظنت خولة أن شداد سيتكلم أخيراً، وزهرة ستسكت، فالتفتت اليه مستنجدة:

ـ يومها كان موقفنا طبيعياً. لا أحد لامنا عليه.

قالت زهرة: ـ ويسمون حالهم ثوريين. قل لي كيف يكون التخلف اذن. يلاحقونك بروابطهم العائلية وقت تلزمهم، ويتنكرون لها وقت يحسون بالخطر على مصالحهم. كأننا نعيش في عصر القبائل. لا يعرفون قيمة لأحد أو لشيء إلا من روابطه العائلية، المقدسة! والله أعلم ماذا وراءها. محمد علي الريحان ظل سبعاً وعشرين سنة لم يفتح فمه مع أخته. فجأة! زارها، أخذ لها هدايا! وبعد مدة اشترى حصتها، وحصة أختها، وحصة أخوات أبو ابراهيم. لله تعالى يشتري هذه الحصص؟

التفتت خولة اليها بارتياب واستغراب: ـ أي شيء قصدك؟

ـ قصدي أنا أو قصده هو؟ يمكن سعر الأرض أكثر مما قيل لنا. يشتريها بعشرين ويقبض مئة.

ـ مستحيل. محمد علي أشرف رجل على وجه الأرض. مئة مرة داواني ولم يأخذ قرشاً واحداً. هو أخذ معنى

من موضوع الارث ورجع الى أصوله. الوفاق بين الأخوة أحسن من الخلاف. أنا لا أقدر أن أتحمل أنك تختلف مع أخيك.

قال شداد برجاء هادىء: ـ يا خولة، يا خولة، افهمي. ألأننا أخوة، يجب أن أغض النظر عن الشر؟ عندما كنا صغاراً، وحصلت بلادنا على استقلالها، شعلت نار في الجيل الجديد. خلال عشر سنوات كانت أفواج وأفواج من الشباب تحمل راية التجديد، تقف ضد الظلم والاستغلال والعبودية والتخلف. كنا مؤمنين أن هذه الأوضاع كلها ستنتهي. والحرية والعدل سينتصران، ليس فقط في سورية، وإنما في العالم بأسره ـ في عشرين أو ثلاثين سنة. أين نحن الآن؟ طبقة تمضي وطبقة تجيء ولا جديد تحت الشمس. هذا الذي يبلبل عقلي. يطير سكينتي. ترى الناس يضحكون على أنفسهم؟ لأنه لم يتغير شيء. بقي الغني وبقي الفقير، وصارت الحالة أسوأ. الكذب، الاستغلال، الاضطهاد، البؤس، هي التي تنتصر. والصدق، والعدل، والحرية، والفرح، هي التي تنهزم. حالة مسخ، مشوهة، ذيلية، العالم كله يمشي على الطريق الغلط بالقوة، ومنذ الأزل.

قالت خولة بملامة ناصحة: ـ وأنت ستصلح طريق العالم؟

ـ أعوذ بالله. قلت لك أنا لا علاقة لي بشيء. أنا يهمني ألا يصل فساد العالم الي. ألاّ يدخل بيتي. أنا أدافع عن نفسي. أدافع فقط.

ـ وكيف يصل فساد العالم اليك؟ أنت وزهرة سعيدان، وولداك يحسدك عليهما الناس.

ـ نعم. لكن ما أن أخرج من هذا البيت حتى تخرج السعادة مني. يركبني الضيق والحزن. وأحياناً يدخلان معي الى البيت. لا تقدرين أن تضعيها على الطريق وتدخلي البيت. أحياناً نتشاجر، لا لسبب، إلا لأن الحياة صارت نكداً وضيقاً. خولة، أين الفرح الذي كان لنا أيام زمان؟ أين السعادة التي كانت تملؤنا وقت نعثر على زهرة بخور مريم واحدة؟ مختفية بين الأعشاب، أو شامخة فوقها. أين فرح القروش القليلة التي كنت تقبضينها لخياطة فستان؟ أو أقبضها انا من غسلة ثياب؟ أنت، أنت نفسك. قولي بصدق وجرأة، ما الفرق بينك يوم انفصلت عن شكيب الغفري، وبينك هذا اليوم.

صمتت. وبالتدريج شردت عيناها. تأملها الزوجان بفضول. ولم تنتبه الى أي منهما. كان السؤال بريئاً حتى الانفجار. شق غمامة الأصوات والحنق وارتمى في خاطرها كصخرة. ابتسمت. وبدا وجهها وفمها متعبين، مظللين بالخطوط. محياها كله. كان خالياً من أية جاذبية سوى التقدم في العمر. وبين لحظة وأخرى بدا مفلوحاً بالزمن والتعب.

تبادل الزوجان نظرة اكتشاف حزين. لكن خولة قطعت حوارهما. همست كمن تخاطب شخصاً لا تراه:

ـ مرت فترة، أحسست أني صرت فعلاً شغلة عظيمة. كنت فرحة بعملي. وبيتي. وحياتي مع الناس. نقصني شيء واحد.. وهذا الشيء ضاع.. ضاع وضيّع...

قال شداد: أريد أن أقول لك، انهم هم الناس الذين حققوا معي، الذين يبثون الرعب في قلبي.

ابتسمت بتعب: ـ على كل حال، أنا مسامحة. يمكن هم تغيروا وصاروا غير شيء.

ـ ولكن أنت لم تتغيري. بقيت واقفة على عتبة الحلم. لم تدخلي. ولم ترجعي.

ـ لم أدخل ولم أرجع. صحيح. يمكن لو كنت شجاعة أكثر شوية. أو يمكن أنا أخطأت الاختيار... من يعرف؟ بس الذي تقوله صحيح. قبل عشرين سنة كنت أفرح بليرة تأتيني من شغلي. الآن، تأتيني مئة ليرة، ولا أفرح. حتى الميراث أراه بلا فرح في هذه اللحظة. قبضة من المال. تنتهي كما انتهى غيرها. لن يجمع بيت السنديان ويوحدهم. لو كنت شجاعة كنت سعيدة.

عندما عادت الى البيت كان مزاجها كله قد تغير. عادت وهي في همّ آخر، وآخر، وآخر. وبعد أسبوع أيقنت أن شيئاً لم يتغير بين عبسي وشداد. لم تستطع أن تزحزح أحداً عن موقفه. وفي الأيام التالية انجرف رأسها في نهر من الضباب. كان حيان في القرية منذ انتهاء امتحاناته. لم تطق الجلوس في الشرفة. ولا التجول في البيت، وقد صار صمته مدوياً. صورة وراء أخرى من صور الصدام الممكن ولجت رأسها وحرثته. وأمام دفق الصور أحست بارتخاء. تمددت على كنبة عريضة، فهب في جسمها لفح ساخن، وسمعت في أعماقها صوتاً ينادي عبسي وشداد أن يأتيا الى أختهما المريضة.

خطر لها أنها قد تكون مريضة حقاً. حملت جسدها الى صيدلية البيت، ودست ميزان الحرارة في فمها. ورأت حرارتها ثمانية وثلاثة أعشار، فاجتاحها غضب مقهور على حيان الغافل عن أمه مع أصحاب عابثين. كم سنة ستمضي قبل أن يصير رجلاً وتعتمد عليه؟ وداهمتها رغبة في البكاء.

كان اليوم التالي خميساً. وعند العصر صرت قميص النوم في جريدة قديمة، وركبت الباص الى الشير. لم تجد حيان في البيت. صنعت فنجان قهوة وجلست في الشرفة. كانت الشمس تهبط نحو البحر، والمكان خالياً. بعد أن هدم بيته ليمر الشارع الجديد، صار العثور عليه مسألة حظ ومصادفة. وخطر لها أنها يمكن أن تراه على الظهر بين القبور. وسرعان ما صار الاحتمال إمكاناً. نهضت، ومضت بين البساتين متضايقة قليلاً. الدروب القديمة بين التخوم اندثرت. وكل مرة تضطر الى تفحص مسيرة قدميها. لكن الأرض بدت على شكلها القديم عندما وصلت هي الى القبور. لم يكن هناك أحد. ولا شيء يدل على وجوده. وصلت الى مقام الخضر، وقبلت واحدة من الحجارة القليلة الباقية على مداس فرسه. جلست. أمامها، على بعد عشرة أمتار في المنحدر، لمحت باقة ريحان أخضر في ضريح بديع خضير الاسمنتي. عجبت. أقامها الفضول، فنزلت نحو الضريح. وهناك رأته. كان جالساً وظهره الى جدار الضريح الغربي، يرقب غروب الشمس، وبيده عود ريحان. كان وجهه مثل أرض شاسعة مقسمة الى حقول ومزارع، ومرئية من طائرة.

ـ الله يمسيك بالخير، يا شيخ بهاء.

التفت اليها بهدوء، ولم يوح وجهه أنه عرفها. وأسرعت بالكلام قبل أن تفوتها الفرصة:

ـ أنا أبحث عنك لتقول لي كيف هي السنة القادمة بالنسبة لعبسي وشداد.

كان ما يزال ينظر اليها بلا أي معنى:

ـ لا تخافي. أنت لك أخ ثالث.

أيقنت أنها لن تظفر منه بطائل. لكنها قررت أن تماشيه:

ـ كانوا كثيرين، وماتوا. لم يبق غير اثنين.

ـ سيظهر من بين الغيوم. وستحاكمين عليه.

ـ وعبسي وشداد، سيصير لهما شيء؟

ـ الطلوع صعب. النزول أصعب. العودة من الموت أصعب وأصعب.

وبعدها أقفل فمه. منذ سنوات ترك الخمرة. والطعام أيضاً، كما يقال. لم يعد يحفل بالقرية، ولا القرية به. وعجبت خولة كيف تذكر هذا القبر بالذات، وكيف جاءه بباقة ريحان.

لا تخافي ـ قال لها. وبعد يومين بقيت هاتان الكلمتان فقط في ذهنها. وكانتا كافيتين رغم كل شيء. خلال أسابيع قليلة تالية، منحتاها طمأنينة لم يكن سوى الفارس الأبيض يمنحها لها.

لكن بقية الكلمات عادت واقتحمت أذنيها بدوي أصم، في لحظة كانت الكلمتان غائبتين عنها. ذلك اليوم الأغبر بالحر والعرق، انعقدت جلسة المحكمة، وفاجأهم القاضي بابتسامة كاللغم، وتكلم.

كان الجميع هناك، فرحين بالعودة أخيراً الى اسم السنديان العريق. وكان واضحاً أنه لم تعد ثمة عقبات تحول دون معانقة الاسم الناضح رهبة وفخاراً. تفحص القاضي الملف وتنحنح، ثم رفع يدين وديعتين:

ـ سيادة العميد. أنت والسيد شداد والسيدة خولة، قدمتم قيود نفوس من دائرة الأحوال المدنية؛ هل دققتم في السجلات؟ أنت لك أخ لم أسمع به من قبل، واسمه مدون في القيد. أين هو؟

بادىء الأمر ظنت خولة أن الشيخ بهاء يتكلم. وإذ التقت عيناها بعيني عبسي، وأعين الآخرين، ثم التقت أعين الآخرين بعضها ببعض، كانت كلمات القاضي تزداد غموضاً وتوغل في ظلمة الفهم، حتى بدت كالطلسم. صمت تام وحيرة رانا عليهم، فأقفرت المحكمة إلا من خلجات الحر.

قال القاضي: ـ اسمه كنعان، مولود عام ١٩٢٦. أليس موجوداً في سورية؟

انفك الطلسم. كنعان! لكن كنعان مات. ترك البلاد منذ خمسة وثلاثين عاماً. عاد جميع الذين تركوا، ولم يعد. بعضهم قال لم يشاهدوه. بعضهم قال مات. كان القول الثاني أقرب الى التصديق. ومرت الأيام فترسخ، والأعوام فصار يقيناً.

أمام وجه القاضي كانوا موقنين أن كنعان مات. ولكن من يجرؤ على قول الكلمة؟ صمت عبسي، ولم يعط تفسيراً. وتوافدت اليه نظرات الآخرين، تسأل وتطلب جواباً.

قال القاضي: ـ بالنسبة لكم، يمكن الآن إصدار حكم بتصحيح الكنية. لكن كما أفهم، هناك موضوع إرث، وتنازل جماعي للدولة مقابل تعويض مالي. وهذا لن يتم إذا بقيت قضية كنعان عبد الجواد الخياط معلقة. ليس هناك حل، إلا أن يأتي بنفسه، أو تأتوا بشاهدين..

لم يكمل عبارته. غير أنها كانت مفهومة. ولم يتكلم أحد. كان الوجوم متمكناً منهم حتى أنهم بالكاد سمعوا كلمات القاضي الرصاصية.

تنحنح محمد علي. ثم أمسك عن الكلام تأدباً. وتذكر شداد كلمات اسماعيل عن علامات الميراث، وزفر إذ رأى أن المشاكل لا العلامات هي التي نجمت. وكان اسماعيل في عالم آخر من الذكريات المنسية. وبدا على حبرية أنها لم تع سر الوجوم الكابح الذي أمسك بهم، مع أن العدوى أصابتها بشيء منه. وكانت خولة ما تزال تنظر الى القاضي وترى الشيخ بهاء، فلم تلتقط نظرة عبسي نصف المستنجدة، ولا ابتسامته الحائرة الخائرة.

قال القاضي: ـ سيادة العميد. أرى تأجيل الجلسة ريثما تبتون بأمر أخيكم كنعان.

هز عبسي رأسه هزات قصيرة أقرب الى الشعور بالخلاص منها الى الموافقة. وبعد دقائق خرجوا من المحكمة.

بسرعة عادية صارت الخطوة القادمة واضحة تماماً: هل يعلنون موت كنعان ويقتسمون الميراث، أم ماذا؟ وكانت (ماذا) مربكة بما فيه الكفاية. ماذا ـ عنت أن يحضر الغائب بنفسه، أن يكون على قيد الحياة ويحضر، كي يقتسموا الميراث. وإذا لم يحضر، ولو كان على قيد الحياة، فكل شيء سيتوقف: وحدة العائلة التي حرص عليها عبسي ومحمد علي، العلامات التي بشر بها اسماعيل، وعشرون ألف ليرة ستوجه طعنة قاتلة لشقاء حبرية وخولة وشداد. إذا لم يحضر، فحتى استرداد اسم السنديان لن يكون مجدياً.

وراحت حبرية تهز رأسها كلما تذكرت المحكمة. بعد عودتها قالت لأبي ياسر: «لا أعرف من أين طلع لنا كنعان هذا ونزع علينا الحفلة. من سيخون ضميره ويشهد أنه مات؟ قلنا اصطلحت العائلة، طلع لنا خازوق جديد.» وأعجبت محمد علي عبارة «نزع الحفلة» عندما سمعها، وابتسم وهو يفكر في وسيلة لاستمرار الحفلة.

لكن ظلالاً كثيفة قامت في النفوس التي أوجعها النبأ. خلال يومين أو ثلاثة، وصلت خولة الى حافة الانهيار. كانت تضع وجهها بين يديها وتعصره، كأنها تريد أن تخرج منه رجساً. ربع قرن. ربع قرن. منذ وفاة أبي أحمد. لم تذكر كنعان مرة واحدة. يا للأنانية ويا للدناءة. لم تستطع أن ترد على عبسي بحرف واحد عندما سألها ما العمل. واذ ألح صرخت في وجهه بكلام غير مفهوم، ثم استطاعت أن تقول:

ـ لو من عشرين سنة، خمس وعشرين سنة، استفسرنا عنه، كنا وصلنا الى نتيجة. أي ذل. الآن، يذكروننا به.

كان عبسي واثقاً أن كنعان مات. مثل هذا الغياب المديد لا يعني سوى الموت. وخولة قالت حقاً، لكن كلماتها الناعبة زادته وثوقاً. المشكلة هي كيف يعلن موت كنعان. اعلان صغير، وتنتهي المشكلة. لكنه مطلق مستحيل. من الذي يعلن موت أخيه؟ وعلى مدينة بأكملها. لسوف يبقى كنعان معلقاً بين الموت والحياة، ذلاً مرفوعاً كراية سوداء. خمسة وثلاثون عاماً. بلا سؤال ولا تذكر. حتى إذا اجتمعوا لاقتسام الميراث، جاء هو وصار هاجساً.

كان شداد أكثر إيلاماً من خولة. قال لعبسي أنه إذا صار شيء لتمويت كنعان فسيقف ضده في المحكمة. وأدار عبسي رأسه شارداً مبلبل الذهن. بعد قليل غمغم:

ـ ما العمل؟

قال شداد بحيرة: ـ يجب أن نفعل شيئاً.

نظر اليه عبسي بشبه عذاب: ـ كيف نسترده بعد هذا الغياب الطويل. ماذا نقول في المحكمة؟

سأل شداد وقد أشفق لعذابه: ـ سيشهد أحد أنه مات؟

هز رأسه بالنفي: ـ لن يشهد أحد. خمس وثلاثون سنة. أين هو؟

ـ يمكن في سجن إسرائيلي. حكم مؤبد، أو شيء من هذا النوع.

ـ هذه هي المصيبة. هذا ما أنا خائف منه. يا الهي. نكون خسرنا أخاً، وسمعتنا تمرغت في الوحل. أنت تعرف أنه كان أذكى واحد بيننا؟ كان شعلة ذكاء.

الوحيد الذي لم يأته الاضطراب ولا حس المشكلة، كان اسماعيل. بعد عدة أيام من استعادة الذكريات القليلة السعيدة، مضى الى عبسي وطلب مقابلته. وتحمل ساعة وربعاً من الانتظار قبل أن يأذن له السكرتير بالدخول. وبعد أن اهتدى الى كنبة في المكتب الفسيح المدوخ، جلس:

ـ ابن عمي. المسألة بسيطة، بسيطة كثيراً. عندكم سجلات أنتم. دفاتر قديمة. راجعوها. كثيرون عملوا في الجيش أيام الاحتلال. نعم. منهم، ما يزالون أحياء. يقبضون رواتب تقاعدية. اسألوا حتى الذين عملوا في جيش الانقاذ. من يعرف؟ إذا لم يتأكد أن ابن عمي مات؛ عضو جديد في بيت السنديان، قوة إضافية. وإذا تأكد أنه مات؛ الموت حق.

لأول مرة منذ نيف وربع قرن، ينظر عبسي الى اسماعيل بإعجاب. وخلال نصف ساعة كانا يتناولان السمك المشوي في مطعم اسبيرو.

خلال يومين، كان كل من لديه دفاتر قديمة في الجيش يبرق لعبسي أو يهتف بأسماء المحاربين القدماء في الأربعينات، الموتى منهم والأحياء، وبعناوين عائلاتهم. ومضى عشرون يوماً في التحقيقات المضنية. عساكر تمضي الى العناوين، تسأل وتعود. متقاعدون يأتون الى عبسي أو يذهب اليهم. أبناء وبنات وأحفاد. برقيات وهواتف ورسائل: وكانت الأجوبة مختلفة. الغالبية العظمى لم تتذكر أحداً بهذا الاسم. أناس بعدد الأصابع قالوا إنهم التقوا به قبل عام ١٩٤٥. واثنان قالا إنه في ذلك العام ترك الجيش الفرنسي والتحق بالانكليزي، ومضى الى فلسطين. واحد فقط قال إنه رآه مرة في عكا عام ١٩٤٨.

عشرون يوماً. كان عبسي سعيداً. ليس فقط لأنها أيام حفلت بالحركة، وإنما أيضاً لأنها كانت مكرسة كلها لأخيه، وشحنته بالرضى. لكنه عندما وصل الى عام ١٩٤٨، وانقطع الخيط، أحس أن شيئاً في داخله انهار. ثمانية وعشرون عاماً، وكنعان طي الغيب.

تذكر كلمات اسماعيل، وهو يغوص في الكنبة: إذا لم يتأكد أن ابن عمي مات نتابع البحث، وإذا تأكد، الموت حق. وها هو ذا كنعان، الحي الميت، يرفض الإجابة عن الاحتمالات. أين يبحث عنه؟ في اسرائيل؟

قالت فدوى برقة توشك أن تتوسل: ـ دعك من حكاية الارث هذه. اتركها للظروف.

لم تخطىء أذناه نبرة الاشفاق المبطنة. وأوشك أن يزمجر، لكنه امتنع. هذه المعركة، ولا أية معركة. شرفه على المحك. وفدوى تنصحه بالهزيمة، وهو سيثبت لها أنه لا يهزم.

قال: ـ الموضوع صار أكبر. هذه مسؤولية أخلاقية. مسوولية اللحم والدم. لن نستحق الارث من دون كنعان. والبلد كلها تعرف.

قالت: ـ مسألة كنعان طبعاً مسألة مقدسة. لكن وجود البنات في البيت لن يقدم أو يؤخر. خلص الصيف ولم يطلعن لا الى جبل ولا الى بحر. هؤلاء في أول عمرهن، سيجيء يوم ويصرن مسؤولات.

ضايقه الكلام. في هذه الظروف المصيرية، تتحدث في صيفية البنات. كان توتره قد بلغ ذروة لم يبلغها من قبل. بعد الأيام العشرين صار موقناً أن كنعان انتهى. وكلما أراد أن يصب يقينه في كلمات، هتفت نفسه بصوت ملؤه الذعر: مستحيل! لن أقولها. إلا بوثائق دامغة.

وها هو ذا رجب العز وعمر الماوي. جاءا يعلنان عن اتفاق لبيع قسم من معادن السفينة، ويطلبان الموافقة. كانت الأسعار مجزية، مئة بالمئة من الربح الصافي. لم يكن الحوار صعباً. على العكس، بدأ سهلاً، وانتهى سريعاً، وبروح ودية عالية.

قال عمر الماوي: ـ اسمح لي يا سيادة العميد أحكي كلمتين نظيفتين. الحقيقة، البلد كلها تحكي بالتعب الذي تعبته لتأخذ خبراً عن أخيك. بس يعني، زدتها حبتين. بعد ٣٥ سنة، الذي رجع رجع، والذي ما رجع لاقى ربه. حتى الحرب العالمية نسيها الناس. وأنت عندك أخ، وعندك أخت، وأولاد.

قال عبسي بمرارة: ـ كيف أعرف أنه لاقى ربه؟ هذا أخي. لحمي ودمي.

قال أبو الفضل باقتضاب: ـ المسألة مسألة قرار، لا معرفة.

عاد الى البيت ورأسه يدور. وهناك رنت في أذنيه كلمات رجب. قال لفدوى إنه لن يأكل، بل يود أن ينام. ومضى ففتح باب غرفة النوم. دهش إذ رأى سوسن جالسة على السرير بتحفز. أدرك أنه أخطأ الغرفة وهمّ بالرجوع. وعاد فنظر اليها بانتباه كهربائي. كانت ساكنة تماماً، بلا خلجة، سوى خيط الدخان المتعالي من سيجارة أمسكت بها امام صدرها وجمدت في الهواء.

تلاشت من فمه كلمة «مرحباً» التي أوشك أن يقولها. وأشار لسوسن بيده أن تأتي، وعاد الى البهو. جلس

قرب فدوى بلا أمارات. لم يرد على نظرتها المتسائلة. تناول علبه الدخان وأشعل سيجارتين، أعطاها واحدة. برزت سوسن في أول البهو. وقفت تحضن يداً بيد، وتشد اليدين على بطنها. واقترب كتفاها قليلاً من رأسها، وانفرجت شفتاها.

ـ تعالي، بابا.

جاءت. وأشار لها أن تجلس، فجلست. قدم لها سيجارة، فأبت. وأصر، فرفضت. أطرق، وتناول نفساً من سيجارته، فانتظرت وتوقعت.

ـ أنت تدخنين من زمان؟

خرجت من فمها كلمة «لا» جافة مبحوحة.

ـ منذ متى، يعني؟

لم تجب.

قام. ومضى الى غرفتها.

قالت فدوى: ـ ستتحملين الآن مصيرك، يا بنتي. أنا لا أقدر أن أدافع عنك. قلت لك هذا الشيء من قبل، وأنت قبلت.

هزت سوسن رأسها بالموافقة. التفتت الى البهو، كمن تراه بلا أبواب، سوى الذي سيأتي منه أبوها. وأقبل عبسي حاملاً حفنة من أعقاب السجائر. وضع الحفنة على التربيزة وجلس.

ـ عدّي، كم عقب سيجارة هنا. ما زال تحت السرير عشرون حفنة. عديها.

لم تتحرك. صرخ: ـ ألا تسمعين الكلام؟ عديها.

لم تتحرك. نظر اليها بسكون. كانت مطرقة، ورأى في إطراقها تحجراً متحدياً. فجأة، بلا مقدمات، دونما إشارة أو وعي سابق، ارتفعت يده وهوت على وجهها. برم رأسها نحو الكتف، وهوت على الأرض. وشاهدها وهي ترتطم، ثم تتوقف، فكأن ثقلاً هوى من نفسه، عابراً يده. وشاهدها وهي تنهض نصف نهوض، ورأسها ملتفت اليه. تفرس في العينين البليلتين الجامدتين. وانكمش شيء فيه إذ لفحته نظرتها. لم تقل شيئاً، سوى تلك النظرة. وكان ذلك كافياً لإضرام نار في صدره: هذه الأنثى تتحداه. ذلكم هم الأقارب. عقارب. لسعات وطعنات.

تلكأ قليلاً. انتصب ومشى في البهو. لم يكن خائفاً من غضبه. كان يريد له أن ينفجر. لكنه انتظر. وراقبت الاثنتان انتظاره. لم يكن مهماً السؤال عما إذا كان عنفه سينفجر، وإنما متى. راقبتاه بروية خاصة. رأتاه كتلة من الأعصاب، واقفة على طرف العنف.

قال لنفسه إن شيئاً ما، شيئاً يمكن أن يسمى قدراً، قد بدأ يحاك ضده. شداد يهدد، وكنعان هذا يرسل اسمه. سوسن تدخن. ألا يمكن للحياة أن تهدأ ولو قليلاً؟ دائماً هذه الانفجارات؟ أليسوا هم الذين يبحثون عن العنف؟ غير أن كل شيء يهون أمام هذه البنت. هذه الحشرة السوداء. لقد شاد حياته مدماكاً بعد مدماك. ورفع سدوداً عالية تستعصي على المدافع والسيول. وها هو الشر ينبع من داخلها. هذه الحشرة السوداء. عندما ولدت كان لها غرفة خاصة بها. هي وأختاها. أغدق عليهن كل شيء. لم يطلب منهن سوى الخلق القويم. حتى أسئلة البكالوريا كان سيأتيها بها في حينها. سلة مترعة بأعقاب السجائر. بذل عمراً وهو يؤسس سلاماً للروح في بيئة انتقى ترابها وأغراسها بيده. النتيجة: واحد يهدد بضعفه، واحدة تقتل بانسحابها، واحد يرسل اسماً

فيبقي آل السنديان شراذم، واحدة تركب رأس العنف. خذلان تام. استهتار مطلق ـ بكل شيء صاره أو أنجزه.

وهو لن يسمح، لن يسمح بتدمير قيم هدأت روحه على مطلقها. لن يسمح بتعطيل مسيرة عمر من البناء. لن يسمح بالعقوق مقابل عطاء بلا حدود وحب بلا حدود. لن يسمح بأن يقلقوا ضميره. لن يسمح بتهديم مجده. لن يسمح.

سمع فدوى تهتف بصوت رصين كالموت: ـ عبسي، أنت السبب.

توقف عن المشي مصعوقاً وحدق اليها.

ـ لم تترك لها فعلاً تفعله إلا ما تختاره أنت.

سأل بهدوء فاجأها: ـ وهل أختار لها إلا أشرف الأفعال؟

ـ أبوك اختار لك الفلاحة وكانت في رأيه أشرف الأفعال.

ـ لتعارضني مثلما عارضت أبي، وتصل الى ما وصلت اليه، أنا راض.

ـ إذا توقفت أن تفكر بالنيابة عنها، وتتكلم بالنيابة عنها، وتشعر بالنيابة عنها. حتى الفستان أنت تشتريه لها.

ـ هل اخترت لها يوماً إلا أروع الفساتين وأغلاها؟

ـ هي تريد أن تلبس على ذوقها. شيء تقدر أن تجلس به، وتأخذ حريتها.

ـ تأخذ حريتها. أنا السبب أو أنت السبب؟ هذه هي ديمقراطيتك. أوصلتها الى التدخين. أنا لا أفهم. هذه بنت قاصرة. تأخذ حريتها يعني تدوس على القيم التي أعلمها عليها، يعني تهدم ما بنيته وأبنيه لأجلها. يعني الفوضى والانحراف والسفالة والوحل. تريدين أن تجلسي على الوحل، ما؟ قفي قائمة.

بلا إبطاء وقفت سوسن، وبلا سرعة: رأسها ممطوط الى الأمام والأسفل، وشفتاها منتفختان منفرجتان. استطار غضبه. هذه الوقفة. الذليلة المعراة من الكرامة. من أين ينبع هذا الذل كله؟ وأين يختفي عندما تدخن؟ تدعوه لأن يضربها. تشعل فتيل الانفجار في صدره.

كلمات فدوى أرجعته الى موقف دفاعي. ووقفة سوسن وارت آخر خلجة من حبه الأبوي. وعندما استنزفت الضربات والركلات قوة كفه وقدميه، كان غضبه قد صار جنوناً وعنفه تدميراً: لم يخرج منها صوت واحد، لا صرخة، لا أنين. وبات همه الأهوس، همه الجسدي الصرف، أن يستقطر منها صيحة واحدة على الأقل، أن يجعلها تعترف بأنها تتوجع. ولأنها لم تستجب، لأن جسدها تحمل الضربات الفاقدة الوعي كاسفنجة إبليسية، صارت خلال الدقائق القصيرة الطويلة رمزاً لكل القوى الصخرية الصماء التي لم يعرف كيف تكونت ولا كيف جاءت، التي هزمها من قبل ألف مرة، التي كانت دائماً هناك، تحت قدمه، والتي ما ان ترتفع عنها القدم حتى تتمطى كالأخطبوط وتتسلق سد المجد وسد القوة وسد المثل العليا، التي تتلقى الضربات كجثة وتمتص قوته كالعلق، لا هي حية ولا ميتة، لا حاضرة ولا غائبة، تنبق من المنعطفات الخالية في المدينة، من الأعين المحدقة المبهمة، من باب سيارة، وشرفة منزل، وشفتي قاض قبض ألف ليرة ليصدر حكماً.

بعد أيام كان يسائل نفسه بحيرة، من أين جاءه ذلك العنف. كانت سوسن طريحة الفراش. وقد تأخرت عن الالتحاق بمدرستها. وكانت أختاها تتحولان الى قطعتي خشب كلما رأتاه. وفدوى، فدوى التي جاءها محمد علي في منتصف الليل وأعطاها مقويات لضغط الدم الهابط. بعد أن أبلت من وعكتها، قبلت بحججه على طول

الخط. لم يصدق بادىء الأمر. لكنها كانت جادة حقاً. لم يضطر الى المحاججة. وافقته مذ بدأ يتكلم: كيف استحقت سوسن ذلك الحمام، وأختاها الحبس؛ كيف أن رأسمال الانسان أخلاقه وشرفه، وأن الغريزة تودي به في مهاوي الردى. أحس بإحباط بسيط وغبطة كبيرة. لقد فات عليه مهرجان صغير للبلاغة، إلا أن فدوى أكدت مرة أخرى تجاوزها لشروط المرأة السورية المتخلفة. هذه هي الزوجة المتطورة. لو كان الشعب كله مثلها.. أووه! لكانت سورية الآن في الأوج، لتقدمت الثورة بوتيرة أسرع.

قال لخولة، بعد أن شتمها شتيمة معتبرة لانشغالها بالخياطة عن زيارتهم، إن الانسان عرضة لأن تمر به لحظات يفقد فيها حسه، يصير خارج دائرة العقل والزمن والخطر، تنفجر فيه قوى لا يعرف من أين مصدرها وتتوجه به كي يوقع الموت بالشيء الذي يجابهه. قال إن سوسن أوصلته الى هذه النقطة من العمى العقلي، ولذلك أطعمها علقة لن تنساها مدى حياتها. وتخوفت خولة من نتائج علقة مماثلة في المستقبل: قد يتشوه شيء في البنت فلا يعود أحد يتزوجها وترتمي في وجهه، قد تصير فضيحة، بل وربما أدى الأمر الى الموت وذهب هو بجريرتها. ثم تنهدت، صفنت: لقد أعطى الله سبحانه وتعالى عبسي كل شيء، الثروة والمجد والسلطة والزوجة المحبة، وحرمه الابن، الذكر، لكي يورثه. وانتبهت الى عبسي يقول:

ـ لا فائدة، خولة. الشعب قطيع. لا يساق إلا بالعصا. وكل ثورة تتهاون في هذه المسألة تضعف وتتفكك. الديمقراطية في شعب متخلف تزيده تخلفاً. وفوضى وعجزاً. أكيد، لولا أني حازم مع سوسن، لسببت لي مئة فضيحة. جيل. في حياتي لم أسمع بشيء أكثر شذوذاً منه. تتشوه، تموت لا أقامها الله. ماذا تساوي الثروة والمركز من دون الشرف؟

مرت أسابيع بدا فيها أن العائلة قد اجتمعت حول مصير كنعان. وبدا أيضاً أن اجتماعها قد تراخى لسبب أو لآخر. بعد الدرس التربوي الذي أخذته سوسن، جاء عمر الماوي بعرض جديد لبيع قسم من أخشاب السفينة الداخلية. وانشغل محمد علي بزيارة غامضة الى مدينتي صافيتا وادلب. وتعكر مزاج شداد بسبب الرسائل القصيرة واختفاء السكر من السوق. وانشغلت كل زوجة بموقف زوجها، ولو الى حين. وأنهت حبرية صرف ألفي الليرة اللذين تلقتهما من محمد علي، دون أن تحس بأي تحسن في منظر غرفتها ومحتوياتها، فارتمت الى جانب السرير بمعنويات محبطة إلا من دعاء حار لله أن يبعث كنعان من الغيب. وتتالت على خولة ثلاث مناسبات منعشات: قداحة فارغة أهدتها لها أم الفضل، ممشاة مبطنة بالفرو جاءتها من رومانيا، ودعوة لعشاء فياض في بيت أم نزار. وفي المساء، بعد أن عادت من الوليمة، جلست وحدها في الشرفة، وتذكرت كنعان فبكت.

بعد أن تسلم شداد رشوة صغيرة، لا تتجاوز عشرين كيلو من السكر والرز، وانفرجت أسارير ذهنه، صنع ملء ابريق شاياً، وجلس مع زهرة والولدين في الجنينة. وجعل يوحوح بعد كل رشفة.

قال: ـ أرسلت لعائلتي أخويك نصف السكر والرز؟

لم ترد. نظر اليه بمودة لافحة. وبعد برهة قالت:

ـ وكنعان؟ نسيتموه، أو وصلتم الى حل؟

أجاب بارتخاء: ـ لم ننسه، ولم نصل الى حل. عندك حل؟

ـ عندي حل. لكنكم ستضحكون منه.

ـ على الأقل نكسب الضحكة. ما هو؟

ـ حرروا فلسطين.

ـ غالية وطلبت رخيصاً. تكرم عينك.

وصل الاقتراح إلى عبسي، اثر لقاء عابر، فهز جذعه أمام وراء وهو يبتسم:

ـ هذه حتماً أفكار صديقك المثقف الثوري.

ـ الحقيقة، هذه الفكرة تشبه أفكاره عموماً. لكن لا نقدر أن ننكر أنها فكرة ممتعة.

ـ قل لي يا شداد: كل ما يقوله صديقك هذا، تصدقه وتعمل به؟

ـ أصدقه؛ ولا أعمل به.

ـ ولماذا لا تعمل به؟

ـ حتى لا أصير في بيت خالتي.

ـ هائل. نعمة. الحمد لله أن لخالتك بيتاً تمنعك ... ارتكاب الحماقات.

كان الحل الذي اقترحه اسماعيل أقل شططاً:

ـ أنت تعرف، ابن عمي، الانكليز شعب راق ومتحضر. كل شيء محفوظ عندهم في سجلات وأضابير. أظن، أظن أن اسم أخي كنعان يمكن أن يوجد في سجلاتهم. نعم. لأن الانكليز شعب متحضر. وأنت، أنت دولة. قل لهم أن يبحثوا لك عن اسم مستر خياط. أكيد سيعطونك خبراً قبل موعد المحاكمة.

انفرجت أسارير عبسي عن ابتسامة مشفقة:

ـ الانكليز يا أبو ابراهيم شطبوا فلسطين من سجلاتهم وأعطوها لليهود؛ تريدهم أن يتذكروا مستر خياط؟

ـ صحيح، الانكليز أعطوا فلسطين لليهود، لكنهم لا يفرطون بكنعان كشخص.

لم يكتمل النقاش. دخل المكتب أناس، ضباط ومدنيون، وانتزعوا اهتمام عبسي. وأدرك اسماعيل في الوقت المناسب أنه صار زائداً.

عندما عاد إلى البيت قبيل الغروب، كان يخشى أن تسيطر عليه مشاعر الحزن والغضب فتحل البلية بعائلته. لذلك أعطى أوامره بألا يطلب منه أي طلب ولا تفتح معه سيرة. رمقته خضرة من طرف عينها، لتسبر حجم همه، وتعرف ما إذا كان بوسعها خرق أوامره. غير أنه دخل الغرفة وجلس، ومد ذراعيه على ذراعي الكرسي، وأرخى ذقنه على صدره.

لم ينتبه لخضرة. وبعد ثوان من جلوسه على الكرسي تلاشى حسه بالمكان، وراح يلوم كنعان على ضياعه. لسوف تتخذ الدولة هذا الضياع حجة لمصادرة الأرض وحرمان أصحابها من حقوقهم، وتتوقف العلامات والأسرار حتى يفصل ما بين الموت والحياة.

وضعت خضرة صحنا من الرز وملعقة وكسرة خبز على أرومة سنديان جعلت تربيزة، وجرتها إلى قدميه. وأملت أن الأرومة العزيزة على قلبه ستشجعه على الأكل.

مد يدا وتناول الملعقة، وأخرى وتناول كسرة الخبز. جلست خضرة على الأرض، وأراحت ظهرها على الجدار. وطأطأ هو قليلاً فوق صحن الرز، يتناول منه باليمين ويقضم كسرة الخبز باليسار، ويريح مرفقيه أثناء المضغ على ركبتيه.

ثم صدر صوت عن الملعقة. وضعها على طرف الصحن، ورمى الكسرة على الارومة. وهمت قدمه بدفع الارومة بعيداً، وتذكر شغفه بها فامتنع.

قال: ـ منذ متى طبخت هذا الرز؟

فأجابت عن سؤال آخر: ـ أكلنا منه كلنا.

غمغم: ـ لم يبق الا أن نمد أيدينا للناس. في الحقيقة نحن نمدها.

قالت: ـ جارنا أبو اصطيف، اشترى براداً.

ـ أبو اصطيف بلا أخلاق. لص.

ـ ونحن نشحد.

ـ هكذا أشرف.

ـ لا يا اسماعيل. في الضيعة، كان الحصادون ولاقطات السنابل يجمعون شوالات حنطة من سرقة السنابل. ما كنا نقول: بلا أخلاق. الله خلق الأغوات ليسرقهم الفلاحون.

غمغم شارداً: ـ الأغوات. أنا أعمل للدولة لا للأغوات. الدولة دولتنا. أيسرق الإنسان نفسه؟

ـ لو الدولة لمصلحتنا كنا نشبع الخبز. أبو اصطيف أشبع عائلته الخبز. وهو رفيقك في الشغل. امرأته عندها ثلاثة فساتين جديدة، وأولاده يلبسون أحذية.

دفع الارومة بقدمه وصرخ: ـ كفى! لم يبق لي من الدنيا غير شرفي. تريدين تمريغه بالوحل؟

قبل أن تضع أصابعها على فمها الفاغر لتسده، كانت الكلمات قد أفلتت:

ـ طظ في الشرف! بودنا خبز! إلى متى يعني؟

وانتظرت من اسماعيل نظرة تخسفها في الأرض التي جلست عليها.

دون أن يلتفت، ومفترضاً أنها مصغية إليه، تمتم بنبرة الحالم:

ـ من حوالي عشرين سنة يا خضرة أصابني شلل في وجهي. كيف ذهب؟ لماذا لا يرجع والحياة لم تترك صخرة إلا وأنزلتها على صدري؟ السبب أنه في المرة الأولى وقف بدني بوجه الألم والحزن واليأس، وتلقي الضربة. الآن دخلت الصدمة إلى روحي. لهذا الشيء نفد وجهي من الشلل. ووجهك أنت، لأنه لو روحي سليمة، كنت أطعمتك علقة أفظع من هذا الرز النتن الذي لا تأكله الكلاب. الحمد لله على كل حال. وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم. في روحي عنف لو يطلع من هذه الغرفة الصغيرة يصل إلى أطراف العالم. هل أنا اسماعيل السنديان؟ الذي دحر الخرافة وأدخل العلم إلى الشير؟ عشت عمري بلا فائدة. سنة وراء سنة. خمسين سنة وأنا أقول، هذه السنة تتصلح الحالة. مضى العمر وحياتنا إلى الوراء. لا صديق يزورك. لا قريب يشد أزرك مثل العالم. حتى البنات، تزوجن وغبن. كل الذين عرفتهم. صاروا غرباء. بعيدين. ما عاد أحد يتعرف عليّ. حياة بلا إنسانية. بلا أخلاق. انهدّت عزيمتي. صار ايماني بالله دفاعاً عن النفس. لا هجوماً على الشر. أن تعيشي بهذه الغربة ـ لا أحد يتعرف عليك. عبسي، محمد علي، سرحان، ضرغام، يوسف. هؤلاء حملوني ذات يوم على أكتافهم. واأسفاه. واأسفاه. ظننت، حلمت أن الميراث سيجلب لي الحرية. أفتح دكاناً لتصليح السيارات، وأرجع اسماعيل السنديان مثلما كنت. واأسفاه. تحقيق هذه الأمنية، يتطلب اما الاعتراف بموت كنعان، وهذا مستحيل، أو حضوره، وهذا مستحيل.

أطرق. وبعد صمت قصير أضاف: ـ أين شداد يا ترى؟ وعدني بشوية رز.

كان شداد في همّ مختلف تماماً. فجأة وإذا نفر من رجال سمع بهم كثيراً دون أن يراهم، ينزلون من مرسيدس بيضاء وقفت أمام السياج، يعرضون عليه ربع مليون ليرة ثمن دونم الأرض الذي يملكه، وربع مليون آخر لدونم حسن الغفري، ويضعون على الطاولة المعدنية شيكاً بخمسين ألفاً، ويغادرونه ليشاور عقله.

وعندما توارت السيارة على الطريق العام، توارى عقله، وفصاحته، وصديقه المثقف الثوري. حتى لسانه تقلص. لم يخطر له من قبل أن هذه الورقة الهشة يمكن أن تذيب صخوراً صماء بهذه السهولة. خمسون ألفاً. وفي أية لحظة تتبعها مئتا ألف. وإذ غادرته زهرة بصمت جهم إلى المطبخ، أحس بخور مهلك، وبرغبة في البكاء. كانوا خبثاء، فقطعوا عليه فرصة الكلام. لو خرجت الأفكار لتجسدت حقائق وموقفاً لا يلين. أحبطوا لسانه ـ هذا الباب السحري إلى عالم اليقينات الصلبة. تركوا لساناً بخمسين ألفاً أقوى من لسانه. واجتاحه غضب ساخط من زهرة: ما إن انفضوا حتى انتصب تعاليها الأخلاقي السمج، وانفضت إلى المطبخ.

وضع فنجان الشاي على الشيك ودخل البيت. وصل إلى باب المطبخ بتؤدة، وسمع قرقعة الصحون. لا شك أن وجهها عابس الآن، وتعابيره مثل تعابير وجه أبي أحمد. استدار ومشى في البهو. أجل. المال والبنون زينة الحياة الدنيا. ليس عبثاً أن جاءت (المال) قبل (البنون). إذا لم يوجد المال، لا يكون البنون زينة الحياة الدنيا.

جلس على الكرسي ومد ساقيه. «آخ». كنبة بدلاً من هذا الكرسي. وسجادة في الشتاء. والولدان ينامان في غرفة خاصة بهما. ووجبة لحم مشوي في مكان ما على شاطىء البحر. وزجاجة بيرة باردة. أمور طبيعية. ألم يأكل كارل ماركس طعاماً شهياً؟

خرجت زهرة من المطبخ ولم تلتفت نحوه. دخلت غرفة النوم. غابت الابتسامة الساهمة عن وجهه. يا للغباء. كأنه بعد كل هذا سيقبل. أمام عينيه عبر النافذة، لمعت أوراق مالية لا نهاية لها. ولكن كيف ستصير علاقته بأبي ابراهيم؟ ماذا سيقول عنه رمضان وبديع المنقوعان في السجن منذ أشهر؟ وصديقه، والآخرون؟ كم واحداً في تاريخ العالم تعرض لمثل هذه التجربة؟ ملايين. الذي رفض مضى، والذي قبل مضى، وتقدمت حياة البشر كأن شيئاً لم يكن. ماذا سيحدث للبشرية إذا قبل؟ لا شيء. إذا كان الايمان بالعدل والحرية سيتفتت بربع مليون ليرة، فهو ايمان مهزوز أساساً. وإلى جهنم وبئس المصير. اثنان وأربعون سنة ـ كيف يعقل أن يتفتت؟ صار طبيعة في النفس. هل المال كيمياء؟ إذا كان هناك فساد فلن يلغيه موقف فردي. تقدمية، فهمنا. ولكن ربع مليون ليرة.. ربع، مليون، ليرة.. ر بـــع مـــلـــيـــو ن لـــيـــر ة. سل أي إنسان في الشارع وسيقول لك خذها يا شيخ وبلا مثاليات خرقاء. وإذا ما حدث شيء، اعتقال، حادث سيارة، مرض مفاجىء، موت، يتهاوى اثنان وأربعون عاماً دفعة واحدة. تتشرد حبيبة وطفلان. ينتهي كل شيء. فكأنك وقفت كل تلك المواقف المبدئية، لا لكي تنجو من الزمان العسير، وإنما منتظراً لحظة وصول المأساة.

انتبه إلى زهرة وهي تضرب أرض البهو بمكنسة مهترئة. هذا الفستان الناصل الرث: حتى بشاعته لم تستطع أن تزري جمالها. كرة أرضية، سوى أن خط الاستواء أنحل أرجائها. لا شك أن للجمال حياة نفسية خاصة به، وليس مجرد شكل.

عبرت جسده رغبة في معانقتها. ابتسم بغبطة وأخذ يتسرق النظر إلى تقاطيعها النهرية القصبية. رغم تعالي الغبار، لم تنكفىء عيناه عن خطوط قامتها الدقيقة. ولماذا لا يرفل هذا البدن الجميل بثياب تليق به؟ إلام يبقى مطموراً بالرثاثة؟ هذا الجسد المترف جمالاً، البديع تكويناً. هذه القامة الشامخة، المنيرة بنار تنور الشبر. ربع مليون ليرة. بيتاً آخر، في مكـان آخر، ويعيشان زماناً جديداً.

تقدمت منه وراء المكنسة، وزوبعة الغبار تسبقها. لم يتحرك. أثبت يديه على ذراعي الكرسي وترك الذريرات الهائجة تجوس في أنفه وأذنيه وأجفانه. وفي فورة غضب جارف، في غمرة إحساس طارىء بمحاصرة خانقة، رماها بنظرة كره محتدم فاغم. وإذ رمت المكنسة فجأة، واتجهت إلى المطبخ بخطى عجولة، صاح بها صوته الداخلي: أنت ما أنت؟ تروحين وتجيئين كأن على كل إنسان أن يحصل منك على براءة ذمة.

انهال عليه احساس بالتعاسة، بأن حياته تمضي، وهو لم ينجز شيئاً. صحيح أنه طيلة حياته كان بطيئاً. لكنه

صار أبطأ منذ تزوجها. فرضت عليه تخشبا في الموقف بحجة النبل، وامتناعاً عن المشاركة بحجة النظافة، وانتظاراً أبله بحجة المستقبل الإنساني. وهذان الطفلان البريئان، لا أنيس لهما سوى جدهما العائش وراء الحياة. لا أصدقاء ولا طفولة ولا لعب ولا حياة اجتماعية ولا شيء. هؤلاء العرب! عباقرة: ثلثا فعل الحياة في لغتهم حرفا علة. كأن الحياة عطب أصيل، وزهرة تجسيد لها.

كان الغبار قد هبط عندما جاءت بفنجاني قهوة. انكمش، وراقب وجهها المنكمش، وتنبأ بالشجار: ما دام هو مصراً على الصمت، فستفتتح هي المعركة بفنجاني قهوة.

راقبها باندهاش حذر. هدوء شامل في محياها وتحركاتها. وفنجان القهوة صار أمامه. وهي جلست على ذراع كرسيه، فسحب يده بسرعة. ابتسمت. مدت يدها ومسحت على شعره المنفوش. واسترسلت الابتسامة. «اشرب القهوة»، قالت له. واسترسلت أصابعها في شعره. «لماذا أنت مهلهل، كأنك لم تنم منذ عشرة أيام؟ لو شافك أبي لفرح بشبابه».

ـ لو أنك تمسكين بأي انسان وسط الشارع وتسألينه، لقال لك خذي ربع مليون، وبلا فقر وبلا فذلكات.

ـ وأنا لو سألتني، قلت لك مثلما يقول.

نظر إليها وبؤبؤاه يعلوان ويهبطان: من رأسها إلى قدميها. وكانت قد وضعت يديها في حجرها وتركت ساقيها تتأرجحان.

ـ ماذا تقولين؟

ـ أقول خذ ربع مليون ليرة، ولا تبد عجوزاً هرماً بهذا الشكل.

ـ بس، أنت لا توافقين!

ـ من قال؟ أنا موافقة وحبة مسك زيادة.

لم يكن في وجهها أي مزاح، ولا في رنة صوتها. التفت إلى الجانب الآخر باستياء. كل هذه المحنة، وهي موافقة! لم يصدق. استدار نحوها:

ـ بس.. أنت.. أنت تدمرين نفسك. تصيرين غنية ـ تقعين في مطب الاستهلاكية. ماذا يبقى منك؟ هذه بداية سقوط. كيف توافقين!

ـ أبداً. لست من النوع الذي يسقط.

ـ تقولين هكذا. لا أحد يصمد. ستعتادين العيش على أساس أن معك ربع مليون، وينتهي كل شيء. تفقدين سحرك. القوة التي أستند إليها. أنت مجنونة. ستجدين نفسك ماشية على طريق الرياء والادعاء. مستحيل. أنت تتوهمين توهماً أن المال لن يكون له تأثير عليك. أنا لا أفهم كيف توافقين أنت؟ أنت.

ـ نعم. أنا. أنا موافقة. نحن في حاجة إلى هذا المال. وأنت إذا مشيت على طريق، أمشي معك. ماذا أفعل بحالي من دونك؟ أنا أبقى معك. إذا كنت نظيفاً، كنت نظيفة. وإذا كنت ملوثاً، كنت ملوثة. أنا قبلت بك، وأقبل بأي شيء تقبله أنت. لا أريد أن أربح مبادئي وأخسرك.

كانت هادئة تماماً، وفي عينيها ذلك الملمح، التعبير العصي على الاستيعاب، سوى أنه امتزج بنوع من الروع، برضى اندحاري. وبدا لشداد أن كل شيء آخر في الحياة باهت، لا يساوي اللفظة التي يسمى بها. أحس أن سيخا محمى يدخل خاصرته. انتصب. مشى خطوة والتفت.

صرخ: ـ أنا من حقي أن أعيش في بيت مريح. أنا من حقي أن أحصل على حاجياتي اليومية بلا تعب.

وأعيش بين الناس بلا خوف. أين حقوقي؟ أين حقوقي؟ حقوقي البدئية. لكي أعيش مع ثلاثة أشخاص حياة نصف سعيدة ـ تركت الناس كلهم. أريد الناس. أنا محتاج لأن أرى الناس. أراهم حولي. ولو خسرت.

ـ أنت تعرف، أنك في هذا الزمان لا تستطيع الحصول على أشياء كثيرة. وإذا أردت الحفاظ على شرفك، لا تستطيع الحصول على شيء.

ـ طظ في الشرف. أعيش عيشة الكلاب لأتوهم أني مناضل. أين هو النضال؟ أنا لا أرى أن اليسار كان في حياته كلها فعالاً. كان شقياً وبس. الشيء الوحيد الذي يفعله هو تقديم الرؤوس للشنق. سلسلة لا نهاية لها من الضحايا بلا ثمن. ملوث، قال، ملوث. تقبل بي وأنا ملوث.

تزحلقت إلى مكانه على الكرسي، وتناولت بعض القهوة. قالت:

ـ كان أبي يحكي لنا عن أيام زمان، أنه كانت تجيء في بعض السنين أفواج وأفواج من الجراد، تلتهم الأخضر واليابس. وتهجم على البيوت أحياناً..

ـ اسمعي زهرة. هذا الوضع مستحيل. وضع طوارىء. لا يمكن أن نعيش عمرنا كله في حالة طوارىء. مستحيل.

ـ ضروري. وضعنا ضروري. نحن سعداء في بيتنا، شداد، سعداء. ألا يكفي هذا؟

ـ لا، لا يكفي. أنا أريد صحبة الناس ولو عشت معهم تعيساً. ولو عشت معهم بنصف شرف. وإذا كان معنا ربع مليون ـ أصير أقدر على مجابهة المستغلين والمستبدين. أكون في غنى عن وظيفتهم، ولا يقدرون أن يضغطوا علي اقتصادياً. وتكونين أنت آمنة إذا اعتقلوني.

ـ ولكن أنت لست مناضلاً سياسياً.

ـ لست مناضلاً سياسياً! ماذا أنا إذن؟

ـ أنت شخص تريد أن تعيش. أن لا تجرفك الموجة مثلما جرفت غيرك. وغيرك كان أشطر منك. تريد أن تفخر بأنك أكلت خبزك بعرق جبينك، وليس بضربة حظ. هذا هو الميراث الذي ستتركه لأولادك. أنك عشت حياة شريفة. وتعبت لأجل خبزك وحريتك، لا أنها جاءا مجاناً. أو من أراضي السنديان. حياتك اليومية التي تعيشها أمام أولادك. هذا هو الميراث الذي تتركه لهم. لا ربع مليون ليرة، ولا بيت، ولا أرض. بع. لكن لا تخدع نفسك. قل انك تبيع طمعاً بالمال.

ـ سأقول. أنا بحاجة إلى هذا المال.

ـ إذا تعودت أن يكون معك مئة ليرة، ستريد أن يكون معك ألف. وبعد الألف مئة ألف. ستجد السرير المقعقع الذي ننام عليه الآن، مقرفاً، مهترئاً. ستريد سريراً ملوناً مثل ما يعرضون في المحلات. وكنبات وسجادات، والغسالة. والبراد، والتلفزيون. وما لا أعرف. ستريد أن تشتري لأولادك ألعاباً، وتعطيهم مصروفاً مثل أولاد الأكابر. وتعودهم على حياة الترف البرجوازي التافه، حتى يكبروا ويصير همهم أن يحافظوا على هذا الترف. ستحرمهم نعمة الخشونة والتعرف على قيمة الأشياء. وهكذا تخسرهم الثورة، ويتأخر مستقبل الناس جيلاً ثانياً. أنا لا أفهمك. أنا لا أفهمك. كلما جاء على بالك المزح، تذكرت صديقك. في الأمور الخطيرة، لا تتذكره أبداً. كأنه صار موضوعاً للمسخرة والضحك. ألم يقل لك ان الامبريالية تأخذ شتائمنا النضالية بيد، وأموالنا وثرواتنا بيد؟ ألم يقل لك أنها تنشىء في كل بلد طبقة حاكمة لا صفة لها. من أمثالك الذين تغريهم الطريقة الأمريكية في الحياة، وتترك الآخرين للجوع والعبودية؟ ألم يقل لك إن حياة المدن ذات

صفة تدميرية؟ ألم يقل لك إن كل حديث في الثورة من فم واحد يملك ربع مليون ليرة، أكل هواء وقرف؟ أنت تريد الثورة أم المال؟ قل.

كان قد جلس على الكرسي المقابل وراح يرمق فمها المزبد بالكلمات. وعندما أطلقت صيحتها الأخيرة، زفر بهزء ويأس. أدار رأسه جانباً وغمغم:

ـ أنت إنسانة مسطرية. الكلمات عندك بديل للحقائق. كلكم هكذا. تريدون تأسيس منظمات ماركسية، وليس في بلدانكم طبقة عاملة. والنتجة: تتهمون كل إنسان في ضميره وشرفه.

ـ أرأيت؟ صرت تتكلم مثل عبسي. ولم تقبض بعد. أنا التي أقرأ الحقائق. أنا لا أتهم أحداً. كلهم يبدأون ملائكة، وينتهون شياطين. أبالسة. في البداية تجدهم يستحون من الكلمة البذيئة. في النهاية تجدهم يستمتعون بسفك الدماء. كلما حصلوا على شيء أرادوا المزيد. ونقص حياؤهم. وتضخمت وحشيتهم. وفرضوا أنفسهم كآلهة. أم لعلك نسيت حديثك عن السلطة والثروة؟

لم يجب. كانت نظرته مسفوحة على الأرض. وغمغم:

ـ ترى يجيء ذلك اليوم؟

ـ سيجيء. بس لو كاتب قصص يسجل كلامك. لأن الأجيال القادمة ستضحك على يأسك لو قرأته.

ـ مساكين كتاب القصة. صار الواقع أفظع من الخيال.

ـ نهاية الحكي: أنت تحبني؟

ـ أنت مجنونة.

قال محمد علي ان شداد قد برهن فعلاً على ذكاء عملي كبير. وإذا ما انتظر أسبوعين أو ثلاثة، ولم يبع، فستأتيه ثلاثمئة ألف.

وتناول الأوراق المخبرية عن الطاولة وأخذ يفحصها. عبس قليلاً. ثم رمى الأوراق على الطاولة وابتسم. قال:

ـ بنتك يا حبرية معها فقر دم ونقص كالسيوم. من يومين جاءني أبو ابراهيم. ابنه أيضاً معه فقر دم.

نهض عن الكرسي: «والله أنتم تحيروني. أين تذهب رواتبكم؟» وقصد خزانة الأدوية. «أبو ابراهيم أخذ الأدوية من يومين. عندي علبتان بس». تناول العلبتين. عاد إلى الكرسي، وكتب وصفة. «اشتريها من عند عبد المعطي. سيحسم لك من الثمن. ولا تستعمليها مرة واحدة وتقولي خلص. الأدوية لازمة لمدة طويلة». وفيما يناولها الأدوية والوصفة، عاد ذهنه إلى الانشغال بشداد.

ولم يكن الوحيد الذي انشغل ذهنه بشداد فترة أطول من المألوف. بعد وخزة صغيرة أحست بها خولة بين صدرها وحلقها، ابتسمت وراحت تتصور نوع الهدية النفيسة التي ستأتيها من أخيها الصغير. كانت هناك أشياء مثيرة تتمنى أن تهداها، ولم تعرف أيها تختار. غير أنها كانت واثقة أن ثمن الهدية لن يقل عن عشرة آلاف ليرة. ثمن نصف الشاليه. حتى لو فشلت حكاية الميراث، ستتمكن من شراء الشاليه. إذن، صار عند حيان بيت في المدينة، وبيت في القرية، وشاليه على البحر. ولو أن عبسي يوافق على زواجه من سوسن، فلن تتمنى بعد من حياتها شيئاً.

كانت وخزة عبسي أقوى بقليل. وبعدها شعر بشيء من الراحة: أخيراً سيكف شداد عن ارتكاب الحماقات، يستثمر ماله ويستغني عن وظيفته.

وانتهى الأمر عند هذا الحد. كانت ثمة صفقة جديدة لبيع قسم آخر من السفينة.

وتلقت خولة وفدوى هديتين ثمينتين اثر عودة لواء متقاعد من أبي ظبي.

ونعم اسماعيل بوجبة رز شهية.

وسافر محمد علي مرة أخرى إلى ادلب، سراً.

ونزل مطر غزير كان أول امارات الشتاء.

وبدأ اسماعيل يفكر بتدبير ثمن الدفعة الثانية من الأدوية.

وبكت حبرية إذ نظرت إلى ابنتها الغافلة ورأتها محدودبة الظهر.

وسافر محمد علي مرة أخرى إلى صافيتا، سراً. وبعد عودته بيومين اعتقل شداد. كان جالساً يشرح لابنه درساً، ودخل ثلاثة رجال فاقتادوه إلى الخارج. حاول أن يفهم من هم هؤلاء، وباسم أية سلطة يعتقلونه، وبأية تهمة. لكن رئيسهم اكتفى بنصيحة أخوية له ألا يقاوم ولا يسأل. وقبل خروجهم لم يستطيعوا إلا أن يتفرسوا في تقاطيع زهرة، وتوقفوا عن الحركة ثواني، وقد راعهم صمت جسمها الجميل.

وكان عبسي في شغل شاغل. قبيل الغروب عاد إلى المنزل ووجد فدوى مضطجعة على سريرها. سألها أين البنات، فقالت انهن خرجن يتمشين على الكورنيش. سألها كيف سمحت لهن، وإن كانت نسيت أن الكورنيش يمتلىء عند الغروب بالزعران وأولاد الشوارع. قالت ان البنات واعيات ومؤدبات، ولا خوف عليهن.

لم يقتنع. رمى ثيابه العسكرية، ولبس بدلة وربطة عنق. وخرج. وفي شارع فرعي أنفذ أبا فهد وأبا دياب ليبحثا عنهن، وقبع في السيارة.

بعد دقائق عاد الرجلان وبصحبتهما أميمة ورحاب. وأشار عبسي للرجلين أن ينصرفا. دخلت الفتاتان السيارة. وقالت أميمة باضطراب انها منذهلة تماماً: قبل دقيقة من ظهور أبي فهد كانت سوسن معها. وفقدتها في الزحام. وراحت تتطلع من نوافذ السيارة، متوقعة سوسن بين لحظة وأخرى.

لم يصدق عبسي حرفاً واحداً. هدأ وراء مقود السيارة، والحزن يهمي فيه كالمطر. مرت دقائق. وحمل الصمت والسكون خيبة إلى أعماق نفسه: أميمة أيضاً، أميمة تكذب. تساءل لماذا انتكست الحياة في بناته على هذا الشكل. يجنحن هذا الجنوح ويصرن أبعد ما يكون عما أعدهن له. تقصت ذاكرته بصدق ومرارة جانباً واحداً في حياتهن يشكو تقصيراً منه هو بالذات. ممن الخطأ؟ ومتى بدأ؟ بعد كل ما قدم لهن.

في مرآة السيارة الداخلية لمع ضوء سيارة قادمة من الخلف. تحسس المسدس في جيبه، ووضع يده على مقبض الباب. اقتربت السيارة بسرعة جنونية، وأمام سيارته بالضبط، أز صوت مكابحها وصرت دواليبها على الأرض. ولحظة هدأت تماماً، كانت يده قد أخرجت المسدس.

عندما أغلقت سوسن الباب وتحفزت للركض إلى الكورنيش، وجدت نفسها وجهاً لوجه أمام أبيها. رنخت. نظرت إليه برجاء مصعوق ألا يكون هو. كلاهما أحس أن الأرض انشقت عن الآخر ولفظته واقفاً. وفي السيارة كان الأربعة صامتين، وكذلك أمام الفيلا، وداخلها، وعلى الكنبات. ثم انضمت فدوى إلى موكب الحيرة الخرساء والتوقعات الجامحة.

أكثر من مرة حاول أن يعتقد أنه في حلم. وكلما نظر إلى عيني سوسن الجاحظتين ببشاعة، الجامدتين كنصفي بيضة مسلوقة، رأى صورة ذلك الشاب الرقيع جالساً قربها يعلمها قيادة السيارة. لم تكن الصورة كافية ليحمو غضبه إلى الحد الذي يريد. فكوارث من هذا الحجم يتأخر رد الفعل عليها إلى أن ينجلي الحزن والذهول.

وكان هو حزيناً وذاهلاً. حزين لأن سوسن خذلته، وذاهل لهذا النوع الرخيص الحضيضي المقرف من الخذلان. لكأن معبداً بناه بيديه، تفكك وانهار دفعة واحدة.

أخيراً أوجز لفدوى الحدث. لم تصعق، كما توقع، وإنما شاركته حزنه. ونظر إلى سوسن، واستطاع أن يسألها من كان ذلك المراهق. لم تجب. سألها متى تعرفت عليه. وأين. وهل كانت أميمة ورحاب على علم بالموعد. وأين كانت تقود السيارة. ولم تجب. كان ما بين ذقنها وعنقها يختلج قليلاً، وكذلك الشفتان. ولكن لا صوت. وبغتة دوى صوته وتردد انفجاره على الجدران الصماء: «احكي يا عاهرة!» نهض إليها. كانت متكئة على مرفقيها، ولولا صورة الرعب المنقوشة على بؤبؤيها لخيل لمراقب عابر أنها تمثال.

التفت إلى فدوى بسخرية ذاتية: ـ أجدادي من تحت القبور يرسلون لي هدية. شوفي هي، ماذا تهديني وكيف تكرمني.

استدار إلى سوسن ووضع سبابته تحت ذقنها، وشدها إلى الأعلى. ارتفع الرأس ثم الجسم. واستوت واقفة. «أجيبي عن أسئلتي».

ولم تجب. لكمها باليد الأخرى. انقذفت على الموكيت. تكومت. لم ترفع رأسها. «تعالي هنا». جاءت. «أجيبي عن أسئلتي». لم تجب. وحتى لم تمد يدها لتمسح الدم النازل من بين شفتيها. لكمها ثانية. ثم ناداها. ثم لكمها.

ووصل إلى مرحلة عنف انتفت منها المسافة الفاصلة بين موجة غضب وأخرى. تتالت الضربات والركلات كشرر يتطاير من مسن كهربائي. ومع كل ضربة، كان جنون جديد يستعر في نفسه إذ يجد أنها لم تكن كافية، ولم تجعل سوسن تئن أو تخرج صوتاً. كانت يده تهوي بكل ما أوتيت من قوة ورجله تضرب، محاولاً الوصول إلى مطلق ضربة تكون قاضية، تجتث جذوراً. ثم اتحدت الضربات والركلات فلم يعرف أيها تأتي أولاً. وعلى غير توقع جدته صرخة ثاقبة من فدوى.

كانت تراقبه وظهرها متقوس داخل الكنبة. ومع أن حركات جسمه استعصت على متابعة عينيها، فقد رأت لكمات يده المستقيمة، ارتفاع ركبته حتى التصاقها بكرشه، جثوه على الأرض وخبط قبضتيه الطائش على سوسن المتكومة، تطوحه إذ تخطىء رجله جسد سوسن، تشنج عضلات وجهه الرخوة، وسيلان اللعاب على زاويتي فمه.

استغرقت العملية نصف ساعة. لكن أحداً لم يحسب حساب الزمن. ولو لم تصرخ فدوى تلك الصرخة، وتهو على الكنبة فاقدة الوعي، لما ارتد إليهم وعيهم بالأشياء الأخرى. كانت العيون ممغنطة بتحركات عبسي وسكون سوسن، وبلا توقع أربد لخاتمة العنف. وخلال ألف وثمانمائة ثانية فقدوا حسهم بأي أمر نسبي وهيمن عليهم حضور الأبدية.

قبل أن يمضي ليحضر ماء يرش به وجه فدوى، استدار قليلاً وخاطب أميمة بهدوء:

ـ لا تظني أنك أفلت. سيأتي حسابك.

وفجأة حل يوم جلسة المحكمة. وتذكره عبسي قبل الموعد بنصف ساعة، عندما اتصلت خولة بالهاتف وأعلنت أنها لن تذهب ما لم يأخذها بسيارته.

مرة أخرى كان جميع آل السنديان حاضرين. وكان معهم عددٌ من الأصدقاء. بعد التحيات انتبهت خولة إلى غياب شداد. وتوجست. وأشار عبسي لها ألا تهتم، فشداد معروف بتصرفاته الشاذة. وأقبل القاضي فوقفوا حتى جلس.

تناول القاضي الملف وهو ينظر إلى عبسي:

ـ عندك أخبار جديدة يا سيادة العميد؟

كان عبسي قد هيأ خطاباً عجولاً ولكن بليغاً عن فشله في التحقق من أن أخاه ما زال على قيد الحياة. ولأمر ما تعثر ذهنه بالكلمات، وبدأ ينهض متقاعساً. لكنه التفت، والتفت الجميع، إلى محمد علي الذي وقف وطلب الاذن بالكلام، لأن لديه ما يثبت أن قضية كنعان الخياط السنديان قد انتهت.

بعد إعلان الحكم بالموت وانصراف القاضي، هبط عبسي في كرسيه، وضع يده على حاجبه، وأسند مرفقه باليد الأخرى. تجمع الباقون حوله. وشرعت خولة بالبكاء. واقتربت حبرية منها. لفت يدها على ظهرها، وبكت هي الأخرى. وخلال دقائق اقتنع الجميع بالانتقال إلى منزل محمد علي.

ظلت خولة تبكي بكاء مستسلماً، ودونما صوت. وجلس عبسي، فغطى عينيه مرة أخرى بيده. التفوا حوله ـ محمد علي، وإسماعيل، وأبو الفضل، وأبو ثائر، وعمر... غير أن كلماتهم المجمعة على ضرورة الصبر إزاء النوائب، اضمحلت بالتدريج واندغمت في همهمة. كانت صور المحكمة تروح وتجيء كموج يلطم جدران ذهنه. كلمات الرثاء والتعاطف من محمد علي، كلمات مرتبة، متسلسلة، بسيطة ومؤثرة إلى درجة لا تصدق ـ هو الذي لم ينشىء في حياته جملة مفيدة. وهذان الشاهدان العجيبان، كأنهما جنيان خرجا من قمقم. الوجهان الخاليان من أي معنى أو انطباع. اليد الممدودة على القرآن، والفم الناطق بالقسم. والقاضي الذي أصر على استجوابهما حتى الرمق الأخير. وهما: صامدان، ثابتا الجنان، يوحيان المرة تلو المرة بأن الوصول إلى الرمق الأخير ليس في الحسبان. أسئلة تتكرر وأجوبة تتكرر. لا جديد يفتح كوة للشك، سوى شيء من التردد البريء، ومن الدهشة المخجلة لتكرار السؤال، ثم الجواب نفسه. حتى قال وجه القاضي كفى. وأصدر الحكم. وجمعهم تحت اسم السنديان. وعبسي جامد في كرسيه، صامت، يراقب عاجزاً عن أن يقول كلمة واحدة.

وخطر له أنه قد يكون مصراً على الحزن والشك لمجرد تبرئة الذمة، لكي لا تكون له أدنى علاقة بتمويت كنعان، بعد أن قضي بموته. هو فعلاً ليست له علاقة، لكنه ليس مصراً على شيء. محمد علي لم يفاتحه بالأمر قط. هتف له عدة مرات، ولم يتمكن من الاتصال به. ولكن، لماذا لم يأت إلى البيت ويخبره؟

لم يشأ أن يسأل محمد علي أي سؤال. لقد صدر الحكم. وضع نهاية لكل مراجعة. حتى ولو بعث كنعان حياً، ولن يبعث، فلن تجديه الحياة.

أحس بحاجة إلى رؤية فدوى. ثم بضرورة أن يكون وحيداً. نهض، وسئل إلى أين، فقال إلى الثكنة. وقامت خولة، فاسماعيل، والباقون. وقالت خولة انها ستعود إلى البيت ماشية. وعندما خرجت من البناية لمحت اسماعيل في نهاية الكورنيش. كان يمشي منكس الرأس ويداه وراء ظهره. وكان الكورنيش مقفراً إلا من الريح البحرية الرطبة. وبعدها خرجت حبرية. وكانت شبه دائخة ـ من المحكمة أساساً، وأيضاً من دخولها بيت أخيها لأول مرة.

أواخر المساء عاد حيان إلى البيت، ومضى إلى غرفته ببطء ووجوم. وما لبث أن عاد إلى غرفة الخياطة وجلس صامتاً. كانت خولة تقص بعض الأثواب. واستمر الصمت دقائق. كان هو قد تلقى أنباء المحكمة من سوسن، ولم يشأ أن يثير الموضوع. وحانت من خولة التفاتة إليه، فتوقفت عن العمل. قالت برنة سؤال خفيفة: «وجهك شاحب». لم يبتسم كعادته، لكنه حرص على ألا يهتم. وعادت هي إلى التفصيل.

بعد قليل تمتمت: ـ خالك شداد لم يحضر المحاكمة اليوم. قلبي يحدثني بالشر.

ـ خالي شداد معتقل.

توقفت عن العمل. وأنزلت المقص من أصابعها. همت عدة مرات بالسؤال، وكل مرة رأت أن لا داعي له. ثم همت بأن تتصل بعبسي. وامتنعت. ذاك كان مصمماً على سحب يده من كل أمر يتعلق بشداد. والآن بعد أن رزح موت كنعان على خاطره.. ماذا سيفعل؟

في الصباح اكتشفت أنها بلهاء تماماً. أخ يعلن موته، وآخر يعتقل، وهي لا تحرك ساكناً. كانت مستلقية على الفراش في أوائل يقظتها، في تلك البرهات التي تأتي بأنفذ المشاعر وأشدها، وتبسط الشرط الإنساني على مد من المطلق. أحست بشيء يلدغها بين ثدييها في العمق. شداد. الأخ الصغير الحبيب، لا بد أنه الآن قد تلقى مئة ضربة. واستوت في فراشها. هرعت إلى الهاتف كأن شبحاً يطاردها. اتصلت بعبسي وقالت انها قادمة فوراً، وأقفلت الخط.

لم يكن عبسي متحمساً. بل لم يكن مهتماً البتة. أنصت لها بلا تعليق. الشيء الوحيد الذي فعله هو إغلاق باب الشرفة اتقاء للريح والمطر. وعاد إلى جلسته مثل من لا كلام لديه يقوله. والتفتت خولة إلى فدوى الصامتة أيضاً، كأنها تطلب منها المشاركة إزاء صمت عبسي المطبق. وعادت تسأله:

ـ ما لك يا عبسي؟

أجاب بنبرة طبيعية، دون أن يتحرك:

ـ سبق وقلت لك. المحافظة على روابط الأخوة من طرف واحد مستحيلة. أنت تعرفين، وهو يعرف. أنا قلت لك، في مرة قادمة لن أحرك ساكناً.

قالت والدمع يتدخل في صوتها: ـ بس هذه المرة. أخرجه من السجن هذه المرة بس. وأنا مسؤولة عنه. أنا أكفله أنه لن ـ رد الى هذه الأفعال.

رد عبسي بشيء من التوسل: ـ خولة أنت لا تفهمين. لا أقدر. لا أقدر. إذا سعيت لأجله صرت أنا متهماً. سيقولون إني أحميه، وهو يتآمر على البلد. يسلك طريق العنف ضد قضية نذرت لها نفسي وأنا في السادسة عشرة. بأي منطق تريدينني أن أساعده؟ لو أنه يراعي قدسية الأخوة، لترك هذا العمل الإجرامي كرمى لي. وأنا أعطيه ما يريد. طبعاً هم لن ينجحوا إلا في أن يكونوا بلهاء، ولكن إذا نجحوا سأكون أنا الضحية. جنون، جنون مطبق. ها جاءه ربع مليون ليرة. ومع ذلك يلتحق بعصابة مراهقين خونة.

قالت بانكسار: ـ أظن يا عبسي أنك تضخم الأمور شوية. هؤلاء لا أحد يحس بهم. من هم؟ منشور لا يفهم أوله من آخره. واجتماعات كلها علك وكلام فارغ. ماذا يفعلون؟

ـ أنت لا تعرفين. الامبريالية صارت تستخدم اليسار للقضاء على الثورات الوطنية. طبعاً يسار مزور، لا يفهم ألفباء اليسار. كلهم معقدون، وعندهم أحقاد شخصية. لو أنهم يجمعون على عقيدة واضحة ويؤمنون بها إيماناً راسخاً، لما تشرذموا وانقسموا مئة فئة. ولكن إذا لم تضربيهم يملأون الشارع.

لم تقتنع: ـ الآن صار شداد خطراً على الثورة؟ شداد لا يقدر أن يؤذي كتكوتاً.

ـ يكفيه أني لا أتحرك ضده. هو معقد من كوني الأخ الكبير، وهذه العقدة لا شفاء لها.

ـ البارحة احتفلنا بوحدة عائلة السنديان. أكان الاحتفال تمثيلاً؟ لماذا احتفلنا طالما الأمر هكذا؟ ما معنى هذه الوحدة؟

قالت فدوى: ـ توحدتم واحتفلتم لاجل الميراث.

وهتفت خولة بجزع: ـ بس الميراث ما وحّدنا.

قال عبسي: ـ والسبب شداد. كلنا متفقون إلا هو. لولاه لكان للميراث شأن أكبر مما تتصورين بكثير. لكن هو، لا أحد يستطيع التفاهم معه. لو كـان في غير عائلة لاجتمعوا عليه ومسحوا به الأرض. كل من خرج على إرادتها يعامل معاملة المجرم.

التقطت خولة جزدانها ونهضت. وغمغمت برجاء أخير:

ـ يعني، أنت تسعى لأجل أخيك.

أجاب بكمد: ـ في ظروف غير هذه. الآن، لا أقدر أن أسعى ضد نفسي.

ـ وإذا قتلوه؟ أو شوهوه؟

ـ يوجد من أمثاله ملايين من الناس. لو كلهم فكروا تفكيره واشتغلوا شغله، ماذا يحل بالثورة؟ كلهم يعيشون بسلام، وحالتهم مثل حالته أو أسوأ. لا أحد منهم يفكر في العنف. لماذا هو بالذات، راكض وراء العنف؟ الذي يلجأ للعنف، لازم أن يتوقع عنفاً مقابلاً. شداد تغير كثيراً في الفترة الأخيرة.

وعندما انصرفت طن الصمت في البهو الفسيح، وشردت عيون الزوجين. بعد قليل نهض عبسي بلأي. تذكر أن عليه الذهاب الى مكتبه. لبث واقفاً برهة أو برهتين. أحس بفدوى دون أن ينظر اليها. ثم نظر اليها: نظرة سريعة هاربة. غير أنها كانت كافية كإعلان مكتوم عن انفصال أصبح صارخاً. وإذ مشى تأكد أن الأسئلة القديمة، الجديدة، المستمرة، لم تلتق بأجوبتها كما خيل اليه ذات ليل. وضمته موجة بؤس الى حضنها، فكأن الموكيت الذي أخفى صوت حذائه قد تشقق تحته وأوشك أن يبتلع قدميه. كلهم خذلوه. كلهم تخلوا عن أنفسهم. حتى أميمة صارت تكذب عليه. وهو الآن وحده. وحده يناضل عتاوة اليم المائج. وقد أحرق السفن ملاحوها الذين اصطحبهم معه في رحلة العمر.

بالطبع، لم يكن يتوقع المزيد. إلا أن المزيد جاءه. في اليوم الثالث دخلت خولة بيته كآلة مفككة. كانت تلهث، وتضع يدها على صدرها محاولة أن تتكلم. كانت صفراء كالرمل، رخوة الوجه، بارزة الأنف، ملجلجة العينين والفم. كانت عجوزاً، نصف منهارة، ملهوفة بلا عزم، ومضناة بلا صبر: حيان، المعقل الأخير، الأمل الذي لا نسمة حياة، لا خفقة قلب، من دونه.

ضحك عبسي ونظر الى ساعته. هز رأسه فيما عيناه تتصفحان أخته بمرح. وهبطت زاويتا فمها بلمعة أمل باكية، أوحاها موقفه العابث المستسهل. تمنت لو أن ضحكته تستمر.

قال: ـ حيان معتقل! هذه خبرية. لا تخافي يا عزيزتي. خذيها من هذه اللحية: بعد يومين يكون عندك.

ـ وإذا عذبوه؟

ـ لن يعذبوه.

ـ يوم اعتقلوا شداد أول مرة قلت يومين، وبقي عشرة أيام.

ـ يومين، عشرة أيام. لا مشكلة. لن يعذبوه، وسيخرج بأسرع مما تتصورين.

التقط سماعة الهاتف ونظر الى ساعته.

بعد أربعة أيام أعطي وعداً قاطعاً أن حيان سيخرج قبل أن يتصل مرة ثانية للسؤال عنه. تنفس الصعداء. وفكر أنه يستطيع الآن أن يتناول عشاء في الشاطىء الأزرق، دون أن يطارده الضيق الأبله الذي حل عليه منذ يوم المحكمة. توقيف حيان فرصة منحتها السماء كي يثبت للناس أنه لا يتخلى عن أقربائه.

كانت الريح في الخارج تلطم صدر المدينة وتهزم في أرجائها. وكان صدره هادئاً، مفعماً بالرضى.

وافقت فدوى على الفكرة بسرعة. وبسرعة لبسا ثياب السهرة. قبيل خروجها قالت:

ـ لو نمر في طريقنا على بيت شداد..

وثبت اليه الأفكار والمشاعر. أجل، يمكنه أيضاً أن يفعل شيئاً لعائلة شداد، ما دام لا يستطيع أن يفعل لشداد نفسه شيئاً. أسرع الى غرفة النوم، وفتح باب خزانة الثياب. تناول من الدرج ألف ليرة ووضعها في جيبه. وعاد.

كان المطر غزيراً في الخارج. وكانت الغيوم تنشق عن شرايين زاهية من البرق، وتنشج انفجارات رعد قاصمة. وعندما اقتربت السيارة من دونم شداد ألفياه مطموراً بالظلام والمطر. لبسا سرباليهما الشمعيين وتقدما تحت مظلة سوداء واسعة.

داخل السياج لمحا ضوءاً خافتاً من خصاص النافذة. قال عبسي:

ـ حتماً زهرة ليست هنا. لازم أن تكون في بيت أبيها.

لكن زهرة كانت في البيت. فتح بديع الباب ورحب بهما. قادهما الى الكراسي في صدر البهو، وهو يسألهما عن أحوالهما، ثم استأذن لمناداة أمه.

حيتهما زهرة بجفاف تام. وفي جو الحرج المتوتر الذي نفذت اليه عبارات المجاملة المتقطعة، تبادلت معهما ما تيسر من مخزون التعابير الاجتماعية المألوفة. ثم التفتت الى بديع وطلبت منه صنع شاي. ومضى الصبي الى المطبخ، فتولاهم الصمت.

قالت فدوى: ـ ما شاء الله، بديع يتصرف مثل الرجال تماماً. شفت، عبسي، كيف استقبلنا وسلم علينا؟

رد عبسي بأريحية: ـ فعلاً. بديع رجل تماماً ويتصرف بمسؤولية. تقولين عمره عشرون سنة.

والتفت الى زهرة: ـ فكرنا أننا سنجدك في بيت أبيك.

قالت زهرة بعد تردد: ـ أبي ليس هنا.

استغربا. وأحسا بشيء من الروع: في هذا المكان المقفر، المسكون بالعاصفة والوحشة، تبقى وولداها وحيدين. وخشي عبسي أن يسأل. قالت فدوى:

ـ أين هو اذن؟

أجابت زهرة بلا تردد: ـ عند شداد.

وتفرست في وجهيهما مترصدة رد الفعل. التقت عيناها بعيني فدوى، اللتين بدأتا تدومان، وتبادلت المرأتان نظرة طويلة. ابتسمت زهرة، وخاطبت عيناها عيني فدوى بمحبة. ثم رمقت عبسي، وعادت الى فدوى:

ـ وكيف هي نباتاتكم؟ ما تزال حية؟

حاولت فدوى أن ترد، ولم تتمكن. هزت رأسها هزة طمأنة قصيرة. وكرست بقية عزمها لتخنق صوت البكاء.

قال عبسي بنبرة استنكار: ـ أبوك، أخذوه! لماذا؟

أجابت زهرة بهدوء: ـ يمكن للشبهة. لأن رمضان وبديع معتقلان من المرة الماضية. أخذوا كثيرين. أخذوا أبو ابراهيم وضرغام.

تحرك في جلسته بعنف: ـ مستحيل! أبو ابراهيم؟

لم تقل شيئاً. فكأن الموضوع انتهى. وكان وجهه ناضحاً بالاستفظاع. تناولت فدوى من محفظتها منديلاً ورقياً مسحت به عينيها وأنفها.

قالت زهرة: ـ هل سيعذبونهم هذه المرة؟ تعرف، شداد خويّف ولا يتحمل أكثر من قطف الأزهار.

أقبل بديع بأكواب الشاي ووزعها. لم يتكلم أحد. رشف عبسي بعض الشاي، وتمتم محاولاً التخفيف من قتامة الجلسة:

ـ إذا كان لسانه مثل قلبه، اطمأني لن يعذبوه.

لكن الدعابة لم تجد قلباً صاغياً. وعزم على مواجهة الأمر:

ـ تعرفين يا امرأة أخي، أنا وشداد مختلفان في الرأي الى أقصى حدود الاختلاف. وقبل شهرين أو ثلاثة أوضحت له تماماً أنه إذا استمر على هذه الطريق، فأنا لا أستطيع مساعدته.

ـ لا داعي للتوضيح يا سيد عبسي. أنا أفهم موقفك. موقفك طبيعي تماماً. ولا يمكن أن يكون شيئاً ثانياً.

قال بارتياح: ـ كنت خائفاً قليلاً، رغم ثقتي بموضوعيتك. لكنك لم تخيبي ظني. شداد أخي، والذي يؤذيه يؤذيني. وأنا لا أتأخر عن واجب الأخوة أبداً. أي شيء يريده شداد، أو أنت، أنا جاهز مها كلف الأمر.

ـ فعلاً لا داعي للتوضيح يا سيد عبسي. أنا أعرف أخوتك لشداد، ومدى حرصك عليه. يعني، لا يخطر لك أني زعلانة، أو ألومك. أنت معك حق كامل في موقفك. مثلما شداد معه حق في موقفه. وأنا لا أطلب منك شيئاً، لأني أعرف موقفك ـ لا أن تساعده، ولا تتوسط له، ولا تكفله. ولا تظن أنه يورطك، أو يعتمد على أنك أخوه عندما يطيل لسانه، ويمكن أن تمشي ضد قناعاتك للتوسط له. شداد اختار طريقه لأنه مقتنع به. ويمكن لولا أنك أخوه كان مشى مسافة أبعد على هذه الطريق. شداد لا يريد أن يورطك. وهو يكثر الحكي لأنه يريد أن يعرف نفسه، لا لأي سبب آخر.

كان عبسي مرتاحاً للتوكيدات، إلا أن العبارات الأخيرة ضايقته. كأن زهرة تريد أن تقول إن شداد هو المتفضل عليه وليس العكس. تمننه بمراعاة شداد له، وكأن شداد يمكن أن يؤثر عليه. لكنه كظم غيظه:

ـ وأنا لن تجدي أكثر مني تمسكاً بواجبات الأخوة وروابطها.

ـ ولا يخطر لك أن شداد يمكن أن يعاديك أو يؤذيك. بالعكس. لو أن المسألة شخصية كانت علاقتكم أفضل بكثير. أنا لم ألتق في حياتي بشخص محب مثله.

ازداد ضيقه. لمس في هدوء زهرة، الذي ظنه هدوء صبر، نبرة ترفع، وفي فهمها، الذي ظنه إقراراً بصواب موقفه، تستراً على ازدراء. لكنه كظم غيظه. وفكر في طريقة لإنهاء الزيارة وتقديم المساعدة المالية. لأنه يستحيل: زهرة هذه لا يمكن الالتقاء معها في شيء.

جرع بقية شايه وانتصب. ووقفت فدوى. وضع الورقتين الماليتين على التربيزة. وهتف: «اسمحي لنا الآن. تصبحي على خير.» لم تمهله لينهي كلامه. صاحت بغضب: «ما هذا؟» قالت فدوى بتلجلج اعتذاري: «هذه مني..» وتوقفت، فقد انحنت زهرة وتناولت المبلغ صائحة: «لا منك ولا من أحد!» ودسته بين سترة عبسي وصدره. قال عبسي مخففاً: «خذيه ديناً. بعد ما يخرج شداد يرجعه.» وهزت زهرة رأسها هزات قصيرة بينما بقيت عيناها ثابتتين على وجهه وجسمها جامداً: «الى هنا وبس. هذه الأساليب لا تمشي معنا.»

كانت كلمة أساليب أقوى مما يحتمله عبسي. نبر بغضب: ـ أي شيء قصدك؟

قالت بغضب ملجم: ـ أنت فهمان قصدي.

وصاح هو: ـ لا أنا لا أفهم قصدك. أنا أخوه، وهو في ضائقة، شيء طبيعي أن أساعده.

وصاحت: ـ ليقول كل إنسان في البلد غداً، شوفوا عبسي ما أنبله، ما أكرمه، هب لمساعدة أخيه، كم هو شهم. وينسوا أن شداد في السجن، وأنك أنت الذي اعتقلته. تقتل القتيل وتحمل بنعشه؟

صرخ: ـ أنت مجنونة. مهسترة. أنت سبب بلائه أصلاً. لولاك كانت أحواله أحسن بألف درجة.

صرخت: ـ اطلع برّه! حكمت على أخ بالموت، وعلى أخ بالسجن، وجئت تعرض مالك!

كان وجهه حلبة للمشاعر. وبعد أن توارت آخر نبرة من صوتها، بقيت أعينهما مشتبكة في معركة كراهية واشمئزاز واحتقار، والذكريات تزيدها ضراماً.

دون أن يحرك نظرته قال: ـ ستندمين على هذا الكلام يا بنت مريم.

قالت بهدوء: ـ أنا أملك أن أطردك من هنا، وهذا لن أندم عليه. رح بلّط البحر. اطلع برّه.

وظلت هادئة حتى خرجا، وذراع عبسي تطوق فدوى.

خرج حيان من الحبس ليجد أمه في حبس من نوع آخر. كانت طريحة الفراش، في وضع تمدد تام على ظهرها. وكانت حبرية تضع لها السيجارة بين شفتيها، الى أن تمتلىء رئتاها بالدخان، وتسحبها، ثم تنفض الرماد في المنفضة.

مدت ذراعيها في الهواء لتلتقطاه. وتمدد الى جانبيها، فلم تقبل. ضمته وهي تبكي.

قالت إنها تلك الليلة، الليلة التي تساوي عمراً بأكمله، أحست بسكاكين تنغرز في ظهرها وتشقه شقاً. كانت الآلام مبرحة مهدمة. غير أنها تحملت، حتى جاء التوكيد لعبسي بخروج ابنها من السجن. وبعدها تفجر الألم في ظهرها كالقنابل. وجاء محمد علي. قال إنه يشتبه بوجود انقراص في الفقرات. وأمرها بتصوير ظهرها. وكان تشخيصه صحيحاً. لكن الحالة غير خطرة، قال. ومعظم الألم سببه نفسي عصبي. قال إنها يجب أن تستلقي على سرير خشبي شهراً كاملاً، وتتعاطى بعض الأدوية. تصور! قالت له. كل شيء ولا الديسك. إذا لم تتبع وصايا الطبيب، سيصيبها الشلل حتماً. ولن تقدر على الخياطة. ومن أين يأكلان؟ هي بلا مورد، وهو بلا معين، وكل شيء ينهار، وتضطر لبيع البيت في الضيعة، وتنحبس في أربعة جدران. وتتسمر على قطعة خشب.

سأل حيان بلهفة: ـ وإذا نفذت أوامر الطبيب؟

أجابت بيقين: ـ بعد شهر أقوم.

ومر شهر. لبثت مستلقية على سرير أبيها الخشبي، الذي جاءت به من القرية. كانت تحصي الأيام، وتستبشر كلما أشرق صباح. التزمت بتعليمات الطبيب التزاماً عجيباً. كان إحساس شامل بالخطر يضطجع معها ويقوم معها. لم تقلق ولم تخف. وأكد حيان لها أنه لم يعتقل لأي سبب يعرفه، فاطمأنت الى شفائها.

لم يبق أحد إلا وزارها. حبرية بالطبع، يومياً. وزهرة، عدة مرات. ومنيرة وأم الفضل. وفدوى. وبعد أن خرج اسماعيل من الحبس، جلب لها مسبحة تتسلى بها. وحكى لها كيف أمضى عشرة أيام، محشوراً في غرفة ضيقة مع عشرين محشوراً آخر، وسئل أسئلة لم تخطر له على بال، عن شداد والمرفأ وعلاقته بالتنظيمات السرية. حتى اقتنعوا أخيراً أنه رجل لا علاقة له إلا بالله، وأنه ترك وراءه طفلاً مصاباً بفقر الدم. ورأى حبرية عندها، وأخبرها أنه صار بوسع الجميع الآن إخراج قيود نفوس باسم السندبان، أنهم بعد أسبوعين تقريباً سيوقعون على سندات التمليك وعلى صكوك التنازل.

وكان عبسي محباً بشكل لم يسبق له مثيل. أعطاها مالاً كافياً، قبلته على أنه دين. وأرسل لها طعاماً وفاكهة كل يوم. لم يتركها لأي شعور بالعوز ولا بالوحدة. تدبر أن يزورها حتى في أشد أوقاته حلكة وازدحاماً، فيملأ البيت صخباً وحركة بمجرد وصوله ـ يطعمها إذا كانت جائعة، يوكئها على كتفه لقضاء حاجة، يصنع قهوة لها، يحكي لها أخبار البلد وشائعاتها الاجتماعية. واستعاد معها الذكريات القديمة، المضمخة بعبير مقدس. ويوم نزلت عن سريرها، أقام لها حفلة عاصفة ماطرة.

كان شهر مطر. لم يأت بالشمس إلا لماماً. وفي أخرياته بدأت الريح الغربية تشتد وتدوّم. مرت ليال كانت عاصفة فعلاً. تقصفت أشجار كثيرة. وهوت شرفة من البناء المجاور لمنزل محمد علي. تحطمت مصابيح الكهرباء وفاضت الشوارع بسيول آنية. وكل مساء كانت الريح تغدو سيد المدينة الوحيد. سبعة أيام، والعاصفة تشتد مع الظلام وتبلغ ذروتها في الليل. وفي الليلة السابعة تغلغل البرد أيضاً، ولسع العظام والجماجم. ونقلت الريح رذاذ البحر الهائج الى قلب المدينة. ابتعدت السفن. أقفرت الشوارع. انقطعت الأنوار إلا عن التمديدات الحديثة.

في الليلة السابعة كان أبو فهد يصطلي بوهج مدفأة كهربائية داخل محرسه الذي أحكم إغلاق بابه. وبين الفينة والفينة، كان يلقي من إحدى كوى المحرس بنظرة تفقدية على الشارع، يشعل سيجارة، أو يدير إبرة المذياع بحثاً عن أغنية.

كان شبه موقن أن أحداً لن يمر في هذه الليلة القارسة. وإلا فسيقع بين يديه ويدي أبي دياب على الجانب الآخر. لكن أحداً مر: زول طويل متردد الخطى، يدير رأسه ذات اليمين وذات اليسار ببطء السكارى. تفحصه تفحصاً قليلاً وتأكد تأكداً قاطعاً أن عينيه الشريرتين حقاً خاليتان حتى من درهم واحد من الخمر، وأنهما بالتالي خاليتان من درهم ضمير واحد. ووقف الزول أمام الدرج الرخامي والبوابة الموصدة. تأمل الفيلا ملياً. ثم هز رأسه مستنكراً، وتابع مشيته المترنحة كناشد متعب لم يجد ضالته.

أعاد أبو فهد مسدسه الى غمده وأشعل سيجارة. والتفت الى المذياع يبحث عن أغنية. وسمع نقراً خفيفاً على الباب. انتفض. سحب مسدسه، ونظر من الكوة. رأى الرجل واقفاً مطرق الرأس. تفحصه بفضول لم يدر له سبباً، فكأنه رآه من قبل، وتأكد أنه لم يره.

كان يطيب لأبي فهد أن يوصف بأنه «مدهرن»، فقد عركته تقلبات الحياة وأكسبته حكمة الدهور. لذلك خرج من المحرس رابط الجأش، ونظر الى الشبح بوجه مبرمج لا يفصح عن شيء. حيّاه الرجل بلكنة شبه فلسطينية، ورفع ذراعه ورأسه باتجاه الفيلا، ثم سأل:

ـ هذه الفيلا لعبسي الخياط؟

تفحصه أبو فهد مرة أخرى دون أن تكـون في نيته الإجابة. وأضاف إلى انطباعاته انطباعاً بأن الرجل وقح. قال:

ـ سيادة العميد! عبسي ـ السنديان، لا الخياط.

ـ هه. صحّح كنيته. هذه الفيلا له؟

ـ ماذا تريد منه؟ أنت من؟

ـ أنا أخوه. أخوه كنعان.

ولأن أبا فهد مدهرن فعلاً، استغرقت كلمات الرجل نصف دقيقة حتى عبأته بالروع، بدءاً بالمفاجأة ومروراً بالدهشة. ثم تمالك نفسه ونظر الى الرجل بسخرية. قال ويداه ترسمان في الهواء علامة هبوط:

ـ الأخ كأنه نزل من السماء في قفة.

ـ أبداً. جئت من الشام بالباص ودفعت ١٢ ليرة.

عندها صوب أبو فهد مسدسه:

ـ لا تأت بحركة. قل لي من أنت. كنعان أخو سيادة العميد، مات.

ـ يا ويلك من الله. ماذا فعلت لك؟ أنا حي أرزق.

أطلق أبو فهد صفيراً خاصاً، وبرز أبو دياب من الجانب الآخر. التفت الرجل الى الخلف بوحي من عيني أبي فهد، ورأى أبا دياب يقترب مشهراً مسدسه. برم رأسه مبتسماً ودمدم:

ـ يا حبيبي. قلنا خلصنا من المسدسات.

قال أبو فهد: ـ هات هويتك.

نظر اليه الرجل معاتباً: ـ يا رجل، أنا معي هوية؟ مليح أن جلدي معي. اسمع لأقول لك. إذا كان هذا البيت بيت عبسي، كلّمه، وقل له أخوك كنعان بالباب. إذا قال اني مش أخوه، يبقى اقبض علي.

ورأى أبو فهد الكلام معقولاً. مشى الى البوابة وضغط على لوحة صغيرة. وجاءه صوت عبسي.

قال: ـ احترامي سيدي. سيدي معنا واحد يقول إنه أخوك كنعان.

ساد صمت. كانت الريح تهزم، والمدينة بلا أصوات، والنجوم الباردة تشع نوراً بارداً. وضع الرجل راحتيه تحت إبطيه التماساً للدفء، وأثبت عينيه على اللوحة.

قال أبو فهد: ـ ماذا أفعل يا سيدي؟

وبعد برهة جاءه صوت عبسي: ـ أدخله.

فتح البوابة وأشار بمسدسه للرجل أن يمشي أمامه. صعدا الدرج الرخامي. وولجا الباب الذي انفتح قليلاً. صعدا درجاً آخر خشبياً، والى اليسار عبرا قوساً من الستائر اللوزية الكثيفة وضعهما للتو في غرفة الضيوف.

قال أبو فهد مشيراً الى كنبة: ـ اقعد هنا، ولا تأت بحركة.

لكن الرجل لم يأبه له. ظل واقفاً. كان واضحاً أنه ليس من النوع الذي يؤخد على غرة، سوى أنه مع ذلك انصرف الى تأمل المكان باستغراق تام وعينين متسعتين. كانت غرفة فسيحة، حفلت بالأرائك والطنافس، بالموكيت السندسي الذي خشي أن يدوس عليه، واللوحات الطبيعية، وحوض أسماك، وثريا ضخمة ألقت عليه نوراً ساطعاً. تحولت عيناه من شيء الى شيء حتى تعبأتا بالغرفة، وأرخى جسده بغية الجلوس، ثم استقام بسرعة وهو ينظر الى ثيابه القذرة، وتحولت عيناه الى البهو. هناك لمح عبسي وفدوى واقفين.

واقفين: فدوى مسبلة الذراعين، وعبسي متكيء اليدين على كنبة ضخمة وقف وراءها. نظر الى الغريب كأنه ينظر الى غمامة، أو يرى مارداً انشقت عنه الأرض. كان قلبه هلعاً ووجهه خامداً. وراحت سماء الغريب تنغرز في عينيه وذاكرته وتلقي عليه أغلالاً وتراباً. كان واضحاً أنه لم يتخلص بعد من وقع النبأ. وقد آثر الوقوف في ذلك المكان المنزوي خوف أن يستسلم للعاطفة وينجرف الى معانقة غريب ربما غفل أبو فهد عن تفتيشه جيداً. وعندما دخل الغريب راح هو يحسب الوقت بالثواني: لا فعل ولا رد فعل قبل أوانه، يجب أن يتأكد جيداً منه، قبل أن يكون الوقت قد فات بالنسبة للتعرف على أخ وبعد أن يكون انتظاره قد بدا طبيعياً.

لذلك انزوى. وراحت عيناه تخترقان سدياً كثيفاً من مشاعر مهلكة وآملة أحس بها تنشهب من جسده وتملأ المكان.

رأى الغريب طويلاً أشيب الشعر. وعندما شاهد السماء غار قلبه في قلبه: لولا يد العمر لقال شداد. لكن الاختلاف كان واضحاً أيضاً. بل لم يكن في التفاصيل أيما تشابه. أيكون الذين أرسلوه قد اعتمدوا على السماء؟ ورأى الوقت ينقرض. لم يكن في الغريب ما يشير الى أنه خرج من قبر، ولا سمع بمحكمة حكمت بموته، وكان فيه ما يؤكد أن الموت قد عبر وجهه ومضى وكان زائراً مداوماً خفيف الظل. وفي الحالتين تمنى لو أنه يختفي - متآمراً كان أو أخاً.

أحس بتيار عرق بارد يسري في جسمه ورقبته: أين سيخفي وجهه إذا أخفق تمنّيه، وتبين أن الغريب أخوه؟ سحب يديه عن الكنبة، وأحس بتخشبها. لقد انتهى وقت التأكد، وعليه الآن أن يفعل شيئاً. خرج من وراء الكنبة ودلف الى غرفة الضيوف. مشى. ومشى أيضاً. ووصل الى الفسحة الجدارية بين البهو والغرفة. وقف. كانت عيناه مصمغتيـن على وجه الغريب. واقتربت فدوى. وقفت بحذائه. نظرت اليه منتظرة كلاماً. نظر اليها، فالى الغريب، ثم اليها - هذه المرة باستجداء أخرس، ثم بعياء أخرس، فبكلام أخرس ألا تفتح عينيها على هذا النحو. رفع يده قليلاً، وكانت ترتعش، وأنزلها. حاول أن يقول شيئاً، ولم يسعفه لسانه. في البداية داهمته صورة المحكمة وهذا الغريب فيها. اعتقل الصورة وطردها. ثم وجد نفسه يستحضرها غصباً عنه، حتى إذا غدت لا تطاق طردها، ثم استعادها كأنه يريد أن يجلد نفسه بها، والغريب يسربله بهذه النظرة، يوجهها الى لسانه، كأنه يقول له: انطق، كأنه يسأله لماذا تلبث صامتاً والشاهدان المنمقان يفحمان أسئلة القاضي، وأنت غير مؤمن بالمشهد كله، وأنت لم تسأل محمد علي سؤالاً واحداً. أحس بيد الغريب تمتد وتقبض على لسانه، تحاول أن تخرجه من فمه، ليتكلم، وهو يرده الى الخلف، يرده باستماتة. ونظر الى فدوى. هز رأسه باتجاه الغريب.

لم تدر فدوى من أين جاءتها القوة فجأة وصفاء الجنان. التفتت الى الغريب بابتسامة:

- تفضل، اقعد.

وأجاب هو بمزاح مهذب: - قلبي واجعني على هالكنبة. حضرتك زوجته؟

ارتبك الاثنان. أحسا أن عدم ذكر عبسي بالاسم في السؤال الأخير يشي بغربة تسللت الى قلب السائل وأوحشته. ورأت فدوى أن الشيء الوحيد الذي يمكن أن يبرر فظاعة الموقف ويبددها هو قول الحقيقة. هتفت:

- لا تؤاخذنا. المفأجاة كبيرة. أكبر مما تتصور. لأنه قبل شهر ونصف شهد رجـلان.. ا.. أنك.. أن كنعان توفي.

قال الغريب بحرج ولكن باسماً: - ثم انتفضت فزال القبر والكفن.

صرخ عبسي: - لا ليس هكذا.

كان صوته أبح، لكنه مسموع، وفيه نبرة خفيفة لرجل لمس نصف بيت الشعر وتراً موجعاً فيه. ثم تمالك نفسه. فكر أن هذا الرجل شبه المتسول يمكن أن يسبب له مشكلة مدمرة. يمكن أن يمشي في البلد ويقول إنه كنعان أخو العميد عبسي الذي توفته المحكمة قبل شهر ونصف. واضح. لقد جاء يبتز. إذا لم يكن متآمراً على قتله، فهو جاء يبتز. وهو يمسك بنقطة الضعف. وإلا من أين تأتيه هذه الأجوبة الجاهزة؟

قال، وقد عزم على التعامل مع الغريب على أنه كنعان:

- الحقيقة أنا ما عدت أتذكر شكلك. فيك ملامح..

قاطعه الغريب بمودة: ـ أنت ولا ملمح. لو رأيتك في مكان ثان لما عرفتك. سمين بزيادة، يا شيخ.

قال عبسي بتماسك: ـ ولكن لا شيء مؤكد. تفضل اقعد.

كانت جملة الغريب الثانية حاسمة: بالطبع لن يعرفه، لأنه ليس كنعان. لو كان كنعان لاقتفى ملمحاً ما، أمارة، لخفق قلبه بلهفة ما، بقليل من الاضطراب. لكان الاثنان قد خفق قلباهما، فالدم لا يصير ماء. لو كان هناك دم فعلاً لخفق القلب.

جلس الثلاثة. أشار عبسي لأبي فهد بالانزواء، وتابع:

ـ أنت توافقني أن الموقف صعب. خمس وثلاثون سنة ولم تزر البلد. لم ترسل رسالة، خبراً. وبعدها، ما يدريني أنك كنعان؟ يمكن أن لا تكون كنعان. معك هوية؟

أطرق الغريب مبتسماً وشردت ملامحه. قال:

ـ دائماً هذا السؤال. معك هوية؟ ما معي هوية. من زمان، من سنوات، صارت هويتي اسرائيلية. ولما قررت الخروج الى بلدي، مزقتها عشرين شقفة.

صمت. وكان يبدو أن لديه كلاماً آخر. نظر عبسي الى فدوى مستشيراً، فأشار وجهها أنها لا تدري.

قال الغريب مبتسماً: «الحال زي بعضه. أنا ملاحظ أن قلبك ما خفق لي. أنا ما قصدي أحرجك. بس أعطني عنوان أيوب وشداد أو خولة، وتصبح على خير».

تكتم عبسي على قدرة الغريب على التمثيل، وتمتم:

ـ أيوب مات. وشداد، ليس في البلد.

ـ وخولة مريضة، يمكن.

كان عبسي محتاجاً الى هذه التتمة. لقد أكدت شكه المتزايد بهذا الذي هبط عليه من الغيب وسمى نفسه كنعان. كل هذه المعلومات عن مكان الفيلا ومرض خولة! الآن صار اعتقاله مبرراً تماماً.

قال وقد أيقن أنه وجد الحل:

ـ خولة مريضة فعلاً. لكن يمكن أن تأتي. وسنرى رد فعلها. أبو فهد. رح الى بيت خولة، وهاتها معك فوراً. اسمع. إياك أن تقول لها شيئاً.

قال الغريب: ـ أكيد أبوك وأمك ماتا.

ـ ماتا. نعم.
ـ و.. من؟ كحلة. والشيخ بهاء؟

ـ كحلة عميت. والشيخ بهاء يعيش بين القبور.

ـ واسماعيل؟ ابن عمنا. أكيد ما يزال بين الأحياء.

ـ بين الأحياء. تقريباً.

ـ والبيت الكبير؟

ـ نصفه صار شارعاً. الباقي.. ضاع.

استرخى الغريب، وابتسم، وجعل يبكي.

بعد قليل كفكف دموعه وزفر ساخراً من نفسه. قال:

ـ ذكرت الست أن شاهدين شهدا على موتي. ما المناسبة؟

لم يجب عبسي. ألفى نفسه أسير أسئلة أخذت تجتث خيوط مقاومته. ومع السؤال الأخير اندفع اليه شعور بالمهانة والعار، بأن الجالس أمامه كنعان بلحمه ودمه، أخوه، وأنه ابتذل نفسه على نحو لم يعه من قبل إلا في مريم خضير. أحس بالتضاؤل، بالخفقان خانق، فيما أسئلة الغريب الدقيقة المرهقة تتالى عليه، وأن وجود فدوى مرهق وثقيل.

قال: ـ فدوى، تعملين لنا قهوة؟

نهضت فدوى بخفة وصمت. وإذ أدارت لهما ظهرها مسحت عينيها بكمها ونشمت.

قال عبسي فجأة: ـ أنت تستغرب هذا الحذر مني، يمكن. أنت لا تعرف ظروف الحكم في بلد يمر بتحول اشتراكي. أعداء كثيرون، وعملاء أكثر. وتنظيمات تخريبية تلجأ الى العنف والاغتيال..

كان يود أن يقول المزيد. وكان الغريب يود أن يتكلم. لولا أن خولة هجمت من باب غرفة الضيوف كزوبعة صغيرة متعبة، عبرت بحذاء الغريب، سلمت، وجلست على كنبة في الناحية الأخرى. «ما الحكاية؟» سألت. ولمحت الغريب، والتفتت الى عبسي: «لماذا بعثت ورائي؟» والتفتت الى الغريب بسرعة البرق، تفرست فيه، بانصعاق ووجه ملجم، ثم الى عبسي، وكان الاثنان صامتين يرقبان، فالى الغريب ـ نظرت اليه، ونظرت، وتطوحت أشكال الكلمات على شفتيها الصامتتين.

صرخت: ـ عبسي! هذا كنعان!

وثب كنعان واقفاً وصاح: ـ الله يرحم الذي سماك خولة، يا أم خشم كبير.

أثبت عبسي راحتيه على الكنبة خائر الجسم والعينين. ببطء، نقل نظرته الى خولة مستفظعاً اندفاعها الجنوني. بذل جهداً خارقاً ليفك عن صدره ضغطاً أطبق عليه. كأن خولة كانت ترتمي، لا على كنعان، بل عليه هو، وبكل ثقلها، مثلما ارتمت على كنبة محمد علي بعد المحكمة.

كانت جلسة التوقيع على أوراق الطابو منتظرة بعد أسبوع في الدوائر العقارية. لقد مر الآن أكثر من عام ونصف وموضوع الإرث ما يزال في مرحلته الأولى. بعد أن جاءت فدوى بفناجين القهوة، وضع الثلاثة كنعان في الصورة. وقال عبسي:

ـ الاعتراف بك الآن، سيعني العودة الى ما قبل نقطة الصفر. والميراث بالنسبة لي، مثل الهوية بالنسبة لك.

لم يدر كنعان هل يضحك لما في الأمر من دعابة، أم يصر على حقه في أن يحمل هوية غير التي مزقها. قال:

ـ يعني، أنا الآن في عداد الأموات.

ورد عبسي بمرح: ـ الحق عليك يا أخ. خمس وثلاثون سنة، وأنت غائب.

ـ الحق علي صحيح. دائماً الحق علي. كل شقفة من هذه البلاد صارت دولة، ما شاء الله. وكلما حاولت دخولها، سألوني معك هوية؟ كان لازماً أن أغير أطقم الحكم حتى لا يطلبوا مني هوية. من أين أحصل عليها؟ يوم رحت من هذه الديار، لم يكن أحد بحاجة الى هوية ليصل الى مصر، الى المغرب حتى.

هتفت خولة: ـ وهذه المرة، من أين دخلت؟

ـ دخلت من البلاليع. بعد سقوط تل الزعتر قلت لحالي يا ولد الشغلة استوت. سيأكلها الفلسطينيون في كل

مكان. كنت مقيماً في الجليل الغربي، ودخلت لبنان. صرت أسرق، وأشلّح، وأشحد. حتى وصلت للشام، وكان معي كم ليرة، دفعتها أجرة باص الى عندكم.

حكى لهم كيف انتقل من الجيش الفرنسي في لبنان إلى الانكليزي في فلسطين. كيف تزوج فلسطينية، هي الأخرى من عائلة السنديان، أنجبت له ولدين وقتلت معهما أثناء غزو الاسرائيليين لمدينة عكا. كيف انضم للمقاومة، وسجن، ثم هرب من السجن. وكيف أمضى عشرين عاماً بين السجن والمخابىء، الى أن أعطي هوية اسرائيلية عام ١٩٦٨ بعد تعهده أن يشتغل جاسوساً مع المخابرات الاسرائيلية. وكيف اعتقل مرة أخرى، وهرب من السجن..

ـ قصة طويلة. ما لنا وما لها. الى متى سأظل في عداد الأموات عندكم؟

قال عبسي: ـ شهرين بالكثير. ستسكن الطابق الأرضي من البيت. بعد اقتسام الارث، يعطيك كل واحد منا حصتك، ونرفع دعوى لإعادتك الى قيد الحياة. ويمكنك أن تتجول في المدينة على راحتك. ولكن لا تعلق مع رجال الأمن.

ـ وشداد، متى أشوفه؟

صمت عبسي وخولة. قالت فدوى: ـ شداد في السجن.

فوجىء كنعان: وضحك: ـ والله بلادكم غريبة. أخوان، واحد في اللوج، وواحد في السجن. ولكن كما يقول المثل: شيئان لا يحس بهما أحد، تعريص الغني وموت الفقير. لأي شيء هو في السجن؟

قالت خولة: ـ سوء تفاهم. ظنوه يعمل ضد الدولة. وهو ولا شيء غير طول لسانه.

تأملها كنعان محاولاً قراءة ما وراء الكلمات. قال مؤثراً التغاضي:

ـ والى متى سيبقى في عداد السجناء؟

ضحكت فدوى. ورد عبسي: ـ أسبوعين بالكثير. تعرف؟ يمكنك أن توقع عنه في الدوائر العقارية. عجيب كم يشبه واحدكما الثاني.

رفع كنعان ذراعيه فوق كتفه: ـ لا، عزيزي. أنا لا أوقع عنه وهو في السجن.

قال عبسي: ـ يعني، يعني.

وفي الأيام التالية كان سعيداً، رغم انهماكه في شؤون لا تقبل التأجيل. رأى أنه سيطر على الموقف، وتفاهم مع كنعان بشأن استتاره في قبو الفيلا، دونما مشاعر مجروحة. وبات عليه الآن أن يسأل عن شداد في السجن، ويسعى لإخراجه، قبل موعد الجلسة. غير أنه بدأ بشارع هنانو وشارع غسان. استدعى أبا فهد وأبا دياب. سألها إن كانا قد شاهدا أحداً يدخل بيته ليل البارحة. ابتسما بصمت، منتظرين جوابه لكي يتبنياه كحقيقة مطلقة. وقالا إنهما لم يشاهدا أحداً. إن أية كلمة منهما ستكون خطيرة فوق ما يتصوران. ثم أنفذهما مع عدة آلاف من الليرات، ومقاييس مكتوبة على ورقة، لشراء بدلات وقمصان وأحذية وثياب داخلية وربطات عنق ـ أشياء وجد كنعان نفسه أمامها في ورطة حقيقية. وكان أصعب ما واجهه عقد الربطة حول عنقه: مهارة لم تستطع حتى فدوى أن تجعله يكتسبها.

لكن مسعاه لإخراج شداد من المعتقل لم يأت بنتيجة. كان المقدم فالح واضحاً وصريحاً، كعادته. أعلن أنه ان يطلق سراح شداد يحل هو محله، لأن الدولة تريده موقوفاً. قال ان شداد في حاجة الى تربية نفسية، لأنه يفتقر إلى إدراك كاف لعواقب الأمور، وأن الدولة قد تكفلت بتلبية هذه الحاجة.

في المساء السابق للجلسة، ركن في مكتبه محبطاً، وأشعل سيجارة. وفيما ينفث الدخان، تساءل هل هو في حالة صراع مع الدولة أم في حالة وئام. وجاءه جواب ولكن عن سؤال آخر ـ حقيقة أن هذه الدولة التي قامت على كتفيه، صارت كياناً مستقلاً عنه، كياناً جسياً مفزعاً لا يقاوم، يحدد له مقدار حريته الشخصية ومعناها. كيان ليس خفياً، ولكن يصعب حصره وتحديده. كأنه أخطبوط له من الأذرعة ما يخفي الجسد الذي تتفرع منه. منتشر في كل مكان كذراري الشعاع، سوى أنه شعاع أسود، يمكنه في أية لحظة أن يغدو مهلكاً. مثل جرثوم يستوطن الفؤاد ويفرخ ويتناسل، يعشش في الزوايا ويجتاح المسافات. وها قد لحقته لوثة من ذلك الوباء.

قال لنفسه أنه لولا الدولة لما أمست قضية الميراث شيئاً مثل أغنية الشيطان: ضربت الدولة حوله سوراً؛ كيف يستطيع أصحابه أن يتفاعلوا معه؟ ثمة قوة خفية عاتية تحبط كل مسعى باتجاه استعادته. كأن هناك سحراً غاشماً يجرده من كل سحر. هذا الميراث، هذا الطعم المر لنبيذ معتق.

تأجلت جلسة التوقيع. بل ان أحداً لم يحضر، لأن الاجراء كان متوقعاً. سوى محمد علي، الذي تضايق الى درجة السخط. لقد ذهب الى الدوائر العقارية حاملاً معه خمس وكالات خاصة باسم خمس وريثات، ليوقع عنهن وعنه. وعاد بلا جدوى. وكان على الجميع أن يخرجوا قيود نفوس جديدة.

لم تعبأ خولة بالتأجيل. كانت عودة كنعان تسقيها حياة جديدة. وكل مساء كانت تعرج الى منزل عبسي، فتمضي هناك ساعة أو ساعتين، تستمع إلى حكاياته ونوادره، فما العائلة كلها متحلقة حوله. حتى عبسي صار أخاً صغيراً أمامه، ليس لأنه أصغر سناً، بل لأنه أصغر تجربة وأكبر لغة. كانت كلمات كنعان صغيرة كالدبابيس، وكلماته كبيرة كالريش. لذلك روض نفسه على تقبل دعابات كنعان برحابة صدر، كأنه يمنحه فرصة للتطاول عليه.

وكان قلق صغير يكبر في نفسه كلما تكررت الزيارات وطال السهر. وبعد أيام انتحى بكنعان جانباً، وأكد له من جديد خطورة مغادرة القبو والظهور في الشارع. استمع له كنعان بهدوء متلاش، ثم سأل:

ـ من أي شيء أنت خائف بالضبط؟

ابتسم عبسي بهزء: ـ أنا لست خائفاً على حالي. أنا خائف عليك. رجل بلا هوية. أي تهمة يمكن أن تلصق بك.

ـ تهمة من النوع الذي ألصق بشداد مثلاً؟

ـ يعني. مثلاً.

ـ بس شداد معه هوية.

كظم عبسي ضيقه. ابتسم وربت على كتف كنعان:

ـ إذا شافوك عندي، أعود لا أقدر على مساعدتك.

ـ عظيم. أروح الى بيت شداد.

ـ لا. هناك يشوفك الفلاحون وعمال النفط. هنا تضيع في الزحمة. وبيت شداد مراقب. لازم أن تبقى هنا. ولا تظهر. اصبر شوية بس.

كانت سوسن أكثرهم ابتهاجاً به. ومع حرصها الدقيق، هي وأختاها، على كتمان سر وجوده، كانت تزوره في «الطابق السفلي» حاملة قهوة وعلبة سجائر، فتنادمه بشغف طاغ، وتنسى نفسها عنده حتى يذكرها: «يا بنت، أنهيت نصف السجائر التي أتيتني بها.»

وكانت خولة تزداد انبهاراً به يوماً بعد يوم، فتنسى أنها سألته من قبل ما كانت تسأله فيما بعد. كانت تستحثه خشية أن يمل ويكف عن حديثه الطلي. تسأله:

ـ وكيف وجدت الانكليز والفرنسيين، يا كنعان؟

وتنصت بخشوع، وينصت الآخرون، فيقول هو:

ـ الفرنسيون يتدخلون كثيراً في حياتك. يريدونك أن تصيري مثلهم، أو مسودة عنهم. وإذا لم تصيري مثلهم، يحتقرونك. الانكليز يتركونك على حريتك. لا يطلبون منك أبداً أن تتطبعي بطباعهم وعاداتهم، لأنك إذا صرت مثلهم يحتقرون أنفسهم.

وتقول هي: ـ آخ يا أخي. لو أنك رجعت بعد نهاية الحرب، كان صار لك بيت، وبذكائك كنت صرت في أعلى الرتب.

وينظر اليها مستغرباً: ـ أي حرب! لم تنته الحرب.

وينظر اليه عبسي من زاوية، بينما يبحث الآخرون في أذهانهم عن صيغة للواقع تفسر كلامه. إلا خولة التي تعيا عن إيجاد الصيغة، وتحس أن الكلام أعمق من أن تجول فيه. وتقول:

ـ قصدي، كان صار لك بيت وشوية مال..

ـ ألم تعرفي أنه عندي بيت! بيت كبير، هائل.

وتسأل هي بحماس استنكاري: ـ أين؟

فيجيب بدهشة: ـ في فلسطين.

ـ عند أقربائك بيت السنديان؟

ـ عند أقربائنا بيت السنديان.

وتتحسر هي: أنّى أن تتسنى له سكنى ذلك البيت. وما تلبث أن تجد في كلامه نافذة مفتوحة على لغز، انها لا تستطيع أن تحدد هل هو مازح أم جاد. ويخامرها شك في معنى البيت والسنديان فيسقط في يدها. لقد توقعت أن تسمع كلامه كله حكمة وتعمق من نوع كلام أبي أحمد، كلاماً عن الحياة وعمر الانسان ووجوده في هذا الكون.

بالطبع كانت قد أخذته الى بيت شداد. عرفته على زهرة والولدين، وقلبها يخفق من زوجة الأخ التي طردت عبسي نفسه من بيتها. وكان فرح زهرة به فرحاً خاصاً، مزدوجاً. منذ الدقائق الأولى التقطت فيه سيماء تأفق ومروق، نزوعاً الى السخرية المزدرية من قواعد حياة أثارت أعصابها.

وقد منحته تلك الزيارة مسافة أوسع، من مار تقلا الى الشاطىء البعيد. ووجد نفسه يتعرف على مدينة أين منها صور البلدة الصغيرة العالقة في الذاكرة كخيوط العنكبوت. وصار مشواره ينتهي قبيل المساء بزيارة لبيت شداد، فيمضي بعض الوقت في الحديقة الصغيرة يلاعب الطفلين والنباتات، ويعود.

ذات أصيل، على الطريق الرئيسي الواصل الى كازينو الشاطىء الازرق، كان يتمشى نحو «مزرعة شداد»، عندما انتبه الى رجل يمشي على الطريق حاملاً بيديه كيسين ورقيين منتفخين. ووجد الرجلان نفسيهما يختلسان النظر أحدهما الى الآخر. وتضاعفت حيرتها وارتيابها، اذ تابعا المسير كأنهما خرجا سوية في نزهة صامتة. لم يغير كنعان من مشيته، لكنه انصرف الى مزيد من تأمل البحر واختلاس النظر. ثم وقف في مكانه وقد شاهد الرجل الآخر يقترب منه بمودة وارتباك ولهفة. قال الرجل:

ـ عدم المؤاخذة. من الأخ؟

أجاب كنعان حذراً، ولكن ودوداً أيضاً: ـ الأخ ابن آدم.

ـ عدم المؤاخذة. أنت تذكرني بأخ لي لم أره منذ أيام الطفولة.

سأل كنعان بحذر متضاعف: ـ وأنت من؟

ـ أنا اسماعيل السنديان. وأنت؟

هجم كنعان عليه معانقاً، صائحاً: ـ أنا كنعان، كنعان.

كان اسماعيل يحمل رزاً وبرتقالاً لزهرة وولديها. وعلى طول الطريق لفتهما شمس الأصيل بشعاعها المتوهج، وتحركا في المكان الساكن قدماً الى بيت شداد.

أطلق سراح شداد على غير توقع تقريباً. قبيل خروجه بنصف ساعة، اتصل المقدم فالح بعبسي، وعبسي بخولة، وخولة بحيان، وطار حيان على دراجته لملاقاة خاله.

قالت خولة، بعد أن بللت وجه أخيها ولحيته النامية بالدموع، وجلسا في غرفة الضيوف:

ـ يا شداد يا حبيبي، لازم أن تتصالح أنت وأخوك..

قاطعها متهدج الصوت متعباً: ـ أنا أصالح هذا الوغد؟ لا يا عزيزتي. الأيام بيننا.

صاحت: ـ شداد؟ لا تقل هذا الكلام.

ـ اتفق هو ومحمد علي على تمويت كنعان، بعد ما بعثوني الى السجن. سأمسح بهم الأرض. أنت بعت حصتك له، ما؟ يطمسون كائناً حياً..

صاحت: ـ كنعان ما عاد مشكلة. كنعان هنا، عندي في البيت.

نظر اليها ببلاهة: ـ ماذا؟

صاحت: ـ كنعان! تعال!

أقبل كنعان من غرفة النوم مدمدماً: ـ واحد يحبسني في القبو، وواحدة في غرفة النوم. قم يا أخي، قم سلم علي مثل العالم والناس.

كان حيان يتبعه. ووقف يراقب بابتسامة ساهمة منفعلة عناق خاليه المحتدم المديد. كان شداد مذهولاً، لكنه وجد نفسه يتحرك بلا كوابح ويرخي رأسه بعد قليل على كتف أخيه. وجعلت خولة تشهق بالبكاء، وذقنها ترتجف، وقلبها يترنح تحت وطأة السعادة. وعندما انفكت أذرعة الأخوين، كانت عينا كنعان دامعتين ووجه شداد أحمر.

على الطريق الى البيت، لخص شداد لكنعان قصتي الميراث والاعتقال، رغم مقاطعات خولة المتكررة. وعندما هبطوا أمام السياج، كانت زهرة قد وصلت لاهثة، ووراءها ولداها، وانهالت على شداد عناقاً وقبلاً وركلاً. وطأطأ الاثنان فرفعا الولدين على حضنيها، وتابع الأربعة بشفاههم وأيديهم إعلان الحب.

جلسوا في الجنينة. وظهر الإرهاق واضحاً على شداد. كانت عيناه مثقلتين، وحركات جسمه. وكان يبدو متعباً تعباً دفيناً مخزوناً. وأسرعت زهرة وخولة الى المطبخ لتعدا الطعام كي يأكل وينام. ودخل حيان معهما ليصنع قهوة.

قال شداد: ـ كم ستبقى على هذه الحالة؟ قصدي بلا هوية.

ـ الى حين ينتهي موضوع ميراثكم.

ـ يعني، أنت أيضاً. وقعت تحت سلطة عبسي. باسم الأرض، وباسم وحدة العائلة. أنا برأيي. قم أعلن للناس أجمعين من أنت، وافضح الذين تآمروا عليك.

ضحك كنعان بابتسار وصمت قليلاً. ثم هتف وهو يزفر:

ـ يا أخي شداد، أنا حملت السلاح ربع قرن وزيادة. لم أخسر معركة واحدة، ولم أربح حرباً. معي هوية فدائي؛ ليست جواز سفر ولا هوية، من دولة معترف بها. وفي العالم ناس كثيرون يعتبرونها وثيقة على كوني إرهابياً. لا يا أخي. لن أصرخ في الشوارع معلناً من أنا. إذا لم يعطني السلاح اسماً لن تعطيني الكلمات. من عام ٤٨ ونحن نتبعبع بالكلمات.

ـ اذن تنتظر حتى يعطيك هؤلاء هوية؟ الأفضل أن ترجع وتبقى هناك.

ـ مش ممكن. على طرفي الحدود ناس لا يسمحون لك بالعبور. لا بد من الانتظار حتى ينتهي موضوع الارث. عبسي يقول إنه ربما كانت حصة الواحد مئة ألف.

ـ هكذا اذن! الآن فهمنا الطبخة! وهويتك تهدد ثروتهم. دفعوا لهؤلاء المساكين..

أقبلت خولة ونادتهما الى الأكل. نهضا. وانضما اليها بصمت.

كان الطعام بسيطاً وقليلاً، لكنه فاجأ شداد بمجرد وجوده. وسأل زهرة:

ـ من أين لنا الرز وهذه الأشياء؟

ـ هذه الأشياء جلبها أبو رمضان. وخولة واسماعيل لم ينقطعا عنا. وحبرية.

أوشكت خولة أن تغص بالطعام. وقال بديع:

ـ جدي أبو رمضان يشتغل في بناية كبيرة، ويقف على خشبة في الطابق الرابع.

انسحبت خولة الى صدر البهو وجلست، وأشعلت سيجارة. وكانت مريم الصغيرة قد ألقت جذعها على فخذي أبيها وظلت واقفة على الأرض.

قال شداد: ـ لم تأكلي، خولة.

قال كنعان: ـ شبعت من شوفتنا.

هتفت هي: ـ اي والله.

وفيما انشغل الآخرون بالأكل، هب عليها كالنسيم إحساس بالدعة والراحة. كانت سعيدة لأنها شاركت في إعداد الوجبة، هي التي قلما تطبخ. وتجولت عيناها في البهو، الذي بدا أوسع لقلة الأثاث فيه. ولامست نظرتها زهرة فتوقفت عندها. كانت تلك تتناول لقماتها بهدوء وقد تألق وجهها بفرح منير. وتحيرت في أمر وجهها: من أين تنبع هذه المسحة الملائكية لجمالها، والانسان يراها غالباً إبليساً.

تذكرت عبسي. وهذين الحارسين الواقفين دائماً هناك. هزت رأسها. تذكرت سنوات زواجها الأولى، يوم عاشت في كهوف نفسها وظنت تلك الغرفة عالماً. تذكرت شقاء عبسي، تعبه المستمر، وأوشكت على البكاء حزناً من الحياة العاقة التي كافأت سعيه العظيم الى المجد والانسانية، كافأته بـ، بـ.. ولم تسعفها الكلمات. وقفز شداد الى ذهنها. رأت فيه رجولة لم تنتبه لها من قبل، رجولة الواقف على أرض صلبة دون أن يحس به أحد.

وتأكدت تأكداً مطلقاً أنهم عذبوه: هذا النحول والاعياء، والبسمة البطيئة. صامت لا يتكلم. وداهمها الهلع: صار الخلاف بينهما عداء، وهي لا تستطيع أن تفعل شيئاً. لا تستطيع أبداً. إذا اصطدما.. سيكون ذلك اليوم يوم القيامة. نهاية الحياة. نهاية السنديان. وكنعان لن يستطيع. وماذا سيحل به؟ خمسون سنة، لا حجرة ولا شجرة. وجامع الأزهار ذاك، يخاف من رزق بعثه الله له. اثنان وأربعون سنة، إذا غاب يوماً واحداً جاعت عائلته. مستمر دؤوب. يتقدم ببطء ولكن لا يتراجع. سعادته سعادة، وحبه حب. فقط لو أن الأحوال غير هذه. ثلاثة أخوة ـ أي شيء أجمل يمكن أن تمنحه الطبيعة؟ مع ذلك.. لكنهم الآن موجودون. وهذا يكفي. مجرد وجودهم. لن يحدث لهم شيء. لن يحدث لهم شيء.

نام شداد حتى الصباح. بعد الافطار ركب دراجته وهبط الى الميناء. وعند العصر عاد متضايقاً. أربع وعشرون ساعة مضت ولم يجرؤ على الاحساس بالحرية. كان في الخارج، في الهواء الطلق، والبيت والميناء، وعلى الكورنيش. لكن قلبه كان معتقلاً. طبعاً التقى بالعمال ـ قال لزهرة. لكنه وجد نفسه مفصولاً. صافحهم وتصايح معهم. كانوا فرحين فرحاً صافياً. وألقى بنفسه كلية في تيار فرحهم. لم يترك تحية إلا ورد عليها، لا غمزة او هزة يد. أحس أن هؤلاء هم الناس الذين يشتاق لرؤيتهم والعيش معهم. لكنه رأى نفسه في غمرة الفرح مثل من يحاول اللحاق بسيارة تزداد سرعتها كل ثانية. عيون تراقب وآذان تسجل. وبعد ساعات قليلة، اضطر الجميع الى المواربة، الى الالتفاف من وراء العيون والآذان. قال لزهرة إن مثل هذا الفرح يجب أن يتدفق، ينساح الى أن يغطي الأرصفة والبحر والبواخر. لكنه انكمش، وعند الظهر قمع. وصارت التحيات تحدياً لا فرحاً.

قال إن ما لمسه أرهقه. العمال حيّوه كبطل صغير، وهو لم يكن هكذا في السجن. والعيون راقبته كخطر كبير، وهو لم يكن هكذا في السجن. كان صغيراً، بلا بطولة ولا خطورة. وكانت العيون قد ركبت كلها في رأسه. بعض الأصدقاء همسوا كلاماً موارباً هاماً. لكنه كان واضحا وقلقاً. انه يوشك أن ينهي الآن عامه الثاني والأربعين، وما عاد يمتلك النشاط والحركة اللازمين. وهو ليس أبا ذر الغفاري ولا غيفارا. يريد أن يكتفي بالمقدار المتوفر له من السعادة مع زوجته وولديه. قد لا يبيع بيته، لكنه لا يقدر على أكثر من ذلك. وكانت العيون مفتوحة ومتربصة، فأسكتت همس الخواطر.

ـ حتى كفرت بنفسي وبحبي لوطني. حالة لا تطاق. الانسان يولد تحت السلطة. يعيش تحت السلطة ويموت تحت السلطة. في البيت سلطة، وفي المدرسة سلطة، وفي الشغل سلطة. على طول الشارع تحسّس بالسلطة. الأعين سلطة والحركات سلطة. الأب سلطة والأم. والأخ. والناس المتسلط عليهم. الملابس. الطعام. الدكاكين. الراديو. الجريدة. اللغة. وكل سلطة لا تريد أقل من حريتك وعمرك. تقول لك ماذا يجب أن تكوني. وما هو ممنوع أن تكوني.

قالت زهرة وهي تضع الخبز والشوربة على الطاولة:

ـ لن تستطيع سلطة أن تمحو ابتسامتنا.

هز رأسه: ـ ستجعلها صفراء. لأن الذي لا ييأس يواجهونه بالعنف. ليس في العالم رقعة بشرية واحدة تقف بنجاح ضد الظلم. يا زهرة، هذا هو عصر الظلمات. المدنية التي تسيطر على العالم الآن، بدأت بطلقة بندقية وأبادت شعباً أصلياً آمناً. هذه الهمجية ما تزال في صلبها. ضربت مدينة عزلاء بقنبلة ذرية، وعودتنا أن نتذكر هذه الجريمة كأنها حادثة طبيعية، مثل زلزال أو هزة أرضية. الآن، صارت تعلم القارات الخمس أرقى أساليب القمع وترويض الناس على تقبله. تعودهم على أن العنف والقمع أساس الحياة اليومية، طبيعة الحياة. وسيأتي يوم يصاب كل واحد بالقلق إذا لم يجد أحداً يتشاجر معه. وتنقسم البشرية الى حكومات تقبع في قصورها وتبث زبانيتها، والى شعوب مدجنة متفتتة، عصابات متناحرة، تقتتل لمجرد أن الموضة النفسية صارت

القمع والعنف. سيقول الواحد منا للثاني، اليوم أكلت سندويشة قمع من مطعم النيوترون، فيجيبه ذلك وأنا تناولت كوكتيل عنف واستبداد بحليب من دكان تكساس. وستقول السيدة الفلانية اليوم اشتريت فستاناً موديل هتلر من محلات دباح وقصاب، فتقول سامعتها التفصيل أحسن، أنا فصلت تايور موديل جنكيز خان، لأن الأزياء الآسيوية فيها أصالة اكثر. ويتم الوداع بلكمتين أو ثلاث، أو لبطتين ثلاث. وفي حال التعب، يكتفي بالأكف أو البصاق.

كانت زهرة على وشك البكاء، وقد خشيت أن تكون كلماته يقيناً. حملت كرسيين، فتبعها الى الجنينة. وعادت لصنع القهوة. وشرعت مريم الصغيرة تركض في المكان، ويدها مرفوعة في الهواء. وقال شداد لابنه:

ـ يا بابا، إذا صار لأبيك شيء، ماذا تفعل؟

أجاب الصبي بلا تردد: ـ أشتغل مع جدي، أو أصير صياد سمك. لأن الماما تحب السمك.

جاءت زهرة بالقهوة. قالت لبديع: «رح الى بيت جدك، وقل له شداد سيزوره.» لكنه تلكأ. وجلست قرب شداد. وسرعان ما أقبل كنعان، وأعلن أن المبيت عند شداد أروح له، فالمنطقة تشبه الجليل الغربي. ثم جاء اسماعيل مليء اليدين بالبرتقال، ومثقل القدمين بوحل الطريق. وأقبلت خولة ومعها أكياس منتفخة. ثم زوبعت حبرية من وراء السياج، وهرعت الى شداد فالتقطت وجهه براحتيها وعصرته، وطبعت على الجبين رسمة متقنة لشفتين حمراوين: «لا تزعلي يا زهرة. شداد مثل أخي الصغير.» والتفتت اليه ثانية: «آه يا ملعون. ما لك علاقة بشيء، ما؟ قرد ملفلف بثيابك وما لنا خبر.» جلست على كرسي جاءت به مريم، دون أن تستغرب وجود رجل لم تعرفه. وأضافت: «فرحتني، الله يفرح أولادك وامرأتك فيك. يا بطل، يا شافي الغليل.»

ـ كله لأجل منشور صغير يقرؤه عشرة أشخاص؟

قالت زهرة وهي تمسح الشفتين عن جبينه بمريولها:

ـ وماذا يعني؟ دائماً العالم تغيّره كلمات قليلة.

ـ لا كلمات ولا شيء. كله لأني رفضت أن أوقع على تعهد بأن لا أنضم لأي تنظيم سياسي.

هتفت خولة بدهشة لائمة: ـ كنت وقّع يا أخي، وخلصنا.

ـ هذا حقي، ولا أتنازل عنه. مع أني لن أجرؤ على ممارسته.

قال اسماعيل: ـ احك لنا ماذا فعلوا بك. أنا حققوا معي بس، وتركوني.

التفت كنعان اليه مستغرباً: ـ وأنت أيضاً؟

ابتسم اسماعيل وصمت بكبرياء. وقالت زهرة: ـ وأبي.

قالت حبرية: ـ خلونا نسمع. احك لنا، حبيبي، احك. كيف عذبوك.

قال متملصاً: ـ كان بيننا ناس، تقولين لهم إرادة من صوان. أنا احتقرت حالي لما رأيتهم.

لكن تعذيب العقل هو التعذيب ـ قال لنفسه.

قال كنعان بفضول هادىء: ـ وأنت؟

صمت. وخشي أن يزيد صمته حدة توقعهم فرأى أن يتكلم، أحس بلعابه جافاً ومراً. وقرر ألا يتكلم: يريدون فقط أن يستمتعوا بحديث عن العذاب. وربما اضطر الى المبالغة ليرضي توقعاتهم. هرع الى البيت معلناً

أنه يريد قضاء حاجة. وهناك أغلق باب المرحاض على نفسه، وأقعى يفكر في الليالي والنهارات التي خرجت عن مدار الزمن. تذكر كيف صار أبله بعد سبعة أيام من الإقامة في دولاب سيارة وذلك الحجاب اللعين، المسبل على الرأس حتى النحر، والآخرون يسألون، أسئلة كحصى النهر، صلبة عارية، وعليه هو أن يتحاور مع المجهول، مع صورة بلا ملامح، ولا انفعالات، لأن نبرة واحدة، ذرة واحدة من الحضور الانساني، يجب ألا تدخل في مشهد العقل المدمى.. رفض أن يتذكر. لماذا؟ لماذا تتقدم الحياة وكأن هدفها إرجاع الانسان الى الهلام والوحشية؟ لماذا القيم ليست جوهراً في الطبيعة؟ أهناك طبيعة بشرية حقاً؟ أمعقول أن الجمال والحب والخير والحرية، مجرد كلمات لا مكان لها في مهرجان العنف؟

خرج وغسل يديه: عندما يتشوه الجسد يظل هناك عقل قادر على إدراك التشوه، ولكن ماذا إذا تشوه العقل؟ إذا أعطى اسمين أو ثلاثة في برهة خرجت عن مدار الزمن، من أين يجيؤه الايعاز بأن هذه خيانة؟

قال كنعان: ـ ما لك ساكت يا شداد؟ يعني، لا أظن أنك لاقيت تعذيباً أكثر مما يلاقي الناس في مكان ثان.

ـ صحيح. مهما حكيت عن التعذيب لن أبهركم.

ـ لحسن الحظ نحن شعب متخلف، ليس عندنا إبداع في هذه التكنولوجيا. لذلك أساليب القمع صارت على رأس الصادرات الاميركية. قل لي، ما الذي دهاك؟

ـ في الكتب نقرأ عن الانسان. وفي المجلات والبيانات والمواثيق. عن حقوق الانسان، وكرامته، وإنسانيته، وقدسيته. عرضه لوضع مضاد، وإذا به لا شيء. لا شيء إطلاقاً. المجلود والجلاد سواء بسواء. كلاهما صورة للرعب والقرف. و.. الهشاشة. خذ من الانسان حريته وإذا هو لا شيء. تبقى البدائية. الهمجية. سفك دماء أضيف اليه في زماننا سفك عقول.

سأل كنعان بمحبة: ـ هذه أول مرة تدخل فيها السجن؟

أجاب شداد بحنق: ـ ماذا يهم؟ ضروري لأن لك رأياً أن تتعرض للمهانة والاذلال، والشعور بأنك جبان وتافه؟ وغير جدير بالاحترام من أحد؟ يا أخي هذه مبادىء بدائية. من آلاف السنين اهتدى لها الناس. كلما مشيت خطوة على طريقها، مشى الجلاد كيلومترات على طريق القمع.

قال كنعان ساهماً: ـ جئت الى هذه المدينة ووجدت لي أخوين فيها. واحد غارق في المال، وواحد غارق في البؤس. يا شداد، أربعة أخماس البشرية تعيش هذا الوضع. ماذا تفعل؟ تمشي بين الناس وتصيح فيهم: يا ناس، أنتم عبيد أذلاء؟ تطالبهم بتطبيق المبادىء البدائية؟ يضحكون عليك. أو: يشوهونك. لا يا أخي. الموقف الوسط مستحيل. يا اما احمل سلاحاً، يا اما اسكت.

قال شداد: ـ أنا لست نابليون. لكني لست قملة. أريد أن أعيش حياة عادية، بسيطة، أشعر أني حر، راض عن نفسي وحياتي. وليس علي أن أقتل لأنال حريتي ولقمتي. أحياناً أحس، أني مثل كنعان، رجل بلا هوية. قصدي، الذي أراه حقيقة في نفسي، لا يتطابق مع حقيقة واقع حياتي. في داخلي أنا شيء، وفي واقع حياتي شيء ثان: مختلف تماماً. إذا لم يتطابق الداخل مع الخارج، كيف يبقى الانسان إنساناً؟ أين هي حقيقته الحقيقية؟ في ذهنه أم في واقعه؟ وماذا يفعل حيال هذه الازدواجية الخانقة؟ من أين يستمد قيمه، ومواقفه؟ سأذكر لكم حادثة جرت معنا قبل ثلاثة أيام من خروجي، لتعرفوا كيف إذا وضع الانسان في ظروف كهذه يتلاشى كل شيء نبيل وجميل فيه. حادثة تافهة. قبل ثلاثة أيام، رجع آخرنا من التحقيق. عند الباب أعطاه الحارس سيجارة وكبريتة فيها عود كبريت واحد. كنا أحد عشر شخصاً في صهريج واحد. قال لنا: يا جماعة،

أنا معي سيجارة، أشعلها وآخذ شحطة، ثم تتداولونها. وكنا صرنا حوله مثل الجنزير. قرفص. أشعل السيجارة وركع. وفوراً فهمنا. عشرة أشخاص، نزلوا به ضرباً وركلاً ورفساً ولكمات. وهو يقع على جنب، وعلى الثاني، ويداه حول فمه لم تتزحزحا، ونحن نضربه بكل وحشية، نضربه كأننا سنقتله، بكل قوة، بكل حقد، وضراوة. كأننا وحوش تهاجم وحشاً انفرد بفريسته. حتى رفع يديه في الهواء وكانت السيجارة خلصت.

ذلك المساء داهم السهاد عيني خولة. جلست على الشرفة مع فنجان القهوة والسيجارة. منذ عهد بعيد صارت الشرفة ملاذها كلما طوقها الضيق. وكانت تراها قطعة متدلية من الفضاء، تفتح نافذة على البحر يكفي اتساعها لفك حصار المشاعر.

بعد السيجارة أدركت أن سبب ضيقها ليس شداد تماماً. كانت تتذكر كلماته الأخيرة وتفكر في عبسي. وتفكر في كنعان، وتجد مستحيلاً أن يكون عبسي قد تواطأ على تمويته. ورأت أن ضيقها ليس من عبسي أيضاً. ولا كنعان. ولأنها لم تعتد أن تسأل نفسها أسئلة، عبرت من الليل فترة لا بأس بها قبل أن يضيء شعاع صغير في ذهنها.

جاء حيان متعباً من دراسته وانضم اليها. وابتسم إذ رآها تتأمل بنطلون الجينز الحائل الهرم. ومضى الوقت الذي توقع فيه أن تتكلم، فقال:

ـ أعرف، بنطلوني لا يعجبك.

هزت رأسها بالنفي: ـ طالما أنت فرحان بلبسه، يبقى جيلاً. أنا غلطي أني لا أفرح إلا بما يقال عنه جميل.

في اليوم التالي اتصلت بعبسي، وكان مشغولاً. وفي اليومين الثالث والرابع. وكان صوت فدوى عبر الهاتف كئيباً. سألتها إن كان هناك شيء، فأجابت:

ـ ولا شيء. كنت أتمنى أن أزور بيت شداد.

مرة أخرى جلست في الشرفة. وبدأت ذكريات صغيرة تقفز في خاطرها مثل الجنادب: جرة ماء على رأسها، شجرة توت، حزمة ريحان. ستة وأربعون عاماً. يا للزمان العجيب. ودوى في أذنها ضجيج دراجة نارية تعبر الشارع، فعادت الى عالمها الراهن. من كان يظن أن حبرية تبكي لحديث شداد. حبرية المألوفة الى درجة البهوت. كل ما حولها مألوف الى درجة البهوت. كل الأشياء التي تحبها باهتة. أهذا هو عمر الانسان؟

ثم تدفق في خاطرها سيل من الذكريات ـ معظمها مع عبسي: البيدر الصغير على رأس الجبل، وهما جالسان تحت شجرة الزعرور، والغابات البعيدة على رؤوس الجبال، وطربوش أبي أحمد على رأس عبسي، وعبسي يشد على قبضة المحراث..

مساء اليوم السادس جاء عبسي. ظل واقفاً في المدخل، وقال ان لديه خمس دقائق فقط، «ماذا تريدين؟» عاينته بمحبة، وقالت: «إذا كان معك خمس دقائق بس، نلتقي في وقت ثان. الذي أريد أن أحكي فيه يقتضي أن نكون قاعدين.» جلس على كرسي التطريز وقال: «ها قعدنا. ما الموضوع؟» نظرت اليه مرتبكة، الا أنها اقتنعت بسرعة أن الحديث ممكن وأن عبسي سيفهم لا محالة. لأن الحقيقة التي في ذهنها بديهية وبسيطة. قالت: «صار لك في الخدمة ٢٦ سنة.» وصمتت قليلاً إذ داخلها الارتياب في أنها ستبدو معقولة. لكن قوة كبيرة انبثقت فيها، وتابعت رغم نظرته المستطلعة التي اضعفت عزيمتها: «أما صار يحق لك أن تستقيل؟»

قال هو صابراً: ـ أستقيل لأي شيء؟

ـ صار عندك بيت، أجمل بيت. ومال، خير الله. وعائلة، ومركز كبير. ما نفع التعب؟ عش أنت وعائلتك وأهلك وأصدقاءك. سافروا، شوفوا العالم..

توقفت عن الكلام لأن عبسي انتصب واقفاً وهز رأسه:

ـ لهذا الشيء أحببت أن تريني؟

ـ ماذا تقول؟ أنت تقدر أن تعيش عمراً ثانياً.

ـ أقول أنت مجنونة.

ـ لأي شيء؟

ـ واحد وصل الى القمة، البلد كلها تهابه وتتطلع فوق لتراه، يقرر النزول الى الحضيض!

ـ إذا استقلت يعني الحضيض!

ـ طبعاً. يعني أن أتخلى عن كل ما وصلت اليه. وعندها لا يعود أحد يشتريني بفرنك واحد. ولن أقدر أن أحصل لكنعان على هوية. أنت ماذا جرى لك؟ أعرف أن عقلك يخض، لكن ليس لهذه الدرجة. ماذا دهاك؟ قصص شداد أثرت عليك؟

ـ من عدة أيام.. شفت أني ضيعت شبابي مع رجل توهمت أني أحبه، وأضيع كهولتي على أشياء.. يمكن أنا أتوهم أنها مفرحة.

قال وهو يستعد للخروج: «خليك شجاعة ولا تيأسي». وفتح الباب: «بخاطرك.» «كيف فدوى؟» توقف. مط شفتيه نحو الأسفل:

ـ منعزلة، منزوية. لا أفهم ماذا أصابها. بخاطرك.

وهمت بأن تسأله إذا كان زار شداد، لكن الباب انصفق وبقيت وحدها.

بعد أسبوعين ذهب آل السنديان الى الدوائر العقارية ليتسلموا أوراق الطابو. كان كل منهم يحمل قيد نفوس جديداً، إلا كنعان الذي حضر ليراقب. اسماعيل حضر أولاً. رأى الكوة التي يخاطبهم الموظف منها مغلقة. جلس على أحد مقاعد الحديقة، ومنذ تلك اللحظة حتى فتحت الكوة وبان وجه الموظف الرطب، كان شغله الشاغل ملاقاة القادمين والتعرف عليهم. كان سعيداً. كلما أقبل سنديان، اثنان أو ثلاثة، هب للسلام وتكلم بحرارة والفة. لكن سعادته توقفت عند حد. وبعد فترة تقلصت، اذ حضر الجميع وكانوا واحداً وعشرين وريثاً. كان سعيداً بكثرة العدد، ومتوجساً أيضاً: أهؤلاء كلهم يستحقون اسم السنديان؟ من منهم يستحقه؟ بالأحرى، من منهم ستكون له هذه المناسبة ميلاداً جديداً؟ لأن هذا هو معنى اجتماعهم، ومعنى الارث أيضاً. من منهم سيعتبر ورقة الطابو رسالة، يحملها في قلبه ويمضي لبناء مجد السنديان القديم؟ من سيعتبرها هوية؟ نعم، هوية.

كان محمد علي قد حسب أن هناك عشرة ورثة. أدهشته كثرة العدد. طاف بالموجودين الذين لا يعرفهم واطلع على قيود نفوسهم، وأصدر ابتسامة سعادة. وأيقن أن التعويض سيهبط الى النصف حتماً. كانوا جميعاً فرحين بكثرتهم، وتساءلوا كيف لم يتعرفوا من قبل بعضهم على بعض. وإذ بدأ توزيع سندات التمليك، بدأ التدافر. تركوا الحديث وأنصتوا الى الصوت المنادي.

سأل عبسي الموظف، وقد رآه شبيهاً بموظف دمشق:

ـ الآن، ما هي الخطوة التالية؟

وهب الموظف واقفاً: ـ احترامي سيادة العميد. لا تؤاخذني، انشغلت بالتوزيع ولم أسلم عليك. الخطوة

التالية، تذهبون الى وزارة الصناعة. في دمشق، نعم. وهناك تتنازلون عن السندات، وتأخذون بدلاً منها شيكات.

قال عبسي بجلال: ـ متى نذهب الى الشام؟

أجاب الموظف محرجاً: ـ بعد يوم، يومين. في الوقت الذي يريحك. لأنه حالياً لا توجد اعتمادات. لم يخصص في الميزانية بند لهذا الموضوع. لكن، هناك تتنازلون عن السندات، وتنتظرون الشيكات. لأنه إذا لم تتنازلوا خلال ثلاثة أشهر، تصادر الأرض.

ـ متى ستوجد اعتمادات؟

رفع الموظف يدين مفتوحتين الى جانبيه، وأجاب بطريقة من يلقي نكتة:

ـ الله أعلم.

ـ يعني. في تقديرك.

ـ والله لا أعرف. ليس في ميزانية هذا العام.

سأل محمد علي: ـ هل تقرر ثمن الارض؟

ـ ليس نهائياً.

ـ يعني؟

ـ مبلغ لا بأس به يا دكتور محمد. مبلغ لا بأس به. حوالى ألف وخمسئة لكل وريث.

* * *

القسم الرابع

سفر برلك

صمت الحاضرون. جد محمد علي برهة. استدار نحو عبسي ببطء، ووجهه مطلي بالبؤس. ظل الجميع صامتين. وهجم اسماعيل على الكوة صارخاً:

ـ مسخرة. مساخر. أرض تساوي مئات الملايين، يأخذ واحدنا ١٥٠٠، والباقي تتقاسمة الدولة والشركات الأجنبية؟

هتف الموظف مبهوتاً: ـ وأنا ما علاقتي؟ الدولة هي التي تقرر. أنا مجرد موظف.

ـ أين هؤلاء الذين يقررون؟ لماذا لا يحكون معنا؟

التفت الى الورثة بغضب معتقل. لم يدر ماذا يقول، ولا لمن يقول. وكانوا صامتين.

صاح: ـ تحركوا، ما لكم جامدون؟ افعلوا شيئاً لأجل حقوقكم وشرفكم. هذا الارث هويتكم. كرامتكم. تاريخكم. نحن قبلنا أن تأخذ الدولة الارض لأن الدولة دولتنا وهي خير من يحافظ على ميراث الأجداد. لكن أين العدل؟ أين الاحترام والكرامة؟ وفوق هذا، إذا لم نتنازل، تصادر الدولة الارض! اسمع الحكي! أنا لن اتنازل. لتصادر الدولة الارض، ولا يقول الناس إن اسماعيل السنديان باع أجداده.

صاح شداد من آخر الصف: ـ ألم أقل لك الدولة تأخذ ولا تعطي؟ وأنا لن أتنازل.

كان عبسي يبتسم بصفراوية. لم يود أن يبدو مخيباً، ولم يتمكن من أن يخفي شعوراً كاسحاً بأنه خدع. غير أنه ثابر على ابتسامته. كان مدركاً أن العيون انصبت عليه من جميع الاتجاهات. ورأى أن الموقف يتطلب حركة، فتحرك. استدار بعزم وتصميم، ومشى نحو سيارته، كمن لا يريد تضييع الوقت في الترهات. وطمأن خولة أنه غير مكترث إطلاقاً بكلام الموظف، وأن الأمر سيكون على ما يرام، حتماً.

خلال تلك اللحظات، كان مشهد اثنين وعشرين من بني آدم فاتراً ومتشققاً. وبعد حركة عبسي الأخيرة، لم يلتفت أحد الى أحد. معظمهم أحس أنه طمر تحت جبل انهار فجأة ودفعة واحدة. وراح اسماعيل يقطع ذهولهم الصامت بين برهة وأخرى، بكلمات لم يسمعوها تماماً، ولا هو سمعها تماماً: «أرض تساوي الملايين.. هذا التجمع البائس.. ملايين.. واحد وعشرون.. مثل الشحادين.. قلنا لكم وكّلوا محامياً.. لماذا نحن مجبرون على التنازل؟»

توجه شداد الى دراجته وقد غفل عن كنعان. وتوجه كنعان الى عبسي. وغفل الثلاثة عن خولة، التي ضربتها وخزة بارقة أسفل ظهرها.

قال كنعان: ـ ولا أفلام السينما. ما هذا يا عبسي؟

هز عبسي رأسه بجلد وكبرياء: ـ هذا واحد أحمق. تعال معي.

تهزهز كنعان إذ نقل وقفته من ساق الى أخرى:

ـ الى أين؟ قلنا انتهت المشكلة، وبعد كم يوم آخذ هوية. هه. الى القبو؟

ـ ستأخذ هوية. أسرع الآن، حتى لا يراك الآخرون.

وخوى المكان إلا من خولة. كانت لحظات الذهول قد امتدت في رأسها الى أن تفرق الجميع، وأقفرت الحديقة. لكنها رغم الوحشة الدالفة لم تنتبه الى وحدتها عندما خطت قدماها على الرصيف بين الأعشاب. كانت الوحشة في داخلها أقوى بكثير. أقوى من أن ترى انفضاض الجميع، أو ترى الحديقة الصغيرة الجميلة وأشجارها الباسقة. ومن أن تمنع ذقنها من الارتخاء، وفمها من أن يتخذ شكل البكاء. جرضت بدموعها فما تجر جزدانها بذراعها وتمشي. لقد عادت مرة أخرى الى حافة الفقر. لقد خدعت. كل عمرها مخدوعة. جاهلة. ولا تعرف من يخدعها. لم تعرف قيمة الارض. وعندما عرفت، بقي لها اسم الارض، وأخذت الدولة القيمة.

تأكدت لها الخديعة عندما اتصلت بعبسي بعد يومين، وكان على غير عادته غامضاً ونصف مرح، وأكد لها بما يقبل كثيراً من الشك أن الأمور ستكون على ما يرام. قال إن الموقف الدونكيشوتي سيغضب الدولة ويضحك الناس. لكنه مصمم على استرداد حقوق آل السنديان أو تخليص أرضهم، وعلى إخراج هوية لكنعان.

وقال شداد لزهرة: ـ ليس في الماركسية أجمل من تبشيرها بإلغاء الدولة. ولا أكثر استحالة منه. الدولة تريد سندات التمليك الآن؛ أما الشيكات: يفتح الله.

وكان اسماعيل ما يزال مبهوتاً. طول الطريق المديد الى حارة الرمل نهبه تشوش لم يعرفه من قبل: ما هي هذه الدولة! لا تملك واحداً وثلاثين ألف ليرة، وهي ستأخذ الملايين؟ وكان بطبعه يأنف من الاتهامات والشتائم، فلم تسعفه لغة تريح خاطره المتعب. لكنه أيقن يقيناً قاطعاً أن العلامات كلها قد كذبت، أن كل واحد كان يفكر فقط في هذا المبلغ الحقير المهين. أصلاً، ما كان يجب أن توزع الأرض بهذا الشكل. كما يقول المثل: وزع البحر سواقي وشف ماذا تلاقي. لهذا السبب، لهذا السبب وحده، سيبقى ابنه مصاباً بفقر الدم.

فجأة وجد نفسه يحمل هذا الابن، بل يوسده بين راحتيه. وبعينيه المحتقنتين راح يسأله لماذا وجد؟ كيف سيستمر في العيش؟ ماذا سيرث؟ الجوع؟ الخوف؟ الذل؟ أهذا هو مصير آل السنديان؟

كان واعياً بفظاعة أنه هو الذي تسبب في مجيء الطفل الى هذا العالم. وأخذ ذهنه يتمتم بكلمات استغفار. لكنه كان غافلاً تماماً عن برودة تتسلل الى وجهه الأيسر، وتتلاشى مخلفة حساً نائياً بالفراغ، بأن المساحة بين ذقنه وصدغه الأيسر انفغرت، كأن اللحم هناك قد صار عبئاً، ككتلة خارجية ملصقة بوجهه، وأنه يجب أن يمد يده لينتزعها.

وفي المساء، لم تعرف حبرية كيف تروي الخبر لأبي ياسر. كانت موزعة بين خيبة أملها وفرحها بخيبة أمل أخيها. لم تدر، أتتكلم عن شعورها بأن الفقير مخلوق للفقر، أم عن المأساة التي نطقت من وجه محمد علي. وبعد تلبك طويل، لم تجد شيئاً تقوله سوى:

ـ الحمد لله أننا صرفنا هالألفين. إذا طالبنا بها، نقول له بلّط البحر.

حتى كنعان غفل عن محنته وهو قابع في القبو يدخن ويهز رأسه. لقد رأى بلاداً عجيبة. وفي المساء خاطب شداد بحيرة:

ـ بلد فيها فقراء وطبقة متوسطة. أين الطبقة العليا؟ عبسي؟ مستحيل. عبسي غير منتج. أين اقتصاد البلد وإنتاجها؟ من يقوم بالانتاج؟ اثنان وعشرون وريثاً، ليس بينهم منتج عصري واحد. ومع ذلك، المال يتدفق لبناء القصور.

وكان عبسي جالساً على كرسي مكتبه في الفيلا. كانت أصوات أجراس بعيدة تتردد في خاطره، وصورة ميهوب شريبا يسوق القطيع الى مراعي الشير الجبلية. وكان الكرسي قابعاً وراء طاولة مرصعة بتماثيل نفرت من خشبها المتين. كانت الستائر مسدلة. ولمبات الزوايا تسح ضوءاً خافتاً. والضوء يصنع ظلالاً باهتة ورقعاً منيرة أبهت، في مساحة أربعة وثمانين متراً مربعاً. والمساحة تغص بالأشياء فتبدو ضيقة. كنبات من طراز «ستيل»، طاولة تتسع لاثني عشر آكلاً، جهاز تلفزة شاشته ست وعشرون بوصة، حوض أسماك ذهبية ورقطاء، مزهريات خلابة لنباتات أتقن صنعها ففاقت النبات الطبيعي بهاء ورواء، كراسي موازييك مع ثلاث تربيزات، رفوف تماثيل صغيرة من العاج والآبنوس، ثلاثة تماثيل بالطول الكامل أحدها لفينوس، رفوف كتب صلبة الجلد خططت عناوينها واسم مالكها بالذهب، ثلاث ثريات علقتها بالسقف جنازير ثخينة مطلية بالذهب.

كان جالساً على كرسي مكتبه في الفيلا. وكانت أمام عينيه صورة جدارية كبيرة لجواد يرمح على أرض فضائية. وكانت فدوى قد أخلدت الى النوم، والبنات أيضاً. وكانت فوق رأسه صورة غبشاء تقريباً للشيخ عبد الجواد السنديان، معلقة داخل إطار عريض مطلي بالذهب. وكان على زاوية فمه اليمنى نصف ابتسامة ملتبسة: فيها سخرية ومرح وشرود، شفقة وعزم وصبر. لتنم فدوى. وخولة. ليناموا كلهم. لتنم المدينة. هو، سيبقى مستيقظاً. سيظل يسمع أصوات الأجراس البعيدة، ويرى صورة الجواد، والجبال الصنوبرية العالية. للحياة نشيد وهو لن يكف عن إنشاده. نشيد المنعرجات الخطرة والظفر، الوصول الى حافة الهاوية والقفز فوقها بانتشاء، المفاجآت المهلكة التي تهلكها إرادة الانسان. نشيد الفعل الحقيقي.

كان جالساً على كرسي مكتبه في الفيلا. وكان الكرسي مصنوعاً من خشب السنديان المتين، وملبساً بالمخمل الفستقي، ومحمولاً بلولب ثخين يدور على قاعدة ذات خمس قوائم. وكان والمكتب والكراسي الموازييك والكنبات والحوض والتلفزيون وطاولة الطعام.. يجثم على موكيت فستقي غطته حراشف كحشيش الربيع، بين جدران من الصخور الجبلية الصلبة غطاها اللبلاب من الخارج والستائر المزدوجة من الداخل، وسح منها صمت ثخين عميق سربله على الدوام بمزيج كثيف من شعور الأمن والانتشاء. للحياة نشيد. سينشده ولو لاهثاً، ولو وحيداً. لن يستقيل منه. لن يأسى إذا فشل أن يرد عن فدوى وجه الموت. سيحصل لكنعان على هوية. سيترك شداد يتطوح عبر اختياراته الشخصية الموحشة. سيذهب الى دمشق ليخوض معركة الميراث من جديد.

أسبوع كامل مضى. كل مساء يجلس على كرسي مكتبه في الفيلا. وتخلد فدوى والبنات الى النوم. كل مساء يزداد اطمئناناً. ويعيد التعرف بالأشياء الثمينة التي انتشرت حوله في المكتب وغرفة الضيوف والبهو. هذه العلامات، الرموز، التي تستمد قيمتها من أن جهداً بشرياً غير عادي قد بذل ليوجدها. كلها ثمرات لنضاله الدؤوب.

في المساء السابع قرر أن يسافر الى دمشق في الصباح، ودلف الى غرفة نومه. ليتهاو الجميع. هو سيظل واقفاً.

بعد أن مضى النعاس بثلاثة أرباع وعيه، أنهضه عن السرير هاجس غامض. حس بالخطر، أيقظه وحمله لا يدري الى أين. وفي لحظات استرد وعيه. تلفت حوله في الصمت الذي صار مريباً ونابضاً. حمل مسدسه، لبس رداءه، وعبر البهو متلصصاً، فمدخل الطابق، ونزل الدرج الملولب، كأن يداً خفية توجهه. لم يكن ثمة وضع غير مألوف. وعند باب الدخول العريض سمع أصواتاً مبهمة تأتي من اتجاه البوابة. فتح الباب قليلاً. وضع أذنه في الفرجة وأنصت.

ـ يا آنسة.. كرمى لأولادي.. والله ليرميني سيادة العميد بالرصاص..

ـ يا أخي لا أحد سيقول لسيادة العميد. على كفالتي..

ـ سامحيني يا آنسة. لن أسمح لك بالخروج.

أغلق الباب بهدوء مطمئن. وبدأ شيء كالبخار يتصاعد من جسده. مضى الى كرسي مذرع عريض وجلس. وضع المسدس على التربيزة. أشعل سيجارة. كانت ستارة الباب المفضي الى الحديقة مردودة على غير العادة. وراح يطاول الوقت بالنظر عبر الزجاج المصفح بقضبان الحديد ذات الأشكال الفنية المبتكرة.

انتهت السيجارة ولم تعد سوسن. ما تزال تحاول إقناع أبي فهد. هذه الإرادة العجيبة، الإصرار الذي لا يعرف التراجع، ورثتها عنه. ورثتها، واتجهت بها الى الدمار.

انفتح الباب ودخلت سوسن. هرعت الى الدرج اللولبي. رغم الغضب المحبط البادي على وجهها، كانت قامتها مفعمة بالحياة ـ وخاصة كتفيها المتينين ونهديها. وجهها نفسه كان مضاء بنور داخلي. وعندما لمحت أباها جالساً وبيده سيجارة، انطفأ الضوء، جمدت، وتهدل كتفاها.

لبث الاثنان صامتين برهة. أحست سوسن بيقين مطلق أن من تراه في عتمة الليل لا يمكن أن يكون سوى شبح ـ شبح نشأ من تجمع العتم وتكاثفه. ونظرت اليه ببركان من الاستسلام.

قال: «تعالي، سوسن.» وجاءت. «اقعدي.» جلست. نفض رماد سيجارته ولم ينظر اليها.

قال بنبرة سهلة نصف منطوية: ـ خلينا نتصارح بهدوء وسلام. من صديق الى صديق. لماذا تتصرفين بهذا الشكل؟

اعتصمت بالصمت. غرزت عينيها الجاحظتين في بلاط البهو.

قال: ـ ما الذي ينقصك؟ كل شيء مؤمّن لك. ثياب. مصروف. سيارة. نادي كرة سلة. وغرفة نوم لك وحدك. رحلات. حفلات. صدقيني أنا متحير. أنا لا أمنعك عن أي شيء. عن أي رغبة. بمجرد ما أعرفها ألبيها لك. ما الذي ينقصك حتى تتصرفي هكذا؟ تعرفين أن الخروج من البيت، الساعة الواحدة ليلاً، غير مقبول في أي قاموس اجتماعي.

لم ترد. ظلت جامدة كجدث محنط. لكن عبسي لم يستسلم. قال:

ـ أنا لا أحب العنف يا سوسن. مع أنك تظنين العكس. الآن، لن يكون بيننا عنف مطلقاً. أعطيك كلمة الشرف. إن كنت صريحة معي سيمر كل شيء بسلام. قولي بصراحة حقيقة مشاعرك.

لم تتحرك. لم تختلج. وتابع هو. نصف ساعة. ساعة. وهو مستمر في مخاطبة عقلها وشعورها. أخيراً نهض: «خلّيك هنا اذن، حتى أعود.»

حمل مسدسه ومشى الى الدرج الملولب بارتخاء. وصعد بارتخاء. وبعد برهة تحرك رأسها، ولفلفت عيناها الرجل المتواري بنظرة كثيفة سادرة. لم يكن في نيتها أن تهرب. ولا خطر لها. وفجأة أشعلت واحدة من سجائره وراحت تمتصها بلا انقطاع، الى أن سمعت وقع خطواته على قمة الدرج. أطفأت عقب السيجارة، ونظرت فرأته يهبط بارتخاء، وبيده قضيب السنديان.

ظلت رحلة الشام سراً. ليس لأن عبسي مولع بالتكتم، أو حتى قادر عليه. بل لأنه هذه المرة لم يشأ أن يطمئن قبل أن يأتيه الاطمئنان من الخارج، من الدولة نفسها. أدرك أن ثقته بالحياة عموماً، بالناس والظروف، يجب أن تلجم قليلاً، لئلا يتقلص عربونها الى شيك بألف وأربعمئة وثلاث وستين ليرة. لكن روحاته الى الشام

كثرت وطالت. وأقبل العام الجديد، وهو صامت إلا قليلاً ـ القليل الذي أعطى تفاؤلاً يكفي فقط لعدم تفكير الآخرين بالفشل.

لم تستفد سوسن شيئاً من غيابه. كان أبو فهد وأبو خليل وعناصرهما رجال حراسة حقيقيين. فبعد فترة وجيزة، بعد يومين من إبلال جسدها من الضرب، خسرت كنعان أيضاً، الذي قرر الانتقال الى منزل شداد، والذي أوشكت أن تعبده.

لم يتفاءل كنعان كثيراً برحلات أخيه. وخلال أسابيع جردته غزارة المطر من مقاومة الشوق الى الجليل والأرض البعيدة الأسيرة.

قال لشداد: ـ أنا قررت أرفع دعوى. وضعي لم يعد مقبولاً. ميت حي. هوية فدائي لا تكفي. أنا موجود بها، لكن في حالة حرب فقط. ولا توجد هناك حرب. ميراثكم هذا لا يفيدني في شيء. ومن يعرف؟ غداً تظهر أرض جديدة فيها معادن، وأرض غيرها فيها بترول، وثالثة فيها عفاريت. معقول أبقى طي الكتمان، تحت وصايتكم، حتى تتقاسموا أراضي الغيب هذه؟

ـ قلت لك هذا الكلام من البداية. المسألة مسألة مبدأ.

ـ مبدأ أو غير مبدأ. طالما أنكم، بيت السنديان، متفرقون، وحتى لا تعرفون بعضكم بعضاً، لا داعي لأن أتحمل وحدي ضريبة وحدة العائلة. أصلاً كنتم كلكم غرباء. أنا من الصبح ماش الى المحكمة. وأثناء هذا الوقت، خلني أقم عنك ببعض أعمالك السرية. لتدرأ عنك العيون قليلاً.

رفض شداد العرض الأخير: ـ إذا أردت القيام بأعمال سرية، كما تسميها، لا مانع. لكن ليس لأعمالي أنا. أصلاً أنا ما عدت أقوم بأعمال سرية.

قالت زهرة: ـ الشغل كثير. يكفي لك ولشداد ولغيركما.

قال كنعان: ـ تتكلم عن أعمالك، ثم تقول إنك تركت هذه الشغلة!

قال شداد: ـ يا أخي، والله مشكلة. كم مرة قلت لحالي: ابتعد عن المشاكل، بع هذه الارض وعش مع عائلتك مبحبحاً. وكنت أقبل رشوات صغيرة لأخلص من ضغوط كبيرة وورطات كبيرة. قبلت بقسط من الهوان على أساس أن أتجنب الباقي. بقليل من العنف، لأتجنب الباقي. بس.. يمكن هذا مستحيل. الحياة حياة، والموت موت. لا يمكن أن يلبسا بدلة واحدة. اسمع، أنا في الثالثة والأربعين. لا أستطيع أن أكون مناضلاً. وأنا فعلاً غير داخل في تنظيم سياسي.

ـ لكن انتبه لنفسك يا أخي. كونك بريئاً لا يغير شيئاً أمام كونك متهماً.

كانوا في صدر البهو، نصف متمددين. وكان الضوء مطفأ لتوفير الكهرباء، والظلام في الخارج دامساً. فجأة اخترقت المكان حزمة ضوء واختفت. نظر شداد من النافذة ورأى أربعة أشباح تخرج من سيارة وقفت عند السياج.

وثب عن الكرسي وركض الى وسط البهو. صاحت زهرة «ماذا؟» قال: «جاءوا الي. أين ثياب العمل؟» انتفضت: «على السرير. لماذا؟» «اقعدي اقعدي. لا يظهر عليك أنه صار شيء. لن أسلمهم حريتي هذه المرة. سأهرب من الشباك عند السرير.»

ركض الى غرفة النوم. وهوى على الباب قرع ثقيل. نظرت زهرة الى كنعان، فلملم أصابع يده ورفعها قليلاً. توالى القرع. أشعل كنعان سيجارة وهمس: «اهدأي، اهدأي. خليك طبيعية.»

سمعا صوت الركلات على الباب. نفض كنعان سيجارته وهمس: «أشعلي الضوء.» نهضت وأنارت الغرفة. وصاح هو: «أيوه! طوّل بالك.»

انفتح الباب ودخل الأربعة بمسدسات مشهرة. وقف واحد بالباب، ومشى ثان إلى باب المطبخ، وثالث الى غرفة النوم. وتقدم الرابع بثقة الى صدر البهو:

ـ تفضل معنا، يا سيد شداد.

قال كنعان وهو ينفض سيجارته: ـ أراك مستعجلاً. السلام لله يا أخ. قل مساء الخير.

ـ قم معنا، وبلا علاك.

ـ أقوم الى أين؟

جلست زهرة. صاح الرابع:

ـ اسمع يا.. قم معنا وبلا ثقالة دم. أو آخذك مجروراً مثل كلب.

قال كنعان مبتسماً: ـ إذا رحت معكم راضياً منشرح الصدر، ألا يكون أفضل من التجهم والعبوس؟

ـ هه. راض أو غير راض. المزاح في هذه الحالة قلة أدب.

ـ لأي شيء؟ لا يوجد في الدستور نص يعتبر المزاح قلة أدب.

ـ منذ متى صرت تمزح؟ أراك تغيرت.

ـ قصدي، الدولة تريد مني شيئاً، أما أنتم وأنا، لا عداوة بيننا. اشرب كأس شاي، وبعدها نمشي.

انطلقت رصاصة من مسدس الرابع وضربت بالأرض عند قدمي كنعان وانحرفت الى الجدار الأيمن. رفع كنعان ساقيه وشهقت زهرة. وعاد الثلاثة.

أنزل كنعان ساقيه على الأرض وقام. قال:

ـ الحقيقة أنك رجل جاد، لا تحب المزاح، ولا تضييع الوقت. لكن لم تقل لي إلى أين، ولا من حضرتك.

ـ أنا رجل أمن. وستجيء معي الى بيت خالتك.

ضحك كنعان: ـ يقطع الخالات. كلهن شؤم.

انتصبت زهرة. مدت يدها نحو كنعان وصاحت بالرابع:

ـ هذا ليس شداد. هذا أخوه الكبير. شداد هرب وقت نزلتم من السيارة.

كان وقع كلماتها على الرجال الخمسة تحذيرياً، لكن كنعان استرد ابتسامته بسرعة. وبسرعة مماثلة حسب أن ثمة فرصة لأن يبتعد شداد وينفذ هو من الاعتقال أيضاً، أو تصير الأمور الى أسوأ. وصاحت زهرة بالرابع:

ـ تطلع بوجهه. هذا عجوز. شداد شاب. هذا نصف شعره أبيض. شداد، ولا شعرة بيضاء.

بدت البلبلة على الرابع واضحة. ضحك كنعان. جاست عيناه بين الأعين. أحس بخطر حقيقي، وأيقن أن حسابه خاطىء:

ـ أنا عجوز يا بنت الحلال؟

التفت الرابع اليه: ـ أعطني هويتك.

قال كنعان بذعر مستتر، ولكن باسماً:

ـ أنت تصدق كلام النسوان؟ هذه امرأة.

قال الثالث: سيدي، شباك غرفة النوم مفتوح.

نظر الرابع الى كنعان بوعيد ساخر:

ـ أنت من؟ شداد هرب، أكيد. ولكن، أنت. اعطني هويتك.

ومد يده الأخرى. كانت زهرة تنظر اليهم بذهول، وقد أدركت فداحة الورطة التي وضعت كنعان فيها.

قال كنعان: ـ يا أستاذ! لا تترك المرأة تلعب بعقلك. هذه زوجتي..

صاح الرابع هائجاً: ـ «اخرس يا قليل الأدب.» وناوله لطمة داوية على وجهه.

ـ شفت؟ لأنك استمعت الى كلامها، أطعمتني كفاً زيادة على ما أستحق. هذه زوجتي وتريد أن تنقذني بأي ثمن. أنت تعرف أني لا أخ لي سوى العميد عبسي. خذوني وخلصونا. لا تخفضوا دمكم. أنا من زمان لم أركب سيارة. وأتمنى أن تضعوني قرب الشباك لأتفرج على المطر وأسمع صوته.

قال الرابع: ـ واحد منكما يكذب. أين الأولاد؟

أجاب كنعان: ـ عند جدهم. كنا ننوي أن نقضي ليلة رومنتيكية لولا تشريفكم.

قال الرابع: ـ شداد أو غيره. هذا يشبهه كثيراً. خذوه.

كان عبسي في دمشق. وبعد أسبوع جاء مستبشراً. قالت فدوى إن محمد علي اتصل بإلحاح، ويريد أن يراه، وأن خولة اتصلت البارحة وكان صوتها قلقاً، وأن رجب العز وآخرين اتصلوا أيضاً. سارع الى الهاتف وأدار الأرقام. قال محمد علي إن عودته جاءت في الوقت المناسب تماماً: غداً في الساعة العاشرة يبدأ تسجيل التخصص بالشاليهات وعليه أن يتهيأ. سأله كيف الأحوال في الشام، وأجاب عبسي أنها تقريباً ممتازة، والأمل كبير.

كانت عشر ساعات تفصل بينه وبين الذهاب الى لجنة الشاليه. وانتابه ضيق خامل. تثاءب ونظر الى ساعته. كانت فدوى في الصالون تراقب خفقات العلم على شاشة التلفزيون، وتسمع النشيد الوطني. وحسب عبسي أنه إذا نام الآن فسيفيق في السادسة، ويبقى أمامه ثلاث ساعات. ثم فكر بأن ذلك الزمن الصباحي سيكون أخف وطأة من السهر. وستكون فدوى نائمة. لن تكون حاضرة فيذكره حضورها بأنها غائبة.

سألها وهو يأمل برد ايجابي: ـ ألست نعسانة؟

أجابت: ـ نمت اليوم طول النهار. رح نم أنت. كل هذا التعب في الشام، وتعب السفر. تريدني أن أقوم صباحاً وأعمل لك قهوة؟

ـ لا، لا. لا تقومي لأجلي. بودك أن تسهري؟

ـ أقرأ رواية عظيمة وسأنهيها قبل أن أموء.. أنام.. الأب غوريو، لبلزاك.

لم تنل زلة لسانها أي اهتمام ظاهر. وأسرع يسأل:

ـ وماذا تقول هذه الرواية؟

ـ تصف الحياة الاجتماعية في باريس. أنا متلهفة لأرى إذا كان البطل في النهاية سيقدر أن يحترم نفسه وينجح، أو يصير نذلاً وضحية مثل حبيبته.

هز رأسه: ـ أنا تركت قراءة الأدب منذ فترة بعيدة. تعرفين لماذا؟ لأن الأدباء لا يكتبون إلا عن الشخصيات الخارقة، أو الظروف الاستثنائية. لا يهتمون بالحياة اليومية للناس العاديين، البسطاء، الطيبين، المنتجين، الذين هم لا غيرهم يصنعون الحياة.

لم تجب بشيء. وظل وجهها ودوداً. نظر هو الى ساعته. وتذكر موعد الشاليه. تذكر أيضاً أن فدوى لم تسأله سؤالاً واحداً عن دمشق. وأحس بشيء من الرثاء للروح الوثابة التي جفت وخملت، وبشيء من الخوف أن تصير في المستقبل عالة عليه كما صار غيرها.

في التاسعة من الصباح التالي، ارتدى بزته العسكرية وانطلق الى مكتب التسجيل. كان ما يقرب من مئتي شخص ينتظرون أمام الباب المغلق، يلغطون ويتذمرون، ويتنادون بمراعاة الدور. تقدم على مهل، يتفحص المكان والوجوه. التفتوا اليه، وانكمشت أصواتهم إذ خرج من السيارة تحيط به ثلاثة عناصر سبقته الى الخروج. وراحوا ينظرون اليه نظرات تفيض تعبيراً لأنها خلت من أي معنى. غير أنه فهم تماماً أن قلوبهم تتفطر غيظاً وحسداً، وأنهم لولا موكب القوة الذي رافقه لنطقت وجوههم بالشر الخبيء الدنيء، وربما أيديهم أيضاً، هؤلاء البرجوازيون الصغار التافهون.

وصل الى الباب مبتسماً، وقد استعاد كلمات خولة له أن يستقيل. يستقيل ويترك لهؤلاء، لأنذال الطبقة المتوسطة فرصة رفع رؤوسهم. ورفع سبابته المعقوفة ودق على الباب. ودخل.

هب أعضاء اللجنة بترحاب وإجلال. أحدهم طمأنه فوراً، وعتب عليه مجيئه:

ـ الشاليه محجوزة سلفاً، سيادة العميد

ـ أريد ثلاثة. لأختي وأخي شداد أيضاً.

قال آخر: ـ الشاليهات كلها تحت أمرك سيادة العميد.

بغير إبطاء قدم لهم شيكاً بالدفعة الأولى، وانتصب معتذراً لضيق الوقت.

في الخارج واجهته العيون. وكانت ما تزال بلا معنى. وقال لنفسه إنه إذا ولدت فدوى صبياً فستكون الشاليه له، وتبقى الشاليه الأولى على (الشاطىء الأزرق) للبنات وأزواجهن. وإذا لم يأت الولد، يبيع هو الشاليه بضعف ثمنها. وخولة أيضاً ستستفيد، وشداد الأحمق. شداد بصورة خاصة ـ إذا أخذ الشاليه سيحس بقيمة المال أكثر وسيتجرأ على بيع الدونم دون خوف من زوجته. وتنتهي ثورته الجوفاء، يتأسس له وضع اقتصادي متين.

دخل السيارة ثم انطلق. أحس أنه آمن. عال. صغيرة حقاً مناسبة لقائه مع هؤلاء أعضاء اللجنة، لكنها كشفت عن عمق الطيبة التي يتمتع بها أبناء الشعب. بشكل خاص، العاملون المجهولون لأجل مصالح الشعب. وليس هؤلاء البرجوازيون الصغار القذرون وبقايا التجار، الذين وقفوا في الخارج حيث يجب أن يقفوا. أحس بانتشاء خفيف فيما السيارة تمضي، وكان خلال الخريف يشكو الملال والسكون. سفراته الى دمشق كانت حركة، فعلاً حقيقياً. لقد دفعت به من جديد الى حلبة الصراع والحركة. والحركة مجد الحياة، والخمول موتها.

قال لخولة بعد أن تركت زبوناتها في غرفة الخياطة وهرعت اليه:

ـ قري عيناً يا عزيزتي. خلال أربع سنوات تدفعين عشرين ألفاً دون تعب. وفي نهاية الرابعة تقبضينها أربعين ألفاً دون تعب. ما رأيك؟

كانت في غرفة الخياطة عندما جاء. النساء اللواتي حولها غرقن وأغرقنها في يم من الكلام والتحركات. كانت

أم الفضل قد غادرت قبل قليل، بعد أن فصلت لها سيرة الليل الفائت الذي ربحت فيه خمسين ألفاً، وأبدت تذمرها من النساء الموجودات، اللواتي لا قيمة لهن سوى كونهن زوجات فلان أو فلان. وعادت خولة سريعاً الى المعمعة النسوية، ولم تنس أن تذكر أم وليد بهدية موعودة لم تأت بعد، وأن توصي أم ناصر بكشف تفصيلي لما في فنجان القهوة من أسرار وعلامات، وأن تسأل أم بشار عن ثمن طنجرة القلي الكهربائية التي أهداها أبو يعرب، وأن تندهش مرة أخرى من جمال (الجوكوندا) التي علقتها مؤخراً في غرفة الضيوف كتعبير عن الذوق الفني، وأن تسأل أم طارق، ما إذا كانت كندرتها إيطالية، وأن

بقدوم عبسي، انتقلت فوراً الى ساحة اهتمامات جديدة. سمعت كلامه وصمتت. تأملته. وبدأت ابتسامة الظفر التي تألق بها وجهه تنكمش وتخبو، وهو يتساءل لماذا لم تطلق صيحة.

قالت: ـ لا أريد شاليه، يا عبسي.

هتف مستنكراً ومسترداً شعوره النشوان: ـ لا تريدين شاليه!

نظرت اليه حائرة، ثم دامعة:

ـ كنعان معتقل. جاءوا لشداد، شداد هرب، أخذوا كنعان.

صمتت منتظرة رد فعله المطلوب ـ أن يهب واقفاً ويصيح: مستحيل، وتسرح فيه الإرادة والتحدي، ترتسم على شفتيه ابتسامة تكسح هواجسها وتأرثها.

جاءت الابتسامة. ورأتها ساخرة ممتقعة. لقد صح توقعها. ورفضت ان تصدق.

نبس متضايقاً: ـ قلت له ابق في القبو. متى اعتقلوه؟

ـ قبل أسبوع.

ـ بسيطة. لأجل هذا لا تريدين الشاليه؟

ـ وهل هناك شيء أفظع؟ سيعاملونه كمتهم وهو لا يقدر أن يقول من هو.

أقبلت فتاة الخياطة وقالت بارتباك: ـ الست أم ناصر مستعجلة، وتقول فنجانك ملآن وكله حكي. والست أم وليد تقول هل تلبس ثيابها أم تبقى بالبروفة.

قالت خولة: ـ قولي لهن، خمس دقائق بس.

التفتت الى عبسي: ـ يا عبسي أنا في رأسي أفكار سوداء. من يوم عرفنا أن الارث مهزلة والدولة ستأخذه كله، وأنا في رأسي أفكار سوداء.

أشعل سيجارة وقال بمرح مستخف: ـ ليست مفاجأة. أنت في رأسك مستودعان، واحد للأفكار السوداء وواحد للأفكار البيضاء. يصغر أحدهما فيكبر الثاني. ما هي أفكارك السوداء؟

ـ أحياناً أفكر. الميراث لم يبق منه شيء. الأرض كنز، ولم يصلنا منها شيء. قصدي، ماذا وصلنا من أي غرض في هذه الدنيا؟ ماذا بقي لنا؟ ماذا بقي منا؟ كنعان؟ ماذا بقي من كنعان؟ وشداد؟ وأنت، وأنا؟ ماذا بقي من سليم وأيوب وبديع خضير والكل؟ والشيخ عبد الجواد ومريم؟

قاطعها بمرح: ـ أنا أقول لك. عن كل واحد بالترتيب. سليم هو الفكر المنير الذي جاء قبل أوانه. بديع هو التحدي والتمرد والمجابهة. أيوب هو الدأب والاستمرار والانتاج. بقوا كلهم. لم يموتوا. الجيل الذي جاء بعدهم جمع آفاقهم كلها، وحققها، وأقام مجتمعاً جديداً. أفضل مما تصوروا. أبو أحمد كان سداً منيعاً من المثل

العليا. حماية روحية للضعفاء وصرحاً عالياً من النور. لكنه لم يكن حماية مادية. وفي آخر حياته اضطرب وصار عصبياً. مريم بقيت أيضاً كمعنى. كإنذار. التهالك على الحياة، قاتل. فقدان الرؤية والعقيدة، قاتل. كان ينقصها الشيء الذي امتلكه أبوك.

ـ تعرف، مريم كانت في يوم من الأيام كابوساً علي. لكن لو أن كل واحد صدق مع نفسه مثلما صدقت هي، أما كانت حياته ستنتهي مثلما انتهت حياتها؟ من كان حقيقياً؟ هي أم نحن؟ أم أبو أحمد؟

ـ أي شيء قصدك؟

ـ قصدي، حياتنا كلها، نصف صدق ونصف كذب. نحن لسنا أبو أحمد ولا مريم. نصف الكذب هو الضمانة. لولا الكذب لما زار بيتي أحد. لما فصلت امرأة عندي بلوزة. لأني أنا أراهن سخيفات تافهات، وهن يرينني مجرد خياطة، لست زوجة لرجل مهم مثلهن. لست زوجة لأحد. خذ شداد مثلاً. أنا كلما سمعت كلامه..

قاطعها باستخفاف: ـ أنت غلطانة. شداد عمره الآن ثلاث وأربعون سنة. يلتفت حوله فيرى أنه لم ينجز شيئاً. لم يكن في التيار المبدع الذي صنعه جيلنا. ولهذا السبب..

دخلت فتاة الخياطة. قبل أن تتكلم رفعت خولة يدها وصاحت:

ـ ثواني، ثواني.

عادت الفتاة. وتعمد عبسي تغيير الموضوع، إذ لمس نفور خولة منه:

ـ المهم الآن. الارث لن يذهب رخيصاً. وبعدئذ، الشاليه شيء واعتقال كنعان بالغلط شيء ثان تماماً. لا رابط بينهما على الاطلاق. أما تقدرين أن تهتمي بكل شيء على حدة؟ كل واحد له تصرف مستقل. نأخذ الشاليه ونطلق سراح كنعان. لماذا الشدة؟ وأين أحلامك بالشاليه، وصورك الرومنتيكية، والفرح بالبحر والغروب..؟

هزت رأسها وزفرت: ـ لا تكون الحياة ملكاً لأحد يا عبسي. لم يخلق الانسان ليحصل على كل شيء.

دخلت فتاة الخياطة بلهفة وهمست:

ـ أم ناصر وأم بشار عند الباب.

نهضت خولة بسرعة. وقام عبسي: ـ سأتصل بالمقدم فالح.

قال المقدم إنه فعلاً اعتقل شخصاً آخر غير شداد. وأن شداد لن يهرب هذه المرة مهما كلف الأمر. وإن ذلك الاعتقال كان صدفة سعيدة لا يجود الزمان بمثلها مرتين. «عميل اسرائيلي، لا أكثر ولا أقل.» عميل إما أنه عبقري وإما أنه غبي، فهو لم يعرف كيف يجيب عن الأسئلة التي انهمرت عليه، رغم حذره الشديد ومراوغته. لقد أرسل فوراً الى دمشق. «مثل هذا الكنز نبعثه فوراً الى الشام.»

أعاد عبسي السماعة ورأسه يدوي. وتساءل عن الحكمة في الإعلان عن حقيقة هذا العميل. أكان المقدم فالح سيقتنع أنه أخوه، ويبرق الى دمشق بذلك؟ مستحيل.

لا بأس، قال لنفسه. هذه ليست أول معركة يخوضها. ولن تكون الأخيرة. هو على كل حال مسافر الى دمشق وسيتصل بصديقه ابي شاكر. وهز رأسه ندماً وضيقاً أنه منذ مدة لم يعرج لزيارته. قال لخولة: «الموضوع تعقد شوية بسبب تصرفات هذا الأحمق فالح. لكن حله سهل، وأنا مسافر غداً الى دمشق.»

مسافر؟ سأل نفسه وهو في الشارع، غير عارف بالضبط موطىء قدميه. هناك ألف احتمال لسوء الفهم. هذا

الأبله كنعان. رفض أن يبقى في القبو. هناك ألف احتمال لسوء الفهم. وكلها يؤدي الى أن يتورط هو. إذا نظروا له كعميل إسرائيلي فلا شيء سوى معجزة سيقنعهم بالعكس. أخوه أو غير أخيه. سيكون الخوف على الوطن أقوى من أية حجة يقدمها لأجله. حجة؟ ألم يشهد موته باسم القانون قبل شهرين؟ سيسألونه، لماذا لم تبادر إلى إعلان وجوده واسترداد هويته اذن. وستكون إما مذلة وإما إدانة. مسافر أو غير مسافر. النتيجة واحدة، وغداً ينتشر الخبر. وربما جاء دوره هو.

توقف في الشارع ونظر حوله. لم يتعرف إلا على وجهي أبي فهد وأبي دياب. الناس الآخرون كانوا غرباء. والبيوت والسيارات والحديقة. وفجأة نظر الى ساعته وهرع الى السيارة.

كانت خولة تظل من الشرفة. لم تجدها حركات يديها له. لقد غادر المنزل قبل أن تتمكن من سؤاله عن شداد. لم تتذكر إلا بعد أن توارى عبسي. بل لم تتذكر أياً من مناخس الخوف التي بلبلت وجدانها. تركت يديها تسقطان الى جانبيها. هرعت الى غرفة النوم. أغلقت بابها وفتحت الباب للدموع. لم يكن في خاطرها أحد، ولا المخاوف ولا الأسئلة. كانت غرفة الخياطة فقط. الخائطة، الأثواب، حشد النساء الجالسات بلا انقطاع واحدة تمضي وواحدة تجيء، فنجان القهوة الناشف، وهؤلاء اللواتي يلتصقن بها كوزمات الجرب، وتعرف أنهن ينظرن اليها كنوع من الطرفة في مجتمعهن العالي. هذه الخياطة، العمل نفسه قبل عشرين عاماً، الذي حقق تحولها من فلاحة الى مدينية. هذا الجبل الرازح، الانفجار المؤجل. صار السيد عبد الخادم والخادم سيد السيد ـ هذه الخائطة. أين الحب؟ أين الأخوة؟ أين الشغلة العظيمة؟ بل أين العمر؟ أين الحرية؟ لا تستطيع أن تترك عملها إلا مساء الخميس ويوم الجمعة. أين الخطأ؟ أين الخطأ؟

بعد حوالي ربع ساعة جلست. كفكفت دموعها وعادت الى غرفة الخياطة.

مر النهار كثيفاً متلكئاً. بعيد المساء أحست بالتعب فنامت قبل مجيء حيان. ولم يأت حيان في اليوم التالي، لكنها لم تشأ أن تصدق. وعندما مالت شمس شباط الصفراء نحو البحر كانت هي قد صارت أشد صفرة. وصارت الخاطرة حقيقة، في ثوان. لأول مرة منذ خمسة أعوام همت باختطاف السماعة والاتصال بفالح. أرادت أن تسأله إذا كان في هذا الفتى الأشوه القدم، نصف اليتيم، شيء سوى مراهقته يخيف أحداً.

كان اسماعيل وحيان قد استدعيا. وكان حظ اسماعيل أوفر، إذ طلب للتحقيق بلا إبطاء. قال له المقدم فالح، بعد أن أجلسه على كرسي الى جانبه، إنه يثق به وبوطنيّته، ولا يريد منه شيئاً على الاطلاق سوى أن يخبره بمكان اختفاء شداد. وابتسم اسماعيل رغماً عنه، إذ رأى في الطلب دعابة رديئة. وتابع المقدم كلاماً مماثلاً في الأمر نفسه، بصوت ودود ووجه منشرح. قدم سيجارة مع فنجان شاي، ومرة أخرى أثنى على سمعة اسماعيل وتاريخه المجيد.

هز اسماعيل رأسه: ـ والله يا أخي، أتمنى لو تقطع يدي وأعرف مكانه.

وجم المقدم. لم يكن مغزى الجملة واضحاً لديه، لكن حرارتها كانت. ونظر الى اسماعيل بحذر: ـ لأي شيء؟

قال اسماعيل بصراحة غريبة: ـ من أين يأكل؟ أين ينام في هذا الشتاء. والأمطار زوابع؟

قال: ـ يعني أنت لا تنوي أن تقول أين هو.

همى على اسماعيل فيض عريض من الذكريات. وصار شداد بالنسبة له، لا ابن عم ولا صديقاً، ولا فاعل خير، بل مسؤولية. مسؤولية من النوع الذي مارسه في شبابه بفشل ثابت، يوم تحدى الشيخ عبد الهادي وعبد الرحمن بيك، وأمر بقطع أشجار الغابة المنذورة، وبعدها انهار.

ـ واأسفاه. ليتني أعرف.

وكان يبتسم شارداً، جامد الخد الأيسر، وكان فرحاً رغم إهانة وجوده في ذلك المكان، بوعي يولد فيه لأول مرة، وعي بأخوة غير مفهومة إزاء شداد تنبت فيه مشاعر كالعشب.

ـ أنت ابن عمه، ويجب أن تعرف أين هو.

ـ العميد عبسي أخوه. هل يعرف أين هو؟

ـ اسمع يا سيد اسماعيل. قل لي أين شداد، ولا تضطرني لإزعاجك بأساليب ثانية.

كانت نبرة التهديد واضحة. وأحس اسماعيل برأسه يتأرجح كما لو كان ملقى في بحر من الضباب. فاجأه غضب إنسان أدرك أنه يوشك أن يضيع بينما يداه ممسكتان بكل الأشياء الثابتة. غضب من النوع الذي استبد به يوم قرر أن يحمل ابنه الصارخ جوعاً ويركض به في شوارع المدينة. ومثلما امتنع يومها عن تنفيذ رغبته، امتنع الآن عن الاستسلام للغضب. قال بشبه توسل:

ـ أنا رجل لم يبق لي شيء أقاتل بسببه، يا سيد فالح. أصبت بشلل مرة، وأكاد أن أصاب به مرة ثانية، وأنا لا أكذب عليك. لذلك لا فائدة من استجوابي.

بلمح البصر هوت كف المقدم الغليظة على وجه اسماعيل الأيسر.

فوجىء اسماعيل. ظن أنه بهذا التوسل سيلين قلب محدثه. وخمن أنه ربما أخطأ مخاطبته.

سارع الى القول: ـ إما أنك لم تفهمني أو لم أشرح فكرتي جيداً. أنا عندي يقين مطلق، نعم، أن كل أبناء جيلي منتهون. ظهرت لهم العلامة وفاتتهم. لذلك، لا تتصور أني..

وبلمح البصر هوت قبضة المقدم على وجه اسماعيل الأيسر.

رأى اسماعيل أنه كان واهماً. ورأى وجه الضابط يزداد غلظة وقتامة، ويده تزداد شراسة وهي تهوي المرة تلو المرة على وجهه ورأسه. انحبس كلامه وقد لمعت في ذهنه المفارقة المهولة. تذكر كيف كانت مريم خضير تتوسل اليه بجسدها أن يطلع، يعلو، وكيف كان يهوي عليها بجسده ليخمد توسلاتها. أرادته أن يكون مثلما تصورته، وكما تصوره الناس، فارساً، رجلاً مخلوقاً للأشياء العظيمة. ورأى أنه يواجه اللحظات القديمة نفسها، ولكن بوضع معكوس ـ يواجه واحداً ممن نذروا أنفسهم للأشياء العظيمة ثم شنوا حرباً همجية على من يريد تحقيقها.

ورأى نفسه يهب واقفاً، ويده تخبط على الطاولة، وصوته يهتف:

ـ أنا أعرف أين هو، ولن أخبرك. افعل ما بدا لك.

وكانت قبضة المقدم، في الثواني التي استغرقتها كلمات اسماعيل، تشق طريقها الى الوجه الذي أصابه الشلل قبل عشرين عاماً.

قال المقدم: ـ لو في سجنك فائدة، سجنتك. أنا سأعاقبك بالحرية. اذهب الى فقرك.

وكانت خولة تعيش مأتماً حقيقياً. تأكدت أن حيان موقوف، وعادت اليها نوبات الظهر. لم تدر ماذا نفعل، وعبسي في دمشق. اتصلت بأم الفضل، وسرعان ما جاءها الزوجان بقلق واضح وتعاطف أوضح. كان أبو الفضل متأثراً تأثراً استثنائياً، ليس فقط للحادث نفسه، وإنما لكون المقدم فالح من نوع يستحيل التوسط لديه في هذا الشأن.

وكان القلق والتعاطف شاملين. وهز الجميع رؤوسهم أسفاً وعجزاً: محمد علي والعميد يوسف والعميد سرحان وأبو ثائر وأبو فراس وعمر الماوي.. واستطاع شعورهم الطيب وتطميناتهم الأكيدة أن يخففا آلام ظهرها، فأمست قادرة على الحركة السهلة. ولكن الى من تذهب؟

استقبلتها فدوى بعناق حميم. لم تقل كلاماً كثيراً. ومع بشاشتها المؤثرة تصرفت كأن خولة موجودة في البيت منذ الصباح. وسرعان ما نقلتها الى طمأنينة الاعتقاد بأن حيان لن يؤذى وأن التجربة مفيدة له. وبعد أن تناولتا مع البنات «شعيبيات» حمصية ساخنة، سألتها فدوى:

ـ ارتاح بالك الآن؟

هزت رأسها باسمة: ـ ارتاح. صرنا يا فدوى نتقبل أفظع الأمور كأنها هي الأمور الطبيعية.

ـ خلينا نحكي في موضوع ثان. ما رأيك إذا أخذنا لزهرة ألف ليرة؟

تأملتها خولة باهتمام. ثم تمتمت: ـ لن تقبلها.

ـ لا مني ولا منك؟

ـ لا مني ولا منك.

ـ وإذا قلنا إنها من أصدقائه؟

صفنت خولة قليلاً. قالت: ـ هكذا يمكن.

كان منزل شداد غارقاً في العتم والرذاذ. لذلك دقت خولة على الباب بتلكؤ، ووراءها وقفت فدوى والبنات. وسمعت صوتاً كالحفيف، علا حتى لامس حد السمع ثم انقطع. لم ينفتح الباب. دقت ثانية. لم يأتها رد. قالت: «أنا متأكدة أني سمعت صوتاً.»

انفتح الباب وأطلت زهرة.

بعد التحية والعناق، قالت: ـ الزيارة في الليل غير مأمونة.

سألت خولة باندهاش: ـ لأي شيء.

ـ البيت مراقب. في النهار أفضل.

ـ معك حق. لكن رفاق شداد ألحوا أن نجيء اليوم.

قالت زهرة بلهفة: ـ عندك أخبار عنه؟

ـ أبداً. لم يقولوا كلمة واحدة عنه، أعطوني هذا المغلف واختفوا.

ومدت يدها الأخرى الى زهرة. تناولت زهرة المغلف وفضته، ووجهها يبتسم بالفرح. قالت:

ـ ألف ليرة! ألف ليرة!

وكان حديث أنيس. اكتشفت خولة أن زوجة أخيها ليست مرعبة الى الحد الذي تصورته، بل ربما ليست مرعبة إطلاقاً. رأتها مريحة ومرحة، فكأن زوجها ليس مطلوباً وأخويها ليسا في السجن. وكانت فدوى باشة في البداية، ثم صمتت، ثم اعتكر خاطرها. غير أن الوقت كان أقصر من أن تدخن سوسن أكثر من خمس سجائر.

قالت خولة وهي على وشك الوداع: ـ تعالي أنت والأولاد وابقوا عندنا. وحدك هنا، وليس في هذه الديرة أمان.

ردت زهرة بغبطة: ـ وإذا جاء شداد ذات ليل ولم يجدنا؟

ـ معقول أنه يجيء؟

ـ أكيد.

جاء شداد، ولكن الى منزل خولة. كانت الساعة الخامسة صباحاً. وكانت خولة قد نهضت من فراشها وأوشكت أن تستيقظ بعد أن سمعت رنين الجرس. قالت لنفسها إن الزبال مبكر اليوم على غير العادة. استمر الصوت رنة رنة. كان أليفاً ولكن ملحاً.

رأت شداد معتمراً بياقة معطف رث ونظيف. وإذ فتح الباب أنزل الياقة وبانت لحية كثة قصيرة.

أدخلت أخاها البيت وأغلقت الباب بإحكام. بعد الشهقة الأولى، انطرحت عليه بلا توان، وكاد الاثنان يقعان. لم تقع، إلا أن ساقيها لم تحملاها. جثت وطوقت خصره بساعديها. وودت لو تبقى هكذا، لكنه جرجرها الى الداخل، تاركاً وراء حذائه كتلاً صغيرة من الوحل لم تكن هي لتقبل بها في مناسبة أخرى.

جلست على الكنبة ونظرت اليه بصمت. كان منظره وحشياً، خالياً من لمسة الطفولة ولمسة الاطمئنان. ورغم الفرح لم يجدا سوى قليل الكلام يقولانه. جاءت أسئلة ومضت قبل أن تعبر بالشفاه. وسرعان ما حل بالأخوين حس بالاستفظاع كان غائباً طيلة فترة اختفاء شداد. أكثر من مرة زنخرا وجهدا لأجل ابتسامة. كان منظره أقوى من أية محاولة للاعتقاد بأن الحياة ما تزال عادية. ومرت بضع دقائق.

قال شداد: ـ أظن أنك تفكرين مثلما أفكر.

قلت هي بترو مفاجىء: ـ بماذا تفكر؟

زنخر بابتسامة مهزومة: ـ أنا لا أصدق أن كل هذا جرى لي. أكثر من مرة حاولت أن أعود الى بيتي، بالشكل الطبيعي الذي اعتدت عليه. وكل مرة اكتشف أن العودة ممنوعة. وكنت أفاجأ. كأن شخصاً ثانياً كان يقول لي أنت لا تستطيع أن تعود. اعتقلوا كنعان؟

ـ اعتقلوا كنعان. بعثوه الى الشام. وأخوك عبسي هناك يحاول تخليصه. و.. أين تعيش؟ وهذا المعطف، كأنه معطف أبيك. من أين لك؟

ـ هذا معطف أبيك. أنت إنسانة غريبة. ربع قرن وأنت تحتفظين به!

ـ كيف حصلت عليه؟

ـ في الفترة الأولى اختبأت في المرفأ. بعدها صارت الحالة خطرة. لأن كثيرين لم أعد أراهم. تنقلت هنا وهنا، حتى تعبت، لأن الواحد في هذه الحالة يظن أن كل مكان غير مأمون. مجرد شك عابر في مكان الاختفاء يصير بحجم باخرة. انتقلت الى البساتين بين دمسرخو والشاطىء. هذه كانت أصعب الأوقات. لأن المطر لم ينقطع. والمخابىء التي عملتها من الشجر اليابس لا تقي من المطر. حالة كاريكاتورية. وبعدها رحت الى بيتك في الشير.

هتفت مبغوتة: ـ مستحيل!

ـ مستحيل؟

ـ وإذا أمسكوك هناك؟

ـ أقول لهم دخلت البيت عنوة. والحقيقة أنا دخلت من شباك بيت الماء.

ـ لكن حيان معتقل يا شداد. وسيتأكدون أن له علاقة بك.

ـ حيان معتقل أيضاً؟

راحت خولة تبكي. وأطرق هو بشعور بالذنب. «معك حق.» وعادت الى وجهه غمامة فبدا أكثر تعباً. وانشغل الاثنان فصمتا.

قال محاولاً تخفيف الأمر: ـ على أي حال، هذه المرة نفذت. لو بقيت شهور لما رآني أحد. المشكلة أن مؤونتك خلصت. البارحة في الليل سلقت آخر حبة بطاطا وأكلتها بلا ملح، لأن الملح خلص. وجئت ماشياً من هناك.

حملقت اليه غير مصدقة: ـ أربعون كيلومتراً!

لم يلتفت الى تعليقها. غمغم: ـ لازم أن أنتقل الى مكان ثان.

هتفت هي بحرج: ـ لا. اليوم الخميس؛ أنا آخذ لك مؤونة. لا أعرف إذا كان السمان حصل على رز.

ـ وحيان؟ ويمكن أن يتهموك أنت.

لم تدر ماذا تقول. أرادت أن تبكي ندماً من خوفها. وأرادت أن يظل شداد يأخذ خوفها بعين الاعتبار. وأرادت أن تبتسم وتبتهج لأن أخاها أمامها. أرادت أشياء كثيرة. لكن شداد قال:

ـ كيف زهرة والولدان؟

ـ زهرة ممتازة، عظيمة. أعطتها فدوى ألف ليرة باسم أصدقائك.

ـ صحيح؟ ألم يبعث أصدقائي شيئاً؟

ـ أظن أنهم لا يعرفون كيف.

كانت كلماتها الأخيرة مغامرة ذهنية. لكنها حسبت أن هذا هو ما يجب أن يكون.

وقف شداد: ـ يا الله. بخاطرك. قبل أن يجيء الزبال. زوري زهرة وسلمي عليها.

وقفت لاهفة: ـ الى أين؟

ـ الحقيقة لا أعرف. أعطيني علبة الدخان هذه.

اندفعت الى القول: ـ اطلع الى الشير، لكن ليلاً. أنا سآخذ معي اليوم مؤونة.

كانت يده قد تناولت العلبة وارتفعت مودعة. وهرعت قامته الطويلة نحو الباب قبل أن يصير الوداع مشهداً لا طاقة له عليه. وعلى الباب الذي انغلق قبل أن تدركه، أسندت خولة جبينها وجعلت تبكي. بكت لا على التعيين، أو لأنها حوصرت بالأسباب فلم تعد تستوعبها. أحست بالحصار نفسه لا بمصدره. وخيل اليها أنه يأتي من كل مكان. رفعت رأسها كأن تنفسها انحبس، وبدأت تضرب على صدرها بيدين ضعيفتين معروقتين. كيف نسيت أن تعطي لشداد مالاً؟ كيف نسيت ان تطعمه؟ كيف خلا ذهنها من كل فكرة سوى أن يختفي أخوها في مكان آخر حرصاً على ابنها؟

رأت أنها لن تستطيع البقاء في هذا البيت الجهنمي ثانية واحدة. مشت الى غرفة النوم ولبست ثياب الخروج. مسحت وجهها. نظرت في المرآة ولطمت شعرها لطمتين لترتبه. ثم خرجت.

في ذلك الصباح من آذار كان الشارع مقفراً تقريباً، واسعاً عارياً. الريح تملؤه وحس بالاختناق أطبق على عنقها. ماذا فعلت؟ لماذا وضعها الله في هذه التجربة المريرة؟ تذكرت وجهها الذي رأته في المرآة قبل دقائق.

وبدا لها أنه وجه امرأة أخرى، أو على الأقل لا يمت لها بصلة. وجه غير حقيقي. غير الذي تعرفه. وجه سماء خريفية، له شكل رصاص شرشرته الحرارة، فوقه ثقبان ملأتها عينان عكرتان بلا دموع.

ما هو العهر إذا كانت مريم عاهرة وهي شريفة؟ لماذا قبل بديع خضير بأخته، وهي لم تستطع.. وغذت المسير كأن المشاعر والأفكار صارت تأتيها من الخلف وتدفعها. ولماذا كان أيوب راضياً بينما ثلاثة أرباع عمله تذهب الى الآغا، وهي ليست راضية بينما ضريبة الدولة على دخلها لا تتجاوز سبعة بالمئة؟ ولماذا تشعر أنها منهوبة ولماذا تشعر أنها لا تمتلك شيئاً ولماذا مريم خضير عاهرة ولماذا

كانت فدوى مستيقظة على غير العادة، وسوسن جالسة إلى جانبها وكانت بين كنبتيها حقيبتان مغلقتان.

ذهبت سوسن لتصنع القهوة. وبعد إطراقه ساهمة غمغمت خولة:

ـ تصوري! عاهرة، وعرفت عن الحياة أكثر منا. وتتحكم في عقلي.

سألت فدوى ببرودة: ـ من هي هذه العاهرة؟

ـ مريم. أم زهرة.

ـ ما زلت تقولين عنها عاهرة؟ مضى عليها دهر تحت القبر.

ـ طبعاً. ماذا أقول اذن؟ لو لم تكن عاهرة لما تذكرها أحد. هذه هي المصيبة. ظننت أني انتهيت منها. لكن.. ها شداد مطارد. حيان وكنعان في السجن. عبسي.. آخ يا عبسي. يا أخي. يا حبيبي. أنت الذي أشعر تجاهك بالخطر. ولا أعرف السبب. وقت بدأت أشك فيك، رجعت لي مريم. قبل عشرين سنة كنت مطمورة في غرفة. الآن، أنا مطمورة في مدينة، مشلوحة على الرمل. نصف صدق ونصف كذب. شاليه، قال شاليه. بس.. أي شيء كان في قدرتي أن أعمله؟ كلهم هكذا. يتسابقون.. اثنان في السجن، وواحد طريد، وعبسي.. وأنا.. قلت لخالي العهر هو الشر الوحيد. ما الشيء الذي ليس عهراً؟ الأنانية، أليست عهراً؟ لأي شيء نحن في هذه الدنيا، لأي شيء؟ أنا إذا مرضت، من يداويني؟ وحيان إذا مات، من يسأل عنه؟ قالت لي. قالت لي أنت مفتحة العينين عمياء القلب. كل كلمة قالتها، ظهر أنها صحيحة. هذه الزانية هذه. حياتها كانت مأساة مقرفة. مسلولة ماتت. كتلة القذارة. وبعد عشرين سنة! أتذكرها بعد عشرين سنة! ما الشيء الذي ليس عهراً؟ بلحظة واحدة، ترين أنك لا تعرفين لماذا أنت في هذا العالم. بلحظة واحدة. بأي معيار نحكم؟ ماذا بقي؟ الحياة تمضي وليس لك ضمانة، ولا نصف ربع ضمانة. لم يعد عبسي، ما؟

قالت فدوى بتأثر قوي: ـ يمكن أن يعود اليوم. أو غداً.

ـ وأنتم صرتم تعساء. أين حبكم؟

انفرجت شفتا فدوى، وتلملمت على الكنبة:

ـ أخوك لم يعد يقبلنا، لأنا تخلفنا عنه. إذا خالفناه كنا مخطئين من دون نقاش. وأحياناً أعداء. هو يمشي حتى لا يقف. أنا إنسانة متلكئة.

كانت سوسن قد عادت بالقهوة ووقفت في منتصف البهو لئلا تقطع نجوى عمتها. لكن خولة انتصبت واقفة. تناولت جزدانها ودست ذراعها في نطاقه. هتفت بها فدوى أن تبقى، وصاحت سوسن. غير أنها مضت لا تلوي على شيء. لم ترد لأنها لم تسمع. واستقبلها الشارع بشيء من الزحام ومن أشعة شمس آذار التي ذهبت بدفئها الرياح. واستقبلتها المدينة كبحر يلفظ نفاياته الى الشاطىء.

في البيت كانت مفاجأة هائلة تنتظرها. عندما أغلقت وراءها الباب شاهدت حيان بأكمله يفتح لها ذراعيه

ويصيح: «ماما!» لم تستطع الوصول اليه. تخاذلت ركبتاها، وهوت، فالتقطتها يداه القويتان. بكت بين يديه وعلى صدره. وصاح: «ماما! هذه سينا! اهدأي شوية.»

بإيجاز حكى لها عن فترة اعتقاله. وحكت له عن ضيقها الخانق، ودوامة أفكارها، عن شداد وعبسي وكنعان والشاليه وفنجان القهوة والهدايا والحفلات. وكان طيلة الوقت يبتسم ويدخن. أغضبها أنه لم يتأثر. لم يتأثر البتة. وصاحت:

ـ حيان، أنت تسخر مني؟

ـ أبداً، ماما. لكن، نحن حكينا في هذا الموضوع من قبل. أنا حذرتك. أنا راقبت حياتكم جيداً. سمعت أحاديثكم. وأعرف علاقاتكم. أكثر ما تستمتعون به، الأكل. أكثر ما تهتمون به المال والامتلاك والفضائح. اشتهيت أن أسمعكم تتحدثون في موضوع فكري، في أسئلة عن الانسان والكون والمصير. أنتم عاميون الى درجة الابتذال. لا أفراحكم أفراح. ولا أحزانكم أحزان. مشاعركم وآراؤكم ليست حقيقية. وجميع أسس حياتكم مبنية على معايير كان مجتمع حوراني متقدماً عليها. لأن حوراني كان عنده دستور. قوانين. أنتم لا تعرفون ما هو القانون. علاقاتكم الشخصية فوق القانون. ورغباتكم بالامتلاك فوق علاقاتكم الشخصية. خالي أيوب كان راضياً أكثر منك لأنه لم تكن عنده ملكية يقلق عليها. كان ينقصه فقط أن يحس بالظلم. أنتم، سعادتكم أن تحصلوا على شيء، أي شيء، لا أن تفعلوا شيئاً. نحن ماذا نفعل نحن؟ نحن فقط نحتج على الظلم والتشوه اللذين خلقتموهما. ألم ترفعي دعوى على أبيك وأجدادك لتصحيح خطأ؟ نحن نفعل مثلما فعلت. ولكن لا توجد محاكم تعطينا حقوقنا. أي محكمة تحكم بأنه يجب ألا يصاب أولاد اسماعيل وحبرية بفقر الدم؟

نظرت اليه مقفلة الحاجبين: ـ من أين لك هذا الكلام الكبير؟

قال باسماً نصف متباه: ـ من صديقي خالد.

صاحت: ـ ماذا! وأنت أيضاً؟

قال بجدية: ـ أنا ماذا؟

ـ أنت أيضاً تستمع له؟ أما يكفي أنه خرب بيت خالك شداد؟ أين اجتمعت به؟

قال بهدوء فخور: ـ كان معنا.

تطلعت اليه بعينين بكماوين. وهمت بالصياح. وقالت بغضب:

ـ أشعل لي سيجارة. أنا اليوم طالعة الى الضيعة. خالك شداد مختبىء في البيت، والمؤونة خلصت. أنت اقعد هنا ولا تتحرك خطوة واحدة خارج البيت. سمعت؟

ـ سمعت. لكني طالع معك.

ـ لا، أنت تقعد هنا. إذا جئت معي تلفت الانتباه.

في المساء لم تجد شداد في البيت. هزت رأسها هزات قصيرة كمن تؤكد على حقيقة استخلصتها. تجولت في البيت دون أن تنيره. وخرجت الى الشرفة المطلة على النهر. قالت لنفسها إنه يمكن أن يعود. وأكدت لنفسها أنه سيعود. دعت الله أن يعود. ورغم يقينها المولود لتوه، لم تستطع الجلوس: لقد كانت هي السبب. هي التي سماها سليم خولة. التي سقطت بين فكي الأنانية.

أمضت ليلاً مسهداً. ولم يأت شداد. في الصباح ركبت أول باص تحرك الى اللاذقية. وبعد ساعة كانت تستلقي على السرير.

عاد عبسي من دمشق كئيباً مشوشاً. لم يوح صمت الفيلا الموحش له بأية غرابة. كانت الساعة تقارب الواحدة ظهراً. وقال لنفسه إن قسطاً من النوم لن يضيره. دخل غرفة النوم. لم تكن فدوى هناك. غيّر ملابسه وقصد الغرفة الثانية. فجأة خرجت رحاب من غرفتها، ووقفت مرتبكة أمام أبيها. «ما بك؟» سألها. لم تجب. «أين أمك؟» لم تجب.

نظر اليها باستغراب: ـ لماذا لا تردين؟

أمأمت بخفوت: ـ أمي سافرت. هي وسوسن.

كان قد استدار باتجاه بيت الماء، فوقف:

ـ سافرت الى أين؟

ـ الى حمص.

ـ حدث شيء؟

ـ لا..

ـ لماذا سافرت اذن؟

مطت رحاب شفتيها. ظلت واقفة. استدار عائداً الى مكتبه. استدارت عائدة إلى غرفتها.

جلس على كرسي مكتبه. وراحت أصوات أجراس بعيدة تتردد في خاطره، أجراس جوقة تنشد نشيداً بصوت رجل واحد. وشملت عيناه مساحة أربعة وثمانين متراً مربعاً بنظرة شاردة. راح يهز رأسه. على الدرب الصعب الطويل يسقط كثيرون. الذين يحسون أن الحياة قصيرة وأنها تمضي. هؤلاء يصيبهم الرعب، مثلما أصاب أبا أحمد. يدركون أنهم لم ينجزوا شيئاً. يعيشون متجاهلين العيش. لا هم يفرحون بالحياة ولا الحياة تفرح بهم. يفعلون ما يجب أن يفعلوا وليس ما يريدون أن يفعلوا. لذلك يتخلفون. يرمقون الركب الزاحف بحسرة، أو بإدانة. أية ثورة يمكن أن تفعل في هؤلاء شيئاً؟

رن جرس الهاتف. كان المتكلم محمد علي. وطمأنه عبسي أن كل شيء على ما يرام.

أحس أنه في حاجة الى فنجان قهوة. غير أنه لم يتحرك. ولم يناد رحاب. تمنى لو أنها تحس من تلقاء نفسها بحاجته للقهوة، وتصنع له فنجاناً. أشعل سيجارة وراح يدخنها رغم جفاف حلقه. كأنها كانت مسافرة طيلة الوقت، قال لنفسه. مسافرة في العذاب والعطالة. في عالم غير حقيقي. وأدرك أنه حزين. لأجلها. هذه التي منحها الحب والعمر. بقيت على السفح. بين الشعاب. أين الخطأ؟ أين الخطأ؟ لماذا أخطأوا كلهم؟ ملأه شعور بالرثاء، شعور حزين وحار وكدر. لقد سقطت مثلما سقط غيرها.. سوى أن سقوطها كان انكفاء على الذات. بسبب قصور الذات. ليس سقوط محمد علي الذي ناضل كي يستغل أهله فلطمه الميراث لطمة أطارت صوابه. ولا سقوط رجب العز الذي حاول التشبث بالميراث فاكتشف مرغماً كم هو غريب عنه. ولا سقوط اسماعيل السنديان في علياء العظمة الفارغة. ولا سقوط شداد الذي أفاق بعد فوات الأوان على حجمه الضئيل في الحياة فاندفع مسعوراً الى العنف. ولا سقوط كنعان الذي باع ظلال السنديان برتبة انكليزية ففقد هويته. ولا سقوط خولة التي باتت لا تعرف الوهم من الواقع. هؤلاء عبّر عنهم بديع خضير ذات مساء، يوم تكلم عن المسوخ: المسوخ الذين يفصّلون العالم على قدّهم، لا يتسعون له ولا يوسعونه. هؤلاء لم يخلقوا للمجد والظفر.

رن جرس الهاتف. كان المتكلم عمر الماوي. وطمأنه عبسي الى أن كل شيء على ما يرام.

لا. فدوى مسألة أخرى. لقد راهن عليها. حاول أن ينتشلها. حاول أن يبني معها برجاً للسعادة. هذه الفيلا. وحديقتها التي تحوي فاكهة وأعناباً.

أشعل سيجارة ثانية رغم جفاف حلقه. أسند مرفقيه على المكتب. لو أن رحاب تحس أن أباها بحاجة الى فنجان قهوة. أحس بالوحدة. ولكن بلا بؤس، ولا خوف، ولا أسف. أحس بالوحدة، شأن الكبار الذين خلقوا لها. وراح دخان السيجارة يتصاعد خيطاً نحيلاً متلوياً، ويتبدد في فضاء المكان. وراحت نظراته الثابتة تقل تركيزاً على الستائر المسدلة ومصابيح الزوايا وكنبات الستيل وطاولة الطعام وكراسي الموزاييك وحوض الأسماك وجهاز التلفزيون ورفوف التماثيل والثريات الثلاث والموكيت الفستقي والضوء العام والمنظر الجداري لجواد رامح في فضاء أغبر.

رن جرس الهاتف. كان المتكلم أبا الفضل. وطمأنه عبسي الى أن كل شيء على ما يرام.

في ذلك اليوم من آذار، أعاد السماعة ببطء الى موقعها. وفكر أن حلقه يتحمل سيجارة أخرى بلا قهوة. لو أن رحاب. أشعل السيجارة. وتناثر دخانها من بين شفتيه الشهوانيتين. وتصاعد منها خيط نحيل متلو، وتبدد في فضاء المكان.

استرخى على كرسيه جيداً. واسترخى لحم حنكيه على ياقته. رغم كثافة حزنه لأجل فدوى، انشغل خاطره بالمستقبل. مسح يده على رأسه الأجلح، ثم حكّت أذنه الصغيرة. وحومت على شفتيه ابتسامة طيفية، زادت وضوح الخطوط اللحمية المتقوسة تحت عينيه. وشخصت عيناه نحو الجواد الرامح في فضاء أغبر. أيكون أن القمة لم تخلق إلا لشخص واحد؟ فجأة أحس بشيء من الضيق البدني. وانتبه الى أن كرشه محصور بين الكرسي والمكتب. دفع الكرسي الى الخلف قليلاً، وارتاح. وصار تفكيره بسفر الشام أنشط وأرحب ـ السفر المتكرر ولكن لأجل هدف عظيم. سيظل يسافر ويسافر. لن يستسلم للثمن البخس الذي تقرر لقاء الميراث، ولن يقع في أحبولة الصدام. وسيخلص كنعان دون أن يسقط هو، أو يتهم. وفدوى ـ ليسقط الذين سقطوا. الذين كلّوا عن متابعة السفر.

كان حيان قد زار بيت شداد في المساء السابق، وعاد دون أن يخطر له شيء عن عواقب الزيارة. في المساء الثاني، وفي مثل وقت عودته، وقف ثلاثة أشخاص أمام الباب، وقرعته يد أحدهم.

كانوا يرتدون ملابس شتوية مدنية. وجوههم غامضة، وكذلك نظراتهم. قرعت اليد الباب مرة ثانية. والتقت أعينهم إذ سمعوا حفيفاً خفيفاً. لكن الباب لم يفتح.

همس ذو اليد: ـ أنا سمعت خشخشة ثوب. متأكد.

قال الآخران: ـ وأنا سمعت. كيف فتحت لحيان قبل يومين؟

رأوا أن انتظارهم طال. تشاورت أعينهم. وهوى ذو اليد بقدمه على الباب. لم ينفتح، غير أنه اهتز فأوحى أن ركلتين أخريين ستجعلانه ينصاع.

فتحت الباب ركلة رابعة. دخل الثلاثة دخولاً صاعقاً مباغتاً. وأنار ذو اليد المكان.

كانت زهرة جالسة على بساط في صدر البهو. عند ساقيها جلس بديع ومريم. وفي صدر البهو، جلس رجل في حوالي الستين، مسترخياً ولكن بتوتر. كان وجهه أغضن متهدلاً، وأنفه مثل كتلة عجين ألصقت بين خديه. كان حاجباه أثرا بعد عين، وبؤبؤاه متقدين. لم تبد عليه أية من أمارات الحياة. ولولا لمعت عيناه كمجمرين صغيرين لظنه الرائي جثة ألقيت هناك، بانتظار أن يكتشف الآخرون موتها.

وضع الثلاثة مسدساتهم في قراباتها. وقال ذو اليد:

ـ أين شداد؟

رفعت زهرة عينيها اليه دون رأسها، وتعرفت على الرجـل الرابع الذي اعتقل كنعان

ـ فتشوا البيت شبراً شبراً. وإذا لم تجدوه تفضلوا برّه.

فتش الآخران البيت، وكانت مهمة سهلة. وفتش ذو اليد الرجل على الكرسي. ثم عاد يتفرس في زهرة ويرمق الرجل.

ـ ماذا قال لك حيان؟ أعطاك أخباراً عن شداد؟

ـ روحوا اسألوا حيان. هو كان عندكم.

اقترب منها. زحفت مريم اليها والتصقت بها. اقترب أكثر. انتصب بديع واقفاً واعترضه. عاد الآخران واتخذا مكانيها السابقين. التفت اليها بنظرة مبهمة. اقترب، فدفعه بديع الى الخلف. نظر الى الصبي نظرة جامدة. وفجأة لكمه على فكه فطرحه أرضاً. بكى بديع. نهض وهجم على ذي اليد. وصاحت زهرة:

ـ بديع، اتركه.

ركن بديع. اقترب ذو اليد: ـ قومي على حيلك لأشوف. من هذا؟

وأشار بيده الى الرجل. رفعت زهرة رأسها:

ـ فتشتم البيت، اعملوا معروفاً اطلعوا بره.

ـ من هذا؟

ـ أبي.

ـ متأكدة؟

صمتت عن الاهانة.

ـ أين شداد؟

ـ خارج البيت.

كان واضحاً أن شداد خارج البيت. تلكأ ذو اليد قليلاً، وهو يحسب أن مهمته انتهت. وصل ذهنه الى عتبة الانصراف، بل وهمّ جسده بالحركة. تلكأ قليلاً. نظر الى زهرة، وهو لا يدري ماذا يفعل. كانت مرخية الشعر، وفخذاها متلاصقين ومتجهين الى الجانب الأيمن. وكانت قامته تطل عليها من وسطه حتى رأسه. لعله لم يرها جميلة، لكن احتداماً من نوع ما شب بين جدران صدره. وضاعف رغبته التصاق مريم الصغيرة بها ونظرة الخوف العدائية. رآها أما أكثر منها امرأة، وامرأة أكثر منها أماً. امرأة فادحة. وأماً رؤوما.

لطم باصبعه ذقنها: «أين شداد؟» لم تجب. تراجع جذعها قليلاً. نظرت الى يده التي لم تتراجع. استمرأ الحركة. أمسك بذقنها وهزها كمن يداعب طفلاً صغيراً. «قولي لنا أين شداد.» تراجعت زهرة مسافة أخرى. تقدم هو خطوة. أمسك بشعرها المنسرح. لفه على يده. نفرت بقوة سريعة وضربت يده. ترك شعرها. نظر اليها كأنه لا يدرك الفعل التالي لشعوره. لكن شعوره صار واضحاً. هو يريد هذه المرأة. رآها من قبل. ولفحته. الآن، هي كلاّبة تمسك بأضلاعه. جلستها أمام عينيه تشظت في كيانه كالشهب. شكلها انشعب في ذهنه الى عشرات من الصور الجامحة.

صرخ بجبروت كظيم: ـ قلت لك أين شداد؟

ومد يده فالتقط فتحة الفستان عند النحر وشدها الى الأعلى. انشق الفستان. وبان نهد زهرة الصغير وحلمته الكبيرة. لم يتح لذي اليد وقت كاف ليقترب من الجسد الجميل الذي أبهجه لأنه رآه شهياً. باغته حسن الغفري بيدين نحيلتين متشققتين دفعتاه جانباً. ولم يتح لحسن الغفري وقت كاف ليدفعه مرة اخرى. تناول ذو اليد المسدس وطرحه أرضاً برصاصة محكمة.

لم يعرف أحد بالضبط الوقت الذي مضى بين تلك الوليمة المروعة وذلك الليل العاصف من أواخر آذار، الذي حاول شداد فيه أن يعود الى بيته.

كان قد ضاق ذرعاً بحياة التخفي والفرار. في الأيام الأولى أراحه أنه ما زال حراً. بعد حوادث الميناء صار حس الخطر أقوى من حس الحرية. وفي بيت خولة الريفي استرد الأمن. ومن المؤونة المتوفرة هناك استمد شعوراً بأنه يمضي إجازة. عاش أياماً هادئة، خالية من عناء السعي وراء الخبز والبطاطا والرز. كانت فترة استجمام، أمضاها مع الموتى المجاورين على سطح الجبل المجاور: هناك حيث رقد جده شيخ السنديان السادس منذ ستين عاماً، وحيث ترادفت قبور أبيه وأمه وأخويه بين الذين غادروا الشير الى الأبد. وأراحه أنه الآن بات مناضلاً.

كان الصمت قوياً حتى ليكاد ينطق. وليلة بعد ليلة، تحت لمعان البرق أو ضوء القمر، تحركت القبور الهاجعة في خاطره. أحس بها تسرق وعيه وتأسره وراء النافذة المظلمة. كان يجلس وراء النافذة مثل من يود أن يمازحهم ـ هؤلاء الذين انتهى خط حياتهم اليه، الأسلاف الذين تركوا أرضاً لم يرها في حياته، وأرضاً متلوية أمامه يعرفها شبراً شبراً. هذا هو الميراث الحقيقي، قال لهم. لو تركتم درباً للحرية هنا ودرباً هناك، ضمانة لواحد يريد أن يتفوه بما يراه عدلاً، بدلاً من أن تعيشوا مخدوعين وتنزووا للموت قبيل الاعتراف بالخديعة ـ لكنتم تركتم ميراثاً حقيقياً، ميراثاً لا تستطيع الدولة ولا الشركات أن تنهبه.

في البداية كان التذكر مسلياً. وغالباً ما هز رأسه بسخرية داخلها شيء من الحب. لكن صمت القبور ما لبث أن تسلل اليه وتغلغل فيه. وعند الصباح كان إيقاع الارث الأكبر يتردد في خاطره ـ الفقر الذي لا حدود له. العري. أمتعه أن تتاح له فرصة التحدث مع الذين خفضوا جناح الذل لآسيا. وكان يهز رأسه بثقة: ها هي ذي الطريق الصحيحة قد بدأت تنشق وتتعبد. رغم ازدرائه، تصورهم بشيء من الإشفاق. هؤلاء حافظوا على رشيم الحياة حتى يجيء جيل حقيقي كجيله يجعل الرشيم شجرة باسقة. الآن يبدأ عصر الخروج على معابد آسيا الحجرية.

عندها كان يبتسم بغبطة. لأول مرة في حياته تأتيه صور من هذا النوع متجسدة في الواقع. يسترخي على الكرسي رخي البال، وعلى شعور صغير بالفخر. وإلا لماذا هو مشرد؟ وتكون الغبطة حذرة مع ذلك: إذا ما عبر واحد من قليل السكان المقيمين حوله، انتهى النضال.

لذلك كان الليل لباساً. في الليل يجلس وراء النافذة ولا يبالي. يتذكر البدايات الصغيرة المتعثرة مع صديقه المثقف الثوري، مع أصحاب الرسائل الخاصة، مع رمضان وبديع، مع سخطه الشخصي الذي نما وتضخم حتى أوصله الى الصهاريج والتشرد. ويحس بطمأنينة رجل يعرف أنه على صواب، ويقف ولو متأخراً بوجه الخطأ الذي لم يستطع أجداده أن يصححوه. يتصور جوعاً حاشدة من نوع حبرية، تنهض وتنهض، تغني نشيد الخبز والحرية. ويهتف صوت في أعماقه: لن تبنى بعد الآن أهرام ولا أبراج بابل.

ثم انتهت المؤونة فانتهت النجوى. كان قد أمضى الساعات الأربع والعشرين الأخيرة دونما طعام سوى حبة بطاطا آثر أن يبقيها حتى الرمق الأخير. وبعد أن سلقها والتهمها، بحث في البيت عن شيء يتسربل به اتقاء

الريح والغيوم المنذرة. لم يطل بحثه. في أعماق الخزانة، وراء سد من الثياب القديم معظمها، كان معطف أبي أحمد منسدلاً على علاّقة خشبية. مخبأ تماماً، بغير ما ثغرة تشير الى وجوده. وتناوله ففوجىء أن الغبار قد تراكم عليه. ابتسم بابتسار. تردد برهة. ثم هز رأسه ساخراً: لبسه.

هبط الى المدينة. وبعد وداعه العجول لخولة، غذ المسير نحو بيته. كان ضوء الشمس يتلامح من وراء الجبال الشرقية. كان لا بد من المسير، رغم استنقاع التعب في ساقيه. في مثل هذا الوقت قبل ستين عاماً ـ قال لنفسه ـ كان أبو أحمد وزوجه وأولاده يعبرون هذه الطريق، وكانا قد تركا ولداً في مكان ما ليموت تحت المطر.

نفض رأسه اثر قشعريرة أرجفته. لا شك أن العتمة قد بثت فيه مزاجاً أربد، وجعلته يعيش معظم وقته مع الموتى. لكنه الآن بين حقول النور والطبيعة. انعطف يساراً، وسلك درباً صغيراً الى بيته. تباطأ إذ اقترب من البيت. وبعد قليل طاف حوله بانشراح غامر وقلب حزين. وصح توقعه. كانا غافيين، كل منهما ملتف ببطانية وظهره الى الجدار. لم يعرفها. لم يتبين ملامحها. انبطح بين سيقان الذرة وزحف. وبعد برهة رفع رأسه ونظر. تأمل أعينها المطبقة ووجهيها المسترخيين. وخطر له أنها سيفيقان بمعدتين مقرورتين من أرض غرقها المطر.

علت الشمس. كان عليه أن ينشد مخبأ ما. أشعل سيجارة وتسلل الى الخلف. ثم نهض ومشى. دخل الأشجار القريبة من البحر. هناك أحس بما يكفي من الأمن، وعضه الجوع.

لم يدر أن قدميه ستوصلانه الى ذلك الكوخ الذي كان متيناً ثم تداعى. فجأة رآه أمامه. وللتو حضرت في ذهنه ذكريات السنين التي تلت وفاة أم أحمد. يوم وجد نفسه منتهياً تماماً من القرية وغير متحمس للعيش في المدينة.

تلك كانت سنوات الخمول، قال لنفسه وهو يتفقد الكوخ بعينيه ويديه. كان مرتاحاً راحة وجود. وكان يكتب قصائد عامية رديئة ويمزقها، عارفاً أنها رديئة. وعاش في الكوخ ردحاً من الزمن، يغسل ثياب البواخر ويكويها، ويأكل وينام. ثم صار الكوخ عبئاً في الشتاء. صحيح أن خشبه اقتطع من شجر السنديان والجوز والبلوط، غير أنه كان أقدم من أن يصمد أمام لطمات الطبيعة الدؤوب. وتسلل اليه المطر والقيظ والجرذان والضباع بحرية أكبر من الحرية التي كان ساكنه يستمتع بها. وصار ضرورياً أن يبحث عن مسكن آخر فيه شيء من المدنية والأمن.

دخل الكوخ على مهل. كان ثمة جدار وشيء من السقف، ثم أخشاب هوت من طرف وبقيت عالقة بمسار صدىء، أو بأخشاب أخرى. تلفت حوله، متذكراً أنه مطارد وأن هذا الكوخ لن يحميه. لم يجد أحداً في البساتين المجاورة. اطمأن قليلاً، ونشب الجوع في معدته. وأحس بالإرهاق.

أراد أن يتمدد ويستريح. وخطر له أن بعض الأخشاب المتدلية يمكن أن يصير سريراً من نوع ما. وأسرع بتعب متزايد يدفع الحجارة ويراكمها قرب الجدران. غير أنه لم يستطع المتابعة. واكتفى بنقاط استناد غطاها بالألواح الجافة، واضطجع عليها كيفما اتفق.

أفاق عند الظهر، وفي أول لحظة وعي أحس بمقصات الجوع تفلح معدته وتشد على قلبه. نهض عن سريره ووقف حائراً. وسرعان ما تلاشت حيرته في دوخة باغتت رأسه، وخلطت صور الأعشاب والبساتين في عينيه. مد يداً يستند بها الى الجدار، وضغط بالأخرى على جبينه. وإذ استرد الرؤية تنفس، وعاد اليه الإحساس بديدان الجوع القارضة. كانت الشمس مشرقة والسماء صافية. لكن رعشة برد سرت في بدنه وهزته. ها هو ذا: مطارد وجائع، وبعيد عن زهرة والولديـن. وانشحن برهة بحزن كسير. ثم انقشع الحزن: طمأن نفسه أن حالته موقتة، وأن الأمور لا بد أن تعود الى طبيعتها. خرج. نظر حوله باسترابة، ولم يجد أحداً. وتشجع فمشى على

الدرب الضيق بين بستانين. ترنم بأغنية خطرت له. ووصل الى الطريق المسفلت عند شاليهات المدينة السياحية وكازينو الشاطىء الأزرق.

أربعة صبية كانوا يلعبون هناك. رأوه فتوقفوا. حملقوا اليه بأعين مستغربة ووجوه جامدة. ورأى هو شيئاً من الخوف في أجسادهم الصغيرة التي جمدت على آخر حركة لها لحظة ظهر. مد يده الى وجهه وشد على لحيته الحرجية. لم يعرف لماذا خافوا منه. وأبعد انعصار أحشائه كل اهتمام بجهال الطفولة أو خوفها. تقدم نحو الكازينو بأمل مبهم ضئيل. وأراحه دفء الشمس. سوى أن إحساساً مبهماً أيضاً وضئيلاً دفعه الى الالتفات. ابتسم مستغرباً: كان الصغار يتبعونه. توقف فتوقفوا. ومرة أخرى فرك لحيته بيده. ابتسم مرتبكاً وأطرق. أيكون شكله «غريباً» الى هذه الدرجة؟ تذكر الشيخ بهاء. وخطر له أن شكله ربما بدا موحشاً. عبث بشعره قليلاً ليسويه. وفوجىء بأقرب طفل اليه يخطو نحوه ويده ممدودة. مد يده غير قادر أن يخمن الحركة التالية. وفوجىء ثانية بالطفل يسقط في راحته قطعة نقدية ويولي هارباً.
نقدية ويولي هارباً.

ابتعد الأطفال فيما هو ينظر الى الليرة المعدنية بابتسام ووحشة. والتفت الى حيث كانوا، فرآهم مستندي الظهور الى جدار إحدى الشاليهات. صرخ بهم أنا لست متسولاً يا أولاد القحبة. لكن الصرخة ظلت حبيسة حلقه. استدار ووضع الليرة في جيبة معطف أبي أحمد.

حاول أن يبعد عن نفسه عكراً مزعجاً. ولم يجد أمامه غير أن يستأنف المسير. سار. بعد هنيهات وجد أن الليرة وجهت خطواته الحائرة نحو دكان شطائر تمنى أن يكون مفتوحاً. وكان.

تناول الشطيرة وقفل عائداً الى الكوخ. جلس على السرير وشرع يأكل. وبدأت عينا البائع المرتابتان تلمعان في خياله. وراحت أطرافه ترتعش. شيئاً فشيئاً تبدت له جسامة المغامرة. لو أن أحداً منهم رآه لاندفع الى اعتقاله بلا هوادة. وكان هو سيهرب. وكانوا سيطلقون النار. وربما كان مات. دون أن يرى زهرة والولدين للمرة الأخيرة. وتركها لمراوح القدر. مات. توقف عن الأكل. وجمدت اللقمة بين أسنانه. بجهد واضح لف بقية الشطيرة في ورقتها ودسها على خشبة ناتئة في الجدار. أشعل سيجارة.

يا للسخف. يموت في هذا العمر؟ مستحيل. حقاً أنه جبان. نظر خارج الكوخ: البساتين، والشمس، والتراب الغضاري الذي لم يكن غريباً قط.

نزل عن السرير وخرج. جلس على التراب، وسحب من سيجارته نفساً طويلاً. وبقيت نظراته ترود المكان، تتسلل عبر الفجوات الغامضة بين الأشجار.

أحضر الشطيرة وجلس على التراب. انقض عليها. وكانت القضمة ضخمة. لذلك راح يمضغها ببطء وكانت القضمة التالية صغيرة الى حد أنه لم يحس بها. وانتابه الضيق.

كانت الشمس تتغلغل في المعطف بدفء إنساني. هنيهات وإذا هو يسترخي بين أيدي التراب والشعاع والنسيم البحري. ماذا تفعل زهرة الآن؟ سأل نفسه فجأة. زهرة البطلة، الجميلة، العاشقة. الانسانة الحقيقية. والولدان؟ لقد طال الغياب. وهو لا يعرف متى يمكن أن يراهم.

مهما يكن، ما زالت الشمس ترسل ضوءاً دافئاً، والأشجار تهز قاماتها للريح. على نحو ما، ستنتهي الأمور كلها نهاية حسنة. هذه طبيعة الحياة. لا تطيق القبح. وإلا لما قامت الثورات ولا تجدد الانسان. وحملته صور متلاحقة لزهرة على مد من الفرح الداخلي الصافي. أيقن أن أوان العودة قريب، وأنه قريباً جداً سيحتضن بيديه قامتها الطويلة وشبابها النضير، وسيركب دراجته ويعود الى الشوارع، والميناء، وسيتلقى رشاويه الصغيرة؛ إن ما فعله سينظر اليه كعبث طائش لا يستحق التشرد، وسيترك للبحث عن الخبز والارز الى أن يتعب.

جر حجرة وأسند رأسه عليها. قال له أبو أحمد قبيل وفاته: أنت ماش على طريقك مثل النائم، وستظل نائماً حتى يأتيك الموت فلا تراه إلا في اللحظة الأخيرة. والحقيقة أنه ظل نائماً حتى تعرف بحسن الغفري. الوجه المأساوي أيقظه. كانت عزلة حسن وأولاده التي فرضها العالم عليهم شيئاً مناقضاً تماماً لعزلته الاختيارية. وراحت زهرة تنمو بين يديه وأمامه، وراح حس بالمأساة ينمو بين يديه وأمامه. أحس أنه سيفقد بلقائهم جزءاً من حريته وآخر من الطبيعة. لكنه رضي. وصارت له صحبة مثلثة.

انتفض عن الأرض جالساً. كان كلب أصهب واقفاً ينظر اليه بإمعان. هرش رأسه مطرقاً، وفرك عينيه. يا للبلاهة. ها هو يرتكب حماقة ثانية وينام في العراء.

دخل الى الكوخ، ولفحته البرودة. عليه أن يكون يقظاً. قبع على زاوية السرير منكمش النفس. عليه أن يكون يقظاً تماماً، أن يحسب لكل حركة حساباً على أساس أن أمنه مفقود. وتمدد على السرير.

في المساء ماج جوعه في أحشائه. أحس به إذ وجد نفسه عازفاً عن التدخين. بصق. أطفأ السيجارة بعناية ووضع بقيتها على الناتىء الخشبي.

ماذا يفعل؟

ربما طالت إقامته هنا، وهنا سيواجه حاجات الإنسان البدائية عاجزاً عن تلبيتها. أجل لم يتركوا ضمانة. تنفس واحد خارج هواء آسيا، وإذا الخبز والحرية في مهب الريح. من كان يظن أن عملاً أقرب الى الطيش ستصير له هذه الخطورة. مر شهر الآن. شهر فقط؟ والوضع كله سخف وغرابة. لم تبق إلا سجائر قليلة، ولا طعام. والبرد يشد على أصابع قدميه كأنه يسحب منها دماً. نظر الى ساعته. كانت تقترب من منتصف الليل. نهض وخرج.

سرى بين الأشجار المغتسلة. بعد قليل ثقل حذاؤه بكتل الوحل. مشى بخطى أبطأ.

رأى الشاليهات صامتة مثل القبور على سطح ذلك الجبل. نفض حذاءه. تلك هي شاليه عبسي، مغلقة بإحكام. وقف على الرصيف حائراً هادئاً. في الدقائق القليلة الماضية تطامن جوعه إذ خلق له السرى توقعاً مهدئاً. ولكن، توقع ماذا؟ لو أنه يستطيع بقفزة واحدة أن يحط في مطبخ الكازينو. شد ذراعيه على جانبيه وكوّر معطف أبي أحمد حول جسمه. وغذ الخطى غير منتبه الى المطر الهامي. سار في الدرب المفضي الى البحر عبر الشاليهات. نفذ من السور الشبكي، وتقدم بجواره.

وصل الى الجدار السميك العالي. وهبت على أنفه روائح قارصة من كوة شرّاقة المطبخ. كانت الكوة عالية. كيف خطر له أن هؤلاء يمكن أن يبنوا مطبخاً يستطيع اللصوص اقتحامه.

تلفت حوله يائساً. لو أحد يجيء ويناوله وجبة من نوع ما. لطمه الجوع بقوة أكبر، وتسلل اليه غضب ذليل. على مسافة مئتي متر شاهد كلاباً تتحرك حول جسم داكن في طرف المسبح الغربي. تفرس لحظات، وتبيّن برميل القمامة. اندفع بخطوتين. وقف. أهو يسعى الى البرميل؟ قبل ساعات شتم الأطفال الأربعة الذين ظنوه متسولاً. ولفت نظره كلب يرفع ساقه ويبول على الجدار. أشاح بوجهه.

كانت سقيفة الكازينو خالية تماماً ومظلمة. لكنه تأكد بطريقة ما أنه قد يلتقي عليها أحداً ما، واحداً من أصحاب الرسائل الخاصة في الميناء. سيجازف بأن يطلب منه مالاً، وليكن ما يكون. مشى. كان أحد الكلاب قد اعتلى البرميل، فيما الكلاب الأخرى تحوص حوله وتشمشم. كان كلباً ضخم الجثة، يوحي بقدرة مؤكدة على طرد أي كلب آخر ينافسه بالصعود الى البرميل.

مشى. وبعد ثوان وجد نفسه يتجه نحو البرميل. أدرك أن «أحداً ما» لم يكن سوى خدعة من عقله لعقله.

وفجأة انتبهت الكلاب. انطلقت نبحة تبعها نباح كثيف متصل. واتجهت الكلاب نحوه. واتجه نباحها المسعور الى أعمق نقطة خوف فيه. لنباح الكلاب دائماً هذه النبرة، له انفجار صغير غير أنه وحشي، يزدحم فيغرز الخوف بالضرورة. لكنه عرف أن الكلاب النابحة لا تعض.

طأطأ باحثاً عن حجر. توقفت الكلاب عن الهجوم وظلت تنبح. لم يجد حجراً. انتقل خطوتين، ثم خطوتين، ولا حجر. وظلت الكلاب تنبح. ربما لفت تحركه الانتباه، وربما النباح نفسه. تراجع الى جدار السقيفة. هجمت الكلاب. وقف. وقفت، وتابعت النباح.

أحس بخطوات تقترب، فجثا على الأرض. قد يكون «أحد ما». ولكن، لا. هذه المرة انشحن بخوف مختلف، خوف واع أكيد وليس غريزياً. من سيعتبره مجرد متسول في هذه الليلة الليلاء؟

توقف الصوت. وتوقف تنفسه.

الى جانبه سقط كيس قمامة أسود. وصدر الصوت من جديد، ولكن بتلاش تدريجي. واندفعت الكلاب نحوه. انتصب بقوة شرسة، ويداه تقبضان على حفنتي رمل، وقذفهما بوجه الكلاب. طأطأ فاغترف رملاً، وقذفه أيضاً. وعادت الكلاب الى برميلها. أنصت. نظر الى الكيس. لعله تلك الصرة الموعودة. خطا اليه وركع حوله. كان كيساً ضخماً، رخواً مثل كروش المنعمين. ولكن، مستحيل. لعله كيس قمامة. من يمد يده الى البصاق والمخاط؟ لن يمد يده. قد يأتي أحد ما، بعد كل شيء. بعضهم يحبون الليل، يستمتعون بالمطر والريح. بل ويطربهم وشيش البحر. لا بد أنه سيأتي. هؤلاء يلبسون ثياباً أنيقة وأحذية نظيفة. والذي يحب جمال الملبس يحب جمال الطبيعة. قد يجيء عاشق للجمال ويريح أحشاءه من هذا السغب الناشب كالكلاليب.

مر وقت. كانت الكلاب قد كفت عن النباح، بعد أن اطمأنت الى أنه لن ينافسها. ولكن، ماذا يضمن له أنها لن تنافسه؟ ولم يتحرك شيء في غيهب الليل إلا الريح والمطر.

مد يديه الى الكيس باشمئزاز أعمى وعجز تام عن الامتناع. مزقه وفرش عليه محتوياته. كانت القمامة خليطاً متنافراً من كسور الخبز وبقايا الأطعمة الخفيفة وعظام الدجاج، ابتلت كلها بسوائل من أنواع عديدة، واندست بينها أعقاب السجائر وقشور البزر والفستق الحلبي. وكانت رائحة خفيفة ولكن نكراء قد بدأت تفوح منها. وراح المطر يزيدها بللاً واختلاطاً.

ترك الكيس وقفل عائداً. عبر فجوة السور ووصل الى الشاليهات. على مسافة رأى شاليه عبسي، مظلمة كغيرها وموصدة. وخطر له خاطر مخيف: قد تكون أقدام الكلاب الآن بين محتويات كيسه. ركض عائداً. وصل، وركع الى جانب الكيس. لم يعر أي شيء أي اهتمام. كأن حواسه كلها قد تعطلت لتمنحه انصرافاً كاملاً الى نبش القمامة.

راح ينتشل كسرات الخبز. ثم لم يطق صبراً فأخذ يلتهمها. وعثرت يده بفخذ دجاج كامل. تناوله. مسحه جيداً بمعطف أبي أحمد. انقض عليه. هذه المرة لم يشغله كون القضمة ضخمة. واستغرقه الأكل استغراقاً لم يعهده من قبل ـ استغرقه بمتعة أخاذة ووعي مشبوب أنه يأكل، أن لعاب فمه قد تدفق كالجدول ومسام حنكيه قد اغتلت في احتكاكها بلحم الدجاج. وظل يأكل حتى تعرى العظم، وانفصلت عنه الغضاريف. كسر العظم، وامتص نقيه، ثم امتصه. وعادت يداه تجوسان في القمامة.

لم يستطع أن يلتقط شيئاً ذا قيمة. كانت بقايا الأطعمة مختلطة بالقذر بشكل يستحيل معه أكلها. وعثر على قطعة بندورة فالتهمها، وعلى قطع بطاطا مقلية فحشرها في فمه. وبعد ثوان اشمأزت نفسه، وأحس أنه شبع.

انتصب. وعاد بخفة، مخترقاً كوة السور والدرب الرملي. وانعطف شرقاً بين الشاليهات، ثم جنوباً. أشعل

سيجارة، وأخذ منها نفساً طويلاً. دوّم رأسه قليلاً. كانت الأشجار تقطر والأرض هاجعة. بدأ يترنم بأغنية شعبية، باستمتاع ووجد. وراح خياله يصوغ معانيها صوراً لزهرة وله، وللولدين. وإذ انتهت السيجارة، كور عقبها بين إصبعيه وقذفها في الفضاء.

كان معطف أبي أحمد قد تبلل. وفي الكوخ وقف حائراً: يبقى المعطف فيصاب بالحمى، أم يرميه فيعرض نفسه لما قد يكون أسوأ. جلس على السرير. سرت في بدنه قشعريرة عنيفة. رمى المعطف. تصور زهرة والولدين. من يشتري لهم الخبز؟ أحس بالبرد يتسلل اليه كالسم. لبس المعطف. تصورهم وهو معهم، والمجمر يشع دفئاً. احتقن صدغاه ومحجراه. كيف يتدبرون عيشهم؟

شداد السنديان، من أنت؟ قبل ساعة كنت تتضور جوعاً. هممت أن تشاطر الكلاب القمامة. جاءتك القمامة، وأكلتها. ومن قبل كنت تتكلم في مصير العالم وتمد لسانك مطية لاحتجاجاتك.

عليه الآن أن يقبع في هذا الكوخ المتداعي أربعاً وعشرين ساعة أخرى قبل أن يأكل. ستكون وجبة الغد أوفر، ففي ظهيرة الجمعة تكثر رياضة الأكل عند المنعمين. واقشعر بدنه.

بين صور زهرة والولدين، وخولة وكنعان، وبين القشعريرات المتزايدة النافذة، تراخى جسده. لم يدر متى أغفى. لكنه عندما أفاق، أحس أنه رازح تحت ثقل فظيع وجبينه يحترق. كانت الشمس ساطعة. تحرك عن السرير. رمى المعطف. خرج. نشره على خشبة. وعاد.

وسرعان ما اختلطت في ذهنه تلك القبور، والزهرة الأولى التي قطفها لزهرة، وهذه الغمائم الثقيلة العابرة في رأسه، وحسن الغفري، وعبسي، وكنعان، واسماعيل. أجل، اسماعيل. لا شك أنهم أخذوه. والعياء، وخولة. والوعي الأول بأن الحب سوار من الفرح. اتسع السوار وظل سواراً. اتسع، ودخل فيه الناس والمناشير..

لم يدر كم بقي مستلقياً على السرير الخشبي. تذكر أنه نهض وجرجر نفسه الى المعطف وتناوله وعاد. تذكر أنه أفاق غير مرة على صوت أنينه، أنه لم يكن نائماً حقاً بل متمدداً بين النوم واليقظة. نظر الى ساعته. رآها تشير الى السابعة وبضع دقائق. لم يصدقها. شيء ما في الصمت المطبق حوله أوحى له بالشك. وضعها على أذنه، ولم يسمع صوتاً.

كم يوماً بقيت الحمى؟ في أي يوم هو الآن؟ في أية ساعة؟ لم يعرف شيئاً سوى أنه في الليل. نظر الى المعطف والسرير الخشبي والمكان: بل في أي عالم؟ أية حياة؟ ربما مات وهو على هذه الحالة.

كان جسمه مهدوداً، ورأسه مشوشاً. تذكر أن خولة استلقت شهراً كاملاً على سرير أبيها الخشبي. كان سرير مرض أيضاً. وهو الآن مريض. وجائع ومشرد. يأكل مع الكلاب، ينام تحت المطر، لأنه لا يريد أن يتنازل. بعد خمسة آلاف عام من الحضارة.

هذا كله سخف. لا يصدقه عقل. نهض عن السرير بعزم. لن يموت على هذه الحالة. سقط. وعرف أن الحمى أنهكته أكثر مما تصور. الحمى والجوع. نهض على مهل. خرج. لطمته الريح المائجة وأوقفته. تناول عن الأرض غصناً يابساً واتكأ عليه. يظل السجن أقل همجية من التعفن كجيفة. يظل شيئاً من الحضارة. مشى بالسرعة الممكنة الى الشاليهات. ونفذ الى البحر، فالى البرميل. لم تكن ثمة كلاب. مشى دونما التفات. أمسك بالبرميل يحاول أن يقلبه. لم يستطع. آلمه ذراعاه. وقف محبطاً. تحير كم تكون الساعة. أسند ظهره الى البرميل وشد الى الخلف. تهزهز الاثنان، تزحزحا، سقطا.

مد عصاه وأزاح القمامة الى الخارج. اخترقت الرائحة الخانقة أنفه ووجهه. جثا ونظر حوله: حتى لو اشتبه به أحد فسيظنه كلباً؛ لن يخطر له أن إنساناً يمكن أن يوجد هنا. والأشياء الأخرى لا تهم.

لم يكن في القمامة شيء مجز. انتقى زوادة وحملها. وعاد. عند البركة الصغيرة وراء الكوخ، غسل الطعام جيداً: عنقا دجاجة وجانحان، شرحة لحم كاملة، كسرات خبز وفيرة. ولكن.. هذه الرائحة. حاول أن يأكل. حشر لقمة في فمه. وللتو بصقها. واقشعر جسده. أغمض عينيه وكشر متقززاً.

ماذا يفعل؟

لم يعد الأمر مزحة ثقيلة. لقد تجاوز كل التوقعات. هذا المرض، وأربع وعشرون ساعة أخرى بلا طعام، ويتمدد على الخشبات عاجزاً عن الحركة ويموت. غير معقول. كاريكاتير. ملامح متضخمة ومتقلصة، لكنها تثير الرعب لا الضحك. شيء كالكذب.

على أية حال، لا بد من العودة الى البيت. سيعرف كيف يتسلل، ويفاجئهم في نومهم. يعانقهم. يضمهم الى صدره. يشدهم اليه. وبعدها ليكن الطوفان. ليأخذوه جراً. ليقذفوه في غيهب السجن. فالكلب الحي خير من الأسد الميت، كما قال أحد الشعراء.

ربما كان أجداده على حق. لقد عرفوا الحقيقة. اكتفوا من الحياة بمجردها، لأنه لم يأت زمن استطاعوا فيه أن يجعلوا حقيقتهم أكثر من وجود عضوي. لم يستطيعوا أن يقولوا الكلمة ولا أن يفعلوا الفعل. والحياة أثمن من الكرامة، والشجاعة، والعدل، والحرية. لذلك حافظوا عليها. وهو الآن سيحافظ عليها، على الأقل الى حين تصير التضحية بها فعلاً مجدياً. وإلا فسيأخذونها منه قبل الأوان. ودون استشارته. ما الضمانة؟ بالطبع هو لن يموت. يا للسخف. المزحة الثقيلة ستنتهي، وستؤول الأمور الى طبيعتها. لا يمكن للحياة أن تكون قبيحة حتى الموت. سيعود الى البيت. وبعدئذ يفكر. في هذه العاصفة سيكونون مختبئين في لجوة ما، وسينفذ الى البيت دون أن يروه. طبعاً.

توجه نحو البيت. قاع الحياة الصلب. أن يكون للمرء بيت يأوي اليه. سيعلن انسحابه من كل شيء. ويوقع على أية ورقة. ستكون العودة لعباً من نوع عسكر وحرامية. وإذا حدث واكتشفوه، فلن يستكثروا عليه يومين يمضيهما مع عائلته، يومين فقط. بل وسيدعوهم الى وجبة. يعطيهم كلمة الشرف أنه سيكون طوع أمرهم بعد يومين. هو مجرد مواطن، لكن لديه حساً بالشرف، ويمكنهم أن يثقوا بكلمته.

مشى بين الأشجار ببطء الآيب المتعب. مشى متقياً الريح الغاضبة، متماسكاً ومبطئاً كلما دفعته الى الخلف وأوقفته. تلفلف جيداً بمعطف أبي أحمد. كان واثقاً أنه سيصل قبل طلوع الفجر. كانت البواخر قد هربت الى عرض البحر. وفي البعيد رأى بعين عقله نقطة غير مرئية، مربعاً من الأرض، فيه بيت طيني؛ وبعفوية غافلة توجهت خطواته نحوه. رآه يكبر وينتشر. ورآه مجاوراً، قريباً جداً، على بعد نقلة أو نقلتين. لم يره، ولكن كان بوسعه ان يشير اليه، ويقول: هو هناك في تلك الناحية، بعد بستانين أو ثلاثة، وحقل من قصب الذرة، وينأى عن الطريق العام خمسمئة متر، أو ما يقارب. فيه امرأة يحبها، وطفلان يحبهما، والسلام والراحة والحب. واحة - قد يخرجونه منها، لكنهم لم يخترقوا خطوط الحب والسلام فيها.

أمسك بجذع شجرة، ووقف مثقل الصدر. أحس أن ساقيه تضخمتا وفرغتا من الداخل. حتى لو عاد. حتى لو تركوه وشأنه. ما قيمة حياته؟ هزة صغيرة كالتي أصابته، وإذا هو يفقد كل ما ورثه وما اكتسبه. ما الضمانة؟

شداد السنديان، من أنت؟ فلاح؟ برجوازي صغير؟ مناضل مع وقف التنفيذ؟ انسان بلا طبقة؟ من أنت؟ لماذا لم تقبل بربع مليون ليرة؟ ماذا أردت أن تكون تحت سماء آسيا؟ ماذا قدرت أن تكون تحت سماء آسيا؟ هل أنت حقيقي؟

اجتاحه شعور بالعار أوقف كل حركة فيه. هو ليس بطلاً؛ لكن لا بد وأنه حقيقي. أيعود هذه العودة

المخزية؟ هز رأسه واستدار نحو الكوخ. تريث قليلاً ليرتاح. إذا وصل الى هناك فما العمل؟ سيصل خائراً، وقد لا يصل. وربما انهار في البستان ومات تعباً وبرداً وجوعاً. أو وجدوه عاجزاً عن الحركة، وسلموه. لا. الأفضل ان يسلم نفسه. وجلس: لا باتجاه التسليم يستطيع أن يمشي ولا الى التشرد.

كانت أصوات كلاب تعلو من بعيد. دخن سيجارة. دوّم رأسه. غلغل أصابعه في شعره. لا يمكن أن يظل في قلب العاصفة بجسد مهدود. وقف. مشى. يجب أن يبلغ البيت تحت جنح الظلام. استراح قليلاً عند كل شجرة، ومشى. هو ليس بطلاً. ولا قبل له بالتشرد. السجن أقل همجية من التعفن كجيفة. سيقبل بكل شيء. سيتنازل عن كل شيء. لن يبحث عن نفسه بعد الآن.

ولكن هل تقبل زهرة؟ ومض السؤال في خاطره كطلقة بندقية. هل ستستقبله على أساس أنه سيتخلى عن كل شيء ويقبل بكل شيء؟ وماذا يقول بديع؟ ومريم الصغيرة؟ وهذان الغائبان في زنزانة منذ عام ويزيد؟

جلس الى جذع شجرة وتلفلف بالمعطف جيداً. زهرة لن تقبل. مئة بالمئة لن تقبل. هذه التي انشوى وجدانها في التنور، ونضج. لم تعد فيه نقاط لينة. ابنة امرأة أفنت عمرها لكي تمسك بحقيقتها. امرأة تركت ميراثاً من القتل والخطيئة والقذر، ولم تندم. كانت قديسة، لأنها لم تكذب. وابنتها، الآجر المشوي، المعبد المقدس. كذبة واحدة، ويهوي الصرح. نسخة طبق الأصل. نظرة واحدة من عينيها، وتهوي على شرفه لطمة كالتي هوت على وجه خولة من يد عبد الجواد السنديان. نظرة واحدة. لن تقبل.

ماذا يفعل؟

قام. وشب في ساقيه التعب. إذا لم يعد الى البيت، إذا نجا اليوم، سيضطر كل يوم الى مصاولة الكلاب على القمامة. إذا عاد لن يصاول أبداً. سيصير كلباً. أمسك بجذع الشجرة. ثم لم يقو على الوقوف. هبط دفعة واحدة. رأسه بين يديه. ويداه على ركبتيه. لن تقبل زهرة، لن تقبل. وهو لا يقبل. وشهق بالبكاء. ها هو ذا: حر بلا حرية، ثاو في قلب الطبيعة ولا شيء طبيعي. الرجل الصغير، الحامل على كتفيه عبئاً لا تطيقه كتفاه. طول عمره يعرف أنه رجل صغير، يعرف أن شقاءات الرجل الصغير تتكرر منذ آلاف الأعوام، يعرف أن الذين مثله يحاولون تغيير ميراثهم فيقتلون أو يشردون، هؤلاء المنتشرون تحت سماء آسيا ــ لماذا حاول أصلاً أن يغير هذا الميراث؟ لماذا حاول أن يكون الشيء الذي أراد أن يكونه؟

رفع رأسه. لسعت العاصفة وجهه المبلل. هذه حياة مستحيلة. بلا زهرة ولا بيت. الحد الأدنى من العيش البشري. ألم تقل زهرة يوماً: لا أريد أن أربح مبادئي وأخسرك. ستقبل. ستقبل. يجب أن تقبل. هو لا يستطيع، لا يستطيع. هذه شروط الموت. لا شروط الحياة. وهو يريد الحياة. مشى. هو رجل صغير. آخر ما يمكن توقعه منه أن يكون بطلاً. وزهرة سوف تفهم. يجب أن تفهم.

ماذا يبقى منه إذا سلم نفسه؟ ماذا سيكون؟ أحس بالخزي. وتابع المسيرة غير متيقن من شيء، ولكن عازماً على رؤية زهرة بأي ثمن. زهرة الجميلة، الحقيقية، النظيفة. بوجودها سيطمئن الى وجوده. رغم أنه لن يكون له معنى. ولا كرامة.

لاحت له سيقان الذرة، ولاح له البيت. كانت الريح ما تزال تصده وترده، تعصف كأنها تطارد في الفضاء أشباحاً، مجرمين مطلوبين. وحسب أنه عندما يدخل القصب بعد قليل سيجد الريح مخارز. لكنه سيتحملها. وسيتحمل ثورة زهرة واحتقارها. ستكون ثورة عابرة، واحتقاراً موقتاً. وسيعطيهم كلمة الشرف أنه يسلم نفسه بعد يومين.

ورأى نفسه يندفع قدماً بما بقي فيه من قوة. هناك أيضاً جمال في الحياة، ولحظات سعادة كثيرة، وأمن وثقة. وهو لم يعش إلا قليلها بعد. ستبقى له تلك الحياة الجميلة.

وقف وراء حقل الذرة، وأرسل عينيه. كان البيت كتلة سوداء هامدة في سديم أسود من الليل. وكانت الريح تعصف حتى ليخيل للعين أنها تذر الليل في الفضاء.

مشى، متعباً ولكن مشى، وبقوة إضافية بثها البيت والسكون. كان البرد كاوياً. رغم معطف أبي أحمد، صار جسده قالباً من البرد. ابتسم. خفقت نفسه. ستكون زهرة الآن دافئة. سيذوب الجليد، والتشرد والتحدي الأجوف. ستبقى لمسة الانسان للانسان، وجودهما معاً. الانسان للانسان. وهو سيقبل بأن يبقى له فقط ذلك الوجود. يكفيه.

في منتصف الحقل طأطأ وزحف. بعد قليل رفع رأسه. كان البيت والسياج باديين للعيان. زحف أيضاً، ورفع رأسه. أهو نفسه الذي رآه قبل أيام، متكمكراً بمعطفه السميك، أم رجل صغير آخر؟ لا يهم. ما دام نائماً فسيقصد الجهة الأخرى. سيدخل من الشباك. مباشرة الى زهرة. تفرس جيداً ـ وللتو انبطح. كان زول آخر يخطو ببطء، وقد نكس رأسه داخل ياقة المعطف العالية.

اذن هو ما يزال مطلوباً. ارتد بحركة عفوية، وعاد أدراجه. يا للسخف. لا فائدة. كأنه إذا قبل، سيقبلون هم. يا للغباء. ابتعد بما يكفي لإشعال سيجارة بأمان. كأنه هو الذي يقرر. أو زهرة. قد لا يعطونه حتى فرصة للكلام. ربما خاف أحدهم، كما هو خائف الآن، وأرداه قتيلاً. أو ربما أراد أن يجرب براعته في الرمي وسط العاصفة. ومن هو حتى يعبر بين رجلين مسلحين يريدانه ويدخل البيت سالماً؟ جلس.

شداد السنديان، من أنت؟

دائماً يأخذ الأمور ببساطة. بسهولة. هذا السفر البطيء الذي استغرق ثلاثة وأربعين عاماً، لم يعلمه أن النوايا الطيبة ليست ضمانة، أن الحياة الزاخرة بالجمال زاخرة أيضاً بالشر.

ها هو البيت أمامه. على بعد أمتار. وزهرة داخلة. وبديع ومريم. سيعانقهم، بلا حركة، بلا نبسة. ويمنعهم عن أي صوت.

زحف الى اليسار. لأول مرة أحس بأن هذه الريح اللدود مفيدة. لقد طغت أصواتها على هسهسة سيقان الذرة. زحف وكمن. وبعد لحظات رأى الآخر يغيب وراء الجدار الغربي. وثب.

كان صوت الطلقة واضحاً رغم صوت الرياح. بل إنها عبرت فوق رأسه. تخشّب. لقد كانا انسانين حقيقيين ساعة عبر بهما صباح الخميس. تهاوى التماساً لبعض الراحة والأنفاس قبل أن يعود أدراجه. القمامة إجبارية. قد يقوم بينه وبينهما عشرون سوء تفاهم قبل أن يقوم تفاهم واحد، وفي كل منها نذير بالموت. وهو لا يريد أن يموت. القمامة أو الموت؟ القمامة. من أنت؟ انسان يريد الحياة. يحبها.

قال لنفسه إن أية حركة الآن ستكشف مكانه. أحس براحة كثيفة وقد فاتته الرصاصة وبقي على قيد الحياة. ليسلبوه كل شيء آخر. المهم أن يجد طريقاً خارج الموت. بعد حين، شهر أو شهرين، تعود الأمور الى طبيعتها، ويستأنف العيش مع زهرة. زهرة. زهرة. لا أريد أن أربح مبادئي وأخسرك. يا للانسانة العظيمة. يا للأم. الانسان، قبل كل شيء.

قبل أن يعود أرسل عينيه بين القصب. كان الرجل شكلاً أسود بطيئاً. غريب! كأنه لم يطلق رصاصة. ولا أحس بشيء غير عادي. كأنه لا يتوقع أحداً.

كل عمرك خامل يا شداد السنديان. كل عمرك خائف. هذا هو البيت. مئة متر. وزهرة فيه. وبديع ومريم. جرفه شوق ولد من نجاته من الموت. ترقرقت عيناه بالدمع. ولم يضيع وقتاً. ركض جاثياً. لم يدر من أين جاءته الشجاعة. كانت ركبتاه تصطكان، لكنه ركض. وعند آخر حقل الذرة انبطح. رأى الرجل يستدير

عائداً. وثب. نفذ عبر السياج. لم يهمه أن معطف أبي أحمد الخلق قد شقه قضيب علق بظهره. وصل الى النافذة. تلكأ: كيف يرفع جسده المنهك؟ استحثه الخطر. أمسك بحافة النافذة، ووثب.

لم ير شيئاً حتى وقفت قدماه على أرض غرفة النوم. وعندما وقفتا لم ير شيئاً. كان السرير خاوياً، والغرفة خاوية. مستحيل. طبعاً لا ينامون في غرفة شباكها مفتوح. لم يجرؤ على الحركة. ماذا إذا لم يكونوا في الداخل؟ قشعريرة ليست أقل من الرعب سرت في بدنه. نظر الى الباب الموارب ملجم الساقين والعقل. سرير فارغ وشباك مفتوح. ولا صوت. هل تركوا السرير بسبب البرد وتركوا الشباك مفتوحاً ليدخل؟ هذه زهرة. زهرة الجميلة. التي تنتظر عودته. التي تعرف أنه يراوغهم ويدخل من الشباك.

اندفع من الباب ثم مشى متمهلاً. ووقف جامداً مرة أخرى. كيف؟ زهرة لا تترك البيت. نظر الى النافذة البعيدة. كان رأس الآخر يعبر. انطرح على الحصير. لبث برهة لا يدري ماذا يفعل. إذن انتقلت الى بيت حسن الغفري. ونفر من جسده كل التعب المستنقع فيه.

أفاق قبل أن ينام. نظر حوله مذعوراً. كان الليل حالكاً والريح هائجة. أحس بشيء على وجهه. تلمسه. مادة دبقة. أم هو تأثير الحصير؟ جلس. على الحصير المعتمة تبين بقعة مدورة عرجاء أشد عتمة. التفت الى النافذة، ونهض الى المطبخ. وجد طنجرة رز صغيرة. تناول ملعقة، وبعد دقائق فرغت الطنجرة. انتابه الضيق. لعلها تركت الرز ليتناوله الولدان غداً. لا بأس، هو وضعه خاص. وغداً تجد الطنجرة لامعة ولا ضرورة لتنظيفها.

تذكر البقعة، وداخله هاجس ظل مبهماً بسبب خوفه من أن يكون حقيقياً. عاد الى البهو. نظر الى الشباك. جثا عند البقعة. شيء ما قد حدث، شيء أجبر زهرة على أن تترك البقعة ـ وزهرة حريصة على نظافة الحصير.

حتى تلك اللحظة لم يخطر له الموت. لكن خوفاً أغبر تسلل اليه وجمد الدم في عروقه. لم يعرف لماذا. انسحب الى غرفة النوم، ورأسه ملتفت نحو الشباك تارة ونحو البقعة تارة أخرى.

كأنه يهرب من شيء لم يدر كنهه. وعصفت به رغبة كالريح في الخارج أن ينير البيت ـ بالكهرباء، بالقنديل، وحتى بعود كبريت. منذ شهر ونيف، شهرين ربما، لم يلامس عينيه نور الكهرباء. نظر الى الزر اللامع في الجدار. تخيل الاثنين في الخارج.

ولكن أين زهرة؟ لسعه البرد. رمى معطف أبي أحمد ولبس معطفه. كان سربالاً سميكاً ذا ياقة عالية، اشترته زهرة من دكان ثياب مستعملة. التفت الى الشباك. الآن يمكنه أن يبحث عنهم في بيت حسن الغفري. وهذه البقعة؟ هل قتل أحد؟ من الذي قتل؟ لا يمكن أن يقتلوا امرأة. ولا طفلاً. فقط شيئاً من النور. يجب أن يعرف أي سر وراءها. مضى الى البهو. دقيقة نور واحدة فقط. وهذان اللذان في الخارج. كأنه سيقول لهما تعالا وخذاني.

شد عليه حس متناه بالضآلة: ماذا سيبقى اذا كانوا قد قتلوا زهرة؟ وومضت في خاطره تفاهة الموقف كله. حر بلا حرية، كما كان في الخارج، أو حرية وليس حراً، كما هو في الداخل: سيظل تافهاً. ماذا سيجدي أي شيء لو أن جريمة قتل قد حدثت؟ هربه واستسلامه: ما المغزى؟ في الحالتين، هو ليس أكثر من حشرة. ليس بطلاً، لأنه حشرة. ولكن من الذي قتل؟ دقيقة نور واحدة. حشرة. مستحيل أن تكون زهرة قد قتلت. زهرة لا تقتل. والولدان؟ لا شيء يستدعي قتلها. نصف دقيقة. حر بلا حرية، أو حرية وليس حراً. طالما أن هذين الاثنين موجودان سيظل حشرة. وهو لا يتمنى سوى أن يظل مجرد إنسان.

أدرك أنها أمنية مستحيلة. حشرة، ما دام الاثنان موجودين. داس على طرف السرير، وأمسكت يداه بحافة النافذة. نبح كلب في الخارج. كلب بعيد نوعاً ما. ورد عليه آخر، بعيد. وثالث ليس أبعد من بيت

حسن الغفري. خلال ثوان تغلغلت في العاصفة نباحات همجية مروعة. فحّت وقدحت كأنها تصدر من كل مكان.

توقفت يداه على الحافة. ما هذا؟ مدربة أو غير مدربة، لن يستطيع الخروج. ولكن زهرة؟ هي على الأقل يجب أن تبقى حية. هي الأقوى والأصدق. ستبث في بديع ومريم الحياة التي لم تبق لبديع ولا لمريم، وقد لا تبقى له.

الموت. لم يشم في البقعة رائحة الموت. لكنه الآن يدركها. أحد ما مات. داخل البيت. يجب أن يتأكد أنه ليس زهرة. وأنت ماش على طريقك مثل النائم، وستظل نائماً حتى يأتيك الموت فلا تراه إلا في اللحظة الأخيرة. والموت وصل. ليس فقط الفساد.

كلام فارغ. يموت، وليس هناك مجاعة أو حرب أو مرض! كلام فارغ، مستحيل وسخيف.

كان نباح الكلاب قد صار صفحة رصاصية مندغمة التصقت بأذنيه. أخرج رأسه قليلاً من النافذة. ولم يجد أحداً. يا لهذه الكلاب العجيبة. بدلاً من صياح الديكة.

أسند مرفقيه على حافة النافذة. راح يتأمل العاصفة. هل يبقى كما بقي أبوه؟ أم يخرج كما خرجت مريم؟ خطر له أن أباه آب من رحلة المطلق متعباً، واستقر في أرجوحة التوازن وتدبير الحال؛ بينما قفزت مريم من الأرجوحة ومضت نحو الأفق. الى أين يمضي هو؟ الى أين؟ ظل الموت يقرع جبهة أبيه حتى انفتحت وخرج منها يقينه المطلق. مريم خرجت وقرعت باب الموت ودخلت. أو حتم عليه هو أن يقبل بأنصاف الحلول أو يموت؟

على أية حال، هناك احتمال قوي بأن يموت. الذي أطلق رصاصة لمجرد الحذر، سيطلق رصاصة أخرى. وربما رصاصات، على زول يركض بين بيته وبيت حسن الغفري. كل شيء واضح الآن وهو لا يستطيع أن يبقى مع هذه البقعة، هذه الجريمة النائمة.

وثب. أثبت ركبتيه على حافة النافذة، ويده على إطارها. هبط على الأرض. ظل جاثياً. أصاخ السمع. الكلاب والعاصفة. زحف حتى الشجيرات والأزهار. تسلل حتى السياج. نفذ منه. مطأطئاً هرول باتجاه بيت حسن الغفري.

صوت ناحل جعدته الريح صرخ: «قف!» أحدهم كان يهرول نحوه. لم يعد ثمة مجال للتفكير. الفرار أو الموت. ركض. شق طريقه باتجاه أصوات الكلاب. كان يجب أن يصل الى حقل الذرة قبل أن يصلوا اليه. ركض غير مستتر. لم يملك سوى أن يركض. بكل قوته. ركض بساقيه ويديه. سمع صوت النار. لم يلتفت. أحس بهم وراءه. يوشكون أن يصلوا اليه. سيقتلونه مثلما قتلوها. سمع صوت النار، و «قف!» دخل في حقل الذرة. وصوت النار مرة ثالثة.

تغلغل بين القصب. وخطر له أن الحقل يسمح بالتفاتة. توانى. التفت. من بين القصب رآهما: شبحين قطعتهما طولاً سيقان الذرة، يخطوان بكسل وكأنهما يتحادثان. أسرع يخترق القصب. أحس بجمر في جذعه يلتهب بالنار، وحوله مساحة تلتهب بالجليد. الآن صار آمناً. يمكنه أن يهبط على الأرض. يرتاح ويسير. وهذا العياء الفظيع. الحرارة والبرودة.

بين القصبات الخضراء اضطجع. زهرة أين أنت يا زهرة. وهذا الوخز في الظهر. والممر الملتهب. امتدت يده الى ظهره. وعادت فوراً. مسح أصابعه بالتراب. مرغها. برعب وعنف. نفضها. نظر اليها. نفضها ثانية. زال تلطخها. تلفت حوله.

كان نباح الكلاب قد ازداد هياجاً وضراوة. لن تسكت. إذا بدأت لا تسكت. ولكن في هذه العاصفة؟ كل منها يريد أن يطلق النبحة الأخيرة. مهما يكن. عليه الآن أن يخرج من حقل الذرة.

تمدد على الارض. زحف بمرفقيه وركبتيه. يجب ألا يحسّوا بحركته. ويجب ألا تنتبه الكلاب لأنها ستنبههم. ويجب ألا يوقفه التثلج المغلغل في أطرافه. زحف أمتاراً. فقط لو يستطيع الركض. التفت. إذا كان بعيداً عنهم بما يكفي، فلن يبالي بالكلاب. سيركض. لم ير أحداً. بل لم ير البيت جيداً. كأن ضباباً قد انتشر حوله. أيقن أنه ابتعد بما فيه الكفاية. حاول أن ينهض ولم يستطع.

توقف عن الزحف. كان شيء آخر يزحف، يسيل، بين ظهره وقفاه. مد يداً مرعوبة ودسها داخل ثيابه. بسرعة أخرجها. ولم يستطع أن يرى. كأن الضباب قد انتشر حتى حول أصابعه.

لم يكن في حاجة الى أن يرى. عرف. هذا دم. والبقعة على الحصيرة، دم. وممر في جذعه ملتهب بالنار، ومساحة حوله ملتهبة بالجليد. لقد أصابوه. لكن هذا لن يهم. يجب أن يخرج من الحقل ليراه إنسان ما. وينقذه. أثبت مرفقيه في التراب وشد جذعه الى الأمام. في نهاية الحقل سيصرخ.. هذا الفجر متى سيطلع؟ عندما يطلع سيراه أحد الفلاحين، أو أحد العمال الماضين الى مستودعات البترول. المهم أن يصل الى نهاية الحقل. جرح صغير، لا خوف منه.

غير أن العياء أوقفه. وهذا الضباب الفظيع ـ كل ما في السماء من ريح عاصفة لا تستطيع ازالته؟ عاين ضيقاً مفاجئاً في الصدر. تنفس بعمق. لقد تعب. تنفس. لم يخف الضيق. لكأن رئتيه انفجرتا.

يجب أن يزحف. لا شك أن تلك هي نهاية الحقل. على بعد أمتار قليلة. أثبت مرفقيه في التراب وشد جذعه الى الأمام. لم يقدر أن يتابع. بقي مرفقاه مغروزين في التراب.

أهذا هو الموت؟ الدم يسيل. يجري. الضباب يزداد. أما آن للعمال والفلاحين أن يخرجوا؟ «يا ناس! يا عالم!» أنصت. لا جواب. إلا أصوات الكلاب المبتعدة. عجيب لم نبحت الكلاب في هذه العاصفة! قبضت يداه على قصبتي ذرة. «النجدة! يا ناس!؟» وراحت يداه تهزان القصبتين بغضب نافث.

تلفت حوله. ابتعد الضباب قليلاً وحل محله الظلام. شدت قبضتاه على القصبتين. انكسرت القصبتان. بسرعة مرعوبة أمسك بغيرهما. معقول؟ معقول؟ بهذه السرعة؟ بهذه البساطة؟ يموت وهو لم يعش بعد؟

لم تستطع يداه أن تجمدا الرعب. انفلت في جسده بحراً من الجليد الخانق. هذا هو الموت. حتى يداه لم تعودا يديه. «أنقذوني!» ولكن من سيسمع؟ لم يطلع الفجر بعد. ولم يطلع عامل ولا فلاح الى العمل. «هيّ!» أنصت. لا صوت الا العاصفة. «أنقذوني!» مع أن نباح الكلاب ابتعد. هذا الضباب ليس من السماء. إنه يخرج من عينيه! غير معقول. مهزلة. لا يموت الانسان هكذا. مهزلة. لم يشبع من الحياة. وزهرة. لم يحبها بما فيه الكفاية. حتى أنه لم يرها بما فيه الكفاية. والناس. يستحيل أن يتركهم الى الأبد. سيجيء وقت ويعانقهم. حتماً.

طعنه ألم في كل جسده. هوى جبينه على ساعده. وذلك الوقت سيجيء. سيجيء سيجيء. بالكاد. رآهم. بالكاد. أين أنتم الآن؟ أنا لم أفرح بكم. لم أحبكم كما أردت. كنت أنتظر المستقبل. يجب ألا أترككم. أوقفوا الموت عند حده. رفع رأسه. «النجدة! يا عالم! يا هو!» هوى جبينه على ساعده. أوقفوا هذا الألم العذاب أوقفوا الموت. ليس الجرح صغيراً. الدم! الدم! غطى الظهر والخاصرتين. يغور في الأرض.

رفع رأسه. أخذ يشهق ويبكي. أليس هو الذي تنبأ بنصف قرن من العنف؟

هوى رأسه على ساعده. يستحيل. يجب أن يوقفوا الموت. يجب أن يكون قانون ضد الموت. الطبيعة ضد الموت. اكتبوا قانوناً ضده. قوموا كلكم ضده. امنعوه.

شرعت يداه تهزان القصبتين. «أبعدوه!» هزتها. «أنا يحق لي أن أعيش.» هزتها الى الخلف والأمام. «لم يعطني الحياة أحد لكي يأخذها. هذا حقي. فوق الظروف والعلاقات. حق مطلق. تعالوا! وخلصوني. يا عالم! يا صاحب المسدس! اركض. انقذني من جريمتك. أنا أخطأت. من البداية ـ تساهلت. شداد السنديان، لم تكن في موقع ثابت. كنت أي شيء ولا شيء. يا ناس! يستحيل. يستحيل. مهزلة. لا أحد يموت هكذا.. والحياة؟»

انخلعت القصبتان. انغرزت يداه في التراب. لهث: «انقذوني!» اغترفت يداه التراب. «النجدة أنا أموت.» وضع التراب في فمه. كزّ عليه بأسنانه. «أمووووت.» لفظ التراب. حاول أن يزحف. لهث: «على الأقل ابقوا لي حياتي.» أمواج لا نهائية أخذت تدخل رأسه. تدخل جسده. أمواج زبدها في ثناياها. رفع رأسه. ما العمل؟ وخزة طولها متر، شلت ظهره. أمواج الزبد تدفقت. اخترقت جبينه وعينيه. عض على التراب. وعلى أصابعه. «انجدوني!» انغرزت أصابعه الأخرى في التراب. خرجت. بحثت عن قصبة. عض على التراب. أمسك بقصبة. تكلّبت أصابعه على القصبة. «اطلع يا فجر. يا عمال المستودعات ـ يا فلـ لاحين ـ أين ـ أنتم ـ انـ قذوني.»

همد. أحس بخفة متزايدة في الجسد، الى درجة اللاوزن. لكنه همد. كأنه لم يعد بوسعه أن يأمر الجسد فيطيع. أحس بثقل متزايد في الرأس، الى درجة الغيبوبة. انقشع الضباب. وبقيت الخفة والثقل. غيبوبة غريبة في يقظتها. وجسد بلا وزن. ورأس ثقيل. رفع رأسه قليلاً. نظر حوله. شاهد الذرة والفضاء. شاهد العاصفة تسوق الغيوم. لكن الرأس صار أثقل. وشيء ما ينسل من الجسد، من الصدر. يجعله خفيفاً خفيفاً. كأنه في اللحظة التالية سيطير. بل هو يطير. يبتعد. ربما. الى أين؟ زهرة. زهرة. سامح.

* * *

في اليوم الثامن بعد تشييع شداد خلت الشير من الجموع الحاشدة، التي لم يعرف أحد من أين نبعت ولا أين غارت. شيء أعاد الى خاطر الشيخ بهاء ذكرى دفن شيخ السنديان السادس، والشيخ عبد الجواد وبديع خضير. وفي صبيحة اليوم الثامن عاد عبسي الى اللاذقية مضطراً. كان يجب أن يسافر الى دمشق.

أفاقت خولة ذلك الصباح ولم تستعجل النهوض. ثوان وعاد الى وعيها كل شيء: شداد مات، عبسي سافر، واسماعيل ووجهه المشلول ومحمد علي وحبرية وفدوى وكلهم عادوا، وكنعان في السجن، وزهرة في مكان ما من الشير، وهي: متمددة على سرير أبيها الخشبي، وستتمدد ثلاثة شهور قبل أن يسمح لها الطبيب بالحركة.

قعدت وهمت بالنهوض. آلمها ظهرها. مسحت عينيها بكمها. أما آن لهذا الدمع أن يجف؟ قامت. تجولت في المنزل. كل شيء كما هو. الأسرّة، الكنبات، التلفزيون، الستائر، اللوحات، السجاد. كأنه لم يبت هنا ليلة واحدة. كان دائماً خفيف الحضور. مثل من يخشى أن يزعج أحداً في اللحظة التالية.

حيان سيأتي بعد الظهر. ترك دراسته وانصرف الى مراقبة زهرة. لكنه اضطر الى السفر ولم يقل السبب. أين زهرة الآن؟ في أول يوم، كان الجميع غافلين، وكانت طبيعية جداً. لكنه افتقدها. وقلب الشير رأساً على عقب. أخيراً وجدها عند الفجر، في التنور الوحيد الباقي منذ أيام طفولتها. بعدها لم تفعل شيئاً. كانت عاقلة وطبيعية. صمتت. لم يستطع أحد أن يجعلها تتكلم.

كان المنزل كئيباً الى درجة خانقة. كل ما فيه صار أشياء جامدة، بلا معنى، سوى سرير أبي أحمد الخشبي. الباقي أشياء جامدة، شهود على حياتها التي مضى ريعانها.

سيأتي حيان ويزيح الكنبات جانباً، ليضع السرير الخشبي في مكان مطل على الخارج. لا أثر. لا أثر له على الاطلاق. كأنه لم ينم في البيت.

خرجت الى الشرفة. عمداً تجنبت الالتفات الى سطح الجبل. كان النهر الكبير متمدداً عكراً. مياهه الرمادية

المعت بين التلال الداكنة وتحت ضوء الشمس. خمسة قبور الآن. أيوب وسليم الى جانب، أم أحمد وشداد الى جانب، وأبو أحمد في الوسط. هذه المرة لم يكن قطع الريحان من الوادي سلوى للنفس الحزينة. كان اعترافاً بالمأساة. بالعمر الضائع.

صارت الشرفة ضيقة أيضاً. حسن أن حيان سيأتي بعد الظهر. لو أن زهرة مذهولة لفُهم صمتها المطبق. عيناها تعيان كل شيء. لكنها بلا اهتمام. وهي لذلك مرعبة. مجرد حضورها رعب. لا يمكن تحمله. حيان فقط يفهم عليها.

نزلت الدرج الى الأرض. كم مرة قالت إنها ستزرع هذه المساحة الصغيرة بالأزهار والأشجار. أف! أما آن لهذا الدمع أن ينتهي؟ وصلت الى التخم. وجلست على التراب. مدت ساقيها بلا انتباه، ولامست قدماها الحافة الهاوية. تحت السفح الضيق تلوى الدرب القديم الهابط الى الوادي والصاعد بعدها الى المقبرة. تابعته بعينيها. هناك، بين الشعاب القصيرة، كانت زهرة تمشي الهوينى عائدة من المقبرة. وراءها، والى جانبيها، مشى أطفال كثيرون، بينهم بديع ومريم.

هذا هو المنظر المستحيل. لم يكن أحد من الاطفال يتطاول عليها. لا أحد يقول شيئاً. وهي ماشية أمامهم وتعرف أنهم معها. هذا هو البشير النذير. فوق طاقة البشر.

في الزمان القديم، في مثل هذا الوقت من كل عام، كانت الشير تخرج والقرى المجاورة الى الغابة للقاء عيد الزهور. هذه المرة خرجت لوداع شداد. أين هي الأعياد؟ الأبنية طوقت الغابة. أين هي المواسم؟

ربع قرن مضى قبل أن تعترف أنها أحبت اسماعيل السنديان. إذا كانت حقيقة جوهرية كهذه تختفي داخل الانسان كل هذه المدة قبل أن يمتلك الشجاعة على الاعتراف بها؛ فكم عاماً يجب أن تعيش كي تكتشف حقائق قلبها وحقائق الحياة؟ وإذا كان الفارس الأبيض يؤول الى هذا الحضيض الذي بلغه اسماعيل السنديان، فأي رمز تعلقت به إذن ولم يصل الى الحضيض؟ ماذا بقي؟

التفتت نحو النهر العكر. على السفح الضيق شاهدت أنواعاً لا حصر لها من الأزهار والنباتات. ودود الربيع أيضاً. وأيضاً ثلاثة جذوع من زهرة بخور مريم. بسرعة امتدت يدها، وبسرعة ارتدت. ما كان شداد ليقبل. يا لهذا الدمع الكاوي الذي لم يبق غيره. نحن أناس نحسن البكاء ولا نحسن الفرح. كم يهدر من عمر الانسان في هذا النمط من الحياة؟ كل هذه الأعوام، سبعة وأربعون، ولم تتعلم أن الزهرة تظل أجمل إذا لم تقطف. هي ليست عبقرية ولا مخترعة. ولكن ماذا لو أنها نمت في الحرية واكتملت؟ لو هذا الهدر لم يكن. لكان بوسعها أن تخيط ألف فستان زيادة، وترى ألف مكان آخر، وتحب ألف شيء آخر، وتشعر بألف فرح آخر.

أشاحت. يبدو أنه لن ينتهي. رأت زهرة على الأرض المجاورة. تمشي بهدوء بين الأعشاب والأشواك. كأنها مسافرة الى مكان بعيد وتريد أن تدخر طاقتها. الأطفال حولها يمشون بالطريقة نفسها. لا صوت. لا نشاز. تمشي ويتبعونها. الحب والهدوء ومدى من الولاء البريء. وهاتان العينان: تريان كل شيء ولكن بلا اهتمام. بل هناك اهتمام. هناك اهتمام. أوه - كيف تفسر هذا الوجه المحير. كأن جمال العالم وشقاءه قد تجمعا فيه. كأنه يقول نبوءة. ولكن ما الذي يبث الرعب في هذا المشهد الجميل؟

* * *

روايات للكاتب
من منشورات دار الآداب

- المهزومون

طبعة جديدة

- ألف ليلة وليلتان

طبعة جديدة

- الوباء

طبعة جديدة

- التلال

تصدر قريباً

دار الآداب
هاتف ٨٠٣٧٧٨ ـ ٨٦١٦٣٣
ص. ب ٤١٢٣ ـ ١١ بيروت

تصميم الغلاف:
نيكول برسودر